نَشْرِيَاتُ وَقْفِ الدِّيَانَةِ التُّرْكِي
رقم النشر ٧٦٦-١
نشريات إسام ٢٢٧
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٣٧

كشف الأسرار وهتك الأستار
يوسف بن هلال الصفدي

المجلد الرابع

تحقيق أ.د. بَهاء الدّين دَارْتْمَا

المراجعة أ.د. بَكر طُوبَالْ أُوغْلي

لقد تم إعداد كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أردال جَسار
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْماز، أوزخان أنْجَقَار
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآي
التصحيح (العربي) أوزخان أنْجَقَار، أوقَانْ قَدير يِلْماز
(التركي) عيسى قايا ألْبْ، إسماعيل أَزْيِلْكِين
التصميم علي حيدر أولُوصُويْ، حسن حسين جان (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر سماء دوغان

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجاي باش أوغْلُو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
رقم ١٨/٢٠١٨ وتاريخ ٢٠١٨/١٢/٢١.

الطبعة الأولى: إستانبول - بيروت، آذار ٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ
الطبعة الثالثة: أنقرة، أغسطس ٢٠٢٣م / ١٤٤٥هـ
ISBN 978-625-7672-69-6 (مجموعة)
978-625-7672-73-3 (المجلد الرابع)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

يوسف بن هلال الصفدي
كشف الأسرار وهتك الأستار / يوسف بن هلال الصفدي؛ التحقيق: بَهاء الدّين دَارْتْمَا. الطبعة الثالثة – إستانبول؛ أنقرة: مركز البحوث الإسلامية (إسام)؛ وقف الديانة التركي، ٢٠٢٣.
المجلد الرابع، ٦٥٨ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ٧٦٦-١. نشريات إسام؛ ٢٢٧.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٣٧)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الرابع) 978-625-7672-73-3 (مجموعة) ISBN 978-625-7672-69-6

فهرس المحتويات

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾

حمٓ، عٓسٓقٓ. أعلمَنا في هذه السورة أن، حمٓ، المكرَّرة هي مثل، عٓسٓقٓ، المتكرِّرة. فكانت، حمٓ، -وإن جمعتا دائما- هي مثلَ، عٓسٓقٓ، وإن كان كل حرف منها قد أتى مع غيره أو بمفرده؛ لأن العين أتت مع الخماسي[1] والسينَ مع الثلاثي والثنائي،[2] والقافَ وحدها. ولم يأت شيء من هؤلاء مع "ح"، أي إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد من جهة أنها أُسّ البيان الذي قامت به حجة الحق على الخلق في سائر الأزمان فيكون نظيرَ قوله: حمٓ، ثم قال: عٓسٓقٓ، زيد أخوك، أي في المبتدأ والخبر، ومعناه، حمٓ،[3] العين وأخواتها، والسين وأخواتها، والقاف وأخواتها التي هي أُسّ البيان في كل أمة وبكل لسان. فافهم ذلك، وإن كان[4] في بعضها اختلافٌ في الخط واللفظ فمرجعها كلها إلى شيء واحد في كونها مخارج نطقية الإنسان. ولهذا قال تعالى: **كذٰلك يوحى إليك**، أي في المستبقل دائما، **وإلى الذين من قبلك**، أي من سائر / الأنبياء المتقدمة. ولهذا كرر هذا بعد آيات فقال: وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ،[5] أي بهذه [٣٧٨و]
الحروف، قرآنا عربيا كما أوحينا إلى غيرك بها عبريا وغيرَه؛ كل رسول بلسان قومه. والفاعل في الجملة المتقدمة، **الله العزيز الحكيم**. فقوله فيما سيأتي: وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ، أي فيما تقدم ومضى.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾

له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وهو العلى العظيم، عليّ عما يقوله الكفار والمشركون وعما يتوهمه المتوهمون أو يدركه المتحققون، أو يتحقق به الذائقون المكاشفون، عظيم في ذاته من غير أن يعظّمه المعظمون.

---

١ حمٓ عٓسٓقٓ.

٢ طسٓمٓ وَ طسٓ.

٣ ش ن + هي.

٤ ش: إن كان.

٥ الآية ٧ من هذه السورة.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

ثم أضمر ههنا ما معناه أن الذي هو في هذا العلوّ والعظمة مع القدرة يجعلون له ولدا. فقدم ذكر المسبَّب على ذكر السبب لعظم هذا الذنب فقال: **تكاد السمٰوٰت يتفطرن**، كقوله: لَقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ، أي من أجل قولكم له. والمعنى تقارب أن تنفطر منه لعظم الافتراء والتجرّي على هذا العلي العظيم، فأشار بهذا الكلام إلى اللازم عنه مُضمِرا إيجازا واستغناءً بما ذكره في مثله مُظهرا. ودل على قوله هناك: أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا،[1] بقوله ههنا فيما سيأتي: وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ.[2] فتأنَّ جيدا لتفهم ما في هذه السورة من المقدر المحذوف الدال على المعاني المقصودة. وتأمل جيدا في الجمل وفي حكمة التقديم والتأخير والحذف والتكرير. واتخذْ لفهمك بالقرآن سبيلا. واجعل كلامي منبها ودليلا.

وقوله: **من فوقهن**، أي من الجهة العليا لا مما يلي الأرض. فالهاء والنون ضمير السماوات، ولا تَظنَّه[3] أضمر الأرضين، فإن الأرض لم تُجمع في مكان من القرآن، ولا يجوز أن تقدِّر ما لم يأت مثلُه فيكون الفرع مردودا إلى غير أصل. وإنما لمّا كانت السماوات ذات[4] جهتين من مُقعَّر ومُحدَّب أحدهما فوق والآخر أسفلُ جعل الانفطارَ من جهة فوقٍ لينزل العذاب من فوقهن على مَن تحتهن. فكأنه قال: تكاد السماوات يتفطرن[5] بنزول العذاب من فوقهن[6] على هؤلاء. ولعظم هذا الذنب جعل المكان البعيد يكاد يتفطر فكيف القريب. وقد تقدم في مثل هذا وذكر ما هو أسفل فقال: وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ [هَدًّا].[7] فلمّا خصص بالذكر هناك جهة السِّفْل ذكر ضده ههنا. ثم لمّا كان يوم القيامة لا بد أن تنفطر السماءُ، كقوله: إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ،[8] وقبل القيامة لا يكون انفطارٌ بل، **الملٰئكة يسبحون**، **ويستغفرون**، عرّفَنا أن هذا الانفطار يكاد أن يكون. **والملٰئكة يسبحون**، أي والحالة هذه قبل القيامة. فكأنه يقول: كادت تقوم قيامة القائلين

---

[1] ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ (سورة مريم، ١٩/٨٨-٩١).

[2] من الآية التالية.

[3] ن: لا تظنه.

[4] ن – ذات.

[5] ش ك: ينفطرن.

[6] ش – على من تحتهن فكأنه قال تكاد السماوات ينفطرن بنزول العذاب من فوقهن.

[7] سورة مريم، ١٩/٩٠.

[8] سورة الانفطار، ٨٢/١.

قبل أن تقوم الساعة. وعرّفنا ذلك بما ذكره عن الملائكة وتسبيحِهم، **بحمد ربهم**. وقوله: **ويستغفرون لمن فى الأرض**، أي يكاد أن يقع هذا العذاب مع كون الملائكة تستغفر، لأن في يوم القيامة لا يكون الاستغفارُ منهم لمن في الأرض، وَلَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ.[1] ثم قال: **ألا إن الله هو الغفور الرحيم**، أي فلولا ذلك لكان هذا الوعيد كائنا من أنه تنفطر السماوات بالعذاب النازل من فوقهن على الكافرين والملائكةُ على حالهم من التسبيح والاستغفار.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

ثم أظهر ما أضمره وأثبت ما حذفه من ذكر من يستحق ذلك فقال: **والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم**، المعنى أن الله غفور رحيم عما مضى من كفرهم وشركهم، إذ أمهل ولم يَعْجَلْ. ولكنه لا يغفر للمشركين به إذا ماتوا على كفرهم بل يحفظ عليهم ذنوبهم ويُحصيها ويجزيهم بها. ولا تَفهم أنه حفيظ لهم. فإن الله لا يحفظهم بل هو كالموكَّل على المحبوس يحفظه من الهرب ويَكُدّه بالتعب ويحفظ ما يبدو منه. **وما أنت عليهم بوكيل**.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

ثم عطف على قوله في أول السورة: كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ،[2] [قوله:] **وكذٰلك أوحينا**،[3] أي في الماضي، والأول بلفظ المستقبل ولكنه بمعنى المصدر، أي إنما أوحينا / **إليك**، وإلى [٣٧٨ظ] من قبلك كذلك. وكرر لفظ الوحي ليعطف عليه الموحَى وهو القرآن لما بَعُدَ الكلام الأول. فقول:[4] **وكذٰلك أوحينا إليك**، أي بهذه الحروف، **قرءانا عربيا لتنذر أم القرىٰ**، مكة، والمعنى مَن في أمّ القرى. وإنما كانت أُمّا لأن فيها أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ.[5] وهذا كقوله: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ.[6] وبينه بقوله: **ومن حولها وتنذر يوم**، بيوم، **الجمع لا ريب فيه**،

---

١ سورة الأنعام، ٦/١٥٨.

٢ الآية ٣ من هذه السورة.

٣ ش + إليك.

٤ جميع النسخ: فقوله.

٥ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٦).

٦ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٢).

وسماه يوم الجمع، لأنه يجمع البرَّ والفاجر والمؤمن والكافر، ثم قال ما يئول إليه الحال: **فريق فى الجنة وفريق فى السعير.**

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

ولو شاء الله لجعلهم أمة وٰحدة، في الدنيا إجبارا لهم، **ولٰكن يدخل من يشاء فى رحمته**، هذا إنباءٌ عن سعة القدرة والرحمة[1] ولكن لمن يشاء. ولا يدل هذا على سقوط الأعمال. ولهذا بعده: **والظٰلمون ما لهم من ولى ولا نصير.** فاحذر أن تَغلَط في مثل هذه المواضع كما غلط مَن لا يعلم واتخذها حجة فهي عليه لا له. وبيان ذلك أن المراد ههنا ليس ما يتعلق بالعبد من جهة العمل بل ما يتعلق بالرب من جهة القدرة والرحمة. فأما القدرة فقوله: **من يشاء**. وأما الرحمة فإنه إنباءٌ عن سعتها بحيث إنه لو شاء لرحم الكل بغير عمل. وفائدة هذا التعريف أن العاصي إذا علم أنه تعالى له أن يُدخل من لا يستحق الرحمة إن شاء عاد هذا طامعا أن يكون ممن يشاء الله. فلا ينقطع حسن ظنه بربه وإن اتصل سوءُ ظنه بنفسه لسوء عمله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

ولمّا قدم قوله: وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ،[2] نسق عليه [قوله:] **أم اتخذوا من دونه أولياء.** ثم قال بالفاء: **فالله هو الولىّ**، أي بالحقيقة لا باتخاذ المتخذين، وذكر ما يحقق ذلك بقوله: **وهو يحيِ الموتىٰ وهو علىٰ كل شيء قدير.**

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

ثم عرّفَنا في ضمن الكلام لهم ببقية الاحتجاج كلاما عامّا يجب أن تَفهمه وتَقِف معه، فلا تَمِل عنه ولا تَنْسَ واحذرْ إهماله واجعلْه نُصْبَ عينيك، وذلك قوله: **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله.** والمراد ههنا ما تقديره: لا لما اتخذتموهم أولياء، فافهم الكلام مطلقا فإن فيه مع التخصيص إطلاقا عامّا نافعا. ولمّا كان

---

[1] ن ك – والرحمة.

[2] الآية ٦ من هذه السورة.

الله تعالى قد بين كلَّ حكم لكل شيء يقع فيه اختلافٌ قال بعده: ذٰلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

فاطر السمٰوٰت والأرض. عرّفه بالقاصي ثم بالداني فقال: جعل لكم من أنفسكم أزوٰجا ومن الأنعٰم أزوٰجا، أي للأنعام[1] لإقامة المِثل المسخَّر لكم ذكرا وأنثى. يذرؤكم فيه، من الذرية. وقوله: فيه، أي فيما جعل لكم ويريد الذكور والإناث. أما الذكور فكقوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ.[2] وأما الإناث[3] فكقوله: يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ،[4] وقوله: كُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ،[5] يستعمل في الذكور والإناث. ثم قال: ليس كمثله شيء، المِثْل بتسكين الثاء والمَثَل بتحريكها وفتح الميم يعود إلى أصل واحد من جهة مماثلة الشيء بالشيء[6] غير أن المَثَل مِثْل بالقول كما تُضرب الأمثالُ قولا. والمِثْل مثل بالفعل كما توضَع التماثيلُ فعلا. فالمثلية تقال على[7] كلِّ متماثلين في ذات أو صفة أو قول أو فعل أو غير ذلك. والمماثلة تُعطي الشَّرِكَة فيما به كانت من جزء أو كل. ونفيُ مطلق المثلية يُعطي إطلاق الوحدة.

[التشبيه والتوحيد]

ولمّا كان الخالق قادرا على ما يقدر عليه المخلوق كان للمخلوق مماثل في قدرته. ولمّا اختص الخالق بما لا يقدر عليه المخلوق لم يكن له مماثل في قدرته. فالاشتراك في صفة المخلوق لا يلزم عنه شركٌ في ذات الخالق. فالمخلوق له شريكٌ والخالق لا شريكَ له. وسنوضح ذلك. ولفظة المِثْل / تقال أيضا وتراد بها[8] الصفة، [٣٧٩و]
كقوله تعالى: كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ،[9] أي كصفات اللؤلؤ ولا يريد أنهم مثل اللؤلؤ

١ ش: الأنعام.

٢ سورة الأعراف، ١٧٢/٧.

٣ ك – فكقوله... وأما الإناث، صح هـ.

٤ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ (سورة الزمر، ٦/٣٩).

٥ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٣/٧).

٦ ن – بالشيء.

٧ ن – على.

٨ ش ك: به.

٩ ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (سورة الواقعة، ٢٢/٥٦-٢٣).

في الصغر أو غيره بل في الصفة. فالكاف والمثل في هذه كالكاف والمثل في [قوله:] **ليس كمثله شيء**، ومعناهما كصفته.

ويحتمل أن يقال: إن لفظة المثل تُعطي المماثلة في كل، كقوله تعالى: فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ.[1] وحرف الكاف يُعطي المماثلة في جزء، كقوله تعالى: وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ،[2] نهاهم عن المماثلة في قول مّا. فإذا فهمت ذلك وأردت أن تَفهم معنى الجملة في قولك: ليس كمثل زيد عَمْروٌ،[3] فاجمع بين معنى اللفظين كما جمعت بين[4] اللفظين. فيكون المفهوم ما معناه ليس بين زيد وعمرو[5] مماثلة بوجه يُستدلّ عليه بدلالة جزئية ولا بدلالة كلية. فإن كان موضعَ عمرو شيئ كان ذلك من أبلغ التنزيه لزيد، لأن شيئا من أعم العموم.

وقد قيل: الكاف زائدة، وليس كذلك. وقيل: معنى "كمثله" مثلُ مثله. وسنبين ذلك القول وغيره في جملة أَثبتُّها لما رأيت من النفع فيما يتعلق بهذا المقصود ههنا وبما علمُه ضروري للإنسان. ولكني أوصيك أن تفهم جملةَ ما جمعته ههنا فهما جيدا. ولا تقطع بتصديق شيء منه ولا بتكذيبه إلى أن تستوعب الجميع فهْما وتُحيط بمقصودي منه علما. فما رأيته من باب التنزيه فاعرفه واعترف. وما رأيته من باب التشبيه فاحذفه ولا تَقِفْ. فإن من أوتي لفظا علميا، أو إدراكا عقليا، أو كشفا ذوقيا وغير ذلك فشبَّه الله به فهو من المشبهة. فافقه هذا كلَّ الفقه ولا تَنْسَه بل قيّدْه بقوله تعالى: يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ.[6] فكل مدرَك من وجه مّا فإنه لا يكون غيبا مطلقا. فاجعل هذا لك أصلا ترجع إليه ومبدأ لا تَصحّ معرفةٌ إلا بعد الاعتماد عليه. فمن عرف الله بالإيمان تكلم بالعقل[7] جيدا. ومن عرف الله بالعقل تكلم بالعقل فاسدا، وسنبين أخيرا كيف ذلك. واعلم أنه لا أضلَّ ممن[8] ضل بالعقل فهو من الراسخين في الجهل. فافقه جملة هذه الوصية محصلا، ثم تأمل ما قلتُه مفصلا.

قال: من يزعم أن معنى "كمثله": مثل مِثله؛ إنه[9] يحتمل أن المشركين لما اتخذوا ندًّا وجعلوه بزعمهم مثْلا لله سبحانه نفى الله عن نفسه أن يكون مثلا لذلك المثل

---

[1] سورة يونس، ١٠/١٠٢.
[2] سورة الأنفال، ٨/٢١.
[3] ن + فافهم.
[4] ن + معنى.
[5] ن: عمرو وزيد.
[6] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢-٣).
[7] ن: العقل.
[8] ش + أضل و.
[9] ن: إن.

أو لغيره من كل شيء يدّعي مدعٍ أنه مثل لله سبحانه باطنا أو ظاهرا. ويكون الإعراب بالرفع في قوله: شيءٌ، على إضمار مقدر معناه ليس الله مثل المثل الذي هو شيء من سائر الأشياء، لأنه تعالى مُشَيِّءُ الأشياء وليس كالأشياء. وهذا أبلغ من قولنا: لا يشبهه شيء. فإنك إذا نفيت المثلية نفيتَ الشيئية[١] ولا ينعكس بل يبقى كمذهب من يقول بالثاني. فهذا وإن كان معناه حسنا لأنه الواقع لكنه لا ينطبق على اللفظ، ففيه تعسف من جهة العربية. ولا شك أن ترك تقدير ما نستغني بالصريح من النص عن تقديره فيه أولى.

وقال آخر: إنه لما كان المجهول لا يُعلم إلا بمثال، وكان أعلى ما يستقر من الصفات في العقل منسوبا إلى الله كان ذلك مثالا معلوما للعقل يستدل به على المجهول الممثول. فعرّفَنا الله أن ذلك المستقِرّ في العقل ليس له مثلٌ. وذلك مدح للصفة يلزم عنه تنزيه الموصوف؛ تم[٢] كلامه. وإيضاحه أن المرآة جسم تستقر به أمثلة المحسوسات لا ذواتُها، والنفس مرآة تَستقر فيها أمثلة المعقولات لا ذواتها. فالعلم حصول صورة المعلوم في النفس لا ذاتِه وإلا للزم انتقاله، بل بمثال. فالمثل الذي لا تعلم نفس معلوما إلا بتصوره فيها ليس له مثل فليس / كمثله شيء. هذا مفهوم كلامه، [٣٧٩ظ] وهو أيضا ليس بشيء بل هو من المشبهة كما تقدم، لأن الله تعالى لا يمثَّل ولا تحيط به العقول، والشيء لا يمثَّل إلا بعد أن يُعرَف. والمعروف لا يحتاج عارفه إلى مثال كما يحتاج الجاهل به. والمثال محاط به والله تعالى لا تحيط به المعارف ولا له مثالٌ فيها ولا في نفس الأمر. فإذا أحاطت بمثاله له فيها فلا معنى للتشبيه[٣] إلا ذلك.

وقال بعض متفلسفة الإسلاميين ما قد[٤] حكيناه فيما سيأتي لنبطله، وحاكي الكفر ليبطله ليس بكافر؛ قال: إنه لما كان مَن له إطلاق العظمة لا أعظمَ منه انتفى أن يَخلق ما هو فوقه في العظمة. وإذا خلق ما هو دونه فليس ذلك بعظيم. وإنما العظيم مَن[٥] إن يَخلق مثله فلا يكون أعظم من هذا الخلق. ثم أشار إلى العقل الأول الفعّال، لأنه واحد صدَرَ عن واحد. قلنا: هذا أبعد ممن قبله وهو كفر مردود عقلا، إذ لو كان المخلوق مثلا لكان أزليا، ويستحيل أن يكون مخلوقا ويكون أزليا فقد انتفى أن يكون مثلا. ثم نقول: لا تصح المِثْلية بوجه لأنها تُعطي تناهي القدرة، والقدرة لا تتناهى ولا تنحصر.[٦]

---

١ ن: انتفت الشية.

٢ ش: ثم.

٣ ك ن: الشبيه.

٤ ش ك – قد.

٥ ك ن – من.

٦ ن: ولا تتحصر.

ولهذا كان الله سبحانه هو الخلّاق العلّام.[١] ولمّا لم يأت[٢] في اللغة رحّامٌ أغنى عنها رحمن. ولا شك أن العقل صفة للإنسان. وكل هذه الأقاويل من باب الخَرْص[٣] والبهتان.

[التشبيه وحديث «إن الله خلق آدم على صورته»]

والذي ينبغي أن تفهمه بعد ذلك كلّه أن نص التوراة إلى الآن ما هذا مقلوبه عربيا، وهو مذكور في ثلاثة مواضع قبل الخلق وحين الخلق وبعد الخلق. فالأول: وقال الله نصنع[٤] آدم بصورتنا كشبهنا، ويستولي على سمك البحر وطير السماء والبهائم وسائر الأرض وسائر ما دب عليها.[٥] وهذا في التوراة موضعَ قولِه تعالى في القرآن: إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً.[٦] فالمسمى في القرآن "خليفة" هو المسمى في التوراة "شبيها". والمسمى في القرآن "شيطانا" هو المسمى في التوراة[٧] "ثُعْبانا".[٨] ثم قال في موضع ثان: وبَرَأَ الله آدم بصورته بصورة الله برأه الله ذكرا وأنثى برأهما.[٩] وهذا صريح حديث في مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم في صورته».[١٠] ولمّا اشتبه في التوراة كرّره بعد قوله بصورته فقال: «بصورة الله برأه الله» لئلا يُظَنّ أن المعنى:[١١] إن الله خُلق آدم على صورته التي خلق عليها، أي لم يكن[١٢] علقة ثم مضغة،[١٣] بل على ما كان عليه. ثم قال في موضع ثالث بعد تمام الخلق: هذا كتاب ميلاد آدم[١٤]

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سورة الحجر، ٨٦/١٥). وانظر أيضا: سورة يٰس، ٨١/٣٦.

٢ ن – ولما يأت.

٣ ن: الحرص.

٤ ن: نضع.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خَلَقه. ذكرا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: «أثمِروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (التكوين ٢٥/١-٢٨).

٦ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة، ٣٠/٢).

٧ ك – في التوراة، صح هـ.

٨ انظر لمعرفة المزيد: التكوين ١/٣-٤.

٩ «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم» (التكوين ٢٧/١).

١٠ صحيح مسلم، البر ١١٥، والجنة ٢٨.

١١ ك: لئلا يظن المعنى.

١٢ ك ن: لم تكن. | لم يكن: أي آدم.

١٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢). وانظر أيضا: سورة المؤمنون، ١٤/٢٣.

١٤ ك ن – آدم.

يومَ برأ الله آدم كصفة الله صَنَعه ذكرا وأنثى خَلَقهما. وعاش آدم ثلاثين ومائة سنة. وأولد بصورته كشبهه وسماه شيث بإمالة الشين ومَدَّها كأن[1] بعدها الفاءُ.[2] وعاش آدم تسعمائة سنة وثلاثين سنة ومات.[3] هذا آخر ما في التوراة. فبين أخيرا أن الشبه والصورة وغير ذلك إنما هو في الصفة لا في الذات. وهنا هو الإشكال. فلمّا وقعت الشبهة بذكر الشبيه في التوراة ولم يكن ذلك مما نُسخ لكون الحديث مصدِّقا لها ظن بعض الظانين أن المراد بالمثل آدم وأنه[4] ليس مثل آدم شيء. وهذا فاسد كما قبله، لأن الكلام في قوله: **ليس كمثله شيء**، عائد على الله وحده كما نبين. ومعنى "ليس كمثله" ليس كصفته كما قدمنا. وأخِّر "شيء" في الذكر للاهتمام بسلب صفة الله عما سواه. وإنما قال: **ليس كمثله**، ولم يقل: كصفته، أعني بهذا اللفظ بعينه وذلك ليسلب مطلق المثلية في الصفات، أو في الذات، أو فيهما معا عن كل شيء سوى الله تعالى.

فإن قلت: قد بينت صحة ما في التوراة من أن الله تعالى خلق آدم شبها ومثلا واستشهدت بالحديث الصحيح والأدلة عقلا، وبينت / أنها[5] المماثلة في الصفات لا [٣٨٠و] في الذات، ثم نفيت الجميع ونقضته بما ههنا قلته من تفسير قوله تعالى: **ليس كمثله شيء**، فهذا غاية التنزيه وذلك غاية التشبيه.

فالجواب اعلم أنه تعالى لمّا قدم في أول السورة، تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ،[6] وأضمر [في سورة مريم] ما معناه أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا،[7] لكنه[8] أظهره في موضع آخر، ولكونه[9] أتبعه ههنا بقوله: وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ،[10] إعلاما أنه، تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ، بالعذاب النازل، مِن فَوۡقِهِنَّ،[11] على من جعل لله ولدا أو اتخذ[12] من دونه وليّا ربّا؛[13] فلمّا قدم ذلك تحقق أن الخطاب للمشركين، وبين ذلك بقوله: لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا.[14]

---

[1] ن: وكأن.

[2] ك: الفا.

[3] لعل المؤلف رحمه الله اختصره مما ورد في التوراة: «وعاش آدم مائة وثلاثين سنة، وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا. وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثماني مائة سنة، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة، ومات» (التكوين ٥/٣-٥).

[4] ش ن – أنه؛ ك – أنه، صح هـ.

[5] ك ن: أن.

[6] الآية ٥ من هذه السورة.

[7] ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ (سورة مريم، ١٩/٩٠-٩١).

[8] ش: لكونه.

[9] ك ن: ولكنه.

[10] الآية ٦ من هذه السورة.

[11] الآية ٥ من هذه السورة.

[12] ن: واتخذ.

[13] ك ن – ربا.

[14] الآية ٧ من هذه السورة.

ثم كرر ذكر الأولياء بقوله: أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ، بمعنى أولياء أربابا وإلا فالأولياء من المؤمنين يجوز اتخاذهم. ولهذا قال بعده: فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ،[١] أي لا ما اتخذه المشركون أربابا. ولهذا بعده:[٢] ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي.[٣] ثم[٤] ذكر أنه هو، فاطر السمٰوٰت، وهو الذي يذرأ الذرية من الناس والأنعام. فلمّا قدم هذا جميعه قال بعده: ليس، كصفته، شيء، بمعنى ليس شيء ربا يفعل هذه الأفعالَ، أي لا ولد ولا وليَّ ولا ربَّ كذلك إلا الله. وهذا لا يمنع أن يكون الرب قادرا على أن يخلق عبدا فيصفه بما وصف به نفسه، كما وصف[٥] نفسه سبحانه بأنه رؤوف رحيم، وخَلَق محمدا عليه السلام، بالمؤمنين رءوفا رحيما،[٦] وكقوله ههنا: وهو السميع البصير. وقال تعالى: إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا.[٧] ولا يقال: إن السمع والبصر، إنما هو بالحقيقة لله وينطلق على الإنسان مجازا، بل يقال: إن الله خلق محمدا بالمؤمنين رءوفا رحيما[٨] بالحقيقة، ولكنه مخلوق لا خالق، وإن الله تعالى يخلق الحقيقة والمجاز وكلَّ شيء. ولا يلزم أن يكون المخلوق[٩] خالقا لكون الله تعالى خلق له صفة كصفته وذاتا تبقى في الآخرة ببقائه سبحانه. فعاد معنى قوله: ليس كمثله شيء،[١٠] ربا يحيي الموتى.

فاطرُ السمٰوٰت والأرض، يذرأ الذرية. فهذه الصفات ليست من صفات المخلوق كان ما كان. فليس شيء كصفته سبحانه فيما هو به[١١] رب، ولَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ[١٢] من صفة كلِّ عبد فيما هو به عبد. فلا تصح عبادة غيره، إذ لا صفة كصفته. ولا يلزم من هذا أنه لم يخلق عبدا سميعا بصيرا لكونه سبحانه ربا سميعا بصيرا. فالمماثلة فيما به الاشتراك من الصفات للمخلوق. وسلب المماثلة هو فيما به الانفراد من الصفات للخالق وهو المراد ههنا. والاشتراك لا يلزم عنه شِرْكٌ بل شركة من الخالق للمخلوق فيما هو به مخلوق، لا شركةٌ من المخلوق للخالق فيما هو به خالق جل وعلا، لأنه يقدر على ما عليه يقدرون ويعلم ما يعلمون، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ،[١٣] كما بيناه في موضعه.

---

١ الآية ٩ من هذه السورة.

٢ ك + وهو يحيي الموتىٰ.

٣ الآية ١٠ من هذه السورة.

٤ ش ك – ثم.

٥ ك ن: كما وصفه.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة التوبة، ١٢٨/٩).

٧ سورة الإنسان، ٢/٧٦.

٨ ن: رؤوف رحيم.

٩ ك – المخلوق، صح هـ.

١٠ ك ن + أي.

١١ ن – به.

١٢ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ (سورة الحشر، ٢٤/٥٩).

١٣ سورة البقرة، ٢٥٥/٢.

فلمّا ذكر ههنا صفات الربوبية من قبلِ ومن بعدُ جعلها بمنزلة صفة واحدة. وذكر الموصوف بقوله: ليس كثمله شيء، والمراد ليس شيء له صفة كصفة هذا الرب سبحانه حتى يستحق أن يُعبد معه. فكيف يتخذ هؤلاء أولياء من دونه. وإذ قد تقرر هذا في فهمك وانحلّ لك ما أَشكل عليك في وهمك فألقِ سمعك إلى ما أقوله لك بكل همّك.

* * *

اعلم أنه ليس في قوة الحكمة أن تُخرج من الشيء غير ما فيه بل أحسن ما فيه. وأحسن ما في الأكوان ذات الإنسان، وأحسن ما في ذوات الخلق ذات يستقر بها تعظيم الحق بذوقه علما ووَجْدا يُثبته العقل ويشهد بصحته[1] الوحيُ، وهذا هو القرب. ولمّا كانت معرفة الله تعالى غاية المطالب ولا تكون إلا بحسب الطالب وإن كانت من وهب الواهب كان الكلام في هذا[2] المقام ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ذات وصفات ومبدَعات. فالذات عَلِيّة عن المعارف،[3] والاعتراف بالعجز عن معرفتها غاية / معرفة [٣٨٠ظ]
العارف، فمعتقِدٌ فهما معتقد وَهْما، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا.[4] وأما الصفات فقديمة للذات وهي غير ما شاركت في التسمية به المحدثات، فالمحدَث لا يتّصف بصفة القديم وإن سمي بذلك من أجل التفهيم، وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ.[5] وأما المبدَعات فهي إعلام الأعلام وبها إفهام الأفهام. وكلها آيات القدرة وألسن الرحمة. فأكبرها صورة السماء، وأشرفها العبد المتصف بالأسماء. فيَستدل بصفاته على شرف الصفات فيوحدها، وبالصفات على عظم الذات فيعبدها. فعلى هذه القاعدة نبني[6] ما نقول[7] بعد الاستشهاد بالوحي والاستدلال بالعقول. وذلك أنه من البيّن أن القسمة العقلية تقضي في حصر ما نبينه من الكلام بأربعة أقسام. فالأول ما لا أول له ولا آخر؛ والثاني ما له أول وآخر؛ والثالث ما له أول بلا آخر؛ والرابع ما لا أول له وله آخر.[8] فالواحد الأولى هو الأحد الأزلي، والثاني هو الجسم الفاني، والثالث هو الإنسان الباقي، والرابع محالٌ ذُكر في القسمة لينفى لا ليثبت. وإذًا الوحي أيّد العقل، إذ قال: عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ،[9]

---

١ ش ك: بصحة.
٢ ك: من هذا. وفي هامش ك: في.
٣ ك: من المعارف.
٤ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (سورة طه، ٢٠/١١٠).
٥ سورة يوسف، ١٢/٧٦.
٦ ن: تبنى.
٧ ك ن: ما تقول.
٨ ن: أول له ولا آخر.
٩ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ (سورة هود، ١١/١٠٨).

وقال: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ.[1] فلا غَرْوَ أن يقال: إن الإنسان بأوله قد ماثل الجسم الفاني، وبآخره[2] قد ماثل الرب الباقي. وتكون المماثلة في البقاء الأبدي والدوام السرمدي مع اعتراف العبد بأنه باقٍ بربه أبدا [و]فانٍ بنفسه أزلا. وإن الرب تعالى باق بنفسه أبدا وأزلا.

وقد أطلقت الشرائع على العبد بعض أسماء الرب كالسميع والبصير والقويّ والرحيم. ولا يلزم مِن اشتراك الصفات اتحادُ الذات. فعادت المماثلة في صفة البقاء وفيما أحطنا به علما من هذه الأسماء، ولا يلزم أن تكون في سائر الأشياء، أو في خلق الأرض والسماء، أو في القدرة على الإبداع والإبداء.[3] وفهمنا من قوله: «إن الله خلق آدم على صورته»،[4] وقولِه: «على صورة الرحمن»[5] ما أُنزل به القرآن من الأسماء المُنطَلِقَةِ على الإنسان لا ما تختص به الربوبية مما لا تتصوره الأذهانُ ولا يُشهَد به إلا بالإيمان.[6] وإذ قد ثبت ما قضت به الشرائع وحيا والثقاتُ نقلا فلنُثبت ما لزم إثباته من تعظيم الحق في أفهام الخلق عقلا. فنقول: ما تشهد به العقول أنه لمّا لزم تعالي الذات وتنزيهُ الصفات ولم يبق إلا الاستدلال بالمبدَعات، وأشرفها العبد المتَّصف المعترف وجب أن يستدل به على بارئه، فيلازم قلبه ليعرف نفسه. ومن عرف نفسه فقد عرف ربه. فأول ملازمة القلب التأدب بآداب الرب وهي ما جاءت به الرسل وأنارت[7] السبل. وأول معرفة النفس اعترافُها بدليل من العقل أن لها الحدث والجهلَ. وأولُ معرفة الرب معرفة عظمة النفس وتمكُّنِها من الظلم لإياها والاتصاف بما مُكّنت من الاتصاف به من صفات مولاها، فترقى بالاجتناب والاعتراف كما ترقّى بالاكتساب والاتصاف، وأن سائر العظائم منسوبة إليها، وجملة المعارف مقصورة عليها. وكلما ازدادت معرفةً بما فيها زاد إيمانُها ببارئها، ولا يُحَدّ عرفانها فلا يتناهى إيمانها.[8] وهذا الإيمان هو المسمى معرفة الله.[9] وإليه أشرنا أولا بقولنا: من عرف الله بالإيمان تكلم بالعقل جيدا، ومن عرفه بالعقل[10] تكلم بالعقل[11] فاسدا. وإذ[12] قد ثبت شرف الإنسان

---

[1] ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (سورة الدخان، ٥٦/٤٤).

[2] ن: ويآخر.

[3] ش ك: الإبداء والإبداع.

[4] صحيح مسلم، البر ١١٥، والجنة ٢٨.

[5] عن عطاء عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن تعالى» (المعجم الكبير للطبراني، ٤٣٠/١٢).

[6] ن – به.

[7] ك + به.

[8] ن – إيمانها.

[9] ك – الله، صح هـ.

[10] ش – بالعقل.

[11] ك – تكلم بالعقل، صح هـ.

[12] ك ن: وإذا.

وتعالى الله عما تتصوره الأذهان فقد عاد لفظ الحديث ونص التوراة مقصورا على ما يَعلمه المخلوق من صفاته المحدَثة التي تُماثل الصفات القديمة في فهم الإنسان لا في حقيقة الأمر. فخاطب الله الخلق على قدر ما أعطاهم من الأفهام، وتم الأمرُ والسلام. وصار ذكرُ المِثْل عبارةً عن غاية التشريف والتفهيم، وسلبُ المثلية إشارة إلى / نهاية [٣٨١و] التنزيه والتعظيم، لنعلم أن معارف العارفين بأسرهم إنما هي بحسبهم لا بحسبه سبحانه. فلم يبق إلا الإيمان بالغيب أخيرا عقلا. وذلك عينُ ما جاءت به[١] النبوة[٢] أولا وحيا.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾

ولمّا وجب الإقرار بأن الله تعالى هو الباطن الذي علا عن العقول حتى عاد غنيا مطلقا بذاته وصفاته، وهو الظاهر الذي دنا إلى الفِطَر حتى عاد عينا محقَّقا بسائر مبدَعاته، وكان قوله: وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ[٣] من الأسماء المشتركة بينه وبين العباد قال بعده ما به يتفرد عن مماثلة الأنداد: **له مقاليد السمٰوٰت والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم.**

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾

شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحا؛ وقوله: **والذى أوحينا إليك**، ذكر نوحا لأنه آدم الثاني بما أنجاه الله من الطوفان، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الآخر. فكأنه قال: بيّن لكم من الدين من نوح إلى الذي أوحينا إليك. ثم ذكر أصحاب الشرائع وهو ما جاء بينهما فقال: **وما وصينا به إبرٰهيم وموسىٰ وعيسىٰ**. ثم عرّفنا أن ذلك الذي شرع ووصّى جميعَه شيءٌ واحد وهو، **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**. العالَم أمة واحدة والدين عبارة عن امتثال الأمر في كل[٤] زمن بحسب نبي ذلك الزمن. وعلى هذا

[١] ن - به.
[٢] ك ن: بالنبوة.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ن - كل.

أخذ الله الميثاق من النبيين،[1] بقوله: ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ.[2] ثم قال مخاطبا للنبي صلى الله عليه وسلم: **كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه**، أي عظم عليهم اتّباعُ ما تدعوهم من هذه الوصية التي قد جاء بها مَن قبلك من الأنبياء. ثم قال تعالى ما معناه: إذا كان الأمر لله فما بال هؤلاء يعارضونه ويعرضون عنه. **الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب**. فالاجتباء[3] للأنبياء والهداية لمن دونهم، يهديهم بإيمانهم،[4] وإنابتهم.[5] ولمّا ذكر أن الهداية للمنيبين علمنا أن الإنابة لا تكون إلا ممن قد هُدي أولا وقد[6] زاغ ثم أناب. فالأنبياء هداهم [الله] كما هدى غيرهم، كقوله: وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ.[7] فمن حيث هداهم لم يرجعوا إلى زيغ.[8] وأما غيرهم فإنه هداه فزاغ.[9] فإن أناب قبله وهداه وإن لم يُنب أبقاه على حاله. وهذا هو معنى قوله: كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ،[10] الآيات فافهمها. ولهذا عرّفنا أن الإنابة ممن أناب منهم إنما كانت بعد مجيء البينات بالكتب والرسل. فأناب البعض وبقي البعض بغيا[11] بعد تحقق البينة فقال: **وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**، أي العلم بالحق الذي يجب اتباعه ولكنهم تفرقوا، **بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك**، إنه يؤخرهم، **إلى أجل مسمى لقضى بينهم**، بما يستحقونه الآن. وليس الأجل ههنا الموت بل الأجلَ الذي يُقضى فيه بين العباد وهو القيامة. **وإن الذين أورثوا الكتٰب من بعدهم**، وهم أبناء اليهود والنصارى لا الأعراب لقوله: **أورثوا**، **لفى شك منه**، من الإيمان به وتصديقه، بل قلدوا الآباء، وأما من قبلهم من الآباء فلم يكونوا في شك بل جاءهم العلم فاختلفوا بغيا بينهم، وأما هؤلاء ففي شك منه[12] **مريبٍ**، أي من الكتاب الموروث وهو التوراة. ولو لم يكونوا في شك لآمنوا بالقرآن، لأن الإيمان به من جملة وصايا التوراة إلى الآن.

---

[1] ك – النبيين، صح هـ.

[2] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

[3] ك ن: فالاجتناب.

[4] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ (سورة يونس، ٩/١٠).

[5] ن – وإنابتهم.

[6] ش – قد.

[7] سورة الضحى، ٧/٩٣.

[8] ش: إلى زيغ لم يرجعوا.

[9] ك ن: فراغ.

[10] ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٨٦/٣). وانظر ما بعدها.

[11] ش: نصا؛ ك – بغيا، صح هـ.

[12] ن – منه.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

ثم قال للنبي عليه السلام: **فلذٰلك فادع**، أي إلى ذلك الذي وصينا به الأنبياء وهو قوله: أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ.[١] وقوله: **فادع**، أي فادع الناس أجمعين، كقوله: فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا،[٢] أي إلى الدين، ومثله: قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ.[٣] **واستقم**، لله في الدين، **كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم. وقل ءامنت بما أنزل الله من كتٰب**، على سائر الرسل. **وأمرت لأعدل بينكم اللهُ رَبُّنا وربكم لنا أعمٰلنا ولكم أعمٰلكم لا حجة بيننا وبينكم**، / أي لا محاجَّةَ الآن، ولكن يوم القيامة، **الله يجمع بيننا**، فيحكم بالحق، [٣٨١ظ] **وإليه المصير**. والمعنى لا حجة بيننا وبينكم والحالة هذه. أي، **والذين يحاجُّون فى الله**، أي في أمره وكتابه الذي دعا الناس إلى اتباعه، **من بعد ما استجيب له**، أي أجيبت دعوته وآمن به خلقٌ كثير. **حجتهم داحضة**، أي حجتهم الآن باطلة يوم القيامة، **عند ربهم**؛ وهي الآن باطلة.[٤] لأنه سبحانه قد استجيب له فبطلت الحجة عليه بل صارت له. وهذا معنى قوله[٥] أولا: **لا حجة بيننا وبينكم**، أي انقطع احتجاجكم فلا حجة لكم بل عليكم، لأن حجة الله أنه قد استجيب له. وهذا معنى قوله: فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ،[٦] فحجتهم بعد هذا داحضة. **وعليهم غضب ولهم عذاب شديد**، في الدنيا والآخرة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾

---

١ الآية ١٣ من هذه السورة.

٢ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

٣ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ (سورة يونس، ١٠/٣٥).

٤ ك - يوم القيامة عند ربهم وهي الآن باطلة، صح هـ.

٥ ن: قول.

٦ سورة هود، ١١/١٤.

ثم قال مشيرا إلى العلم الذي جاءهم فتفرقوا عنه: **الله**، أي هو، **الذى أنزل الكتٰب بالحق والميزان**، يحتمل أن يكون الميزان صفة الكتاب، إذ به يوزَن كل شيء، فيَبينُ الراجح من المرجوح، ويكون هذا كقوله: وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ.[1] ويحتمل أن يكون الميزان العقلَ، لأنه الميزان الذي أنزله[2] الله ولولاه لَمَا أفاد الميزان الظاهرُ. وإنما يوزَن الكتاب بالعقل. ثم قال منسوقا بقوله: ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا:[3] **وما يدريك لعل الساعة قريب.**

يستعجل بها، أي بحلولها، **الذين لا يؤمنون بها، والذين ءامنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلٰل بعيد.**

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ١٩﴾

ثم قال: **الله لطيف بعباده**، أي مع كفرهم به. **يرزق من يشاء**، أي لا يؤاخذه بل يؤخره لعله يرجع. **وهو القوى العزيز**، أي فلولا ذلك لأهلكه في وقته، إذ لا يَعِزّ على العزيز شيء.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾

ولما ذكر الرزق الذي به تكون الحياة الدنيوية ذَكَر الرزق الذي به تكون الحياة الأخروية وذكر ضده فقال: **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه**، لم يقل: فيه، ليفهم منه حرث الآخرة وحرث الدنيا، وهو كقوله: فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ.[4] **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها**، وحذف مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ،[5] وهو كقوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا،[6] الآية، ومثله قوله ههنا: **وما له فى الآخرة من نصيب.**

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١﴾

---

1 ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٥٣).

2 ش: أنزل.

3 الآية ١٥ من هذه السورة.

4 ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (سورة النساء، ٤/١٣٤).

5 ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٨).

6 ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (سورة هود، ١١/١٥).

ولما قدم قوله: شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ،[١] بين لهم عظمَ المنة عليهم، أعني المؤمنين ببيان حالِ الكفار فقال: **أم لهم شركٰؤا شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ولولا كلمة الفصل**، إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ،[٢] **لقضى بينهم**، أي بما يستحقون من الإهلاك الآن. **وإن الظّٰلمين لهم عذاب أليم**، يوم الفصل.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

ترى الظّٰلمين مشفقين مما كسبوا، أي من جزائه، **وهو واقع بهم والذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم. ذٰلك هو الفضل الكبير.**

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

ذٰلك الذى، على طريق التعظيم بصورة من لفظ الإخبار كقوله: هَٰذَا غُلَٰمٌ.[٣] **يبشر الله**، بتشديد الشين وتخفيفها،[٤] **عباده الذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت. قل لا أسئلكم عليه أجرا**، والاستثناء منقطع بقوله:[٥] **إلا المودة فى القربىٰ**، أي في القرب[٦] إلى الله، كقولك: ما فعلتُ هذا الخير معك لتجزيني عليه بل فعلته حبا في التقرب إلى الله. فإنه عليه السلام لم يكن يسأل أجرا.[٧] ولا خلاف أنه[٨] كان يحب القربى إلى الله بهداية المؤمنين. والأولى أن معناه: إلا أسألكم المحبة في أقاربكم، والمراد يوم القيامة بدليل قوله قبله: تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ.[٩] وهذا يُعلَم من قوله تعالى: إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ،[١٠] الآية.

---

١ الآية ١٣ من هذه السورة.

٢ سورة الدخان، ٤٤/٤٠.

٣ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ (سورة يوسف، ١٢/١٩).

٤ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والأخوان بفتح الياء وضم الشين مخففة، والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٨٦).

٥ ن – بقوله.

٦ ك ن: في القربى.

٧ انظر في هذا الموضوع: سورة يوسف، ١٢/١٠٤؛ وسورة الفرقان، ٢٥/٥٧؛ وسورة سبأ، ٣٤/٤٧؛ وسورة ص، ٣٨/٨٦.

٨ ن: لا خلاف فإنه.

٩ من الآية السابقة.

١٠ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٥).

[٣٨٢و] فقال[1] ههنا ما معناه: إذا اتخذتم الله مكانَ الأنداد حصلتِ المحبةُ بينكم / يوم القيامة. ولهذا قدّم ههنا ذكْرَ الشركاء. وقال بعده بآيات: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾.[2] فاقرأ الآيات من قبل ومن بعدُ ولا تَشكَّ فيما قلتُه. **ومن يقترف حسنة،** يكتسب، وكأنه أدنى اكتساب، يقال: قرف القَرْحة إذا قشرها، وقارف المعصية إذا خالطها، **نَزِدْ له فيها حُسْنا،** والزيادة في الشيء من جنسه وعليه من غير جنسه ومن جنسه أيضا. **إن الله غفور شكور.**

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾

أم يقولون افترىٰ على الله كذبا فإن يشأ الله يختم علىٰ قلبك، فلا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه[3] شيء. **ويمح،** ليس معطوفا على "يختم". وإنما هو مستأنف في موضع رفع، ولهذا رفع "ويحق". وأما حذف الواو فكحذفها من ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾،[4] ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾،[5] وإن كانا في موضع رفع. وكذلك[6] قوله ههنا: **ويمح،** لأن محوَ الباطل واجب وليس معلّقا بشرط بل، **يمح الله البٰطل ويُحق الحق بكلمٰته.** المعنى أنهم لمّا قالوا: قد افترى على الله، قال سبحانه: **فإن يشإ الله يختم علىٰ قلبك،** فلا يبدو منه شيء مما بدا.[7] **ويمح الله البٰطل،** بمحو أهله وإهلاكهم، **ويحق الحق بكلمٰته،** وإن لم تكن أنت الآتي بها، لأنه قد ختم أولا ولا يلزم أن تَظهر الكلمات من غيره، لأن معناه: يُحق الحق الذي يجب على الكفار بحكم الكلمات ومقتضاها وإن لم تظهر إلى الوجود. ولهذا بعده: **إنه عليم بذات الصدور.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾

وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات، والواو في [قوله:] **ويعلم،** واو الحال، **ما تفعلون.**

---

[1] ن + ما.

[2] الآية ٤٥ من هذه السورة.

[3] جميع النسخ: إليه.

[4] سورة العلق، ١٨/٩٦.

[5] ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ (سورة الإسراء، ١١/١٧).

[6] ك ن: كذلك.

[7] ك: مما بدأ.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

ثم ذكر تعليل إرسال الرسل بقوله: **ويستجيب الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت**، يستجيبون إلى الداعي، وهو منسوق بقوله: فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ.[1] فكونه لم يختم إنما هو لاستجابة المؤمنين. **ويزيدهم**، على أجر العمل الصالح زيادة، **من فضله. والكٰفرون لهم عذاب شديد.**

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

ثم نسق على قوله: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ،[2] [قوله:] **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولٰكن ينزل بقدر ما يشاء.** هذا كلام يوجب عند المؤمن العاقل[3] الزهدَ في دنياه[4] والرِّضا عن مولاه،[5] فاحفظ هذه الوصية. وإذا فتح عليك بالدرهم الحلال ولم يُمكنك تركه فانظره كالحية إن اضطُررت إلى أخذها فاحترز من لَسْغها،[6] فهي مَعْرَضَة لقتلك ما لم تقتلها. فخذ من الدنيا حذرا إذا أخذتها مضطرا، واستغن ما أمكن عن ذرة تُلزمك شكرا، أو تُرهقك طغيانا وكفرا، وارض عن العليم القدير. **إنه بعباده خبير بصير.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

ثم عرّفهم أن ذلك ليس عن بخل أو عجز فقال: **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد.**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ومن ءايٰته خلق السمٰوٰت والأرض، أي من علامات الكرم والقدرة ما سخّره من السماوات والأرض، **وما بث فيهما من دابة.** والبث التفريق والتقسيم، يقال: ثمرٌ بثٌّ

١ الآية ٢٤ من هذه السورة.
٢ الآية ٢٠ من هذه السورة.
٣ ش: العاقل المؤمن.
٤ ش: في الدنيا.
٥ ش ك: عن المولى.
٦ ش: من لسعها.

إذا كان متفرقا منشورا. وأما قوله: فيهما، فإن دوابّ السماء هو الطير، لأن الطير تدُبُّ وفي السماء تطير؛ فهي في الأرض وإن دبت يقال لها طير. وكذلك في السماء وإن طارت[1] يقال لها دابة. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾،[2] فهي الدواب في السماء. وهو علىٰ جمعهم إذا يشاء قدير، لأن الذي بثّ قادر على أن يجمع ما بثّه.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾

ولمّا كان تركُ البسط وتقديرُ الرزق مصيبةً عرّفهم أنه لم يفعل ذلك إلا بطريقهم[3] فقال:[4] وما أصٰبكم من مصيبة، "من" ههنا لتبيين الجنس، والمراد: ولو أدنى ما يكون من مصيبة، فبما كسبت أيديكم، والمراد ههنا: مصيبة الشر للكافر تذكير[5] وللمؤمن[6] تكفير وللسابق توفير، ويعفوا عن كثير.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

وما أنتم بمعجزين فى الأرض، ما فيها[7] من جنودنا، فكيف تعجزون من في السماء. وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

ومن ءايٰته الجوار، السفنُ تجري، فى البحر كالأعلٰم، الجبال. ويحتمل أن الإشارة إلى القُلُوع،[8] لأنها لا تجري / إلا بقلوع، كالأعلٰم، جمع عَلم، والأول أولى لأن التمثيل [٣٨٢ظ]
للجواري، ويعضد[9] الثاني كونُه لم يقل: الفُلْك، بل سماها باسم لا يكون لها إلا في حال الجريان. ولهذا بعده: إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد علىٰ ظهره إن فى ذٰلك لأيٰت لكل صبار شكور، خصص الصبّار بالذكر لأنه أولى برؤية هذه الآيات.

---

[1] ك – طارت، صح هـ.

[2] ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة النحل، ١٦/٧٩).

[3] ش ك + ثم.

[4] ك ن: قال.

[5] ك: فتذكير.

[6] ش: وللمؤمنين.

[7] ش ك: ما فيهما.

[8] القِلْعُ: شِراع السفينة، والجمع قِلاع (لسان العرب، «قلع»).

[9] ك ن: ويعضده.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

أو يوبقهن، يُهلكهن بالإغراق،[١] أي السفنَ، وقوله: **بما كسبوا**، أي بما كسب رُكّابها. ولهذا لم يقل: كَسَبْنَ، أي إنه سبحانه إذا أغرق جملة مَن في السفينة فلا تظنوا أنه أخذ بعضهم بما كسبت يداه وبعضهم بغير ذلك بل الجميع بما كسبوا، غير أن منهم من يستحق بعد[٢] الإغراق أنواعا من العذاب، ومنهم من[٣] كُفّرت عنه ذنوبه بذلك كالمؤمن، والذي قبله كالكافر. وأما من لا يستحق إلا الإغراق فقط فإنه لا يُغرقه بل يُمهله. وأما من يستحق مع الإغراق عذابا آخر[٤] من المؤمنين فإنه تعالى يعفو عنه، ويجعل الإغراق ببعض ما كسبت يداه. والعفو مُسقط لبقيتها. فالمراد أنه إن كانت المؤاخذة بأدنى ما يكون من مصيبة تصيب أو بأكبر ما يكون، أي كالإغراق فالعفو مقرون منه سبحانه بهما بعد العدل، فأصاب بهما بعدل، وعفا عما يستحق بعدهما بفضل. وتكرار قوله: **ويعف عن كثير**،[٥] أي من ركّاب السفن فلا يغرقهم. ولهذا جاء مجزوما عطفا على "يوبقهن" مجزوما؛ فالأول عن كثير من الذنوب والثاني عن كثير من المذنبين.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

ويعلم، بالنصب،[٦] لأنه مصروف عن العطف على ما قبله. وتقديره: إنما[٧] بيّنّا لكم ذلك لتحمدوا على العدل وتشكروا على الفضل وليعلم، **الذين يجْدلون فى ءايٰتنا ما لهم من محيص**، أي الذين يجادلون في إبطال آياتنا، **ما لهم من محيص**، محيد إلى ملجأ يلتجئون إليه من عذابنا لا في البر ولا في البحر. وبيّن في هذه الآية بيانا شافيا واحتجاجا[٨] على المجادلين من الجبرية الذين يعتقدون أن الله تعالى إذا أغرق السفينة بمن فيها أن ذلك ليس بكسب. فبين سبحانه أنه بعدل لأنه ببعض كسبهم، وأنه مقرون بفضل لأنه عفا عن بقية ذنبهم. ثم نسق على قوله: وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ،[٩] فقال ما معناه: وإذ قد بان أن تركَ البسط منا للأرزاق ليس عن بخل ولا عن عجز بل لِعلمنا بالأصلح.

---

١ ن: بالأعراف.

٢ ن – بعد.

٣ ن – من.

٤ ش ك: يستحقه أي العذاب الآخر مع الإغراق.

٥ أي بعد الآية ٣٠ من هذه السورة.

٦ ش: من النصب.

٧ ك ن: إنا.

٨ ك ن: احتجاجا.

٩ الآية ٢٧ من هذه السورة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فما أوتيتم من شيء فمتٰع الحيوٰة الدنيا وما، الأُولى بمعنى مهما، والثانية بمعنى والذي، عند الله خير وأبقىٰ للذين ءامنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

والذين، والعطف على المذكورين بأعيانهم كما بيّنّا في أول البقرة بقوله: وَٱلَّذِينَ،[1] يجتنبون كبٰئر الإثم والفوٰحش وإذا ما غضبوا هم، الذين يبدءون بالمغفرة قبل أن يستغفر منهم المخطئ عليهم، فلهذا قال: هم يغفرون.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوٰة وأمرهم شورىٰ، الشورى والمَشْوَرَة والمَشُورَة بمعنىً، ورجلٌ شَيِّرٌ[2] يَصلُح للمشورة. مدحهم الله أنهم يشاورون بعضهم بضعا في أمرهم بينهم، لئلا يكون أحدهم تابعا هواه وهو لا يعلم. ومما رزقنٰهم ينفقون.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون، وهذا المدح في هذه الآية يشير به إلى بغي الكفار في الحرب، أو الفئة الباغية في السِّلم، والمدح مخصص لهم في الحرب وما يتعلق بالجهاد. فمدحهم بأنهم هم[3] ينتصرون إذا بُغي عليهم لئلا يعود الإسلام مُتصفا بالذلة والكفرُ متصفا بالعزة.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله بعده: وجزٰؤا سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظٰلمين، أي جزاء من أتى بسيئة مما يعرض بين المرء وأخيه المؤمن سيئةٌ[4] مثلها

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤).

[2] (سورة البقرة، ٢/٤).

[3] ش: شيير.

[4] ن – هم.

من غير زيادة. فمن عفا عن حقه أو عن[١] بعض حقه مع القدرة، إذ لا يكون العفو إلا عن قدرة، / ومن أصلح بين المؤمنين فأجرُه على الله بمعنى لا يُحصى أجرُه. [٣٨٣و]

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾

وقوله بعده: **ولمن انتصر بعد ظلمه**، أي بعدما ظلمه خصمه فلم يؤثر العفوَ عمن ظلمه. **فأولٰئك ما عليهم من سبيل**، أي طريق لومٍ أو إثم.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾

ولمن صبر وغفر، أي بعد ما ظُلم ولم يقدر على أن ينتصر، أو قدر وعفا عن المؤمنين،[٢] **إن ذٰلك لمن عزم الأمور**. فالعفو أولا عن السيئة. وأما الصبر فيجب أن يكون مقرونا منك بالمغفرة، ويكونُ ذلك مع الباغي الظالم القادر الذي لا تستطيع[٣] أن تأخذ حقك منه، فتغفر له بعد صبرك على بغيه وظلمه. وأما الأول الذي هو العفو فلا يكون إلا مع قدرتك على الانتقام. ولهذا[٤] للعافي أجر. وأما الصبر والمغفرة فهو، **من عزم الأمور**. ففكّر وافهم واعمل. وأما الآية التي من قبل أولا فهي في الجهاد، وهذه في مكارم الأخلاق.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾

---

١ ك – عن، صح هـ.

٢ ش – أي بعد ما ظلم ولم يقدر على أن ينتصر أو قدر وعفى عن المؤمنين.

٣ ن: لا يستطيع.

٤ ن: وهذا.

وترىٰهم يعرضون عليها، على النار، خٰشعين من الذل، الذي أحاط بهم، ينظرون من طرف خفى، إذا نظروا إلى النار عند عرضهم عليها[1] لا يستطيعون فتح أعينهم حقَّ[2] فتحِها فيُميلون أعناقهم وينظرون من طرف العين. ثم يسترون الطرف وهو الناظر يسترونه بالأجفان فيُخْفُون الطرف، أي العين الواحدة. ولهذا لم يقل: ينظرون بطرف، لأن العين تُسمَّى طرفا بل قال: من طرف، فهو يدل على نظر يَبرز من طرفٍ واحد، ولا يكون ذلك من طرفين. وذلك الطرف خفيّ، ولم يقل: مخفي لأنه كان يدل على أنه محجوب عن النار. والمراد أنه هو بنفسه قد عاد خفيا لا يلحظ لشدة إخفائهم له بالأجفان.[3] وقد علمت حال من يُغمض إحدى عينيه وأكثرَ الأخرى إلا طرفَها فينظر منه شَزْرا[4] بحيث يبقى الطرف في نفسه خفيا لشدة الخوف من لهب النار. ولهذا قيل: إنهم ينظرون من طرف[5] إليها مسارَقةً. وقال الذين ءامنوا إن الخٰسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيٰمة، ثم قالوا، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عنهم. ألا إن الظٰلمين فى عذاب مقيم. والأَولى أنه من كلام الله تعالى مخبرا عنهم كما أخبر بعده عنهم[6] بقوله:[7] وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل، إلى الهدى.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

ثم خوّف كلَّ مخاطب فقال: اِستجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله، أي لا راد له عنكم من الله. واليوم يريد به العذاب، لأنه يومُ عذابٍ فلزم أن لا يكون لهم ملجأ فيه، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير، يُنكر ما يَحِل بكم فيغير ما أنكره.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

---

١ ن – عليها.

٢ ن – حق.

٣ ن: له الأجفان.

٤ ن: منه شررا. | الشزر: نَظْرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة. يقال: نظر إليه شَزْرًا (المعجم الوسيط، «شزر»).

٥ ك ن – من طرف.

٦ ش ك – عنهم.

٧ ن – بقوله.

ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: **فإن أعرضوا فما أرسلنٰك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلٰغ. وإنا إذا أذقنا الإنسٰن منا**، أي لا بعمله بل، **رحمة فرح بها، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم**، تقديره كفروا، ولهذا قال بالفاء: **فإن**، وأفرده في الذكر ليعُمَّ الجنسَ لأنه أولا ذكره مفردا، وثانيا ذكر قوما مخصوصين. فلو أعاد الصفة التي هي الكفر عليهم لانتفى وقوعُ الصفة[1] على من أذاقه الرحمة منه سبحانه. وليس ذلك مرادُ الآية، بل المراد أن يوقع الصفة المذمومةَ على الإنسان من حيث هو إنسان، فإنه كفور سواء أصابه رحمة أو نقمة. وإذا كان هذا وصفه وقد مكِّن من الخروج عنه فلم يخرج إلى الإيمان كان مستحقا للذم بقوله: **فإن الإنسٰن كفور.**

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

ولما ذكر الرحمة منه سبحانه وأنه إذا أصاب الإنسان بشيء منها كفر بسبب النعمة فهو كقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾[2] / قال بعده ما معناه منسوق بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[3] إعلاما بقدرته على العطاء، ولكن منعهم من ذلك لكفرهم لا لعجزه، فقال: **لله ملك السمٰوٰت والأرض يخلق ما يشاء**. ثم ذكر أنه كما يَهب الرزقَ بحسب العلم والمصلحة كذلك الولدَ. فقال بلفظ المشيئة[4] إنباءً عن قدرته: **يهب لمن يشاء إنٰثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإنٰثا ويجعل من يشاء عقيما**. ولمّا ذكر المشيئة عرّفَنا أنها ليست منه سبحانه على سبيل الهوى أو العجز،[5] بل على وفق العلم بالأصلح للعباد مع القدرة المطلقة. فختم الآية بما يزيل الاشتباه الذي يَرْجُم به الظن لكونه ذكر المشيئة، ويومئ إليه سوء الظن لكونه يهب الإناث لمن يشاء مع كراهة الناس ذلك فقال: **إنه عليم قدير**. فأشار سبحانه إلى أن جميع أفعاله بهم إنما هي على وفق العلم السابق بما يجب لهم والقدرةِ على ما يشاء من ذلك وغيرِه. [٣٨٣ظ]

---

١ ن – التي هي الكفر عليهم لانتفى وقوع الصفة.

٢ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، ٥٥/١٦؛ وسورة الروم، ٣٤/٣٠). وانظر أيضا: سورة العنكبوت، ٦٦/٢٩.

٣ الآية ٢٧ من هذه السورة.

٤ ش + عرفنا.

٥ ش: والعجز.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ولمّا ذكر في أول السورة: كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ،[١] نسق عليه في آخرها: **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من ورائ حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم**. اعلم أن قوله: **وحيا**، هو أعمّ الصُّوَر، لأنه نفثٌ في الرُّوع[٢] وإلهام وإن اختلفت رُتَبُه. وأخص من ذلك، **من ورائ حجاب**، وهو المقام الموسوي يَسمع صوتا ولا يَرى صورة.[٣] وأخص من ذلك أن يرى واسطة وهو الملَك. وفي كل رتبةٍ ما قبلَها لا ما بعدها وهو المقام المحمدي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

ولهذا بعده: **وكذلك أوحينا إليك روحا**، مع روح، **من أمرنا**، وهو جبريل خُلق من الأمر. ويحتمل أن يكون المراد بالروح هنا[٤] القرآن، لأنه لمّا قدم في سبحان[٥] وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ،[٦] وأراد أرواحا قامت الأجسام بها أتبع ذلك ههنا بذكر روح قامت بها الأرواحُ فكأنه رُوح الروح، لأنها إذا لم تكن قائمة به فهي ميتة بلا شك. ويكون هذا ههنا كقوله: يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟.[٧] ولا يكون الإنذار إلا بالوحي، وهو قوله: إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ.[٨] فقال هناك: مِنْ أَمْرِهِۦ، وقال هنا: **من أمرنا**. وقال هناك:[٩]

---

[١] الآية ٣ من هذه السورة.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي: فأن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها. فاتقوا الله فأجملوا في الطلب» (المطالب العالية لابن حجر العسقلاني، ٥٧٥/٥؛ وكنز العمال لعلاء الدين الهندي، ١٩/٤-٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤).

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧).

[٤] ك ن: ههنا.

[٥] يعني سورة الإسراء.

[٦] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).

[٧] سورة النحل، ٢/١٦.

[٨] سورة الأنبياء، ٤٥/٢١.

[٩] ك – ولا يكون الإنذار إلا بالوحي وهو قوله... وقال هنا من أمرنا وقال هناك، صح هـ.

أَنْ أَنذِرُوٓاْ، وقال هنا: ما كنت تدرى ما الكتٰب ولا الإيمٰن. وكما سمّاه "روحا" كذلك سماه "نورا". فقال: ولٰكن جعلنٰه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلىٰ صرٰط مستقيم، صرٰط الله الذى له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور، كقوله: وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ،[1] أي فيُجزى مَن سلك الصراط المستقيم بالوصول إلى البغية. وقوله: من نشاء من عبادنا، أي لو كان ممن ظلم نفسه وخرج عن الصراط فأردنا هدايته لم يُعجزنا ذلك، فكيف لا نهدي[2] من اهتدى؟ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ.[3]

١ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ (سورة هود، ١٢٣/١١).

٢ ش: لا نهتدي.

٣ سورة محمد، ١٧/٤٧.

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

حمٓ. والكتٰب المبين، قسم بالعلم الأزلي، لقوله: كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ.[1] وبيّنه بقوله ههنا: وإنه فى أم الكتٰب، كقوله: يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ،[2] تمثيلا للعلم الأزل المشتمل على كل علم وعمل. وأما الحاء والميم فهي مفصولة عن الكلام، وهي علامة على تتابع السُّوَر في المعنى وإن تخالفت في الإنزال، مضافا إلى أن المدلول عليه بالحروف في هذه هو كالمدلول عليه بها في سورة أخرى، لأن المدلول عليه بالحروف خطا يقال له: كتابة، ونطقا يقال له: قراءة، أي جمع، مجمع[3] الحروف[4] بالمكتوب أو المقروء خطا ونطقا، لا يلزم عنه معنى لكن يحتمل. وأما البيان فهو ما يُظهر المعنى للنفس عند الإدراك بالبصر أو السمع. وذلك على خمسة أوجه: خطٌّ، ولفظ، / وإشارة، وعقد، وهيأة كالإعراض وتكليح [٣٨٤و] الوجه. فذكر الله سبحانه أولا حروفا لا يلزم عنها بيانٌ من خطها ولا من لفظها، بل لا يكون البيان إلا بهذه وأخواتها. وأقسم سبحانه بالعلم الأزلي عن هذا المكتوب خطا، الملفوظِ نطقا لسائر الناس بكل لغة فقال: **إنا جعلنٰه قرءٰنا**، جمعا. ثم قال:[5] **عربيا**، أي بيّنًا. **لعلكم تعقلون**، معناه الذي به نجاتكم وفوزكم بمبناه الذي به كتابتكم ولفظكم.

وإنه فى أم الكتٰب لدينا لعلى حكيم، محكم. ولهذا كان القرآن قديما. وقد نبّهْنا على المقصود بتسميته حديثا.[6]

---

١ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ (سورة هود، ٦/١١).

٢ سورة الرعد، ٣٩/١٣.

٣ ك ن: فجمع.

٤ ك – الحروف، صح هـ.

٥ ش – جمعا ثم قال، صح هـ.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٢ من سورة الأنبياء.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾

ولمّا كان الهدى يعم النعم وجملةُ الهدى هو في الذكر الذي هو[1] ههنا القرآن، والعقاب لا يكون إلا إما بالضلال أو بالعذاب. خوّفهم أولا بما يوجب الضلال، وثانيا بما يستحقونه من الإهلاك والوبال فقال: **أفنضرب عنكم الذكر**، ضربتُ على الشيء وأضربت عنه إذا محوت أثره وأسقطتُ ذكره. ومعنى قوله: **صفحا**، أي صفحا عنكم، **أن كنتم قوما مسرفين**، ونصب "الذكر" لفقدان الخافض. ومعناه أفنضرب على الذكر فنُبطله صفحا عنكم لكونكم مسرفين، أي كيف يكون إبطال الذكر صفحا، ولا تكون النجاة إلا به؟ فلو أبطلناه فلم نُنزله إليكم لكان ذلك من أشد العقاب، وإذ لم نبطله فكيف تبطلونه أنتم كما أبطله مَن قبلَكم بتكذيبهم واستهزائهم برسلنا فهلا تعتبرون بهم! فهذا معنى قوله بعده: **وكم أرسلنا من نبى فى الأولين**، من الأُمَمِ السالفة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

فأهلكنا أشد منهم، افهم كونَه لم يقل: منكم، وقد تقدم [قوله:] أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ،[2] لأن المراد الأوائل كما نُبين. وقوله: **بطشا**، أي أشد في البطش، وهذا من باب كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا، أي في الهلاك،[3] وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ،[4] أي لم يَبْقَ منهم سوى الأحاديث عنهم، وهي المثل المذكور ههنا. فافهم تلك الآية لتَفهم بها هذه، وافهم أنه ههنا زاد على ذلك كما نُبين، وهو أن كل أمة فإنها أوّلةٌ لِما بعدها، وكلّ واحدة فإنها أشد من الثانية لها.[5] وإهلاك الأشد أشد في[6] الموعظة وأبلغ في التخويف وأدلُّ على قدرة القادر على إهلاك الأضعف. ثم زاد معنى آخر بقوله: **ومضىٰ مثل الأولين**، ولم يقل: ومضَوا، بل مثلهم أيضا مضى، فلم يذكر، والمراد الأولى. ولمّا جمع قال: **الأولين**. وبيان ذلك أنه إذا أهلك[7] أمة كَذَّبت نبيَّها ثم أهلك بعدها مثلها

---

[1] ش – هو.
[2] الآية ٥ من هذه السورة.
[3] ن: في الإهلاك.
[4] سورة المؤمنون، ٤٤/٢٣.
[5] ك – لها.
[6] ك ن – في.
[7] ش: إذا هلك.

في التكذيب مضى مثل الأولى، لأن الثالثة إنما تتمثل بما قبلها وهي الثانية. وأما الأولى فإنها مضت ومضى مثلُها أيضا، وكذلك الحكم في الجميع. فلهذا قال أخيرا: الأولين، والمفهوم الأولى. ولهذا قدم قوله: وَكَمْ[١] فافهم، ما أعجب هذا!

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض ليقولن خلقهن العزيز، المانع الذي لا يُقهر، **العليم**، بما خلقه على وفق العلم والحكمة.

ثم وصف نفسه بعد قول الكفار فليس من كلامهم كما نبين فقال: **الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون**، بالسبل إلى مصالحكم وإلى هاديكم. ونظير هذا من الكلام أن يُسمِع الرجلُ الرجل يقول: الذي بنى المسجد فلانٌ العالمُ، فيقول السامع: الزاهدُ الكريم. فزاد في وصفه كأنه لما عرفه عرفه بما زاد على الأول، فيكون النعتان جميعا لرجل واحد من رجلين مختلفين. والأَولى عندنا أن الكلام معطوف على الأول وتمام له. وجاء كلامهم معترضا بين كلامه تعالى لهم لتمام الآية فهو يقول: **ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض**، الذي خلق[٢] وجعل، **والذى نزل من السماء ماء بقدر**، قدّره في السحاب لينزل قَطْرا لا نهرا. **فأنشرنا به بلدة** / **ميتا كذٰلك تخرجون**. [٣٨٤ظ]

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾

والذى خلق الأزوٰج كلها، بيّنّاه في [سورة] يسٓ.[٣] **وجعل لكم من الفلك والأنعٰم ما تركبون، لتستووا علىٰ ظهوره**، الضمير عائد إلى ما جعل، **ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا**، وهذا إخبار فيه معنوية الأمر به، ولم يأت أمرا لئلا يأثم تاركه سهوا:

---

١ الآية ٦ من هذه السورة.
٢ ش ك: جعل.
٣ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/٣٦).

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾

ولمّا كان الهدى يعم النعم وجملةُ الهدى هو في الذكر الذي هو[1] ههنا القرآن، والعقاب لا يكون إلا إما بالضلال أو بالعذاب. خوّفهم أولا بما يوجب الضلال، وثانيا بما يستحقونه من الإهلاك والوبال فقال: **أفنضرب عنكم الذكر**، ضربتُ على الشيء وأضربت عنه إذا محوت أثره وأسقطتُ ذكره. ومعنى قوله: **صفحا**، أي صفحا عنكم، **أن كنتم قوما مسرفين**، ونصب "الذكر" لفقدان الخافض. ومعناه أفنضرب على الذكر فنُبطله صفحا عنكم لكونكم مسرفين، أي كيف يكون إبطال الذكر صفحا، ولا تكون النجاة إلا به؟ فلو أبطلناه فلم نُنزله إليكم لكان ذلك من أشد العقاب، وإذ لم نبطله فكيف تبطلونه أنتم كما أبطله مَن قبلَكم بتكذيبهم واستهزائهم برسلنا فهلا تعتبرون بهم! فهذا معنى قوله بعده: **وكم أرسلنا من نبى فى الأولين**، من الأُمَمِ السالفة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

فأهلكنا أشد منهم، افهم كونه لم يقل: منكم، وقد تقدم [قوله:] أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ،[2] لأن المراد الأوائل كما نُبين. وقوله: **بطشا**، أي أشد في البطش، وهذا من باب كُلَّمَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا، أي في الهلاك،[3] وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ،[4] أي لم يَبْقَ منهم سوى الأحاديث عنهم، وهي المثل المذكور ههنا. فافهم تلك الآية لتَفهم بها هذه، وافهم أنه ههنا زاد على ذلك كما نُبين، وهو أن كل أمة فإنها أوّلةٌ لِما بعدها، وكلّ واحدة فإنها أشد من الثانية لها.[5] وإهلاك الأشد أشد في[6] الموعظة وأبلغ في التخويف وأدلُّ على قدرة القادر على إهلاك الأضعف. ثم زاد معنى آخر بقوله: **ومضى مثل الأولين**، ولم يقل: ومضَوا، بل مثلهم أيضا مضى، فلم يذكر، والمراد الأولى. ولمّا جمع قال: **الأولين**. وبيان ذلك أنه إذا أهلك[7] أمة كذّبت نبيَّها ثم أهلك بعدها مثلها

---

[1] ش – هو.
[2] الآية ٥ من هذه السورة.
[3] ن: في الإهلاك.
[4] سورة المؤمنون، ٤٤/٢٣.
[5] ك – لها.
[6] ك ن – في.
[7] ش: إذا هلك.

في التكذيب مضى مثل الأولى، لأن الثالثة إنما تتمثل بما قبلها وهي الثانية. وأما الأولى فإنها مضت ومضى مثلُها أيضا، وكذلك الحكم في الجميع. فلهذا قال أخيرا: الأولين، والمفهوم الأولى. ولهذا قدم قوله: وَكَمْ،[1] فافهم، ما أعجب هذا!

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض ليقولن خلقهن العزيز، المانع الذي لا يُقهر، العليم، بما خلقه على وفق العلم والحكمة.

ثم وصف نفسه بعد قول الكفار فليس من كلامهم كما نبين فقال: الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون، بالسبل إلى مصالحكم وإلى هاديكم. ونظير هذا من الكلام أن يُسمِع الرجلُ الرجل يقول: الذي بنى المسجد فلانٌ العالمُ، فيقول السامع: الزاهدُ الكريم. فزاد في وصفه كأنه لما عرفه عرفه بما زاد على الأول، فيكون النعتان جميعا لرجل واحد من رجلين مختلفين. والأَولى عندنا أن الكلام معطوف على الأول وتمام له. وجاء كلامهم معترضا بين كلامه تعالى لهم لتمام الآية فهو يقول: ولئن سألتهم من خلق السمٰوٰت والأرض، الذي خلق[2] وجعل، والذى نزل من السماء ماء بقدر، قدّره في السحاب لينزِل قَطْرا لا نهرا. فأنشرنا به بلدة / ميتا كذٰلك تخرجون. [٣٨٤ظ]

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾

والذى خلق الأزوٰج كلها، بيّنّاه في [سورة] يس.[3] وجعل لكم من الفلك والأنعٰم ما تركبون، لتستووا علىٰ ظهوره، الضمير عائد إلى ما جعل، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا، وهذا إخبار فيه معنوية الأمر به، ولم يأت أمرا لئلا يأثم تاركه سهوا:

---

١ الآية ٦ من هذه السورة.

٢ ش ك: جعل.

٣ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس، ٣٦/٣٦).

سبحٰن الذى سخر لنا هٰذا وما كنا له مقرنين، من المقارنة والمصاحبة فجعله مركوبا. ولم يكن من طاقتنا أن نجعله مقرَنا ولا كان من قبل مقرَنا كما صار من بعد.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾

وإنا إلىٰ ربنا لمنقلبون، أي نحن وهم، وهو[1] كقوله في آخر الآية التي أولها وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ، إلى قوله: ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ،[2] إعلاما أن كل أحد منا له بعث ومعاد وهو مسئول عما سخره الله له في الدنيا في معاملته له.[3] ثم قال ما معناه: إنهم يرون هذه الآياتِ الباهرةَ والعظائم الباطنة والظاهرة.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾

وجعلوا له من عباده جزءا، أي مع كونهم إذا سُئلوا من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله.[4] والمعنى جعلوا له شركاء جزءً من عباده وهم الملائكة؛ وكانوا يعتقدون أن الملائكة إناث، لقوله: لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ،[5] فذَكَر التسمية هناك، لأنه يريد به هناك أعني بذِكر الأنثى، أي المصنوع على ما بيّنّاه في موضعه. وأما ههنا فإنه يريد بالأنثى خلافَ الذَّكَر. ولهذا أتبعه بذِكر البنات. إن الإنسٰن لكفور مبين.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾

وبيّنه بقوله: وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا. قوله: ضرب، يريد القول وهو التسمية للملائكة بأنهم إناث وأنهم آلهة يعبدونها. وقوله بعده: وَجَعَلُوا۟، يريد الفعل وهو ما اتخذوه من الحجارة وغيرها فجعلوه تماثيلَ للملائكة كما سيأتي.[6] ظل وجهه مسودا وهو كظيم، تقدم.[7] والمعنى كاظم على غيظه. وتلخيصه أن الفاعل القادر

١ ن - وهو.

٢ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٣٨).

٣ ن: في معاملته به.

٤ انظر: الآية ٩ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة لقمان، ٣١/٢٥؛ وسورة الزمر، ٣٩/٣٨.

٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ (سورة النجم، ٥٣/٢٧).

٦ انظر: الآية ١٩ من هذه السورة.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٤).

المختار لو أراد أن يتخذ لنفسه شريكا كما زعمتم مما خلقه تعالى لاتخذ الأجود، فكيف يتخذ البنات ويرضاهن لنفسه وأنتم لا ترضون ذلك لأنفسكم.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

ثم قال: **أومن**، ولم يقل: أفمن، وذلك يدل على صورة عطف، أي أيكون الله إلٰها ومن يُنَشَّأُ فى الحلية إلٰها معه، بمعنى أنه من أول نشوءه[1] تربّى في الزينة والحلية، وهن البنات إشارة إلى النقص الذي يَكمُل بغيره من الحُلِيّ. **وهو فى الخصام غير مبين**.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

وجعلوا الملٰئكة الذين هم عباد الرحمن إنٰثا. لفظ الجعل يأتي بمعنى القول والحكم على الشيء. تقول: قد جعلت زيدا أعلم الناس، أي[2] وصفته بذلك وحكمت به. وأما ههنا فهو يرجع إلى الفعل. والمعنى أنهم ما كفى أنهم قالوا: إن الملائكة إناث، وعبدوا حتى إنهم مع ذلك اتخذوا من الحجارة تماثيل الملائكة، وعبدوا الحجارة أيضا لكونها تماثيل الملائكة،[3] يزعمون أن ذلك تَقَرُّبٌ بملائكته إليه سبحانه، أي قالوا ما قالوا مِثْلًا وفعلوا ما فعلوه مثلا وهو قوله: **وجعلوا**، ثم قال: **أشهدوا خلقهم**. والمراد بقوله ههنا: **إنٰثا**، أي مصنوعة، يقال لكل مصنوع: أنثى، والمراد ما صنعوه من التماثيل. ومعنى [قوله:] **أَشَهِدوا خَلْقهم**، أي أشهدوا بالإلٰهية لِما خلقوه بأيديهم. لهذا بعده: **ستكتب شهٰدتهم ويسئلون**.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدنٰهم. حكى الله عنهم ما تقوله المجبرة من أن الله أراد كفرهم وما يصدر عنهم من فواحشهم، فظنوا لكونه لو شاء أن لا يكونوا عابدين لم يكونوا لأنه[4] قد شاء. فاعتقدوا أنه تعالى لكونه قادرا على المنع، ولم يمنع لفائدة التكليف، أنه قد شاء لهم ذلك وأجبرهم عليه. فقال الله مكذبا لهم: **ما لهم بذٰلك من علم**

---

[1] ك: نشوه.
[2] ن – أي.
[3] ك – وعبدوا الحجارة أيضا لكونها تماثيل الملائكة، صح هـ.
[4] جميع النسخ: أنه.

إن هم إلا يخرصون، وهم كانوا يعبدون المجموع، أعني الملائكة وتماثيلها من أجلها. فردّ الله عليهم وقطع بكِذْبهم، وألحق مَن ماثلهم في المقالة بهم -وهذا من أبلغ الحجج في دفع الجبر- ولزم من يقول هذه المقالة الكَذِب والشركَ. أما الكذب
[٣٨٥و] فصريح / النص، وأما الشرك فكونهم نسبوا[١] إلى الله فعْل عباده. وكذلك المجبرة خافوا من أن يجعلوا لغير الله فعلا حذرا من الشرك وهربا من فاعلَيْن فلزم عين الشرك أو الحلول،[٢] لأنهم إن فرّقوا بين العباد فقد لزم عن ذلك الفرق آلهة بعدد العباد، وإن جمعوا فقد لزم عن ذلك الجمع الحلولُ. وإذا كان الإنسان قد خُلق فاعلا مختارا كيف يكون مجبَرا. ومن نفى أن يكون العبد مختارا فقد نفى أن يكون مكلَّفا مأمورا، وهذا ظاهر البطلان عند الكل، فالحلولي مستتر بالجبري.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

أم ءاتينٰهم كتٰبا من قبله، قبل هذا يشهد لهم بما يقولون، **فهم به مستمسكون**.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا علىٰ أمة، بمعنى على[٣] ملة أو على دين ملة. والأمة تؤم شيئا واحدا. **وإنا علىٰ ءاثٰرهم مهتدون**، وهذا قولهم في زمن الرسول عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وكذٰلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا ءاباءنا علىٰ أمة وإنا علىٰ ءاثٰرهم مقتدون، وأخّر مقالة الآباء إلى آخر الآية الأخرى لأجل الوِزان. فأنكر الله عليهم ذلك وقال لنبيه عليه السلام: **قٰل أولو جئتكم بأهدىٰ مما وجدتم عليه ءاباءكم**. ثم حكى مقالة الآباء ونسق عليها الانتقام فقال حاكيا مقالة الآباء لرسلهم:

---

[١] ش ك – نسبوا.
[٢] ن: والحلول.
[٣] ن – على.

قالوا إنا بما أرسلتم به كٰفرون، فهذا تمام مقالة الأبناء حكاية منهم لمقالة الآباء، لأنهم لمّا اتبعوا الآباء كانت مقالة التابع كمقالة المتبوع. فأخبر الله عن الجميع بقوله: فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عٰقبة المكذبين.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾

وإذ قال إبرٰهيم لأبيه وقومه إننى براء، مصدرٌ وقع موقعَ الوصف، لا يثنّى ولا يُجمع، وقيل: لا يؤنث، وكأن مؤنثه براءة. تقول: نحن البراء منكم وإنا بالبراء، مما تعبدون، إلا الذى فطرنى، استثناء منقطع. فإنه سيهدين، إليه سبحانه وإلى ما أفعله بأصنامكم وإلى ما أَحُجُّكم به وهو مطلق.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾

وجعلها كلمة باقية فى عقبه، المنقول عن النبي عليه السلام: «إن الكلمة هي لا إلٰه إلا الله»،[1] وهذا محل التقليد. فالمحقق فهم من جملة الآية أنها هذه بالحقيقة، لأن قوله: إننى براء، بمعنى "لا"، وقوله: مما تعبدون، بمعنى "إلٰه"، وقوله: إلا الذى فطرنى، فلا فاطر إلا الله. فشُهد المعنى بلفظ آخر، فافهم مثل هذه. فكثيرا[2] ما يعبَّر بعبارة عن معنى يكون مفهوما من عبارة أخرى. وعَقَبُه نسل إسحاق وإسماعيل وهم اليهود والنصارى والعرب، وعقب إبراهيم في أكثر الأمر يريد بهم نسلَ إسماعيل خاصة. وفي التوراة أن إبراهيم كان عمره سبعا وثمانين سنة عند ما وُلد له إسماعيل.[3] ووعده الله بالبركة فيه وفي نسله لعهد الدهر. وذلك قبل أن يَخلق إسحاق وقبل أن يقع الوعد من الله به. وهذا مما لا يَقدر أهل التوراة الآن على جحده وفيه عليهم حجج، فافهمه. وقوله: لعلهم يرجعون، في المعتقد إلى إبراهيم.

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩﴾

---

١ قال ابن عباس وغيره أيضا: الكلمة الطيبة هي لا إلٰه إلا الله. انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٣٥؛ والجواهر الحسان للثعالبي، ٣/٣٨٠.

٢ ن: كثير.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فولدت هاجر لأبرام ابنا. ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر "إسماعيل". كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام» (التكوين ١٦/ ١٥-١٦).

ثم أخبر الله عمن هم من عقبه فقال: بل متعت هٰؤلاء وءاباءهم، أي شغلتهم باللذيذ، والمتاع الدنيوي فتنةً لهم، حتىٰ جاءهم الحق، القرآن، ورسول مبين.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾

وقالوا لولا نزل هٰذا القرءان علىٰ رجل من القريتين، أي من إحداهما، عظيم.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾

أهم يقسمون رحمة ربك. انظر إلى قوله: يقسمون، وقوله: رحمة ربك، إشعارا أن هذه القسمة بعدل، لأنها على وفق العلم بما سيكون من العباد. فهي على صورة الإنصاف في العطاء عدلا وإن كانت رحمةً وفضلا. فهذه القسمة الباطنة. / وكذلك [٣١٥ظ] القسمة الظاهرة مبنية على العلم السابق بالاستحقاق وإن كانت فضلا من الخلاق. ولهذا تفاوتت الدرجات بحسب الأصلح للعباد وتساوَوْا في بذل الاجتهاد كما بيّنّا في آخر الكهف. وكما يلزم من قوله ههنا: نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوٰة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجٰت ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، بضم السين من السُّخْرة.[1] وتقديره فإذا كنا نحن قسمنا معيشتهم على وفق العلم والحكمة فلِم لا نَقسم رحمتنا على هذه الصورة من القسمة. ورحمة ربك خير مما يجمعون، ومن لم يهمل الأمر في اليسير كيف يُهمله في الكثير إعلاما أن القسمة باطنا وظاهرا، كقوله: وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ.[2] وفيه الإعلام بأن ما آتينا هذا الرسول هو خير مما جمعه أهل القريتين وغيرهم.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾

---

١ السُّخرَة: ما سخّرته من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن (لسان العرب، «سخر»).

٢ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (سورة الرعد، ١٣/٨).

ولولا أن يكون الناس، أي لولا الحذر من أن يكونوا،[١] **أمة وٰحدة**، كافرة **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا**، بضم السين والقاف،[٢] **من فضة ومعارج**، دَرَجا من فضة. وقوله: **عليها يظهرون**، مؤخَّر للوِزان. وتقديره في المعنى يستعلُون على ظهور السُّقُف بالدَّرَج. فقوله: **عليها**، يعود على السقف. ولهذا لم يقل: بها يصعدون. وإنما قال: **سقفا**، فالمراد كقوله: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾.[٣] فلفظة "السقف" وإن كانت جمعا فهو أيضا جمعٌ غيرُ مفرَّق بل كما قلناه تعظيما للعطاء. وإن جميع المعارج من فضة مع علوّ البناء.

﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤﴾

﴿وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾

وزخرفا، على ذلك كله، أي نقوشا وتزويقا ملونا. والجميع معطوف على قوله: **من فضة**، ولم يقل: من ذهب، لأن الزخرف على البياض أبهج. والمراد أننا نمكّنهم من أنهم لو شاءوا ذلك لفعلوه. **وإنْ كلُّ ذٰلك لَمّا**، للذي هو أي لهو، **متٰع الحيوٰة الدنيا**. وقوله ههنا: **لما**، كقوله في سورة يسٓ: ﴿لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾.[٤] **والآخرة عند ربك للمتقين**.

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾

ومن يعش، يقال: رجل أعشى وامرأة عشواء، وعَشِيَ يَعْشَى مثل عَمِيَ يَعْمَى، وعَشا يَعْشُو، إذا نظر نظرا ضعيفا، فالعِشاوة كالغِشاوة مثلا. والمراد أنه هو من نفسه لا أننا أجبرناه بل هو عَشِي، **عن ذكر الرحمن**، فعاقبناه بأننا، **نقيض**، نسهّل، **له شيطٰنا فهوله قرين**، من كل صاحب أو زوجة أو ولد أو غير ذلك. فذلك القرين في الدنيا هو الشيطان، فاعرفه بصفته.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾

وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. إن قيل: ما فائدة تخويفهم وهم يحسبون أنهم مهتدون؟ فالجواب أن التحذير إنما هو لئلا يقع هذا المحذور.

---

١ ك ن: من أن يكون.

٢ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف، وغيرهم بضم السين والقاف (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٨٩).

٣ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي [illegible] ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ (سورة الزمر، ٢٠/٣٩).

[illegible] ﴿وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٢/٣٦).

وأما إذا وقع [فهو] مرادٌ لله، وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا، عقابا لهم بذنبهم، فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ.[1] وفيه إشعار بوجوب اتباع العلماء العاملين والقادة المحققين والتسليمِ إليهم وامتثالِ أوامرهم لئلا يعتمد الإنسان على جهل وهو يظن أنه معتمد على عقل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

حتىٰ إذا جاءنا، هو وقرينه كما بيّنّاه في سورة قٓ،[2] **قال يٰليت بيني وبينك بعد المَشرقَيْن [فبئس القرين]**.

[نظرة في دوران الكواكب]

اعلم أن الشمس في الفلك الرابع لحِكَم. منها أن ينحجب[3] حرُّها الشديد بالأفلاك التي تحتها ويُبْعِدَها عن الأرض. ومنها أن تضيئ لثلاثة أفلاك من فوقُ وثلاثةٍ من أسفلَ، فتعطي الإشراق للقمر والذراري.[4] فهي في وسط من السبع الطباق التي أولها مما يلي الأرض فلك القمر، ثم فلك عُطارِد، ثم الزُّهْرة، ثم الشمس، ثم المِرّيخ، ثم المشتري، ثم زُحل وهو الأعلى وهو يقطع الفلك في اثنتين وثلاثين سنة. وفي النظر في ترتيب كل واحد في مكانه وتقدير دَوَرانه ما لا يعلمه إلا الله سبحانه من حِكَم وعجائب. ولا حاجة بنا إلى ذكر ما يُخرجنا عن المقصود، إذ قد نَبَّهْنَا على التفكر في صنع الله لتتحقق في الأنفس عظمتُه، / فتجب عبادته. ولكل كوكب وفلكه معه حركة تَخصه. [٣٨٦و] فالقمر يقطع الفلكَ ويرجع إلى برج الحَمَل مثلا إلى النقطة التي جعلتها أولا لحركته في شهر بالتقدير ويزيد وينقص قليلا وهو شهر القمر. والشمس تفعل ذلك في سنة شمسية. وكل كوكب له مقدار من الزمن مخصوص به. وهذه الكواكب جميعها سيرها من المغرب إلى المشرق دائما. وإنما الحركة اليومية حركة[5] أخرى تدير الجميع جملة من المشرق إلى المغرب في يوم واحد بإذن الله. وسائر الكواكب المذكورة إنما تدور بالطبع من جهة المغرب إلى جهة المشرق[6] في أزمنة مختلفة المقادير وبالقسر والرجع من جهة الشرق إلى جهة الغرب في يوم وليلة. فكأن الكواكب والشمس والقمر

---

١ سورة الرعد، ١١/١٣.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٢٣ وَ٢٧ من سورة قٓ.

٣ ش: أن تنحجب.

٤ ذرية الرجل: ولده، والجمع الذراري والذريات (لسان العرب، «ذرر»).

٥ ك - حركة، صح هـ.

٦ ش: من جهة الغرب إلى جهة الشرق.

كلٌّ في فلكه يُشبه نملةً على طاحونٍ من الحجارة يدور الحجر يمينا والنملةُ تدور على الحجر شمالا. فتدور الدورة الشمسية كما يدور[١] الحجر ثلاثمائة وستين دورة حتى تدورَ النملة على الحجر بالعكس دورة واحدة، و ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ.[٢] فإذا تصورت في ذهنك ما قلته لك تيقنت أن مشرق الشمس هو المغرب، أعني مشرقها الطبيعي لها. وأما مشرقها القسري فهو هذا الشرق. فافهم هذا المعنى الذي عرّفَنا الله إياه بقوله: **بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ**، ومثله رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ.[٣] وإن كان ما قلناه هناك محتملا لكن هذا الموضع لا بد له من هذا المعنى، فافهم ذلك. وإن اشتغلت في هذا العلم فلا تقبل منه ما يخالف الكتاب ولو قام عليه الدليل العقلي، فإن الوحي فوق طور العقول. فلزم في العقل الميلُ بالعقل عن العقل إلى الوحي. ولا تَنس وصيتي لك إن شاء الله تعالى. واحذر من قرين قال الله في حقه: **فبئس القرين.**

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾

ثم قال تعالى لهم ولقرنائهم: **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون،** إذ كل واحد لا يَحمل عن قرينه شيئا من عذابه. فهذه شركة لا ينتفع[٤] بها الشريكان.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٠﴾

ثم قال لرسوله عليه السلام: **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن،** أي تهدي من، **كان فى ضلٰل مبين.**

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢﴾

فإما نذهبن بك، أي إلى الآخرة بالتوفي، **فإنا منهم منتقمون،** إذ الانتقام منهم مستحق؛ كما تقول: افرض أن خصمك مات فالدَّين لا يَسقط عنك. **أو نرينك الذى وعدنٰهم،** من انتصار المؤمنين وانكسار الكافرين؛ أي لا فرق بين أن تغيب أو تحضر، لا بد من صدق الوعد في الدنيا والوعيد في الأخرى. لهذا قال بالفاء: **فإنا عليهم مقتدرون.**

---

١ ش ك: كما تدور.

٢ انظر: سورة يٰس (٣٦)، الآيات ٣٧-٤٠.

٣ سورة الرحمن، ١٧/٥٥.

٤ ن: لا ينفع.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون، أجمعين إعلاما أن كلا مسئول عن مقتضى الذكر أمرا ونهيا، نبيّا ووليّا،[1] وصِدِّيقا وزنديقا. فذكر الطرفين وهما النبي والمشرك، وعمَّهما السؤالُ.

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وسْئل، تقديره اسأل الذين قبلك من أمم الرسل، فيكون قوله: **وسْئل**، مفصولا. ثم قال: **من أرسلنا من قبلك من رسلنا**، ولو لم يكن كذلك لقال: واسأل رسلنا بل السؤال مطلق، أي اسأل كلَّ من يجب سؤاله عما سألته عنه. ويحتمل أن تكون "من" بمعنى الذين، أي واسأل الذين أرسلنا، وتقديره: إليهم قبلك مِن رسلنا. والأولى أن تكون "من" في موضع نصبٍ ليس لوضعها في موضع المفعول بل لفقدان الخافض، مثاله: اسأل زيدا ما جرى له بمعنى اسأل عن زيد. فيعود المعنى إلى الأول كما قدمنا. ومعناه واسأل عنا، **أجعلنا من دون الرحمن ءالهة يعبدون**.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ / رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ [٣٨٦ظ]
فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وما، كنا، **نريهم من ءاية إلا هى**، في نفسها، **أكبر من أختها**، المتقدمة، لقوله: فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ،[2] وهي أول ما أراه. فإن قيل: هذا يلزم أن تعود الكبرى صغرى. فالجواب أنه يقال: كبير وأكبر لكبيرين، وصغير وأصغر لصغيرين، وهذا مبالغة في الإيجاز والإعجاز. **وأخذنٰهم بالعذاب لعلهم يرجعون**، ولا يكون عذاب الدنيا للكفار إلا لهذا فهو رحمة. وأما العقاب فهو غير العذاب ولا يكون إلا بالإضلال، كقوله: فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا،[3] الآية.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

---

[1] ن: وليا.

[2] سورة النازعات، ٧٩/٢٠.

[3] ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٧٧).

وقالوا **يٰأيها الساحر**، سموه بمعتقدهم فيه قبل أن تستيقن[١] الأنفس بصدقه، فاستمروا على تلك التسمية، **ادع لنا ربك**، تقديره أن يؤتينا، **بما عهد عندك**، لمن آمن واهتدى من كشف العذاب عنه. ولو أثبت المحذوف لقال: أن يؤتينا بما عهد[٢] عندك[٣] فجعل الباء مبيّنة.[٤] ومثل هذه الباء تقول: دعوت بما، ولم تقل: دعوت ما لئلا يشتبه بالدعاء الذي معناه النداء. والمراد ما معناه الطلب. ثم قال بلام القسم: **إننا لمهتدون**، معك. وهذا القول منهم على صورة الاحتيال للخلاص من العذاب وإلا يتناقض قولهم: **يٰأيها الساحر**، أولا، وقولهم: **إننا لمهتدون**، آخرا. ويحتمل أن يكون على طريق الامتحان لموسى هل يقدر أن يغير الكائن بسحره كما أوقعه فيتحقق عندهم أنه ساحر عليم.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

وينطبق على هذا [قوله:] **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون**، ينقضون العهد حين وفينا بالعهد. والمراد إعلام محمد صلى الله عليه وسلم أن حاله مع قومه في تكذيبهم له ودعواهم فيه كحال موسى، وأن حال من لم يؤمن من قومه سيئول إلى مثل حال من لم يؤمن من قوم فرعون وهو أن يُغلَبوا في الدنيا ويدخلوا النار في الأخرى.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾

لمّا عُدم المُلك الباطن وهو القدرة على قهر موسى اعتزّ بالملك الظاهر لذلة وجدها في نفسه.

وقوله: أم، بمعنى أَمَا، **أنا خير من هٰذا الذى هو مهين**، من الهوان، لأنهم أهانوه بالزجر والتكذيب والإخراج من بين يدي فرعون. كذلك جاء في التوراة، فعابه فرعون بما معناه أنه لو كان لهذا نفس لَمَا أحلّها محلَّ الهوان منا.[٥] فكان فرعون يكلم موسى بعزة الكفر، وموسى يكلم فرعونَ بلين الإيمان رجاءً وامتثالا لقوله تعالى:

---

١ ش ك: أن يستيقن.
٢ ك ن: ما عهد.
٣ ك ن – عندك.
٤ ش ك: مبنية.
٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة، الخُرُوج ٦/١٢، ٣٠.

فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا،[1] فنسبه فرعون إلى أنه، **مهين**. وقوله: **ولا يكاد يبين**، لما بقي في لسانه بعد حل العقدة.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب. وكان ملوكهم يتحلُّون بالأساورة، وهي جمع سِوار كما بيَّنا في سورة الكهف.[2] **أو جاء معه الملٰئكة مقترنين**، به بمعنى أنهم قرناؤه، لأن رسول الإلٰه يجب أن يكون ملكا لا بشرا، فإن كان بشرا فليكن له قرناء من الملائكة.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

فاستخف قومه، أي استخف بعقولهم. **فأطاعوه إنهم كانوا قوما فٰسقين**.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فلما ءاسفونا، جعلونا بمنزلة مَن يأسف عليهم لما يستحقونه من الانتقام الذي أوجبه التكذيب، **انتقمنا منهم فأغرقنٰهم أجمعين**.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

فجعلنٰهم سلفا، السلف المتقدم، والخلف ما خلف السلف فهو بعده. **ومثلا للآخرين**، من الأمم يتمثلون بهم فيعتبرون بما جرى عليهم بتكذيبهم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

ولما ذكر سبحانه أنه جعل السلف الأول مثلا للخلف الآخِر قال بعده: **ولما ضرب ابن مريم مثلا**، تقديره: لقومه من رؤسائهم كما نبين. وانظر كيف / ذكر مع [٣٨٧و]
أحد المَثلَين الجعلَ[3] ومع الآخر الضربَ. والجعل للفعل والضرب للقول، إذ كل واحد منهما مجعول مَثَلا بالفعل في وقته وعصره، ومضروب مثلا[4] بالعقل لمن يأتي بعده. ولهذا قال ههنا: **إذا قومك منه**، أي من أجل المثل،[5] **يصدون**، بضم الصاد

١ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٤).
٢ انظر: سورة الكهف، ١٨/٣١.
٣ انظر الآية السابقة.
٤ ك – مثلا، صح هـ.
٥ ش – أي من أجل المثل، صح هـ.

وبكسرها لغة.[١] وقيل: معناها بالضم يُعرضون، وتقال في اللازم والمتعدي، ومعناها بالكسر يَضِجّون. والمعنى من القراءتين يرجع إلى الإعراض. وقيل: ضجوا لاستشعار[٢] الفرح بالغلبة حين أنزل الله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ،[٣] فقالوا: إذا كنا نحن وآلهتنا مع عيسى فقد رضينا. فأخبر الله أن قصدهم الجدل والغلبة لا الحق. والذي يرفع عيسى عليه السلام عن الدخول فيما يلزم دخول آلهتهم فيه هو الخطاب بما. فلهذا لم يقل: ومن، لأن "من" لِمن يعقل. فلو كان عيسى فيهن لجاز تغليبُ مَن يعقل. وقد بينا[٤] ذلك في موضعه. ويجب أن تَفهم كونه تعالى قال ههنا: **ولما ضرب**، وقال بعده: **ما ضربوه**، وقال بعد ذلك: **وجعلنٰه**. والجميع عن عيسى. فالأول وهو ما ههنا جاء على ما لم يُسمَّ فاعله إشارة إلى من ضرب عيسى مثلا لله من رؤساء النصارى، فجعلوه إلٰها لهم، وعبر بلفظ الضرب، كقوله قبله بآيات: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا.[٥] فالمشركون ضربوا لله المثل بالملائكة والأوثان، والنصارى ضربوا لله المثل بعيسى. ولمّا كان الضرب من الرؤساء قال: ضرب، كما لمّا كان التشبيه من الرؤساء حين ادّعَوا صلْبَه[٦] قال: شُبِّهَ لَهُمْ.[٧] فمعنى قوله ههنا: **ولما ضرب ابن مريم**، أي ضُرب مثلا لله سبحانه من الرؤساء لبقية النصارى إشارة إلى أن عيسى لم يكن إلٰها، ولا أن النصارى فعلوا ذلك بل فُعِلَ لهم من كبرائهم. وأشار إلى أن ذلك ضُرب مثلا كما يُضرب المثل بالقول ولا حقيقة لذلك في نفس الأمر، بل كما يقال بالأفواه في ضرب الأمثال سواء كان ذلك بالأقوال أو الأفعال. وقوله بعده:[٨] **ما ضربوه لك**، أي إن قومك ما ضربوا عيسى مثلا، لَكَ إِلَّا جَدَلًا،[٩] كما نبين. وأما قوله بعده: وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ،[١٠] أي مثلا لقدرتنا على البعث وإحياء الموتى وخلقِ النشأة الأخرى. ولهذا ذكر الجعل منه سبحانه والضرب من النصارى ومن العرب. فالنصارى ضربوا المسيح مثلا لله في الربوبية، والعرب ضربوا المسيح مثلا[١١] لمحمد صلى الله عليه وسلم.

---

١ قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الصاد، والباقون بكسرها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٤٩٦؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٩٠).

٢ ش ك: الاستشعار.

٣ سورة الأنبياء، ٩٨/٢١.

٤ ك: وقد بيناه.

٥ الآية ١٧ من هذه السورة.

٦ ش ك – صلبه.

٧ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (سورة النساء، ١٥٧/٤).

٨ ش: بعد؛ ك: بعدها.

٩ من الآية التالية.

١٠ الآية ٥٩ من هذه السورة.

١١ ك ن – مثلا.

وذلك من طريق الاستلزام الذي أوجبه إرادة الجدل لا[1] إرادة الحق كما نُبينه. فيكون المعنى ولما ضُرب ابن مريم مثلا لله من رؤساء النصارى لتابعيهم فاتخذوه إلٰها، إذًا قومك من أجله يُعرضون عن الإيمان بك وبما جئت به. وبيان ذلك أنه لمّا تقدم قوله تعالى: وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ،[2] قال المشركون: هذا عيسى إلٰه يُعبَد. فلمّا استلزموا من عبادة النصارى لعيسى تكذيبَ هذا الكلام أعرضوا عن النبي عليه السلام من أجل المثل الذي هو ههنا عيسى.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

وبين الله لنا ذلك الإعراض والمجادلة منهم بقوله: وقالوا ءألٰهتنا خير أم هو، أي أم عيسى بمعنى أننا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله؛[3] والنصارى يعبدون عيسى معتقدين[4] أنه هو الله. وهذا الاحتجاج يُعطي أن عبادة المشركين للأصنام خيرٌ من عبادة النصارى لعيسى عليه السلام، لأن التقرب بالمخلوق إلى الخالق خيرٌ ممن / يعتقد أن المخلوق [٣٨٧ظ] هو الخالق. ثم استلزموا من كون آلهتهم خيرا من عيسى أنها تكون خيرا من محمد. فضربوا عيسى له مثلا بمعنى أنه كما جاز أن أتُّخذ عيسى إلٰها كذلك يجوز أن يتخذ محمد. وعلمنا ذلك من قوله تعالى عنهم: ما ضربوه، أي ما ضربوا عيسى لك مثلا،[5] إلا جدلا، وإلا فَهُمْ لا يعتقدون أن عيسى كان إلٰها ولا أن محمدا يروم الإلٰهية[6] لنفسه. بل هم قوم خصمون، شديدُو[7] الخصومة.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾

ثم أخبر الله عن عيسى رادّا على الفريقين بما معناه أنه ليس عيسى كما ظن النصارى فيه من الإلٰهية ولا كما ادعى فيه المشركون من أننا جعلناه إلٰها يُعبَد في الأرض من دوننا [فقال]: إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلنٰه مثلا لبنى إسرٰءيل، يدلهم

---

١ ن: إلا.
٢ الآية ٤٥ من هذه السورة.
٣ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).
٤ ن: معتقدون.
٥ ن – مثلا.
٦ ن: الآلهة.
٧ ش: شديدون.

على قدرتنا على إحياء الموتى وصدقِ وعدنا في البعث والنشأة الأخرى، أي فاتخذه النصارى إلٰها، وذلك من جَعْلِهم لا من جعلنا. ثم قال ما معناه: ولو شئنا إجباركم على الكفر لكان الأَولى أن نُجبركم على الهدى، وهو معنى قوله: **ولو نشاء لجعلنا، بدلا، منكم ملٰئكة فى الأرض يخلفون**، أي يكونون خلفاء بعدكم كما جعلناكم خلائفَ لننظر كيف تعملون.[١] وتقديره يخلفونكم[٢] ولا يموتون و لَا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ.[٣]

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ٦١﴾

والدليل على أن تأويل الآية ما قلناه تخويف العباد بعدها بالساعة، والأمر لهم باتباع النبي والتحذيرُ من الشيطان، وهو ما عطفه على قوله من قبل: وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ،[٤] فنسق عليه بعد تمام الكلام [قوله:] **وإنه لعلم للساعة**،[٥] أي يُعلم بها ليتأهب الخلق للقائها. **فلا تمترن بها واتبعون هٰذا صرٰط مستقيم**، فالإشارة إلى القرآن بغير شك.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢﴾

ولمّا كان كلام عيسى لقومه مشتبها لكلام محمد صلى الله عليهما وسلم لقومه جاء كلام محمد في وسط كلام عيسى لنعلم أن كُلًّا منهم قال لقومه كذلك: **ولا يصدنكم الشيطٰن إنه لكم عدوّ مبين**.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾

ثم تمّم الإخبار عن عيسى، لأن جُلَّ الكلام –وإلى آخر السورة– عنه فقال: **ولما جاء عيسىٰ بالبينٰت قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون**.

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٤).

٢ ن: يخلقونكم.

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ (سورة التحريم، ٦٦/٦).

٤ الآية ٤٤ من هذه السورة.

٥ وقرئ "لَعَلَمٌ" بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣٦٤/٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

إن الله هو، جاءت ههنا لفظة "هو" للمماثلة بما تقدم، وذلك قوله: ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ، وبعده: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ.[1] فتلا ذلك بقوله: **إن الله هو ربي وربكم**، أي هو وحده لا شريك له ولا ولد. **فاعبدوه هٰذا صرٰط مستقيم**.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

فاختلف الأحزاب، الذين تحزبوا عليه فكذبوه، وقوم تحزبوا له فعبدوه، **من بينهم**، من بين المؤمنين به.[2] **فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم**.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

هل ينظرون، ينتظرون، **إلا الساعة**، فيه تقديم وتأخير لفائدة، ومعناه هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة، فلو قال كذلك لكان الانتظار منهم اختيارا. فلمّا لم يكن ذلك من قصدهم وإن كانوا في الحقيقة كذلك من حيث لا يعلمون غيّر اللفظ لتغير المعنى، فافهمه ومثله. فلهذا أخر [قوله:] **أن تأتيهم**، للاهتمام بذكر الساعة، **بغتة وهم لا يشعرون**.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، اتقوا المخالفة أمرا ونهيا.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله: **الذين**، يحتمل أن يكون تمام النداء المتقدم، **ءامنوا بـٔايٰتنا وكانوا مسلمين**.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، واحدها كُوب، وهو على صورة الإبريق

[1] الآية ٥٨ و٥٩ من هذه السورة.

[2] ن - به.

لا أُذنَ له ولا خُرطومَ، وهو كالكأس للشراب. ولمّا ذكر صِحاف الطعام وأكواب الشراب قال: **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين / وأنتم فيها**، في الجنة، **خٰلدون**. [٣٨٨و]

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

وما ظلمنٰهم ولٰكن كانوا هم الظٰلمين، لأنفسهم. **ونادوا يٰملك ليقض علينا ربك**، أي فليُمِتنا، **قال إنكم مٰكثون**، أي سرمدا.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

لقد جئنٰكم بالحق، أي في الدنيا كما كان يقال لهم فيها. وأما أهل الجنة فيقولون: لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ،[١] كما كانوا يقولون فيها أيضا. وقوله: **ولٰكن أكثركم للحق كٰرهون**، خطاب للحاضرين، وهو إخبار عن أهل النار.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم قال عن أمثالهم: **أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون**، البَرْم هو إحكام الفَتْل، أي[٢] أم أبرموا أمرا في مخالفتنا، فإنا مبرمون أمرا في إهلاكهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجوٰهم بلىٰ ورسلنا، الملائكة، **لديهم يكتبون**.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ثم خاطب المشركين بما هو ردٌّ عليهم وعلى النصارى، لأن المشركين لمّا ضربوا للنبي عليه السلام مثلا بعيسى جدلا ومخاصمةً عادوا مخاطَبين منه مع النصارى.

---

١ سورة الأعراف، ٤٣/٧.
٢ ن – أي.

فإذا قامت الحجة على أحد الفريقين لزم على الآخر قيامُها. فقال الله لرسوله عليه السلام: قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العٰبدين، للولد، وليس له فلست بعابد إلا الله. وهذا تحقيق نفيِ العبودية، لأنه تعليق مشروط بمحال. ولهذا بعده: سبحٰن رب السمٰوٰت والأرض رب العرش عما يصفون. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتىٰ يلٰقوا يومهم الذى يوعدون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

وهو الذى، هو وحده، فى السماء إلٰه، معبود ممن فيها، وفى الأرض إلٰه، يُعبَد ممن بها لا غيره. وهو الحكيم العليم.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

وتبارك الذى له ملك السمٰوٰت والأرض وما بينهما. ولمّا كان الكلام في عيسى قال عن الله تعالى: وعنده علم الساعة، وهذا من أبلغ الاحتجاج على النصارى، إذ المكتوب في الإنجيل إلى يومنا هذا أن الساعة لا يعلمها الابن ولا الملائكة المقربون ولا يعلمها إلا الأبُ وحده.[1] وهذا مما لا يقدر النصارى على جحده ولا على ردِّ جواب عنه إلا بالباطل. فيقال لهم: لا يخلو إما أن أحد الإلٰهين يقدر أن يُخفي عن الآخر شيئا فقد[2] عاد الآخر جاهلا، أو لايقدر فقد عاد هو عاجزا ناقصا. ومن المحال أن يكون واحدٌ عالما جاهلا ناقصا كاملا في علم الساعة. فسبحان من عنده علم الساعة.[3] وإليه ترجعون.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ولا يملك الذين يدعون من دونه، أي ولا يملك الآلهة الذين يدعون هؤلاء من دون الله، الشفٰعة، أي حتى ولا الشفاعةَ عنده سبحانه لا يملكها، إلا من شهد بالحق،

---

[1] «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد، لا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب. فانتبهوا واسهروا لأنكم لا تعرفون متى يحين الوقت» (مَرْقُس ١٣/٣٢-٣٣).

[2] ن + فقد.

[3] ش ك – فسبحان من عنده علم الساعة.

وهو عيسى وعُزير والملائكة والمعترفون[١] بالعبودية كقول عيسى عليه السلام: إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ.[٢] فهؤلاء والمؤمنون يملكون بإذن الله ولا يملك المعبودون من دون الله الشفاعة بوجه. وقوله: **وهم يعلمون**، أي والداعون يعلمون أن المدعوّين لا يملكون شفاعة، إذ من لم يَملك النطقَ كيف يملك الشفاعة؟ ودليله: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ.[٣]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وينطبق على هذا الشرح قوله بعده: **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون**. ولمّا استثنى مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ،[٤] وأراد عيسى نَصْب [قوله:] وقيلَه،[٥] لأنه مفعول بالعطف على [قوله:] وَهُمْ يَعْلَمُونَ،[٦] أي يعلمون أن أصنامهم لا تملك الشفاعةَ. ويعلمون قِيلَ عيسى الذي يَدّعون فيه الإلٰهيةَ وهو يقول: يٰرب، لأن الإلٰه يكون مربوبا.[٧] فلما قدم قوله: قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ،[٨] وكان الحِجاج في عيسى الذي يَدّعون فيه الإلٰهيةَ قال ما معناه: وقل لا يملك المدعوّون الذين يَدعونهم هؤلاء شفاعةً إلا عيسى. ولمّا كان عيسى من جملة المدعوين وهو يملك الشفاعة بإذن الله لزم أن يُستثنَى من المدعوين لأنه منهم. ولم يخصص بالذكر بل قال: إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ، ليدخل عيسى والملائكة والمؤمنون في ذلك ممن شهد بالحق على / نفسه أنه عبد، وشهد بالحق لربه أنه إلٰه. [٣٨٨ظ]
ثم قال عن الداعين: وَهُمْ يَعْلَمُونَ،[٩] أي يعلمون أن أصنامهم لا تَملك شفاعةً. وهم يعلمون قِيلَ عيسى: يٰرب، وهذا لا شك فيه. فأما الأصنام فكما قدّمنا من قولهم: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ.[١٠] وأما قول عيسى عليه السلام: يٰرب، فنص الإنجيل شاهد بذلك وأمثاله في عدة مواضع لا يجحده النصارى مع اعترافهم أنه صلى وتضرع إلى الله. وهذا من أبلغ الحجاج عقلا ونصا عند الخصوم.

---

١ ك ن: المعترفون.

٢ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (سورة مريم، ٣٠/١٩).

٣ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٥/٢١).

٤ من الآية السابقة.

٥ قرأ عاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء، والباقون بنصب اللام وضم الهاء (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٢٩١).

٦ من الآية السابقة.

٧ ك: يكون من بونا.

٨ الآية ٨١ من هذه السورة.

٩ الآية ٨٦ من هذه السورة.

١٠ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٥/٢١).

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾

ولمّا كان قول عيسى عن قومه: وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ،[1] وقول محمد صلى الله عليه وسلم عن قومه الكفار كذلك قال تعالى: **فاصفح عنهم**، يريد اصفح عنهم فيما ضربوه لك جدلا، ومثل ذلك مما تقدم، وقل سلْم، من معنى [قوله:] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا.[2] ثم تواعدهم بقوله: **فسوف يعلمون**.

[1] من الآية السابقة.

[2] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ (سورة الفرقان، ٦٣/٢٥).

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾

حمٓ. والكتٰب المبين، قسَمٌ تقدم مثلُه.[1] **إنا أنزلنٰه**، القرآن، **فى ليلة مبٰركة**، ليلة القدر من شهر رمضان، وهذا ابتداء الإنزال. **إنا كنا منذرين**، الناس به. وقدم ذكر الإنذار لمعنيين. أحدهما أن جُلَّ ما في هذه السورة إنذارٌ وتخويف. والثاني أن ذكر الإنذارِ مع الليلة المباركة مُنَبِّهٌ على أن مَنْ بين يديه مثل هذه المَخاوِف المذكورة في هذه السورة كيف لا يعمل في مثل هذه الليلة، وكيف لا يجتهد في تحقيق الصدق واستعلام الفرق بينه وبين الشك والكذب، ويعتمد الجد ويجتنب اللعب؟ هو معنى قوله: بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ.[2]

﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

فلمّا ذكر الليلة ووصفها بالبركة وجعل ذكرها بين الإنزال والإنذار [3] وصفها بما ينزل فيها من غير القرآن بل بعده في مستقبل الزمان. لهذا قال بلفظ الاستقبال: **فيها يفرق**. وقد علِمْنا أنها في شهر كلُّه عبادة للعباد وجهاد واجتهاد. وكونه خصها بإنزال القرآن، وقد تقدم أنه أُنزل في شهر رمضان،[4] علمنا أن لا بركة أبلغَ من بركة ليلة وشهرٍ أُنزل فيه على أفضل الخلق أفضلُ مُنَزَّلٍ نزل من الحق وأنفعُ كلام لسائر العباد في المعاش والمعاد. وإنما أخفاها لتطلب في سائر الشهور[5] إلى آخر الدهر. فقوله:[6] **يُفۡرَقُ**، أي يُقَسَم وهو من القسمة، كقوله تعالى: وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ، أي قسمناه أقساما، لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ،[7] أي في أزمنة متطاولة بحسب الوقائع التي تقتضي إنزاله. فقوله: **يفرق**، كلمة غريبة في القرآن نبّه بها على حِكَم تُستنبط بالأذهان.[8] وقد ذكرنا

---

[1] انظر: سورة الزخرف، ٤٣/١-٢.

[2] الآية الآتية برقم ٩.

[3] ك ن: الإنذار والإنزال.

[4] يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٥).

[5] جميع النسخ: الشهر.

[6] ك ن: وقوله.

[7] ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٠٦).

[8] ن: الأذهان.

في آخر هذه السورة تصريف هذه الكلمة الغريبة. وإنما أفردنا ذلك لنلحق به أنفع التبيانات العجيبة. وقوله: كُلُّ أمرٍ، أي كل أمر نأمر به في تلك الليلة. ثم وصف الأمر بقوله: حكيم، أي محكم بمعنى أنه لا مردّ له ولا خلل فيه بوجه.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾

ثم بين أن ذلك الأمر من عنده سبحانه لئلا يشتبه علينا لفظ الأمر فقال: أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين، الملائكة[1] -والأنبياء فيما كان- ثم الملائكة فيما يكون. ولهذا قال: مرسلين، فقط، ولم يعين المرسَلين ولم يذكرهم بلفظ مخصّص زمنًا ماضيًا ولا مستقبلا بل جعله محتملا لذلك كله.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

ثم ذكر أن هذا الإرسال فيما كان ويكون ليس من جهة وجوب حق للعباد على بارئهم سبحانه بل فعله، رحمة من ربك إنه هو السميع، لدعاء الداعين، العليم، بما ينزله على من يرسله رحمةً للعالمين وعلى من يُرسله بعد ذلك من الروح والملائكة المقربين المرسَلين في كل ليلة من مثل تلك الليلة إلى يوم الدين.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

[٣٨٩و] وذلك لأنه، ربِّ السمٰوٰت والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، / بالبعث وبأنه، لا إله إلا هو يحيِۦ ويميت ربكم ورب ءابائكم الأولين. فهذا الكلام كله متعلق بالليلة المذكورة، وشارح لبركتها، ومُنبّهٌ على فضلها، وتنويه[2] قدرها وتعظيمِ ذكرها. فوصفها بنزول القرآن فيها الذي هو جِمَاع الخيرات والبركات، ثم بعد ذلك وصفها بنزول الأمر المحكم ممن يسمع ويعلم سبحانه وتعالى.

وأما فائدة ذكرها في موضعين -أعني ههنا وفي سورة القدر- ففي ذلك عدة منافع. فمن ذلك أن نفهم[3] [بأن] كلَّ كلام يُشكل في أحد الموضعين بالآخَر كما نجد[4]

[1] ن: للملائكة.

[2] نوّه: رفع، عزف، شهر (لسان العرب، «نوه»).

[3] ش ن: أن تفهم.

[4] ك: كما تجد.

قولَه هناك: مِّن كُلِّ أَمۡرٍ، وهنا: كُلُّ أمرٍ؛ وذكرَ الإنزال والليلة هناك كما ذكره هنا؛ وذكر هناك القدر وههنا ذكر البركة؛ وقال هناك: تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم،[١] وقال ههنا: أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين، وقال هناك: سَلَٰمٌ،[٢] وقال هنا: رحمة. ومن ذلك أيضا أن نعلم بعد عظم قدرها وبركتها أن ملائكة الله سبحانه وتعالى ورحمتَه من حين بدأ بإنزالها على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن استمر الأمرُ بعد القرآن في كل ليلة من أمثالها إلى آخر الزمان بالبركة والسلام. ونزول الملائكة بما يُقضى في ذلك العام ويُقسَم بأمر الله في سائر الأنام. لهذا قال بعد قوله: أنزلنا، بلفظ الماضي: يُفْرَق، بلفظ المستقبل، أي يقسَّم كل أجل ورزق وعمل وغير ذلك.

وإذا كانت الليلة المذكورة تأتي في كل سنة مرة واحدة وفيها يفرق دائما فقد دل على أن جميع ما يأمر الله به في تلك السنة إنما تنزل به الملائكة في تلك الليلة. وإذا كان كل شيء معلوما عنده سبحانه في الأزل وقد ذكر أنه في ليلة مخصوصة في العام ينزل[٣] فليس المراد بذلك إلا الحثَّ فيها على العمل، وارتقابَ ما بها من البركة ينزِّل، وامتثال ما كان فيها أوّلا نزل، واجتنابَ الكسل في مدة المَهَل قبل هجوم الأجل، وعلى الله المُتَّكَل. وأما ذكر الإنذار في هذه السورة دون تلك فلا شك أنه من البيّن أن كل فضيلة يُنَبِّه عليها الخبير والمُعلِّم البصير يجب أن يُسلَك في الحَضّ عليها سبيلين، أحدهما الترهيب والآخر الترغيب. فخصص تلك الصورة بما تكون الرغبة، لأن القصد فيها وصفُ الليلة لا غير. وخصص هذه السورة بالرهبة ولزم أن يَذكر فيها الليلة ليعود ذكرُها مع الرهبة موجِبا لاجتناب العمل المذموم واكتساب العمل المحمود في أمثالها من سائر العمر. فقدّم ذكر الإنذار بعد ذكر البركة. وجعل ذكر الليلة بين الإنزال والإنذار حَثًّا على الاجتهاد وتحذيرا للعباد، وإعلاما أن هذه الدار ليست بدار شك وكَذِبٍ، ولا هزلٍ ولَعِب. فقال بعد قوله: إن كنتم موقنين، ما معناه: لكنهم ليسوا بموقنين أن لهم ربًا يَجزيهم ومعادا يجزون فيه.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١﴾

---

١ سورة القدر، ٤/٩٧.

٢ سورة القدر، ٥/٩٧.

٣ ش ك: بتنزل.

ثم تواعدهم بيوم الجزاء وهو اليوم الذي ترجع السماء كأنها كلها[1] قد استحالت إلى ما كانت عليه يوم خلقها الله من دخان، وهو معنى قوله تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ.[2] فقال مخوِّفا وشارحا لقوله أولا: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ:[3] فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، أي فارتقب لهم العذاب. ويقال: انشق البحر بحوت إذا خرج منه، وكذلك أتى البحر بحوت، يغشى الناس، ويقال: هٰذا عذاب أليم، أي ما يماثله عذاب.

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾

ويقول الذين هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ:[4] ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤﴾

﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ١٥﴾

[٣٨٩ظ] فقال الله لهم: / إنا كاشفوا العذاب قليلا، من زمن. إنكم عائدون، كقوله: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ.[5] وقوله: عائدون، إشارة إلى أنه لو تكرر منا الكشف دائما لتكرر منهم العَوْد كذلك. وإنما جاء اللفظ على هذه الصيغة ولم يقل: إنا إن كشفنا، بل كأنه يحكي صورة فعل الحاضرين ليعرّفنا أن حالهم في العذاب الأدنى الآنَ في الدنيا هذا الحال، فجاء اللفظ مُشعرا بما هم عليه في الدنيا ودالّا على ما يكونون[6] عليه في الأخرى.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

ثم تواعدهم بذكر "يوم" هو ذلك اليوم، ولكن وصفه بنوع آخر من العذاب وهو كما تقول[7] مخاطبا لصاحبك عن مذنب حاضر تُهدّده: فارتقب يوم آخُذُه بالعذاب يوم أُجدّد عليه العقاب، فتُكرِّر ذكر اليوم مع صفة اليوم [فقال]: يوم نبطش البطشة الكبرىٰ، البطش[8] الأخذ بالضرب عن بأس وسرعة. والكبرى عذاب الأخرى، والصغرى عذاب الدنيا. إنا منتقمون.

---

١ ك ن – كلها.

٢ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٢٥).

٣ الآية ٥ من هذه السورة.

٤ الآية ٩ من هذه السورة.

٥ سورة الأنعام، ٦/٢٨.

٦ ك ن: على ما يكون.

٧ ش ك: كما يقول.

٨ ن – البطش.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

ولقد فتنا، اختبرنا بالرسل والعذاب الأدنى، **قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلىّ**، أدى ما عليه إذا سلّمه إلى مالكه، **عبادَ الله إنى لكم رسول أمين، وأن لا تعلوا**، من العلو بغير حق وهو التكبر، لأن الله لا يعلو عليه عالٍ. وقوله: **على الله**، على أمر الله. **إنى ءاتيكم بسلطن مبين**، السلطان هو ما يَتسلط به المحقُّ على المبطل.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾
﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون، أي ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾،[1] تقديره فاعتزلوه.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فدعا ربه أن هٰؤلاء قوم مجرمون، ليس المراد أنه دعا عليهم بل نادى ربه.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فأسر، دلّ بالفاء على تقدير قوله: فقلنا له: أسر، وأصلها من سَرَى[2] لازم، **بعبادى ليلا إنكم متبعون**، من فرعون وقومه. **واترك البحر رهوا**، ساكنا، أي على حاله عند عبوركم[3] فيه، لأنه أمره بشقّه ولم يأمره بردّه، **إنهم جند مغرقون**، يقال: عيشٌ رَاهٍ[4] إذا كان خَفضا وادعا.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

كم تركوا من جنّٰت وعيون، وزروع ومقام كريم، مُكَرَّم بالكَنْس[5] والبسط وغير ذلك.

---

١ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (سورة مريم، ٤٨/١٩).
٢ جميع النسخ: أسرى.
٣ ك ن: عبورهم.
٤ ن: رآه.
٥ الكَنْسُ: كَسْحُ القُمام عن وجه الأرض. قال اللحياني: كُناسَة البيت ما كُسِحَ منه من التراب (لسان العرب، «كنس»).

والمَقام ما يقيم[1] به الشخص. ونعمة، بفتح النون واحدة نَعمات وهي من التنعم مثل نَغْمة ونَغَمات ونَسَمة ونَسَمات. والنعمة بكسر النون فهي من النِّعَم والأرزاق، **كانوا فيها فٰكهين. كذٰلك**، وقفْ، **وأورثنٰها**، عائد على الجنات وما بعدها، **قوما ءاخرين**، ومعناه كم تركوا، كذلك، أي كم مثل ذلك الذي وصفناه تركوه. فلزم أن يُقدّم الموصوف ولم يَحْتج أن يكرر "كم تركوا"، لأنه قدمها أولا وكأنه أخيرا قال: كم تركوا، كذلك.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فما بكت عليهم السماء والأرض، أراد أنهم كانوا في الدنيا مبغوضين فوق الأرض وتحت السماء بمعاصيهم. فلمّا هلكوا[2] طَهُرت الأرض منهم فلم يعرض للسماء والأرض ما يعرض للباكي إذا فَقَد محبوبه، وهو على طريق الاستعارة. ولمّا كان المؤمن زبدة الكون والكونُ خادما[3] له، والكافر بضد ذلك فإنه عدوُّ الكون، ومن فقد عدوه فإنه لا يبكي عليه كما أن من فقد حبيبَه يبكي عليه. **وما كانوا منظرين**، بل عُجّل لهم العذاب.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين، وهو من الاستعلاء، ومعناه كان عاليا في الإسراف كما تقول: عالٍ من الرجال.[4]

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ولقد اخترنٰهم، بإرسال الأنبياء فيهم، **علىٰ علم**، منا، لأن الإنسان قد يختار المختار في نفسه وهو لا يعلم بل يصادف ذلك، وقد يختار وهو يعلم أنه هو الشيء المختار / في نفسه؛ فذلك يقال له: اختار على علم، والآخر على جهل. ومثله ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾،[5] أي[6] على علم[7] عند الله وبحق يستحقه. وقوله: **على العٰلمين**، أي من أهل زمانهم. [٣٩٠و]

[1] ن: ما يقام.

[2] ن: أهلكوا.

[3] ن: خادم.

[4] ك ن: عن الرجال.

[5] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ (سورة الجاثية، ٤٥/٢٣).

[6] ك – أي.

[7] ش – أي على علم.

ولا يلزم أن يكون على سائر العالمين إلى يوم القيامة. وأما قوله تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ،[١] لمّا كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتمَ النبيين[٢] كان ذلك الوصف له إلى يوم القيامة، ولو كان من قبله كذلك لكانت الرتبة له.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾

وءاتينٰهم من الآيٰت ما فيه بلٰؤا مبين، من الابتلاء، لأنه تعالى يَبتلي بالسرَّاء، كقوله: هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ.[٣]

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥﴾

ثم تواعد الأعراب بقوله: إن هٰؤلاء ليقولون: إن هى إلا موتتنا الأولىٰ وما نحن بمنشرين.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾

ولمّا جحدوا البعث وجعلوا لهم بزعمهم برهانا قالوا: فأتوا بـئابائنا إن كنتم صٰدقين. جوابهم فيما سيأتي بقوله: إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ.[٤] وقدم قبله ذكر مَن قبلهم ليعُمَّ أمثالَهم من المكذبين بالبعث فقال: أهم خير أم قوم تبع، يتبع من تقدمه، والذين من قبلهم، ممن كذب الرسل، أهلكنٰهم إنهم كانوا مجرمين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾

ثم قال مُبرهنا على كونه لم يأت بما اقترحوه من الإتيان بآبائهم: وما خلقنا السمٰوٰت والأرض وما بينهما، والناسَ مما بينهما، لٰعبين، أي لو أتينا بالآباء مع علمنا أنهم لَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ،[٥] لكان ذلك الفعل منا لعبا، إذ من فعل ما لا يثمر ولا يُنتج فهو لعب وليس على وفق الحكمة. وإذ لم نخلقهما بما بينهما لاعبين،

١ سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣).

٣ ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

٤ الآية ٤٠ من هذه السورة.

٥ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢٨/٦).

فهل تكون أمور الخلائق سُدًى[1] بحيث يفعلون ما يشاءون ولا يُجزَون، ولا يكون الجزاء إلا بالبعث، فلا يكون ما خلقناه لعبا.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال: ما خلقنٰهما إلا بالحق. وقوله: ولٰكن أكثرهم لا يعلمون، يعطي أن بعض الناس يعلم. ومعنى أنه تعالى خلقهما بالحق هو أن كل فعل له ثمرة ونتيجة فهو مفعول بحق لا بباطل. ولمّا خلق الله العباد لعبادته خلق سائر المخلوقات مسخرات للعابد وعلامات دالاتٍ على المعبود، فذلك بحق من غير شك. ويحتمل أن يقال بعد[2] هذا الإجمال تفصيل تُفهَم[3] به فائدة جليلة عند المتأمل.[4] وذلك أنه لمّا كان المقصود ليس إلا وجودَ الإنسان على ما هو عليه، ولزم أن يَخلق له سائر ما يَحتاج إليه، والإنسان يُمكنه أن يُحلّ نفسه في سائر الرُّتَب، ويحاكيَ الكل بالجد واللعب، وذلك باختياره وكسبه، والإمدادُ له به واصلٌ إليه من ربه؛ فلمّا تقدم علمُه تعالى بأَناسيَّ كثيرة أنه إذا خلقهم مكتسبين أحلّوا أنفسهم بكسبهم في رُتَبٍ مختلفات على اختلاف سائر الموجودات من المعدن والحيوان والنبات، والملائكة، والأرض والسماوات، وجميعِ المكوَّنات خلقَ[5] الموجودات في رتبها، لما علم منها أنها لو كانت أناسي لما أحلت أنفسها إلا في ذلك المحل. فخلقها فيه بحق علمه منها وإن لم تعلمه هي، بل عَلِمه الإنسان العالم بما علمه من نفسه وعلمه من ربه. نظم:

فالكل إنسان ولكنه	قد حل في كل محل ومَقام،
فصار هذا ذهبا خالصا	وصار هذا بهواه الرَّغام،[6]
وذاك جِنّيا وذا كوكبا	أو فلكا بالكاتبين[7] الكرام،
والعلم إذا كان محيطا بهم	أقام كلا[8] منهم في المقام،
وسخّر الأدنى لأعلاهم	بذلك التسخير تم التمام،
بالحق والعدل خلقناهم	لسابق العلم بهم والسلام.[9]

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (سورة القيامة، ٣٦/٧٥).
[2] ك ن – بعد.
[3] ش ك: يفهم.
[4] ن: عند التأمل.
[5] هذا جواب "لما كان".
[6] الرغام: التراب.
[7] ن: للكاتبين.
[8] ن: وكلا.
[9] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

/ ومن علم أن كلَّ مخلوق في الكون حتى في الصورة والطعم واللون قد خلقه الله [٣٩٠ظ] بحق وسخر الأنقص للأكمل عَمِل على أن يكون هو الأفضلَ؛ فسلك بحكم الكتاب المنزل، وعمل بالأمر كلما يُعمل، وسأل ما يجب أن يُسأل، واستوطن الصبر في مواطن الابتلاء، وقيد قلبه ولسانه بالدعاء، واتصف بما أمكنه من الأسماء حتى قهر هواه وعاد في خلق الله خليفةَ الله.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

ولمّا اختلفت مراتب المكتسبين قال تعالى: **إن يوم الفصل ميقتهم أجمعين، يوم لا يغنى مولى**، سيدٌ، **عن مولى**، عبدٍ. وجاء بهذه العبارة ليُفهم منه المعنيان. وإنما قلنا ما قلناه للزوم ما سواه، لأنه إذا لم يُغن مولى عن عبد فكيف يغني عن حرّ، **شيئا ولا هم ينصرون، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم**. وهذا الاستثناء منقطع. ومعناه لكن من رحم الله فإنه ناج. والمرحوم معلوم من قوله: وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا، أي باقية دائمة بما أنعم به للذين، إلى قوله: ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ[١] الآية.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

إن شجرة الزقوم، طعام الأثيم، الآثم، **كالمهل**، النحاس المذاب. وقيل: سمي بذلك لشدة مُهْلة الحرارة فيه، فإنه يمسك الحرارة أكثر من بقية الأجساد. وقوله: **يغلى فى البطون كغلى الحميم**، أي كما يَغلي الماء الحار الذي يُحَمُّ به. ولكنه إذا كان غاليا شبّه ثمر الشجرة -وهو الزقوم- بالمُهل في الحرارة، وشبّه غليانها بغليان الحميم.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

ثم يقال للزبانية: **خذوه فاعتلوه**، كما يحمل العَتّالون[٢] الحجر مشدودة بالسلاسل وهم حافّون بها، **إلىٰ سواء الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم**، "من" ههنا لتبيين الجنس.

١ ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٦/٧-١٥٧).

٢ ش ن: القبالون. | العتّال: الحمّال بالأجرة (تاج العروس للزبيدي، «عتل»).

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وأخر قوله: ذق، ليكون الذوق لأنواع العذاب المذكور. والذوق استعارة كما أن عذاب الحميم لا يُصبّ بل الحميم لكنه ذَكَر الغرضَ موضعَ ما به يكون الغرض، أعني السبب. وقوله: إنك أنت العزيز الكريم، تقديره أم نحن؟ ولهذا بعده: إن هٰذا ما كنتم به تمترون، فيه تشكّون.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

إن المتقين فى مقام، بالضم الإقامة وبالفتح المكان،[1] أمين، آمن.[2] فى جنّٰت وعيون، يلبسون من سندس، الحرير في قول الحسن،[3] وإستبرق، الديباج في قول قتادة،[4] متقٰبلين.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

وقدم، كذٰلك، للوِزان، والمعنى، وزوجنٰهم بحور عين، كذلك، أي يلبسون من سندس واستبرق. يدعون، بمعنى يستدعون، فيها بكل فٰكهة ءامنين، يريد مطلق الأمن ويشير إلى الأمن من ضرر الفاكهة الذي هو الأمراض والأسقام المؤدّية إلى الموت. لهذا بعده: لا يذوقون فيها الموت، ثم استثنى استثناء منقطعا، إلا، لكن، الموتة الأولىٰ، في الدنيا، إذ لا موت في الجنة. وأما الكافر فإنهم يأتيهم الموت في النار من كل مكان ومن وراء الموت عذابٌ،[5] والمؤمنون لا يذوقونه. ووقٰهم عذاب الجحيم، فضلا، لأن ما ذكره فوق ما يستحقونه، من ربك، ذٰلك هو الفوز العظيم.

---

١ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى بمعنى الإقامة وافقهم الأعمش، والباقون بفتحها موضع الإقامة (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٠٠).

٢ ش: أمن.

٣ البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٦/٩٣.

٤ جامع البيان للطبري، ٢١/٦٤.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٧).

فإن قيل: ما معنى الاستثناء بقوله: إلا الموتة الأولىٰ، وقد علمنا أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد البعث، ولا يكون البعث إلا بعد الموت؟ فالجواب أنه لمّا قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ،[1] عارضه قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ،[2] فبين الله بقوله عن أهل الجنة: إلا الموتةَ الأولىٰ؛ إن الشهداء ذاقوا الموتة الأولى ولكن الله أحياهم في البرزخ إلى يوم يُبعَثون أحياءً. والدليل على أنهم ذاقوا الموتة الأولى بالقتل قوله تعالى: فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ،[3] / وهم الشهداء كما بيّنّاه دون ما قيل. [٣٩١و]
ولمّا كان الشهداء من جملة أهل الجنة فلو لم يقل: إلا الموتة الأولىٰ، لَوقع الجزم بأن الشهداء لم يموتوا بالقتل، بل حين قُتلوا دخلوا الجنة، فلا يخرجون ولا يُبعَثون، فانتفى ذلك كله ومثله بقوله: إلا الموتة الأولىٰ، إعلاما أن هذه لا بد منها لكل نبي وشهيد ومؤمن وكافر.

[حشر الأجساد]

وقد يقال من باب الاحتمال: إن قوله: إلا الموتة الأولىٰ، يحقق البعث بالأجساد والدخولَ إلى الجنة بها. وهذا المعنى هو أكبر مطالب الشريعة. وبيانه أنه لمّا تقدم العلم بأن طائفة من متفلسفة هذه الأمة أرادوا أن يجمعوا بين الشريعة والحكمة، فاعتقدوا البعث بالأجساد، ولكنها بعد ذلك تموت ويكون الدخول إلى الجنة بالأرواح فقط كما قدمنا في [سورة] البقرة[4] [فـ]ـردّ الله على هؤلاء عند ذكر أهل الجنة وبين أنهم -مع كونهم لا يذوقون فيها الموت- أنهم أيضا لا يذوقونه في الدنيا سوى الموتة الأولى. فلزم بطلان ما ادعاه هؤلاء من أن البعث بالأجساد إنما يكون على صورة الإعجاز، ثم تموت الأجساد موتة ثانية بعد البعث، ويكون الدخول إلى الجنة بالأرواح. فانظر إلى هذا البيان الإلٰهي ولا تقل: هذا البيان للعوام المخاطبين على قدر الأفهام ويكفي معتقده أن تكون الحكمة مخالفةً له، بل قل: إن هذا البيان خطاب للخاص والعام ويكفي معتقد غيره أن تكون الشريعة مخالفة له. وإنما ضل هذا المدَّعي لمعنيين. أحدهما أنه ظن أن الحكمة هي ما خطر بباله. والثاني أنه اعتقد أن الله تعالى لا يعمل

---

١ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٦٩).

٢ سورة الأنبياء، ٢١/٣٥.

٣ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٣).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة البقرة، ٢/٢٨.

إلا كما يعلمه هذا المدعي فضلّ جهلا. ولو آمن بالغيب للزمه الاعتراف بغلطه عقلا وانقاد إلى قوله تعالى: وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ.[1] ولمّا جاز أن يكون قول أهل النار: رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ،[2] مقوّيا لهذه الشبهة الفلسفية نفاه الله بقوله عن أهل الجنة: **إلا الموتةَ الأُولى**. ويحتمل أن يزاد على ما قلناه أنه سبحانه إنما قال عن أهل الجنة: **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى**، إعلاما أن أهل النار يذوقون فيها الموتَ بعد الموتة الأولى، فذكر السلب عن هؤلاء ليلزم عنه الإيجاب لهؤلاء. ولهذا لم يقل: لا يذوقون الموت بل **لا يذوقون فيها**، ليلزم أن أولئك يذوقون فيها.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾

فإنما يسرنْه، الهاء إشارة إلى القرآن المضمر بقوله في أول السورة: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ،[3] وإن كان ما اعترض بين[4] ذلك كثيرا، فاتخذْ هذا مثالا للعطف على البعيد والإشارة إليه. وقوله: **بلسانك**، أي العربي، كقوله: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ،[5] بلغته التي هي لغتهم. قوله: **يسرنْه**، أراد إطلاق اليسر. **لعلهم يتذكرون**، به ما عنه يُسألون، كقوله: وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ.[6]

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ٥٩﴾

فارتقب، لهم، يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ،[7] وأمثال ذلك. **إنهم مرتقبون**، ما وعدناك من النصر عليهم لأنفسهم عليك.

* * *

[تتمة تفسير الآية ٤ من هذه السورة]

وإذ قد نجزتْ هذه السورة فلنذكر حكمة العبارة بقوله تعالى: فِيهَا يُفْرَقُ.[8] وبعد ذلك نضيف إليه ما رأينا فيه نفعا لمن هو بصدد[9] ما قلناه. والله الموفق للصواب.

---

١ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (سورة النحل، ٦٠/١٦).

٢ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (سورة المؤمن، ١١/٤٠).

٣ الآية ٣ من هذه السورة.

٤ ش: بعد.

٥ سورة إبراهيم، ٤/١٤.

٦ سورة الزخرف، ٤٤/٤٣.

٧ الآية ١٠ من هذه السورة.

٨ الآية ٤ من هذه السورة.

٩ ش: هو يصدر.

اعلم[١] أن قوله تعالى: يُفْرَقُ، هو ما لم يُسَمَّ فاعلُه من الماضي. وأصل هذه اللفظة متعدٍّ من فَرَق يَفرُق فَرْقا، كقولك:[٢] حَسَب يَحْسُب حَسْبا وإن لم يُستعمَل مصدرُها لئلا يشتبه بقولنا: حسبنا الله. ومعناه راجعٌ إلى الحِساب لغة، أي يكفينا الله كفاية بحساب لا ينقص ذرةً. ويُفْرَق مثل يحسب والاسم فِرْق، وهو مذكر فرقة، قال الله تعالى: / فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ.[٣] وفرقة مثل حِسْبَة، ومفترق كمحتسب. [٣٩١ظ]
وتقول منه فِراقا وفُرقانا، كما تقول حسابا وحسبانا. فقوله تعالى: يُفْرَقُ، أي يفرق فيكون فُرقانا، كما تقول: يُقرأ فيكون قرآنا، قال الله تعالى: فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ.[٤] لأنه لمّا[٥] قرئ كان قرآنا ولأنه دائما يُقرَأ. وكل قرآن فرقان وليس كل فرقان قرآنا. ولهذا كانت التوراة فرقانا أيضا، قال الله تعالى: وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ.[٦] فهو وصف لكتاب موسى عُطف عليه باسم الصفة، كقوله عنه أيضا: نُورًا وَهُدًى.[٧] ومن حيث قد علمت أصل هذه الكلمة وتصريفها لغة، وأن المراد بها هو الفَرْق كالفَصْل والقَسْم فافهم أولا معنوية الفرق ههنا ولِم سمِّي بهذه التسمية. ثم افهم بعد ذلك كيف[٨] يكون ما يفرق فرقانا وإن لم يكن قرآنا[٩] لتعلم[١٠] أن الليلة المحمدية أنزل فيها قرآن، وأن أمثالها من الليالي يتنزل فيه فرقان بأمر الله، رحمة مستمرةً منه سبحانه على من يستحقها من الأنام في اليقظة والمنام كما نبين.

فنقول: اعلم أن الفَرْق له اعتباران. أحدهما من جهة الخلق، والآخر من جهة الحق. فأما الذي من جهة الخلق فهو أن يأتي المفروق[١١] مفصَّلا في أزمنة، كقوله تعالى: وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، أي في أزمنة متطاولة، فلم ننزله عليك جملة بل بحسب الوقائع مفروقا مفصلا، ولهذا بعده: وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا.[١٢] وهذا فَرْق زماني وهو خاص بالنبي، والمفروق[١٣] هو القرآن، ومثله يكون الفرق لما يُفرق في أزمنة متطاولة

---

١ ن: واعلم.
٢ ك ن: كقوله.
٣ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٦٣).
٤ سورة القيامة، ٧٥/١٨.
٥ ن – لما.
٦ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٥٣).
٧ ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩١).
٨ ش – كيف.
٩ ك – وإن لم يكن قرآنا، صح هـ.
١٠ ش: لنعلم.
١١ ن: الفروق.
١٢ سورة الإسراء، ١٧/١٠٦.
١٣ ن: والفروق.

من كل أمر محكم. والمفروق هو الفرقان،[1] وذلك فيما كان، وهذا فيما يكون، وذلك خاص وهذا عام. قال الله تعالى: إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا،[2] فهذا فَرْق من جهة الخلق.

وأما الفرق من جهة الحق فاعلم أنه لمّا كان العلم الأزلي محيطا بكل ما سينزل فلا شك أن المنزَّل قبل أن يُنزل لم يُفرَق من العلم الأزلي ولم يُفصل. وليس مرادنا أن العلم إذا فُرِق تنقطع منه قطعةٌ بحيث تكون جزءه، ولا أن المنزَّل إذا نُزِّل يكون قد انتقل، لأن العلم لا يقبل الانتقال. وسأبين لك ذلك بضرب المثال: لا شك أن علْم زيد صفةٌ له. فإذا علّمه لعمرو فقد صار لعمرو مثل صفة زيد لا نفس صفة زيد، إذ لم ينتقل علمُ زيد عنه ولم يتغير من زيادة ولا نقصان. ولمّا كان علمُ زيد قبل علمِ عمرو لزم أنّ علْم زيد قديم، ولمّا كان عِلم عمرو بعد علمِ زيد لزم أن علم عمرو محدَثٌ. وقد بيّنّا أن ما وصل إلى عمرو هو صفةُ علمِ زيد لا نفسُ علم زيد. فإذا فرضنا قِدَمَ زيدٍ وحدث عمرو فقد كان علم زيد قديما لأنه صفة لزيد القديم، وصار علمُ[3] عمرو محدَثا لأنه صفة لعمرو المحدث.[4] ولما لم يكن عمرو عالما ثم علِّم حدث له علمٌ فعِلمُه له محدَث غير قديم بلا شك. ولمّا لم يزل زيد عالما لم يَحدثْ له علمٌ فعلمه[5] قديم غير محدَث بلا شك. ومن فقه هذا المعنى[6] وفهم به قوله تعالى: ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ،[7] علم أن القرآن قديم، ولم يشتبه عليه قوله تعالى: مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ.[8] فمن اعتقد أن القديم محدَث فقد جهل على الله. ومن ظن أن المحدث قديم فقد ردّ على الله. ومن أعطى كل موصوف صفته فقد سلك سبيل الله. وهنا ضل من ظن أنه من الآحاد فقال بالاتحاد إذا اعتقد أن صفة الصفة القديمة تكون نفس الصفة، وهذا ظاهر الفساد يدركه المنصف من أولي الرشاد فيؤديه في الله إلى أحسن الاعتقاد.

[خصائص "ليلة مباركة"]

[٣٩٢و] وإذ قد علمت أن في هذه الليلة المخصوصة يُفرَق / من العلم الأزلي ما به الملائكة تتنزل في تلك الليلة خاصة، وفي بقية العام عامة، وقد علمت قوله تعالى:

---

١ ك: القرآن. | ش – ومثله يكون الفرق لما يفرق في أزمنة متطاولة من كل أمر محكم والمفروق هو الفرقان.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ (سورة الأنفال، ٢٩/٨).

٣ ش ك – علم.

٤ ش ك: والمحدث.

٥ ن + له.

٦ ش ك – المعنى.

٧ سورة الرحمن، ٥٥/١–٢.

٨ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢).

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ[١] وعلمت أن القدر المعلوم ليس عن هوى من الخالق أو عن ميل إلى بعض الخلائق، بل على وفق الحكمة ومقتضى العلم السابق بما له يستحقون وبه يُمتحنون. وقد قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[٢] فلمّا تساوى في هذا الإعلام كل أحد من الخاص والعام ظهرت فضيلةُ التنبيه على ليلة تكون المواهب بها في طي المكاسب.

فإن قيل: إن ملائكة الله دائما تتنزل ليلا ونهارا بالرحمة التي تسع سائر الأشياء والعلمَ على قلوب المستنبطين من العلماء والكشفَ ببعض ما سيكون كما قد تخبر به ألسنة الأولياء وغير ذلك كوحي المنام وكسائر النِّعَم الواردة من باب الإلهام، فأي فائدة في تخصيص ليلةٍ من الشهر والرحمة من لدن الكريم فيّاضةٍ في سائر الدهر؟ فالجواب أنه يجب أن تعلم أن التنزلات الملكية لا تُستقصَى والنِّعَم الرحمانية الواصلة بواسطة الملائكة لا تُحصَى. فمن ذلك أن الملك يَنزل بما أمره الله أن ينزل به من أمر مّا علما، أو عملا، أو ذوقا، أو إلهاما في صناعة، أو طاعة، أو غير ذلك. فمن ذلك ما يتم في وقته، ومنه ما ينفثه في الرُّوع فيكون خَبْئا[٣] إلى أجل مسمى، ثم يظهر عند ظهور شروطه كبلوغ الصبي والوصول إلى مكة مثلا. وقد ينزل الملك بما هو كالبِزْر الذي يحتاج إلى فِلَاحَة وعمل، فتكون ثمرته غيبا وخبئا في شجرة، وشجرتُه غيبا في بِزْرته التي إنما نزل الملك بها. وذلك كالنخلة في النواة، وقد يكون أخفى من ذلك وهو كالنواة في الماء فتكون الملكوتية المُنْزِلة واحدة[٤] والمراتب مفترقة. وهذه التنزلات الملكوتية هي مستمرة في كل آن سرمدا لا تختص بليلة ولا بشهر أو سنة. ولكنه لمّا كان الوارد المحمدي ليس من قبيل الأعمال[٥] الفانيات بل من قبيل العلوم بالله أو بشِرْعة الله، فهذا لخاصته وهذا لعامته،[٦] وكان مفتتحُ الفضل الأعظم ومبدأ نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مخصوصة من هذا الشهر عادت بركةُ تلك الليلة عائدةً على أمته أبدا إلى آخر الدهر بما هو من قبيل ما أنزل إليه وأنعم به عليه فرقانا لا قرآنا. فكما كان في تلك الليلة ما لم يكن من قبل، والملائكة تتنزل دائما بما قدمناه كذلك يكون في أمثال[٧] تلك الليلة والملائكة على حالها تتنزل بما قررناه.

١ سورة الحجر، ٢١/١٥.
٢ سورة الذاريات، ٥٦/٥١.
٣ ش ن: خباء.
٤ ن: الواحدة.
٥ ن: أعمال.
٦ ك: فهذا الخاصة وهذا العامة.
٧ ن: في امثال.

ولمّا كانت هذه الليلة مفتاح البركات من جهة الوهّاب، وقد تحققت لنا فائدةُ الأدعية والعبادات من جهة الطُّلّاب نبّه[1] بها خواصَّ على التعرض للنفحات،[2] ودل بها عوامَّ على استرواح الراحات. فهي لهؤلاء أوانُ الاطلاعات ولهؤلاءِ إبّان الزراعات والتنزلات على قدر الطاعات في الأوقات المخصَّصات. ومن جحد خواص الأوقات فليجحد أوقات الصلوات ومواسمَ العبادات، كالأعياد والأصوام وساعات الجمعات والأسحار المخصوصة بالاستغفار والدعوات، ومواقيتَ الحج والأشهر المحرمات. وذلك ما يأباه صحيح[3] العقول ويشهد بضده أصحُّ المنقول.

فهذا ما أوردنا بيانه وأثبتنا بالعقل والشريعة برهانَه. فافقهه[4] غير محتجِب بمعارضة بعض الألفاظ التي أوجب لنا جَمْعَها قصدُ التفهيم وإن لم نأت بها على الوضع الأَولى في باب التعليم، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ.[5] تمت سورة الدخان. / والحمد [٣٩٢ظ] لله رب العالمين، وصلواته على محمد وآله وصحبه أجمعين. يتلوها إن شاء الله تعالى سورة الجاثية.

[1] ن: بينه.
[2] ش ك: للنفخات.
[3] ن: صحة.
[4] ن: فافقه.
[5] سورة يوسف، ٧٦/١٢.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞﴾

حمٓ. تنزيل الكتٰب من الله العزيز الحكيم. إن فى السمٰوٰت والأرض لآيٰت للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة ءايٰت لقوم يوقنون، قيل: اليقين مشاهدة الغيوب بأعين القلوب. **واختلٰف اليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق،** الماء رزق[1] وسبب لرزق. **فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريفِ الريٰح ءايٰت لقوم يعقلون،** انظر كيف بدأ بالإيمان أولا، ثم [ذكر] اليقين بما وقع الإيمان به، ثم التعقل المرقّى بعد اليقين. ثم قال بعد ذلك عما به كان ذلك[2] المنظور متلوا: **تلك ءايٰت الله نتلوها عليك بالحق. فبأىّ حديث بعد الله وءايٰته يؤمنون.**

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞﴾

ويل لكل أفاك، كذاب، **أثيم،** آثم، وغيّر للوِزان.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞﴾

يسمع ءايٰت الله تتلىٰ عليه ثم يصر، على كفره، **مستكبرا،** على الآيات، **كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم.**

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞﴾

وإذا علم من ءايٰتنا شيئا اتخذها هزوا، أي إذا وصل إليه علمٌ مهما كان من آياتنا استهزأ به، لأنه يئوّله وينظر له وجها يطعن به في القرآن كله. لهذا قال: اتخذها، ولم يقل: اتخذه. **أولٰئك لهم عذاب مهين.**

---

[1] ن: الماء سبب ورزق.

[2] ش ن – ذلك.

ولمّا كانت هذه الليلة مفتاح البركات من جهة الوهّاب، وقد تحققت لنا فائدةُ الأدعية والعبادات من جهة الطُّلّاب نبّه[1] بها خواصَّ على التعرض للنفحات،[2] ودل بها عوامَّ على استرواح الراحات. فهي لهؤلاء أوانُ الاطلاعات ولهؤلاءِ إبّان الزراعات والتنزلات على قدر الطاعات في الأوقات المخصَّصات. ومن جحد خواص الأوقات فليجحد أوقات الصلوات ومواسمَ العبادات، كالأعياد والأصوام وساعات الجمعات والأسحار المخصوصة بالاستغفار والدعوات، ومواقيتَ الحج والأشهر المحرمات. وذلك ما يأباه صحيح[3] العقول ويشهد بضده أصحُّ المنقول.

فهذا ما أوردنا بيانه وأثبتنا بالعقل والشريعة برهانَه. فافقهه[4] غير محتجِب بمعارضة بعض الألفاظ التي أوجب لنا جَمْعَها قصدُ التفهيم وإن لم نأت بها على الوضع الأَولى في باب التعليم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.[5] تمت سورة الدخان. / والحمد [٣٩٢ظ] لله رب العالمين، وصلواته على محمد وآله وصحبه أجمعين. يتلوها إن شاء الله تعالى سورة الجاثية.

[1] ن: بينه.
[2] ش ك: للنفخات.
[3] ن: صحة.
[4] ن: فافقه.
[5] سورة يوسف، ٧٦/١٢.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

حمٓ. تنزيل الكتٰب من الله العزيز الحكيم. إن فى السمٰوٰت والأرض لآيٰت للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة ءايٰت لقوم يوقنون، قيل: اليقين مشاهدة الغيوب بأعين القلوب. **واختلٰف اليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق،** الماء رزق[1] وسبب لرزق. **فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريفِ الريٰح ءايٰت لقوم يعقلون،** انظر كيف بدأ بالإيمان أولا، ثم [ذكر] اليقين بما وقع الإيمان به، ثم التعقل المرقَّى بعد اليقين. ثم قال بعد ذلك عما به كان ذلك[2] المنظور متلوا: **تلك ءايٰت الله نتلوها عليك بالحق. فبأىّ حديث بعد الله وءايٰته يؤمنون.**

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾

ويل لكل أفاك، كذاب، **أثيم،** آثم، وغيّر للوزان.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

يسمع ءايٰت الله تتلىٰ عليه ثم يصر، على كفره، **مستكبرا،** على الآيات، **كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم.**

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

وإذا علم من ءايٰتنا شيئا اتخذها هزوا، أي إذا وصل إليه علمٌ مهما كان من آياتنا استهزأ به، لأنه يئوّله وينظر له وجها يطعن به في القرآن كله. لهذا قال: اتخذها، ولم يقل: اتخذه. **أولٰئك لهم عذاب مهين.**

---

[1] ن: الماء سبب ورزق.

[2] ش ن - ذلك.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾

من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما، مهما، كسبوا. ولهذا لم يقل: ما كسبوه، شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم.

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

هٰذا هدى، أي لا ما اتخذوا، وهو على صورة الامتداح. لهذا قال: والذين كفروا بئايٰت ربهم لهم عذاب من رجز أليم.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢﴾

الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا، بها في البحر، من فضله، برّا بما فيها وبحرا مما فيه. ولعلكم تشكرون.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾

وسخر لكم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض جميعا منه، دليل لقوله تعالى: إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ.[1] فلو كانت "مِنۡهُ" هناك تدل على البعضية أو على ذات البارئ عز وجل للزم كذلك ههنا. إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يتفكرون.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤﴾

قل للذين ءامنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، إنما أمر المؤمنين أن يغفروا لغيرهم من المعاهَدين ما جَنَوْه عليهم، لا ما جاءوا به مما يجب عليه إقامة الحدود فيهم أو الجهادُ لهم. ثم تكفل الله بالجزاء للمؤمنين والكفار، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون. قرأ أبو جعفر بضم الياء الأولى وجزم الثانية[2] "ليجزى"، قال أبو عمرو: هذا لحن ظاهر.[3]

---

[1] سورة النساء، ١٧١/٤.

[2] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء، وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش؛ وقرأ أبو جعفر بالياء المضمومة وفتح الزاي مع نصب قوما، والباقون بنون العظمة مفتوحة (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٠٢).

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٥٢/١٩.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾

من عمل صٰلحا فلنفسه ومن أساء فعليها، في الدنيا يعود، **ثم إلىٰ ربكم ترجعون**، فيجازيكم في الأخرى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧﴾

وءاتينٰهم، آيات، **بينٰت من الأمر**، وهو ما نأمر به عبادنا في كل زمن بحسب ما يجب. والأمر ههنا مثل قوله: الكتٰب، إذا أراد به اسم الجنس. وإنما جُلُّ ما أمرهم به في التوراة، ومعظم الأمر اتباع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم عند مجيئه. وكانوا متفقين على مجيء رسول يجعل الله كلامه في فيه ويأمر بأمر من الله.[1] وكانوا على بينات من الأمر المنتَظر. **فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**، بأن هذا هو[2] صاحب الأمر، فاختلفوا، **بغيا بينهم**، بعد العلم. وهذا الكلام يعطي أيضا ما وقع بينهم من ضروب الاختلاف كالمذاهب[3] المختلفة في اليهود والنصارى بعد العلم بالواجب فكان ذلك منهم بغيا. ويكون اتباع هذا الرسول / من جملة ذلك. ولهذا قال: **بينهم**: [٣٩٣و]
إن ربك يقضى بينهم يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾

ثم جعلنٰك علىٰ شريعة، طريقة بينة، **من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون.**

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التثنية ١٨/١٧-١٩).

٢ ن - هو.

٣ ك: كالعذاب. وفي هامش ك: كالمذاهب.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾

هٰذا بصٰئر، وهو جمع بصيرة، للناس، أي كلهم إذا آمنوا به، وهدى ورحمة لقوم يوقنون.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢﴾

أم حسب الذين اجترحوا، بجوارحهم، وهي جمع جارحة، بمعنى فعلوا سيئة بأي جارحة كانت لأي سيئة كانت من، السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون، به لأنفسهم، لأن الأمر لو كان كما يزعمون لذهبت فائدة التكليف، ولم تُخلَق[1] السماوات والأرض إلا لأجل التكليف. ولهذا بعده: وخلق الله السمٰوٰت والأرض بالحق ولتجزىٰ كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، والمعنى أيحسب المسيئون أن نجعلهم كالمحسنين والحالة هذه، أي وقد خلقنا بالحق. وقد بيّنّا كيف خلقُ الكل بالحق.[2] ولهذا قال ههنا: بالحق، ولتجزىٰ، فافهم واو العطف بعد الخلق بالحق.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾

أفرأيت من اتخذ إلٰهه هوىٰه وأضله الله علىٰ علم، أي علم عند الله سبحانه، وهذا كقوله في سورة الدخان:[3] وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ،[4] والمعنى أضله على علم[5] بما يستحقه لا عن هوى، كما تعتقده المجبرة وتقوله[6] من أن له أن يفعل ما شاء، ولا يُسأَل عما يَفعل.[7] ولما كان هذا الإضلال بحق على علمٍ بما يستحقه المعاقَب به قال بعده: وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشٰوة فمن يهديه من بعد الله، أي من بعد عقوبة الله له بهذا العقاب. أفلا تذكرون، بمن عاقبناه على عمل السيئات بمثل هذا العقاب.

[1] ن: ولم يخلق.
[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٣٩ من سورة الدخان. وانظر أيضا: سورة الأنعام، ٧٣/٦؛ وسورة إبراهيم، ١٩/١٤.
[3] جميع النسخ: في هذه السورة.
[4] سورة الدخان، ٣٢/٤٤.
[5] ك: وعلى علم.
[6] ش: ولقوله.
[7] ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢٣/٢١).

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا، ثم قالوا مستبعدين مستفهمين استفهاما[١] يُعطي الجحود والنفي: نموت ونحيا، يعني أنموت ثم نعود نحيا بعد الموت، أي لا يكون ذلك بوجه. وما، أي وقالوا: ما يهلكنا إلا الدهر. وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا بيِّنٰت ما كان حجتهم، منصوب، لأنها خبر "كان"، وأما اسمها فهو قوله: إلا أن قالوا ائتوا بـٔابائنا إن كنتم صٰدقين.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قل الله يحييكم، وهي الحياة الأولى في الدنيا. ثم يميتكم، الموتةَ الأولى المَذُوقة في الدنيا. ثم يجمعكم، في القبور، إلىٰ يوم القيٰمة لا ريب فيه، فيبعثكم أحياء للجزاء، ودل على الحياة بذكر القيامة، ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولله ملك السمٰوٰت والأرض، فله القدرة على ما شاء فيما هو ملكه. ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وترىٰ كل أمة جاثية كل أمة تدعىٰ إلىٰ كتٰبها، يريد المُنزَّلَ إليها مع رسولها. ولهذا ذكر الأمة، كقوله: وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞ،[٢] ليعم الأولين من قبل القرآن ويَعُمَّ الآخرين من حين نزول القرآن إلى يوم القيامة. فقبْلَ القرآن كانوا أُمَمًا، وأما بعده فالجميع أمة واحدة. والاحتجاج عليهم بالقرآن، فمن كان من الأمم باقيا على كتابه فكتابه يحجّه، لأنه يأمر باتباع القرآن. فلهذا قال: كل أمة تدعى إلىٰ كتٰبها، أي إلى حكم كتابها

[١] ش + ما.

[٢] سورة يونس، ١٠/٤٧.

المنزَّل عليها مع نبيها المرسل إليها. وأما قوله بعد ذلك: هٰذا كتٰبنا، فإنه يريد ما[1] كتبته الحفظة من أعمال العباد. وجُمع بلفظ الامة[2] لأن الجميع يعود إلى كتابين كتاب الأبرار وكتابِ الفجّار، ولهذا بعده: اليوم تجزون ما كنتم تعملون.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾

[٣٩٣ظ] هٰذا كتٰبنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون، فافهم / أنه ليس المراد بعد الأول إلا ما كتبته الملائكة. ولهذا قال أولا: إِلَىٰ كِتَٰبِهَا،[3] ثم قال: هٰذا كتٰبنا، ثم بيّنه. وأما شهادة الكتب المنزَّلة عليهم فهو ههنا بعد قوله: فأما الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت فيدخلهم ربهم فى رحمته ذٰلك هو الفوز المبين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾

ثم قال: وأما الذين كفروا، يقول لهم: أفلم تكن ءايٰتى تتلىٰ عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾

وإذا قيل، أي وكنتم إذا قيل: إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين، فهذا هو شهادة الكتبِ المنزَّلة عليهم مع شهادة ما كتبتْه الحفظة. ولما كان تكذيب الرسل أسوأَ الأعمال ذكر الله الكتب المنزلة أولا، ثم تلا ذلك بقوله: إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون، فدخل التكذيب في جملة الأعمال.

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣﴾

وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، من الوعيد.

[1] ك ن – ما.
[2] أي كل أمة، بمعنى جميع الأمم.
[3] من الآية السابقة.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وقيل اليوم ننسٰكم كما نسيتم لقاء يومكم هٰذا، أي نسيانَ إهمال لا نسيان إغفال. ومأوٰكم النار وما لكم من نٰصرين.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم احتج عليهم بما أنزل إليهم من أول الزمان إلى آخره، لأن الكتب المتقدمة أُمرت باتباع الكتاب المتأخر فقال: ذٰلكم بأنكم اتخذتم ءايٰت الله هزوا وغرتكم الحيوٰة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

ولما كان الإنعام عامّا على سائر الآنام بالكتب والعقول، والتمكين من الاجتناب والاكتساب، وتحققِ الكفار أن دخولهم إلى النار إنما هو من قبل أنفسهم، وأن الفضل قد عمّهم من بارئهم كما عم المؤمنين لزم أن يكون الله سبحانه محمودا من الفريقين، وأنّ كفر الكفار لم يكن قادحا في ربوبيته ولا في كبريائه وعزته. فلهذا قال بالفاء ما معناه: وإذا كان ظلمُهم لأنفسهم عائدا عليهم[١] وإحسانُنا لم يزل واصلا إليهم: فلله الحمد رب السمٰوٰت ورب الأرض رب العٰلمين، وله الكبرياء فى السمٰوٰت والأرض. وهو العزيز الحكيم.

---

[١] ش: إليهم.

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

حمٓ. تنزيل الكتٰب من الله العزيز الحكيم. جاء ما تأخر من أسمائه سبحانه في آخر السورة من قبلُ، فبدأ[1] أول[2] هذه السورة مِن بعدُ، وختم في تلك بما بدأ به فيها من ذكر "العزيز الحكيم". وهذه الحواميم السبع بمنزلة سورة واحدة. ولهذا جاء شعارها واحدا. وزاد في بعضها "عسق" إعلاما بما ذكرناه فيها. ولمّا كان ذكرُ "الكتاب" أو "التنزيل" في سائر هذه السبع وقد نزلت متفرقةً جاء شعارُ الجميع حمٓ، ولهذا جُعلت في القرآن مجتمعةً. وإذا تأملت مفتتحَ السور والأسماءَ وجدت مناسَبَةً لا بد تقتضي تلك الأسماء مع ذلك الكلام؛ كقوله في أول سورة المؤمن: ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ، ثم تلا ٱلْعَلِيم بقوله: غَافِرِ،[3] وكقوله في فصلت: ٱلرَّحِيم، تلاه بقوله: بَشِيرًا.[4] فافقه ذلك وأمثاله.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

ما خلقنا السمٰوٰت والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل، وبأجل، **مسمى**، لأن العلم الأزلي[5] لمّا كان متقدما بما سيكون كان لا شك في أجل مسمى، ولم يكن لازما للذات كلزوم الصفات، لأن الحدث الذي لم يكن لمّا وقع ممن لم يزل لزم كونه بالأجل، لا عن عبث ولا اتفاق بل عن اختيار وحكمة. ولهذا قدم، العزيز الحكيم.[6] ولما كان حدث الكون بأجل مسمى فكذلك زواله يكون بأجل مسمى. **والذين كفروا عما أنذروا**، به من خالق السماوات والأرض وهو القرآن الدال على[7] زوال السماوات والأرض وغير ذلك مما تضمنته الإنذار، **معرضون**، أي إلى آلهتهم.

---

١ ن: مبدأ.

٢ جميع النسخ: الأول.

٣ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ (سورة المؤمن، ٢/٤٠-٣).

٤ ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (سورة فصلت، ١/٤١-٤).

٥ جميع النسخ: الأزل.

٦ الآية ٢ من هذه السورة.

٧ ك ن + أن.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾

[٣٩٤و] **قل أرءيتم ما تدعون من دون الله أرونى** / **ماذا**، أيّ شيء هو الذي، **خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السمٰوٰت**، أي في خلق أو أمر. ولا يعارض هذا بأن عيسى خَلق من الطين كهيئة الطير[1] فإن ذلك بالإذن، والفاعل بالإذن من غيره عبدٌ لمن أذن له. **ائتونى بكتٰب من قبل هٰذا**، القرآنِ يشهد بأنهم آلهة من دون الله، **أو أثٰرة**، أُثرَة وأثارة مؤنثة أَثر، وتؤنث للتقليل لأن الأثر يدل على كثير وهو يريد ههنا أُثرَة ما، **من علم**، ولهذا قاله منكّرا، و"مِن" للتبعيض، وأخّر الأَثْرَة ليعود الكلام دالا على الثاني مع احتمال عودته على الأول. فأما الثاني فهو أنهم لا يأتون بكتاب ولا بأَثْرَةٍ من علم يدل على دعواهم. وأما الأول فهو أن آلهتهم لا تَخلق وليس لها شركٌ بمعنى شركة في السماوات ولا في أثارة من علم، لأن من لا يَعلم كيف يَخلق؟ **إن كنتم صٰدقين**.

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾

ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له، ولو دعاه، **إلىٰ يوم القيٰمة وهم**، الآلهة، **عن دعائهم**، دعاء الداعين، **غٰفلون**، لاحتمال أنهم قد لا يستجيبون لكنهم غير غافلين.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾

وإذا حشر الناس كانوا، الآلهة، **لهم أعداء وكانوا**، الداعون، **بعبادتهم**، للآلهة، **كٰفرين**، وهذا كقوله: يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ.[2] لأن من كفر بالمعبود فقد كفر بالعبادة له، وكذلك إن كفر بالعبادة. ويحتمل أنهم إنما يكونون كفارا من أجل

---

[1] ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٩). وانظر أيضا: سورة المائدة، ٥/١١٠.

[2] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٥).

أنهم عبدوا غير الله، لأن العبادة تعطي الإيمان. فالمراد أن هؤلاء بنفس العبادة عادوا كفارا، كما أن المؤمنين هم بنفس العبادة صاروا مؤمنين، أعني أثّرت عبادة هؤلاء كفرا وعبادةُ هؤلاء إيمانا. ويحتمل أن الآلهة تَجحد عبادة العابدين لها، كقولهم: مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ.[١] وجميع هذه الاحتمالات لائقة بهذا الكلام ومذكورة في القرآن، كلٌّ منها في موضعه، والأول هو الأولى ههنا. ولهذا لم يقل: لعبادتهم، فتأمل لتفهم جيدا. ولهذا لم يعطف على الآلهة بل على العابدين، فقال: **وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا بيّنٰت قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هٰذا سحر مبين.**

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

أم، تأتي في بعض المواضع بمعنى إمّا، أي[٢] يقولون إما هذا وإما هذا. فهؤلاء يقولون: هذا إما أنه سحر وإما كذب، وهو الافتراء، **يقولون افترىٰه؟ قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا**، أي من نفع أو ضرّ. **هو أعلم بما تفيضون فيه**، أفاض في الأمر إذا دخل فيه وهي استعارة. ويقال: هذا كلام مستفاض بين الناس، أي شائع. فالمراد الله أعلم بما تُشيعون في أمري وفيما جئتكم به. **كفىٰ به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم**، لمن آمن بعد كفره وإن كان كفره عظيما كما ادعيتم ودعوتم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

قل ما كنت بدعا من الرسل، أي لم أكن بدعا لله[٣] سبحانه فجئتكم بما لم يأت به غيري، بل إنما أرسلني ربي كما أرسل مَن قبلي. **وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلىّ وما أنا إلا نذير مبين.**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

---

١ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (سورة القصص، ٦٣/٢٨).

٢ ن: أن.

٣ ش ك – لله.

قل أرءيتم إن كان، هذا القرآن، من عند الله وكفرتم به، بالقرآن، وشهد شاهد من بنى إسرٰءيل علىٰ مثله، أي[1] على صحة مثله. كأنه قال: أَشْهَدُ أن مثل هذا الكتاب لا يكون إلا من عند الله، والمراد هو، فافهم. فئامن، الشاهد به، واستكبرتم، ثم أضمر محذوفا معناه ألستم من الظالمين لأنفسهم؟ إن الله لا يهدى القوم الظّٰلمين، إجبارا بل يضل الله الظالمين جزاء، لأنه هداهم فكذّبوا فعاقبهم بأن يُمِدَّهم في
[٣٩٤ظ] طغيانهم، كقوله: / وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.[2] فافهم قوله: علىٰ مثله، فإنه لمّا قال: إن كان، لزم أن يقول: علىٰ مثله. ولمّا قال: وشهد شاهد، ولم يقل: رجل علمنا أنه أراد شاهدا على مثله يعتمد بنو إسرائيل. فإذا شهد بصحة مثل هذا القرآن لزمتهم الحجة البالغة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

وقال الذين كفروا، اليهود وهو عامّ، للذين ءامنوا، المراد عن الذين آمنوا [من] منهم بالقرآن، لأن الكلام ههنا تقدم في القرآن[3] بقوله: إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ، وفيمن آمن من بني إسرائيل بقوله: فَـَٔامَنَ.[4] وعبر ههنا باللام في قوله: للذين، كقوله: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ،[5] أي عن الحق، فافهم ذلك. ولهذا بعده: لو كان، أي القرآن، خيرا ما سبقونا إليه، أي بل كنا نحن أولى بالسبق، لأننا أخبرُ منهم. وإذ، ولم يقل: وإذا، لأنه لو قال: وإذا لكان الكلام دالا على السابقين إلى الإيمان، وإنما الكلام عن الكفار[6] القائلين، ومعناها ولكونهم لم يهتدوا به، فافهم ذلك متأملا؛ وكذلك لم يقل: وإن في موضع وإذ، لم يهتدوا به، بالقرآن. فسيقولون، أي مقالتهم في المستقبل دائما: هٰذا إفك قديم، أي هو كان من قبلُ مختلَقا[7] من غيره من البشر فتعلّمه هذا؛ وهو معنى [قوله:] إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ،[8] والمعنى لو لم يكن إفكا لآمنّا به.

١ ش – أي.

٢ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٠/٦).

٣ ك ن: على القرآن.

٤ من الآية السابقة.

٥ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة سبأ، ٤٣/٣٤).

٦ ن: على الكفار.

٧ ش: مختلفا.

٨ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل، ١٠٣/١٦).

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

فرد الله عليهم بقوله: ومن قبله كتٰب موسىٰ، أنزلناه، إماما، لبني إسرائيل يأتمون به، ورحمة. وهٰذا كتٰب مصدق، لكتاب موسى، لسانا عربيا، أي بلسان، المراد بلغة، لينذر الذين ظلموا وبشرىٰ للمحسنين. لا يناقض قوله: إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ،[1] لأن المعنى إنما تنذر فينفع[2] إنذارك لمن اتبع لا لغيره، وغيرُه تنذره فلا يفيده بل يبقى إنذارك له حجة عليه، فكأنك لم تنذره. فافهم المعنى جيدا في مثل ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ولمّا قال ههنا: لِيُنذِرَ،[3] مدح المؤمنين به فقال: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقٰموا، تقديره: لهم البشرى، ودل على ذلك بقوله بالفاء: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هذه علامة المستقيم مع الله في إيمانه، لأنه لقيامه بالأمر والنهي لا يُخاف عليه من الوقوع في أمر يُذهب عنه ما يبقى في الآخرة ولا هو يَحزن من فوات ما يفنى في الدنيا. وهذا حاله في الدنيا، فافهمه جيدا، وافهم كونه لم يقل: لا يخافون، بل، لا خوف عليهم. وزاد قوله: هم، فهؤلاء، لا خوف عليهم، من جهة الله، ولا من جهة الناس، ولا من جهة النفس، ولا الشيطان لأنهم استقاموا. وانظر كونه لم[4] يقل: لا خوفٌ، بل بالفاء وإن كان ما قدمناه حسنا، لكن هذا أحسن. وذلك أن الفاء دلت على أن الجملة في محل الابتداء وهو الموضوع، فيكون خبره المحمول عليه: أولٰئك أصحٰب الجنة خٰلدين فيها،[5] نصب على الحال فيها، جزاء، على المصدر، بما كانوا يعملون.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

---

١ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (سورة يس، ١١/٣٦).

٢ ك ن: فيفيد. وفي هامش ك: فينفع.

٣ من الآية السابقة.

٤ ش ك: كونه ولم.

٥ ش ن - فيها.

قل أرءيتم إن كان، هذا القرآن، من عند الله وكفرتم به، بالقرآن، وشهد شاهد من بنى إسرٰءيل علىٰ مثله، أي[1] على صحة مثله. كأنه قال: أَشْهَدُ أن مثل هذا الكتاب لا يكون إلا من عند الله، والمراد هو، فافهم. فـءامن، الشاهد به، واستكبرتم، ثم أضمر محذوفا معناه ألستم من الظالمين لأنفسهم؟ إن الله لا يهدى القوم الظٰلمين، إجبارا بل يضل الله الظالمين جزاء، لأنه هداهم فكذّبوا فعاقبهم بأن يُمِدَّهم في طغيانهم، كقوله: / وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.[2] فافهم قوله: علىٰ مثله، فإنه لمّا قال: إن كان، لزم أن يقول: علىٰ مثله. ولمّا قال: وشهد شاهد، ولم يقل: رجل علمنا أنه أراد شاهدا على مثله يعتمد بنو إسرائيل. فإذا شهد بصحة مثل هذا القرآن لزمتهم الحجة البالغة. [٣٩٤ظ]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

وقال الذين كفروا، اليهود وهو عامّ، للذين ءامنوا، المراد عن الذين آمنوا [من] منهم بالقرآن، لأن الكلام ههنا تقدم في القرآن[3] بقوله: إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ، وفيمن آمن من بني إسرائيل بقوله: فَـَٔامَنَ.[4] وعبر ههنا باللام في قوله: للذين، كقوله: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ،[5] أي عن الحق، فافهم ذلك. ولهذا بعده: لو كان، أي القرآن، خيرا ما سبقونا إليه، أي بل كنا نحن أولى بالسبق، لأننا أخبرُ منهم. وإذ، ولم يقل: وإذا، لأنه لو قال: وإذا لكان الكلام دالا على السابقين إلى الإيمان، وإنما الكلام عن الكفار[6] القائلين، ومعناها ولكونهم لم يهتدوا به، فافهم ذلك متأملا؛ وكذلك لم يقل: وإن في موضع وإذ، لم يهتدوا به، بالقرآن. فسيقولون، أي مقالتهم في المستقبل دائما: هٰذا إفك قديم، أي هو كان من قبلُ مختلَقا[7] من غيره من البشر فتعلّمه هذا؛ وهو معنى [قوله:] إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ،[8] والمعنى لو لم يكن إفكا لآمنّا به.

---

١ ش – أي.

٢ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٠/٦).

٣ ك ن: على القرآن.

٤ من الآية السابقة.

٥ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة سبأ، ٤٣/٣٤).

٦ ن: على الكفار.

٧ ش: مختلفا.

٨ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل، ١٠٣/١٦).

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا
لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾

فرد الله عليهم بقوله: **ومن قبله كتٰب موسىٰ**، أنزلناه، **إماما**، لبني إسرائيل يأتمُّون به، **ورحمة**. **وهٰذا كتٰب مصدق**، لكتاب موسى، **لسانا عربيا**، أي بلسان، المراد بلغة، **لينذر الذين ظلموا وبشرىٰ للمحسنين**. لا يناقض قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾،[1] لأن المعنى إنما تنذر فينفع[2] إنذارك لمن اتبع لا لغيره، وغيرُه تنذره فلا يفيده بل يبقى إنذارك له حجة عليه، فكأنك لم تنذره. فافهم المعنى جيدا في مثل ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾

ولمّا قال ههنا: ﴿لِّيُنذِرَ﴾،[3] مدح المؤمنين به فقال: **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقٰموا**، تقديره: لهم البشرى، ودل على ذلك بقوله بالفاء: **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**. هذه علامة المستقيم مع الله في إيمانه، لأنه لقيامه بالأمر والنهي لا يُخاف عليه من الوقوع في أمر يُذهب عنه ما يبقى في الآخرة ولا هو يَحزن من فوات ما يفنى في الدنيا. وهذا حاله في الدنيا، فافهمه جيدا، وافهم كونه لم يقل: لا يخافون، بل، **لا خوف عليهم**. وزاد قوله: هم، فهؤلاء، **لا خوف عليهم**، من جهة الله، ولا من جهة الناس، ولا من جهة النفس، ولا الشيطان لأنهم استقاموا. وانظر كونه لم[4] يقل: لا خوفٌ، بل بالفاء وإن كان ما قدمناه حسنا، لكن هذا أحسن. وذلك أن الفاء دلت على أن الجملة في محل الابتداء وهو الموضوع، فيكون خبره المحمول عليه: **أولٰئك أصحٰب الجنة خٰلدين فيها**،[5] نصب على الحال فيها، **جزاء**، على المصدر، **بما كانوا يعملون**.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ
شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾

---

١ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ (سورة يس، ٣٦/١١).

٢ ك ن: فيفيد. وفي هامش ك: فينفع.

٣ من الآية السابقة.

٤ ش ك: كونه ولم.

٥ ش ن – فيها.

ووصينا الإنسٰن بوٰلديه إحسٰنا، تقدم.[١] حملته أمه كرها ووضعته كرها، المراد آلام الحمل وشدته وأوجاعه في مدته لا في أوله فقط. ولمّا كان في ذلك مشقة وما أحد إلا يكره المشقة سماه كُرها. وحَمْلُه وفصٰله ثلٰثون شهرا. قيل: لأن أقل مدة الحمل ستة أشهر تضاف إلى حولين هما مدة الرضاعة. والأَولى من مفهوم هذه الألفاظ أنه أراد الإشعار بما يلزم عنه بيان الحولين الغيرِ كاملين، وذلك أحد وعشرون شهرا فيقتضي أن يكون من حق الولد أن يُرْضَع هذا القدر. وهذا الحق على الوالدة المطلّقة يلزمها كما بيّنّا في قوله: وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ.[٢] ومن أراد أن يتمم فليكمّل، فافهمه جيدا، حتىٰ إذا بلغ أشده، وهو الحُلم، وبلغ، بعد ذلك، أربعين سنة، بدأ بما يجب[٣] عليه من حين البلوغ وهو الأشد إلى الأربعين، إذ هي نهاية التزيد / في نموّ [٣٩٥و] البدن والشباب، ودونها لا يَكْمُل العقل، ثم بعدها يبتدئ الضعف. قال رب أوزعنى، تقدم في النمل،[٤] أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلىٰ وٰلدىّ، أراد الإسلام، لأنه لمّا أنعم الله على والديه بالإسلام أولا كانت النعمة على الولد أخيرا فلزم الولدَ الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه. وذلك تعليم في معرض الحكاية من حين بلوغ الأشدّ إلى الأربعين ومن الأربعين إلى آخر العمر. ولهذا كرر لفظة "أن" بقوله: وأن أعمل صٰلحا ترضىٰه وأصلح لى فى ذريتى، أي واجعل لي في ذريتي صلاحا، كما تقول: بارك الله لك في هذا. ولا تفهم: واجعل لي في ذريتي صالحين، فيلزم أن يكون فيها غير صالح. ولمّا كان الكلام الذي يحسن بالمؤمن حين الأشدّ إلى الأربعين يَحسُن به بعد الأربعين، وما بعد الأربعين يحسن به قبلُ أيضا جاء الكلام جملة. فذكر الأشدَّ والأربعين وذكر الكلامين متتابعين، وفيهما مفهوم التفصيل ومفهوم الإجمال. إنى تبت إليك وإنى من المسلمين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾

---

[١] انظر للإحسان بالوالدين: سورة الأنعام، ١٥١/٦؛ وسورة الإسراء، ٢٣/١٧؛ وسورة العنكبوت، ٨/٢٩.

[٢] ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ (سورة البقرة، ٢٣٣/٢).

[٣] ك ن: بما يرجع.

[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة النمل، ١٩/٢٧).

ثم مدحهم الله سبحانه ولم يقل: ذلك بل، أولٰئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، وهم القائلون من حين التكليف إلى الأربعين وبعدها. ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحٰب الجنة، أي هم في جملة أصحاب الجنة. وَعْدَ، نصب على المصدر، الصدقِ الذى كانوا يوعدون.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

والذى قال لوٰلديه أف لكما أتعداننى أن أخرج، من القبر حيًا، وقد خلت القرون من قبلى، وما أحد منهم أُخرِجَ. وهما يستغيثان الله، أي اتق الله، كما تقول: الأسدَ، أي خفْ الأسد. ويحتمل ما معناه، يستغيثان، من سوء معاملته لهما إلى الله، ويقولون له: ويلك ءامن، بالقرآن. إن وعد الله حق. فيقول ما هٰذا، القرآن، إلا أسٰطير الأولين. هذا القول لا يلزم أنه لا يكون إلا باللسان بل نفس الأفعال يلزم عنها اعتقادُ هذه الأقوال. واعلم أنه لمّا كان المراد ما يستقر في أفهام الخلق من تعظيم الحق[1] ذكر الله عز وجل البعثَ[2] الذي هو أبعد ما في العقول، وأمر[3] بالإيمان به إعلاما أن هذا المخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة حتى يُرَدَّ إلى أرذل العمر[4] في مدة مديدة، [ثم] يعيده الله بنفخة من عبد يُؤْمَر[5] فيقوم الكل أحياء؛ فلا شك أن القادر المطلق يجب عقلا أن يكون قادرا على هذا. فإذا كان قادرا على الإيجاد بهذه السرعة وقد أوجد أولا على تلك الصورة المذكورة بالتراخي والتدريج فذلك لحكمة تعود على العباد. وليست[6] [هي] إلا التكليف وقيامَ الحجة عليهم بما يصح في أفهامهم، كقوله: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم.[7] ثم لَيقول لهم يوم القيامة يوم يعرضون على النار: أليس هٰذا بالحق.

---

١ ش + ولد الله.

٢ ن: بالبعث.

٣ ن: وآمر.

٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

٥ أي من عبد وُكِّل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام.

٦ جميع النسخ: وليس.

٧ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (سورة فاطر، ٣٧/٣٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾

أولٰئك الذين حق عليهم القول فى أمم،[١] هم في جملة أمم، قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خٰسرين.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾

ثم أخبر الله سبحانه عن الفريقين بقوله:[٢] ولكل، من الفريقين في الجنة والنار، درجٰت، على اختلاف طبقات المؤمنين والكفار، مما عملوا، فهؤلاء يَصعَدون وهؤلاء يَهبِطون. فنفسُ صعودهم هو المعبر عنه بالدرجة استعارة، وكذلك الآخرون، وليوفيهم أعمٰلهم وهم لا يظلمون.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

ويوم يعرض الذين كفروا على النار، أذهبتم طيبٰتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، هذا تصريح مُنبّه على ترك الملاذّ الجسمانية والحظوظِ النفسانية نفسا وجسما وعقدا وعزما. فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون.

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾

[٣٩٥ظ] / واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف، أرض خلالها رمل في قول الحسن.[٣] وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه، يدل على ما ذكرناه من أن المراد بقوله: بين يديه، ما حضر، ومن خلفه، ما غبر. ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. اعلم أن زبدة الحياة وجملة الرسالات ونهاية المطلوب من الأمم في العرب والعجم،

١ ك - أمم.

٢ ن: والكفار.

٣ لم أعثر على قول الحسن فيما بين يدي من المصادر. | وقال الزمخشري في تفسيره: الأحقاف: جمع حِقْف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء. انظر: الكشاف، ٥٠٤/٥.

أن لا تعبدوا إلا الله. وعلى هذا المطلب العلي تترتب سائر المصالح، وبه يجزى الصالح والطالح. ومن رأى الله قُدّامَ كُلِّ شيء حجبه عن هواه، ومن رأى هواه حجبه عن الله.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾

ولمّا اختلفت الأهواء تنوعت الآلهة. فضرب الله الأمثال لكل عابدِ هواه في حال من الأحوال فقال: قالوا أجئتنا لتأفكنا، لتردّنا بالكذب والإفك، عن ءالهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّٰدقين.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾

قال إنما العلم، بالوقت الذي يأتيكم به ما وعدتُكم، عند الله، وأبلغكم ما أرسلت به ولٰكنى أرٰىكم قوما تجهلون، على أنفسكم باستعجال العذاب، فيوشك أن يُعجّل لكم.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾

فلما رأوه، أي العذاب عارضا، كعارض، مُستقبِلَ أوديتهم، جاءهم من جهة الشمال، واستقبل الأودية فاقتلعهم من مساكنهم ورمى بهم في أوديتهم. قالوا هٰذا عارض ممطرنا، فقال الله: بل هو ما استعجلتم به، من العذاب. وفسر العارض بقوله: ريح فيها عذاب أليم.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾

تدمر كل شيء، يأمرها الله[1] أن تدمره، أي في قوتها ذلك، بأمر ربها. ولولا الأمر لَمَا قال: فأصبحوا لا يرى إلا مسٰكنهم، لأن المساكن شيء وأراد بذلك أيضا قوة المساكن وعظمها بحيث إن الريح التي أَهلكتِ السُّكّانَ لم تَنْسِف المساكن لقوتها وما هي عليه من الإحكام. وفيه إشعار أن مساكنهم لا تُرى إلا كذلك، أي مُدمَّرة مُهلَكة. ثم قال: كذٰلك نجزى القوم المجرمين، أي إذا شئنا الانتقام منهم في الدنيا، لأن القادر على الانتقام من القويّ هو على الضعيف أقدر.

---

١ ك ن: يأمر الله.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولهذا بعده: **ولقد مكنّهم فيما إن مكنّكم فيه**. قوله: **فيما**، معناها في الذي، و"إن"، ههنا بمعنى النفي، تقول: إن فعلتُ هذا أبدا، فليست "إن" بزائدة، ودليله قوله تعالى: مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ.[1] **وجعلنا لهم سمعا وأبصٰرا وأفئدة**، أي لتقوم عليهم الحجة[2] وتتضح عليهم المحجة. **فما أغنىٰ عنهم سمعهم ولا أبصٰرهم ولا أفئدتهم من شيء**، يصيبهم من عذاب الله، **إذ كانوا يجحدون بئايٰت الله**، أي بتصديقها ويلزم أنهم لو لم يجحدوا لأغنى. فلمّا استعملوا الجوارح المذكورة في غير ما خُلقت لهم من أجله ما أغنت عنهم، أي ما أغنى عنهم ما كسبوا بها. **وحاق**، وحاط، **بهم**، من العذاب، **ما كانوا به يستهزءون**.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولقد أهلكنا ما حولكم من القرىٰ، أي من كل جانب، وهذا يعطي العموم لكل مُهلَك من أول الزمان إلى ذلك الآن لِما كذبوا. **وصرفنا الآيٰت**، لهم قبل الإهلاك، **لعلهم يرجعون**. وتصريف الآيات تصييرها[3] تارة في الإعجاز، وتارة في الإهلاك، وتارة في التذكير بالنِّعَم، وتارة في التخويف بالنِّقَم، وهذا التصريف مشتمل على الأقوال والأفعال منه سبحانه، فافقه.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله، ليتقربوا بهم بزعمهم إلى الله، **قربانا**، قُربا وقُربانا، كما تقول: شُكرا وشُكرانا، وقوله: **ءالهة**، أي من الآلهة التي يتقربون بها. **بل ضلوا عنهم وذٰلك إفكهم**، أي هو كذبهم، ولهذا لم ينفع ولم ينصر، إذ ليسوا في الحقيقة آلهة بل، **إفكهم**، هم، **وما**، والذي، **كانوا يفترون**، منسوق بقوله: **الذين اتخذوا من دون الله**، وأخِر للوزان.

---

[1] ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٦).

[2] ن: حجة.

[3] جميع النسخ: تصيرها، والمثبت من م.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمّا / ذكر الموصوفين بالقوة من الإنس قال:[١] **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن،** [٣٩٦و]
فهم مصروفون بأمر الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما لقدره عن أن يُصرف هو إليهم، وليكون المرسَلُ إلى الجن رُسُلا منهم إليهم صُرفوا إلى الرسول، **يستمعون القرءان.** واعلم أنه إذا غلب على الإنسان شيطانُه[٢] كان جنيا شيطانا، وكذلك إذا غلب عليه صفاتُ القِرَدة والخنازير وغير ذلك، وليس المراد ههنا ذلك بل الجن المخلوقون لا صفاتُ البشر. **فلما حضروه،** هم من تلقاء أنفسهم ولهذا لم يقل: فلما أُحْضِروا،[٣] بل أراد الإعلامَ بأن الله صرفهم لخير أراده بهم. والصرف تمييل القلب إلى جهة، كقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[٤] عن المنافقين. وأما هؤلاء فلما صُرفوا حضروا القرآن أي حين نزوله وتلاوةِ الرسول له. **قالوا أنصتوا،** لنسمع هذا. **فلما قُضى،** وحيه إليك وأسمعتهم[٥] منه ما أسمعتهم،[٦] **ولوا إلىٰ قومهم منذرين،** لهم بما سمعوه، فهؤلاء هم المبعوثون إلى قومهم. وبعثهم لازم عن صرفهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قالوا يٰقومنا إنا سمعنا كتٰبا أنزل من بعد موسىٰ، كما تقول مستعظما: إني رأيت اليوم سيفا، أي يَا مَا أَحْسَنَه وما أَجْوَدَه! **مصدقا لما بين يديه،** وصفٌ له أيضا. **يهدى إلى الحق،** وصف زائد على ما قالوه[٧] مستحسنين مستعظمين، **وإلىٰ طريق مستقيم،** وصف كذلك. فاعلم أنه كان عليه السلام رسولا إلى الجن لا بلسانه لكن بألسنة المستمعين، فيصح أن يقال: إنه رسول إليهم ولكنه عليه السلام أعلى قدرا. فجعل الله الواسطة

---

١ ن – قال.
٢ ش: فشيطانه.
٣ ش: حضروا.
٤ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة، ١٢٧/٩).
٥ ك: وأسمعهم. وفي هامش ك: وأسمعتهم
٦ ش: واستمعتهم.
٧ ش: ما قالوا.

نفرا منهم إليهم يأمرونهم باتباع النبي عليه السلام. ولهذا قالوا لهم: **يٰقومنا أجيبوا داعى الله وءامنوا به**، أي بالله. لهذا بعده: **يغفر لكم من ذنوبكم**، أي ما تقدم، وهذا فائدة "من" لئلا يلزم غفرانُ ما تأخر، فمهما دام الإيمان فالمغفرة دائمة، وهذا في الدنيا. **ويُجِرْكم من عذاب أليم**، في الآخرة.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى ما يحسن أن يكون من قول الجن لقومهم وهو قول منه سبحانه للإنس والجن: **ومن لا يجب داعى الله**، أي من سائر خلقه، **فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء**، ينصرونه. **أولٰئك فى ضلٰل مبين**.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

فلما ذكر سبحانه عظماء الإنس ثم عظماء الجن ذكر ما هو أشدُّ خلقا وأعظمُ صنعا إنباءً عن قدرته على ما هو مستحيل في عقول بعض العباد من أمر البعث والمعاد فقال: **أولم يروا**، من رؤية القلب المدلول عليها برؤية العين، **أن الله الذى خلق السمٰوٰت والأرض ولم يعى بخلقهن**، لأن الإعياء[1] من الصانع يوجب تغيرا واختلالا في الصنعة. فهيئة السماوات وثباتُها[2] دليل على أنه سبحانه وتعالى، لم يعى بخلقهن. وقوله بالباء: **بقٰدر**، تقدم الكلام على مثل هذه الباء. والمعنى أولم يروا أن من قدر على أن يخلق ابتداء هذا الشيء العظيم أحق بالقدرة، **على أن يُحْيِيَ الموتىٰ، بلىٰ إنه على كل شىء قدير**.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هٰذا، الجزاء والعذاب، **بالحق؟ قالوا بلىٰ وربنا. قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**.

---

[1] أعيا الرجل في سيره: تعب تعبا شديدا (المعجم الوسيط، «عيّ»).

[2] ش – وثباتها.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمّا تحققت القدرة وقامت الحجة في الأفهام بهذا الكلام خاطب النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال له بالفاء، أي وإذ ظهر الحق ولزم: **فاصبر**، على تكذيبهم وأذاهم، **كما صبر أولوا العزم من الرسل**، والمخصَّص منهم بالذكر لعظم قدره هو ما قاله تعالى في الآية: إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ،[1] وتمام الآية. والمقصود قوم كان لهم عزم على إمضاء ما أُمروا به فصبروا على ما كذبوا وأوذوا.[2] **ولا تستعجل لهم**، بالعذاب كما استعجلوا لأنفسهم مَن قبلهم. فالأمر قريب، **كأنهم يوم يرون / ما يوعدون لم يلبثوا**، في ملاذّهم ودنياهم وقبورهم، **إلا ساعة من نهار**. ثم قال تعالى: **بلٰغ**، أي هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ،[3] كما تقول نداء: يا قوم، **فهل يهلك إلا القوم الفٰسقون**. [٣٩٦ظ]

١ ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (سورة النساء، ١٦٣/٤).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير به إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ (سورة الأنعام، ٣٤/٦).

٣ انظر: سورة إبراهيم، ٥٢/١٤.

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمٰلهم، عن سبيل الله. والمراد أنه عاقبهم في الدنيا على الذنوب بالطبع على القلوب لمّا كانت الذنوب كفرا. فلم يُمكنهم من عمل يتوب به عليهم، فأضلهم في أعمالهم. ومثل ذلك في أقوالهم، كقوله: وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ.[1]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾

هذا هو المحكم الذي من وعاه لا يحتاج مغه إلى سواه في نفي الجبر وتحقيق الكسب، وعدل الرب واعتقادِ أن الله تعالى إنما يُضل عقابا لمن كفر هو من نفسه؛ فإن الإنسان قد مكّن، فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن.[2] ومن كفر بعد ما تبين له الهدى أضله الله عقابا له أبدا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾

ثم زاد هذا التعريف بيانا بالتعليل فقال: **ذٰلك بأن،** باء السبب، أي بسبب، **أن الذين كفروا اتبعوا البٰطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذٰلك يضرب الله للناس،** أي بأجمعهم، **أمثٰلهم،** أي المضروبة لهم في جميع القرآن.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤﴾

---

[1] سورة الرعد، ١٣/١٤.

[2] ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٩).

فلما تحقق العدل من الله وحق على الكافر الضلال والقتالُ بميله إلى هواه قال بالفاء ما معناه: وإذ قد ثبت ذلك الإضلال بِمُحِقّ:[١] **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**،[٢] مصدر منصوب بالأمر حذفت ألفه لإضافته إلى الرقاب.[٣] **حتىٰ إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق**. يقال: أثخنته بالضرب إذا بالغ في ضربه كأنه صار ثخينا، وهي استعارة تدل على العجز. ولهذا قال عن الجميع: **أثخنتموهم**، فبعد هذا، **فشدوا الوثاق**، أوثقه بالحبل إذا كَتَفه[٤] وكأنه جعله على ثقة من نفسه بالعجز لا يظن غير ذلك. والمعنى أنهم أُمروا بالقتل أولا إلى أن يُثخنوا، ثم بعد ذلك لهم أن يَأسِروا، لأن المقاتل إذا أسر خصْمَه أولا اشتغل به عن مقاتلةِ آخَرَ، فهو كقوله تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ،[٥] الآية. ولمّا فَهِم الحسن وعطاء وعمر بن عبد العزيز هاتين الآيتين قالوا: ليست هذه[٦] ههنا منسوخة بتلك.[٧] وخالف غيرُهم لأنه لم يفهم ما أزال المناقضة، وإذا لم تكن مناقضة فلا نسخ. **فإما منا بعد**، أي إطلاقا[٨] لتظهر القدرة والغلبة التامة، ولحِكَمٍ يفهمها من يلتمس علْمَها بالتأمل. **وإما فداء حتىٰ تضعَ الحرب أوزارها**، أي فيجوز الأسر حينئذ. ومعنى [قوله:] **تضع الحرب**، أي رجالُ الحرب أثقالَهم من السلاح، أي فضَرْبَ الرقاب إلى أن تضع الحُمَاةُ الأسلحةَ بمعنى حتى يَكُفُّوا القتال. والأَولى أنه توسعٌ في العبارة بمعنى حتى يَرميَ القتالُ ثِقلَه عنكم، أي إذا قتلتم وأسرتم زال ما يثقل عليكم من حرب الأعداء من أجل طمأنينة قلوبكم بكسر العدوّ. وتكون "حتى" تعليلا للحكم بمعنى لأجل. ولهذا أُخِر قوله: "حتى" الثانية. وأما الأولى فهي بمعنى إلى أن يكون[٩] المراد مطلقَ الكفار في بقية البلاد لا هؤلاء المحاربين فقط، لأنه متى قُتل بعض الكفار ضعف الباقون ممن في عزمهم المحاربة فزالت أثقالُ الحرب وإن لم تُبطَل الحرب جملة. وهذا أيضا فائدة تأخير الكلام وإن كان الأول حسنا. **ذٰلك**، معناها تثبيت لِما
[٣٩٧و] تقدم من الخبر، ومثله: كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا / بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ.[١٠] فـ"ذلك" و"هذا" نقيضان لـ"لا". وأما **كذٰلك**، فهي نقيض لـ"كلّا". **ولو يشاء الله لانتصر منهم**، بغير قتال منكم لهم.

---

١ ن: بحق.

٢ ك – الرقاب، صح هـ؛ ن – الرقاب.

٣ أي فاضربوا ضَرْبَ الرقاب.

٤ الكِتْف: شدّ اليدين من خلفٍ (كتاب العين للخليل بن أحمد، «كتف»).

٥ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٦٧).

٦ ن – هذه.

٧ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٩/٢٤٦-٢٤٧.

٨ جميع النسخ: إطلاق.

٩ ش: إلى أن ويكون.

١٠ سورة الشعراء، ٢٦/٥٩.

ولٰكن ليبلوا بعضكم ببعض، أي ليختبر[1] المؤمنين بالكفار والكفارَ بالمؤمنين. ولو قال: ببعضهم لكان الاختبار للمؤمنين بالكفار فقط. **والذين قُتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمٰلهم**، أي قاتلوا فقط سواء قَتلوا أو قُتلوا، كَسروا أو كُسروا.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾

سيهديهم ويصلح بالهم، في الدنيا. **ويدخلهم الجنة عرفها لهم**، من العَرْف وهو الطيب والرائحة التي تتقبلها النفس تَقَبُّلَ ما تعرفه ولا تنكره، يقال: لها عرف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

يٰأيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، في الحرب والقيامة، فإن حاجتهم إلى التثبت[2] هنالك أشدُّ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾

والذين كفروا فتعسا لهم، دعاء قدّم ليتأخر الإخبار للوزان بقوله: **وأضل أعمٰلهم**، والمعنى والذين كفروا أضل الله أعمالهم بكفرهم فلهم التعس. وزاد الفاءَ لينبه على الدعاء عليهم لا على الإخبار عنهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾

﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠﴾

أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم، أي ضَرَب الهلاك عليهم فأحاط بهم. **وللكٰفرين**، بالقرآن، **أمثٰلها**، أمثال تلك العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾

ذٰلك، الجزاء، **بأن الله مولى الذين ءامنوا**، هو سبحانه مولى الكل، ولكن لمّا لم يتخذه الكفار مولى قال تعالى: **وأن الكٰفرين لا مولىٰ لهم**، أي في اعتقادهم وفي مدلول أعمالهم.

---

١ ن: لتختبر.

٢ ش ك: إلى التثبيت.

وهذا من أبلغ ما دُفع به الجبر، لأن الله تعالى مع كل إنسان. ولا ينفع كون الله مع الإنسان إذا[1] لم يكن الإنسان مع الله، فإن فعل الرب لا يكون فعلا للعبد، فلا يعود عليه سعي غيره، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وتمامه إلى قوله: ٱلْأَوْفَىٰ.[2]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر. وقوله: والذين كفروا يتمتعون، بالمنكوح والملبوس وغيره من الحياة الدنيا. ويأكلون كما تأكل الأنعٰم، عيّن الأكل لأنه مرض يعتاد في كل يوم وهو الابتلاء الأشد، لأن الآفات منه كثيرة،[3] وكفى به أنه سقْطَة آدم. وأبلغ الوصية في أمره قوله: وَلَا تُسْرِفُوٓا۟.[4] ففي ذلك جِماع خيرات المعاش والمعاد. ومن حفظ بطنه حفظ الله عليه قلبه. ومن حفظ قلبه ولم يحفظ بطنه رجع إلى صفات الأنعام واستولت عليه لوازمُ شهوات الطعام من الهم والكسل والنوم وغير ذلك مضافا إلى ما يُتوقع له من الأسقام. والنار مثوى لهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

ثم ضرب المثل بأتم صورة محبوبة في الدنيا الفانية فوعد به في الآخرة الباقية. وجاء هذا الوعد بما يؤكل عقيبَ ذكر الوعيد المقدم بعد قوله: وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ،[5] فقال:[6] مثل الجنة، أي لا ذاتها وحقيقتها، لأن ذلك مما لا تَعلمه نفسٌ ولا يمثّله عقلٌ. وإن من ذاق المحبة فأراد أن يمثل لغيره ما ذاقه بنفسه كان ذلك أبعد ممن رام

---

[1] ن: مع الإنسان ما.

[2] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (سورة النجم، ٣٩/٥٣-٤١).

[3] ن - كثيرة.

[4] ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٣١/٧). وانظر أيضا: سورة الأنعام، ١٤١/٦.

[5] الآية ١٢ من هذه السورة.

[6] ن - فقال.

أن يُبيِّن للأكمه الفَرقَ بين الألوان. وهذا مما لا يدرك بالأذهان، وإنما يعرفه بحسبه كلُّ إنسان. وإذا عز إدراك المحبة في الدنيا مع تخصيصها بأحد الفانيات فما ظنك بِدارٍ فيها سائرُ المحبوبات على أكمل الصفات الباقيات. ولمّا كان قوله تعالى: لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا، نهايةَ ما يتوقعه العبيدُ قال بعده مما لا يعلم فيطلب: / وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.[١] [٣٩٧ظ]

ورفع "مَثَلُ" بما تقديره: وهذا، مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها، أي هذا من جملة ما فيها، أنهٰر من ماء غير ءاسن، متغير. بدأ بالماء، لأنه أصل الحياة ومعدن الخيرات والبركات. وأنهٰر من لبن لم يتغير طعمه، إنما ذكره بعد الماء لأنه يُشرَب ويؤكَل، ولأنه مبدأ في تغذية كل إنسان وحيوان. وأنهٰر من خمر لذة للشٰربين. قوله "لذة" يعود على سائر الانهار المذكورة. ولهذا تلا ذلك بعضه ببعض، لأنه مما يشرب فقال: للشٰربين، ثم قال: وأنهٰر من عسل مصفًّى، من سائر الأكدار والأذى. ولهم فيها من كل الثمرٰت، "من" ههنا لتبيين الجنس، ومغفرة من ربهم، ذكر المغفرة بعد الثمار لأنها ثمرة الأعمال الصالحات. ثم قال ما تقديره: أَمَنْ هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خٰلد فى النار، وسُقُوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم. فسبحان من خاطبنا بالأمثال ليدلنا على الغائب عنده بالحاضر عندنا. فالأسماء متفقة للدلالة والحقائقُ مختلفة. ولولا ذلك لَمَا بقي في النار شيء من شجرة الزقوم ولا من السلاسل والأغلال وغير ذلك بل كانت النار تأكله جميعَه، وما في الجنة من فُرُشها وأشجارها وأنهارها كذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ١٦﴾

ثم قال تعالى بعد تمام المَثَلَين: ومنهم من يستمع إليك حتىٰ إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم، وهم المؤمنون عن علم: ماذا قال ءانفا، أي حين كان مبتدئا. تقول: استأنفتُ الأمر إذا رددته من أوله، ومنه الأَنْف، لأنه أول ما يبدو من الوجه لبروزه، وأنف الجبل أعلاه. فهؤلاء لمّا حضروا بالأبدان كانت قلوبُهم مشغولة عن كلام النبي عليه السلام، فسؤالهم دل على حالهم فهم لم يحفظوه ولم يفقهوه. ويحتمل أن يكون[٢] معنى قوله: ءانفا، من أَنِف يَأنَف إذا[٣] استنكف وميّل أنفه، فقالوا:

---

[١] سورة قٓ، ٣٥/٥٠.
[٢] ش ك: أن تكون.
[٣] ك: أي.

ماذا قال ءانفا،[1] أن يَغمِد آلهتكم. وهذا القول منهم بصورة الاستخفاف والقدح. ولهذا لم يقل: سألوا. أولٰئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم واتبعوا أهواءهم، أي مستمرين على اتباع الأهواء مجبَرين على ذلك عقابا لهم على وصفهم أولا بمَثَله أخيرا إلى يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

والذين اهتدوا زادهم هدى وءاتىٰهم تقوىٰهم، كان الهدى إلى القرآن سببا لإتيان التقوى المؤدية إلى الجنان بعد زيادة الهدى من لدن الرحمن. فافقه كون الأمر كله إلى الإنسان وهو البادئ بأفعاله بإذن الله. وعلى هذا الابتداء يكون سائر الجزاء.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

فهل ينظرون، هؤلاء بمعنى ينتظرون، إلا الساعة أن، تقديره إلا أن تأتيهم الساعة. ولمّا لم يكن هذا من اختيارهم بل هم في الحقيقة كذلك غيّر اللفظ في مواضعه لتغير المعنى. تأتيهم بغتة، فقد جاء أشراطها، علاماتها، وهو النبي والكتاب. فأنىٰ لهم، ذكراهم، إذا جاءتهم، الساعة. وأخّر [قوله:] ذكرىٰهم، للوِزان وهو كقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ.[2] والمعنى من أين لهم في ذلك الوقت ما كانوا يُدْعَون إليه من إيمان وتوبةٍ وعملٍ ينجون به فإنه لا يقبل إذا جاءت.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

فاعلم أنه لا إلٰه إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنٰت والله يعلم متقلبكم، تقلبات المرء تنقّله وتحرّكه في سائر ما يتقلب فيه من نوم وسفَر وصلاة ومعاش وغير ذلك، لكنه يدل على حركة، ومثوىٰكم، يدل على سكون. والإنسان لا ينفكّ من أحد هاتين الصورتين.

---

[1] ش – من أنف يأنف إذا استنكف وميل أنفه فقالوا ماذا قال ءانفا.

[2] سورة الفجر، ٢٣/٨٩.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠﴾

ويقول الذين ءامنوا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم[1] فهم مؤمنون بزعمهم ودعواهم. وهذا القول منهم هو إذا / أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال. والأولى أن [٣٩٨و] قوله: ويقول الذين ءامنوا، هو من كلام المؤمنين لا من كلام المنافقين، لأن المؤمنين كانوا ينتظرون ما ينزّله الله من الأمر بالقتال. فهم كانوا يقولون: لولا، هلا، نزلت سورة. فإذا أنزلت سورة محكمة، أي ليس فيها متشابه[2] بل كهذه السورة، وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض، وإن لم يكونوا ممن قال: لولا نزلت سورة، مع جواز أن يكون القول منهم أيضا كما تقدم ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت. فأولىٰ لهم، بمعنى فالويل لهم، وهو قوله: أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ.[3] والمعنى إذا ذكر القتال فالويل لهم طَاعَةٌ،[4] أي يصير الويل في قلوبهم وألسنتهم هو الطاعة، لأنهم يقولون ذلك ولا يفعلونه عند العزم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾

فقولهم: طاعة وقول معروف، هو الويل لهم، لأنهم يكذبون عند العزم. فإذا عزم الأمر، تخلفوا، أي أمر الحرب إذا[5] اشتد ووقع الأمر الذي له يجب أن يَعزم أولو العزم. وأضاف العزم فجلعه صفة للأمر، كما تقول: إذا اشتد الأمر، وهو استعارة بمعنى فإذا عزم أصحاب الأمر عليه، وهذا كثير في كلام العرب. فلو صدقوا الله، فيما قالوه[6] من الطاعة للنبي عليه السلام والقول المعروف وقاتلوا معه، لكان خيرا لهم، من قعودهم عنه لتصدّق أقوالُهم أفعالَهم. والمعنى أنهم مع كونهم منافقين فالموت مع الصدق لهم خير من الحياة مع الكذب. لهذا قال: لهم. والكلام كله عن ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ.[7] ولهذا بعده:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤١).

٢ ش: مشتبه.

٣ سورة القيامة، ٧٥/٣٤.

٤ من الآية الآتية.

٥ ك: إن.

٦ ن: فيما قالوا.

٧ الآية ٢٠ من هذه السورة.

تقول: عسى أن أفعل كيت وكيت بمعنى لَعلّ ورُبما وهي كالظن. والمعنى هل ظننتم إن توليتم عن الداعي أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون الأرحام ولا تُجازَوْن على ذلك؟ وقوله: توليتم، أي مُعرضين عما أمرناكم به في السورة المنزَّلة المحكَمة من الحرب. ثم قدم قوله: هل، يسألهم عن ذلك. وكل "عسى" بلفظ الفُراد خبر وبلفظ الجمع استخبار واستفهام. ولهذا تأتي مع "هل" بصورة الإنكار عليهم والتوبيخ لهم في مَعرِض السؤال. فافهم ذلك وقِفْ مع المعنى لتفهم به العبارة. ثم تنقاد بها إلى ما قُصد بها من المعنى الذي لا يخرج عنها كما يخرج معنى المِثْل المُفْهَم[1] لك من كلامي، فإنني إنما أَزيد اللفظ وأنقصه وأغيّره وأقلبه لأُفهمك المعنى المشار إليه بلفظ القرآن. فلا تترك لفظَ القرآن وتَفهم من لفظي خلافه. فإذا أدمتَ النظر والتفكر متأملا واقفا مع نفس العبارة المدلول[2] بها من القرآن على معنى ما قلتُه لك بلفظي فهمت إن شاء الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عن الموصوفين بتلك الصفات: **أولٰئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمىٰ أبصٰرهم**، عقابا لهم، فالجارحة[3] على حالها ولكنه تعالى أصمّهم عن سَماع الموعظة وأعمى أبصارهم عن رؤية الآيات.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

ثم عاتبهم لِم لا يَتَدَبّرون القرآن قبل العقاب، إذ لو تأملوا وتدبروا لَما عاقبهم. فكان هذا الإخبار عنهم مانعا لغيرهم عن مثل ما حلّ بهم إن آمن وتدبر، أو مُنذِرا بوقوع ما حل بهم إن أعرض وتكبر فقال: **أفلا يتدبرون القرءان أم علىٰ قلوب أقفالها**. ولم يقل: أقفال، بل أراد أنها هي قَفَّلَتْ أقفالَها عليها بإعراضها عن التدبر إلى التكبر، فهي أقفال قلبية. لمّا انقلبت القلوب عن تدبُّرِ ما أنزل إليها عادت الأقفال كالختم والطبع عليها؛ فهي أقفال قلوب انقفلت فلم يدخل إليها إيمانٌ ولم يخرج منها كفرٌ. وهذا العقاب يدل على أن الأمر بالعكس مما يظنه المجبرة، وأنه يُمكنهم التدبر والفهم،

[1] ش: المفهوم.
[2] ن: المدلولة.
[3] ن: بالجارحة.

وأن القلوب ليس عليها قفلٌ من حين / خُلقت يَمنعها عن التدبر، ولكنها هي أوجبت [٣٩٨ظ]
ذلك. فالأقفال أقفالها فهي معاقبة منها. وإن كان العقاب من بارئها فهي لمّا عصت وضلت بأهوائها عاقبها الله بذلك عدلا منه تعالى، لأنه تعالى هداهم ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾.[1] وهذا العقاب بالعدل هو مُنبِئٌ عن غاية الفضل، لأن المحسن[2] المطلق أخبر عن نفسه أنه أباح عباده وأمدّهم بمهما طلبوه منه ولو كان مطلوبهم الحرمان والخلود في النيران فكيف إذا طلبوا الأمان والخلود في الجنان؟ وإذا أعطاهم ما سألوه مما لا يريده لهم ولا يرضاه[3] فكيف لا يعطيهم ما سألوه مما يريده لهم ويرضاه من الإيمان واليسر دون الكفر والعسر؟ وقد بينا في عدة مواضع أنه مكّنهم من الشيء وضده ليرتقوا بالاجتناب كترقيهم بالاكتساب. وهذا هو غاية الفضل من الكريم الوهّاب.

[التدبر في القرآن ومعنى الحشر الجسماني]

وفي هذه الآية دليل على أن الله أمر بالتدبر في آيات القرآن ولم يأمر بالتقليد، لأنه تعالى دعا إلى التدبر، وذلك منافٍ للتعامي والتجاهل. وإن زعم الخصم أنه لا يفهم العربية وأنه لا يقدر أن يتدبر القرآن فيحتاج[4] حينئذ[5] إلى التقليد، فهذا إن كان صادقا فيه فلا ينبغي له أن يَعمَى عن الجميع فلا ينظر في معنى قلّ أو جَلّ أبدا، ولا يجوز له أن يترك التعلم والنظر فيما تعلّمه. فذلك إعراض وحجة بالباطل، وصرفٌ صرفه الله عن النظر والتأمل كما صرف قلبه أولا عنهما. فكان فعل الله به تابعا لفعله بنفسه، ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ﴾.[6] وإذ قد فهمت أن الأقفال التي على القلوب ليست من حديد ونحاسٍ أو غير ذلك بل أقفال معنوية. وقد بان لك هذا في الدنيا مع وجود الأجسام وتحققتَ أنه لم يُرِد إلا معاني الأقفال لا صورها الجسمية. فما بالك لا تتخذ ذلك مثالا تفهم به الجنة والنار والسلاسل والأغلال وتبديل الجلود وغير ذلك مما تعارض به، ولا تفهمُه إلا أن تقيمه أجساما مثل هذه الأجسام الفانية في دار غير باقية؟ فافقه هذا ولا تَفهم من كلامي أني أُريد بعث الأرواح دون الأجسام، ليس كذلك، بل المراد أن جميع ما في الجنة ليس يشبهه في الحقيقة شيءٌ من الفاني. وإنما ضُرب بالفاني مثلٌ للباقي.

---

١ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/١٧).

٢ ن + المتفضل.

٣ ن: ويرضاه.

٤ ش ك: فتحتاج.

٥ ك + حينئذ.

٦ سورة الأنعام، ٦/١٣٩.

فافهم هذا ولا تفهم غيره. بل افهم أن الله تعالى يبعث الأجساد ويحيي هذه العظامَ بعينها في نفخة كما خلقها أولا في مدة فيعيدها كما بدأها أول مرة،[1] وتبقى الأجساد غير فانية أبدا، لأن القادر المطلق لا يُعجزه شيءٌ. وقد رأينا في هذه الدار الدنيا طيرا يُعرَف بالسَّمَنْدَل[2] يَبيض ويُفرخ في النار ولا تؤثّر[3] النارُ أيضا في ريشه بعد مفارقة الريش للطائر. والذي يقدر على أن يخلق مخلوقا لا تؤثر فيه النارُ في الدنيا فهو يفعل ما يشاء.

فإن قلت: ما فائدة البعث بالأبدان؟ فما يلزم أنّا لا نؤمن إلا بما نعلم من القرآن، بل نؤمن بما نعلم حكمته وبما لا نعلم وإلا عاد الإيمان ناقصا، لأنه يعود إيماننا بحسب علمنا لا بحسب علمه سبحانه، على أن الله قد بيّن في كتابه من حكمة البعث ما فيه كفاية لمن وعى. أما في[4] الكفار فقوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ.[5] وأما في المؤمنين فكقوله تعالى لإبراهيم: أَوَلَمْ تُؤْمِن، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى.[6] ولا شك أن طمأنينة القلب معنى زائد على الإيمان. وذلك بما يستقر في / القلب من جهة العِيان على وفق ما تقدم به الإيمان، فهو مفهوم من النص. [٣٩٩و]

وأما ما يُفهَم من العقل فهو ينقسم إلى قسمين. أحدهما ما هو من جهة الرب، والآخر ما هو من جهة العبد. فأما الذي من جهة الرب فهو غاية التعظيم. وأما الذي من جهة العبد فهو أبلغ ما أُهِين به المَهين وأُكرِم به الكريم. وإيضاح ذلك من جهة الرب سبحانه أنه مِن أبلغ ما تقضي به العقولُ لمن له الخلق والأمر أن يخلق فانيا وباقيا كالأجسام والأرواح. ثم يستخدم الأجسام الفانية للأرواح الباقية. ثم يُذهب الفاني ويُبقي الباقي. ثم يعيد ما أذهبه من الفاني كما كان بعد تكوينه أولا في مدة من الزمان. فيعيد الأرواح إلى الصُّوَر بنفخة واحدة كلمح البصر.[7] ثم يُبقي ذلك الفاني

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس، ٧٩/٣٦).

٢ السمندل: قال أبو سعيد: طائر بالهند، لا يحترق بالنار، إنه إذا هرم وانقطع نسله ألقى نفسه في الجمر فيعود إلى شبابه. وقال غيره: هو دابة يدخل النار فلا تُحرقه (لسان العرب، «سمندل»؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمندل»).

٣ ن: لا تؤثر.

٤ ك ن - في.

٥ سورة النحل، ٣٩/١٦.

٦ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (سورة البقرة، ٢٦٠/٢).

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (سورة النحل، ٧٧/١٦).

المُعاد باقيا سرمدا إلى أبد الآباد. وهذا بلا شك من أعظم ما يستقر به عظمُ القدرة في أفهام العباد، ولا يجحده إلا ذو جهل أو عناد. فهذا ما قدمناه من جهة الرب.

وأما ما هو من جهة العبد فلا شك أن المعذَّب هو النفس. ولكن إذا كان لها عذاب بواسطة الجسم وعذابٌ بغير واسطة كان ذلك أبلغ من أن يكون بأحد الصورتين، وكذلك الكلام في المؤمنين. لكن ههنا معنى يجب أن تلحظه لتعلم مقصودي من الكلام على التمام، فيزول الإشكال الذي قد يقع في بعض الأذهان فيوهم أني أريد بعث الأرواح دون الأبدان، وليس كذلك. بل اعلم أن الكفار في جهنم لا تزال أبدانُهم على حالها، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، وعلله بقوله: لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ،[١] أعني أصحاب الجلود، ولهذا لم يقل: لتذوق[٢] الجلود، فهم لا يفارقون الجسم في الآخرة. وهذا من أبلغ العذاب كونهم سُجنوا في دار البقاء في هيكل الفناء ولا يفنى، كقوله: لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ.[٣] وأما المؤمنون فإنهم يَخلعون الأجساد متى شاءوا ويلبسونها ويلبسون غيرها وغير ذلك ولا يذوقون فيها الموت. فلهم قدرة بالأبدان على الملاذّ البدنية كلها، لكنها لذة لا تفنى بل تبقى مهما شاءوا لتكون قدرة الله عندهم أشملَ ويصحَّ قوله: كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ.[٤] ولهم بعد ذلك قدرة على خلع الأبدان وإدراك «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».[٥] وقد نطق الكتاب بالصورتين. أما الأُولى فظاهر، وأما الثانية فكقوله: وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ.[٦] وهذا في المفهوم من أعم العموم. وأما ما هو فوق المفهوم فهو قوله تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ.[٧] فإذا سمعتَ من كلامي ما يسوقك إلى رفض الأشباح

---

١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (سورة النساء، ٥٦/٤).

٢ ش ك: ليذوق.

٣ سورة طه، ٧٤/٢٠؛ وسورة الأعلى، ١٣/٨٧.

٤ سورة الأنبياء، ١٠٤/٢١.

٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال: أبو هريرة اقرءوا إن شئتم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» (صحيح البخاري، تفسير القرآن ١/٣٢ (سورة السجدة ١)؛ وسنن ابن ماجه، الزهد ٣٩). وانظر أيضا: صحيح ابن خزيمة، ١٩٠/٣.

٦ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (سورة فصلت، ٣١/٤١).

٧ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، ١٧/٣٢).

وتجريد الأرواح في عالم البقاء فاعلم أن مرادي هذا، فإن أنكرت ما أقوله فافقه قوله تعالى: يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ.[1]

وقد علمت أن علوم العلماء ومعارف العارفين بأسرهم ليست غيبا. ولهذا لم يقل: يعلمون الغيب بل يُؤْمِنُونَ. فالأعمال كلها مجتثَّة إلا ما اتصل بالعلم، والعلوم كلها مجتثة إلا ما اتصل بالمعرفة، والمعارف كلُّها مجتثة إلا ما اتصل بالإيمان، والإيمان كله مجتثّ إلا ما اتصل بالغيب. والإنسان هو القائم بين الغيب والشهادة. فمهما توجه إلى الغيب فليس إلا الإيمان، ومهما توجه إلى الشهادة فليس إلا العبادةُ، فإما عبادة الرحمن وإما عبادة الشيطان. ولمّا كان سُوسُ[2] الإنسان وجوهره الظاهر في الأكوان [ليس] إلا الاختيار، وعن ذلك الاختيار[3] تكون الجنة أو النار هُدي بالعقول والرسول ومكِّن من المخالفة والقبول. فبالمخالفة يكون شيطانيا باختياره وبالقبول يكون ربانيا باختياره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

[٣٩٩ظ] **إن الذين ارتدوا علىٰ أدبٰرهم من بعد ما تبين / لهم الهدى الشيطٰن سول لهم وأملى لهم**، أي مدَّ لهم في الأمل. **ذٰلك**، التسويل، **بأنهم**، بسبب أنهم، **قالوا للذين كرهوا ما نزل الله**، في السورة المحكمة من الأمر بالقتال: **سنطيعكم فى بعض الأمر**، قالوا لهم ذلك سرّا سواء كان القول لفظا أو عزما. فمن ههنا حَكم عليهم الشيطان، **والله يعلم إسرارهم**.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

فكيف، يكون حالهم، **إذا توفتهم الملٰئكة**، في الحرب وهو مطلق أيضا، **يضربون وجوههم وأدبٰرهم**، بأيدي المؤمنين في الحرب وبأيدي الملائكة في غير الحرب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

ذٰلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوٰنه فأحبط أعمٰلهم، الصالحة التي عملوها في الإسلام.

---

[1] ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣).

[2] السُّوس: كناية عن الطبع والخلق والسجية.

[3] ش – وعن ذلك الاختيار.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغنهم، أحقادهم على الله يُخرجها من قلوبهم بالابتلاء والامتحان ويريها لرسوله وللمؤمنين ويرونها هم أيضا[1] لئلا يكون الله عندهم ظالما لهم في الجزاء. فافقه هذا جيدا.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

ولو نشاء لأرينٰكهم، بغير امتحان منّا لهم. **فلعرفتهم بسيمٰهم**، بعلائمهم الظاهرة. **ولتعرفنهم فى لحن القول**، فمن ذلك أنهم يقولون: طاعة، ويفعلون ضدها. **والله يعلم أعمٰلكم**، من قبل أن تبدو منكم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

ولنبلونكم أجمعين **حتىٰ نعلم المجٰهدين منكم والصٰبرين**. وقوله: **ونبلوَا**، أي ونعلم وهي معطوفة على [قوله:] حتىٰ، وغيَّر العبارة لئلا يتكرر اللفظ، فكأنه قال: ولنختبرنكم حتى نَعلم بالاختبار المجاهدين منكم ونعلمَ[2] الصابرين وحتى نعلم، **أخباركم**، كلها، أي سرائركم وقضايا بواطنكم وخفايا قلوبكم. فلا تظنوا أن الاختبار هو للذين في قلوبهم مرضٌ فقط بل للكل. فهذه الآية منسوقة بما تقدم قبلها وهو قوله: أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ،[3] بالابتلاء، ثم قال: وليس الابتلاء مقصورا على أولئك فقط بل على المجاهدين والصابرين أيضا. ولمّا كانت هذه اللفظة أعني قوله: ونبلوَا أخباركم، يعبَّر بها تارة عن الاختبار وتارة عن العلم وقع الاشتباه عند من اعتقد أنها ههنا بمعنى الاختبار، أعني الامتحان. فأما إذا فهمها بمعنى العلم زال ذلك. والدليل على أنها بمعنى العلم ههنا قوله تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ،[4] أي تُخبر، ومعنى تخبر[5] أي تعلم علْمَ الخبير. ولقد تعبتُ في هذه الكلمة سنين لأفهم كيف يجوز الامتحان للأخبار. ولهذا قرأ بعضهم ونبلو أخياركم،[6]

١ ش: أيضا هم.
٢ ن: ولتعلم.
٣ الآية ٢٩ من هذه السورة.
٤ سورة يونس، ١٠/٣٠.
٥ ن – ومعنى تخبر.
٦ ن: ولنبلوا أخياركم. | انظر: زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٧/٤١١-٤١٢.

وهو جمع خيّر فزال الإشكال بتلك القراءة. وأما بهذه فزواله بما قلناه. فلم يقل: ولنبونكم حتى نبلو، بل، حتىٰ نعلم، وكذلك لم يقل: حتى نعلم المجاهدين ونعلمَ أخباركم لئلا يتكرر اللفظ وإن كان المراد واحدا وهو العلم. فصار معنى الآية بمقدَّرها ولنختبرنكم بالامتحان حتى نعلمَ المجاهدين منكم وحتىٰ نعلم الصابرين وحتى نخبرَ[1] أخباركم كلها، فنعلمَها علم الخبيز بها فنجزيكم بما تستحقونه مما تبدونه أو تخفونه. والمراد بقوله: حتىٰ نعلم، أي حتى يَعلَم مَن نُعاقِبه أن عقابنا ليس عن ظلم كما بيّنّا في لفظة "نعلم".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾

ولمّا كان قوله ههنا: وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ،[2] يعطي أن أعمال العباد عائدة عليهم والله غني عنهم جاء الكلام منطبقا على قوله تعالى بعد الامتحان: **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدىٰ لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمٰلهم**، إن لم يتوبوا. ولهذا بعده: **يٰأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**، أي إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ،[3] في الآخرة، وهو الموت في الجهاد، فهذا خاص[4] ههنا وإن احتمل الإطلاقَ. **ولا / تبطلوا أعمٰلكم**، بالشقاق، يقال: بطل العِمارة مثلا إذا عُمر [٤٠٠و] البعض وبطل الباقي وأبطل الأمرَ إذا نقضه وغيره جملة. فالمقصود ههنا إبطال جميع ما عملوه، وهو معنى الإحباط لا ترك ما هم عاملوه مع بقاء ما عملوا من قبل، لأن الأعمال لا تَنفعهم إلا مع الطاعة. وفي قوله: **ولا تبطلوا أعمٰلكم**، كفايةٌ في دفع الجبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤﴾

ولمّا كان هؤلاء قد يتوبون وقد يموتون على كفرهم قال بعده: **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم**، وهؤلاء[5] هم المذكورون

---

[1] ش ك: وحتى تخبر.
[2] من الآية السابقة.
[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٢٤).
[4] جميع النسخ: خاصة.
[5] ك ن: هؤلاء.

في أول السورة، فضربهم مثلا وعرّفنا أنهم بعد أن عاقبهم بأن أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ،[١] يُمكنهم أن يهتدوا ويتوبوا. ولهذا لم يقل: أضلّهم بل أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ، لأن أعمالهم عادت في ضلال. ولهذا قال عنهم: وَسَيُحۡبِطُ [أَعۡمَٰلَهُمۡ]،[٢] أي إن لم يتوبوا. فهذا كله عن قوم من المسلمين مخاطبين بقوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ،[٣] ولكنهم قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ، في أمر القتال: سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ،[٤] فافقه هذا كله جيدا.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾

ولمّا قدّم قوله تعالى: إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ،[٥] وذكر أحوال من نَكِل عن القتال قال ما معناه: إذا ارتد هؤلاء على أدبارهم، فلا تهنوا، أيها المؤمنون، وهو من وهن، وقد تقدم تصريفه،[٦] أي ولا تظنوا بأنفسكم وَهنًا بارتداد من ارتد. وتدعوا إلى السلم، مَن دعاكم الرسول إلى محاربته. وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم، ينقصكم، وَتَرَ يَتِرُ كوَعَد يَعِدُ؛ يقال: وتره حقَّه إذا نقصه وبَخَسَه، ومنه قوله عليه السلام: «إن الذي تفوته صلاةُ العصر كأنها وُتِرَ أهله وماله»،[٧] أي ذُهِبَ بهما. وقوله: ولن يتركم أعمٰلكم، أي من أعمالكم شيئا، فالنصب على تقدير "مِن" المحذوفة.

﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾

ثم أخبر سبحانه إخبارا عامّا وإن كان ههنا إشارةٌ إلى الترغيب في الجهاد لأن فيه الحياة الأخرى فقال: إنما الحيوٰة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا، بالله، وتتقوا، مخالفته، يؤتكم أجوركم ولا يسئلكم أموٰلكم، أي كلها، ولا يلزم أن لا يسأل بعضها فبيّنه بعده بقوله: إن يسئلكموها، أي كلَّها، وهو معنى [قوله:] فيحفكم، أي فيستقضي أخْذَ الكلّ.[٨] ولهذا قالها بالفاء وليست جواب الشرط بل جوابه، تبخلوا، ولهذا جاء مجزوما.

---

١ الآية ١ من هذه السورة.

٢ الآية ٣٢ من هذه السورة.

٣ من الآية السابقة.

٤ الآية ٢٦ من هذه السورة.

٥ الآية ٧ من هذه السورة.

٦ انظر: سورة آل عمران، ١٣٩/٣؛ وسورة لقمان، ١٤/٣١.

٧ صحيح مسلم، المساجد ٢٠٠، ٢٠١.

٨ ش – ولا يلزم أن لا يسأل بعضها فبينه بعده بقوله إن يسألكموها أي كلها وهو معنى فيحفكم أي فيستقضي أخذ الكل، صح هـ.

وكذلك المعطوف عليه وهو قوله: **ويخرج أضغٰنكم**، أحقاد قلوبكم بالاستقصاء، والحفيّ[1] هو المستقضي في السؤال.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾

ثم قال ما يدلهم[2] على مثل هذا الحال: **هٰأنتم**، يا، **هٰؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله، فمنكم من يبخل**، أي ومنكم من يعطي وهو الأقلّ. فلهذا أضمره وأظهر الأكثر فقال: **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه**، "عن" بمعنى "على" ههنا، تقول: بخلتَ عن ضيافة زيد، أي عليه فامتنعتَ أن تضيِّفه. **والله الغنىّ**، يستحيل أن يكون إلٰهان كلٌّ منهما مُستغنٍ على الإطلاق، فإن المستغني على الإطلاق لا يُستغنَى عنه بل منه. فانظر ما أحسن هذا! **وأنتم الفقراء**، على الإطلاق،[3] وذلك أن الإنسان ممكن، والممكن فقيرٌ إلى مرجح مُخرجٍ له من الإمكان إلى الوجوب، وافتقاره من جهة تردده بين طرفي العدم والوجود، وهما المستحيل والواجب. ولهذا كان التغير دليل الحدث لأنه يستدعي مغيرا. فإذا كان المغيِّر غنيّا بذاته من قبل ومن بعد والمغيَّرُ فقيرا بذاته من قبل ومن بعدُ فالله غني على الإطلاق والإنسان فقير على الإطلاق. **وإن تتولوا** [illegible]

الجهاد، ويحتمل الإطلاق، أي عن الأمر والنهي، **يَستبدلْ ق**[illegible] **غيركم**، كق[illegible]

وَيُحِبُّونَهُۥٓ،[4] فلا يُشاقُّونه. **ثم لا يكونوا أمثٰلكم**، بل خي[illegible] إن[illegible]

لكم فليس للاستبدال فائدةٌ، بل يجب أن يستبدل قوه[illegible]

ليسوا بأمثال لكم في التولي. واعلم أن الحديث في [illegible]

[٤٠٠ظ] الجهاد / الأكبر الباطن.[6] وقد علمت ما فيك م[illegible] الأع[illegible]

وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ.[7]

---

١ ك: والخفي.

٢ ك: ما يذل.

٣ ن – لا يستغني عنه بل منه فانظر ما أحسن هذا وأنتم الفقراء على الإطلاق.

٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٤).

٧ [illegible]

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾

إنا فتحنا لك فتحا مبينا، يبين لك صدْق الوعد بما ذكر ههنا من المغفرة وتمامِ الآية، وبما في آخر السورة بقوله: لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ.[1] والفتح ههنا هو[2] قوله: فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا.[3] ولهذا نسبه سبحانه إلى نفسه أولا وأخيرا.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾

وقوله: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك**، أي قبل الفتح، **وما تأخر**، إلى آخر العمر. واللام في "ليغفر" لام العاقبة والصيرورة، وليست لام كي لأن المغفرة لا تتعلق بالفتح. ولهذا قيل: إن الفتح يريد به ما فتحه الله من القرآن، وإن المعنى في قوله: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**، أي باتباعك له. ويكون المراد بالخطاب الخاصِّ به عليه السلام عامّا للأمة. فهذا وإن كان جائزا لكونه صحيحا في نفسه، لكن مراد الآية هو الأول، والله أعلم. **ويتم نعمته عليك ويهديك صرٰطا مستقيما**. وهذه المواعيد كلُّها قد جعل الفتح سببا لها على القول الثاني، وعلامةً تدل ـدق الوعد[4] على القول الأول.

ـ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾

ينصرك الله نصرا عزيزا، يُعزّك به فلا تَذِلّ أبدا. وهذا النصر على ـابلاد في المستقبل. واعلم أن مَن زعم أن الأنبياء معصومون ـمدحهم، لكنهم معصومون من الكذب خاصة. وقد جاء ـفرة التي لا تكون إلا لذنب. وهذا مما لا يُدفع نصا.

---

[3] الآية ٢٧ من هذه السورة.

[4] ك ن: الموعد.

وكذلك المعطوف عليه وهو قوله: ويخرج أضغنكم، أحقاد قلوبكم بالاستقضاء، والحفيُّ[1] هو المستقضي في السؤال.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

ثم قال ما يدلهم[2] على مثل هذا الحال: هٰأنتم، يا، هٰؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، أي ومنكم من يعطي وهو الأقلّ. فلهذا أضمره وأظهر الأكثر فقال: ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، "عن" بمعنى "على" ههنا، تقول: بخلتَ عن ضيافة زيد، أي عليه فامتنعتَ أن تضيِّفه. والله الغنيّ، يستحيل أن يكون إلٰهان كلٌّ منهما مُستغنٍ على الإطلاق، فإن المستغني على الإطلاق لا يُستغنَى عنه بل منه. فانظر ما أحسن هذا! وأنتم الفقراء، على الإطلاق،[3] وذلك أن الإنسان ممكن، والممكن فقيرٌ إلى مرجح مُخرجٍ له من الإمكان إلى الوجوب، وافتقاره من جهة تردده بين طرفي العدم والوجود، وهما المستحيل والواجب. ولهذا كان التغير دليل الحدث لأنه يستدعي مغيرا. فإذا كان المغيِّر غنيّا بذاته من قبل ومن بعد والمغيَّرُ فقيرا بذاته من قبل ومن بعدُ فالله غني على الإطلاق والإنسان فقير على الإطلاق. وإن تتولوا، عن الجهاد، ويحتمل الإطلاق، أي عن الأمر والنهي، يَستبدلْ قوما غيركم، كقوله: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ،[4] فلا يُشاقُّونه. ثم لا يكونوا أمثٰلكم، بل خيرا منكم، فإنهم[5] إن كانوا أمثالا لكم فليس للاستبدال فائدةٌ، بل يجب أن يستبدل قوما غيرهم أيضا إلى أن يأتي قومٌ ليسوا بأمثال لكم في التولي. واعلم أن الحديث في الجهاد الظاهر يُفهَم به مثلُه في الجهاد / الأكبر الباطن.[6] وقد علمت ما فيك من الأعداء فافقه المراد، وجاهد باجتهاد. [٤٠٠ظ]
وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ.[7]

---

[1] ك: والخفي.

[2] ك: ما يدل.

[3] ن – لا يستغني عنه بل منه فانظر ما أحسن هذا وأنتم الفقراء على الإطلاق.

[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٤).

[5] ن: فافهم.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر. انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٢٤–٤٢٥.

[7] سورة آل عمران، ٣/١٥، ٢٠.

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾

إنا فتحنا لك فتحا مبينا، يبين لك صدْقَ الوعد بما ذكر ههنا من المغفرة وتمامِ الآية، وبما في آخر السورة بقوله: لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ.[1] والفتح ههنا هو[2] قوله: فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا.[3] ولهذا نسبه سبحانه إلى نفسه أولا وأخيرا.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾

وقوله: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك**، أي قبل الفتح، **وما تأخر**، إلى آخر العمر. واللام في "ليغفر" لام العاقبة والصيرورة، وليست لام كي لأن المغفرة لا تتعلق بالفتح. ولهذا قيل: إن الفتح يريد به ما فتحه الله من القرآن، وإن المعنى في قوله: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**، أي باتباعك له. ويكون المراد بالخطاب الخاصِّ به عليه السلام عامّا للأمة. فهذا وإن كان جائزا لكونه صحيحا في نفسه، لكن مراد الآية هو الأول، والله أعلم. **ويتم نعمته عليك ويهديك صرٰطا مستقيما**. وهذه المواعيد كلُّها قد جعل الفتح سببا لها على القول الثاني، وعلامةً تدل على صدق الوعد[4] على القول الأول.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾

ثم قال أخيرا: **وينصرك الله نصرا عزيزا**، يُعزّك به فلا تَذِلّ أبدا. وهذا النصر على الأعداء يلزم منه فتحُ البلاد في المستقبل. واعلم أن مَن زعم أن الأنبياء معصومون فقد نقصهم بما به رام أن يمدحهم، لكنهم معصومون من الكذب خاصة. وقد جاء القرآن بذكر الذنوب وذكر المغفرة التي لا تكون إلا لذنب. وهذا مما لا يُدفع نصا.

---

١ الآية ٢٧ من هذه السورة.
٢ ن – هو.
٣ الآية ٢٧ من هذه السورة.
٤ ك ن: الموعد.

وأما ما لا يدفع عقلا فلا شك أن من لو أراد الخطأ [الذي] لم يقدر عليه لا يكون ممدوحا بتركه. وإنما الممدوح هو من يقدر ويصبر ولا يفعل، بل يَقهر نفسَه فيكون ذا حياة، وإلا فهو شجرة، أو مَوات خُلق على صورة لا يستطيع الانتقال عنها، فهو كالمطبوع، وذلك ليس بإنسان. ولكن قد يقال: هنا معنيان كما قدمنا في غير هذا الموضع. أحدهما أن الأنبياء معصومون من جهة أنفسهم لا من[1] جهة ربهم. فلمّا كان النبي قد سلك من الخيرات التي أمر الله بسلوكها ما صار طبعا له بحيث لو أراد تغييرَه لم يَقدر عليه كان حكمه حكم المجبَر المعصوم. والثاني أنه لمّا كان ذكرُ المغفرة يستلزم الإتيان بالذنب وقدم ذكر المغفرة لزم أن لا ذنب، فيكون البارئ تعالى قد غفر له ما تقدم قبل النبوة وغفر له في علمه الأزل ما يمكن وقوعه وإن لم يقع، والله أعلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

ولمّا كان هذا الإخبار بعد الفتح قد أنزله الله على قلب النبي عليه السلام وجعله له خاصة قال بعده ما أنزل على قلوب المؤمنين: **هو الذى أنزل السكينة**، فعيلة من سَكَن يَسْكُن. وهذه اللفظة جاءت بعينها في العبرانية، وهي تدل على ما يعتري القلب من النبي عند نزول الوحي من السكون والطمأنينة. وكان إذا اعترى نبيَّ ذلك الزمان [ما] غشّاه[2] عن الحس فسكنت جوارحُه يقال: جاءته السكينة. وليس المراد بها سكون البدن، بل السكينة للنفوس كالسكون للأبدان. وإنما أنزل الله، **السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمٰنا مع إيمٰنهم**. ثم قال: **ولله جنود السمٰوٰت**، ممن فيها من ملائكة وغيرها، **والأرض**، ممن في الأرض، أي يفعل ما يشاء ويأمر ويُنزل بحسب العلم السابق والحكمة الكاملة. **وكان الله عليما حكيما**. والمعنى أنه سبحانه لو شاء لنصركم بالجنود، ولكنه أراد / تكليفَكم الجهادَ للثواب. [٤٠١و]

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

---

[1] ك ن – من.

[2] ش: غشية؛ ك ن: غيبة. وفي هامش ك: غشاه.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

ويعذب المنٰفقين والمنٰفقٰت والمشركين والمشركٰت الظانين بالله ظن السوء، معلوم من قوله: بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا،[١] وتمامه كما سيأتي، لأنهم إذا[٢] ظنوا ذلك بالمؤمنين فهو ظنٌّ بالله، لأن الله وعد المؤمنين بالنصر. ويَدخل في ظن السوء ما[٣] تعتقده المجبرة من ظنهم السوء بالله، كقولهم: لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا.[٤] **عليهم دائرة السوء،** دعاءٌ عليهم. **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا.** إنما جاء الدعاء بلفظ الماضي إخبارا بأن الغضب واللعنة عليهم من الأزل علمًا بما سيكون منهم من العمل وإن كانوا إنما يستحقونها[٥] في مواقيتها.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

ثم قال: **ولله جنود السمٰوٰت والأرض وكان الله عزيزا حكيما،** من الحكم بما يشاء. والوجه في إعادة ذكر الجنود أن الأول للمؤمنين ذكرهم عند إنزال السكينة، وههنا عند عذاب الكفار والمنافقين ونصر الرسول وإعزازه. والمعنى أنه لا يزيد في قدرته إيمان المؤمنين ونصرتُهم، ولا ينقصها كفر الكفار وكثرتهم، بل له جنود السماوات والأرض. وكان في الأزل عزيزا حكيما من قبل أن يخلق الجنود.[٦]

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾

إنا أرسلنٰك شٰهدا، لمن آمن بالحق وعلى كفر مَن كفر من الخلق، **ومبشرا،** لمن آمن، **ونذيرا،** لمن كفر.

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه. التعزير النصر وهو عائد على الله سبحانه مع بقية الصفات، وهو كقوله: وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ.[٧] **وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا.**

---

١ الآية ١٢ من هذه السورة.
٢ ش – إذا.
٣ ش: وما.
٤ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٨/٦).
٥ ش ك: استحقونها.
٦ ن: بالجنود.
٧ سورة الحج، ٤٠/٢٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، لأنك الرسول منه إليهم بالمبايعة لله. والله هو الذي اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم.[1] وقوله: **يد الله فوق أيديهم**، كما تقول: سماء الله وأرض الله، وهذه يَدِي يدٌ له[2] سبحانه، لأن الله له كل شيء، وليس المراد عضوا أو جزءا. ولكن المرسِل سبحانه جعل يد المرسَل بمنزلة يده في المبايعة إعلاما بصحة القبول وشرف الرسول، كما أن من اتبعه فقد اتبع الله ومن خالفه فقد خالف الله. **فمن نكث فإنما ينكث علىٰ نفسه ومن أوفىٰ بما عٰهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما.**

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

سيقول لك المخلفون من الأعراب، مشتق من الخَلْف الذي هو ضد القُدّام. وتقديره يقولون عند عودتك من الجهاد إليهم معتذرين: **شغلتنا أموٰلنا وأهلونا فاستغفر لنا**. ثم أخبر سبحانه أنهم، **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم**. ولو كان ذلك في قلوبهم لَمَا تَخلّفوا إلا بإذن. **قل فمن يملك لكم**، وفي المائدة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ﴾[3] بإسقاط "لكم"، لأن الكلام ههنا مخصَّص وهناك مطلق، **من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا**، أي جزاء على أعمالكم. فلا تظنوا أنه يخفى عليه شيءٌ منها فيرتفع الجزاء من أجل الخفاء. **بل كان الله بما تعملون خبيرا**، فليس ما شغلكم عن اتباع الرسول ما ادّعيتموه.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبدا وزين ذٰلك فى قلوبكم،

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ (سورة التوبة، ١١١/٩).

[2] ن: بدله.

[3] ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، ١٧/٥).

عقابا لكم لما ظننتم، كقوله: زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ.[١] وظننتم ظن السوء، بالله أي بوعده وإخباره لرسوله من النصر. وكنتم قوما بورا، جُهّالا وهي استعارة، ومنها الأرض البور كما تقدم.[٢]

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

ومن لم يؤمن، منكم بعد هذه المرة وهو مطلق أيضا، بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكٰفرين سعيرا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

ولله ملك السمٰوٰت والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، أي بحق، ولهذا بعده: وكان الله غفورا رحيما.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها، أي لا إلى حرب، ذرونا نتبعكم. يريدون أن يبدلوا كلٰم الله، لأن الله منع خروجهم مع المؤمنين في صحبة الرسول عليه السلام. فطلبوا ههنا ما حُكمه حُكم الفتوى بالاتباع بعد توجه المؤمنين إلى المغانم، فقال الله تعالى: قل، / خطابا للرسول، فافهمه لئلا يتناقض [قوله:] لن [٤٠١ظ]
تتبعونا كذٰلكم قال الله من قبل، فسيقولون بل تحسدوننا، ليس كما قالوا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا، منهم. والكثير ملحَقٌ بالكفار لقوله في آخر سورة الأنفال: وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا، ثم قال عن الكفار منهم: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ.[٣] فهؤلاء ملحَقون[٤] بهم لتخلفهم أولا، ولو آمنوا فَقِهوا، ولو فقهوا لَمَا تخلفوا أول مرة.

---

[١] ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ (سورة فاطر، ٨/٣٥). وانظر أيضا: سورة محمد، ١٤/٤٧.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ (سورة إبراهيم، ٢٨/١٤). وانظر أيضا: سورة الفرقان، ١٨/٢٥.

[٣] ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٦٥/٨).

[٤] ن – ملحقون.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

ثم قال: قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى، قتال، قوم أولى بأس شديد تقْتلونهم أو يسلمون. فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما، وهذا بيان لقوله[1] في سورة التوبة بعد قوله: وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ، فقال: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ،[2] أي الذين كفروا لتكذيبهم وتخلفهم، ثم لم يتوبوا من بعد كما تولّوا من قبل. وبيان ذلك هو أن تعلم أن المخلَّفين ينقسمون أولا إلى قسمين. أحدهما أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر لم يأت. ومن أتى ينقسم أيضا إلى قسمين، أحدهما أتى ليؤذَن له في الخروج، ولكن لم يُعِدَّ عُدّة مع القدرة، والقسم الآخر أتى ليؤذَن له[3] في القعود، وهم المذكورون بقوله: ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ.[4] وأما من لم يأت فهم المذكورون بعده بقوله:[5] وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ. ولمّا كان قوله: وَقَعَدَ، يَعُمُّ كلَّ قاعد من المنافقين ممن لم يأت، وممن أتى ليؤذَن له في الخروج أو في القعود قال بعده: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ [عَذَابٌ أَلِيمٌ]،[6] فكان الإشكال في قوله: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ بعد قوله: وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لازما، إذ لم يقل: سيصيبهم. فحلُّ ذلك الإشكالِ الذي في سورة التوبة هو المتشابه بما ذكره ههنا من المحكَم. وذلك أن الكل يُدعَوْن إلى قتالِ، قومٍ أولى بأس شديد. فمن أجاب فقد تاب ومن لم يجب بقي على كفره. فلهذا لمّا قال: وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ قال بعده: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ، أي من الذين كذبوا الله ورسوله، إذا بقوا على كفرهم بعد الدعوة إلى القتال. فانظر ما أحسن هذا كيف خوّفهم غايةَ التخويف، وأطلق عليهم كلمة الكفر والتكذيب وبقي الأمر على حاله إلى أن نزل من القرآن ما فتح لهم به باب التوبة إن شاءوا.[7] فكان الكلام الثاني كأنه ناسخ للأول لكون الأول في غاية التخويف وليس بناسخ عند من عَلمه الله.

[1] ن: قوله.

[2] ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ٩/٩٠).

[3] ش – في الخروج ولكن لم يعد عدة مع القدرة والقسم الآخر أتى ليؤذن له.

[4] ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٨٦).

[5] جميع النسخ: بعد قوله.

[6] سورة التوبة، ٩/٩٠.

[7] ن: إن شاء.

ولقد كانت الوقائعُ في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تشرح القرآنَ، لأن القرآن كان إذا نزل إنما ينزل في واقعة اقتضت إنزاله، فكانوا يعلمونه ويَعظم موقعُه من أنفسهم بخلاف ما يعظم موقعه في نفس[١] من سمع من بعدهم بصورة الحال. فكيف إذا وقع الاختلاف في نقل ما وقع وسببِ ما نزل وغير ذلك. ونحن الآن نجد أن أحدنا إذا تمثل بكلمة من كتاب الله في حال من أحواله وجاءت في موضعها وعلى حسب واقعته طَرِب لها إذا سمعها أو قالها لصاحبه. فكيف إذا نزلت على سيد البشر من رب العزة في واقعة بعينها تَخُصّ قوما وتَعُمّ أمثالَهم إلى يوم القيامة. فانظر كيف جعل الكلام كاللُّغزِ ليخوِّف به، وجعله عند الذين أوتوا العلم بيّنًا بكلمة واحدة وهي قوله: مَعِيَ، فقال: لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا.[٢]

ثم قال ههنا عنهم: ستُدْعَوْن إلى قوم، ولا يدل ذلك على أنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكونون في المستقبل، بل يدل على أنهم دُعُوا من قبل فتولوا، رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ.[٣] فحرمهم الله أن يخرجوا أو يقاتلوا مع الرسول خاصة. فإن / تولوا بعد كما تولوا قبلُ عذّبهم الله عذابا أليما. وإن لم يتولوا[٤] فذلك توبة لهم وأجر حسن لهم، مع أنهم لا يخرجون مع الرسول أبدا فلا مناقضةَ بوجه. ولهذا قال الله لهم: وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ.[٥] وإذا تأملت ما ذكره هناك وههنا مفصَّلا تنبهت على ما ذكره من طوائفَ وخصصهم بكلمات من ثواب وعقاب، وأنه تعالى فصّل تفصيلا شافيا لا اشتباهَ[٦] فيه. وقد علمت قوله: وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ.[٧] فهؤلاء المذكورون ههنا هم مثل المرجئين، لأنه ذكرهم باسم يَعُمّ وهو قوله: قل للمخلفين، أي بأسرهم، وهذا فائدةُ زيادةِ قولِه: من الأعراب. وقدم قبله[٨] [قوله:] سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ.[٩] ثم قال: ستُدعون إلى قوم أولى بأس شديد، أي لا إلى مغانم كما طلبتم، [٤٠٢و]

١ ك ن: في أنفس.

٢ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٨٣).

٣ ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٨٧).

٤ ن: وإن لم يتوبوا.

٥ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٩٤).

٦ ن: شافيا لاشتبه.

٧ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٦).

٨ ش: وقدم قوله بعده.

٩ من الآية السابقة.

فهؤلاء مُرْجَوْن أيضا إلى أن يبدوَ منهم إما طاعة أو معصية. فإما[1] يتوب عليهم أو يعذبهم. وقد بيّنّا ذلك كله في سورة التوبة. وأوضحناه ههنا.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

وكما اتبع ذكرهم هناك بقوله: لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ،[2] كذلك لمّا ذكرهم ههنا مع الأمر بالقتال قال: **ليس على الأعمىٰ حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج. ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر. ومن يتول،** عن أمره وهو مطلق ومخصَّص ههنا بالجهاد، ولهذا[3] ذكر "الأليم"[4] في جميع المواضع المخصوصة بالمخلَّفين، فقال ههنا: **يعذبه عذابا أليما.**

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

ثم وصف من لم يتولّ[5] فقال: **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم،** من الصدق والإيمان الذي عليه تنبني أفعالُهم في مستقبل الزمان. **فأنزل السكينة عليهم،** في الحرب خاصة وإن احتمل العموم. والسكينة في الحرب تُعطي الثبات والصبر اللذَين[6] يعطيان النصر، ولهذا بعده: **وأثْبهم،** أي بما علم، **فتحا قريبا،** أي بفتح قريب.[7] وكذلك حذف الباء ودل عليها بالنصب مع العطف في قوله: **ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما.**

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

---

١ ن + أن.

٢ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (سورة التوبة، ٩١/٩).

٣ ن: بالجهاد لهذا.

٤ انظر مثلا: سورة التوبة، ٣٩/٩، ٩٠.

٥ ك ن: من لم يتب.

٦ ن – اللذين.

٧ ش ك – قريب.

ثم أخبر المؤمنين بما سيكون في المستقبل وجعل الفتح دليلا وبرهانا على صدق الوعد فقال: **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هٰذه**، الغنيمة، ومع نعمة الغنيمة نعمةَ السلامة، وهي قوله: **وكف أيدى الناس عنكم**، لتكون النعمة تامة بالظفر والسلامة. **ولتكون ءاية للمؤمنين**، في ذلك الزمن تدلهم على صدق الوعد بما سيكون، ولتكون آية لسائر المؤمنين إلى يوم القيامة تدلهم على صدق الرسول وإخباره عن[1] الله بما سيكون قبل أن يكون. **ويَهديَكم صرٰطا مستقيما.**

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾

وقوله: **وأخرىٰ لم تقدروا عليها**، معطوف على [قوله:] وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ،[2] **وأخرىٰ**، وبيّن الأخرى[3] بقوله: وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.[4] **قد أحاط الله بها**، علما وقدرة، كقوله: وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ،[5] وكقوله: وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ،[6] بمعنى أدير فلم يَفلِتْ منهم أحدٌ. وهو غاية البلاغة، إذ لمّا نفى القدرة لهم من جهة أثبتها له من كل جهة. ولهذا قال بعد ما وعدهم بالأخرى: **وكان الله علىٰ كل شىء قديرا**. وكانوا في ذلك الوقت غير قادرين على مكة، فعجّل لهم خيبر فيما روي. وعرّفنا أن المعجّلة كانت بغير قتال. فقال: **ولو قٰتلكم الذين كفروا لولوا الأدبٰر ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا.**

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

ثم ذكّرهم بنعمة أخرى مثل هذه فقال: **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم**، يحتمل أن يكون ذلك قولَه: وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ

---

[1] ن: من.

[2] من الآية السابقة.

[3] ن: وأخرى.

[4] سورة الصف، ١٣/٦١.

[5] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (سورة يونس، ٢٢/١٠).

[6] ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (سورة الكهف، ٤٢/١٨).

[٤٠٢ظ] عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ / فِيهِۖ.[١] فكفَّ أيدي[٢] الكفار بالرعب، وتلك نعمة على المؤمنين، وكفَّ أيدي المؤمنين بالأمر تعبُّدا، وتلك نعمة على المؤمنين. فالأولى نعمة الابتداء والثانية نعمة الجزاء إذا عملوا[٣] وامتثلوا. ولهذا بعده: **وكان الله بما تعملون بصيرا.**

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

هم الذين كفروا. وبيّن ما شرحناه بقوله: **وصدوكم عن المسجد الحرام والهدىَ،** منصوب بالعطف على الكاف والميم في [قوله:] صدوكم. **معكوفا،** منصوب على الحال، تقديره: محبوسا عن، **أن يبلغ محله،** المكانَ الذي يَحِل فيه ذبحُه. ثم قال: **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنٰت،** كانوا في مكة، **لم تعلموهم،** فتخشى، **أن تطئوهم،** أن تطئوا منازلهم بالسوء؛ تقول: ما وَطِئَنا اليومَ إنسانٌ، أي ما دخل علينا. ويحتمل الوطء بالأقدام بعد القتل. وقيل: تطئوهم بخيلكم ورَجِلِكم، وهذا أشبه بمراد الآية والله أعلم. **فتصيبَكم منهم معرة،** إثم، من العار في دينكم، **بغير علم،** منكم. ومعنى العار هنا أن يقول المشركون: قد قتلوا أبناء دينهم كما قتلوا أعداءَ دينهم، أي لولا ذلك لبسط الله أيديكم بقتلهم حين صدوكم في ذلك الوقت، ولكنه كفها، **ليدخل الله في رحمته،** وهي الإسلام، **من يشاء،** من المذكورين الذين علم الله منهم القبول واتباعَ الرسول. ثم قال: **لو تزيّلوا،** أي لو تفرقوا وانفرد[٤] المؤمنون من الكفار، **لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما.**

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾

---

١ ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩١).

٢ ن: فكف أي.

٣ ك ن: إذا علموا.

٤ ك ن: وانفرز.

وذلك حين، **إذ جعل الذين كفروا**، هم جعلوا، **فى قلوبهم الحمية حمية الجْهلية**، أي لا بوجه حق بل أرادوا أن يحموا مكة من المؤمنين فمنعوا الهدْيَ ومن معه من المؤمنين. **فأنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين**، قُبالةَ تلك الحمية. **وألزمهم كلمة التقوىٰ**، أي الكلمة التي لا تَصدُر إلا من المُتَّقِي. فأولئك كفروا وصدوا، وهؤلاء[١] آمنوا واتقَوا، فوصف الله كلا منهما في قوله وفعله. فالمؤمنون مع كونهم رأوا حميةَ الجاهلية من المشركين، وكان يقتضي أن يقابلها المؤمنون بمثلها. فأنزل الله السكينة بحيث لم يصدر منهم فعلٌ يسوء[٢] ولا قولٌ. ولهذا قال: **وألزمهم**، أي بطريق الأمر لا الجبر، **كلمة التقوىٰ**. ولمّا كان قوله: **وألزمهم**، يحتمل الجبر بيّنه الله[٣] بقوله: **وكانوا أحق بها وأهلها**، فلم يكلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسمع والطاعة، ولم يكلموا الكفار إلا بما أمرهم به الرسول. ولمّا لم يكن الإلزام من الله حجة للكفار ولا عن هوى من الله عز وجل بل على وفق العلم الأزلي المتقدم على ما يكون من القول والعمل قال مُبَيِّنا في آخر الآية: **وكان الله بكل شيء عليما**.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

ثم أخبر الله سبحانه بفتح مكة ودخولِ المؤمنين آمنين من شر الأعداء المانعين من قبل. وكان النبي عليه السلام رأى ذلك في رؤيا المنام: **لقد صدق الله رسوله الرءيا بالحق**. ومعنى "بالحق"، أي بالحق الذي لا بد من وقوعه في الوقت الذي أذن الله بوقوعه فيه فقال: **بالحق**، ردا على من ارتدّ إذ اعتقد أن الرؤيا كانت بالباطل، وهذا هو معنى قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ،[٤] أي امتحانا واختبارا؛ لأنه عليه السلام لمّا أبدى ما رأى ولم يقع في ذلك العام ارتدّ جماعة عن الإسلام. فأخبر الله أنه لم يجعل تأويل الرؤيا مؤخّرا إلا ابتلاءً للناس ليظهر إيمان المؤمن كأبي بكر رضي الله عنه فيما رُوي أنه قال لهم: فهل قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تملكون مكة في هذا العام؟» قالوا: لا. فبالرؤيا ظهر إيمان المؤمنين وارتدادُ المنافقين.

---

١ ن: هؤلاء.
٢ ن: بسوء.
٣ ن – الله.
٤ سورة الإسراء، ١٧/٦٠.

[٤٠٣و] وكان ما أبداه النبي عليه السلام للمؤمنين / أن قال: **لتدخلن المسجد الحرام**. وقوله: **إن شاء الله**، إنما استثنى وهو يعلم ليعلّمنا الاستثناء، **ءامنين محلقين رءوسكم ومقصرين**، أي منكم من يَحلق ومنكم من يقصّر من شَعره إشارة إلى دخولكم متعبدين لا مقاتلين. لهذا قال أولا: **ءامنين**، وقال أخيرا: **لا تخافون**، أي بوجه من الوجوه. وقوله: **فعلم ما لم تعلموا**، تقديره فلهذا كف الأيدي منكم ومنهم أولا عن القتال لِمَا علم من النصر الكائن على أحسن الأحوال. **فجعل من دون ذٰلك**، الفتح المكي، **فتحا قريبا**، مبشرا للمؤمنين ومنذِرًا للكافرين وهو فيما قيل فتح خيبر أو الحديبية.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨﴾

هو الذى أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره، من الاستظهار فأصبحوا ظاهرين **على الدين كله**. و"الدين" لفظة جنسٍ تَعُمّ سائرَ الأديان. **وكفىٰ بالله شهيدا**، له بذلك.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾

محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، من الشَّدّ والشدة وهي القوة، **رحماء بينهم**، بين المؤمنين. **ترٰىهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوٰنا. سيماهم فى وجوههم من أثر السجود**. ثم قال: **ذٰلك مثلهم فى التورىٰة**، أي، أشدّاء على الكفار رحماء بينهم، لأن الله تعالى ذكر في التوراة من يقيمه الله من نسل إسماعيل من أمة عظيمة مباركة.[1] ولا تكون هذه الأمة كذلك إلا بأن يكونوا، أشداء على الكفار رحماء بينهم، فهذا تخصيص. وأما العموم فهو ما في التوراة من ذكر أوصاف المؤمنين

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأُكثره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يَلِدُ، وأجعله أمة كبيرة» (التّكوين ١٧/٢٠). وانظر أيضا: التّكوين ١٢/١-٣.

وأوصاف من نصر الأنبياء ومن ينصرهم مطلقا في كل زمن فيدخل التخصيص في ذلك. لهذا قال: **مثلهم**، ثم قال: **ومثلهم فى الإنجيل**، أي كهذا[1] المثل الآخر، وهو قوله: **كزرع أخرج شَطْأَه**، أي فَراخه. يقال: أشطأ الزرعُ إذا أفرخ من جوانبه، ومنه شاطئ النهر: جانبه. **فئازره**، أي عاونه، أي[2] فشدُّ فراخ الزرع آزر النبت. **فاستغلظ**، الزرع. **فاستوىٰ**، قائما، **علىٰ سوقه**، جمع ساق. **يعجب الزراع**، تم المثل الذي معناه في الإنجيل.

ثم قال ما معناه: إنما كان أصحاب محمد كذلك، **ليغيظ بهم الكفار**. ثم أخبر عنهم بقوله: **وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت**. وقوله: **منهم**، ليس للتبعيض بل لتبيين الجنس، أي لكل واحد منهم كما للآخر، ومن قال: إنها للتبعيض فإنه أراد أن منهم من هو منافق إلى يومنا هذا وأن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر،[3] فهم وإن نصروا الإسلام وكسروا الأعداءَ لا يفيدهم ذلك إلا بالإيمان والعمل الصالح. فوعد الله هؤلاء خاصة، **مغفرة وأجرا عظيما**. وهذه[4] الآية فيها جميع[5] الحروف. ووجه ضرب هذا المَثَل بالزرع الذي أخرج شطْأَه هو أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى دينه وكان ضعيفا. فأجابه الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه وقَوي أمره، كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال. والقرآن هو الغيث المنزَّل من السماء لإمداد النبات حتى يَغْلُظ ساقُه، وفراخه أولاد المؤمنين، وهذا من أوضح البيان لأهل ذلك الزمان.[6]

---

١ ن: هكذا.

٢ ن – أي.

٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل ممن يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذي قلت: «إنه من أهل النار»، فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إلى النار». قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ، قيل: إنه لم يمت ولكنّ به جراحا شديدا. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسَه فأُخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله». ثم أمر بلالا فنادى بالناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (صحيح البخاري، الجهاد ١٨٢، والقدر ٥؛ وصحيح مسلم، الإيمان ١٧٨).

٤ ش ك – وهذه.

٥ ك ن: فيها الجمع.

٦ ش + تمت سورة الفتح والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله، أي لا تقدموا لأنفسكم قولا أو فعلا لا يرضاه الله لكم ورسوله. وقد سمعت قوله تعالى في يوم الجزاء: ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ،[1] وقوله تعالى: وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ،[2] وفي سورة البقرة حذف لفظة "خير" فقال: وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ،[3] وههنا حذف ذكر الأنفس. وقال: **لا تقدموا**، فلزم أن يكون نهى عن ضد[4] ما أمر به، فافهم ذلك. ثم بيّنه بقوله: **واتقوا الله إن الله سميع**، لما تقولون، **عليم**، بما تفعلون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾

ثم أوضح مما نهى عنه مَثَلا يَدِقّ / فهمُه عن أذهانهم فلا يفهمونه من تلقاء [٤٠٣ظ]
أنفسهم بغير مُنبّه لهم ينبههم عليه، فنبههم بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصوٰتكم**، بحيث إنها تعلو، **فوق صوت النبى**. إنما ذكر ذلك لأنه إذا نهاهم عن رفع الصوت عند مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد لزم النهي عما هو أسوأ من ذلك، مثل أن يكون الصوت بما يسوء من الكلام ولو كان بصوت منخفض، فإنه أقبح في العقول مما لا يسوء ولو بصوت عالٍ. وهذا النهي ههنا يستوعب الصوت العالي ولو كان فيما يَسُرّ، فكأنه قال: الصوت العالي فوق صوت الرسول لا يحل، فكيف غير ذلك من ضروب العلوّ والتكبر. والمراد المخاطبة بالأدب والخشية، لأنهم إذا رفعوا أصواتهم عما يسرّ مثلا يلزم عن ذلك إما أن يَرفع صوتَه أيضا ليعلُوَ على أصواتهم، وإما أن يسكت، وإما أن يقول فلا يُسمِع صوته. وكل ذلك مُضر بهم ضررا تتفاوت مقاديره

---

١ ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٩-١٠).

٢ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٠؛ وسورة المزمل، ٧٣/٢٠).

٣ سورة البقرة، ٢/٢٢٣.

٤ ك ن: عن ضدها.

بحسب ما يبدو منهم. ثم نبّه المؤمنين على المراد من هذا الكلام تعظيما لقدر النبي عليه السلام بعد القول الأول بقوله ثانيا: **ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**، واحذروا إن فعلتم ذلك، **أن تَحبط أعملكم وأنتم لا تشعرون**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

ثم لمّا حذّرهم أكّد الأمر بعد الترهيب بالترغيب فقال: **إن الذين يغضون أصوٰتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ**، أي لأجل أن يُسكتها التقوى بصبرها عن المنكَر. **لهم مغفرة**، عما بدا[1] منهم من هذا المنهي عنه وإن كان مطلقا أيضا، **وأجر عظيم**. وهذا من أبلغ التعريف، وأشد التخويف، وأعظم البيان فيما يجب من تعظيم حرمة النبي عليه السلام، وهو أن يكون بنفس الخطاب له يُكْتَب الأجر العظيم، أو تُحبَط الأعمال كلها في الجحيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

ثم زاد القولَ تأكيدا ونبّه على ما هو أدقّ في باب الأدب فقال: **إن الذين ينادونك من وراء الحجرٰت**، جمع حجرة. **أكثرهم لا يعقلون**، شبههم بالحيوان المنسلخ عن الإنسانية، إذ سلبهم العقلَ الذي هو منشأ السعادتين. وقوله: **أكثرهم**، دليل على أن منهم من يعقل وينادي أيضا فهو أسوأ حالا لقلة أدبه وكثرة تعدّيه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

ثم قال معلما لهم ثم لنا فيما يجب أن نسلكه مع العلماء الذين هم ورثة الأنبياء:[2] **ولو أنهم صبروا حتىٰ تخرج إليهم لكان**، ذلك، **خيرا لهم**. ثم عرّفَنا أن هذا وإن كان مذموما لكنه ليس كالأول، فإن الأول وهو رفع الصوت يُحبط العمل. وأما هذا فقال بعده: **والله غفور رحيم**، وفيه أيضا أنه لولا غفرانه ورحمته لأهلك فاعلَ ذلك. وفيه ما معناه أنه سبحانه، **غفور**، لما مضى، **رحيم**، فيما سيأتي. ولهذا يُعلّمكم ويهديكم سبلَه.

---

1 ن: عما بدأ.

2 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما العلماء ورثة الأنبياء» (سنن الدارمي، المقدمة ٣٢؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة ١٧). إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم. انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٦٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾

يٰأيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، صحة ما نبأكم به وأفصِحوا عنه حتى يتبين أي[1] يتحقق، حذرًا، أن تصيبوا قوما بجهٰلة، سُمُّوا قوما، لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، وكأنه جمع قائم مثل نَفَر جمع نافر، ومعناه أن تصيبوا بجهالة قوما بسوء؛ فتصبحوا علىٰ ما فعلتم نٰدمين.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

واعلموا أن فيكم رسول الله، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم، أي لأثمتم، ومنه قوله تعالى: ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ،[2] يريد الإثم، ولكنه إثم وقع من عنت النفس، وقد بيّنّاه في موضعه. والمعنى أنه كما أن الرسول عليه السلام لا يطيعكم في أكثر أموركم بل فيما تبين له من الله كذلك لا تطيعوا أنتم كل نبأ إلا ما تبين لكم صحته. ثم قال ما معناه: أنتم بهذه المثابة، ولٰكن الله حبب إليكم الإيمٰن وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، كرمًا منه، وهذه الثلاثة هي جملة الذنوب. والفرق بين الفسوق والعصيان أن الفسوق ترك الأمر، أعني الخروج عنه بدليل / قوله: فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ،[3] والعصيان هو[4] انتهاك المنهي عنه بدليل قوله: وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ.[5] وههنا أربعة أقسام: فالأول مؤتمِرٌ منتهٍ فهو من الفائزين. والثاني غير مؤتمر وغير منته فهو من الهالكين. والثالث غير مؤتمر بل مُنْتَهٍ وهو من الفاسقين. والرابع غير منته بل مؤتمر وهو من العاصين. فالمذكورون ههنا هم من القسم الأول فضلا من الله لا كسبا. وذلك لكون الرسول فيهم، وهذا يَعُمّ سائرَ الأمة إلى يوم القيامة وإن خص قوما في زمنه صلى الله عليه وسلم. ولهذا لم يقل: فأنتم بل قال: أولٰئك هم الرّٰشدون. ثم قال: فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم. [٤٠٤و]

---

١ ك ن: أن.

٢ ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ (سورة النساء، ٢٥/٤).

٣ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ (سورة الكهف، ٥٠/١٨).

٤ ش ك – هو.

٥ سورة طه، ١٢١/٢٠.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحدٰهما على الأخرىٰ، تقديره فلم تُجِبْ إلى أمر الله، فقٰتلوا التى تبغى حتىٰ تفىء، ترجع، إلىٰ أمر الله، بين أنه لا يجوز قتال المؤمن إلا لهذه الحالة. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إشارة إلى الوقوف في حدّ من العدل كالوزن بالقسطاس. إن الله يحب المقسطين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

ولما قدم قوله: ٱقْتَتَلُواْ[1] الذي يدل على الكثير قال بعده ما يدل على القليل وأقلُّه نفران فقال: إنما المؤمنون إخوة، في الإسلام، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾

ثم منع ما يجلب أدنى خصومة أو تشويش خاطرٍ فقال: يٰأيها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم عسىٰ أن يكونوا، المسخور بهم،[2] خيرا منهم ولا نساء من نساء عسىٰ أن يكن خيرا منهن. ولا تلمزوا، اللمز العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوِها إلى ما ينبّه على العيب[3] بوجهِ غَيْبة للحاضر.[4] يقال: لمَزه يَلمِزه، وقرئ بهما،[5] وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ.[6] ومنه الهُمَزَة،[7] أي العيّاب، وهو دفع وضرب بالمعنى المفهوم عن تلك الإشارة، أنفسَكم، أي بعضكم بعضا. ولا تنابزوا، تتنابزوا، والنبز بالقبيح واللّقَب بالحسن والقبيح. والنبز بتحريك الباء اللقب وبتسكينها مصدر نَبَز يَنْبِز نَبْزا،

١ من الآية السابقة.
٢ ش – المسخور بهم.
٣ ن: على الغيب.
٤ ك ن: للخاص.
٥ قرأ بضم الميم يعقوب وافقه الحسن، وكسرها الباقون (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥١٢).
٦ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٨).
٧ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (سورة الهمزة، ١/١٠٤).

وهو لقبٌ بسوء.[١] ولهذا بعده: بالألقب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمن. ومن لم يتب فأولئك هم الظلمون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

ثم دقق في الأمر بالأدب فذكَر ما لم يُذْكَر لفظا بل هو من الحركات الباطنة كسبا فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيرا من الظن**، أمر باجتناب الكثير من ظن السوء لئلا يقع في القليل الذي هو الإثم. **إن بعض الظن إثم**، دل بلفظ الاجتناب على أنه سوء، ولم يقل: سوء الظن لئلا يَعُمَّ ما لا سبيل إلى اجتنابه من ذلك وهو ما لا طريق إلى تحقق العلم فيه كما نبين.[٢] والذي تعطيه بديهة النظر أن يقول: إن بعض الظن صدق ليعود الكثيرُ كذبا فيكون إثما فيحسن في العقل اجتنابُه. والحد ههنا أن كل ما لصاحبه طريق إلى العلم ثم يبني فيه على الظن فهو الذي يجب اجتنابُه، لاحتمال أن يكون كذلك وأن لا يكون فيكون إثما وهو البعض. فأما ما لا طريق إلى علمه فلا بد فيه من الظن لكنه في محل الشك، فنهى أن نبني على الظن بالسوء مع إمكان طريق العلم فيه،[٣] فافهمه جيدا. والإنسان إنما يؤمر بما في طاقته وله إليه سبيل. وأما كونه لم يقل: "إن بعضه إثم" فلئلا[٤] يعودَ على الكثير فلا يصح، لأنه قد يكون الكثير كله إثما لا بعضه، وقد يكون كله صدقا. فلمّا قال: **بعضَ الظن**، جاز أن يكون بعضَ الكثير أو كلَّه في بعض الأحيان، ويكون الكل بعضا. **ولا تجسسوا**، ومنه الجاسوس، وهو الذي يفحص عن / الأخبار الردية. ولم يقل: ولا تَجُسُّوا بسين واحدة، لأنه من جَسَّ الطبيب يد المريض، وإن رجع في التصريف إلى أصله. **ولا يغتب بعضكم بعضا**، والغِيبَة هي ما تكره أن تواجه به أخاك أو يكرهه منك. ثم ضرب لذلك مثلا جامعا بين الحرام والمكروه عند النفس، فإن من الحرام ما لا يكون مكروها للنفس فقال: **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا**. ثم قال: **فكرهتموه**، فدل بالفاء على ما معناه بصورة السؤال عطفا على [قوله:] **أيحب**، وتقديره فلو وقع هذا كرهتموه أم لا؟ فيلزم ما معناه: [٤٠٤ظ]

---

١ ش ك: يسوء.
٢ ن: كما تبين.
٣ ن – فيه.
٤ ن: إثم قليلا.

وإذا كان كذلك فاكرهوا من أنفسكم لغيركم ما تكرهونه من غيركم لأنفسكم. **واتقوا الله إن الله تواب رحيم**. وقوله ههنا: **تواب**، يدل على مضاعفة ما يظهر عنه سبحانه من صفة التوبة، لأن هذا الذنب يتكرر كثيرا من العبد، فليكن أيضا توابا. فإن الله تواب على التوابين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

ثم قال ما نعلم به المساواة من جهته لئلا نكون[1] مجبَرين منه ونعلم[2] به ما وَهَبَنا من التمكن بحيث نكون عنده أكرم البشر بكسبنا لا بإجباره لنا فقال: **يٰأيها الناس إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثىٰ**، تذكيرا منه بنظر الإخوة القديمة أصلا. **وجعلنٰكم شعوبا**، جمع شَعْب وهو الحي العظيم مثل رَبيعة ومُضَرَ، **وقبائل**، دونها كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. والشعوب تتفرق وتتشعب شُعَبا، والقبائل يقابل بعضها بعضا. فالشعوب من شعبة الشجر، والقبيلة من الجماعة القابلة من أب واحد فهُم على سنّته. **لتعارفوا**، لتعارفوا؛ يحتمل أن يكون من المعروف لا من المعرفة. ويجوز أن يكون من المعرفة بمعنى أن هذا يُعرَف بقبيلته، وهذا بشَعْبه. والأولى أنه من عارف يعارف معارفة، والإسم عارفة، وأراد المفاعلة من الخصمين.

[الصلة بين كرامة الإنسان وتقواه وعقله]

ثم بين غاية البيان لكل إنسان بقوله: **إن أكرمكم عند الله أتقاكم**، وقد بيّنّا المراد بلفظ التقوى عند قوله تعالى: وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا.[3] وكمال التقوى بكمال العقل، والعقل هو المكلِّف بحَسَبه. فغاية المكلفين على اختلاف عقولهم غايةٌ واحدة كلٌّ بحسبه. فالعقل من جملة المقسوم، كما أن الرزق بالقدر المعلوم. فكما تقدم العلمُ بما يجب أن يبتلى به هذا في مقدار ماله كذلك تقَدم العلم بما يجب أن يُبتلى به هذا في مقدار عقله،[4] وكما يتصرف هذا بمقدار ماله مع فقره فيكون أجره كأجر الغني، كذلك يتصرف هذا بمقدار عقله مع ضعفه فيكون[5] كالقوي. ولو لم يكن التكليف

١ ن: لئلا تكون.
٢ ن: نعلم.
٣ سورة الطلاق، ٢/٦٥.
٤ ش – ماله كذلك تقدم العلم بما يجب أن يبتلى به هذا في مقدار عقله.
٥ ش – أجره كأجر الغني كذلك يتصرف هذا بمقدار عقله مع ضعفه فيكون.

على قدر العقول لَما قامت حجة الله سبحانه بالرسول. ومن أوتي فضلا في عقله لزمه أن يأتي بمثله في فعله كما لزم ذا المال في ماله. وعُشر الفقير كعشر الغني فيما بذلا من مالهما في طاعة الله. وأجر الضعيف كأجر القوي فيما وصلا إليه بعقولهما من معرفة الله. وكما أن الرزق ينمي بالتكسب فكذلك العقل ينمي بالتعلم. فالعقل الطبيعي كالسراج والعلم يُمده كالزيت. ولو لم يكن العقل قابلا للازدياد بالتعلم والاجتهاد لَما قامت به حجة الله على العباد. ولمّا كان ازديادُه راجعا إليهم قامت حجةُ الله به عليهم. فقد ثبت أن ابتداءه وهبٌ وأن تمامَه كسبٌ. ولو لم يكن كذلك لكانت القسمة بالهوى. ولم[1] يكن الكرم بالتقوى بل بالقَسْم السابق من الرب إجبارا لا بالكسب اللاحق من العبد اختيارا. ولهذا ظهرت فائدة الحديث في قوله عليه السلام: «أتمُّكم عقلا أشدُّكم لله خوفا، وأحسنكم فيما أمر الله عز وجل به ونهى عنه نظرا وإن كانوا أقلَّكم تطوعا».[2] وقال: «إنما يسأل الله سبحانه الناس عن عقولهم ويخاطَبون بحسب عقولهم»[3] وبحسب ذلك الثواب والعقابُ. وقال: «إنما يجزى الرجل يوم القيامة عند الله في كل ما عمله على قدر عقله».[4] وقال: «إنما / يرفع الله سبحانه العباد في الدرجات [٤٠٥و] غدا عنده وينالون الزلفى منه على قدر عقولهم».[5] وهذه الأحاديث تُعطي أن العقل المشار إليه هو ما يتعلق بالعبد المكلَّف. ولو لم يكن كذلك لعادت حجة العباد واضحةً، لأن الأعمال على قدر العقل، والعقل على قدر القسمة الربانية، والقسمة الربانية لا يسأل عنها؛ وليس كذلك بل القسمة الربانية هي على وفق العلم والحكمة بما يجب لزيد دون عمرو كما بيّنّاه في آخر الكهف. ولهذا قال عليه السلام: «إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسوله وعمل بطاعته».[6] ولا شك أن هذا كلَّه من باب الكسب بما آتاه الرب. وإذا لم يفهم ذلك[7] عارضه قوله عليه السلام: «إن الرجل لَيكون

---

١ ك: ولو لم.

٢ عن أبي قتادة قال: قلت: يا رسول الله أرأيت قول الله عز وجل ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ما عنى بها؟ قال: «أيكم أحسن عقلا». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا، وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلكم تطوعا» (إتحاف الخيرة لشهاب الدين أحمد البُوصيري، ٦/٢٣).

٣ لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

٤ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. نحوه: عن أبي قلابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يحاسب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم» (إتحاف الخيرة لشهاب الدين أحمد البُوصيري، ٦/٢١).

٥ المرجع السابق، ٦/٢٧.

٦ المرجع السابق، ٦/٢٧.

٧ ن: وذلك.

من أهل الصوم والصلاة والزكاة والحج ولا يجزى إلا بقدر عقله».[1] قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله بماذا يجازَى[2] الناس في الدنيا؟ قال: «بالعقل»، قالت: فبماذا يجازَون في الآخرة؟ قال: «بالعقل»، قالت: أوَلَا يجازَون بقدر أعمالهم؟ قال: «يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟» ثم قال: «ما تم دينُ إنسان قط حتى يَتِمَّ عقله».[3] وإذا علمت أن تمام العقل إنما هو بصرفه إلى ما خُلق له، وهو الكسب، فقد وَضَح [لك] أن العقل دليل على التقوى، والتقوى تمام العقل وثمرته، وإلا لا ثمرة له؛ وأنه كالميزان، ولو فرضنا ميزانا مَعِيبا فذلك كالصبي والمجنون ولا شك أنه غير مكلف. وههنا بحث قد ذكرناه في عدة مواضع فلم نكرره. فإذا رَجعتَ به إلى ما أصّلناه في آخر سورة الكهف فهمته، وهو غير بعيد عن فهم المُنصِف، وإن لم يطالع ما قلناه. وأصله يرجع إلى أن الله لم يجعل للعباد عليه حجةً فيما قسَم لهم من الرزق ولا فيما قسَم لهم من العقل، بل جعل ذلك على وفق العلم والخُبْرَة، لأنه عليم بما سيكون منهم، خبير بما يجب لهم. ولهذا ختم الآية بقوله: إن الله عليم خبير.

وإذا نبهتك على لطيفة فافكِرْ في جزئيات تتعلق بها وتلزم عنها؛ مثل أن تعلم أن قوله: لتعارفوا، عائد على قوله: إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثىٰ، ثم يجب أن تعلم حكمة تأخيرها، أعني لفظة التعارف، لأنه لو قال: مِن ذكر وأنثى لتعارفوا، ثم قال: وجعلنٰكم شعوبا وقبائل، لكان التعارف قبل الجعل، فذكره بعد الجعل ليكون التعارف دائما أبدا. وسببه الخلق الأول، من ذكر وأنثىٰ، لأن الجعل لا يُلزم التعارف والإحسان بل الأول مُلزِم. ولو ذكرتُ ما يجب عندي في كل موضع من الحِكَم لطال الكتاب. ولكني أبقيت لك ما يكون علامة للقبول إذا فهمته من نفسك في أمر من الامور بما تشاهده في نفسك من السرور. وذلك أمر لا يتم إلا بالإيمان دون الإسلام وحده.

---

[1] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه: «إن الرجل لَيكون من أهل الصلاة والزكاة والحج والعمرة والجهاد -حتى ذَكر سهامَ الخير- وما يُجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله» (المعجم الأوسط للطبراني، ٢٥١/٣).

[2] جميع النسخ: يجازون.

[3] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله بأيّ شيء يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «بالعقل». قالت: ففي الآخرة؟ قال: «بالعقل». قالت: قلت: إنما يجزون بأعمالهم. فقال: «وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل، فبقدر ما أعطُوا من العقل كانت أعمالهم، بقدر ما عملوا يجزون» (إتحاف الخيرة لشهاب الدين أحمد البُوصيري، ٦/ ٢١-٢٢).

﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾

قالت الأعراب ءامنا. قل لم تؤمنوا ولٰكن قولوا أسلمنا. أسلم واستسلم بمعنى انقاد، ويقال لمن دخل في السِّلْم. كما تقول: أشْتَى إذا دخل في الشتاء، وأصْيَفَ وأرْبَعَ. ومنه قوله تعالى: وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ،[1] وهو الإسلام الفطري؛ ومنه إسلام الأنبياء المتقدمين، ولكنه أعم لأنهم مؤمنون مسلمون. وكأن[2] القلب يتبع اللسان في الإسلام، واللسان يتبع القلبَ في الإيمان. ولهذا قال: **ولما يدخل الإيمٰن فى قلوبكم**، فالإسلام لازم عن الإيمان ولا ينعكس لأنه أعم. فهؤلاء انتقلوا من إسلام الكَرْه الفطري إلى الإسلام الطوع الاختياري، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم.[3] فهم مُضطَرّون إلى فعل الطاعات، فبإدمان فعلها تعود للنفس قوةٌ، ويُفتَح على القلب طمأنينةٌ. ولهذا قال: **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكم**، يَنْقُصْكم، **من**، جزاء، **أعمٰلكم شيئا**، أي بسبب ما بقي في قلوبكم من الرِّيبة بعد الإسلام. **إن الله غفور رحيم.**

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾

وبيّن ذلك بقوله: **إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا / وجٰهدوا بأمٰولهم وأنفسهم فى سبيل الله أولٰئك هم الصٰدقون.** [٤٠٥ظ]

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾

قل أتعلمون، التعليم غير الإعلام، فالتعليم للمجهول، والإعلام كالإخبار بما قد يكون معلوما من وجه أو أكثر.[4] أي فكيف تعلمون الله بدينكم، أي بما تدّعون[5] من الإيمان. ولولا الباء في قوله: بدينكم، لكان المفهوم أنهم يعلّمون الدين،[6]

---

١ ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٨٣).

٢ ن: فكأن.

٣ ش – فالإسلام لازم عن الإيمان ولا ينعكس لأنه أعم فهؤلاء انتقلوا من إسلام الكره الفطري إلى الإسلام الطوع الاختياري ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، صح هـ.

٤ ن: وأكثر.

٥ ك ن: بما تدعونه.

٦ ش: الذين.

من التعليم، والمراد مضاعفة الإعلام بالدين. وهذه العبارة تُعطي تكرُّرَ صدورِ الإعلام منهم. **والله يعلم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض والله بكل شىء عليم.**

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم قال ما ينبئ عما بدا منهم: **يمنون عليك أن أسلموا. قل لا تمنوا علىّ إسلٰمكم**، بإسلامكم. **بل الله يمن عليكم أن هدٰكم للإيمٰن إن كنتم صٰدقين.**

ولما كان عِلم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو من الحق لا من الخلق، وكان مَنُّهم على الرسول بما هو دعوى منهم أعلمه الله بحالهم، وذكر إطلاق العلم أولا بقوله: وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ،[1] الآية. ثم ذكره أخيرا مطلقا وخصصهم بالذكر في آخر الآية، لأن من يعلم الكل يعلم الجزء بلا شك فقال: **إن الله يعلم غيب السمٰوٰت والأرض والله بصير بما تعملون.** أي مع كونه عالما من قبلُ بما غاب علمُه[2] عن[3] العباد، وأنه بكل شىء عليم، وأنه يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض علما مطلقا بكل وجه فهو أيضا بصير بما يعملون دائما.[4]

---

١ من الآية السابقة.

٢ فالضمير ههنا راجع إلى "ما" قبله، لا إلى الله سبحانه.

٣ ن: من.

٤ ش + تمت سورة الحجرات والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة قٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾

قٓ والقرءان، قسَمٌ، المجيد، ذي المجد، وهو الكرم، من الكرامة. ثم حذف ما معناه: إنك لنذير أمين، أو مثل ذلك، كقوله في سورة يسٓ[1] مظهرا غير مضمر.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾

وبيّنه ههنا بقوله: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكٰفرون هٰذا شيء عجيب، وهو أيضا عما جاء به المُنذِر. فالعجب أولا منه والعجب ثانيا ما جاء به وهو: أءذا متنا وكنا ترابا، نرجع إلى هذه الأجساد أحياءً. ذٰلك رجع بعيد، في العقول، وهذا من تمام كلامهم.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾

فقال تعالى: قد علمنا، في الأزل، ولهذا قال بلفظ الماضي، ما تنقص الأرض منهم، نَقَص الشيءُ يَنْقُص نَقْصا ونُقْصانا، ونقصتُه أنا يتعدى ولا يتعدى. فيكون المعنى قد علمنا ما تنقصه الأرض منهم فتأكله[2] من لحومهم أولا فأولا وتُفنيه من عظامهم وسائر ما تنقصه منهم بكل وجه. وعندنا كتٰب، أي يحوي الكلَّ، والمراد التمثيل بما هو أوضح في العقول. وقوله: حفيظ، أي محفوظ من طوارق الحِدْثان ومِن أن يطّلع عليه الإنسان، وهم لا يؤمنون.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج، مختلط، ومنه المَرَج، أي منهم من يقول هو ساحر، أو مجنون، أو مفتر، أو شاعر.

---

[1] ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/١-٤).

[2] ك: فتاك.

من التعليم، والمراد مضاعفة الإعلام بالدين. وهذه العبارة تُعطي تكرُّرَ صدورِ الإعلام منهم. **والله يعلم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض والله بكل شىء عليم.**

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم قال ما ينبئ عما بدا منهم: **يمنون عليك أن أسلموا. قل لا تمنوا علىّ إسلٰمكم**، بإسلامكم. **بل الله يمن عليكم أن هدىٰكم للإيمٰن إن كنتم صٰدقين.**

ولما كان عِلم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو من الحق لا من الخلق، وكان مَنُّهم على الرسول بما هو دعوى منهم أعلمه الله بحالهم، وذكر إطلاق العلم أولا بقوله: وَٱللَّهُ يَعْلَمُ،[1] الآية. ثم ذكره أخيرا مطلقا وخصصهم بالذكر في آخر الآية، لأن من يعلم الكل يعلم الجزء بلا شك فقال: **إن الله يعلم غيب السمٰوٰت والأرض والله بصير بما تعملون.** أي مع كونه عالما من قبلُ بما غاب علمُه[2] عن[3] العباد، وأنه بكل شىء عليم، وأنه يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض علما مطلقا بكل وجه فهو أيضا بصير بما يعملون دائما.[4]

---

[1] من الآية السابقة.

[2] فالضمير ههنا راجع إلى "ما" قبله، لا إلى الله سبحانه.

[3] ن: من.

[4] ش + تمت سورة الحجرات والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة قٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾

قٓ والقرءان، قسَمٌ، المجيد، ذي المجد، وهو الكرم، من الكرامة. ثم حذف ما معناه: إنك لنذير أمين، أو مثل ذلك، كقوله في سورة يسٓ[1] مظهرا غير مضمِر.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾

وبيّنه ههنا بقوله: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكٰفرون هٰذا شيء عجيب، وهو أيضا عما جاء به المُنذِر. فالعجب أولا منه والعجب ثانيا ما جاء به وهو: أءذا متنا وكنا ترابا، نرجع إلى هذه الأجساد أحياءً. ذٰلك رجع بعيد، في العقول، وهذا من تمام كلامهم.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾

فقال تعالى: قد علمنا، في الأزل، ولهذا قال بلفظ الماضي، ما تنقص الأرض منهم، نَقَص الشيءُ يَنقُص نَقْصا ونُقْصانا، ونقصتُه أنا يتعدى ولا يتعدى. فيكون المعنى قد علمنا ما تنقصه الأرض منهم فتأكله[2] من لحومهم أولا فأولا وتُفنيه من عظامهم وسائر ما تنقصه منهم بكل وجه. وعندنا كتٰب، أي يحوي الكلَّ، والمراد التمثيل بما هو أوضح في العقول. وقوله: حفيظ، أي محفوظ من طوارق الحِدْثان ومِن أن يطّلع عليه الإنسان، وهم لا يؤمنون.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج، مختلط، ومنه المَرَج، أي منهم من يقول هو ساحر، أو مجنون، أو مفتر، أو شاعر.

---

[1] ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/١–٤).

[2] ك: فتاك.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

ولما قدم قوله: قَدْ عَلِمْنَا،[1] وتمامه ذكر ما يستلزم العلم وهو الخلق، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ،[2] فقال: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم، ذكر الفوقية للعموم والعلو والعظمة، لأن القادر على ما فوق الشيء قادر على الشيء. وقوله: كيف، تقديره: قد بنينٰها، ولو قال: بنيناها فوقهم لكان المفهوم أن البِناية[3] بعد إيجادهم. وزيّنّٰها، بالمصابيح، وما لها من فروج، خروقٍ وشقوق منفرجة. والمعنى ليست قِطَعا ضُمَّ بعضها إلى بعض كأبنية الدنيا، بل قطعةٌ واحدة.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾

والأرض مددنٰها وألقينا فيها روٰسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، ذي بهجة في منظره، و"مِن" ليست بزائدة بل لتبيين الجنس. تبصرة، دالة على الصانع لمن له بصيرةٌ، وذكرىٰ، مذكّرةً بالبعث، لكل عبد منيب.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

ونزلنا من السماء ماء مبٰركا، بورك فيه ليُنبت وتكون من تلك البركةِ بركةٌ في الأرض، ولقد كان مِلْحا أُجاجا فصار عَذْبا فُراتا في السحاب. فأنبتنا به جنّٰت وحب الحصيد، كلُّ ما يُحصَد لأجل حَبِّهِ. والنخل باسقٰت، طِوالا، لها طلع، سمي طلعا لطلوعه، / نضيد، منضود، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا، أي ميّتا من بلدة، ولم [٤٠٦و]
ينسب البلدةَ نفسها إلى الموت، لهذا لم يقل: ميتة، لأنه كان يلزم موتُ كلِّ ما فيها حتى الناس والدواب. كذٰلك الخروج، من القبور يوم البعث.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾

---

[1] الآية ٤ من هذه السورة.
[2] سورة الملك، ١٤/٦٧.
[3] ن: أن البناءة.

كذبت قبلهم قوم نوح وأصحٰب الرسّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوٰن لوط وأصحٰب الأيكة وقوم تبع. كل كذب الرسل فحق، عليهم، وعيد.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

ثم أخذ يُنبئهم على صحة البعث بشاهد من أنفسهم فقال: أفعيينا، عَيَّ بالأمر: لم يعرف وجهه، وأعيى تَعب. ومن أنكر البعث أعني بعث الأجساد لكونه[١] لا يَعلم الحكمة في ذلك لزمه أن ينكر وجوده، لأنه لا يعرف الحكمة في ذلك. فافقه هذا جيدا مستَقْصِيا. فإذا عرفت موجِب الإبداع فيجب أن يكون موجب الإعادة كذلك كما بيّنّاه. وقوله: بالخلق الأول، أي إذا نظرتم إلى الخلقة الأولى رأيتم أننا لم نَعيَ بل عرفنا الوجه الأتم والأَولى بها. بل هم فى لبس من خلق جديد.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾

ولقد خلقنا الإنسٰن ونعلم، في كل حين، ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إليه وهو العرق الجافي في العنق. وسمِّي هذا العرق وريدا لأنه ظاهر، ومنه: زَهَر الوَرْدُ لوروده، فمثّل به دون الأبْهَر[٢] القلبي، لأنه أظهر للحس. ومن شهد الحق بيْنه وبين ما يخافه حَجَبه من الأبعد، ومن شهده بيْنه وبين ما[٣] يرجوه شغله عن الأقرب. وبيان ذلك أن السِّوَى[٤] كله حجاب الكرم، لأنه تعالى جعل أعيان الكون حاجبة لك ليردّك إليك فتراه بك قريبا. كأنه يقول: مِن كرمي تواريتُ عنك فيما بَعُد، ومن كرمي تراءيت[٥] لك فيما قرب. فأنت لك[٦] أدلّ من الأشياء عليّ وأقرب منها إليّ، وأنا أكرم من الكل عليك وأقرب منك إليك، والمعنى نحن أقرب.

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾

إذ يتلقى المتلقيان، الملكان اللذان لا تَراهما العينان، وسمّاهما متلقّيين لأنه ليس لهما شغلٌ في الدنيا غير ذلك؛ عن اليمين، قعيد، وعن الشمال قعيد، قاعد يتلقى أعماله

---

١ ن: لكنه.

٢ الأبهر: عرق منشؤه من الرأس، ويمتد إلى القدم (تاج العروس للزبيدي، «بهر»).

٣ ش – يخافه حجبه من الأبعد ومن شهده بينه وبين ما.

٤ كل شي غير الله.

٥ ن: ترأيت.

٦ ن – لك.

وما يصدر منه في هذا العالم. وحذف "قعيد" الأول من الفصاحة. ومنه قول الشاعر:[1]

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف.[2]

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾

ما يلفظ من قول إلا لديه، منهما، رقيب عتيد، وهو من قوله: وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا.[3] فذو اليمين يراقب الخيرات وذو الشمال يراقب ضدَّها. وإذا كان هذا وصْفَهما في الأقوال فكيف لا يكون في الأفعال؟ فعرّفَنا سبحانه أنه أقرب إلينا والحالة هذه. وقد قيل تقريبا إلى الأذهان: قلم المَلَك لسان الإنسان، ومداده ريقه في كل آن.

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾

وجاءت سكرة الموت بالحق، أي بالحق الذي لا محيدَ له منه، والمعنى كأنه وقد جاءت.[4] فيقال له: ذٰلك ما كنت منه تحيد، في الدنيا فلا محيدَ لك الآن.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾

ونفخ فى الصور، النفخة الثانية، ذٰلك يوم الوعيد.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾

وجاءت كل نفس، لا تَظنَّ أنه أراد بعْث الأرواح دون الأجساد. وإنما عبر بهذه العبارة أعني قوله: كل نفس، ليَعُمَّ الذَّكَرَ والأنثى، صغيرا وكبيرا،[5] حُرّا وعبدا، مؤمنا وكافرا. معها سائق وشهيد، يسوقها إلى الجنة لقوله: وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ،[6] أو إلى النار لقوله:[7] وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[8] فإن شهد صاحب اليمين عاد صاحب الشمال معه سائقا إلى الجنة، وإن شهد صاحب الشمال عاد صاحب اليمين سائقا معه إلى النار لا شاهدا. فتأمل هذه العبارة ما أعجبها وأدلَّها. وإنما يشهد له أو عليه من كان رقيبا.

---

١ ك – من الفصاحة ومنه قول الشاعر، صح هـ.

٢ معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ٢٢٩/٣، ٢٧٨، ٥٢٥/٤.

٣ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ (سورة يوسف، ٣١/١٢).

٤ ن: قد جاءت.

٥ ش: أو كبيرا.

٦ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (سورة الزمر، ٧٣/٣٩).

٧ ن – لقوله.

٨ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (سورة الزمر، ٧١/٣٩).

فكلٌّ منهما سائق وشاهد، ولكن في حال دون حال، فإما بالخير وإما بالشر، وإما إلى الجنة وإما إلى النار. وهذا كما تقول: فلان حكيم وفاضل، والمراد أن الوصفين / لواحد. فالمراد ههنا أن الوصفين لكل واحد من الملكين. وبين ذلك عند قوله: [٤٠٦ظ]
أَلْقِيَا،[١] بلفظ التثنية، وأفرد عند قوله: سائق، كما أفرد عند قوله: قَعِيدٌ.[٢]

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

ثم وصف مما يقال له بلسان التوبيخ: **لقد كنت في غفلة من هٰذا**، أي من رؤية هذا الحال كنت غافلا في الدنيا، **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**، من الحدّة. يقال: حاد البصر إذا كان يرى البعيد كما يرى القريبَ. واعلم أنه كما أن الحواس الخمس موجودة للجنين، ولكنه لا ينتفع بها إلا بعد خروجه إلى هذه الدار، كذلك لنا الآنَ حواس لا تظهر لنا ولا ننتفع بها إلا بعد خروجنا من هذه الدار، وكما أن الجنين يجوز أن يَحْدُث لبعض حواسه حادثة فيولَد أعمى، فكذلك يجوز أن يحدث له ههنا ما به يكون هناك أعمى. وحفظُ هذه الحواس ههنا إنما هو بالشريعة، وما هو إلا أن يكشف الغطاء وقد ظهرت الحواس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقال قرينه، شيطانه الذي قارنه في الدنيا، كقوله: نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ.[٣] والشيطان الذي يجري مجرى الدم[٤] هو الذي من خارج، إذ الصفة واحدة. وقوله: **هٰذا ما لدىّ**، هذا اعتراف القرين حين رأى النار وهو كقول الكفار: هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ.[٥] لأن الله تعالى لمّا كشف الغطاء رأى المجرمُ النار، وهو كقوله: وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا.[٦] فقال قرينه الذي أضله في الدنيا معترفا: **هٰذا ما لدىّ عتيد**، من قوله:

---

١ الآية ٢٤ من هذه السورة.

٢ الآية ١٧ من هذه السورة.

٣ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (سورة الزخرف، ٣٦/٤٣).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا» (صحيح البخاري، بدء الخلق ١١؛ وصحيح مسلم، السلام ٢٣-٢٥).

٥ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (سورة يس، ٥٢/٣٦).

٦ سورة الكهف، ٥٣/١٨.

إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ.[1] ولهذا بعده ههنا ما تقديره: قال الله للملكين: ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، معاند لله. مناع للخير معتد مريب، مشكّك في صدق الرسل وما جاءوا به من التوحيد.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

الذى جعل مع الله إلٰها ءاخر، وكرر الإلقاء لما بَعُد ولهذا قاله بالفاء: فألقياه فى العذاب الشديد. ولمّا قال تعالى: كُلَّ كَفَّارٍ،[2] لزم أن يكون الإلقاء للإنسان ولشيطانه معا، ودليله: وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ،[3] أي هُم وقرناؤهم. وتقديره: فألقياهما الملكان معا [والضمير] للكافر ولقرينه، فاقترنا في الجحيم كاقترانهما في الدنيا.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾

قال قرينه، مستغيثا: ربنا ما أطغيته، لأنك لم تجعل لي عليه سلطانا.[4] ولٰكن كان فى ضلٰل بعيد، عن الهُدى. وحَذَف عند قوله: "ألقيا" ما تقديره: قال الله، وإنما حذف لكونه استغنى ههنا بقوله: قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد، أي رسولا مُنذِرا بالوعيد ورسالة صريحة به.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

ما يبدل القول لدىّ، أي الذي قلته لكم في الدنيا وهو لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ،[5] وكقوله: وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ.[6] وما أنا بظلّٰم للعبيد. وذلك كله، يوم نقول لجهنم هل امتلأت، وهذه حالة من يقول حين الإلقاء وهو يلقي، وتقول هل من مزيد، وهي تَتلقّى.

---

[1] ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/١٠٢).

[2] الآية ٢٤ من هذه السورة.

[3] ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١٣).

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٢).

[5] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/١٣).

[6] سورة الزلزال، ٩٩/٨.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢﴾

وأزلفت، الإزلاف أشد القرب، لأنه إعدام مسافةٍ بين المتواصلَين، لا تعجيلُ قَطْعِها بل إذهاب البَوْن من البين، كذلك تُقرَّب، **الجنة للمتقين**. وقوله: **غير بعيد**، أي بوجه من الوجوه. وهذا بضد من قيل في حقه إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ،[١] لأن هذا البُعد وهم يساقون إليها هو أشد عليهم من عذابها. وأما المؤمنون فإنهم يجدون الجنة من مكان غير بعيد لئلا يتحسروا عليها عند رؤيتها، بل تُعجَّل لهم عن أقرب ما يكون، فهو غير بعيد بوجه من وجوه البُعد. وإذا كان هذا الوصف للجنة فكيف لمن هو أقرب مِنۡ
[٤٠٧و] حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ،[٢] إلى من في الجنة. ولهذا قال بعض العارفين: قَضَى كرمُ / الكريم أن تكون اللذة منه لعباده كاملة، ومن كمالها قربها. ولا ألذَّ من النظر إليه، ولا أقربَ من ذاتك إليك. وإلى هذا التجلي أشارت طائفةُ المتصوفة في الدنيا. ولله أن يخاطب مَنْ شاء بما شاء. فكما يخاطب المرءَ بغيره [كذلك] يخاطبه بنفسه، لأنه عبدٌ من بعض عباده، وكذلك في غير ذلك. **هٰذا ما توعدون**، خطاب عام من حينِ الإرسال إلى يوم المعاد. **لكل أواب حفيظ**، حافظٍ عهودَه مع الله بعد أوْبَتِه [و]رجعتِه إليه[٣] بالتوبة.

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾

من خشي الرحمن بالغيب وجاء، يوم القيامة، **بقلب منيب**.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥﴾

لهم ما يشاءون فيها، وهذا غير ما وصفها به من الأوصاف المذكورة.[٤] **ولدينا مزيد**، وهو غير ما يَخطر في بالِهم هناك فضلا عن أنه يخطر ههنا في بال أو يشار إليه بمقال. وهذا المزيد لا ينقطع. ولذلك لم يقل: زيادة، بل هو أبدا مزيدٌ، من زاد يزيد مفعول.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾

---

[١] ن: إذا رأيتهم. | ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١١-١٢).

[٢] الآية ١٦ من هذه السورة.

[٣] يعني إلى الله

[٤] أي في القرآن.

ثم ذكر بعد هذا الوعد الجميل والإحسان الجزيلِ لمن صَدّق الوعدَ حالَ من كذّب الوعيد في الدنيا ممن كان أشدَّ ممن[1] كذب هذا الرسول عليه السلام فقال: **وكم أهلكنا قبلهم من قرن**، القرن مقدار التوسط في مقدار أعمار أهل الزمان؛ فهو في قوم نوح على مقدار أعمارهم، وفي قوم موسى وعيسى وعادٍ وثمودَ على مقدار أعمارهم أيضا. واشتقاقه من الاقتران، فكأنه [هو] المقدار الذي [يكون] أكثرَ ما يقترن به أهل ذلك الزمان في بقائهم. وقوله: **هم**، هي ههنا للتبيين، وهي عائدة على القرن، **أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلٰد**، نقبوا، جمعوا[2] النقائب وهي الجماعات في البلاد طالبين المحيصَ من إهلاكنا لهم. ولهذا بعده: **هل من محيص.**

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

إن فى ذٰلك لذكرىٰ لمن كان له قلب، يدرك الحق من نفسه، **أو ألقى السمع**، ليدرك من غيره. ولمّا كان الإنسان قد يلقي سمعه إلى قول القائل ولكنه لا يكون قلبُه حاضرا فلا يكون بقلبه مشاهدا لما يلج في سمعه قال مع ذلك: **وهو شهيد**. والمعنى إما أنه يكون ذا قلب يَفقه هذا الكلام بمَوْهِبَة من الله، أو يكون سامعا من ذي موهبة؛ فإما عالم أو مستمع واعٍ. وقوله: **وهو شهيد**، عائد على القلب ولم يُكرر فيقولَ: والقلبُ، لأن ذلك لازم ولا يكون ذو القلب شاهدا إلا بقلبه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

ثم عطف على قوله: أَفَعَيِينَا،[3] [قوله:] **ولقد خلقنا السمٰوٰت والأرض وما بينهما فى ستة أيام**، أدلُّ على الحدث. وفيه معنوية تعليم الصبر والتُّؤَدَةِ.[4] **وما مسنا من لغوب**، تَعَبٍ وإعياء. والمعنى لم نتعب، حتى إننا خلقنا ذلك[5] في هذه المدة [لا] لأجلِ ما مسّنا من لغوب بل لحكمة.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

فاصبر علىٰ ما يقولون، من تكذيبك وكفرِهم بآيات ربك. **وسبح بحمد ربك**، أي بقول:

---

[1] ن – كان أشد ممن.

[2] ن: أجمعوا.

[3] الآية ١٥ من هذه السورة.

[4] التؤدة: التأني (لسان العرب، «أود»).

[5] ن: خلقناه لك.

الحمد لله الذي أنقذني من ضلالهم، ومثل ذلك، **قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**. ولم يذكر بعد ذكر الليل سوى الليل ليعرّفنا أن أول الليل هو من حين كمال الغروب.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

ومن اليل فسبحه وأدبٰر، أعقاب، **السجود**، وهذا أمر بتسبيح في هذه الأوقات لا بصلاة، فإن الصلاة غير هذا. ولهذا قال: **قبل الغروب**،[1] **وأدبٰر السجود**.

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾﴾

واستمع، السمع إدراك المسموع، والاستماع طلب الإدراك بالإصغاء إليه. والمعنى واستمع ما يجري مُتّعِظا مُتَذَكِّرا، **يوم يناد المناد من مكان قريب**، كل ذرة تسمع النداء من ذاتها، لأن الله أقرب إلى ذات الشيء من الشيء إلى نفسه، لأنه تعالى كان عالما بالشيء قبل إيجاده له. فكما هو[2] أعلم به منه كذلك هو سبحانه أقرب إليه منه.

﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

يوم يسمعون الصيحة بالحق. / **ذٰلك يوم الخروج**، فالخروج الثاني في النشأة الثانية [٤٠٧ظ] كالخروج الأول في النشأة الأولى. ولهذا قال بعده: **إنا نحن نحيِۦ**، أي نحن لا غيرنا نحيي مَن نُحييه، **ونميت**، من نميته. فهلا دلهم ذلك على[3] قدرتنا على الإعادة. **وإلينا المصير**.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾﴾

يوم تشقق الأرض عنهم سراعا، أي فيخرجون مسرعين. **ذٰلك حشر علينا يسير**.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

نحن أعلم بما يقولون، من إنكار البعث وهو قولهم: ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ،[4] وهو مطلق أيضا. **وما أنت عليهم بجبار**، تُجبِرهم على الإيمان بالبعث وبأحكام القرآن. **فذكر بالقرءان من يخاف وعيد**.

---

[1] ش – ومن الليل فسبحه وأدبٰر أعقاب السجود وهذا أمر بتسبيح في هذه الأوقات لا بصلاة فإن الصلاة غير هذا ولهذا قال قبل الغروب، صح هـ.

[2] ن – هو.

[3] ك: على ذلك.

[4] الآية ٣ من هذه السورة.

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾

والذٰريٰت، الرِّياح، **ذَرْوًا**، مصدر من ذَرَا يذرو، تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ،[1] ومثله في المعنى أذرى يُذري. **فالحٰملٰتِ**، الرياح لقوله: حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا.[2] ويحتمل أن تكون السُّفُنَ التي تَحمِل وِقْرَها وتجري بِيُسْر. وعن علي عليه السلام: إنها السحب الثقال بما حملته من الماء.[3] **وِقْرا**، ثِقلا. وإنما كان القسم بهذه الأشياء متتابعا لمماثلة صفاتها بعضِها ببعض. ولهذا وقع الاشتباه مع جواز أن تكون الإشارة بالكل إلى الرياح، لأن ذلك أشبه. **فالجٰريٰت**، تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً،[4] **يسرا**، بيسر وسهولةٍ. **فالمقسمٰت أمرا**، أي بأمر وهي الرياح تقسِّم الغيث على البلاد بأمر الله كما يشاء. وابن بحر[5] حَمَل الكلَّ على الرياح لعطفه بالفاء وهو جيد. ويحتمل أن اللفظ أتى بصورة محتملة للرياح وغيرها ليدل على الجميع وإن كان أدل على الرياح.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾

وقوله: **إنما**، بمعنى إن الذي، **توعدون**، وهي أولى أن تُكتب مفصولة لولا[6] ترجيح صدق النَّقَلَة وصحة النقل كما بيّنّاه في موضعه، وبيّنّا الحكمة في ذلك.[7] وقوله: **لصادق**، أي لصدقٌ صادقٌ كما تقول: بَحْرٌ باحِر ومَطر ماطِر. **وإن الدين**، الجزاء، **لَواقع**.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾

والسماء ذات الحبك، الطرائق. ولمّا أَقسَم باسم الجنس أشار إلى السَّبع الطرائق

---

١ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٤٥).

٢ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٥٧).

٣ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

٤ ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ (سورة ص، ٣٨/٣٦).

٥ لعله أبو مسلم محمد بن بحر الإصفهاني.

٦ ك ن: ولولا.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ١١٥ من سورة البقرة. وانظر أيضا: سورة البقرة، ٢/٩٠.

المطروقات بالكواكب.[1] وعرّفها ههنا لئلا تشتبه بسماء الغيث. والحَبْك إجادة النسج. والحبك،[2] بضم الباء جمع حبك بتخفيفها، والحبك بمعنى الحبوك.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾

إنكم لفى قول مختلف، هذه الجملة جواب القسم. ولو قال: لفي قول مخالف لدل على أنهم اتفقوا على قول واحد لكنه مخالف للحق. والمراد أن القول في نفسه مختلف يخالف بعضُه بعضا. وإذا كان مختلفا في نفسه فهو غير واحد، والحق واحد يخالفه.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

وقوله: يؤفك، يُخدَع بالكَذِب، عنه من أفك، والفرق بين الإفك والكذب أن الإفك خديعة بالكذب.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾

ثم قال: قتل الخرّصون، الخَرّارون، لأن الذي يَخرِز[3] تختلف أقوالُه، والإشارة إلى من تقدم من المذكورين.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾

الذين هم فى غمرة، ما يَغمُر من الجهل كما يغمر الماء. ساهون، عن الإنذار.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

يسئلون، مستهزئين، أيان، أيَّ آنٍ يكون، يوم الدين. فقال الله تعالى: يوم هم على النار يفتنون، لأن الصراط موضوع بين ظهري جهنم. والفتنة ههنا يريد بها العذاب، وهو من باب إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا.[4] وحذف ما تقديره: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم،

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ١٧/٢٣).

[2] حُبُك السماء: طرائقها، وفي التنزيل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعني طرائق النجوم، واحدتها حَبِيكة (لسان العرب، «حبك»).

[3] حَزَر الشيء: قدّره بالظن والتخمين (المعجم الوسيط، «حزر»).

[4] ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة النساء، ١٠١/٤).

سمِّي العذاب ههنا فتنةً، لأنهم فَتنوا أنفسهم بتكذيب وقوعه، فهم الفاتنون وهم المفتونون. كأنه قال: ذوقوا عذاب فتنتكم لأنفسكم. **هٰذا الذى كنتم به تستعجلون**، أي بوقوعه في الدنيا، لكونكم كنتم تكذبون به وتجحدون صحته.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾

إن المتقين فى جنّٰت وعيون ءاخذين ما ءاتىٰهم ربهم، من ضروب الإحسان الذي له لذة / لا تَسع إدراكها الأذهانُ. **إنهم كانوا قبل ذٰلك محسنين**، الأقوالَ والأفعال والظنون [٤٠٨و]
والعقائدَ إلى أنفسهم وغيرهم، ولهذا لم يقيِّده.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾

ثم وصف بعض صفاتهم التي هي من جملة الإحسان لينتبه على مثلها فقال: **كانوا قليلا من اليل**، ما، الذي، **يهجعون**، أي يهجعونه، وحذفت الهاء للوِزان. يقال: أتانا فلان بعد هَجْعَة، أي نومة يسيرة من أول الليل. والهجعة منه كالجلسة من الجلوس، وهجع جوعُه إذا انكسر ولم يشبع.

قال أبو القيس بن الأسْلَت:[١]

قد حَصَّت[٢] البَيضة رأسي فما ... أطعم نوما غيرَ تَهْجَاع.[٣]

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

وفى أموٰلهم حق، وهو غير الزكاة وإن جاز دخولُ الزكاة في ذلك. وقوله: **للسائل**، يريد الذي[٤] يسأل كان من كان. **والمحروم**، ضد المرزوق، ويريد به المحروم من جهة

---

[١] هو صيفي بن عامر الأسلت بن جُشم بن وائل الأوسي الأنصاري، أبو قيس، شاعر جاهلي، من حكمائهم. كان رأس الأوس وشاعرهم وخطيبها، وقائدها في حروبها. وكان يكره الاوثان، ويبحث عن دين يطمئن إليه، فلقي علماء من اليهود ورهبانا وأحبارا، ووُصف له دين إبراهيم فقال: أنا على هذا. ولما ظهر الإسلام اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم وتريث في قبول الدعوة، فمات سنة ١هـ/٦٢٢م بالمدينة قبل أن يسلم (الأعلام للزركلي، ٢١١/٣).

[٢] الحَصّ حَلْقُ الشعر حَصَّه يَحُصُّه حَصّاً فَحَصَّ حصصاً، والحَصّ أيضاً ذهابُ الشعر سَحْجاً، كما تَحُصُّ البَيْضة رأسَ صاحبها (لسان العرب، «حصص»).

[٣] كتاب الحيوان للجاحظ، ٤١٩/٦؛ ولسان العرب، «حصص»، «هجع»؛ وتاج العروس للزبيدي، «حصص».

[٤] ن: يريد من.

الله سبحانه، لأنه هو الرزّاق. والمعنى وفي أموالهم حق للسائل وإن لم يكن محروما وللمحروم وإن لم يكن سائلا. فهؤلاء جعلوا في أموالهم حقا لمن يسأل ولمن لا يسأل. وقال الشعبي:[١] أعياني أن أعلم ما المحروم.[٢] وقال تعالى في أصحاب الجنة التي أَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ... فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ.[٣] وكذلك في سورة الواقعة في الحرث.[٤] فالحرمان أن يذهب جميعُ ما للغني لا بعضه، فليس الحرمان أن المال ينقص لأن أصله مأخوذ من الحرام، والحرام لا يكون فيه شيء حلال. فكأن المحروم قد حُرِّم عليه رزقه، لكنه تحريم بالفعل مانعٌ من التصرف، وليس بالقول وهو الذي يُمكن التصرفُ فيه وإن كان حراما.[٥] ومن ههنا قال ابن عباس: هو المحارف [في الرزق وهو المحدود].[٦] والنص قد بيّن المقصود.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾

وفى الأرض ءايٰت للموقنين، أيقنوا أن لا مُنعِم إلا هو، أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ.[٧] فلا يبخلون بنعم الله على عباد الله.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

ولمّا كانت النعم تنقسم إلى قسمين: باطنة وظاهرة، ذكر الظاهرة البعيدة بقوله: وَفِي ٱلۡأَرۡضِ،[٨] وذكر الباطنة القريبة بقوله: وفى أنفسكم. وجعل الجميع آيات وهي العلامات الدالات على الصانع، لأن النِّعَم والنِّقَم علامات؛ والنقم[٩] في الدنيا نعم في الحقيقة،

---

١ هو أبو عمرو عامر بن شراحيل، الشعبي الحميري، راوية، من التابعين. ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. وهو من رجال الحديث الثقات. وكان فقيها شاعرا. توفي سنة ١٠٣هـ/٧٢١م (الأنساب للسمعاني، ٤٣٢/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٥١/٣).

٢ جامع البيان للطبري، ٥١٨/٢١.

٣ ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ (سورة القلم، ١٧/٦٨-٢٧).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۞ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ (سورة الواقعة، ٦٣/٥٦-٦٧).

٥ ن: إماما.

٦ تفسير القرآن لعبد الرزاق، ٢٤٤/٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥١١/٢١-٥١٣.

٧ سورة الملك، ٢١/٦٧.

٨ من الآية السابقة.

٩ ك - علامات والنقم، صح هـ؛ ن - علامات والنقم.

لأنها مكفرة ومانعة عن كسب ما يوجب أمثالها. فالكل نعم آياتٌ. ثم قال ما يجمع بين البصر[١] والبصيرة وهو الإبصار: أفلا تبصرون، أي ما في الأرض بالأبصار وما في الأنفس بالبصائر. وهذا كلام جامع عظيم لا يُدرك وصفُه، ويفقه منه ما معناه: أفلا تبصرون أنكم تبصرون.[٢] فيكون نفس الإبصار أيضا بصرا وبصيرة من جملة الآيات بل من أظهرها. ولهذا خصصه بالذكر ههنا، إذ به تظهر الآيات التي هي مظاهر القدرة وآثار الرحمة. ومن ههنا قال بعض المتصوفة واصفا لعموم نظره إلى تجلي ربه بسائر مبدَعاته ظاهرا وباطنا:

تـجـلَّـى بـكـلٍّ فـلـي نـاظـرٌ يـرى أنـه نـاظـري، والـنـظـر

فزَنْدَقَه[٣] من لم يفهم مراده بهذه العبارة. ولهذا قال: "فلي ناظر"، فبيّن أنه يرى في نظره ذلك لفرط القرب لا أنه كذلك في الحقيقة.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله: وفي السماء رزقكم، يريد المطر، إذ به تحيا الأرضُ وما فيها. وما توعدون، عائد إلى قوله في أول السورة: إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ،[٤] وهو من الوعد والوعيد، والله سبحانه يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ،[٥] يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ،[٦] وغير ذلك من حديث الجنة.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فورب السماء والأرض، لأنه قدّم ذكرهما، إنه، أي إن ما توعدون في هذا القرآن، لحق، كما أقسم أن العذاب لآت لواقع.[٧] وقوله: مثل ما أنكم تنطقون، يحتمل ما معناه كما لا تشكّون في أنكم تنطقون، كذلك لا شك فيما توعدون. والأولى أن المراد عائد إلى الجزاء، وهو ما تقدم / وعدا ووعيدا بقوله: وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ،[٨] فأشار إلى سهولة ذلك، [٤٠٨ظ]

---

١ ن: البصرة.
٢ ن - أنكم تبصرون، صح هـ.
٣ ن: فزندقة. | فزندقه: نسبه إلى الزندقة.
٤ الآية ٥ من هذه السورة.
٥ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٥).
٦ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ (سورة النحل، ١٦/٢).
٧ انظر: سورة المرسلات، ٧٧/٧.
٨ الآية ٦ من هذه السورة.

أي مثل ما أنكم تنطقون كذلك نقول للشيء: كُن فَيَكُونُ.[١] ولهذا ذكر بعده مثلا بوعد ووعيد، قال الله له: "كُنْ" فكان، وهو قوله: **هل أتىٰك حديث ضيف إبرٰهيم المكرمين**، وهم الملائكة، كقوله: كِرَامًا كَٰتِبِينَ.[٢] وهذا الإكرام هو من قوله: إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ،[٣] أي أعظمكم استحقاقا لكرامة الله. ولهذا قلنا: إن المؤمنين من البشر خير البرية،[٤] وإنهم أكرم عند الله من الملائكة لأن الله يقول: وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ، فذكر مضاعفة الإكرام، ولم يقل: ههنا المكرَّمين بتشديد الراء. ولهذا أتبع قوله: كَرَّمۡنَا بقوله: وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ، ولزم أن يقول: عَلَىٰ كَثِيرٍ.[٥] لأن الباقين غير مكرمين. وافقه معنى قوله: عَلَىٰ كَثِيرٍ، ولم يقل: على الكثير أو الأكثر، لأن الملائكة ليسوا بأكثر من بقية الخلق فوصفهم بأنهم كثير لا الكثير ولا الأكثر.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾

وقوله: **إذ دخلوا عليه**، تقديره: قوم منكرون،[٦] أي عنده، وأخِّر للوزان. **فقالوا سلٰما**، وهو من السلامة، ونصب بالقول ورُفع الثاني على الحكاية، **قال سلٰم قوم منكرون**.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦﴾

فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين. انظر كيف يُضيف الكريم لمن لا يعرفهم من الأضياف.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾

فقربه إليهم، لأنه قدّمه أولا، فلمّا لم يُمدّوا أيديهم إليه قربه، ولهذا قال بالفاء. **قال ألا تأكلون**، أي فلمّا لم يأكلوا نكِرَهم.[٧]

---

١ وردت هذه العبارة في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة البقرة، ٢/١١٧؛ وسورة آل عمران، ٣/٤٧؛ وسورة النحل، ١٦/٤٠؛ وسورة مريم، ١٩/٣٥.

٢ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٠-١١).

٣ سورة الحجرات، ٤٩/١٣.

٤ فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٩٨/٧).

٥ ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٧٠).

٦ ش: مكرمون.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ (سورة هود، ١١/٧٠).

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

فأوجس منهم خيفة، تقدم "أوجس" في قصة موسى عليه السلام.[١] **قالوا لا تخف وبشروه بغلم عليم**، سمّي إسحاق ههنا عليما، وسمّي إسماعيل في سورة الصافات حليما[٢] لئلا يشتبه الذبيح. ولهذا قال هناك بالواو بعد الفاء عاطفا بالواو في قوله: وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ.[٣] وقال ههنا بالواو أيضا: **وبشروه**.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: **فأقبلت**، ليس من الإقبال من موضع إلى موضع بل هو من قولك: أقبل يقول كذا، ومثله قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم.[٤] **فأقبلت امرأته فى صرة**، تقدم،[٥] ومعناه من الصرة، وهو المربوط والمعقود كما يعقّد بالحاجبين، فيَصِرّ[٦] أحدَهما إلى الآخر عند استنكار مسموع أو مرئي.[٧] وصَرَّ الفرس أذنيه إذا جمعهما. والصرة أيضا الشدة من كربٍ وغيره كما تُقبل العجوز الضعيفة. **فصكت**، وضربت، **وجهها وقالت عجوز عقيم**، تلد؟ أي كيف يكون هذا؟ **قالوا كذٰلكِ**، تقرير ما تقدم، أي هكذا، **قال ربكِ إنه هو الحكيم العليم**.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

مسومة، مرسَلة مُساقة من، **عند ربك للمسرفين**، عقابا لهم.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

---

١ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (سورة طه، ٦٧/٢٠).

٢ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات، ١٠١/٣٧).

٣ ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة الصافات، ١١٢/٣٧).

٤ ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (سورة يوسف، ٧١/١٢).

٥ لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة هود، ٧١/١١.

٦ ش: فبصر.

٧ ن: أو امرئ.

فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، لوطًا ومَن نجا معه. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين، قدم ذكر المؤمنين، وذكر بعده المسلمين لئلا يتكرر. والإسلامُ لازم عن الإيمان، فلو عُكس لم يجز.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

فتولىٰ بركنه، أي بخاصته الذين يَركنون إليه ويركن إليهم. ومنه قوله: أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ،[1] لأنه لم تكن له عشيرة ولا من يركن إليهم. وقال سٰحر أو مجنون.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

فأخذنٰه وجنوده فنبذنٰهم فى اليم وهو، أي فرعون مليم، وهو الذي أتى بما يلام عليه. والملوم هو الذي وقع عليه اللومُ.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم، بمعنى العاقمة، لأنها لم تترك منهم من يولَد ولا من يَلِد. وبيّنه بقوله: ما تذر من، وهي لتبيين الجنس، شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وهو العظم البالي المُتَهَرِّي.[2]

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾

وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتىٰ، إلى، حين.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

فعتوا، أي ممتنعين، عن، قبول، أمر ربهم فأخذتهم الصّٰعقة وهم ينظرون.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

---

[1] ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (سورة هود، ١١/٨٠).

[2] اللحم المتهري [الذي] يَنْفَصي [أي ينفصل] عن العظم (لسان العرب، «فصى»).

فما استطعوا من قيام، وهو من الإقامة، كقوله: وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ.[١] وما كانوا منتصرين، لأنفسهم بعد ذلك.

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾

وقوم، جميعُ ما عدّده معطوف على قوله: وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ.[٢] ثم ذكر / الآيات في [٤٠٩و]
قوم بعد قوم، نوحٍ من قبل إنهم كانوا قوما فٰسقين.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾

ولما ذكر الخلق وقدرته عليهم في الدنيا بما ظهر من الجزاء لهم وعدا ووعيدا ذكر بعده في القدرة على ما هو أعظم منهم. وهذا من باب قوله: ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ.[٣] فقال هٰهنا: والسماء بنينٰها بأيد، بقوة. يقال: أيّدك الله، أي قوّاك. وإنا لموسعون، أي لو شئنا لفعلنا ما هو أوسع منها. ولم يقل: لوسّعناها بل أشار إلى أنه يُوسع ما شاء دائما.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨﴾

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾

ومن كل شيء، خلقناه خلقنا زوجين، يريد ضدين ليلا ونهارا، حامضا وحُلوا، صحة وسُقْما، حياة وموتا مضافا إلى الحيوان والنبات وغيره. لعلكم تذكرون، أنْ لا واحدَ إلا الله سبحانه. ولهٰذا بعده: ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين. والوجه في كونه كرر، إني لكم منه نذير مبين، أنه لمّا كان الكافر ينقسم إلى قسمين. أحدهما من يجحد الإلٰه إما بأن يعبد غيره أو أن لا يَعبد شيئا. والثاني من يعبد الله لكنه يعبد معه إلٰها آخر. فانذر أولا وأمر بالفرار من كل إلٰه دون الله إلى الله.[٤]

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾

ثم بعد ذلك قال: ولا تجعلوا مع الله إلٰها ءاخر إني لكم منه نذير مبين، مضافا إلى ما فيه من التأكيد المنبّه على فرط الحذر والإنذار.

---

١ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠). | ش – وهو من الإقامة كقوله وإذا أظلم عليهم قاموا وهو من الإقامة كقوله وإذا أظلم عليهم قاموا.

٢ الآية ٢٠ من هذه السورة.

٣ سورة النازعات، ٢٧/٧٩.

٤ ن – إلى الله.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

كذلك، مقدم، وموضعه بعد قوله: قالوا، وقدّمه فصاحةً، وليخبر به عن حالة مستمرة لهؤلاء وأمثالهم، وليكون اللفظ المقول تابعا للقول. **ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا**، تقديره كذلك، **سحر أو مجنون**.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أتواصوا به، أي ليس كذلك، **بل هم قوم طاغون**.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فتول عنهم، كقوله: فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ.[1] **فما أنت بملوم**، إذا توليت عنهم. ولمّا كان التولي مشتملا من باب الاحتمال على قسمين. أحدهما أن يتولى عن مكافأتهم، والثاني عن تذكيرهم قال بعده: **وذكر**، ولم يقل: وذكرهم بل بين المراد بقوله: **فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين**، منهم، أي من يؤمن وإن كانت حجةً على الكافرين.

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، أي ليكونوا أهلا لعبادتي. ولا تَفهم أنه خلقهم لسبب موجِب عليه أن يخلقهم وهو العبادة، لأنه تعالى إذا خلق مخلوقا لشيء فلا بد من وقوع ذلك الشيء، وإلا يعود الخلق باطلا والخالقُ عاجزا جل وعلا. وإذا[2] لم نفهم معنى قوله: **ليعبدون**، عارَضه مَن عبد اللاتَ والعزى.[3] ولكن معناه، أي ما خلقتهم على ما هم عليه من التمكن والقدرة والاختيار ليعبدوا غيري بل ليكونوا متمكّنين من عبادتي بما أنعمت به عليهم فأَجْزيَهم بالإحسان إحسانا. وهذا هو الذي قيل: إنه علة خلق الخلق وسنبينه بعد نَجاز هذه السورة. ومرادنا ههنا هو بيان ما لا ريب فيه من أن العباد غير مجبَرين. لأنه سبحانه لمّا أمر رسوله بالتولي عنهم لكفرهم وبالذكرَى لأنها تنفع المؤمنين منهم قال تعالى معرفا لخلقه بأسرهم: إنه لم يخلق غير المؤمنين لأجل الكفر به دون المؤمنين. وإنما خلق الجميع أهلا لشيء واحد وهو عبادته.

---

[1] انظر مثلا: سورة النساء، ٦٣/٤، ٨١؛ وسورة الأنعام، ٦٨/٦.

[2] ش: وإذ.

[3] يعني لا تجتمع عبادة الله وعبادة اللات والعزى في شخص واحد، لأن التوحيد ضد الإشراك.

فإن قيل: يلزم من قولك: إنه خلقهم أهلا لعبادته أنه تعالى خلقهم أهلا لعبادة الشيطان أيضا. قلت: الأمر كذلك لا يزيد ولا ينقص، لكنه خلقهم أهلا لعبادة الشيطان من أجل عبادة الرحمن، ولا يجوز العكس. وبهذه الصورة يَظهر كمال الإحسان منه سبحانه. وذلك أنه خلقهم أهلا لعبادة الشيطان أو الرحمن، وأهلا للكفر بما شاءوا منهما. فإذا عبدوا أحدهما وكفروا بالآخر حصل لهم الغاية القصوى من النعيم والجحيم. فيكون الجزاء لهم بصورتين لا بإحداهما، فيترقَّون بترك عبادة الشيطان كما يترقون بنفس عبادة الرحمن، وهو معنى قوله تعالى: فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ.[1] فلما أخبر سبحانه عن الجن / والإنس أجمعين بقوله: **إلا ليعبدون**، عاد كفرهم بالطاغوت من جملة العبادة. [٤٠٩ظ] ولا شك أنهم لا يقدرون على الكفر بالطاغوت إلا إذا كانوا قادرين على الإيمان به. فخَلَقَهم قادرين على الإيمان به[2] ليكفروا لا[3] ليؤمنوا. فافقه هذا جيدا. فقد كررناه في عدة مواضع لعظم الانتفاع به وفرطِ الاحتياج إلى فهمه. وإذا كان الله سبحانه لم يُجبرهم على عبادته مع كونه قد أخبر أنه لم يخلقهم إلا لأجلها، فكيف يجوز في عقلٍ عاقل أن يعتقد أنه تعالى أجبرهم على عبادة غيره وعلى الشرك به وقد نهاهم عن ذلك في جميع القرآن. ولهذا لمّا قال: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ،[4] قال أخيرا: أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ، ثم قال: هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ،[5] وتمام الآية. وإذا كان الكفر بغيره هو من جملة عبادته بل متقدمٌ على الإيمان به سبحانه فقد صح قوله: **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**، وصح أنه لم يختصَّ[6] بعض العباد دون بعض بإيمان، ولم يجبرهم على كفر، كما فهم من لم يفهم من الحديث: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي».[7] فذلك إخبار عمن تقدم العلمُ بما سيكون منهم وبأن الله غني عنهم.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧﴾

ولمّا بين للجميع ما أراده لهم منهم وأنه مكّنهم من عبادته غاية التمكين بضربي

---

١ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٦).
٢ ش - فخلقهم قادرين على الإيمان به.
٣ ش: ليكفروا إلا.
٤ سورة يس، ٣٦/٦٠.
٥ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة يس، ٣٦/٦٢-٦٣).
٦ ن: لم يخص.
٧ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر. فنحوه: عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية "أصحاب اليمين وأصحاب الشمال"، فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي» (مسند أحمد بن حنبل، ٥/٢٣٩).

الكفر والإيمان زاد الكلامَ إيضاحا لبُعدِ أفهامهم فقال: **ما أريد منهم**، **من**، لتبيين الجنس، **رزق**، إشارة إلى كل مطلوب يطلبه الطالب فيَرزقه بأيّ صورة كان من غير ما يُطعمه. ثم قال: **وما أريد أن يطعمون**، وهو يعم ما يدخل الفم من طعام وشراب، وهو زيادة في البيان ودلالة لهم على فرط فقرِهم باضطرارهم إلى الطعام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

ولمّا كان الجميع يرجع إلى الرزق قال تعالى: **إن الله هو الرزاق**، أي لا غيره، فكيف يَعبد هؤلاء من لا يَرزق؟ ثم وصف نفسه سبحانه بعد إظهار القدرة على النعمة بالقدرة على النقمة فقال: **ذو القوة المتين**، الشديدُ.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾

فإن للذين ظلموا ذنوبا، نصيبا، وأصله الدلو الممتلئ ماءً. وإنما قيل للدلو ذنوبٌ، لأنه في طرف الحبل الذي كأنه ذَنَب له. وقوله: **مثل ذنوب أصحٰبهم**، الذين كفروا من قبل ممن ذكرناهم وأهلكناهم بذُنوبهم وتكذيبهم وظلمِهم لأنفسهم. فكان نصيبهم النار في الآخرةِ والإهلاك والعذابَ في الدنيا. **فلا يستعجلون**، أي يستعجلونني،[1] وحذف الياء للنهي، ولهذا لم يقل: فلا يستعجلوا، وبيّن حذف الياء بكسر النون.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

* * *

١ ش: أي يستعجلوني.

[تذييل في المسائل المختلفة المتعلقة بالعقيدة]

[حكمة خلق الله تعالى الخلق وحكمة تكليفهم]

وإذ قد نجزتْ هذه السورة فلنذكر كلاما مفيدا لم أزل طولَ عمري أتطلّبه حتى وقعتُ بكتاب يقال له: **جواب مسألة الأمير عضد الدولة[1] في حسن إرادة الله تعالى لخلق الخلق وإنشاء الأنام**، لأبي عبد الله البصري[2] رضي الله عنه. وقد ذكر فيه ما تقول الفِرَق الضالة وردّ عليهم، وذكر أيضا فيه علة خلق الخلق. فأثبتُّ منه ههنا ما رأيت إثباته نافعا فيما كان يُشكل عليّ. واختصرت كثيرا ولم أَخرج عن المعنى سوى أنني زدت عليه زياداتٍ وجب عندي إثباتُها، وهي أجوبة مسائل مكتوبٌ عليها تلخيصٌ.

قال رحمه الله تعالى: إنما حسنتْ إرادة خلقهم وإنشائهم في الابتداء عندنا، لأنها إرادة لخلق[3] بعضٍ لينفعه ولينفع به غيره على الوجه الذي يَحسن أن ينفعه وينفع به من غير أن يكون[4] فيها وجه من وجوه القبح، وإرادةٌ لخلق بعضهم لينفع به غيره حَسْبُ على الوجه الذي يحسُنُ أن يَنفعه به من غير أن يكون فيها وجهٌ من وجوه القبح. فالذي أراد / خلقه لينفعه هو الحي المشتهي. وذلك أن المنافع هي اللذات والسرور، وما أدى إليهما إذا لم يُعقب ذلك ضررا يوفًّى عليه، لأن ما لا يجوز عليه اللذات والسرور وما أدى إليهما كالأعراض وما يجري مجراها لا يجوز عليه المنافع. فصح أن المنافع هي اللذات والسرور وما أدى إليهما إذا لم يُعْقِب ذلك ضررا يوفي عليه. هذا كلامه بعينه من غير اختصار. [٤١٠و]

---

[1] لعله عضد الدولة البويهي فنّاخُسرو، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق. تولى ملك فارس ثم ملك المَوْصل وبلاد الجزيرة. وهو أول من خُطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لُقّب في الإسلام شاهِنْشاه. كان شديد الهيبة، جبارا عسوفا، أديبا، عالما بالعربية، ينظم الشعر. توفي ببغداد سنة ٣٧٢هـ/٩٨٣م وحمل في تابوت، فدفن في مشهد النجف (الأعلام للزركلي، ١٥٦/٥).

[2] لعله هو أبو عبد الله البصري الحسين بن علي. سكن بغداد وكان من شيوخ المعتزلة. وصنف على مذاهبهم وانتحل في الفروع مذهب أهل العراق. توفي سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، ودفن في تربة أستاذه أبي الحسن الكرخي بدَرْب الحسن بن زيد (المنتظم لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٧٢/١٤).

[3] ن: الخلق.

[4] ش: أن تكون.

ثم قال ما معناه: فإن قيل: ولم كان ما أعقب ضررا لا يكون[1] نفعا وإن كان مُلِذًا؟ قلنا: لأن من أطعم غيره خَبِيصا[2] مسموما فتَلِف به لا يكون نافعا له لما أدى إليه من الضرر الذي يوفّي على التذاذه به. ولا شك أنه على حسب[3] نيل المشتهَى يلتذ المشتهِي ويُسَرّ ويزيد التذاذُه وسروره بحسب زيادة ذلك، وينتقص بحسب انتقاصه خصوصا إذا حصل للمشتهي على الوجه الذي اشتهاه. وقد يكون غير المُلِذّ نافعا كالدواء، فهو بالعكس من الخبيص، ولا ينتقض ما قدمناه إذ المقصود بالنافع إذا لم يكن لذة عاجلة فلا شك أنه لذة آجلة.

فزبدة الإيجاد ليست[4] إلا لذةً ورُتَبها لا شك مختلفة. وقد شهد العقل أن بعضها -وهو مما في الدنيا- لا تَحصره الأقوال، ولا تُعبّر عنه الأمثلةُ، ولا يحصل من الإشارة إليه طائلٌ، ولا يدركُ إلا بالذوق؛ كما يجد العاشق بالنسبة إلى الخلي الذي لم يذق العشق، وذو الحاسّة بالنسبة إلى من خلق فَاقِدَها. وإذا صح أن الذي ينتفع ويلتذ هو الحي المشتهي فيجب أن يكون ما ليس بحي ولا مُشْتَهٍ،[5] لا تجوز عليه المنافعُ كالموات والجماد والنامي. وهذا هو من القسم الآخر الذي لم يُرد خلقه ليَنفعه بل ليُنْفَع به حَسْبُ. وإذا ثبت هذا وكان النفع على وجهين: مستحق وغير مستحق، وكان من المستحق ما لا يجوز الابتداء به كالثواب الجاري مجرى الشكر والتعظيم في أنه لا يجوز الابتداء به. ومنه ما يجوز الابتداء به كالأعراض[6] التي تستحق بالآلام. ومنه ما يبتدئ الله به على غير الوجهين المذكورين.

فإذا صح هذا وكان الحي المشتهِي العاقل يصح أن ينتفع بالنفع المبتدأ، وبالنفع المستَحَقّ على وجه العوض، وعلى وجه الثواب، فيجب أن يكون الله تعالى قد أراد بخلقه في الابتداء أن ينفعه على هذه الوجوه الثلاثة. وذلك أنه لو لم يرد نفعه بالثواب الذي لا يحسن أن يبتدئ به[7] لم يكن لإكمال عقله وجعله على الصفة التي يصح معها وقوعُ القبيح منه وأن لا يفعل ما يجب عليه معنى. ولا يشبه هذا ما يفعله من ذلك من لا عقل له كالحيوان، لأنه خُلق لأجل غيره، ولم يخلق للتعريض للثواب. فأما إذا رأيناه سبحانه

١ ش ك: لا تكون.
٢ الخبيص: الحلواء المعمولة من التمر والسمن (تاج العروس للزبيدي، «خبص»).
٣ ن: على حب.
٤ جميع النسخ: ليس.
٥ ك ن: ولا مشيئة.
٦ ش ك: كالأعواض.
٧ ك: أن يبتده به؛ ن: أن يبتدئه به.

قد آلم غيرَ كاملِ العقل كالطفل تحققنا أنه أراد بذلك ما يستحق به من العوض على الألم، إذ لو لم يرد به ذلك لكان ظالما ولا يصح، فهو معرَّض للأعواض لا للثواب، أعني بعد عبوره. فأما إن طال عمرُه فحكمة تلك الابتلاآت ظاهرة من كونها تربية ورياضة واستدراجا.[1] لأنه[2] مستقبِل في عمره أنواع الابتلاآت من أجل تكفير السيئات وتوفير الحسنات. فلو لم يستدرجه في الابتلاآت أولا فأولا حتى حدث له شيء من ذلك فيما بعدُ بغتةً[3] هلك لا مَحالة. فإنه لم يُخلَق إلا للابتلاء[4] فحكمه فيما يَحُلّ به في الصغر كحكم الحبة في بطن الأرض يَرِد عليها ما يُحيلها[5] ويُفسدها ليظهر منها ما من أجله وُضعت في الأرض. وفي ذلك أيضا تكفيرٌ لذنوب أبيه وأمه لِما يصل إلى قلوبهم من ألمٍ لا يمكن أن يصل بغيره مثله، تارة بمرض الولد وتارةً بموته. وفي ذلك ضربٌ عظيم من الاعتبار لمن كُلِّفه، لأنه لو عَرِيَ من حكمة لكان عبثا، ولا يصح ذلك من الحكيم العليم / سبحانه. ولأنه غني عن ذلك وقادر على أن لا يكون. [٤١٠ظ]

ويجب أن تعلم أنه ما دام الطفل لم يبلغ حدَّ التكليف فحكمه حكم مَن خُلق لغيره في أكثر الأمر لا في كله. وكلما زاد عقلُه عَلَت رتبته. وكذلك حاله بعد البلوغ إلى أن يصل إلى رتبة الإنسانية فيعود مخلوقا لنفسه ولغيره، لأن الله يَنفع الكل بالكل. فأما النفع المبتدأ فلا إشكال في أن الله تعالى قد فعله بنا كما بدأ بالحياة والشهوة وغير ذلك من غير أن نستحقه من باب العوض ولا[6] من باب الثواب.

فإن قيل: ولِم لا يجوز أن يريد بخلقه أن ينتفع [المخلوق به] على أحد الوجوه التي ذكرتم دون جملتها وإن كان لا يمتنع أن ينتفع بكلها؟ قلنا: إذا صح انتفاعه على الوجوه التي بيّنّاها لم يجز ذلك، لأنه يكون في حكم العبث من الوجه الذي لم يُرِد ذلك منه، كما أنه لو لم يرد بخلقه أن ينتفع بوجه لكان عابثا في خلقه على سائر الوجوه التي خلقه عليها. ولأن إطلاق القدرة له سبحانه يقتضي في العقل عموم النفع منه سبحانه لا بعضَه. فأما إرادته لخلقهم في الآخرة فلمثل ما ذكرناه بعينه من أن ينفعهم بالثواب المستحَق على التكليف، وبجزاء الابتلاء وهو الأعواض، وبالنفع المبتدأ. كل ذلك في دار البقاء، لأن كمال الإحسان يعطي ذلك فيما يفنى وفيما يبقى.

---

١ ن: واستراجا.
٢ ن + لأنه.
٣ ش ك: نعته.
٤ ش: إلا الابتلاآت.
٥ ن: ما يحلها.
٦ ش - لا.

فأما النفع المبتدأ فلا شك أن ما كان منه على طريق الإحسان إذا لم يكن فيه وجهٌ من وجوه القبح يحسن في عقل كل عاقل. وأما خلقه لما عرضهم إليه من طريق النفع بالأعواض أن تعويضنا[١] لغيرنا بعمل يستحق به العوض على وجه يحسُن عليه حَسَنٌ إذا لم يعرض فيه وجهٌ يقبح[٢] له إلا أن يكون النفع يوفِّي على ذلك الوجه الذي يقبح فيه. وأما النفع على طريق الجزاء على التكليف فحسنُه ظاهر، لأنه يوفِّي على ما تألّموا بمشقة مباشرته إلى ما لا نهاية له وهو الخلود في الجنة.

فإن قيل: لو خلقهم على صورة لا يحتاجون معها إلى التكليف، وآتاهم ما يؤتي المكلف المحسِن لكان الإحسان منه أبلغ؟ قلنا: لو فعل ذلك بهم لكان ذلك من القسم الأول، لأنه يكون قد ابتدأهم بالإحسان؛ ولا يكون ذلك دالّا لهم على تمام القدرة منه سبحانه ولا على تمام الإحسان بل على الجزء من ذلك. وقد أبطلنا ذلك أولا. ومن أتم الإحسان إليهم تعريفهم به سبحانه، ولا يكون الطريق إلى ذلك إلا بمعرفة صفاته وأسمائه الحسنى، كمعرفة قدرته وكمال إحسانه ومثل ذلك. ولا شك أن الجزاء لا يكون إلا على قدر المشقة. ولهذا يستحق البارئ تعالى منا الحمد والشكر. ولا يقال: إنه يستحق الجزاء، لأنه لا مشقة عليه في فعل ما فعله من الإحسان.

فإن قيل: هذا كله حكم من يُسلم منهم، وهو صحيح على ما قدّمتَه من أن الله تعالى خلقه ليحسن إليه فكيف حكمُ من يخلَّد منهم في العذاب المؤبَّد؟ وهل هو بعد ما علم الله منه أنه لا يقبل وإن كان أقدره على القبول وأزاح علتَه إلا كمن علم من زيدٍ الغريقِ أنه إذا أدلى إليه حبلا ليتخلص به من الاختناق سيأخذه ويَخنُق به نفسه مع قدرته على أن يتخلص به. فهو وإن[٣] كان محسنا إليه فيما قصد قد أساء إليه لِما علم منه التعجيل على نفسه بالخنق الذي هو ضد المقصود بإدلاء الحبل. ولو قلنا: إن زيدا هو الجاني وإن من أدلى إليه الحبل لم يرد[٤] إلا الإحسان فلا شك أن اللائمة تقع عليه. يقال له: إذا سلّمت أن الضرر لم يلحقهم بخلقه تعالى لهم بل بمخالفتهم له[٥] فهو من فعلهم / لا من فعله بهم. فكيف تنسب إليه ما ليس منه. وقد تحققت أنه [٤١١و]
إنما أقدرهم على الخير ليفعلوه وعلى الشر ليجتنبوه. فيحصل لهم الجزاء منه[٦] سبحانه

---

١ ش ك: أن تعريضنا.
٢ ك ن: بقبح.
٣ ك ن: إن.
٤ ش: ولم يرد.
٥ ن – له.
٦ ن: منهم.

على الصورتين بالشيء وضده. وهل حكمهم في ذلك إلا حكمُ من أُدخل إلى غَيْضَةٍ[1] مثمرة ومُكّن من تناول ما شاء منها وعُرّف بما فيها من الضارّ والنافع ليأخذ النافع ويجتنب الضارَّ، فعَكَس الأمر. فلمّا أخرج منها سقيما حصل عنده من الأسف على ما فاته من لذته أضعافُ ما ناله مما جناه على نفسه من سُقْمه وذهاب صحته.

فإن قال: إن قلتم: إن مُدْخِله إلى الغيضة مُجبَر على إدخاله مع علمه بما لَه، وإلا فالإشكال على حاله. يقال له: لا شك أن مدخله إليها مختار لأنه القادر المطلق، ومن له إطلاق القدرة لا يكون مجبَرا على أن يفعل ولا بدّ، ولا على أن لا يفعل، لأنه يكون في أحد القسمين عاجزا وإن كان غنيا عن الفعل. ومن الجائز أن يفعل الفعل لحسنه ثم رأيناه قد فعل، تحققنا أنه لم يفعل إلا لحكمة، لأنه تعالى لا يوصف بنقيض العدل والحكمة وإن لم يُعلم وجه الحكمة، لأن المعروف بالصدق كالنبي الذي صحت نبوته لا يلزم أن يُعتبر جميع أقواله وأفعاله بعد ما صح أنه صادق وإن جاز أن يُسأل عن وجه الحكمة ليتأكد الإيمان به.

هذا مختصر كلام البصري رضي الله عنه. وهو صحيح في الأصل، لكنه يحتاج إلى شرط وزيادة بيان لينحلَّ الإشكال بأهل النار ويتحقق وجه الحكمة الإلٰهية في خلق الكفار ويصحَّ فضلُه تعالى وعدلُه في نظر النُّظّار. وقد بيّنّا ذلك في تلخيصنا أخيرا. فافقهه جيدا تَفُزْ بالحق وتَزْدَدْ إيمانا بالله إن شاء الله تعالى ومما ذكره البصري رحمه الله تعالى وزدنا عليه من جنسه.

فصل في أن الله تعالى خلق الخلق لعلة أم لغير علة

فإن قيل: لا لعلة فهو العبث، وإن قيل: لعلة، فإن قلتم: إنها لم تزل لزم[2] أن يكون المعلول لم يزل. وإن قلتم: إنها محدَثة لزم أن يكون لها علةٌ، والتسلسل محال. يقال له: خلقهم لعلة لكنها غير موجِبة لخلقهم، فهو غير مقهور بالإيجاب، لأنه لو كان مقهورا لخرج عن أن يكون مختارا وعن أن تكون له القدرةُ المطلقة. فإن قال: وكيف تكون العلة غير موجبة وهي علة؟ يقال له: إن العلل تنقسم إلى قسمين: علة موجبة وعلة غير موجبة. فالتي هي غير موجبة هي التي يفعلها فاعلها على طريق الإحسان

---

[1] الغَيْضة: هي الشجر الملتفّ، والغيض ما كثُر من الأغلاث أي الطرفاء والأثل والحاجِ والعِكرش والينْبوت (لسان العرب، «غيض»).

[2] ك ن – لزم.

إن شاء ذلك، ويكون له أن لا يفعلها. كما يقول القائل: فعلت هذا لأجل كذا، يريد الغرض الذي لأجله فعل وإن لم يكن ما سماه علةً سببية موجبة لفعله. فإن قال: إن الفاعل منا إنما يفعل لجذب منفعة، أو لدفع مضرة، أو يكون[1] عابثا؟ قيل له: إن القادر الغني منا قد يفعل الفعل لحسنه وإن لم يجرَّ به منفعة، أو يدفع مضرةً وإن لم يره أحد، أو يتوقع بفعله ما يتوقع به غيره، ومع هذا فلا يكون عابثا. ولا نقول: إنه فعله من باب ما يجب عليه ويضطر إليه، بل لحُسْنه مع كونه غنيا عن فعله. وبهذا يصح أنه كريم وأنه يستحق الحمد كما بيّنّا بما ألحقناه في آخر سورة الكهف. ويجب في عقل كل عاقل أن يعرف الحسن والقبيح إذا فُعلا معه فلا يكون الإحسان قبيحا من فاعله. وقد بيّنّا لزوم أنه تعالى أراد أن يُحسن إلينا ولا يجوز غير ذلك لقبح القبيح وقبح العبث وانفراده بالغنى سبحانه الأكبر. وإذا صح أن فعله غير قبيح ولا عبث فقد صح حسنُه. / ولم يجب عليه فعلُه بل حَسُن كما قدمنا. [٤١١ظ]

فإن قيل: حُسْن الحَسَن لم يَستجدّ بل لم يزل في العلم الأزلي، فلِم لم يتقدم الفعلَ الذي لمّا فعله إنما فعله لحسنه؟ قلنا: لما لم يكن المبدع مبدعا إلا بعد أن لم يكن مبدعا. والمبدِع ليس له أول. وما ليس له أول متى فعل لزم فيه هذه المعارضة، إذ القَبل والبَعد لا يَتصوَّران فيما لا أول له. ومتى لزم أن يكون مختارا غنيا بذاته مطلقَ القدرة بطل جميع ما يعارض به معارض،[2] ولزم صحة جميع ما قدمناه. وإيضاح ذلك أن نقول: إنه إنما استحال الفعل فيما لم يزل لنفي أولية الأزل وإثبات أولية الفعل. والجمعُ بين ما له أوّلٌ وما لا أولَ له محالٌ. ولا يقال: ذاته تعالى علة الوجود إذ ذاته تعالى لم تزل. فلو كانت علة لزم قِدمُ المعلول، وقد انتفى قدمُه بما تقدم. ولأن وجود المعلول مع العلة بالذات مُنتفٍ، إذ لو لم تتقدم لم تكن علة. ولهذا لا يكون سبحانه علة لذاته. فافقه هذا الإيضاح واحفظه، فإنه نافع جدا.

فإن قيل: إذا كان قد فعل الفعل لحسنه[3] فقد وجب الاستمرار به سرمدا فيمكن أن يقال: كما لم يجب عليه من قبل كذلك لا يجب من بعدُ؟ وقد بيّنّا ذلك في آخر التلخيصات من آخر الكلام فيما يتعلق بهذه السورة، وهو عجيب لم أسمع بمن تكلم فيه.

---

[1] ش: أو لا يكون.
[2] ن - معارض.
[3] ش: بحسنه.

[أسماء الله تعالى وصفاته]

ويجب[١] أن تَعلم أن أسماء الصفات هي علامات لنا على كمال الذات وليست من لوازم كمال الذات. فإن ذواتنا تُكملها[٢] الصفات، وذاته تعالى تكمل الصفاتَ، فهو مكمّل الكمال ومتمِّم التمام. فهو فوق الكمال والتمام. ويُطلق عليه اسم الوجود للتعريف بأنه معطي الوجود، لأن الوجود من الأسماء المشتركة واللفظ يشملها، كلفظ العين الذي يُطلَق على أشياء. فهو -أعني لفظ الوجود- يطلق على البارئ لا بالمعنى الذي يُطلَق على سائر الموجودات. وذلك كالوحدة، فليس ثَمّ خصوصٌ وعموم، ولا اشتراك ولا افتراق ولا ضِدٌّ، لأنه تعالى لم يكن معدوما فيما كان ولا فيما يكون. وكذلك فافهم في حق كل صفة من صفاته. فإنه يقع فيها هذا الاشتراك والله مُنَزَّهٌ عنه. فله الأسماء الحسنى لا على الوصف والصفة، بل كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام في توحيده: لا يوصف بوصف ولا يُحَدّ بحد، ولا يُقدَّر بمقدار، والذي كيّف الكيف لا يقال: له كيف، والذي أيّن الأين لا يقال: له أين. لٰكنا نُطلِق عليه الأسماء بمعنى الإعطاء: فهو موجِد بمعنى أنه يُعطي الوجودَ، وعالم بمعنى أنه واهب العلم للعالِمين، وواهب القدرةِ للقادرين، والحياةِ للأحياء. ولا نقول: إنه عالم لذاته أو بعلمٍ له مثال في أنفسنا، بل هو إلٰه العالِمين بالعلم و[إلٰه] العالِمين بالذات. وهذا ليس بتشبيه ولا بتعطيل بل هو استدلال بالقدرة في القادرين، والعلم في العالمين على أنه قادر وعالم. مع اعتراف بأن الله سبحانه قد تعالى أن يتصرّف في جلاله فكرٌ عقليّ وخيالٌ وهميّ ومثال نطقيّ فيقالَ: هل الصفات لذاته أو لمعانٍ قائمةٍ بذاته. فإنه عز وجل لا تَحصره المعارف ولا تُحيط به الألفاظُ. ولا معنى لكلام علي عليه السلام "لا يوصف بوصف" إلا هذا. ولهذا أجمع[٣] السلف على أن ما دار في الوهم أو خَطَرَ في الخيال والفهم فهو تعالى خالقه ومبدِعه.[٤] ولهذا قال القائل منزِّها له سبحانه ومبيّنا كيف الواجب. نظم:[٥]

لـك مـن فـؤادي رتـبـة لا تُـدرَك ... وسـواك مـنـي ذرة لا تُـمـلَـك،[٦]
/ولـقـد كـفَـفْـتُ خـواطـري عـن[٧] أنهـا ... تـومـي إلـيـك أخـاف أنـي أُشـرك، [٤١٢و]

---

[١] ن: وهو يجب.
[٢] ش: في تكلمها.
[٣] ش: جمع.
[٤] انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني، ص ١٢٩-١٣٠.
[٥] ن - نظم.
[٦] ش: لا يملك.
[٧] ن: على.

وصرفت وجهي عن جنابك غَيرةً   مني عليك فلست نحوك أَسْلُك،
ووقفتُ عند الأمر معترفا بلا   قصد اختيارٍ لي فإني أُهلَك،
حَسْبي بأن عرّضتَني لرضاك لي   وهديتني كَرَما فبان المسلك.[1]

وإذا كان هذا الكلام مما يَعْظُم به الحقُّ في أنفس الخلق، ويحقق لنا تنزيه البارئ تعالى عن الظلم والقبح، ويُظهر لنا من خالقنا غاية الإحسان، فقد حصل الأُنس ولزم الحب. وذلك من أشرف المطالب.

وجميع ما قررناه موضح لقوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[2] إذ العبادة لها جزاء يعود علينا. فصح أنه إنما أراد بذلك كله أن يُحسن إلينا.[3] وإذا لم يمتنع أن ينتفع[4] من هو حي مشتبه[5] بسائر الصُّوَر الممكنة في العقول فيجب أن يريد بخلق الحي المشتهي أن ينتفع به غيرُه كما قدمنا في الطفل. وإذا ثبت هذا في الابتداء فلا يمتنع في الآخرة، لأن كمال اللذة للمؤمن لا شك فيها في الآخرة. ومن جملة اللذة أن يرى عدوه في النار فيحصل له بنجاة نفسه من مثل ذلك فَرَحٌ وبهلاك عدوه فرح آخر، كقوله تعالى عن المؤمن: فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ.[6] وتمام القصة كما بيناه في موضعه. وإذا كان النعيم دائما فيجب أن يكون الفوز برؤية النجاة من ضده دائما أيضا لتتم اللذة والسرورُ برؤية النعيم والنجاة من الجحيم.

وأما ما قاله ابن بَرْشان[7] وأمثاله من أن الفريق الذي يَخرج من النار هو الذي يُحس بألمها فتعذيبه بها رحمة وحكمة؛ وأما غيره ممن لا يخرج فهو وإن كان فيها فلا يحس بها ويكون الإخبار عن حاله صدقا من أنه فيها، كما نجد دابغَ الجلود لا يحس بنَتْنِ ما هو فيه، والعنبري يُهَرْول عند مفاجأته له.[8] فهذا ليس بشيء، لأن القرآن لم يُنَبِّه عليه بل[9] على ضده. ولأن اعتقاده مُضِرّ إلا أن يكون ذلك فريقا غير المكلفين. وذلك بخلاف قوله: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[10] ولو جاز

---

[1] شجون المسجون لابن عربي، ص ٧٨، ١٦٣.
[2] الآية ٥٦ من هذه السورة.
[3] ك – إلينا، صح هـ.
[4] ن – أن ينتفع.
[5] ش ن: مشبه.
[6] ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٥٤-٥٩).
[7] لم أهتد إلى ترجمته.
[8] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
[9] ك – بل، صح هـ.
[10] الآية ٥٦ من هذه السورة.

أن الله تعالى يُخلف الوعيد لجاز أن يُخلف الوعد. ومن أبلغ الكرم أن يكون من يفعل الخير جزاء على التكليف، وعد المكلفين بأبلغ الوعد، وتواعد بأبلغ الوعيد لمن عصى الأمر. ومن حيث إنه قال فلا يجوز أن لا يفعل لئلا يكون كاذبا. تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

فإن قيل: لو أحسن إليهم بمعرفة ذاته عز وجل لكان ما قدمته تاما، إذ لم يبق سوى ذلك؟ قلنا: قد صح أن جملة المراد ليس إلا الإحسان إلى العباد في المعاش والمعاد. ومن كمال الإحسان أن يكون خاصا وعاما، باقيا وفانيا ليستوعب الصُوَر التي تَخطر في أفهام البشر. وهذا النوع من الإحسان هو الخاص الذي من أجله كان ما سواه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ.[1] فقدم لهم الفاني ودلهم به[2] على الباقي. وهذا إنما يكون لهم في الآخرة بحسبهم مع الترقي الْمُسَرْمَد، لأنه تعالى لا يحاط به. وليس الكلام في هذا المقام من علوم هذه الدار الفانية، لأنه الغاية التي إليها المنتهى. فلو علمت غاية الباقي في الفاني لم يَبْقَ للخلق الجديد فائدةٌ. وإذا لزم في العقل أن هذا[3] هو الغاية التي يجب أن يُعمَل عليها ويُتَوَصَّل بكل سبيل إليها، فلا شك أنه تعالى أعلم بأقرب السبل.[4] ولهذا السبيل الأقرب أُنزِلت الكتب وأُرسِلت الرسل. فإن كان لعاقل أن يطمع من الله في الوصول إلى رؤية ذاته في الدار الباقية فليس إلا بامتثال أمره في الدار الفانية.

واعلم أن كل علم يُعبر به لا يصل إلى باب / الذوق، وأعني به الذوق الدنيوي، [٤١٢ظ] كما لا يَقدر العاشق أن يُخبر الخَلِيّ بما يجده من الأمر الحالي.[5] وكل ذوق دنيوي -كيف كان- فإنه لا يشبه الذوق الأخروي وإن عَجز أن يعبر عنه كلُّ لسان. وهذا الكلام فيما يدركه الإنسان من لذة مخلوقة، فكيف بمن له الخلق والأمر. فسبحان من دعا العقول إلى معرفة وجوده بمبدَعاته، ودعاها إلى ذاته بالعجز عن معرفة ذاته. وهذا موضع الإذعان والسجود. ولو لم يكن كذلك لبطلت الحكمة ولكان التعريف منه مقصورا على باب واحد، وهو العلم المخصوص بالعباد، وهذا نَزْرٌ[6] في باب المراد.

---

١ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ (سورة العنكبوت، ٥/٢٩).

٢ ن – به.

٣ ك – هذا، صح هـ.

٤ ن: السبيل.

٥ ش ن: الخالي.

٦ النزر القليل التافه (لسان العرب، «نزر»).

فالحمد لله الذي جعل إليه بكل شيء وضده سبيلا؛ فجعل العلم والجهل عليه دليلا، وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.[1]

* * *

وها أنا قد لخّصت لك كلاما فيه أجوبة ما أَشكل وكفايةُ من تَعقّل، وقدمت أمامه وصية فتأملها متأنيا.

هذه وصيةٌ نافعة

يجب أن يكون العملُ بها مصحوبا عند حل المشكلات وتأملِ المقولات

إذا أردت فهم مثل هذه الدقائق ولم يكن عندك من علم الأصول الصحيحة قاعدة تُنبّهك على الحق وتنقذك إلى الأحق، فيجب أولا أن تمحوَ ما في نفسك وتتلقّى ما تُريد عرفانَه تلقي تقليد. ثم تبحث به مع نفسك بحثَ مَن أحسن الظن به وأساء الظن بما كان في نفسه مما يناقضه، إلى أن يَفهمه[2] ويُفهمه[3] ويقيمَ الدليل على صحته لو أراد ذلك. فإذا صح عندك وثبت فعارضْه بعد ذلك وقفْ منصِفا بين ما عارضت به مما كنت به عارفا وبين ما عرفته ثانيا بعد أن حققته كتحققك الأول، فإنه ربما غلبت عادة أو غلطُ[4] ظَنٍّ، أو جذب طبع، أو سوّلتْ نفس. فإذا اتهمت نفسك لله أمدّك الله. وكذلك فافعل، وإلا فكيف تعارض بما تعلمه ما لا تعلمه، فأنت حينئذ تعارض ما تظنه مرادا لخصمك، وليس إلا ظنَّك، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا.[5] وكذلك أوصيك ههنا أن تُعرّض إلى فهم ما قد قلتُه وتتخذَه كما قلته ليثبت في لوح القلب ويمحوَ ما يضاددُه. فلن تستطيع أن تجمع بين الضدين، مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ.[6] فلن تستطيع إثبات ما قلناه إلا بمحو ضدّه المثبوتِ في صدرك أولا، ثم تقف موقفَ السائل الحائر الباحث عن الحق، وإلا متى كنت في مقام المُحِقّ عند نفسك فلا سبيل إلى دخول الشك عليك. فكيف يدخل اليقين بضد ما هو عندك. فإن قلت: فكيف أكون متيَقّنا شيئا فأتركه تقليدا؟ قلنا: اقرأ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ.[7] ثم اعلم أني لم أُلزمك بذلك إلا أوّلا.

---

١ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).

٢ ن: إلى أن ويفهمه.

٣ ك ن – ويفهمه.

٤ ش: غلظ.

٥ سورة النجم، ٢٨/٥٣.

٦ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ (سورة الأحزاب، ٤/٣٣).

٧ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

وأما إذا حصّلتَ ما ليس عندك كما حصلت ضدَّه الذي عندك وأنصفت في مساواة تحصيلِهما عن علمٍ سواءٍ واجتهاد مُساوٍ فبعد ذلك لك أن تنظر فيهما مجتهدا فتَزِنَ الحاصلين. وإلا كيف تزن موجودا عندك بمعدوم مما هو موجود عند غيرك فتكون كقوله تعالى: أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا.[1] فقِفْ مع هذا الكلام في وقت احتياجك إليه ولا تقنع بفهمه فقط. والله يهديك وينقذك مما يُرديك إن شاء الله تعالى.

وهذه التلخيصات التي وعدتك بها فافهمها متأنيا بعد الوصية.

تلخيص أول فهمُه أصل والقول به فصل

ذكرنا فيه الإحسان، والجزاء، والإجبار، والاختيار. إن الغنيّ المطلق ليس عليه أن يفعل، فإن فعل كان فعلُه إحسانا. إن الإحسان من الغني المطلق لا يكون إلا كاملا، وإن كمال[2] الإحسان لا يكون إلا / أن يأتي بسائر الصوَر المُمكنة. إن الصور الممكنة في [٤١٣و] الإحسان ثلاث: إما من جهة الفاعل له فهو ابتداء، أو من جهة المفعول معه فهو جزاء، أو من[3] جهتيهما معا فهو ابتلاء. فلا جائزٌ أن يكون الله تعالى قد خلق العباد مجبَرين بل مختارين لتصح القسمةُ الثُلاثية [و]ليصح الجزاءُ، إذ لا يكون الجزاء على الإجبار إلا للمجبِر[4] الفاعل، فالفاعل[5] سبحانه غني، ففعلُه إحسانٌ، فإحسانه كامل، فالجزاء لازم عن كمال الإحسان. وكمال الإحسان لازم عن فعل الغني المطلق، وفعل الغني المطلق واقع، وإطلاق الغني لمن له الخلق والأمر واجب، فانتفى الإجبار وثبت الاختيار.

وأقول: إن العلة في كون المجبَر عقابا لا يفهم العبارة ولا يفقه الإشارةَ إلا أن يشاء الله [هي] في أن كل إنسان إنما يشهد ما يجده في نفسه، والمجبَر عقابا يجد ذاته كذلك فهو يخبر[6] عما شهده في ذاته ولا يرى غيره، فهو لا يرجع إلى فهم ولا قياس ولا علم. وكيف يرجع وهو يُحسّ ويشهد ويجد ذاته مجبَرة فهو على يقين مما يجد. وهذا معنى قوله تعالى: نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ،[7] وكقوله: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ،[8]

---

١ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨٣-٨٤).

٢ ك ن: إن كمال.

٣ ن – من.

٤ ك: المجبر. وفي هامش ك: للمجبر.

٥ ن – فالفاعل.

٦ ش ك: فهو يجبر.

٧ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ (سورة النساء، ١١٥/٤).

٨ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.[1]

فصل في الجزاء

الجزاء مشتق من الجَزْء، فهو مقابلة فعلِ[2] الفاعل بمثله من خير أو شر. ولمّا كانت المقابلة على كل جزء سميت جزاءً. الجزاء معذوق[3] بفاعل مستحق، فإذ لا فاعل لا جزاءَ. المستحق للجزاء هو المبتدئ بفعل مّا، فهو فاعل متقدم، والمجازي عليه غير مبتدئ، فهو فاعل متأخر. ولا يصح متأخر إلا أن يوجد متقدم، والمبتدئ[4] بالفعل إن كان غنيا فهو الرب، وإن كان فقيرا فهو العبد الفاعل. إن كان فعله حسنا فهو محسن، وإن كان سيئا فهو مسيئ. فإن كان الفعل السيئ جزاء فهو عدل، وإن كان الفعل الحسن ابتداء فهو فضلٌ. الإحسان من الرب لا يكون إلا إلى غيره، والإحسان من العبد وإن كان إلى غيره لا يكون إلا[5] إلى نفسه.

فصل في الاختيار

الاختيار مشتق من الخير، فالمختار هو الذي يرى الشيئين فيلتمس خيرهما عنده. المبتدئ بالفعل مختار له غير مجبَر عليه، إذ لو كان مجبرا لكان المبتدئ مَن أجبره لا هو. لا يصح[6] الإحسان إلا من مختار، لأنه إن كان مجبَرا عليه فالإحسان لمن أجبره لا له. وكذلك الإساءة. ولا يصح الإحسان إلا إلى مختار له، لأن الذي يصل إليه الإحسان إن كان كارها له فهو إساءة بالإحسان، وفاعله يستحق اللومَ. [فـ]صح أنْ لا إحسان[7] إلا بعد وجود مختار فاعل ومختار قابل، [و]وجب إيجاد القابل مختارا لا مجبرا [و]لزم أن يُهدَى إلى ما هو به أولى. تحقق أن عائد فعله عليه، إذ الأمر فيه إليه. تم[8] المراد من تكوينه بتمكينه ثبت أن له جزاءً على ما يصدر منه ابتداء. كَمُلَ إحسان المحسن الذي ليس عليه أن يحسن، وإن أحسن كان إحسانه كاملا. فالحمد لله والصلاة على رسول الله، والسلام.

١ سورة الجاثية، ٢٣/٤٥.

٢ ن: وفعل.

٣ ش: معذوقا. | عذق فلانا إلى كذا: نسبه. يقال: عذقه بشر أو قبيح: وسمه حتى عُرف به (المعجم الوسيط، «عذق»).

٤ ك: المبتدئ. وفي هامش ك: والمبتدئ.

٥ ك – إلى غيره والإحسان من العبد وإن كان إلى غيره لا يكون إلا، صح هـ.

٦ ش: لا هؤلاء لا يصح.

٧ ش: أن الإحسان.

٨ ك ن: ثم.

تلخيص ثان ينحلّ به إشكال من أشكل بأهل النار ويَثبت الجزاء للفاعل المختار

اعلم أنه قد يقع الغلطُ من القائل في فهم ما قد يُشكل من قوله لسببين. أحدهما أن يكون قوله مأخوذا من العقل لا من النص، فلمّا بنى عليه لم يثبت، فلو أخذه من النص ثبت ولم يتزلزل. الثاني أن يكون قد سلك غير السبيل الموصِلة إلى فهم ذلك الإشكال. فإذا لم يصل السامع إليه عاد العقل متَّهَما عنده، والعقل غير مُتَّهَم؛ ولكن السبيل التي سلكها القائلُ ليست سبيل مطلوب / السامع. فهذان سببان من جهة القائل. [٤١٣ظ] ثم ينضاف إليهما سبب من جهة السامع، وهو أنه قد يأخذ أحد مدلولي اللفظ فيعارضه بما هو صحيح في العقل ويكون القائل قد أراد المدلول الآخر. وهذا كقول البصري رحمه الله: إن الله خلق الخلق ليحسن إليهم.[١] فهذا قول صحيح، لا شك فيه، ولكن وقع فيه هذه الصور الثلاث كما نبين. وذلك أنه لو قال: خلقهم ليعبدوه، ثم استلزم من ذلك أنه خلقهم ليحسن إليهم لكان بما قاله قد اتبع نص القرآن وبما استلزمه قد سلك سبيل البيان. وكذلك قوله: "خلقهم ليحسن إليهم" له مدلولان. أحدهما ما تقع به المعارضة بأهل النار، والآخر ما بيّنّاه في قوله: لِيَعۡبُدُونِ.[٢] وسنوضح البيان إن شاء الله تعالى.

ولنقدم أمام كلامنا في ذلك جملة. إنه لمّا كانت العبادة منهم له يلزم عنها الجزاء منه لهم، وكان ما في وسعهم من العبادة يتناهى، وما في سعة قدرته من الإحسان لا يتناهى عاد خلقه لهم لما يتناهى وهو العبادة خلقا لما لا يتناهى وهو الإحسان، فافهم. ولمّا كانت عبادتهم له إحسانا منهم إلى أنفسهم قال تعالى: هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ.[٣] ولمّا كان الإحسان منهم متناهيا والإحسان منه غير متناه كان إحسانه فضلا لأنه يفْضُل عما جاءوا به، وكان أيضا وهبا لأنه تَضاعف عما كان الإحسان إليهم بسببه، وإليه الإشارة بقوله: وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ.[٤] ولمّا كان الفضل كله بيد الله، والوهب كله من لدن الله، والثواب كله من عند الله، والأمر كله لله، وصاحب الكل قد قيّد الكل بعبادة العباد كان الكل مردودا إليهم وموقوفا[٥] عليهم. ولهذا لمّا[٦] قال: وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ قال بعده: فَٱعۡبُدۡهُ،[٧] وتمام الآية. فصارت العبادة منهم شرطا لوقوع الجزاء منه،

---

[١] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

[٢] الآية ٥٦ من هذه السورة.

[٣] سورة الرحمن، ٦٠/٥٥.

[٤] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة ق، ٣٥/٥٠).

[٥] ش ك: موقوفا.

[٦] ن – لما.

[٧] ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (سورة هود، ١٢٣/١١).

ولوقوع ما بعد الجزاء من لدنه، وهو قوله: وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ، ثم قال: أَجْرًا عَظِيمًا[1] كما بيّنّاه بعد نَجاز سورة الكهف. فلمّا كان الجزاء مشروطا منه وعليه يترتب ما بعده من لدنه ذكر الله أنه خلقهم للشرط. وذكر البصري أنه خلقهم للمشروط فأشكل كلامُه ولم يُشكل كلام[2] الله تعالى. وإيضاح ذلك أن قول الله يُعطي ما معناه: خلقتُهم لأَجْزِيَهم، وقولَ البصري يعطي ما معناه: خلقهم ليعطيهم. فقول البصري يلزم عنه العطاءُ للكل بلا شرط. فإذا أعطى البعض دون البعض أشكل بلا شك. وقول الله يلزم عنه العطاءُ بشرط. فإذا أعطى البعض دون البعض لم يُشكل بوجه. ونحن فلا نلتزم بكلام البصري فنجعلَه كلاما لله لئلا تقع المعارضة وتعود الحجة على الله، بل نفهم كلام الله فتزول المعارضة وتعود الحجة على العباد. فهذا هو حلّ الإشكال، وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ.[3] فإذا فهمت هذا جاز أن يُؤوَّل كلام البصري ويصحَّ بالتأويل، وجاز أيضا أن يحمل على كلام الله ما يصحح كلامَ البصري رحمه الله ويُبيِّن مراده. وقد ذكرنا هذا كله وجعلنا بسط القول فيه زيادة بعد هذا المقال الذي به انحل الإشكال، فَلْنَبْنِ[4] على هذا الأصل ونقول: لمّا كان قد خلقهم قادرين على الكفر ليؤمنوا ولم يخلقهم قادرين على الإيمان ليكفروا لزم أن يقال: خلقهم ليؤمنوا. وكذلك لمّا خلقهم قادرين[5] على عبادة الشيطان ليعبدوا الرحمن ولم يخلقهم قادرين على عبادة الرحمن ليعبدوا الشيطان لزم أن يقول: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[6] ومثله لمّا مكّنهم من[7] الإساءة ليحسنوا ولم يُمكِّنهم[8] من الإحسان ليسيئوا لزم أن يقال: خلقهم ليحسنوا. وكذلك لمّا خلقهم متمكنين من السوء ليُحسن إليهم إذا تركوه ولم يخلقهم متمكنين من الإحسان ليسيئ إليهم / إذا فعلوه لزم أن يقال: خلقهم ليحسن إليهم. وإلى هذا ذهب البصري رحمه الله [٤١٤و] تعالى. ولم يلزم من قولنا: خلقهم ليؤمنوا، وليعبدوا، وليحسنوا، وليحسن إليهم وقوعُ ذلك كلِّه من كلهم، لأن اللام ههنا مُبَيِّنة[9] للغرض كما تقول:[10] استدعيت بك لأُطعمك،

١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ٤/٤٠).

٢ ن – كلام.

٣ سورة طه، ٤٧/٢٠.

٤ ك: فلنبتن؛ ن: فلنبين. وفي هامش ك: فلنبن.

٥ ك – على الكفر ليؤمنوا ولم يخلقهم قادرين على الإيمان ليكفروا لزم أن يقال خلقهم ليؤمنوا وكذلك لما خلقهم قادرين، صح هـ.

٦ الآية ٥٦ من هذه السورة.

٧ ن – من.

٨ ن: أو لم يمكنهم.

٩ ش: مبنية.

١٠ ش ك: كما نقول.

فامتنع المدعوّ من الأكل أو كان صائما، فقولك صحيح ولم ينتقض ما من أجله وقع الاستدعاءُ منك به. ومثله فيما يتعلق بالعبادة التي ليس المراد بها إلا الجزاء قولُك: استأجرتك "لتخدمني". فإذا امتنع من الأجير وقوعُ الخدمة امتنع منك بذل الأجرة، ولم ينتقض قولك لتخدمني. وكذلك[1] إذا امتنع من العباد وقوع العبادة امتنع منه سبحانه وقوع الإحسان المشروط بالعبادة، وأعني به الجزاء ولم ينتقض قوله: لِيَعۡبُدُونِ،[2] لأن اللام ههنا هي لبيان الغرض الذي لم يخلقهم إلا لأجله، وقد مكنهم منه. فالغرض لم يتغير منه وإن لم تقع العبادة منهم.

ولمّا كان الإحسان منه سبحانه قد يكون ابتداء وقد يكون جزاءً علمنا أن الابتداء غيرُ مشروط وأن الجزاء مشروط. فإذا قلنا: "خلقهم ليُحسن إليهم" فالكلام مستقيم، إذ ما لا شرط فيه فوقوعه واجب للمؤمن والكافر. وقد وقع على أكمل الصوَر، كقوله: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ،[3] وكقوله: وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۚ.[4] وقد بيّنّا في آخر هذا التلخيص ما فيه كفايةٌ مما لا ريب فيه. وأما المشروط فلا جائز وقوعه إلا بشرطه، كقوله: وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا.[5] ولم يتغير قولنا "خلقهم ليُحسن إليهم"، لكنه احتاج إلى تفصيل، تقديره ليحسن إليهم ابتداء وجزاء، فالابتداء إليه والجزاء إليهم. ولمّا كان ما هو إليه من الإحسان منه[6] لا يتعلق بهم، وما هو إليهم من استحقاق الإحسان منه لا يتعلق به لزم أن يهديهم لا أن يُجبرهم،[7] فوجب إرسال الرسل وتشريعُ الشرائع لما هو منهم فقط. وعاد خلق الدنيا بأسرها إنما هو ليحسن إليه جزاءً لا غير، لأن إحسانه ابتداءً غير محتاج إلى خلق الدنيا بل يكفي فيه أن يوجدهم في الآخرة. ولهذا بين لهم أنه تعالى إنما خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ،[8] وكقوله: وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ،[9] وأمثال ذلك.[10] فله إحسان أولٌ في الدنيا هو فضل، لأنه تعالى بدأهم به، وله إحسان آخر في الآخرة هو وهب وهو ما بعد جزاء عملهم،

---

١ شر ك: فكذلك.

٢ سورة الذاريات، ٥١/٥٦.

٣ سورة الجاثية، ٤٥/١٣.

٤ سورة لقمان، ٣١/٢٠.

٥ سورة الطلاق، ٦٥/٢.

٦ ك - منه، صح هـ؛ ن - منه.

٧ شر ك: أن يجيرهم.

٨ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٢).

٩ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٣٥).

١٠ انظر: سورة البقرة، ٢/١٥٥؛ وسورة الأنعام، ٦/١٦٥؛ وسورة الكهف، ١٨/٧؛ وسورة م حمد، ٤٧/٣١.

وإليه الإشارة بقوله: وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ.[1] والفضل الأول في الدنيا ساوى فيه بين الكفار والمؤمنين من أجل امتحانهم ليتحققوا عدله. والوهب الآخر في الأخرى خصص به المؤمنين، لأنه إحسان مرتب على إحسانهم ليتحققوا فضله. فالفضل في الدنيا قبل فعلهم، والوهب في الآخرة بعد جزاء فعلهم. والجزاء في الدنيا والآخرة لا يكون إلا بعد فعلهم.

ومن البيّن أن المُجبَر على فعل الشر لا يعاقَب، والمجبر على فعل الخير لا يثاب. وكذلك المجبر على ترك الشر لا يثاب، والمجبر على ترك الخير لا يعاقب. ولا يصح أن يقال: فلو أجبره على ترك الشر ومكّنه من فعل الخير لكان قد سلك به سبيل السلامة، إذ لا معنى للتمكين إلا أن يقدر أن يفعل وأن لا يفعل.[2] فلو أجبره على أن لا يقتل لئلا يدخل النار ومكّنه من أن يصلي فلم يصل دخل النار. فقد صح أنه لا يصح الجزاء مع الإجبار ولزم التمكين والاختيار. / فالمجبَر حكمه حكمُ العدم من جهة نفسه. ولولا أنه خُلق من أجل غيره لما جاز إيجاده. فلا جائز أن تكون الجنة والنار إلا عن الكسب، فالألم واللذة لا تعلق لهما بالرب إلا بعد استحقاق المستحق لهما بالكسب. وإذا أوجد الله من يتألم من كسبه وإن لم يكن قد أوجده ليتألم بل ليلتذّ، لكنه علم منه أنه لا يكتسب إلا ما يُعقبه ألما لا لذة تَحقّقنا أنه لم يوجده لنفسه بل لغيره، ولم يكن ظالما له[3] فيما يناله من الألم ولا فيما يفوته من اللذة. ولله أن يخلق ما يشاء[4] إذا لم يكن ظالما ولا عابثا بل لحكمة. فتلك الحكمة إذا لم تَعْد على المحروم بذنبه فهي عائدة على المرحوم بكسبه. ويكون الله قد نَفَع المؤمن في الدنيا بما لا يعقل كالحمار، ونفعه في الدنيا والآخرة بمن يعقل من الكفار، وذلك بأنواع التسخير والاعتبار. ولا شك في أن عدم الكافر خير له من وجوده، ولكن ليس على الله أن يمنع المؤمن ما يستحقه من الفضل لأجل الكافر، بل له أن يعامل الكافر بما يستحقه من العذاب[5] لأجل المؤمن. [٤١٤ظ]

ولمّا لزم عن كمال الإحسان تمكينُ الإنسان ليكون قادرا على امتثال الأمر فيترقى بالشيء وضده من فعل الخير وترك الشر لزم خلقُ الأضداد لتتم النعمة على العباد ويؤجَرُوا على الجهاد. فكان من جملة ذلك إيجاد مقدار مخصوص من الكفار مع العلم

---

١ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة ق، ٥٠/٣٥).

٢ ك – وأن لا يفعل، صح هـ.

٣ ن – له.

٤ ش: ما شاء.

٥ ن: من العدل. وفي هامش ك: العدل.

بأنهم سيكونون بكسبهم من أهل النار. ولم يكن الله في إيجاده لهم عابثا ولا ظالما بل كان بهم على المؤمنين مُنعِما. وإذ قد[1] بان أنه تعالى خلقهم للمؤمنين فلا يقال: خلقهم للنار لكون مآلهم إليها، كما لا يقال: خلق الأجساد للفناء بل خلقهم من أجل الأرواح التي خلقها للبقاء. وما خَلق من أجل البقاء فقد خُلق للبقاء وإن كان مآله إلى الفناء. ومن هذا القبيل خَلَق الله للإنسان جميع المعادن والحيوان والنبات، وسخر له الأكوان كما بيّنّا عند قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾،[2] [مِن] أن ذلك كله من باب العدل والإحسان. ومن لوازم كمال الإحسان أنْ خلق الله الشيطان فجعله جامعا لسائر ضروب الشر، وأخبر[3] عن أوصافه كلها بصفة واحدة جامعة لكلِّ ضرب من أنواع الضرّ وهي مخالفة الأمر. وبين أنه تعالى لم يُجبره على كفره بل مكّنه من امتثال أمره. ومن فَهِمَ هذا البيان وأوتي الفرقان شهد أن الشيطان عبارة عن الصفات المذمومة من الإنسان، وأنه من أجل النعمة[4] في الأكوان. ولولا إيجاده لما نزل القرآن ولا كَمُل الإحسان.

فلمّا كانت زبدة الإيجاد ليس[5] إلا الإحسانَ إلى العباد،[6] وكان الله غنيا عنهم وعن الإحسان إليهم، ولم يكن ذلك الإحسان واجبا عليه إذ[7] أراده بهم صار واجبا من الكل للكل من أجل أنه مراد الله للكل. فكما أن الإنسان إذا أساء إلى غيره كان قد خرج عن مراد ربه بغيره، فكذلك إذا أساء إلى نفسه كان قد خرج عن مراد ربه به فاستحق جزاء كسبه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾،[8] وبالعكس. ولهذا تكرر هذا المعنى في جميع القرآن، كقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.[9] ولمّا ثبت أن الجزاء من لوازم كمال الإحسان إلى نوع الإنسان وجب الهُدَى على خالقه سبحانه. وبيان ذلك هو أن كمال الإحسان من الرب يوجب على الرب هداية العبد إلى سبيل إذا سلكها / كان إحسان العبد إلى [٤١٥و] نفسه كاملا، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.[10] ولا يجوز أن يكون كمال الإحسان من الرب موجبا على الرب إجبارا للعبد على أن يكون إحسان العبد إلى نفسه كاملا، بل يوجب تمكينَه فقط ليتم القسمة الثلاثية التي لا يصح كمالُ الإحسان[11] إلا بها.

---

[1] ك – قد، صح هـ؛ ن – قد.

[2] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة الدخان، ٣٨/٤٤-٣٩).

[3] ش: والخير.

[4] ش ك: نعمة.

[5] ن – ليس.

[6] ك ن: إلى العبادة.

[7] ن: عليه إذا.

[8] سورة النساء، ١٢٣/٤.

[9] سورة الأنعام، ١٣٩/٦.

[10] سورة الليل، ١٢/٩٢.

[11] ك ن: الإنسان.

وإذا انحصر إحسان الرب في أقسام ثلاثة، أحدها أن يكون العبد متمكنا[1] لا مجبَرا فقد وقع ما لأجله خُلق الإنسان، وتحقق أن ذلك من خالقه أكمل الإحسان،[2] وعاد الكافر والمؤمن كلٌّ منهما ممنوحا بكمال الإحسان من ربه. وذلك بنفس كونه خلقه متمكنا من الإساءة والإحسان إلى نفسه، لأنه متمكن من الترقي بفعل الشيء وترك ضده. ولهذا خاطب الكلَّ بقوله: وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ.[3] فالتمكين هو حقيقة كمال الإنسان الدالّ على كمال الإحسان.

وإذا تأملت جميعَ ما قلناه سقطت المعارضة بالكفار، وبان أن الله تعالى مُحسِن إلى أهل النار، وأن إحسانه إليهم لا ينقص عن إحسانه إلى أهل الجنة، بل تساوَى منه الفريقان في كمال الإحسان. وتحقق أن الجنة والنار من لوازم أعمال الفريقين، وأن الله لم يخلقهما إلا أمةً واحدة فاختلفوا.[4] ولو شاء ربك بعد الاختلاف لجعل الناس أمة واحدة،[5] أي إجبارا، ولكنه بيّن لهم ما يتقون ليكونوا أمة واحدة اختيارا. فيعود إحسانهم إلى أنفسهم بالتقوى كاملا كما كان إحسان البارئ إليهم بتمكينهم من التقوى كاملا ولذلك خلقهم. وصار المؤمن كالكافر كلاهما سلكا[6] في سبيل واحد من الإحسان بين فضل وعدل من جهة ربهما، مستطيعان بكسبهما ما أريد لهما بهما. وتلك الاستطاعة لا شك هي كمال الإحسان العام على نوع الإنسان، إذ لا يصح أن يكون الجزاء إجبارا. ولهذا خلق الإنسان مختارا. ولقد كرّم[7] من سخّر له كل شيء من غير جنسه ومن جنسه حتى سخر نفسه لنفسه، ولقد فضله إذ مكّنه في الدنيا من الاستدلال عليه وفي الآخرة من النظر إليه. ثم أحسن إلى من أحسن بمن أساء وبمن أحسن فعاد بين فضلين: أحدهما أزلي من ربه ابتداءً لا أول له، والآخر أبدي من ربه جزاء لا آخرَ له. والحمد لله والصلاة على رسول الله عليه السلام.

---

١ ن: متمكن.

٢ ك ن: الإنسان.

٣ ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٠/٧).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ (سورة يونس، ١٩/١٠).

٥ انظر مثلا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ (سورة هود، ١١٨/١١). وانظر أيضا: سورة المائدة، ٤٨/٥؛ وسورة النحل، ٩٣/١٦؛ وسورة الشورى، ٨/٤٢.

٦ ش: سالكا.

٧ جميع النسخ: كرمه. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (سورة الإسراء، ٧٠/١٧).

تلخيص ثالثٌ فيه ردّ على من كفر وبيانُ فهمٍ ظهر فأثبت ليُعتبَر بنظر أولي النظر

فُطر العقل على الاعتراف بوجود وعدم. فأما العدم فهو إشارة إلى وجود ما يستقر في الذهن من تصور عدِم ذات مّا[1] تقديرا، فلها وجود في الذهن لا في الحقيقة. ووجودها في الذهن وجودُ دلالةٍ على عدم وجود ذات، وهذا هو العدم، وحكمه حكم ما لا يُعلم وهو واحد لا ينقسم. وأما الوجود فوجوده محقَّق ذهنا وعينا وحقيقة وأينًا، وينقسم إلى قسمين: هما صانع أولٌ ومصنوعٌ ثانٍ. والمصنوع ينقسم إلى باق وفان. فالباقي هو الإنسان ولأجله كُوِّنت الأكوان وأنزِل القرآنُ. فهاتان ذاتان محقَّقتان: فاعل لا أول له فهو أزلي، ومفعولٌ لا آخر له فهو أبدي. فعلْمنا بأن الفاعل لا أول له هو[2] أول العلم وهذا كافٍ في الإشارة إليه. وعلمُنا بأن المفعول لا آخر له هو آخر العلم، وهذا كاف في الدلالة عليه.

فلنتكلم الآن من أول علمنا بالفاعل وما صدر منه إلى آخر علمِنا بالمفعول وما لزم عنه. ونثبت بما نقول صحة ما جاء به الرسول وصِدْقَه في العقول مما أخبره الله به من خراب الدنيا وإبطال النشأة الأولى؛ وإن ذلك / عن حكمة بالغة وحُكمٍ واجب [٤١٥ظ] لا عن عبث عابث أو لعبِ ذي هوى لاعبٍ. والحامل على هذا البيان إبطال ما جاءت به الفلاسفة مما يخالف القرآن. وذلك معارضتهم بما معناه إذا كان إيجادُ العالم فضلا يكون إعدامه بخلا،[3] وإذا كان الإيجاد حسنا كان الإعدام قبيحا. فاستلزموا دوام الأكوان واستمرار ما يخلق من نوع الإنسان على ممر الأزمان. وهذا لا شك حسنٌ ولازم في بعض الأذهان، ولكنه بخلاف القرآن. واعتذر المنتسبون منهم إلى الإسلام بأن الخطاب جاء على قدر الأفهام. وهذا غلطٌ نشأ من كونهم عرفوا الحق بالخلق[4] فخابوا. ولو عرفوا الخلق بالحق لأصابوا. ومعرفة الحق[5] تنقسم إلى قسمين. أحدهما ما يشاهَد بالقلوب ذوقا كالعِشْق الذي لا تحتوي عليه العباراتُ، والثاني ما تشهد[6] به العقول علما. وإليه تنتهي الإشارات. فنقول فيما تشهد به العقول: إن من لا[7] أوّل له لَغَنِيٌّ بذاته عن سائر مبدَعاته،[8] وإن إطلاق الغِنَى عليه يوجب إعادة سائر الأسماء الحسنى إليه.

---

١ ن: ذات أما.
٢ ن: له وهو.
٣ ش: نحلا.
٤ ن + فخالفوا.
٥ ش ك – الحق.
٦ ش ك: ما يشهد.
٧ ك ن – لا.
٨ ك + ثم العلم بمعلوماته.

فمنها الكمال لذاته، ثم القدرة على مبدعاته، ثم العلم بمعلوماته. فالقادر له أن يفعل وله أن لا يفعل، وليس عليه أن يفعل ولا عليه أن لا يفعل. فإذا فعل كان فعله كاملا، إذ نقصُ الفعل يعطي نقصَ الفاعل، فلزم كمال الفعل. وكماله إنما يَظهر بالمفعول، والمفعول باق وفان. فالباقي هو الإنسان. فأول كماله تمكينه من الخيرات ليكتسبها ومن الشرور ليجتنبها فيَرْقَى بالاجتناب كما يرقى بالاكتساب. وآخر كماله بقاؤه أبدا واستلذاذه سرمدا، إذ زبدة إيجاده لذة وإن اختلفت أحكامها وتنوعت أقسامها. ولمّا كان تمكينُه من الشرور محتملا لوقوعه في المحذور فُتح له باب التوبة والدعاء وكُفّرت عنه خطاياه بأنواع البلاء. ولمّا كان قد لا يجتنب[1] الكبائر وقد لا يتوب عن الصغائر خُلقت له النار وجعل له منها تذكرة في هذه الدار. ثم يخرج منها إلى زبدته التي هي بقاؤه في لذته. وهذا الفريق هو المؤمن الذي ينتفع في الدنيا بالإنذار ويَخرج في الآخرة من النار. وقد أفردْنا مسألةً وجوابها، فافهم ذلك جيدا.

باب في الرد على من[2] قال: لا يخلّد الله الكافرين في النار

بل يجب عليه إخراجُهم، لأن الله مُتعال عن العبث وعن الظلم. أمّا العبث فلكونهم لا فائدة لهم في الخلود. وأمّا الظلم فلكونه زائدا على مدة كفرهم في الدنيا. وأمّا وجوب إخراجهم فلأن لهم في ذلك نفعا،[3] وإذ لا فائدة في خلودهم وهو ظلم، ولا يقدر على نفعهم إلا هو. فقد وجب أن لا يخلّدهم ووجب أن لا يخوّفهم إلا بالخلود الذي هو أبلغ ما يقع من التخويف في الأذهان ليَسلموا من العذاب المستحق لهم مدة في النيران.

الجواب إن كان الكافر لم يدخل النار إلا بكفره، فما دام الذنب دام العقاب، فيما به كان الدخول به كان الخلود. ولقد أخبر الله عن هذا السؤال بقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾[4] فالذنب باقٍ فالعقاب باق. وإذا لزم خلودهم من جهتهم بطل أن يكون ظلما من جهته تعالى. ولا اعتبار لمدة كفرهم في الدنيا حتى يكون العذاب بمقدارها في الأخرى، بل الاعتبار لِما هم عليه في الأخرى بدليل أنهم لو تابوا في الدنيا قبل ذراع لدخلوا الجنة، ﴿مَا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾.[5] وأما قول المعارِض أن ليس في العذاب المؤبد فائدةٌ،

---

1 ن: لا يحتبب.

2 ك – وقد أفردنا مسألة وجوابها فافهم ذلك جيدا باب في الرد على من، صح هـ.

3 جميع النسخ: نفع.

4 ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٨).

5 ﴿مَا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٧).

فهذا إنما يلزم لمن قال: إنه لفائدة ترجع عليهم؛ وأنما هو صفة أنفسهم اختاروا الاتصاف[1] / بها ولم يُقلعوا عنها في الدنيا. وأخبر الله أنهم لو رُدُّوا لم يُقلعوا بعد ما [٤١٦و]
ذاقوه من العذاب في الأخرى. وأما دعوى المعارِض أنّ ذكر الخلود إنما هو تخويف فقد عارض نفسه بنفسه، لأنا إذا فهمنا أن التخويف غير واقع ذهبت فائدته إذ لا يحصل إلا بأبلغِ ما يقع في الأذهان. وقد امتنع وقوعُ[2] ما يقع عنه، وعاد القياسُ يُعطي أنه تعالى لا يُعذِّب بالنار[3] جملةً لعدم الفائدة بالعذاب الذي له أجَل كعدم الفائدة بالعذاب المؤبَّد. وللكفار[4] في إبطال العذاب نفعٌ. ولا يقدر على نفعهم إلا الله. وكذلك يقال: إذا أخرجهم[5] من النار ولم يُدخلهم الجنة لا شك هم في عذاب فيجب عليه سبحانه إدخالُهم وهذا حالهم،[6] أعني الكفر. فيعود الكفر والإيمان واحدا، وبطلت فائدة الرسل وإنزال الكتب. وهذا مما لم يُسوِّغه عقلٌ ولم يأت به شرعٌ.

ثم نقول جزما: ليس كل ما فيه نفع يجب على القادر فعلُه، لأنه لو وجب هذا لم يكن بعض ما فيه نفعٌ بأن يجب أولى من بعض. وهذا يوجب أن يجب على القادر سبحانه فعلُ ما لا نهاية له. وإنما يجب ما فيه نفع إذا كان في تركه ضررٌ لمن لم يجز ضررُه. وإذا صح هذا وكان الله تعالى قد أوجب علينا في القرآن اعتقادَ خلود الكافر في النار لكي ننتفع بذلك لم يَجُز أن يوجبه إلا وفي تركه ضرر، لأنه لا يجوز أن يوجبه على وجه لا يجب عليه. وإذا صح هذا لم يجز أن يكون الوعيد بالخلود إلا صحيحا، إذ اعتقاد خلافه -وهو أن لا خلود- تكذيب له وضرر علينا. فافهم هذا جيدا[7] واحفظ معناه. فقد بان أن الكفار الذين لا ينتفعون في الدنيا بالإنذار يخلَّدون في الآخرة في النار. وهؤلاء أشبه بأحد الحيَوان لكنه خُلق على صورة الإنسان. فوجودهم إنما هو لغيرهم، فهم[8] للمؤمنين في الدنيا سُخْرَةٌ وفي الآخرة عِبْرَة. وهذا القسم يكفي فيه وجود من تتم به السخرة في الدنيا والعبرة في الآخرى، لأنه في حكم العدم من جهة نفسه وإن كان في حكم الوجود من جهة غيره، إذ زبدة وجوده وهي اللذة معدومة له بنفسه موجودة به لغيره. وهؤلاء هم الأزواج الثلاثة الذين هم أهل الوجود، ومن أجلهم وُجد الموجود.

---

١ ن: الأنصاف.
٢ ن + الأبلغ فامتنع.
٣ ش ك: النار.
٤ ش: والكفار.
٥ ك ن: إذا أحوجهم.
٦ ش ك - وهذا حالهم.
٧ ك ن + جيدا.
٨ ن: فهو.

ولمّا كان العلم القديم محيطا أزلا بما يكون من كل منهم عملا مكّنهم من مَطالبهم وأوقفهم في مراتبهم لا بهوى منه سبحانه بل بمكاسبهم، لأن الله تعالى خَلق الكلَّ لعبادته.[1] فمن أتى بما خُلق له كان له ما سواه، ومن لم يأت به كان هو لِما سواه؛ إذ لم يخلق إلا للعبادة، فلما لم يعبد كان لمن[2] يعبد، إذ لا يصح أن يكون إيجاده عبثا بل إما لنفسه أو لغيره، أو لنفسه وغيره. وقد انتفى أنه لنفسه فلزم أنه لغيره وأنه هو الظالم.

ولمّا كان هذا القسم الذي يكاد أن يلحق بالمعدوم كافيا في باب المراد وقع الاقتصار على هذا العدد المعلوم من الكفار. وعُلم أنه تعالى لو أوجد إيجادا مستمرا أناسيَّ كثيرا لم يصل أحد منهم إلى رتبة المقرَّبين ولا إلى رتبة أصحاب اليمين، بل كان الجميع بأسرهم يلحقون بالكافرين الذين هم من جهة أنفسهم في حكم العدم، إذ العلم الأزلي محيط بأعمالهم في القِدم. ولمّا كان إيجاد الكافرين ليس لرحمة للكافرين بل لحكمة من أجل المؤمنين لزم أن يوجد منهم في كل عصر ما تتم به السُّخْرة والعبرة لينتفع المؤمن بمن هو في عصره / من الكفار في الدنيا، ويعتبرَ بمن يعرفه منهم في الأخرى دون من تقدم منهم قبله، أو تأخر بعده. فلمّا كملت العِدّة في مقدار من المدة عاد إيجاد الكافرين لغير المؤمنين عبثا بل ضررا، إذ عدمهم خير لهم من الوجود في عذاب الخلود. ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شر الناس. ولقد بيّن الله ذلك للعلماء بما ضربه من الأمثال بقوم نوحٍ وغيرهم من أهل الضلال، كقوله: وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا.[3] فكما لزم من إبطال إيجاد من يأتي من نسلهم، كذلك لزم إبطال من يأتي من مثلهم، لأنه إذا علم أنه سبحانه إذا خلقهم ليعبدوه امتنع ذلك منهم لزم أن يبطل الخلق، إذ لا حكمة فيه، ولا رحمة به، ولا نفعَ له، ووجب الاختصار على من في خلقه[4] حكمة من الكفار لأجل من في خلقه رحمة من المؤمنين لا غير، فلزم طيّ السماء وبطلان ما بدأ به من الإنشاء. وكانت النشأة الثانية إعادةً لا ابتداء وزيادةً، إذ قد تمَّ حكمُ الغني بمقتضى العلم الأزلي. فافقه هذا البيان الجلي لتظفر بالإيمان القوي. [٤١٦ظ]

[1] ن: للعبادة. | يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية ٥٦ من هذه السورة.

[2] ن + لم.

[3] ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ (سورة نوح، ٧١/٢٦-٢٧).

[4] ن − خلقه.

والحمد لله العلي. وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله وأصحابه وسلم. وحسبنا الله ونعم الوكيل. ومن أشكل عليه شيءٌ[1] مما قلناه أو احتاج إلى زيادة إيضاح فليطالع ما أثبتناه في آخر سورة النبأ وما أفردناه بعد كمال هذا التفسير الشريف.

١ ن – شيء.

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾

والطور، المرفوع بسبب الميثاق، لأنه معرَّف. وكتُب مسطور في رق منشور، نكّر الكتاب ليعُمَّ كل كتاب سُطر في رَقّ. وقد كانت بنو إسرائيل تسطر التوراة، وكذلك كتبُ الأنبياء المنزَّلة عليهم في الرق وإلى يومنا هذا، لأنه أولى وأبقى من الورق. فيحتمل أنه أقسم بكل كتاب، كقوله: ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ.[1] والبيت المعمور، البيت الحرام في قول الحسن.[2] والسقف المرفوع، على كل سقف، وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا.[3] والبحرِ المسجور، قيل: المملوء[4] بمعنى المملوء نارا، وقد بيّنّاه في سورة الشمس.[5] إن عذاب ربك لوُقع، ما له من دافع.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾

يوم تمور السماء مورا، المَوْر المَوْج، تمور تمُوج، والبعير تمور عضداه إذا تردد في عرض جنبه بمجيء وذهاب. والمُور بالضم الغبار بالريح. وتقديره إن عذاب ربك لواقع يوم تمور السماء. وتسير الجبال سيرا، والمراد الجزاء بعد القيامة.

﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢﴾

الذين هم، الآن، في خوض يلعبون، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ.[6] وأصله من الخوض في الماء الذي يحتمل أن يَغرَق فيه الخائض، فهو خوض في الرِّيبة والباطل والإثم. ومنه الكلام فيما لا يُجدي كاللعب والهزل.

---

١ ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١٥).

٢ انظر: زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٨/٤٧.

٣ سورة الأنبياء، ٢١/٣٢.

٤ ش ك: المملو.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ (سورة التكوير، ٨١/٦). لأنه سمّى سورةَ التكوير بسورة الشمس.

٦ سورة المدثر، ٧٤/٤٥.

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾

يوم يدعون، الدعّ الدفع إلى خَلْف، يُدْفعون، إلىٰ نار جهنم دعا، أي بعد دع إلى أن يصلوا إليها، كالذي يُدفع إلى السجن ووجهه إلى من يدفعه.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾

ثم يقال: هٰذه النار التى كنتم بها تكذبون. أفسحر هٰذا؟ لمّا كان قد تواعدهم في القرآن بالعذاب في جهنم، وقالوا في الدنيا: إن القرآن سحر، -ومن جملته[1] وعيدهم- حَسُن أن يقول لهم عند رؤية الفعل المصدِّق للقول ما يُوَبّخهم به ويكرر ما قالوه فقال: أفسحر هٰذا، العذاب أيضا كما كنتم تقولون عن كلامنا في الدنيا إذا[2] تواعدناكم / به، [٤١٧و]
أم أنتم لا تبصرون.

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾

اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم، أصبرتم أم جَزِعْتم ما لكم من محيص.[3] إنما تجزون ما كنتم تعملون.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾

إن المتقين فى جنّٰت ونعيم، فٰكهين بما ءاتىٰهم ربهم ووقىٰهم، وكرر قوله: ربهم عذاب الجحيم، لئلا يعود الواقي،[4] ما ءاتىٰهم.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾

كلوا واشربوا هنيـٔا بما كنتم تعملون، متكئين علىٰ سرر مصفوفة، يقابل بعضها بعضا. وزوجنٰهم بحور عين.

---

١ ك ن: ومن جملة. | أي من جملة القرآن.
٢ ش: إذ.
٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ (سورة إبراهيم، ٢١/١٤).
٤ ن: الراقي.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾

والذين ءامنوا، وقوله: **واتبعتهم ذريتهم**، هذه جملة إخبارية هي موضوع ومحمولها جملة أخرى هي ما بعد ذلك وهي: **بإيمٰن ألحقنا بهم ذريتهم**، وهو من اللحوق، أي جعلناهم يَلحقون بهم في رتبة الكرامة. ولهذا لم يقل: يَلحقونهم. وتمام المحمول قوله: **وما ألتنٰهم من عملهم من شيء**، ومعنى "ألتناهم" فَوَّتْناهم وهي بفتح اللام من لات، أي فات. ومنه قوله تعالى: وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ،[١] أي فات بمعنى وقد لاتهم مناصٌ حين مناص كما بيّنّاه في موضعه.[٢] والضمير عائد على الآباء، ومعناه وما نقصنا من عمل الآباء شيئا من الأجر حين ألحقنا الذرية بهم. وقوله: **كل امرئ بما كسب رهين**، عائد على الذرية. ويحتمل عودته على الفريقين من أصحاب النار وأصحاب الجنة. والرهن ما يُحبَس لِيَفْتَكّ. فكلٌّ في يوم القيامة رهينُ كسبه، فهذا يَفتكُّه عمله إلى الجنة وهذا إلى النار. ولمّا ذكر الكسب لزم أن يخرج من هذا الإلحاقِ غيرَ المكتسِب كالطفل، وقد ذكرنا حكْمَ الأطفال في موضعه. ولمّا قيّد القول ههنا بالإيمان من الملحَقين صار ترك الإيمان كسبا للبعض فلم يستحقَّ أن يُلحَق بأبيه المؤمن، كما أن الإيمان[٣] كسب للبعض، فاستحق الإلحاق. وفائدة الإلحاق هو[٤] المساواة في درجات النعيم بين الأب وابنه. ولمّا كان هذا الوعد بالإلحاق محتملا[٥] بأن يُلحَق الكافرُ من الأبناء بالمؤمن من الآباء أزال هذا الاحتمال بقوله: **كل امرئ بما كسب رهين**. فعاد معنى الجملة إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ،[٦] وإن من ألحقنا به ذريته لم تلحقه[٧] بغير إيمان، إذ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ،[٨] بل بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم. ولهذا قال عن الملحَقين والملحق بهم: **وأمددنٰهم بفٰكهة ولحم مما يشتهون**، أي أمددناهم أجمعين. فلهذا ذكر الكسب في وسط الإخبار عن أهل الجنة، لأنه مخصَّص بالذرية وإن فُهِم منه العموم.

١ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (سورة ص، ٣/٣٨).
٢ لعل المؤلف يشير إلى تفسير الآية ٣ من سورة ص.
٣ ش: أن الإلحاق. وفي هامش ك: الإلحاق.
٤ ش ك: وهو.
٥ ن: محتمل.
٦ الآية ١٧ من هذه السورة.
٧ ش ك: لم يلحقه.
٨ سورة المدثر، ٣٨/٧٤.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾

يتنزعون فيها كأسا، تقدم بيان مثل ذلك.[1] ثم وصف الجنة بقوله: **لا لغو فيها ولا تأثيم**، أي لا يبدو من قائل لغوٌ ولا من سامع تأثيمٌ لقائل.

﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾

ويطوف عليهم، بالكأس، **غلمان لهم**، لأن اللذة لا تكمل إذا كان الغلمان لغيرهم. **كأنهم لؤلؤ مكنون**. إذا ضُرب المثل لصفة في الممثول هي[2] مُشَبِّهَة أحسنَ ما فيه فلا يجوز[3] أن نفهم[4] أسوأ ما في المثل ونجعله مقصودا للقائل. فذلك وإن احتمل لفظا لم يحتمل معنى، لأنه يعود ذمّا لا مدحا. بل يجب أن نكون من الذين يستمعون القول المحتمِل للمعاني فيتبعون أحسنه[5] تأويلا، كما أننا لو مثّلنا الغلمان باللؤلؤ في المقدار لم يسع عقلا. فإذا كان التمثيل في البياض والصفاء تمّ المدح وتحقق الحسن. وقوله: **مكنونٌ**، يشير إلى كبار اللؤلؤ وهو الذي يُكَنّ ويُستر لشرفه.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، بماذا منّ الله عليكم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾

قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾،[6] وهو من [٤١٧ظ] ضعف القلب لِما يعتري من الخوف. ومنه الشَّفَقَة / على الأهل والولد، ومنه شفق الشمس عند الغروب لضعفه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾

فمن الله علينا، بهذا. **ووقىٰنا عذاب السموم**، ولا يناقض التساءل ههنا لِما في سورة المؤمنين، لأن ذلك في يوم القيامة قبل دخول الكافر إلى النار، بدليل قوله قبله:

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٢٥ من سورة البقرة. وانظر أيضا: سورة الإنسان، ٧٦/٥، ١٧.
٢ ن – هي.
٣ ش: فلا يجب.
٤ ك: أن تفهم
٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/١٨).
٦ سورة المعارج، ٧٠/٢٧.

فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ،[١] ولم يقل: ولا أنساب لهم، بل لمّا كان في ذلك اليوم لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ[٢] عادتِ الأنساب لا أنساب. وأما قوله: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ،[٣] فذلك بعد دخولهم النار، وههنا بعد الدخول إلى الجنة بدليل [قوله:] **إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم.**

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾

ثم قال سبحانه لرسوله عليه السلام: **فذكر**، أي بنعمة ربك وهو القرآن، وحذف لقوله بعده: **فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون**، كما يقولون عنك. **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون**، حوادث الموت نتوقع وقوعها به.

﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾

قل تربصوا فإني معكم من المتربصين، ما وعدني الله فيكم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢﴾

أم، وليست بمعنى "بل" كما قيل، بل معناه أيقولون كذا، **أم تأمرهم أحلٰمهم بهٰذا**، عقلاؤهم، ومنه قول المشركين: إن محمدا سبّ آلهتنا وسفّه أحلامنا، أي عقلاءنا. **أم هم قوم طاغون.**

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

أم يقولون تقوله. ثم رد على جميع الأقاويل المذكورة عنهم بقوله: **بل لا يؤمنون.**

﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾

أم خلقوا من غير شيء، كَنَى بالشيء عن الخالق. لأنهم لا يفهمون إلا الشيء.

---

١ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ١٠١/٢٣).

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (سورة لقمان، ٣٣/٣١).

٣ سورة الصافات، ٢٧/٣٧-٢٨.

فافهم هذا دون ما قيل. ولهذا بعده: أم هم الخلقون، ومن ههنا نَرُدّ على من قال: إن "أم" بمعنى بل. أم خلقوا السموٰت والأرض بل لا يوقنون، أنها مخلوقة بعد أن لم تكن.

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧﴾

أم عندهم خزائن ربك، الخزائن دالة على ما تحتوي عليه من سائر النِّعَم. والمراد ههنا الكتب المنزَّلة وإن عمّ، ولهذا بعده: أم هم المسيطرون، المسيطر هو مُجري السَّطْر على غيره بما يُلزمه قهرا من حكم السطر.[1] فالله سبحانه هو المسيطر ههنا، وقوله: لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ،[2] أي بمُلزِم بحكم سطر، وهي بالسين[3] قراءة أبي عمرو والكسائي، لأنه مأخوذ من السطر.

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨﴾

أم لهم سلم يستمعون فيه، أي يقفون فيه حين الاستماع إذا لم يكونوا ممن يَصْعَد إلى السماء كالملائكة. مثّلهم بالشياطين الذين يَسترِقون السمع.[4] فليأت مستمعهم بسلطن مبين، بحجة على دعواه.

﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩﴾

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾

أم تسئلهم أجرا، على ما تذكّرهم به، فهم من مغرم مثقلون، بيّنّاه في سورة ن.[5]

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢﴾

أم عندهم الغيب فهم يكتبون، أي أم عندهم علم الغيب[6] من أمر الآخرة وما جاء به القرآن فهم يكتبون من الغيب كما كتب ربك في الأزل، كقوله: كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ

---

١ سطر فلان فلانا بالسيف سطرا إذا قطعه به. والمسيطر: المسلَّط (لسان العرب، «سطر»). وانظر لمعنى الآية: تأويلات القرآن للماتريدي، ١٤/١٨٠-١٨١.

٢ سورة الغاشية، ٢٢/٨٨.

٣ قرأ قنبل وهشام بالسين، والباقون بالصاد غير أن حمزة يشم الصاد الزاي (كتاب التيسير لأبي عمرو عثمان الداني، ص ٢٠٤؛ وكتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ١٨١).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة الحجر، ١٥/١٦-١٨).

٥ انظر: تفسير الآية ٤٦ من سورة القلم.

٦ ن: الغائب.

أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ،[١] أي ليس عندهم علم الغيب ولا يكتبون ما سيكون، بل الله وحده يعلم ويكتب. والأولى -والله أعلم- أنه منسوق في هذا[٢] المعنى بقوله: فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ.[٣] ولمّا كان القرآن قد أخبر بكثير من الغيب وقد جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهم لا يقدرون على الإتيان بمثله، مع كونهم يكتبون وهو أمي لا يعرف الكتابة،[٤] قال: **أم عندهم الغيب فهم يكتبون**، وأنت لا تكتب، فكان الأَولى بدعواهم أن يأتوا بحديث مثله يتضمن الغيب. ولهذا بعده: **أم يريدون كيدا**، لله ورسوله بتكذيبهم وكفرهم. **فالذين كفروا هم المكيدون**.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

وإن يروا كسفا، قِطْعا من سحاب ينسحب وهو ما ينكسف به نور الشمس. وقد تقدم في قوله: أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا / كِسَفًا.[٥] والمعنى أنهم لا يؤمنون [٤١٨و]
ولو أريناهم العذاب من السماء ساقطا عليهم حتى يحل بهم، بل إن يروا، **يقولوا سحاب مركوم**.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فذرهم، يخوضوا في غمرتهم،[٦] **حتىٰ يلٰقوا يومهم الذى فيه يصعقون**.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يوم لا يغنى عنهم كيدهم، لا عنهم ولا عن غيرهم، **شيئا ولا هم ينصرون**.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وإن للذين ظلموا، من هؤلاء وأمثالهم إلى يوم القيامة، **عذابا دون ذٰلك**، وهو عذاب الدنيا بنصر المؤمنين عليهم. وهذا كقوله: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ

١ سورة المجادلة، ٢١/٥٨.
٢ ك - هذا، صح هـ.
٣ الآية ٣٤ من هذه السورة.
٤ ن: الكتاب.
٥ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٩٢/١٧).
٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (سورة المؤمنون، ٥٤/٢٣).

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.[1] وقوله: ولٰكن أكثرهم لا يعلمون، أي لا يعلمون أن العذاب الأدنى نذير بالعذاب الأكبر، ودليل على صحة الوعد به وقدرة الله عليه. وبهذا تَسقط المعارضة بقول من قال: إذا كان المعذَّب لا يعلم فلا فائدة في تعذيبه. وأما البعض الذي يعلم[2] فهو يتّبع محمدا صلى الله عليه وسلم. وذلك العلم مأخوذ من كتب الأنبياء وما أخبرتْ به من الإنذارات الدنيوية، ونصرِ محمد وأمته وأمثال ذلك مما يدل على صدق الوعد الأخروي.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

ثم عطف على قوله: فَذَكِّرْ،[3] [قوله:] واصبر لحكم ربك، أي لأجله. فإنك بأعيننا، كما بيّنّا في قوله لنوح: بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.[4] وسبح بحمد ربك، إذا قال: الحمد لله فهو تسبيح بالحمد، حين تقوم، من النوم، ولم يخصصه ليستعمل عند كل قيام.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

ومن اليل، في آناء منه، فسبحه، أي على كل صورة: من قيام وقعود واتّكاء. وهو أمر تنبيهٍ على الأولى والأنفع إعلاما بفضيلة الذكر في الليل، وأنه يجب أن يكون أكثرَ من النهار. وإدبرَ، بكسر الألف ومعناه ضدّ الإقبال، كقوله: وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ.[5] وتقديره أن يكون[6] في وقت، إدبرِ النجوم. وأما قوله: "وأدبار" بفتح الألف[7] فهي جمع دُبُر، والمراد به ما يجب من الاعتبار بما يشاهد من قدرة الله في السماء على حركة الكواكب وتغييبها. ومثله وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ،[8] أي بعد انقضائه. والله أعلم بالصواب.

---

١ سورة السجدة، ٢١/٣٢.

٢ ش: تقيم.

٣ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٤ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (سورة هود، ٣٧/١١؛ وسورة المؤمنون، ٢٧/٢٣).

٥ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (سورة آل عمران، ١٦/٣-١٧).

٦ ك - أن يكون.

٧ ش - الألف. | كسر الهمزة المدنيان والمكي وحمزة وخلف، وفتحها غيرهم (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٠٣).

٨ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ (سورة ق، ٤٠/٥٠).

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾

والنجم إذا هوىٰ، سقط في جهة المغرب، وهو اسم الجنس، كقوله: أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ.[1] وإنما ذكر القَسَم بهذا لأنه لمّا كان آخر السورة المتقدمة: وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ،[2] قال في أول هذه: **والنجم إذا هوىٰ**، تنبيها على أن الذي غيّبها في الدنيا قادر على أن يُذهبَها يوم القيامة، فيحصل التقوى والتذكار بالرؤية والاعتبار. **ما ضل**، جواب القَسم، **صاحبكم**، النبي صلى الله عليه وسلم، أي ما ضل عن الهدى كما تدّعون. **وما غوىٰ**، خاب وجهل وهو من الغيّ.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾

وما ينطق عن الهوىٰ، أي ما ينطق به من القرآن ليس عن هوى نفسه بدليل قوله بعده: **إن هو إلا وحي يوحىٰ**، أي كما أوحينا إلى النبيين. وليس كل ما يتكلم به النبي عليه السلام وحيا، لأن قضية الإسراء ومثلَها مما نُقل عنه فيما قاله ورجع عنه يمنع من ذلك. ومنه قوله عليه السلام: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له. فمن قضيتُ له بشيء من مال أخيه فإنما أقطعُ له قطعة من النار».[3]

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾

وقوله: **علّمه**، إشارة إلى قوله تعالى: ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ.[4] وقوله: **شديد القوىٰ**، استعارَ "القوىٰ" وعبر عنها بالشدة لنفهم من جنس ما نعلمه. وكذلك قوله: **ذو مرة**، وهي شدة القتل. قال الشاعر:

---

1 ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ (سورة الحج، ٣١/٢٢).

2 ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ (سورة الطور، ٤٩/٥٢).

3 صحيح البخاري، الحيل ١٠؛ وسنن ابن ماجه، الأحكام ٥.

4 سورة الرحمن، ١/٥٥-٢).

تـرى الـرجـلَ الـنحيف فـتَـزْدَريـه وحَـشْـوُ ثـيـابـه جَـلْـدٌ مَـريـر.[1]

أي قويّ. وقوله: فاستوىٰ، يحتمل أن يكون المعنى، فاستوىٰ، المتعلم لقوة المعلِّم على تعليم من شاء ما شاء،[2] إذ لا معلم إلا الله سبحانه، لقوله: عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.[3] ويحتمل أن قوله: / فاستوىٰ، إخبار عن الله سبحانه، لأنه لم يعبر بهذه العبارة لغير الله [٤١٨ظ] عز وجل. وكذلك قوله: وهو بالأفق الأعلىٰ، أي هذا البعيد سبحانه هو[4] القريب فهو العليّ، بالأفق الأعلىٰ، وهو الذي دنا بغير انتقال فتدلّى. والدنوّ هو إلى سدرة المنتهى[5] في المرتين، لأنها من جهة المخلوقين منتهى ما يصلون إليه. ولولا دنوّ الحق تعالى إليها لما رأى عندها بشر ولا ملكٌ ما يرى. والآفاق النواحي واحدها أفق، وهو كقوله: وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ،[6] تعريفا للعباد بعلوّ الشأن وهو المنزَّه عن الجهة والمكان. ومنه قوله تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ،[7] وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ.[8]

فقوله: ثم دنا، عائد على الله سبحانه دنا في علوّه وعلا في دنوه، فهو القاصي الداني كما هو الظاهر والباطن.[9] وإذا نظر المتأمل إلى من له الغِنى المطلق والعلوّ المحقق ثم مع هذا دنا في علوه إلى أن خلق شَاهَدَ سائرَ الذوات بعدد[10] ذرات[11] الكائنات ساجدة له معترفةً بالتقصير عن شكر الإيجاد فقط. فيا ليت شِعْري بأي مقام تقوم وعلى أيّ قَدَمٍ حتى تؤديَ شكر الأُولى من النِّعَم، وذلك إيجادها من العدم. فكيف وقد منحها بالبقاء، وفتح لها باب الارتقاء إلى أن وعدها باللقاء. فسبحان من علا فارتفع عن كل ما تشير إليه الأفهام أو تومئ إلى نحوه الأوهام. ثم دنا، فابتعد كلَّ مفطور[12] من الأرواح والأجسام، فتدلىٰ، ولهذا قال بتاء الافتعال.[13] وعطف بالفاء فقال:[14] فكان،

---

١ لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه:

تـرى الـرجـلَ الـنحيف فـتـزدريـه
وحـشـوُ ثـيـابـه أسـدٌ مـريـر.

انظر: اللباب لابن عادل، ١٨/١٥٩.

٢ ك: بما شاء.

٣ سورة العلق، ٩٦/٥.

٤ ك ن: وهو.

٥ لعل المؤلف يشير إلى الآية ١٤ من هذه السورة.

٦ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٣).

٧ سورة الحديد، ٥٧/٤.

٨ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (سورة ق، ٥٠/١٦).

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (سورة الحديد، ٥٧/٣).

١٠ ن: بعد.

١١ ك: ذوات.

١٢ ك: كل منظور.

١٣ أي بتاء المطاوعة. | التدلّي: النزول من العلوّ. قال الفراء: ثم دنا جبريل من محمد فتدلى، كأن المعنى ثم تدلى فدنا، قال: وهذا جائز إذا كان المعنى في الفعلين واحدا. وقال الزجاج: معنى "دنا فتدلى" واحد، لأن المعنى أنه قرب فتدلى، أي زاد في القرب (لسان العرب، «دلا»).

١٤ ك – فقال، صح هـ.

من محمد صلى الله عليه وسلم، قاب قوسين أو أدنىٰ، أي في باب التمثيل. وقيل: القاب هو ما بين السِّيَةِ[1] والقبضة. وقيل: القاب من حيث الوَتَر[2] إلى صدر القوس. والقصد من هذا الكلام مَثَلٌ، أي على ما تقدّرونه أنتم من القرب من المكرَم والمكرِم.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

فأوحىٰ، الله، إلىٰ عبده، محمد عليه السلام، ما أوحىٰ. وقوله: ما كذب الفؤاد ما رأىٰ، أي من الآيات. لمّا ذكر الوحي بقوله: ما أوحىٰ، ذكر "الفؤاد"، لتعود الرؤية إليه حين الوحي ويكون المرئيّ غير الوحي الموحَى، أعني غير القرآن، لأنه ههنا هو الوحي. ولهذا قال بعده: مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ،[3] ثم بيّن أن المرئيَّ غير القرآن وذلك بقوله: لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ،[4] ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يَعرف الكتابة.[5] وقوله: ما كذب الفؤاد، أي صاحب الفؤاد ما كذب فقال: رأيت ولم يرَ، تقول:[6] ما كذب قلبي فيما رآه من القضية الفلانية، بمعنى أنه صح ما زعمت فيها وما ظننته بها.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾

أفتمٰرونه علىٰ ما يرىٰ، أي «ليس الخبر كالعِيان».[7] وقوله: ولقد رءاه، إشارة إلى ما رآه أولا بقلبه رآه ثانيا بعينه. وهذا على رأي مَن يزعم أن المعراج كان أولا نوما وثانيا يقظةً. وفسّر الجميعَ بقوله عن المرئي: لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ،[8] وليس المراد أنه عليه السلام رأى الله أو رأى القرآن، لأن القرآن وحي وقد تقدم قولُه: فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ،[9] وفرغ الكلام عن الموحَى ولا يلزم أنه في ذلك الزمن أوحى إليه جميع القرآن بل ما أوحى. ثم بعد ذلك ذكر ما رآه النبي عليه السلام من الآيات بقلبه. ثم رأى بعد ذلك بعينه، نزلة، في نزلة، أخرىٰ، وسمّي ذلك نزولا وتدلّيا ودنوًّا بعبارة معلومة

[1] سِيَة القوس طرفُ قابها، وقيل: رأسها، وقيل: ما اعوجّ من رأسها وهو بعدَ الطائف (لسان العرب، «سيا»).

[2] الوتر: شِرْعة القوس ومعلّقها (لسان العرب، «وتر»).

[3] الآية ١٧ من هذه السورة.

[4] الآية ١٨ من هذه السورة.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩).

[6] ن: نقول.

[7] لعل المؤلف يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العِجْل، فلم يُلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٧١/١).

[8] الآية ١٨ من هذه السورة.

[9] الآية ١٠ من هذه السورة.

في التخاطب ليُفهَم المراد باللفظ المعتاد، كقوله: يَدُ ٱللَّهِ،[1] وقوله: بِأَعۡيُنِنَا[2] وغير ذلك. ومن علم أن المُلْك والملكوت آيات دالات على الصانع، وأنه تعالى يتعرف إلى عباده بما يُشهدهم / من آياته تارة بقلوبهم وتارة بأعينهم، وأن التعرف بحسب الأشخاص، [٤١٩و]
وأن المتعرف لا يحاط به ولا يَتَناهى علم أن التعرفات لا تُحصَر ولا تتناهى، وتحقق أن لله رجالا يتعرف إليهم بالأبصار والبصائر في الآفاق وفي أنفسهم، فهم يرون الآيات بالقلب والعِيان، ويرون برؤيتهم لها صانعها ولكن بالإيمان. وإذا كان بعض الناس له هذا الحال فما ظنك بسيد الرجال!

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾

ولمّا كانت الآيات[3] في النزلة الأولى مرئية بالفؤاد وفي النَّزْلَة الأخرى مرئية بالبصر، وكانت الآيات المشهودة بالبصائر لا تتناهى لم يعبّر عن الآيات المشهودة في الأولى بما له منتهى، بل عبّر عن الآيات المرئية في النَّزْلَة الأخرى بقوله: **عند سدرة المنتهىٰ**. قيل: إليها تنتهي رؤية الملائكة والأنبياء. **عندها جنة المأوىٰ**. والمفهوم من هذه العبارة أنه مع الدنوّ من الخالق [فيها] علوّ من المخلوق، لأن الرؤية عند سدرة المنتهى، وإلى ههنا كان المعراج. وقيل: السدرة عبارة عن الكون وما يتفرع منه كما يتفرع من الشجرة. وقيل: هي عبارة عن جسد الإنسان، لأن آدم آخر الكون وهو نسخة العالم الأكبر، وهو المعبر عنه بـشَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ، فتارة مثّلها بقوله: زَيۡتُونَةٖ،[4] وتارة بقوله: سدرة. وهذه تأويلات[5] استغنينا بفهم المراد منها عن البحث عنها. ومن أراد أن يتّبع ما قيل فعليه أن يصحح الدليل.

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾

واستدل القائل الثاني بقوله تعالى: **إذ يغشى السدرة ما يغشىٰ**. فقال: **إذ يغشىٰ** البدن، لأنه نهاية المخلوقات الجسمانية بعد خلق السماوات والأرض وما فيهما.

١ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ (سورة المائدة، ٥/٦٤). وانظر أيضا: سورة الفتح، ٤٨/١٠.

٢ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ (سورة هود، ١١/٣٧. وانظر أيضا: سورة المؤمنون، ٢٣/٢٧؛ وسورة الطور، ٥٢/٤٨.

٣ ك ن: الآية.

٤ ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ (سورة النور، ٢٤/٣٥).

٥ ك: تأولات. وفي هامش ك: تأويلات.

فأشار إلى غيبة النبي عليه السلام عن حواسه عند غِشْيان السكينة ونزول الوحي. والقول الأول أشبه. وكل هذه التأويلات ليس لنا أن نخوض فيها بغير دليل من الكتاب. والله أعلم بالصواب. ويجب أن تعلم أن المرئي بالجارحتين في النزلتين ليس إلا آياتِ القدرة وآثارَ الرحمة. ولكن المدلول عليه بسائر الآيات إيمانا وعِيانا هو الله الواحد المتعرِّف بالكل إلى الكل. ولهذا قال عن الرأي بقلبه في النزلة الأولى: مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ،[1] وعن المبصر بعينه في النزلة الأخرى: ما زاغ البصر، وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم رأى بعينه وقلبه آياتٍ دالّاتٍ على المتعرف بها. فمنها ما لا يقال وهي المشار إليها بقوله: مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ،[2] ومنها ما قد يقال وهو المعبر عنه بقوله: ما زاغ البصر، أي لم يَمِلْ عن رؤية ما قصد به إلى رؤية غيره. وإيضاح ذلك أن الصنعة آية دالة على الصانع. فكان صلى الله عليه وسلم كلّما رأى صنعة عيانا رأى برؤيته لها صانعها إيمانا، فما زاغ بصره عن الغاية بما رآه من الأُية بل رآها آية فقط. ومعنى قوله تعالى: وما طغىٰ، أي رأى الأشياء على ما هي عليه من غير زيادة، كمن رأى المصنوع صانعا فزاد عليه غيره، كقوله: إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ،[3] أي زاد. فالفؤاد ما مان[4] والبصر ما مال.

ولمّا كانت المشاهدة حضورا في عالم الغيب -وذلك فوق الأقوال والمحادثة- علامةَ الانصراف إلى عالم الشهادة، وتلك بضرب الأمثال، وكانت المحادثة بعد المشاهدة ذِكَرَ المشاهدة بالآيات المرئية إيمانا. وذلك قوله: مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ؛[5] وذكر المحادثة بالآيات المتلوّة قرآنا. وذلك قوله: فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ.[6]

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾

ولمّا رأى صلى الله عليه وسلم بالإيمان والعيان أكبر ما في الإمكان من طاقة الإنسان قال تعالى مخبِرا عنه: لقد رأىٰ من ءايٰت ربه الكبرىٰ، تقديره عظائمَ وعجائبَ وما لا يُحصَى.

[1] الآية ١١ من هذه السورة.

[2] ش - ما رأىٰ وعن المبصر بعينه في النزلة الأخرى ما زاغ البصر وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم رأى بعينه وقلبه آيات دالات على المتعرف بها فمنها ما لا يقال وهي المشار إليها بقوله ما كذب الفؤاد.

[3] ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ (سورة الحاقة، ١١/٦٩).

[4] مان: كذب (تاج العروس للزبيدي، «مين»).

[5] الآية ١١ من هذه السورة.

[6] الآية ١٠ من هذه السورة.

والمفهوم من هذه الجملة أن المعراج كان مرّتين كما قيل، نوما أوّلا لِتَتَوَطَّن النفس على هذه المشاهدة الهائلة، وثانيا يقظة. ولا يدل النص على نوم بل على
[٤١٩ظ] أن إحدى الرؤيتين / بالقلب، فيكون المعراج روحانيا، والأخرى بالعين فيكون الثاني جسمانيا، أعني بالجسم، والله أعلم. فهذا على تأويل من يقول: إن محمدا عليه السلام رأى ربه سبحانه وآياته.[1] وقد بيّنّا في سورة كورت[2] تفسير هذه الآيات بعينها على تأويل من يقول: إن الرؤية لم تكن في النزلتين إلا لجبريل وبه نقول، فافهمه هناك.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

ولمّا ذكر رؤيته صلى الله عليه وسلم لِما رآه ذكر رؤيتهم لِما يشركون به مع الله تعالى فقال: أفرأيتم اللّٰت، وهو اسم مشتق من النقص والفوت، من لات الذي مستقبله[3] يلوت ويليت، وسمِّي بذلك للمبالغة في صفته؛ كما قلنا في صنع يَصنَع، فإذا أردنا المبالغة في وصف صانع بكثرة الصنائع قلنا: صِنْعٌ.[4] وهذا من محتملات اللفظ لغة. وقيل: اللات صنم كانت ثقيف[5] تَعبده. والعزىٰ، كانت تَعبدها غَطَفان،[6] وهي شجرة عظيمة. ومنوٰة، كانت صخرةً عظيمة لهذيل[7] وخُزاعة[8] يعبدونها. وقيل: الجميع أصنام من حجارة. وسبب عبادتهم للأحجار أن عظماءهم لمّا ماتوا عمل لهم أولياؤهم صُوَرا منحوتةً من الحجارة على صورة الذي مات ليتذكر بها الناس ذلك الميت لجلالة قدره فيهم، كما يُصوِّر النصارى صورة إبراهيم عليه السلام وغيره. ثم جاء الطوفان وبقيت بعده حجارة كبارٌ من هذه الأصنام المنحوتة، فاستمر الجُهّال على المُضِيّ إليها وعلى التقرّب بها، فعبدها بعض الناس فاستمر الضلال بها وبأمثالها. وقوله: الثالثةَ الأخرىٰ،

---

١ ك ن: أو آياته.

٢ انظر: سورة التكوير، ٨١/٢٣-٢٩.

٣ ك: مستقبلة.

٤ وصِنْعُ اليدَيْن: أي صانعٌ حاذق (لسان العرب، «صنع»).

٥ بنو ثقيف: بطن من هوازن من العدنانية، واشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم ثقيف (نهاية الأرب للقلقشندي، ص ١٩٨).

٦ بنو غَطَفان: بطن من غيس عيلان من العدنانية (المرجع السابق، ص ٣٨٨).

٧ بنو هذيل: بطن من خندف من مضر. وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس، وهما ابنا خندف من مضر (المرجع السابق، ص ٤٣٥).

٨ بنو خزاعة: قبيلة من الأزد من القحطانية. وهم بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مزيقياء (المرجع السابق، ص ٢٤٤).

لا يدل على أن الثلاث إناث بل من عادة العرب أن يسمّوا كلَّ مصنوع أنثى. فأراد أن آلهتهم مصنوعة، فكيف يُشركون المصنوع مع الصانع وهم لا يرتضُون مشاركة الإناث وإن كانوا مثلهم في الخلقة، أعني بشرا. فلهذا بعده: **ألكم الذكر وله الأنثىٰ، تلك إذا قسمة ضيزىٰ**، ضِزْتُه حقه أضيزه[1] وضأزته إذا نقصته.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾

إن هى، أي اللات والعزى ومناة، **إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم**، أي أسماء فقط؛ **ما أنزل الله بها من سلطٰن**. ثم أخبر عنهم بقوله: **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدىٰ. أم للإنسٰن ما تمنىٰ**، قال: بمعنى أَلِلْإِنْسَانِ[2] أن يقول ما شاء بغير دليل، فكيف يقول هؤلاء أن آلهتهم شركاء وليس لهم شيء؟

﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

وكم من ملك فى السمٰوٰت، فضلا عن أصنام في الأرض، **لا تغنى شفاعتهم شيئا**، من العذاب فتدفعه عمن فيه الشفاعة، **إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء**، لهم أن يشفعوا فيه، وهو معنى [قوله:] وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ،[3] أن يشفعوا فيه، **ويرضىٰ**، أي ويرضاه[4] وحذف للوِزان. ويحتمل "ويرضى" الشفاعة فيه. والمعنى إذا كانت الملائكة لا تغني شفاعتهم فكيف تغني من الأصنام عبادتَهم. ولمّا ذكر الملائكة ذكر من كفرِ الكفار وما يتعلق[5] بالملائكة، لأن منهم من عبد الملائكة وجعل الآلهة المصنوعة عبارة عن الملائكة المعبودة له، فعبدوا تلك الحجارة لكونها تماثيلَ الملائكة تقربا بملائكته إليه، كقوله: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا.[6] فهذا معنى قوله: وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ

---

[1] ن: أضزه.

[2] ش ك: الإنسان.

[3] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢٨).

[4] ن: يرضاه.

[5] ك ن: ما يتعلق.

[6] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣).

هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا، أي جعلوها أصناما مصنوعة لهم، وشهدوا لها باستحقاق العبادة، لهذا قال: أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ، أي بخلقهم، بمعنى كيف يشهدون بالإلٰهية[1] لما عملَتْه أيديهم، كقوله: أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ.[2] ولهذا بعده: سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ.[3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾

[٤٢٠و] وهو معنى / قوله ههنا: **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملٰئكة تسمية الأنثىٰ**، أي المصنوع للبشر، أي يسمّون الملائكة آلهة كما أنهم يسمون مصنوعاتهم آلهة. ولهذا قال: تسمية، فافهم العبارة جيدا. فقد بان لك كيف كانت عبادتهم للملائكة، وكيف يعبد أكثر الناس الجنَّ بصورة أخرى كما بيّنّاه في موضعه.[4]

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾﴾

وما لهم به من علم، ليس المراد أنهم يفعلون ذلك وهم لا يعلمون، بل يفعلونه[5] بغير حجة من علم، لأن الفعل يتبع العلم. ولهذا بعده: **إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا**، أي لا يغني عن شيء من الحق.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال لنبيه عليه السلام: **فأعرض عن من تولىٰ عن ذكرنا**، القرآن، **ولم يرد إلا الحيوٰة الدنيا**.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

ذٰلك مبلغهم من العلم. لمّا كان العلم متقدما على العمل لزم أن يكون العمل مخبرا عن مبلغ العالم من العلم، والمَبْلَغ هو ما يبلغ إليه السالك. فمن كان عمله للشهوات الفانية وهو يدّعي أنه بلغ من العلم إلى مبلغ طلاب الآخرة فهو متشبّه كذّاب، وشبيهه فيما يُظهره عن نفسه صاحبُ الخيال الذي يُخرج ملوكا وشُجْعانا وليسوا بشيء. **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدىٰ**.

---

[1] ن: الإلٰهية.

[2] ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ (سورة الصافات، ٩٥/٣٧).

[3] سورة الزخرف، ١٩/٤٣.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٤١ من سورة سبأ. وانظر أيضا: سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

[5] ك: بل يفعلون.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

ولله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض، فأمر[1] العباد ونهاهم، ليجزى الذين أسٰـُٔوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنىٰ.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

الذين يجتنبون كبٰئر الإثم والفوٰحش، كلها. ثم قال بالاستثناء المنقطع: إلا، بمعنى لكنّ اللمم، وهو الإلمام بالذنب، ثم يتوب. وسنبين كيف ذلك وما اللمم. وإنما ذكر، كبٰئر الإثم والفوٰحش، ليُعلم أن الذي يُلمّ إنما ألمّ بالصغيرة[2] وهو معنى [قوله:] إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ.[3] وأصل اللمم مأخوذ من اللمّ[4] وهو[5] الجمع. تقول: لمّ الذهبَ إذا جمعه وقرّب بعضه إلى بعض. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «وإن مما يُنبت الربيعُ لَمّا يقتل حَبَطًا»،[6] أو يُلِمّ، أي يقرّب. ويجب أن تفهم[7] أن اللمة أصلها في كلام القوم المتعارف بينهم من قولهم: ألمّ بمكانِ كذا، إذا نزل به على غير إقامة. ولا يقال ذلك لمن مرّ عليه. ولهذا قال الشاعر:

[ولا أعدَّتْ من الفعل الجميل قِرَى] ضَيفٍ ألمّ برأسي غيرِ مُحتشِمِ.[8]

يعني الشيبَ، لأن من ألمّ يرتحل ولا يقيم، فهو[9] صفة الضيف. فليس المعنى المراد بالاستثناء أنهم لا يجتنبون، بل إنهم يجتنبون[10] كبائر الإثم والفواحش كلَّها،

---

١ ن: قام.

٢ ن: الصغير.

٣ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (سورة النساء، ٣١/٤).

٤ ش: من اللمم.

٥ ن: هو.

٦ عن أبي سعيد الخدري قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس، فقال: «لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا». فقال: له رجل: يا رسول الله! أيأتي الخير بالشر؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة، ثم قال: «كيف قلت؟» قال: قلت: وهل يأتي الخير بالشر؟، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير، أو خيرٌ هو؟ إن كلّ ما يُنبت الربيعُ يقتل حبطا أو يُلِم...» (سنن ابن ماجه، الفتن ١٨). «وإنّ مما يُنبِت الربيعُ ما يَقْتل حَبَطاً أو يُلِمُّ». وذلك أن الرَّبيعَ يُنبِت أحرار العُشب، فتَسْتكثِر منه الماشية» (النهاية لابن الأثير، «حبط»).

٧ ن: أن نفهم.

٨ البيت لمحمد بن سعيد البوصيري. انظر: قصيدة البردة، ص ٦.

٩ جميع النسخ: فهي.

١٠ ن – بل إنهم يجتنبون.

لكن إذا نزل أحدُهم بصغيرة فإنه لا يقيم عليها بل يُقلع عاجلا. فافهم هذا جيدا. ودل على[1] الإقلاع والتوبة بقوله: إن ربك وٰسع المغفرة، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، فيه إشارة إلى آدم وما جرى منه وإن كان المراد أنه سبحانه أعلم بنا من حين آدم عليه السلام. وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهٰتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقىٰ، أي إن الذي ألمّ وإن كان بصغيرة فإنه غير زكيّ ولا تقيّ حال الإلمام بها، لكنّ الله واسع المغفرة بشرط التوبة، لقوله:[2] وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ.[3]

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

ولمّا أعاد الجميع إلى التقوى التي هي اجتناب المخالفة أمرا ونهيا كما بيّنّا قال بعده: أفرأيت الذى تولىٰ، عن التقوى، وأعطىٰ قليلا وأكدىٰ، من الكُدْيَة وهي حجر تَظهر في البئر عند حفره فتؤيس من الماء. والمعنى أنه منع العطاء منعا تاما. أعنده علم الغيب، أنه يعيش إلى أن ينفق ماله، فهو يرىٰ، البخل حزما، أو يرى[4] أن الله غير مُخلف[5] ولا مُجازٍ.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

أم لم ينبأ بما فى صحف موسىٰ، وإبرٰهيم الذى وفّىٰ، العطاءَ ووفى في ذبح ولده، إذ امتحنه الله به. والمعنى ألم يرَ في صحف الأولين: ألا تزر وازرة وزر أخرىٰ، وأن ليس للإنسٰن إلا ما سعىٰ، / وأن سعيه سوف يرىٰ، له. وهو من باب فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ.[6] [٤٢٠ظ]

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

ثم يجزىٰه، يجزى الساعي سعيه، الجزاء الأوفىٰ، وأن إلىٰ ربك المنتهىٰ، وأنه هو أضحك وأبكىٰ، أي خلق القوتين اللتين بهما يكون الضحك والبكاء، كما تقول:

---

[1] ن – على.

[2] ك – بها لكن الله واسع المغفرة بشرط التوبة لقوله، صح هـ.

[3] ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (سورة طه، ٨٢/٢٠).

[4] ن: ويرى.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ (سورة سبأ، ٣٩/٣٤).

[6] سورة الزلزال، ٧/٩٩.

الله أنطق، ولا يلزم أن تكون مجبَرا على ما تنطق به. ولو كان كذلك لما نسب النطق إليك بقوله: تَنطِقُونَ،[١] وقد نسبه إليه بقوله: أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.[٢]

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

وأنه هو أمات وأحيا، من قوله في البقرة: وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ.[٣] فالمراد[٤] هذه الحياة الدنيا. ولهذا بعده: وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ من نطفة إذا تمنىٰ، أي حين تُخرَج منيّا يخلقها إما ذكَرا أو أنثى. وأن عليه النشأة الأخرىٰ، وأنه هو أغنىٰ وأقنىٰ، أغنى إذا أغناه عن مسألة سواه وإن لم يكن له قِنْية.[٥] وأقنى إذا كانت له مُقْتَنيات، ولا يكون ذلك إلا بعد الغنى. وأنه هو رب الشعرىٰ، وهو النجم الذي خلف الجَوْزاء[٦] وهو إحدى كوكبي ذراع الأسد وفم المِرزَم.[٧] وقيل: إنهم كانوا يعبدونه، ولطلوعه أحكام مخصوصة عندهم بطلوعه في تاريخ معلوم من كل سنة. وذلك مما يذكره أصحابُ التقاويم إلى يومنا هذا. ومن الناس من يزعم أن الكوكب هو المؤثر، فعرّفنا الله أنه هو رب هذا المؤثر بزعم مَن يزعم أن له أثرا، وأنه رب يُعبد.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

وأنه أهلك عادا الأولىٰ، قبل ثمودَ، وثمودا فما أبقىٰ،[٨] منهما أحدا في الإهلاك، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغىٰ، ممن بعدهم. ولهذا كان إهلاكهم عظيما ليس له مِثلٌ.

---

١ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٢٣).

٢ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢١).

٣ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨).

٤ ن: والمراد.

٥ القِنية/القُنية: الكِسْبة (لسان العرب، «قنا»).

٦ الجوزاء نجم يقال: إنه يعترض في جوز السماء، والجوزاء من بروج السماء (لسان العرب، «جوز»).

٧ قال ابن كُناسَة: المِرزَمان نجمان وهما مع الشِّعْرَيَيْنِ، فالذراع المقبوضة هي إحدى المرزمين، ونظم الجوزاء أحد المرزمين، ونظمهما كواكب معهما فهما مرزما الشِّعْرَيَيْنِ. والشعريان نجماهما اللذان معهما الذراعان يكونان معهما (الجوهري)، والمِرزمان مرزما الشعريين. وهما نجمان أحدهما في الشعرى والآخر في الذراع. ومن أسماء الشمال أم مِرزَم. أمّ مرزم: ريح الشمال. وقال ابن سِيدَه: إنه الريح، ولم يقيده بشمال ولا غيره. وقال اللحياني: المرزم من الغيث والسحاب الذي لا ينقطع رعدُه (لسان العرب، «رزم»).

٨ ش ك + بمعنى فما أبقى.

وكان إهلاكُ آل فرعون من جنسه. والمؤتفكة، المُنقلِبة، وهي قرية لوط عليه السلام أهوىٰ، من الهويّ وهو السقوط والاستِفال. فغشّٰها ما غشىٰ، كقوله: فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ.[1] وكذلك مدينة لوطٍ عليه السلام، لأنها مُغرَقَة في ماء كماء البحر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾

فبأيّ ءالاء، نعماء، ربك تتمارىٰ، من المِراء وهو الخُلْف والشك. والخطاب للإنسان الذي قد يستحق ما استحقه أحد الأمم المذكورة بكفره وقد أمهله الله عز وجل. ثم ذكر أكبرَ النِّعَم بقوله: هٰذا نذير من النذر الأولىٰ، فمن كذّب به إذا لم يلحقه ما يستحقه من العذاب المعَجَّل فإنه لا يفوته العذاب المؤَجَّل.

﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

أزفت الآزفة، بمعنى كأنكم وقد دنتِ الدانيةُ وهي الساعة. ليس لها من دون الله كاشفة، أي ليس لعذابِها الواقع على الأنفس نفسٌ كاشفة، وأنّث[2] بقوله: "كاشفة"[3] دلالةً على النفس ليَعُمَّ الذكرَ والأنثى.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

أفمن هٰذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سٰمدون، أي وها أنتم سامدون؛ وهو من سَمَد يَسْمُد فهو سامد،[4] أي عالي الرأس. ولهذا بعده: فاسجدوا لله واعبدوا.

---

[1] ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (سورة طه، ٧٨/٢٠).
[2] ش: وأنت.
[3] ك - وأنث بقوله كاشفة، صح هـ.
[4] ن: سامدا.

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾

لمّا قال: أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ،[١] كان المنظوم تِلْوَها من جنس الكلام: اقتربت الساعة وانشق القمر، أي كأنكم بذلك وقد وقع. وأما ما نُقل من انشقاق القمر،[٢] فإن صحّ النقل فذلك على طريق المعجزة لقوم مخصوصين. وليس مراد الآية ذلك، لأن القمر عاد كما كان. والمراد انشقاق مقرون بقيام الساعة. والقرآن لم يشهد إلا بخلاف المنقول، وذلك قوله: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ،[٣] وتمام الكلام في ذلك. وكذلك قوله تعالى: فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ.[٤] وكذلك قوله: فَلۡيَأۡتِنَا / بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ،[٥] وغير ذلك مما يدل على أنه عليه السلام لم [٤٢١و] يأت بآية كما أُرسل الأولون. والحكمة في ذلك أنه عليه السلام لو أتى بآية فلم يؤمنوا لاستحقوا الاستئصالَ، وهذا رسول رحمة لا نقمةٍ سوى أنه نذير. ولهذا منّ الله عليهم بقوله: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ.

فإن قيل: هذا جرى وشاهده أقوامٌ ثقاتٌ. قلنا: إن الله على كل شيء قدير. ونبي الله لا يُنكَر له انشقاق القمر والشمس والسماوات، لكن ذلك إن صح فهو حجةٌ على من رآه، ولا حجةَ به على الكفار ولا حاجة به للمؤمنين، والآية ههنا لا تشير إليه. ولهذا لم يقل: وقد أريناهم بل:[٦] وإن يروا ءاية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، أي من قديم.

﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣﴾

---

[١] سورة النجم، ٥٣/٥٧.

[٢] انظر مثلا: صحيح البخاري، تفسير القرآن ٥٤/١ (سورة القمر ١)؛ وسنن الترمذي، تفسير القرآن ٥٤/١-٥ (سورة القمر ١-٥).

[٣] ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٥٩).

[٤] ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٣٥).

[٥] ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٥).

[٦] ن - ولهذا لم يقل وقد أريناهم بل.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

ولقد جاءهم من الأنباء، أي من أنباء من أريناه آياتنا فكذب بها فاستأصلناه، **ما فيه مزدجر**، ينهاه عن اتباع المكذبين قبله. **حكمة بٰلغة**. **فما**، نافية، **تغن النذر**، أي عن قوم لا يؤمنون.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦﴾

فتول عنهم، بمعنى دَعْنِي وإياهم بعد ما قد أدّيتَ الرسالة إليهم. **يوم يدع الداع إلىٰ شىء نكر**، ينكره الرائي له، لأنه لا يعرفه ولم ير مثله.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾

خشعا، وهي صفة للأبصار، لأن عزة العزيز وذلة الذليل تَظهر في بصره، لهذا[1] قال: **أبصٰرهم**. **يخرجون من الأجداث**، المعنى يخرجون -وحالتُهم هذه- مُنخفِضةً أبصارُهم. وقدَّم ذكر الأبصار على الخروج لئلا يبقى الخشوع كأنه صفة للجراد، ولأن العرب تُقدّم الصفة على الموصوف للاهتمام والمبالغة، تقول: كريمٌ زيدٌ، وكذلك تُقدِّمهما على الإخبار كما ههنا. وبين أنهم في خروجهم من القبور، **كأنهم جراد منتشر**، **مهطعين**، مُسرِعين **إلى الداع**. **يقول الكٰفرون هٰذا يوم عسر**، عليهم.

﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠﴾

كذبت قبلهم قوم نوح، بالقيامة والجزاء، **فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر**، من قومه، وذلك قولهم: لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ،[2] الآية. **فدعا ربه أنِّي مغلوب فانتصر**، لدينك.

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾

ففتحنا أبوٰب السماء بماء منهمر، ففتحنا بغير تشديد، لأنها لم تُفتَح سوى مرة واحدة ثم استمرت إلى أن أُمرت. ومن قرأ بالتشديد[3] أراد المبالغة في الفتح، كقوله:

---

[1] ش: فلهذا.

[2] ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ (سورة الشعراء، ١١٦/٢٦).

[3] شدد التاء ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، وخففها غيرهم (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٠٩).

مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ.[١] وقوله: منهمر، هو كمنهمل ومندفق، وكأنَّ ما ينصبّ ويَظهر له عند انصبابه صوتُ همير كما يَهمِر الفرسُ.[٢]

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾

وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء، الصاعد من الأرض للماء النازل من السماء، فالتقى الماء للماء، إذ لم يَبْقَ أرضٌ ولا شيء مما فوقها فالتقى الماء من جوانبها ومن فوقُ ومن أسفلَ، **علىٰ أمر قد قدر،** بقدر معلوم.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾

وحملنٰه علىٰ ذات ألوٰح ودسر، وهي مَسامير من حديد لكنها ليست على صُوَر المسامير، وهي ما يوضع بين الدفين ليضبطهما، ويسمونها النجارون بفتح السين، ويقال: دسره إذا دفعه.[٣] والحديث في العنبر «إنما هو شيء دسره البحر».[٤] **تجرى بأعيننا،** أي بمَرْأى منا، **جزاء لمن كان كفر،** أي كُفر به وهو نوح عليه السلام.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾

ولقد تركناها، أي تلك الفعلة. ويحتمل السفينة بمعنى لأمثالها من السفن، ءاية، أي ليتذكر رُكّابُ السفن بها. **فهل من مدكر،** ما جرى من ذلك لمن آمن من النجاة ولمن كفر من الإغراق.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾

فكيف كان عذابى ونذر، وهي جمع نذير، أي فكيف رأيتم عذابي للمكذبين ونعمتي بالنجاة للمنذرين. وتارة تأتي النذر بمعنى الإنذار.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾

---

١ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۞ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ (سورة ص، ٣٨/٤٩-٥٠).

٢ هَمَر الفرس الأرض يَهْمِرها همرا: ضربها بحوافره شديدا. وقيل: حفرها بها (تاج العروس للزبيدي، «همر»).

٣ قال ابن سِيدَه: دسره طعنه ودفعه (لسان العرب، «دسر»).

٤ وفي حديث ابن عباس وسئل عن زكاة العنبر فقال: إنما هو شيء دسره البحر أي دفعه موج البحر وألقاه إلى الشط فلا زكاة فيه (صحيح البخاري، الزكاة ٦٥؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٤/١٤٦).

ولقد يسرنا القرءان للذكر، لأجل التذكر به، فهل من مدكر، به ما جرى لنوح وقومه، وأصل اللفظة مُذْتكِر.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾

إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس، من حُفَرٍ حَفَروا لأنفسهم تَكِنُّهم من الهواء. لهذا قال مشبها: كأنهم / أعجاز نخل منقعر، أي قُلع من قعر، وهذه هي الأيام المعروفة بأيام الأعجاز مشتقة من العَجْز. والوجه في إعادة [قوله:] ولقد يسرنا القرءان، أنه في كل قصة وقصة يريد أن يُذكّر بالقرآن لمن يأتي من أمثال أهل تلك القصة[1] في بقية الزمان. كأنه قال: فهل من مدكر من الآتين ما جرى لأمثاله من الماضين. ولما كان هذا النبي مبعوثا إلى سائر الناس وكان في الآتين من هو على سنَّةِ الماضين لزم أن يكون التَّذْكار بالماضين من أهل الأعصار، فلزم التكرار من أجل الترهيب والإنذار. ولهذا لم يَتْلُ[2] إلا قِصص المكذبين.[3] [٤٢١ظ]

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣﴾

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾

فقالوا أبشرا منا وٰحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلٰل وسعر، وهو الجنون. يقال: ناقة مسعورة، وقد بيّنّاه.[4] أءلقى الذكر عليه من بيننا، أي كيف يكون ذلك ونحن أولى منه، بل هو كذاب أشر.

﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧﴾

---

[1] في هامش ك: الصفة.

[2] ش: لم يقل.

[3] ش – إلا قصص المكذبين.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٤٧ من هذه السورة.

فقال الله تعالى: سيعلمون غدا من الكذاب الأشر، البَطِر الذي لا يبالي ما قال، ويقال بالضم. ومثله يَقِظ، وعجِل،[١] ونَجِد،[٢] وحَذِر،[٣] والمعنى واحد. إنا مرسلوا الناقة فتنة، محنة، لهم. فارتقبهم، فارتقب ما يجرى لهم وهو من المراقبة. واصطبر، على تكذيبهم لك.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾

ونبئهم أن الماء قسمة بينهم، وبين الناقة. كل شرب محتضر، على غير صاحبه. والشرب بالكسر النصيب والحظ[٤] من الماء، وبضم الشين فعل الشارب. وحاضرتُه بالضاد جانبته عند السلطان، فالمحتضِر المجتنب. فنادوا صاحبهم، بالحضّ على عَقْرها، فتعاطىٰ، القدرة على عقرها، فعقر، الناقة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾

فكيف كان عذابي ونذر. وهذا كما تقول[٥] لصاحبك: سَلْني كيف كان عملي مع عدوي وصديقي، ثم تقول: أهلكت العدو وأحسنت إلى الصديق. إنا أرسلنا عليهم صيحة وٰحدة فكانوا كهشيم المحتظر، المحتظر هو الذي يعمل الحظيرة، وسميت حظيرة[٦] بمعنى الاحتظار وهو الاحتجار والمنع، لأنه يمنع فيها الإبلَ ويَحجُر. والهشيم المتكسر من شجرٍ جُمع في الحظيرة. فإن المحتظر يأخذ ما وَجد ويُلقي بعضَه على بعض كيف اتفق ليسيّج به سِياجا.[٧] فإذا يَبِس وضربتَه بالعصا تَهشّم متناثرا صغارا. فمثّلهم بذلك. ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر، بالقرآن قضيةَ ثمود.

---

[١] قال ابن السكيت في باب فَعُل وفَعِل: رجل يقُظٌ ويقِظ إذا كان متيقِّظا كثير التيقظ فيه معرفة وفطنة، ومثله عَجُلٌ وعَجِل (لسان العرب، «يقظ»).

[٢] رجل نَجُد في الحاجة إذا كان ناجيا فيها سريعا. والنجدة الشجاعة تقول منه نَجُد الرجل بالضم فهو نَجِد مثل يَقِظ. قال ابن سِيدَه: ورجل نَجِد شجاع ماض فيما يَعجز عنه غيره. وقيل: هو الشديد البأس. وقيل: هو السريع الإجابة إلى ما دُعِيَ إليه خيراً كان أو شرًا (لسان العرب، «نجد»).

[٣] ش ك: وجدر. | الحَذِر: المتيقظ (لسان العرب، «حذر»).

[٤] ك ن: الحظ.

[٥] ن – تقول.

[٦] ن – وسميت حظيرة.

[٧] قال أبو حنيفة: السياج الحظيرة من الشجر تجعل حول الكَرْم والبستان وقد سيَّج على الكرم. ويقال: حظَر كرمَه بالسياج وهو أن يسيّج حائطه بالشوك لئلا يتسوَّر (لسان العرب، «سيج»).

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾

إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا ءال لوط نجينٰهم بسحر، نعمةً من عندنا عليهم. كذٰلك نجزى من شكر، من أمثالهم إلى يوم القيامة.

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦﴾

ولقد أنذرهم، لوط، بطشتنا فتماروا، من المِراء وهو الخُلف، بالنُّذُر، جمع إنذار،[1] والأولى أنها جمعُ نذير. وجمع لأن من كذب رسوله فقد كذّب الرسل.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾

ولقد رٰودوه عن ضيفه، كقوله تعالى: هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي.[2] فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر، وهذا نوع أولّ من العذاب، وهو الطمس. وقوله: ونذر، يحتمل[3] ما معناه فذوقوا عذابي وعذاب نُذُري، أي الذي تستحقونه بسبب تكذيب نُذُري، لأنه قال أولا: كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ.[4] ويكون المراد جمع نذير[5] وهو[6] الأولى. ويحتمل أنها جمع إنذار كما قدّمنا،[7] ويكون المعنى كقوله: ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ،[8] أي تكذبون بصحته ووقوعه.

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩﴾

ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر، لم يَمُرّ عليهم بل استقرّ بهم حتى استأصلهم. فذوقوا عذابى ونذر، في الدنيا وهو العذاب الثاني بعد الطمس.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾

---

١ ن: إنذارات.

٢ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ (سورة يوسف، ١٢/٢٦).

٣ ش: محتمل.

٤ الآية ٣٣ من هذه السورة.

٥ ن + لأنه قال.

٦ ش: وهي.

٧ ن: قدمناه. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ١٦ من هذه السورة.

٨ سورة السجدة، ٣٢/٢٠.

ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر، بالقرآن ما جرى لقوم لوط ممن يَفعل أفعالَهم فتَنفعه الذكرى لئلا يَحِلَّ به ما حلّ بهم في الدنيا، أو يئول / أمرُه إلى ما آل [٤٢٢و]
أمرهم إليه في الأخرى.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ۝٤٢﴾

﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾

أكفاركم، يريد من كان منكم كفره مُشْبِها كفرَ المذكورين لاتّباعه أحدَ الأمم المهلَكة بعمله، فهذا معنى قوله: **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر**، أي من العذاب. والزبر، في لغة العرب الكتب، واحدها زبور. والمراد بها ههنا الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وقوله فيما سيأتي: وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ[١] يريد الكتب التي كتبتْها عليهم الحفظة بدليل ما بعده، فكرر صورة اللفظ والمدلول عليه به غير الآخر.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤﴾

أم يقولون نحن جميع، يَدُلّون[٢] بكثرتهم، أي نحن حزبٌ[٣] وجَمْعٌ، **منتصر**، لنفسه.

﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾

سيهزم الجمع ويولون الدبر، على الدبر. وهذا إخبار بما كان قبل أن يكون وبما سيكون إلى يوم القيامة. ثم حذف ما تقديره: ولا يحسبنّ هؤلاء أن عذابهم في الدنيا هو[٤] جزاؤهم فقط. **بل الساعة موعدهم والساعة أدهىٰ وأمرّ**، مما سيجري[٥] عليهم في الدنيا من العذاب ومما يتوهمونه في الآخرة من العقاب الذي تواعدناهم به.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧﴾

إن المجرمين فى ضلٰل، في الدنيا، **وسعر**، جمع سعير، في الأخرى، وأصله[٦] الجنون. يقال: ناقة مسعورة، أي هائجة على وجهها، فالسُعُر مأخوذ من ذلك.

---

[١] الآية ٥٢ من هذه السورة.
[٢] دلّ فلان إذا افتخر (لسان العرب، «دلل»).
[٣] ش ك: حرب.
[٤] ن: وهو.
[٥] ن: مما سيجزي.
[٦] ن: وأصلها.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾

وهو اسم مِن أسماء جهنم. والمسّ من قوله: مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ.[1]

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾

ثم قال تعالى: **إنا كل شيء خلقنْه بقدر**، أي[2] معلومٍ لحكمة بالغة ولم نخلق شيئا عبثا. وتقديره إنا خلقنا كل شيء. ولهذا فتح "كل"، وقدمه في الذكر للاهتمام به. **وما أمرنا**، في إهلاكه إن شئنا، **إلا وٰحدة كلمح بالبصر**.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾

ولقد أهلكنا أشياعكم، الأشياع الجماعات، ونسبهم إليهم لمشابهتهم لهم في الكفر والأعمال المنسوبة إلى كل طائفة من المهلَكين المذكورين ممن تقدم. **فهل من مدكر**، ما جرى للأشياع.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾

وكل شيء فعلوه، الأشياع المهلَكة، **فى الزبر**، أي لم نُهلكهم بظلم منا بل بأفعالهم. **وكل صغير وكبير**، من الأقوال والأفعال لكل ممن خلقنا، **مستطر**، في كتبٍ تسطّره الحفظَة في الدنيا لنجزيهم[3] به في الآخرة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾

إن المتقين فى جنّٰت ونهر فى مقعد صدق، مِن وعدنا. ويحتمل أنه من جهة الصادقين، لأن المَقعد مكان يقعد فيه الصادقون، كما تقول: "دار علم" إن كان يجلس فيها العلماء، و"مقامُ حرب" إذا كان يقوم فيه المحاربون. فهؤلاء من جهة أنفسهم بالتقوى، في مقعد صدق، ومن جهة بارئهم سبحانه وتعالى، **عند مليك مقتدر**، على ما شاء من الإحسان الذي لا تَعلمه نفسُ إنسان.[4]

---

[1] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص، ٣٨/٤١).

[2] ن - أي.

[3] جميع النسخ: ليجزيهم، والمثبت من م.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/١٧).

سورة الرحمٰن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

الرحمٰن، علم القرءان، بدأ بالرحمة، لأنها وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ،[1] وتقدمت عليه. وتلا ذلك بالعلم، لأنه من أبلغ الهيئات التي لا تستحقها العباد بل برحمته أتاهم.[2] ثم ذكر القرآن ونسبه إلى نفسه سبحانه إذ هو المعلم، إعلاما أن لا علم إلا والقرآن يَحتوي عليه، إذ ما عَلِمَه العليم لا جهل معه ولا علم إلا يتّبعه. وقدم ذكره مبالغة في تعظيمه. ثم قال بعده: خلق الإنسٰن، علمه البيان، وهو الفهم والإفهام اللذان تَلزم بهما الحجة وتتضح المحجةُ، ثم عرّفنا أنه تعالى خلق الإنسان لا يعلم، ثم علّمه، وهو كقوله: وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا.[3] والبيان هو ما يبين به المرء ما في نفسه من مآربه[4] الباطنة والظاهرة من أمور الدنيا والآخرة. وهو فضيلة الإنسان الذي من / أجله كُوِّنَت الاكوان وأُنزِل الفرقان.[5] فكلما كان الإنسان أشد إبانةً[6] كان أخصّ بصفة [٤٢٢ظ] الإنسانية. ولمّا كانت العربية عبارة عن البيان يقال: أعرب الرجل عن حاجته، إذا أبان عنها، وكان سيد العرب صلى الله عليه وسلم أخص بها من سائر الناس لزم أن يكون مبعوثا إلى سائر الناس. فانظر إلى أشرف علمٍ مِن أعظم معلِّمٍ لأفضل معلَّمٍ.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾

ولما ذكر النعمة الكبرى وهي القرآن وأتبعها بذكر النعمة الضرورية للإنسان وهي تعليم البيان أخذ يُعدّد ما أنعم به بعد ذلك على نوع الإنسان لتكون هذه النعم كالبرهان على ما افتتح به هذه السورة. وذلك قوله: ٱلرَّحۡمَٰنُ.[7] فقال تعالى: الشمس والقمر بحسبان، أي يجريان بحساب. وحسابٌ وحُسْبان مثل شِهاب وشُهْبان. والنجم والشجر يسجدان،

---

[1] ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٥٦). وانظر أيضا: سورة المؤمن، ٤٠/٧.

[2] ن: آتاهم.

[3] ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٧٨).

[4] ش: من مرائه؛ ن: من مأربه.

[5] ن: القرءان.

[6] ن: أشد بأنه.

[7] الآية ١ من هذه السورة.

يريد سجود الطاعة والانفعالَ لِما أريد بهم. والنجم ما نجم من الأرض من النبات دون الشجر. وفيه تورية بعد ذكر الشمس والقمر. والكل ساجد كما ذكر في مواضع أُخر.[١]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

والسماء رفعها ووضع الميزان، معلوم من قوله: وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ.[٢] فلا تفهم من قوله:[٣] ووضع، وأهبط، بل وضعها موضوعة لا وضيعة. ولمّا ذكر الله سبحانه أنه قد وضع الميزان ورفع السماء وهو من الرِّفْعَة لا الإزالة كما قد يُفهَم من العبارة بلفظ الرفع حذف ما معناه: يُحذِّركم، ألا تطغوا فى الميزان، "الميزان"[٤] يريد به ههنا العقل. ولهذا خصصه بالطغيان. ويشتمل أيضا على الميزان الظاهر. ولمّا كان ذكر الميزان بعد الطغيان مكرَّرا بعد الأول علمنا أنه أراد ما يتعلق بنا مما يوزَن به وليس إلا العقلَ في الأمور المعنويةِ والمعيارَ في الأشياء الجسمانية. ولهذا ذكره ثانيا ولم يقل: ألا تطغوا "فيه" ليُعلَم أن الأول ميزان الرحمن والثاني ميزان الإنسان تحذيرا للعباد وإعلاما أنه كما تَزِنُون يُوزن لكم. ولمّا كان الميزان المذكور وسطا أدل على العقل وإن اشتمل على الميزان الظاهر قال بعده ما هو أدل[٥] على الميزان الظاهر وإن اشتمل على العقل، وذكر الوزن ليكون الكلام جامعا لما يتعلق بالميزانَين[٦] الظاهر والباطن فقال: وأقيموا الوزن بالقسط، العدل، ولا تخسروا الميزان، الظاهرَ الذي هو أولى بأن يُخسَر به، لأن تقديره: ولا تخسروا بالميزان. وإذا كان قد ذكر الميزان الذي يوزن به أعمال العباد في المعاد،[٧] ثم ذكر الميزان الباطن مع الطغيان، وذكر الوزن بين الميزان الباطن والميزان الظاهر ونهى عن الإخسار بعد نهيه عن الطغيان فقد تم الكلام. وفهمنا من قوله: ووضع الميزان، أنه ميزان الأعمال في المآل لقوله تعالى: وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ.[٨] وقوله: لا تَطغوا، أي لا تزيدوا في القبض. وقوله: ولا تُخسروا،

١ انظر مثلا: سورة الحج، ٢٢/١٨.

٢ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٤٧).

٣ ك – ونضع المونزين القسط ليوم القيمة فلا تفهم من قوله، صح هـ.

٤ ن – الميزان.

٥ ك: أول.

٦ ش ن: بالميزان.

٧ ك – في المعاد، صح هـ.

٨ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٤٧).

أي لا تنقصوا في العطاء، وهو[١] كقوله: إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ.[٢] واستغنى بذكر الوزن مع الكيل أخيرا عن أن يذكره مع الكيل أولا في تلك الآية.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾﴾

وقوله: **والأرض**، منصوب على العطف بقوله: خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ،[٣] وَٱلسَّمَآءَ،[٤] والأرض. ويحتمل أن يكون مفعول [قوله:] **وضعها للأنام، فيها فٰكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف**. لمّا ذكر الشجر ذكر ما ليس بشجر، ولما ذكر "الأكمام" التي تَستر الثمر كما يَستر الكُمُّ اليدَ، فدل بذكر "الأكمام" على ما فيها / ذكر الحب وهو كالقمح [٤٢٣و] والشعير وغيرهما. **والعَصْف**، من عصَفت الريح تَعصِف عَصْفا فهي عاصف وعاصفة إذا أسرعت في سيرها واشتدت. وقوله: فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ،[٥] أي هو من مأكول الدواب إشارةً إلى صِغَر أجزائه. والعُصافَة ما سقط من السنبل من تِبْن، كقولك: كُناسة[٦] لما يُكنَس من أيّ جنس كان، فكذلك عصافة. وإنما سمِّي العصف لكونه أهلا لأن تَذهب به الريحُ العاصف وهي التي تُكسِّر ما تكسّره فيبقى عُصافةً. فقال تعالى لِمَا مِن شأنه ذلك مما له حَبّ. **والحَبُّ ذو العصف**، أي ذو البقل والساق الصغير.[٧] وكذلك كلُّ ما تعصِفُ به الريح إذا حُصد فأُخذ حَبّه وبقي تِبْنُه. **والريحان**، هو ذو الرائحة الطيبة، سمِّي بذلك لما يحصل لمستنشقه من الراحة برائحته. ومن قرأ بكسر النون أراد: "والحب ذو العصف وذو الريحان". ومن قرأ برفع النون[٨] أراد كل ما له رائحة طيبة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

ثم قال مخاطبا للجن والإنس، وهذا من جملة الفصاحة، وهو[٩] أن يذكر المخاطَب بعد جملة من الخطاب فقال لأنه حاضر لم يزل: فبأىّ ءالاء، واحدها "إِلْيٌ" ومعناها نَعماء،

---

١ ك ن – وهو.

٢ سورة المطففين، ٨٣/٢-٣.

٣ الآية ٣ من هذه السورة.

٤ الآية ٧ من هذه السورة.

٥ سورة الفيل، ١٠٥/٥.

٦ العُصافة ككُناسة ما سقط من التبن ونحوه (تاج العروس للزبيدي، «عصف»).

٧ جميع النسخ + والنجم.

٨ قرأ ابن عامر بالنصب في الثلاثة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف برفع الأولين أعني الحب وذو وجرّ الريحان، وافقهم الأعمش والباقون بالرفع في الثلاثة (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٢٦).

٩ ن: هو.

ربكما تكذبان. والوجه في إعادة هذه أنه لمّا اختلفت النعم المذكورة كرّر التوقيف مع كل واحدة منها كما تَحُجَ الخصمَ فتُعدّد عليه إحسانك إليه في جملة لا سبيل له إلى جحده ولا يمكنه إلا الاعتراف بها، ثم تقول: بأي نعمة من هذه تُكذِّب؟ وكذلك تذكر له نوعا آخر من النعم وتُكرر عليه ذلك القول بعينه. فلو قلتَ مهما قلتَه جاز لك أن تكرر ما كررتَه لجواز جحده لما تذكره ثانيا أو ثالثا وهلم جرا. ثم بعد ذلك في هذا التكرار ما قاله الحسين[1] بن الفضل:[2] إنه لطرد الغفلة وتأكيد الحجة.[3] وفي ترتيب ذكر النعم حِكَم.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

وخلق الجان من مارج من نار، للنار نور محضٌ ودخان هو ظلمة محضة، واللهب هو المتوسط من كليهما وهو المارج، أي المختلط. ولمّا كانت النار محرقة تُفني الموجود، والترابُ مُنبِتا يوجد المعدوم، وكان الإيجاد مما يُعدِم نعمةً ومما يُوجِد نعمةً بوجه ووجه يدركه الفَطِن بالتفكر، قال بعده: **فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان**، والحالة في إيجادكما هذه؟

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال: **رب المشرقين ورب المغربين**، يريد جهتي الطبع والقسر من حركات الكواكب طبعا من المغرب إلى المشرق، وقسرا في كل يوم من المشرق إلى المغرب. وفي ذلك من الآلاء ما لا يعلمه إلا الله سبحانه من عدد السنين والحساب وغير ذلك من أنواع العُجاب. ولهذا قال بعضهم: إن الحركتين كيَدَي العَجّان يَعْجِن بهما ما يتكون في الأكوان من المعادن والنبات والحيوان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

---

[1] جميع النسخ: الحسن.

[2] لعله الحسين بن الفضل بن عمير البجلي مفسر معمر. كان رأسا في معاني القرآن. أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور، وأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له سنة ٢١٧، فأقام فيها يعلم الناس خمس وستون سنة. توفي سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م (الأعلام للزركلي، ٢/٢٥١-٢٥٢).

[3] المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ٥/٢٢٦؛ والجواهر الحسان للثعالبي، ٥/٣٤٩.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾

ولما كان هذا العَجن والخلط غير ظاهر للعِيان قال بعده: **مرج البحرين يلتقيان**، أي خلطهما إذ يلتقيان. **بينهما**، قبل الالتقاء، **برزخ**، حاجزٌ، **لا يبغيان**، من أجل الحاجز فلا يبغي[1] العَذب الفراتُ على المِلْح الأُجاج ولا بالعكس، إذ لو بغى العذب مع وقوفه[2] وكثرةِ ما يموت فيه لَنَتِنَ، فأهلك أهل الدنيا، ولو بغى الملح لهلك الناس والدواب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. والإخراج بعد خلطهما، وذلك لا يكون إلا في المالح.[3] ولهذا قدم قوله: مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ،[4] وقال: **منهما**، لأنهما يعودان في المَرْج كالذكر والأنثى. وقال بما لم يُسَمَّ فاعلُه: يُخرَج،[5] لأنه هو لا يَخرج بل يُخرج. وسمِّي / **اللؤلؤ**، من اللألأ، **والمرجان**، من المَرْج وهو الخلط، لأنه عروق مختلطة. والمارج ذُؤَابَة[6] لهبِ النار المختلطة بالدخان، ولأنها تذيب[7] الأجسام[8] وتخلِطها. [٤٢٣ظ]

فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤﴾

وله الجوار، الفلك تجري في البحر بأمره، **المنشئات فى البحر**، أي لعظمها لا يُمكن أن تنشأ في البر وتُنقَل إلى البحر، بل يكون إنشاؤها في نفس البحر. ولهذا قال: **كالأعلٰم**، الجبال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾

---

١ ش: فلا تبغي.
٢ ن: مع وقوعه.
٣ ش: في الملح.
٤ الآية ١٩ من هذه السورة.
٥ قرأ المدنيان والبصريان بضم الياء وفتح الراء، وغيرهم بفتح الياء وضم الراء (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣١٠).
٦ ذؤابةُ كل شيء أعلاه (لسان العرب، «ذأب»).
٧ ن: تذهب.
٨ ك ن: للأجسام.

ولمّا نسبها في الذكر إليه تعظيما لها بقوله: وَلَهُ ٱلْجَوَارِ،[1] وكان هذا المصنوع العظيم إنما هو من صنعة البشر ذكر قدرته سبحانه على إذهاب صانع هذا المصنوع العظيم فقال: كل من عليها فانٍ. لمّا قدم قوله: وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ،[2] قال: عليها، ليعم الأنام في سائر الأزمان. ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلٰل والإكرام. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان، والذي عليها هو الأجسام. وأما الأرواح ففي برزخ فهي منقولة لا معدومة. ولهذا كان البعث بالأجسام، لأن النشأة الثانية بنفخة أبلغ في القدرة من النفخة الأولى مما لعله كان في مائةِ سنةٍ. وعبر بالوجه عن الله سبحانه، لأنه لمّا كان ظهور الإنسان بوجهه أشار بالبقاء إلى ما به يكون الظهور. وهو من باب الاستعارة كما تعبّر عن[3] جملة المعنى بقولك: هذا وجه حسن. وكما أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنار فأُجِّجَتْ،[4] وقال للأعرابي الذي سأله عن وجه الله: أين وجهها؟ فقال الأعرابي: كلها وجه.[5]

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾

يسئله من فى السمٰوٰت والأرض كل يوم، لأنه تعالى إليه تنتهي مسائل السائلين، فهم يسألونه حوائجهم. وقال: كل يوم، بفتح اللام ولم يقل: كل ساعة، لأنه ما من أحد إلا وهو يسأل بالحال قُوتَه كل يوم، وإن لم يسأل حاجة، إذ لا بد لكل من قوتٍ في كل يوم. وهو معنى قوله تعالى: وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً، ثم قال: لِّلسَّآئِلِينَ،[6] أي للسائلين الأقواتَ منه سبحانه بالحال أو بالمقال. ثم قال سبحانه من باب التعظيم لنفسه: هو فى شأن، والشأن معنىً له عِظَمٌ، وهذا وصف له سبحانه متعلق بذاته لا بزمان، لأن ما هو بالزمان يلزم عنه الزيادة والنقصان، إلا إن قيل: معناه كل يوم هو فى شأن واحد لا يتغير. والأول أولى وأحسن. وينطبق عليه، فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان.

فانظر إلى غلط الناس، إذ يقول قائلهم: يا من هو كلَّ ساعة في شأن، لأنه تعالى لا يحول ولا يزول، ولا تعتريه الزيادة والنقصان. فهو الأحد من كل وجه بكل اعتبار فيما يكون وكان.

---

[1] الآية ٢٤ من هذه السورة.
[2] الآية ١٠ من هذه السورة.
[3] ن: من.
[4] أجّج: أوقد (لسان العرب، «أجج»).
[5] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
[6] سورة فصلت، ١٠/٤١.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

سنفرغ لكم أيها الثقلان، وهذه الصورة تأتي في الكلام تعظيما في الوعيد لا لاشتغال الموالي عن العبيد. وكونه سبحانه أخّرهم إلى[1] المستقبل وتواعدهم ليتوبوا، فذلك من جملة الآلاء. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان. والثقلان، مأخوذ من الثِّقل الذي يراد به العظم، كقوله: ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.[2]

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

يٰمعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار، وهي أطراف، السمٰوٰت والأرض فانفذوا، هاربين من الموت والعذاب. لا تنفذون إلا بسلطٰن. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان، أي ولا سلطان لكم تتسلطون به على النفوذ.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

فلو فعلتم، يرسل عليكما شواظ، لهب، من نار ونحاس، جملةً، وإلا فلا يكون شواظا، فلا تنتصران. ومعنى الآية أنكم إذا عجزتم عن النفوذ من أقطار السماوات والأرض في الدنيا فأنتم عن الهرب من الجزاء في الأخرى / أعجز. فالسماوات [٤٢٤و] والأرض تَشهد الإنسانَ أنه[3] في ذُل الحصر ومقام الجهل والقهر. ولمّا كان هذا التهديد والترديد والزجر والوعيد من أبلغ الآلاء قال بعده: فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

ونسق من هذا الباب عليه قوله: فإذا انشقت السماء فكانت وردة، أي في وردة واحدة، وأصلها من ورَد يَرِد وَرْدا ووُرُودا، وفي التأنيث وَرْدة واحدة، كقولك: هَبْطَة ووَجْبَة. وقال لي رجل من أهل البِرّ: إن قوله تعالى: كالدهان، يريد به وردة الكِبَر وهو القُبّار،[4]

---

[1] ن: عن.

[2] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٧).

[3] ن – أنه.

[4] القبار: سراج الصيّاد بالليل (المحيط لإسماعيل بن عبّاد، «قبر»).

ولمّا نسبها في الذكر إليه تعظيما لها بقوله: وَلَهُ ٱلْجَوَارِ[1] وكان هذا المصنوع العظيم إنما هو من صنعة البشر ذكر قدرته سبحانه على إذهاب صانع هذا المصنوع العظيم فقال: كل من عليها فانٍ. لمّا قدم قوله: وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ،[2] قال: عليها، ليعم الأنام في سائر الأزمان. ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلٰل والإكرام. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان، والذي عليها هو الأجسام. وأما الأرواح ففي برزخ فهي منقولة لا معدومة. ولهذا كان البعث بالأجسام، لأن النشأة الثانية بنفخة أبلغ في القدرة من النفخة الأولى مما لعله كان في مائةِ سنةٍ. وعبر بالوجه عن الله سبحانه، لأنه لمّا كان ظهور الإنسان بوجهه أشار بالبقاء إلى ما به يكون الظهور. وهو من باب الاستعارة كما تعبّر عن[3] جملة المعنى بقولك: هذا وجه حسن. وكما أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنار فأُجِّجَتْ،[4] وقال للأعرابي الذي سأله عن وجه الله: أين وجهها؟ فقال الأعرابي: كلها وجه.[5]

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

يسئله من فى السمٰوٰت والأرض كل يوم، لأنه تعالى إليه تنتهي مسائل السائلين، فهم يسألونه حوائجهم. وقال: كل يوم، بفتح اللام ولم يقل: كل ساعة، لأنه ما من أحد إلا وهو يسأل بالحال قُوتَه كل يوم، وإن لم يسأل حاجة، إذ لا بد لكل من قوتٍ في كل يوم. وهو معنى قوله تعالى: وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً، ثم قال: لِّلسَّآئِلِينَ،[6] أي للسائلين الأقواتَ منه سبحانه بالحال أو بالمقال. ثم قال سبحانه من باب التعظيم لنفسه: هو فى شأن، والشأن معنىً له عِظَمٌ، وهذا وصف له سبحانه متعلق بذاته لا بزمان، لأن ما هو بالزمان يلزم عنه الزيادة والنقصان، إلا إن قيل: معناه كل يوم هو فى شأن واحد لا يتغير. والأول أولى وأحسن. وينطبق عليه، فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان.

فانظر إلى غلط الناس، إذ يقول قائلهم: يا من هو كلَّ ساعة في شأن، لأنه تعالى لا يحول ولا يزول، ولا تعتريه الزيادة والنقصان. فهو الأحد من كل وجه بكل اعتبار فيما يكون وكان.

---

[1] الآية ٢٤ من هذه السورة.

[2] الآية ١٠ من هذه السورة.

[3] ن: من.

[4] أجّج: أوقد (لسان العرب، «أجج»).

[5] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[6] سورة فصلت، ٤١/١٠.

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾

سنفرغ لكم أيها الثقلان، وهذه الصورة تأتي في الكلام تعظيما في الوعيد لا لاشتغال الموالي عن العبيد. وكونه سبحانه أخّرهم إلى[1] المستقبل وتواعدهم ليتوبوا، فذلك من جملة الآلاء. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان. والثقلان، مأخوذ من الثِّقل الذي يراد به العظم، كقوله: ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ.[2]

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾

يٰمعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار، وهي أطراف، السمٰوٰت والأرض فانفذوا، هاربين من الموت والعذاب. لا تنفذون إلا بسلطٰن. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان، أي ولا سلطان لكم تتسلطون به على النفوذ.

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾

فلو فعلتم، يرسل عليكما شواظ، لهب، من نار ونحاس، جملةً، وإلا فلا يكون شواظا، فلا تنتصران. ومعنى الآية أنكم إذا عجزتم عن النفوذ من أقطار السماوات والأرض في الدنيا فأنتم عن الهرب من الجزاء في الأخرى / أعجز. فالسماوات [٤٢٤و] والأرض تَشهد الإنسانَ أنه[3] في ذُل الحصر ومقام الجهل والقهر. ولمّا كان هذا التهديد والترديد والزجر والوعيد من أبلغ الآلاء قال بعده: فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾

ونسق من هذا الباب عليه قوله: فإذا انشقت السماء فكانت وردة، أي في وردة واحدة، وأصلها من ورد يَرِد وَرْدا ووُرُودا، وفي التأنيث وَرْدة واحدة، كقولك: هَبْطَة ووَجْبَة. وقال لي رجل من أهل البِرّ: إن قوله تعالى: كالدهان، يريد به وردة الكَبَر وهو القُبّار،[4]

[1] ن: عن.

[2] ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٧/٧).

[3] ن – أنه.

[4] القبار: سراج الصّياد بالليل (المحيط لإسماعيل بن عباد، «قبر»).

يعني زهرته فهي[1] تنشق كالشقيقة من شقائق النعمان؛[2] وقيل: الدهان، جمع دُهن. وهذا الوعيد هو بعد القيامة. وليس هناك أيام كأيام الدنيا، إنما هو يوم واحد لا آخر له. وقد سُمّيت كل حالة تكون فيه يوما. ويحتمل أن قوله: **كالدهان**، كقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾،[3] وهو النحاس المذاب، وهو يشبه الدهان الذي يوضع على الأخشاب والحيطان، أعني المُذاب المائع. فذلك يوم ليس فيه سؤالٌ بل جزاء. ولهذا لمّا قال: **فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان**، قال بعده: **فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان. فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان.**

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾

يعرف المجرمون بسيمٰهم، علائمهم، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.[4] **فيؤخذ بالنوٰصى والأقدام**، ناصيةِ الشَّعر في مقدم الرأس تَجرّهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم. **فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان.**

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣﴾

ويقال لهم في ذلك اليوم توبيخا عند الجزاء على ما كان منهم في الدنيا من التكذيب للآلاء: **هٰذه جهنم التى يكذب بها المجرمون**، والأولى أنه إخبار من الله للناس الآن. ولهذا قال: **يكذب.**

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾

يطوفون بينها وبين حميم ءان، أصله آني،[5] أي بالغٌ في النَّضج.[6] وقوله: **يطوفون**، أي بين طبقات النار، كقول القائل: "بِتُّ أَتَقَلَّبُ بين جوع وعطش" يشكو وجود الألمين، ولا يدل على خروج من أحدهما إلى الآخر. **فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان**، وهو الذي ينجيكم من هذه وأمثالها إذا خفتم مقامَه.

---

[1] ن – فهي.

[2] ش ك: النعمن.

[3] سورة المعارج، ٨/٧٠.

[4] ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة آل عمران، ١٠٦/٣–١٠٧).

[5] ك: إني.

[6] أَنَى الماءُ سَخُنَ وبلغ في الحرارة. وفي التنزيل العزيز: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾. قيل: هو الذي قد انتهى في الحرارة (لسان العرب، «أني»).

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾

ولمن خاف مقام ربه جنتان، والمقام يريد به مقامه بين يدي الله للحساب. فالذي خاف ترك المعصية بعد أن هَمّ بها؛ وإحدى[1] الجنتين لامتثال الأمر والأخرى للانتهاء عن النهي. وكلاهما للمتقي، وإحداهما[2] أرفع من الأخرى، كقوله: فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ،[3] أي على جنة دانية تحتها. **فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان. ذواتا أفنان**، جمع فنّ وهو ضرب ونوعٌ. وتقول: هذا صاحب فنون حسنةٍ، تمدحه في علوم وأعمال.[4]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾

فيهما من كل فُكهة زوجان، لِما[5] كان الزوجان متشاكلين: هذا مثل هذا وبينهما فرق، فكذلك أراد في الفاكهة كما تجد في الرُمّان حُلْوًا وحامضا؛ ومثلَ ذلك فافهم من قوله وهو ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا،[6] يريد ما جمع بين المماثلة في شيء والمضادّة في آخر. **فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان. متكئين علىٰ فرش بطائنها من إستبرق**، فكيف ظهائرها، وقيل: هو الديباج. وكل هذه الأمثال ترغيب بما يعلمونه[7] ويؤثرون الالتذاذ بمثله في الدنيا. **وجنى الجنتين دان**، لا يحتاج إلى تعب. ولهذا قال بعض المتصوفة: هو ثمرةُ ما كان قد استجنّ في بواطنهم من العلم بالله الذي لا تُعبّر عنه الألسنُ، فشاهدوه بالقلوب والأعين من مكان قريب فهو لا شك جنىً دانٍ. فهذا التأويل حسن. وهو من جملة جنى إحدى الجنتين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾

---

[1] ش: أو إحدى.

[2] ن: وأحدهما.

[3] ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة، ٦٩/٢١-٢٢).

[4] ن: أو أعمال.

[5] ن: ولما.

[6] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/٣٦). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ١٢/٤٣.

[7] ك ن: بما يعملونه.

[٤٢٤ظ] فيهن، أراد: في هذه / الفُرُش مُتَكِئآتٌ مع المتَّكِئين، قُصرْت الطرف، قصرنَ الطرف على رؤية مَن متّع بهن. وقيل: أراد ما يشبه الغُنْج.[١] قال الشاعر في مثله،[٢] نظم:[٣]

لَـحَـظَـاتٌ بـهـا انـكـسـارُ فـتـورٍ لـصحـاح الـقـلـوب مـنـه انـكـسـار.[٤]

لم يطمثهن، الطمث الحيض. ولمّا كانت البكر عند الافتضاض[٥] يجري لها كذلك من مجرى الحيض أضيف ذلك إلى الرجل، لأنه هو الذي طمث. وقد وعد الله أنهن أزواج المؤمنين يعيدهن، كما قال: فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا.[٦] ولقد حكى بعض أصحاب الكشوف أنه بعد مشاهدة اتفقت له يوما مّا رأى حوله نحوَ سبعين صورة من النساء، كل واحدة منهن لا سبيل إلى وصفها في الحُسْن، ولا يُتصور أن يُرَى مثلها في نساء الدنيا. وكان لا يستجيز مدّ العينين، فرأى كل واحدة من النسوة في صورة زوجته لا يشك فيها مع اختلاف الصُّوَر التي تخطف القلب بالبصر. قال الشاعر:

إنـــي ومـــن أحـبـبـتُـهـا[٧] خـصـمـان عـنـد ذوي الـفِـكَـر،
تَـــزنُـــو[٨] فـتـخـطـف مُـهْـجَـتـي وأرى فـيـخـطـفـهـا الـبـصـر،
فـتُـمـيـتـنـي بـنـواظـر وأعـــود أُحـيَـــا بـالـنـظـر.[٩]

وذكرت هذا الفصل لما صح عندي صدقُ المخبِر به، فجعلته ههنا برهانَ صدق الوعد في قوله: لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وسنبين الجان.[١٠]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾

هل جزاء الإحسٰن إلا الإحسٰن، أخبر سبحانه بأن هذا كله جزاءٌ وإن كان بما لا يُحَدّ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

---

[١] امرأة غَنِجة: حسنة الدَلِّ. وغُنْجُها وغُناجها شَكلُها. الغُنْج في الجارية تكسّر وتدلّل (لسان العرب، «غنج»).
[٢] ك - في مثله.
[٣] ن - نظم.
[٤] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
[٥] ش: الاقتضاض.
[٦] ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٣٥-٣٦).
[٧] ن: أجبتها.
[٨] جميع النسخ: ترنوا.
[٩] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
[١٠] بينه المؤلف رحمه الله في سورة الحجر، ٢٧/١٥.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾

ومن دونهما، أي تحتهما، **جنتان**، واحدة تحت الأخرى.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله: **مدهامتان**، أي من شدة خُضْرَتهما، فهما من شدة الرِّيِّ[1] والشجر المتكاثف المغلق كالشيء المُسْوَدّ إذا رُئِيَ، كما يُرى الأخضر على بعدٍ أسودُ. فوصف الجنتين أولا بأفنان[2] أي لا تتناهى، وهما للسابِقين جنةٌ روحانية فوق جنة جسمانية. ثم ذكر بعد ذلك ما لأصحاب اليمين ولم يذكر الأفنان بل وصف ما يتعلق بالمعروف من الجِنان الدنيوية تمثيلا.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾

فيهما عينان نضاختان، فوّارتان. وصف[3] تلك بالجريان،[4] وهذه بالفوران ليَعُمّ بالأمثال ما تُشاهَد لذة مثله في الدنيا. وللمتأملين[5] ما هو معلوم بالتفكر والتأمل بعد ذلك؛ كما أن الفوران من المكان الداني يكون عن الجريان من المكان العالي، فيكون ما لأصحاب اليمين جزاءً مما للسابقين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾

فيهما فٰكهة ونخل ورمان، رَمَّ بِزْرُه[6] فيه بعضُه على بعض وغُطِّي بالقشر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾

---

١ أي المنظر الحسن.

٢ انظر: الآية ٤٨ من هذه السورة.

٣ ك – وصف، صح هـ.

٤ انظر: الآية ٥٠ من هذه السورة.

٥ ش ك: وللمتأولين.

٦ أي بَلِي حَبُّه.

وقوله:[1] فيهن خيرٰت حسان، فبأيّ ءالاء ربكما تكذبان. الخيرات ههنا جمع خَيْرة. وبيّنهن بقوله بعده: حور، بيضٌ، وهنّ غير الأول المذكورات للسابقين؛[2] بل هؤلاء[3] لأصحاب اليمين، فأولئك قاصرات الطرف.[4] ولهذا قال بعض المتصوفة: إن الإشارة إلى أنفس السابقين قَصُرْن الطرفَ على النظر إلى وجه الله وحده. وأما أنفس أصحاب اليمين فإنهن مقصورات فى الخيام. وجعل هذا المتصوف بما فهمه من الآية على مراده من طريقه أن الخيام هي الأجسام في الآخرة وأن السابقين تَلَذُّذهم بالنظر إلى ربهم، وأصحاب اليمين / بالنظر إلى ربهم بواسطة أنفسهم. وكل تأويل لا يردّه [٤٢٥و]
عقل ولا شرعٌ فجائز. والمقصورات في الخيام مثّلهن بذلك صيانةً لهن لعظم قدرهن وفَرطِ حُسنهن كما تُصان المليحة وتُقصَر في قَصرها.

واعلم أنه لما تقدم ذكر الفُرُش في الجنتين أولا، وقال: "فيهن"،[5] ولم يقل: فيهما كانت الإشارة إلى الفرش لا إلى الجنتين. وكذلك لمّا قال ههنا: "فيهن" اكتفى بهذه الكلمة عن ذكر الفرش التي ذكرها أولا. ودل على ذلك ههنا بذكر مَن ذكرهن في الفرش هناك، فهناك: فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ،[6] وهنا: خيرٰت، ولهذا قرأ بعضهم[7] خَيّرات بتشديد الياء.[8] ولهذا لم يقل: وحور بل فسر قوله: خيرٰت حسان، بقوله: حور مقصورٰت. فالمراد بقوله: خيرٰت، هو النساء لا الأرزاق. وإن قيل: الأرزاق أعم والنساء من جملتهن؟ قلنا: النساء أخصّ بهذا الكلام، ولهذا قال: "فيهن"، ولم يقل: فيهما ليَعُمَّ بهذا الإيجاز أن الإشارة إلى الفرش. وهذا أعظم البلاغة الجامعة بين البيان والإيجاز. ويحتمل أن يزاد على ما قلناه أن كل واحدة منهن خير من الأخرى. كما يقال في وصف نسوةٍ حِسان: كل واحدة أحسن من الأخرى، إشارة إلى أن الناظر دائما يَشغله ما يراه ثانيا بالعِيان عما رآه قبله مما استقر في الجَنان. فلو عاد إلى رؤية الأولى بعد رؤية الأحسن لرآها في عينه أَولى وأحسن، فهو لا يدري أيّتهن أحسن، فكلهن خيراتٌ حسانٌ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣﴾

---

[1] ن: قوله.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/ ٢٢-٢٣).

[3] ك: بل لهؤلاء.

[4] انظر: الآية ٥٦ من هذه السورة.

[5] انظر: الآيات ٥٤-٥٦ من هذه السورة.

[6] الآية ٥٦ من هذه السورة.

[7] وهي قتادة وابن السميقع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي، كما في تفسير القرطبي، ١٦٤/٢٠.

[8] ش - ولهذا قرأ بعضهم خيرات بتشديد الياء.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

لم يطمثهن إنس قبلهم،[١] قبل أصحاب اليمين كما سيأتيك ذكرُ الحور لأصحاب اليمين بعد هذه السورة،[٢] فافهم ولا تنس. وأما كونه ذكر الأوائل بلفظ المتقين[٣] وهو يريد السابقين فذلك مبني على قوله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ.[٤] فسمّاهم بصفتهم ليخص السابقين ويعم أصحابَ اليمين. ولهذا قدّمهم في الذكر وجعل لهؤلاء كما جعل لأولئك فكرر[٥] قوله: **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان**. وكذلك لكل قوم جنتان روحانية وجسمانية.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾

فأخبر أيضا عن أصحاب اليمين بقوله: **متكئين على رفرف**، أي مع متكئات من الحور. والرفرف يريد به السرير العالي، كقوله: مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ.[٦] ومنه الرَّفّ الذي هو دفّ يوضَع عليه ما يَعِزّ من آلة صيانةً لها في مكان عالٍ من البيت. وقيل: هو[٧] فضول المحابس أو المنابت. وقيل: الوسائد ذوات الرفارف، كما يوضَع على الكراسي وسائدُ لها أطراف مشرفة تُرَفْرِف لِتَحُول بين الساعد والكرسي فتبقى الرفارفُ زينةً على طرف الكرسي. فكنى بالرفرف عن الوسادة ذات الرفرف. وقيل: هو كِسْر[٨] الخباء وجوانب الدِّرْع وما تَدَلّى من ذلك. والواحدة رفرفة. والرفيف الإحاطة، يقال: فلان يرفّنا بالضم، أي يحوطنا، ومنه رفرف الطائر بجناحيه على فَرْخه، ورفرف الطير إذا ارتفع. ومنه قيل: رفّ الدجاج إذا علا على مكان في المبيت. ثم وصف الرفرف بقوله: **خُضْرٍ وعبقرىّ**، وهو عند العرب كلُّ ما يُنسب إلى حِذْق وجودة صناعةٍ وقوةٍ وما يُتعجب منه، يقال له: عبقري. وفي الحديث «كان [النبي عليه السلام] يسجد على العبقري»،[٩] وهي البُسُط التي فيها الأصباغ الملوَّنة والنقوش. ومن عادة أسرة الملوك أن تُعَبْقَر وتُزَوَّق[١٠]

---

[١] ن + ولا جان.

[٢] انظر: سورة الواقعة، ٥٦/٣٥-٣٨.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٤٦ من هذه السورة.

[٤] سورة الحجرات، ٤٩/١٣.

[٥] ن: كرر.

[٦] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (سورة الطور، ٥٢/٢٠).

[٧] ش: هي.

[٨] الكِسْر: الجانب من البيت، الناحية، الشقة السفلي من الخباء (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «كسر»).

[٩] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٠/١٧٢؛ واللباب لابن عادل، ١٨/٣٦٥.

[١٠] زوقتُ الشيء إذا زيّنته وموّهته، ليس بأصل (تاج العروس للزبيدي، «زوق»).

بأنواع الأدهان ذوات الألوان. وغلّب الخضرةَ فقدمها في الذكر ليكون التزويق[1] على ما أَرْضُه خضراء.[2] ثم وصف الرفرف بقوله: حسان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾

تبٰرك اسم ربك ذى الجلٰل، وهو مقام الخوف لأهل الوعيد، والإكرام، وهو مقام
[٤٢٥ظ] الرجاء لأهل الوعد. والشهود لأهل الصفاء لا يكون / إلا من باب الجلال أو من باب الجمال، أو من مجموعهما، وهو من باب الكمال. ولمّا ذكر هذه المخلوقات الحسنة قال بعدها: تبٰرك، كقوله تعالى: فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ.[3] فسبحان من جعل العالَمين -بما فيهما- آياتٍ دالات عليه وألسُنًا داعيةً إليه.

[1] ك ن: التزيق.

[2] ن: خصراء.

[3] سورة المؤمنون، ١٤/٢٣.

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾

إذا وقعت الواقعة، تقديره التي، ليس لوقعتها كاذبة. وهذا الكلام وما بعده مبتدأ. ثم أخبر عنه بقوله: فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ.[١] والمعنى إذا قامت القيامة فالناس على ثلاثة أقسام، فقدم فيما يتعلق بالقيامة كلاما، ثم ذكر فيما يتعلق بالأقسام كلاما.[٢] وقوله ههنا: كاذبة، هي مصدر بمعنى ليس لوقعتها كَذِبٌ، ومثله لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً،[٣] أي لغوا،[٤] ومثله قوله: وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ،[٥] أي بالخطيئة، ومثله: يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ،[٦] أي خيانتها، ومثله فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ،[٧] أي رِضًا؛ ويقال: رجل رضًا، أي مرضي. والعرب تضع المصادر مواضع النعوت. والواقعة ههنا يريد بها ظهور الأمر وحدوثَه.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

ثم وصف وقوع تلك المصيبة الواقعة وصفاتها وأنها تخفض وترفع.[٨] ولم يقل: "تخفض" الذي يدل على خَفْضة واحدة، بل قال ما يدل على صفة لازمة لها. فهي: خافضة رافعة، أي تخفض وترفع وتخفض وترفع[٩] إلى أن يقضي بين العباد كما تفعل الزلزلة. وليس المراد ما قيل: إنها ترفع أقواما وتضع آخرين بل هذا وعيد لأهل الوعيد وتخويفٌ بعذاب شديد.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

ولهذا بينه بقوله بعده: إذا رجت الأرض رجا، والارتجاج التزلزل وهو الحركة المضطربة، كما يقال: ارتجّ السهمُ عند خروجه من القوس إذا اضطرب. وبست الجبال،

---

١ الآية ٨ من هذه السورة.

٢ ك ن – ثم ذكر فيما يتعلق بالأقسام كلاما.

٣ سورة الغاشية، ١١/٨٨.

٤ جميع النسخ: أي لغو.

٥ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ (سورة الحاقة، ٦٩/٩-١٠).

٦ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ (سورة المؤمن، ١٩/٤٠).

٧ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة، ٢١/٦٩).

٨ ن – وترفع.

٩ ك – وتخفض وترفع.

من البَسيس، وهو من جنس البث غير أنه أصغر ما يكون من الأجزاء، ولهذا قال بعده: بسا. والبس هو القطع، كما تخاطِب بهذه الكلمة لمن أردت قطعَ قوله أو عمله. ثم وصف الجبال بعد البسّ بما يعرّفُنا به صِغرَ الأجزاء بقوله: **فكانت هباء منبثا.**

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾

ثم أخبر عن حال الناس كلِّهم عن الأولين والآخرين من الكفار والمؤمنين بقوله: **وكنتم أزوٰجا ثلٰثة.** والمراد بالأزواج أي كل إنسان وقرينه من مَلَكٍ أو شيطان فهو زوجُه المصَوَّر بصورة عمله. ومنه قوله تعالى: وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ.[1] وقوله: **ثلٰثة،** أي ثلاثة أقسام. ثم فصّل الثلاثة وأخبر عنهم بقوله: **فأصحٰب الميمنة،** وهم مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ.[2] ثم ذكر ضدهم ثم قال: **والسٰبقون.** ثم سأل مستعظما لحال المؤمنين والكافرين، كما تقول ما معناه: سلني، **ما أصحٰب الميمنة؟ وأصحٰب المشئمة،** نسبهم إلى الشؤم، كما نسب أصحاب اليمين إلى اليُمْن. **ما أصحٰب المشئمة؟**

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

والسٰبقون، وتقديره ما السابقون؟ ثم أخبر وبدأ بالأخص فقال: **السٰبقون أولٰئك،** هم، **المقربون،** إشارة إلى تقريب من جهة الله بعد قربهم بالأعمال. ثم لمّا كان ما هو من جهة الله لا يوصَف وصفَ ما هو من جهة الأعمال فقال: **فى جنّٰت النعيم،** وهو من التنعم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾

وقوله: **ثلّة،** أي قطعة، **من الأولين، وقليل من الآخرين،** وهؤلاء هم السابقون الموصوفون في سورة المؤمنين.[3] وعرّفَنا أن الآخرين منهم أقل من الأولين الذين يدخلون جميعا من السابقين إلى الجنة يوم الدخول فهم الأفضل، ومنهم الأنبياء والمرسلون،

[1] سورة التكوير، ٨١/٧.

[2] ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (سورة الانشقاق، ٨٤/٧-٨).

[3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٥٧-٦١).

وقد كانوا في أول الزمان أكثر مما كانوا في آخره. وأما أصحاب اليمين فهم قطعة من الأولين وقطعة من الآخرين وهم دون السابقين في الرتبة.[١] / فالسابقون في الجنتين [٤٢٦و]
العاليتين، وأصحاب اليمين في اللتين من دونهما كما جاء في سورة الرحمن.[٢] ثم وصف السابقين فقال: **عَلىٰ سُرُرٍ مَوْضونة**، منسوجة، وهو ما يكون سطحه مضفورا[٣] كما يُعمل من الخَيْزُران[٤] مما يأتي من مكة واليمن، لا ينام الإنسان على ألذَّ منه ولو كان عريانا على غير فرش. ووَضِينُ الناقة هو بِطانٌ[٥] من سيور[٦] منسوجة[٧] مُشبَّكة.[٨] **متكئين عليها متقْبلين**، ليس المراد الاتكاء على العضد بل التمدد بجملة البدن، وذلك أَهْنَى، وكل واحد مقابل لحُورِيته.[٩] ولم يقل: مقابِلين بل بتاء الاختيار، أي هو تقابلٌ مختار لهم.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾

ثم وصف مِن حالهم أنهم، **يطوف عليهم ولدٰن**، ولا يلزم أن يكون في حال الاتكاء، والطَّوْف التنقل بالدَّور. والولدان الصبيان، ولا يقال إلا لمن لم يَطْلَع في خَدِّه[١٠] شعرٌ، والصبي قد يكون في خده[١١] شعر ويسمى صبيا. وقوله: **مخلدون**، أي مخلدون على حالهم لا يبرحون وِلدانا، فلا تَطّلع لحالهم أبدا ولا يتغيرون عن هيئاتهم، فافهمها، فقد اختلفوا في معناها. **بأكواب**، واحدها كُوب، وهو ما لا عروة له ولا خرطومَ،

---

١ انظر: الآية ٣٩ وَ٤٠ من هذه السورة.

٢ انظر: سورة الرحمن، ٥٥/٤٦ إلى آخر السورة.

٣ ش: مظفورا. | ضَفْر الشَّعر ونحوه نسج بعضه على بعض (تاج العروس للزبيدي، «ضفر»).

٤ كل عودٍ لَدْنٍ خيزران. وقال أبو الهيثم: كل لين من كل خشبة خيزران. وقال المبرد: كل غصن لين يتثنّى خيزران. وقال غيره: كل غصن متثن خيزران (تاج العروس للزبيدي، «خزر»).

٥ البطان الحزام الذي يلي البطن، والبطان حزام الرحْل والقتب (لسان العرب، «بطن»).

٦ السَّير ما قُدّ من الأديم طولا، والجمع السُّيور (لسان العرب، «سير»).

٧ ك – وهو ما يكون سطحه مضفورا كما يُعمل من... ولو كان عريانا على غير فرش ووضين الناقة هو بطان من سيور منسوجة، صح هـ.

٨ الوضين: هو بِطان عريض منسوج بعضه على بعض من سيور، أو شعَرٍ يُشدّ به الرحْل على البعير. وقيل: يصلح للرحْل والهودجِ، والبطان للقتب خاصة. وقال الجوهري: الوضين للهودج بمنزلة البِطان للقتب (تاج العروس للزبيدي، «وضن»). والقَتَبُ إكاف البعير. وقيل: هو الإكاف الصغير الذي على قَدْرِ سَنام البعير (لسان العرب، «قتب»).

٩ الحورية: المرأة البيضاء (الهادي لحسن سعيد الكرمي، «حار»).

١٠ ك: في حده.

١١ ك: في حده.

والإبريق له عروةٌ وخرطوم. وأباريقَ وكأسٍ من معين، لا تَنسَ أن هناك معين ماءٍ ومعينَ خمر، فإن النهر إن لم يكن عن معين فهو يَنقص ويذهب على الطُّول، فهذا معينُ خمرٍ. لا يُصدَّعون، أي لا يأخذهم صداع الرأس، عنها، عن شرب الكأس، ولا يُنزفون؛ نَزَفْتَ البِرْكَةَ[1] إذا بَدَدْت ما فيها وأخليْتَها. لما ذكر الصداع العارض عن الأبخرة في الدماغ ذكر تغيُّرَ العقل بعده. والسَّكْران منزوفُ العقل. ومعنى النزف مما تقدم، لأنه يَنْزِف شيءٌ بعد شيء. أي لا تقلّ عقولهم من الشراب كما يعرض في الدنيا عن الخمر. وأصل النزف القلة.

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وعطف على قوله: بِأَكۡوَابٖ،[2] [قوله:] وفٰكهة مما يتخيرون، ولم يقل: يختارون، لأن الإنسان قد يختار شيئا يَضرُّه وليس التخير كذلك. والاختيار أخص من الإرادة، ومعناه إرادة خير الشيئين، فسمِّي لذلك اختيارا. ولحم طير مما يشتهون. وحور، تقديره ويطوف عليهم ولدان وحورٌ. ووصف الفريقين بقوله: عين، كأمثل اللؤلؤ المكنون، ولهذا رفع الحور، فافهمها. جزاء بما كانوا يعملون.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾

لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. [وفي الحديث]: «الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يَطّلع عليه [الناس]»؛[3] إلا قيلا سلٰما سلٰما. أي لا[4] يسمعون في الجنة، لا من بعضهم، ولا من الملائكة أو غيرهم ما لا فائدة فيه وهو اللغو، ولا ما يؤثم ككلام السُّكارى إذ هو جامع بين الوصفين، لكن يسمعون قِيلا هو سلام، أي سلاما[5] سلاما، أي تسليما عليهم. فالأول صفة القِيل الذي سَلِم من اللغو والأذى فهو من السِّلْم،[6] والثاني من التحية.

---

[1] قال ابن سِيدَه: البركة مستنقع الماء. وهي شبه حوض يُحفر في الأرض لا يُجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض (لسان العرب، «برك»).

[2] الآية ١٨ من هذه السورة.

[3] عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البرّ والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع عليه الناس» (صحيح مسلم، البر ١٤؛ وسنن الترمذي، الزهد ٥٢).

[4] ن - لا.

[5] ش: سلامه.

[6] ن: من المسلم.

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم. ويحتمل أن الجميع من التسليم. ووصفه بأنه دائم متكرر عليهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾

وأصحٰب اليمين، تقديره: سل، **ما أصحٰب اليمين**، أي ما خبرهم وكيف حالهم ومكانهم؟ ثم أجاب السؤال فقال: **فى سدر مخضود**، وهو ما أزيل شوكُه عنه لئلا يَعْلَق في ثوب المستظلّ به. والخَضادُ شجرٌ رِخْو بغير شوك، **وطَلْحٍ منضود**، شجر الطلع معروف وهو طِوال مقوَّم. وأما ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قرأها "وطَلْعٍ" فقال: هي كقوله: لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ،[1] فقيل له وهو يقول كالمتعجب: وما شأن الطلح إلا تغيره، فقال: القرآن لا يُهاج اليومَ ولا يُحوَّل.[2] فإن صح ذلك عنه فالاعتماد على قوله: "لا يحول". واعلم أنه تعالى لمّا ذكر / السدر المخضود علمنا أن المراد بالسدر ظلّه لا حَمْله. فذكر معه ما [٤٢٦ظ]
يماثله في فضيلته وهو الطلح الذي لا ثمر له يؤكل. وإذا كان منضودا في دائر البستان كان حاجزا للشمس من جميع الجهات، فيتضاعف الظلّ بما هو من الشجر طويلٌ وهو الطلح، وبما هو منها أقصر منه وهو السِّدْر. ولهذا قال: وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا.[3]

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾

وقال ههنا بعد الكلام: **وظل ممدود**، وفيه توريةٌ من حيث الاستعارةُ: تقول: مدّ الله ظلّك ولا أزاله عنا.[4] قال الشاعر:

ليس شمس الضحى كأوصافِ شمسِ الـ ... دِّيـنِ قـاضـي الـقـضـاة حـاشـا وكـلّا،
تلك مهما عَلَتْ محلا ثَنَتْ ظِلًّا ... وهـــذا مـهـمـا عــلا مــد ظِــلًّا.[5]

وماء مسكوب، فالمراد بما قدمه ليس إلا الظل والماءَ. ولمّا كانَ الطلع من جملة الفاكهة جمع الجميع بقوله: **وفٰكهة كثيرة لا مقطوعة**، من شجرها فتستحيل وتفسُد،

---

[1] ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ (سورة ق، ١٠/٥٠).

[2] معالم التنزيل للبغوي، ١٢/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٧/١٨.

[3] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (سورة النساء، ٥٧/٤).

[4] ن: ولا أن إله عنا.

[5] البيت لناصر الدين أحمد بن المنير. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي، ٢٠٧/٧.

ولا ممنوعة، بوجه من وجوه المنع عن طالبها. ولمّا قال في موضع آخر: وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا،[1] وصفها هنا بظلين أحدهما فوق الآخر، فهم في ظل دانٍ وظل عال. وأما قوله ههنا:[2] وماءٍ مسكوب، أراد أنه مسكوب[3] مع الشراب في الكأسات والأكواب. فلا يحتاجون إلى من يسكب لهم عند شربهم بل يجدونه مسكوبا بقَدْر، لأنهم في، فرش مرفوعة، فيجب أن يكون ماؤهم غير بعيد. ويحتمل أن معناه، وماء مسكوب، أي من مكان عال، وعدل به للوزان. والأول أولى لقوله بعده: وفرش مرفوعة، هذه الفرش هي المرفوعة على الرَّفارف لأصحاب اليمين المذكورين في سورة الرحمن في الجنتين الثانيتين.[4]

ولما ذكر أنهم في الخيام[5] عرّفنا أن فُرُشهم على رفارفَ مرفوعةٍ. ومن فائدة رفع فرش هؤلاء أن لا يلحقهم من رشاش الماء الذي من العينين النضّاختين فيتفرجون من علوّ بغير أذى.

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨﴾

ولمّا ذكر الفرش ههنا ذكر مَن فيها وهو ما قدّم ذكره بعد الطواف بالكأس عند السابقين بقوله: وَحُورٌ عِينٌ.[6] فذكرهن هنالك وحذف ذكرهن ههنا لاستغنائه بذكر صفاتهن، إذ لا تكون الصفة لغير موصوف خصوصا. وقد ذكر الفُرُش فقال: إنا أنشأنٰهن إنشاء، جديدا، فجعلنٰهن أبكارا، وقد كنّ ثيبات وعجائز وغير عَرَبِ الألسنة بل عَجَما لا يستلذ العربيُّ بخطابهن، فجعلناهن أيضا، عُرُبا، عربيّاتٍ، أترابا، على سِنٍّ واحد. وقد فهمت أنه لا ينبغي أن تَفهم من المَثَل ما لا يَحسن أن يعرف من الممثول مثلُه، كما أن قوله تعالى: كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ،[7] لا يحسن أن يُفهَم من ذلك الصغر بل الصفاءُ. وكذلك التمثيل بالمرجان حُمْرَةَ الشفتين، أو الحمرة المخالطةَ للبياض في سطح الجسم والخدَّين. وكذلك العرب خُذْ [أنت] أحسنَ ما فيهن وهو فصاحة اللسان، فإن المليحة الخرساء، أو ذات الُلثغة والعُجمة ناقصةُ الحُسن بلا شك خصوصا،

---

[1] ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ (سورة الإنسان، ١٤/٧٦).

[2] ن – ههنا.

[3] ن – أراد أنه مسكوب.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن، ٦٢/٥٥).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ (سورة الرحمن، ٧٢/٥٥).

[6] الآية ٢٢ من هذه السورة.

[7] الآية ٢٣ من هذه السورة.

والمخاطَبون أعراب على أن أبا الطيب[1] يقول:

حُسْنُ الحضارة مجلوب بِتَطْرِيَةٍ وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ.[2]

لأصحٰب اليمين، أي ذلك لهؤلاء.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾

ثم قال ما تقديره: هم، **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**. قال الحسن: سابِقوا من مضى أكثرُ من سابقينا.[3] وهذا صحيح، لأن الأنبياء وكثيرا من الصالحين المتقدمين في الأمم لم يأت في هذه الأمة العربية الأخيرة مثلُهم إلا القليل. وإلى هذا القليل أشار بقوله عليه السلام: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».[4] وأمّا من هو من أصحاب اليمين ففي هذه الأمة العربية مع قلة مدتها كثيرة،[5] كما قال عليه السلام: «إني لأرجو أن تكون أمتي شطرَ أهلِ / الجنة».[6] وذلك قوله تعالى: **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**. فغير [٤٢٧و]
السابقين يكون من أمة محمد صلى الله عليه سلم مثل ما يكون في الجنة من سائر العالَم من آدم إلى محمد عليهما السلام.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾

وأصحٰب الشمال ما أصحٰب الشمال. إنما سماهم أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ،[7] وهؤلاء[8] أصحابَ الشمال إشارةً إلى الشيء وضده. ولأن هؤلاء يأخذون كتابَهم باليمين وهؤلاء بالشمال، لأن وجوههم على أدبارهم فتعود يمينُهم شمالا لهم كما بيّنّاه في موضعه.[9]

---

[1] هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي المتنبي، الشاعر الحكيم. له الأمثال السائرة والحِكَم البالغة. ولد بالكوفة في محلة تسمى (كندة) وإليها نسبته. ونشأ بالشام. ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبيا. وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون. فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد. توفي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م (الأعلام للزركلي، ١/١١٥).

[2] الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي، ٢/٢٤٤.

[3] السراج المنير للخطيب الشربيني، ٧/٢٧٦.

[4] قال السيوطي في الدرر: لا أصل له. وقال بعضهم: لا يعرف في كتاب معتبر. انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٦٤. وانظر أيضا: اللباب لابن عادل، ١٨/٣٨٢.

[5] ك ن: كثير.

[6] صحيح البخاري، الرقاق ٤٥.

[7] الآية ٢٧ من هذه السورة.

[8] ك – هؤلاء، صح هـ؛ ن – هؤلاء.

[9] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة الكهف، ١٨/١٧-١٨.

ووصف مكانهم بقوله: في سموم وحميم وظل من يحموم. السموم الريح الحارّة[1] التي تدخل في مسامّ البدن. وهي على وزن فعول بمعنى فاعل مثل ضروب. كأنه يسُمّ بالسّم فهو سموم. واليحموم الشديد السواد لإحراق النار له، وظله دخان. وهو يفعول من الحَمّ وهو الشحم المسودّ باحتراق من النار. لا باردٍ، لكونه سمّاه ظلا نفى عنه البرد، لأن ذلك صفة الظل. ولا كريم، لأن منظره[2] ومَخبَره قبيحان فلا يُكرم الله به أحدا فهو غير كريم، لأن الإكرام يكون بالشيء الكريم، أعني المكرَّم المصان.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

وكانوا يصرون على الحنث العظيم، والإصرار الإقامة على الذنب وتركِ التوبة، وهو مأخوذ من الصَّرّة. والحنث، نقض العهد المؤكَّد بالحِلْف. فهؤلاء يقيمون على نقض العهود التي يلزمهم الوفاء بها وعلى ما هم بقوله واعتقاده حانثون. ومنه قوله تعالى عنهم: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ.[3] ولهذا قال ههنا بعده:

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾
﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقت يوم معلوم. والواو في قوله: أَوَآبَاؤُنَا،[4] مفتوحة، لأنها واو عطفٍ دخل عليها ألف استفهام، فافهمها. وقد بيّنّا الفرق بين ميقاتِ يومٍ ويومِ الوقت.[5] وأما قوله: معلوم، أي معلوم عندنا أن نبعثهم فيه، فهو من بابِ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ.[6] فحين أخّر ذكر اليوم أراد أولَ أيام الآخرة، وحين قدّمه أراد آخر أيام الدنيا. وأضاف الوقت تارة إلى ما قبل وتارة إلى ما بعدُ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها، من الشجر، يأكلون الزقوم منها فيملئون منه، البطون. فشٰربون عليه، على الزقوم، من الحميم. فشٰربون شرب الهيم، الإبل العِطاشِ.

---

[1] ن: الحادة.
[2] ك ن: لا منظره.
[3] سورة النحل، ١٦/٣٨.
[4] الآية ٤٨ من هذه السورة.
[5] لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى في سورة المعارج، ٧٠/٤–٥.
[6] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٧).

وقيل: هي التي لا تَروِي لداء يصيبها وهو الهُيام.[١] هٰذا نزلهم، تقدم في الكهف.[٢] يوم الدين.

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾

ثم قال: نحن خلقنٰكم فلولا، فهلا، تصدقون، أن من خَلق أوّلا يَقدر أن يخلق ثانيا، فيكون الخلق الأول دليلا على القدرة على الثاني.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾

ثم ضرب لهم مثلا للبعث فقال: أفرأيتم ما تمنون، أي ما يخرج منكم من المني عند الجماع. ءأنتم تخلقونه، جسما مرَكَّبا وتُنْشئونه خلقا من بعدِ خلقٍ في ظلمات ثلاث.[٣] أم نحن الخٰلقون. فهذه حجة يعترف بها كل ذي عقل، فيعلم الأبُ كما أنه لم يخلق ابنه فكذلك أبوه لم يخلقه. وهذا هو[٤] معنى قوله تعالى: وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ، الآية إلى قوله: بَلَىٰ، فما أحدٌ إلا يقول: بلى، إذ عقل؛ ولهذا بعده: أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ.[٥] إذ ما أحد يعقل[٦] يغفل عن هذا.

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

ثم قال تعالى: نحن قدرنا بينكم الموت، بسبب من أسبابه، لأنه[٧] لمّا كان بعضهم يموت حَتْفَ أنفِه وبعضهم يموت بالقتل، أو الوقع،[٨] أو الغرق، والجميع موت، عرّفَنا سبحانه أنه هو[٩] قدّر أسباب الموت المختلفة وقسّمها بينهم. فاستغنى بذكر المسبَّب، لأنه واحد عن ذكر السبب لأنه كثير. والمراد بقوله: بينكم، أي لتتّعظوا بموت من

---

[١] الهُيامُ كالجنون. قال ابن شُمَيْل: الهيام نحو الدُّوار جنونٌ يأخذ البعيرَ حتى يَهلكَ (لسان العرب، «هيم»).

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ (سورة الكهف، ١٠٧/١٨).

[٣] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ (سورة الزمر، ٦/٣٩).

[٤] ش – هو.

[٥] ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٢/٧).

[٦] ش ك – يعقل.

[٧] ن: ولأنه.

[٨] أي بالسقوط من مكان مرتفع ونحوه.

[٩] ك ن – هو.

[٤٢٧ظ] يموت بينكم من صغير وكبير وأنتم أحياء[1] بعده.[2] فتحققون أن / لكم ربّا مُقدِّرا؛ وهذا كقوله: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟.[3] فالمراد ههنا رؤية الأحياء لموت من يموت بينهم لا علمُ الأحياء بأنهم يموتون. فلهذا لم يقل: "عليكم"، والله أعلم. وما نحن بمسبوقين علىٰ أن نبدل أمثٰلكم، لمّا قال: أمثٰلكم، لزم أنه سبحانه قادر على تبديلهم مراتٍ كثيرةً لا تُحصى. وإذا لم يكن مسبوقا على الإبدال فكيف يكون مسبوقا على الإبداء، والإبدالُ أسهل. ومع هذا فعجز ما سواه عن الإبدال ظاهرٌ فلزم أن يكون عن[4] الإبداء أعجزَ. وقوله: ونُنْشِئَكم فى ما لا تعلمون، لا يدلّ هذا[5] على مذهب التناسخ، أعني ليس مراد الآية أن الله قادر على أن يخلق العبد الواحد في جسد فرس أو طيرٍ، فإن هذا جميعه؛ نعلمه بل المراد أنه تعالى قادر على إعدام الإنسان وإنشائه نشأة ثانيةً فيما لا سبيل للإنسان إلى علمه الآن؛ وهو عالم البقاء، لأن الإشارة إلى نشأة البدن الإنساني في العالم الآخر الباقي الذي لا نعلمه الآن، وليس له تكييف في الأذهان. فمراد الآية الإعلام بأنه سبحانه قادر على تبديل أمثالنا مهما شاء من خلق يُظهرهم إلى هذا العالم عوضا عنا في الدنيا، وأنه يُنشئنا جميعا في الأخرى. ولهذا بعده: ولقد علمتم النشأة الأولىٰ فلولا تذكرون، أن الذي بدأ بالخلق قادر على تبديله مهما شاء، وعلى إعادته في عالم لا يعلمه إلا مبدئُه، كما أن هذا العالم لم يكن معلوما إلا له سبحانه.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم ضرب لهم مثلا يؤكد التعريف بما قد بيّنه لهم من قدرته على الإبداء والتبديل والإعادة فقال: أفرأيتم ما تحرثون. ءأنتم تزرعونه أم نحن الزّٰرعون. الزرع ما ظهر على وجه الأرض نباتا ونَجَما،[6] ثم يصل إلى حدّه الذي قد يكون نخلا وغير ذلك. ولهذا نفى القدرة عن المخلوقين على مثل ذلك بقوله: مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَا.[7] وأثبت ذلك لنفسه بقوله: فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا،[8] ومثله فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ.[9] وكل هذه أدلة ظاهرة للعقل محسوسة

---

[1] ن: الأحياء

[2] ك – بعده، صح هـ.

[3] سورة الإسراء، ٤١/١٧.

[4] ش: على.

[5] ك ن – هذا.

[6] نجَم النبت ينجُم إذا طلع. وكل ما طلع وظهر فقد نجَم. وقد خُص بالنجم منه ما لا يقوم على ساق (لسان العرب، «نجم»).

[7] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ (سورة النمل، ٦٠/٢٧).

[8] ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (سورة عبس، ٢٦/٨٠-٢٧).

[9] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ (سورة الأنعام، ٩٥/٦).

بالعِيان، لا يُمكن أن يجحدها الإنسان. بل يتحقق في الأذهان أن لها صانعا قادرا على تكوين ما شاء من الأكوان؛ وعَجز مَن سواه عن تكوين جزء من أجزاء النبات، أو ردِّ عضو عُدم من أعضاء الحيوان. ومن لم يَقدر على إعادة الجزء كيف يقدر على إبداء الكل.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فلما انفرد بالقدرة سبحانه على ما شاء قال: **لو نشاء لجعلنٰه**، أي الزرع، **حطٰما**، تقدم.[1] **فظلتم**، بمعنى فظَلَلْتم. يقال: ظل يفعل كيت وكيت، إذا حاول ذلك الأمرَ وباشره، **تفكهون**، التفكه أصله تناولُ ضروب الفاكهة للتروح والتلذّذ. ولما كان الإنسان قد يتحدث بما يُريحه ويَشغله عن همّه جعل التفكهَ بالحديث استعارةً. وذلك قولهم: **إنا لمغرمون**، من الغرامة وهي الخسارة، أي لمُخسِرون في حرثنا، **بل نحن محرومون**، الرزق بذنوبنا.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم ضرب مثلا آخر للبعث فقال: **أفرأيتم الماء الذى تشربون ءأنتم أنزلتموه من المزن**، السحاب، **أم نحن المنزلون**. ولم يقل: أصْعدتموه من البحر، لأنه لمّا صعد كان مِلْحا، ولمّا نزل من المزن كان عَذْبا. وهذا بعث آخر يشبه النطفة، وما قبله يُشبه الجنين، وما بعدهما يشبه العقل، وشجرته الروح النفساني. والمراد بالجميع أمثال للبعث دالّةٌ على الانتقال إلى ما هو أعجب وأفضل.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

لو نشاء جعلنٰه، على حاله التي كان عليها، **أجاجا**، مِلحا. ولهذا لم يقل: لجعلناه. **فلولا تشكرون**.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾

أفرأيتم النار التى تورون، تُشعلون وهي من أورى يُوري، وأصله من القَدْح، أي تَقدَحون. **ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون**. شجرة النار / ههنا هي كل ما يشتعل [٤٢٨و]
من الشجر. وقد بيّنا ذلك في سورة يسٓ.[2]

---

[1] انظر: سورة الحديد، ٥٧/٢٠.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٦/٨٠).

﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾

نحن جعلناها تذكرة، لنار جهنم ليتعظ بها[1] الراءون، ومتْعا للمقوين، الضعفاءِ يتمتعون بها. والمقوون هم الذين خَلَوْا من الرزق، يقال: أَقْوَتِ الديارُ إذا خلتْ.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾

وعقيبَ كل مَثَل يَذكر الأليقَ من الكلام فقال [تعالى] ههنا: فسبح باسم ربك العظيم، الذي جعل هذه النار تذكرة جحيما وعدا، ونعيما نَقْدا. ولمّا كانت النار من العجيب المألوف، إذ توجب[2] استنارة مقدار كثير من الهواء والفضاء دفعة واحدة بشعلة يسيرة بل بقِدْحة، وتذيب الجامد، وتُجمد الذائب المائعَ وتَذْهب كأن لم تكن، مع عِظم أمرها في نفعها وضرِّها وجب على رائيها أن يسبّح باسم بارئها.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾

ولمّا ذكر النار قال بعدها في الذكر كالمتواعد بها لمن كذّب: فلا أقسم، قرأها عيسى بن عمر[3] لام تأكيد[4] وهي أَولى أن تُقرَأ بالألف فتكون في موضع نفي. وقد بيّنّا ذلك في موضعه.[5] وقوله: بمؤقع النجوم، تقول: هذا الكلام له موقع في الأنفس، أي له أثرٌ. فالمواقع الآثار التي تُؤثِرها[6] النجوم بإذن الله تعالى في هذا العالم كما تؤثر الشمس الحرارة. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. قوله: لو تعلمون، زيادة في تعظيمه، وتعظيمٌ للعلم به حسب الإمكان.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

إنه لقرءان كريم، مكرَّم، فى كتٰب مكنون، عن رؤية الأبصار وإدراك البصائر، وهو علمُه الأزل الذي لم يزل. لا يمسه، المسّ من قبيل الإصابة وهو غير اللمس. ولهذا قال تعالى:

---

[1] ن: ليتعظ به.

[2] ن: إذ توجبه.

[3] أبو سليمان عيسى بن عمر الثقفي بالولاء، من أئمة اللغة. وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، وأول من هذب النحو ورتّبه. وعلى طريقته مشى سيبويه وأشباهه. وهو من أهل البصرة. ولم يكن ثقفيا وإنما نزل في ثقيف فنسب إليهم. له نحو سبعين مصنفا احترق أكثرها، منها: الجامع، والإكمال في النحو. توفي سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م (الأعلام للزركلي، ١٠٦/٥).

[4] معالم التنزيل للبغوي، ٢٢/٨.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (سورة القيامة، ١/٧٥).

[6] آثر إيثارا كذا بكذا: أتبعه به (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «أثر»).

مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ.[١] ويقال للمجنون: به مسٌّ، لأنه قد أصيب باطنه. وقوله: إلا المطهرون، يريد الملائكة، ولهذا لم يقل: المتطهرون، أو الطاهرون. ويُحمل على ذلك المطهَّرون[٢] من المعاصي والفسوق بعد الملائكة. قال أبو العباس بن عطاء:[٣] لا يَفهم حقائق القرآن إلا من طهّر سره عند الأنوار من الأقذار.[٤] وقال مالك:[٥] أحسن ما سمعت فيها أنها بمنزلة قوله تعالى: فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ،[٦] وهذا جيد،[٧] فافهمه، لأن الكفار قالوا: تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ،[٨] ولهذا بعده: تنزيل من رب العٰلمين، فليست الإشارة ههنا إلى اللمس وإن كان إجلالُ المصحف واجبا. فمن اضْطُرّ إلى حمله ولمسِه على غير وضوء فمدلول الآية لا يناقاض ذلك، ولا يلزم بضده. وإذا لم يَلزم الشيء ولا ضده من الكتاب وألزمت به السنةُ فهو لازم سنةً.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أفبهٰذا الحديث أنتم مدهنون، أنفسكم، أي تَغِشّونها وكان الواجب أن تَنْصَحوها.[٩] وليس ذلك من "داهنتُ" التي معناها داريت من المداراة. وأصلها من الدهن المُليِّن للجلد. وأما أدهَنْتُ فمعناها غشَشْتُ. ومعنى الكلام أفبتكذيب هذا الحديث تَغِشّون أنفسكم؟ ولهذا بعده: وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون. لما كان الرزق هو الشيءَ الذي لا تَتم الحياة إلا به وهو الحظ المخصوص بالإنسان فمن شدة تكذيب هؤلاء قال: وتجعلون رزقكم، بمعنى حظكم ونصيب أنفسكم تكذيب كلام الله تعالى، كما تقول: "هذا رأسُ ماله الكذبُ" على صورة الإغياء[١٠] بالمثل والاستعارة.

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ (سورة الأحزاب، ٤٩/٣٣).

٢ ش ك: المتطهرون. وفي هامش ك: المطهرون.

٣ أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي. وكان ينام من الليل والنهار ساعتين. وله في كل يوم ختمة، وفي شهر رمضان في كل يوم وليلة ثلاث ختَمات (صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي، ٤٤٤/٢-٤٤٥).

٤ ش: الأقدام. | الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، ٢١٩/٩. (تحقيق أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٥ وهو الإمام مالك.

٦ سورة عبس، ١٣/٨٠-١٦. | انظر: أحكام القرآن لابن العربي، ١٧٥/٤؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢٢٣/١٤.

٧ ك ن: جيدا.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ (سورة الشعراء، ٢١٠/٢٦). وانظر أيضا: نفس السورة، الآيات: ٢٢١-٢٢٣.

٩ ش ك: أن ينصحوها.

١٠ أي على صورة إظهار غايته.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾

فلولا، فهلا، إذا بلغت، النَّفْس عند خروجها بالموت إلى، الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون، بمعنى تنظرونه وحذف للوِزان. ونحن أقرب إليه، أي إلى الذي بلغت نفسُه إلى حلقومه، منكم ولٰكن لا تبصرون، ذلك.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾

فلولا إن كنتم غير مدينين، منقادين إلى الحكم. دان فلان لفلان إذا أطاعه. فالمَدِين هو المملوك المحكوم عليه. ولا يحكم الله إلا بالحق. فالدِّين هو الجزاء،
[٤٢٨ظ] كقوله: أَءِنَّا لَمَدِينُونَ،[1] أي لمُجازُون، ويوم الدينِ يوم الجزاء ولا ينقض / ما قلناه، لأنه حكمٌ بالجزاء عن عدل. ونظم الكلام: فهلا[2] تَرجعونها إذا بلغت الحلقومَ، وهي لولا، الأولى وكرر لولا، لما اعترض بين ذلك، فنسق[3] عليها [قوله:] ترجعونها، ترجعون النفس من الحلقوم بعد أن بلغت إليه فتردُّونها إلى البدن. وفي ذلك أبلغ احتجاج وأعظمُ تبكيت. إن كنتم صٰدقين، في دعواكم أنكم غير مَدِينين.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾

فأما إن كان من المقربين، قربته أعماله، كقوله [عليه السلام في الحديث القدسي] «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه»[4] الحديث. فلمّا تقرب هذا العبد بما يعلمه مما أمره[5] ربُّه قرّبه ربُّه بما لا يعلمه إلا هو سبحانه، فعاد من المقرَّبين وهم السابقون. فاعرف الطريق واسلك إن شئت. فَرَوْحٌ، من الراحة، ويقال: أراح يريح إذا دخل موضعَ الراحة، كقوله تعالى: حِينَ تُرِيحُونَ،[6] وقد تقدم في [سورة] النحل. ورَيْحان، ذو الرائحة الطيبة، وجنة نعيم، جنة تنعمٍ وهي العليا.

---

١ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٥٣).

٢ ن: فلا.

٣ ك ن: ففسق.

٤ «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببتُه كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه. وما تردّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» (مسند أحمد بن حنبل، ٦/٢٥٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٥ ك + به.

٦ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٦).

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾

وأما إن كان من أصحٰب اليمين. فسلٰم لك، أيها الرجل الذي هو، **من أصحٰب اليمين**. ولهذا لم يقل: فسلام له بل كما تقول: حُيِّيتَ من رجل.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾

وأما إن كان من المكذبين الضالين. هذه الأقسام الثلاثة بيان قوله: وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ.[1] كل امرئ وقرينه زوج له. **فَنُزُلٌ**، وهو ما أُعِدّ له من طعام وشراب، **من حميم وتصلية جحيم**، إحراقُ نارٍ من جهنم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥﴾

إنّ هٰذا، الوعد والوعيد من القرآن الذي تكذبون به، **لهو حق اليقين**، ويقين اليقين.[2] أضاف الحق إلى اليقين إعلاما أن هذا هو الحق في نفسه، وأنه مع ذلك هو الحق الذي يصح في يقين المرء ذي التحقيق والإيقان،[3] كما تقول: حقُّ الحقِّ[4] ويقين اليقين مبالغةً. وإذا كان حقا في يقين العباد كان حجة عليهم بخلاف ما إذا كان حقا في نفسه دون أن يتيقنوا ذلك.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾

فسبح باسم ربك العظيم، تقديره بذكر اسم ربك، ويريد الأسماء، وذلك بمعنى الجنس. فذكرُ أسماء الله تسبيح بأسمائه، وذكرُ حمده تسبيح بالحمد له.

واتصل آخر هذه السورة بأول سورة الحديد، لأن في ابتدائها التسبيح والأسماء. وعن ابن عباس: إن اسم الله الأعظمَ في ست آيات من [أول] سورة الحديد.[5]

---

[1] الآية ٧ من هذه السورة.
[2] ك ن - ويقين اليقين.
[3] ن - والإيقان.
[4] ش: اليقين.
[5] الجواهر الحسان للثعالبي، ٣٧٧/٥.

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

سبح لله ما فى السمٰوٰت والأرض وهو العزيز الحكيم. تسبيح سائر الحيوانات والجمادات بما فيها من الأدلة على وحدانية[1] الصانع سبحانه، ونفى صفات خلقه عنه وظهورِ قدرته فيهم، وظهورِ ضروب أسمائه بطريقتهم. ولمّا كان ظهور القدرة الإلٰهية في المصنوعات ظهورا متنوّعا كرّر لفظ التسبيح، حتى كأن كل حالة من الحالات باعتبار من الاعتبارات لسانٌ يسبح بصورة من التسبيح. فإن الثمرة مثلا ذاتَ الطعم والرائحة والنفع يسبح لونها بصورة، ورائحتها بصورة، وطعْمُها بصورة، وما خصت به من المنافع وغير ذلك من تنوّعات مبدَعات الصانع. كل صورة من الصُّوَر لسانٌ قال لمن يعي ضربا من ضروب التسبيح لبارئه سبحانه. وهذا اللسان أفصح من هذه الألسن الناطقة بالحروف، ولكن يُسمَع بالقلوب. ولهذا قال تعالى: وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.[2] فذَكَر لفظ[3] الفقه الذي يكون يُسمَع[4] بالقلب[5] لا السماعَ الذي يكون بالأذن. فافقه قوله: لَّا تَفْقَهُونَ الذي نبّه به على تسبيح إنما يُدرَك بطريق التفقه الذي يلزم عنه التفكر والاعتبار. وفي كل موضع ذكر التسبيح فيه أشار إلى صورة تختص بذلك المكان ونبّه عليها بما يأتي بعد ذكر التسبيح[6] من الكلام. ويختلف ذلك بحسب اختلاف إدراكات الأفهام، كذكر الليل والنهار / والإحياء [٤٢٩و] والإماتة فإنه يشير إلى الشيء وضده كالأسود والأبيض بالليل والنهار، وكالساكن والمتحرك والإحياء والإماتة. فلا تقف مع اللفظ المخصوص فتفهم معناه فقط، بل انظر في كتاب الوجود واقرأ الأمثال المضروبة لك فيه بالفعل، واستَدِلّ عليها بهذه الأمثال المضروبة لك[7] في هذا الكتاب بالقول لئلا تَنفَد كلماتُ الله في فهمك.

---

[1] ك ن: على وجدانية.

[2] ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ٤٤/١٧).

[3] ن – لفظ.

[4] ش – يسمع.

[5] ك ن: بالقلوب.

[6] ش – فيه أشار إلى صورة تختص بذلك المكان ونبّه عليها بما يأتي بعد ذكر التسبيح.

[7] ش – فيه بالفعل واستدل عليها بهذه الأمثال المضروبة لك، صح هـ.

فإنك إذا نظرت إلى هذه فقط فرغتَ الكلمات. وإن نظرت إلى أمثالها وجدت ما لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ.[١]

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾

ثم أتبع الوصف الذي هو العزة والحكمة بقوله: **له ملك السمٰوٰت والأرض**، فلولا العزة لم يكن، ولولا الحكمة لم يثبت. ومن الحكمة أيضا زوال السماوات والأرض، فدل على ذلك بعده: **يحيِ ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير**، و"شيء" من أعم العموم، ويدخل فيه ما لا يُعلَم. وأما المستحيلات فامتناع كيانها راجع إلى الحكمة. ولا يدل ذلك على عدم القدرة؛ فلا يقال: هل يقدر على إبداع عالم أحسن من هذا العالم، بل يقال: هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ،[٢] وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ.[٣] وقوله: **له ملك السمٰوٰت والأرض**، ثم أتبعه بإطلاق القدرة يُعطي أنه سبحانه يملّك من شاء ما شاء من ملك ومَلَكة. وهو معنى قوله تعالى: قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ،[٤] أي ما شاء أن أَملِكه. فالذي يؤتي ملكَه من يشاء آتى الإنسان قدرة على ما كلّفه، ولو لم يؤته لما كلفه، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا.[٥] وقوله: **يحيِ**، أي يوجد الحياة لمن شاء بعد أن لم تكن ولم يكن المتصفُ بها. وقوله: **ويميت**، أي بعد الحياة، وهو مَثَل لإيجاد[٦] المعدوم وإعدام الموجود.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

وقوله: **هو الأول والآخر**، يعطي انفصاله عن مبدَعاته، لأنه قبلها، فلها أول ولا أول له بل هو الأول، فهو الأزلي والأبدي معا. وليس كذلك شيء من مبدعاته؛ وإن كان الإنسانُ أبديا فليس بأزلي، إذ له أول وإن لم يكن له في عالم البقاء آخرٌ. **والظٰهر والباطن**، يُعطي الإحاطة الكلية، لأن إحاطة الجسم المحيط بالمحاط إنما هي إحاطة جهة. وأما الظاهر والباطن[٧] فهو محيط من كل جهة وبكل وجه، لأن كل اعتبار لا بد له

---

١ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (سورة الكهف، ١٠٩/١٨).

٢ انظر مثلا: سورة الروم، ٥٠/٣٠؛ وسورة الشورى، ٩/٤٢؛ وسورة الملك، ١/٦٧.

٣ سورة الرعد، ٨/١٣.

٤ سورة الأعراف، ١٨٨/٧.

٥ سورة الطلاق، ٧/٦٥.

٦ ك ن: الإيجاد.

٧ ك ن: الباطن.

من الرجوع إلى ظاهر أو باطن، وحيث كان فالله محيط به. وفي هذا الكلام ما تَعْجِز[١] عن حمله الصدورُ فضلا عن السطور. ومما[٢] يُمكن أن يقال فيه من باب التعريف والتمثيل مما يقوم عليه الدليل: إنه تعالى لمّا أظهر المَظْهَراتِ الحسية والعقليةَ أظهرته المظهرات للعقل. فوجب وجوده لا مكيَّفا بل مكيِّفا، فهو في العقل أظهر مما أظهر، كما قيل:

وأظهـرُ مـمـا تُـبـصـر الـعـيـنُ ظـاهـرا لدى العقل مَن للعين والعقل يَظهر.[٣]

فهو الظاهر في الباطن، والظاهر بكل اعتبارٍ باطن وظاهرٍ. فهذا مستفاد من قوله تعالى: والظّهر. ولما كان المفطور غير الفاطر كان كل مفطور حجابا على نفسه، مسحوبا[٤] في ظل كونه. وكان الفاطر بمعزِل عنه في غنىً مطلقٍ، كما أن المفطور بمعزل عن الفاطر في فقر محقق. فجَلّ سبحانه عن المثال، فعاد باطنا بكل اعتبار وعلى كل حال. وهذا مستفاد من قوله تعالى: والباطن، فهو الأول، الظّهر، قبل كل مشهود، والآخر الباطن، بعد كل ملحوظ، فالأول الظاهر لا يجحد، والآخر الباطن لا يُشْهَد، كما قيل:

ظـهَـرْتَ فـى كـل مـا أظـهـرتـه فـغـدا يـراك بـالـعين طَـرْفٌ أنـت نـاظـره،
وغِبْتَ عن كل ما أحدثتَ محتجبا فـلا يَـحِـقُّـك قـلـبٌ أنـت خـاطـره.[٥]

فصل

ولمّا كان أظهر مما أظهرَ كان أقرب إلينا / مما ظهر لنا منا عنه كالسمع والبصر [٤٢٩ظ]
والنطق، فهو الظاهر الداني. ولمّا كان أقرب إلينا منا عُدمت المسافة التي بها يظهر الفرقان بين راءٍ ومرئيّ. فعاد قربُه منا عيْنَ بُعْدِه عنا. فتعالى عن إدراكنا فهو الباطن العالي بلا شك، كما هو الظاهر الداني بلا شك. وفي معنى ذلك قال:[٦]

هـو ظـاهـرٌ بـظـهـورٍ مـا هـو ظـاهـر عـنـه لـنـا مـنـا ظـهـورا بَـيِّـنـا،
ولـفـرط قـرب لـيـس فـيـه مـسـافـة يـبـدو بـهـا راءٍ ومـرئـيّ لـنـا،
هـو بـاطـن عـنـا كـمـا هـو ظـاهـر مـنـا لـنـا فـلـقـد عـلا ولـقـد دنـا،
فـكـأنـمـا أنـا لا أشـاهـد[٧] غـيـره وكأنمـا أنـا لا أرى إلا أنـا.[٨]

---

١ ش ك: ما يعجز
٢ ش ك: وما.
٣ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٤ في هامش ك: مسجونا. | مسحوبا: أي مغمورا مستورا.
٥ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
٦ ش – قال.
٧ ن: نشاهد.
٨ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

وبعد نَجاز هذه السورة تجد في هذا الباب من الكلام ما تُقرّبه الأفهام من التعريف الجلي مع التنزيه العلي.

وقوله: وهو بكل شيء عليم، يلزم عنه العلم بالجزئيات والكليات بكل اعتبار وعلى كل صورة ظاهرة لنا أو باطنة عنا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

ولمّا كان العلم متقدما على الخلق قال بعد العلم بِكُلِّ شَيْءٍ: **هو الذى خلق السمٰوٰت والأرض فى ستة أيام ثم استوىٰ على العرش.** ولمّا قدم قوله: وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ،[1] قبل قوله: **هو الذى خلق السمٰوٰت والأرض،** دل لفظ العلم أولا مع إطلاقه على تخصيص بما يشاهَد مما بين السماء والأرض. فذكر بعده ضربا من العلم أعلى من ذلك فقال: **يعلم ما يلج فى الأرض،** أي من كل شيء كالحَبَّة[2] التي في ظلمات الأرض وغير ذلك من كل ما[3] يلج فيها فيختفي محتجبا بها، **وما يخرج منها،** كخواص كل نَبْت وصورة كل خارج منها، **وما ينزل من السماء،** كالمطر والملائكة والأمر وغير ذلك، **وما يَعْرُج فيها،** كالملائكة والأعمال الصالحة،[4] والدعوات المستجابة. وهذا إخبار عن علم في الأزل لم يزل. ثم ذكر ما دل على العلم المطلق بسائر أمور العباد في المعاش والمعاد فقال: **وهو معكم أين ما كنتم،** ولا تَفهم من هذه الأَيْنِيّة المكان الظاهر فقط، بل انظر إلى تقلباتك في خَطَرَاتك وأفكارك في أذكارك. فاحذر أن يراك عند ما نهاك وأن لا يراك عند ما دعاك. فالكونية لك،[5] والأَيْنيّة[6] لك،[7] والمعية له على كل حال بلا كيف يدخل في المقال. **والله بما تعملون،** من كل عمل بكل جارحة روحانية وجسمانية، **بصير.**

---

[1] من الآية السابقة.
[2] ن: كالجنة.
[3] ش ك – ما.
[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (سورة فاطر، ١٠/٣٥).
[5] ن: إليك.
[6] ش: والأبنية.
[7] ك – والأينية لك، صح هـ.

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥﴾

ثم أخذ يُبرهن على هذه الدعوى فقال: له ملك السمٰوٰت والأرض، فكيف لا يعلم ما هو له لا من جهة غيره بل هو الخالق، أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ.[١] فالوجه في إعادة هذه الكلمات،[٢] أعني قوله: له ملك السمٰوٰت والأرض، أن الأول إخبار والثاني برهان وإعلام بدوام الملك له إلى يوم القيامة. وإلى الله ترجع الأمور، فيحكم فيها بالحق.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

ثم قرّب البرهان إلى سائر الأذهان ليُعلم ما يكون بما كان فقال: يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل وهو عليم بذات الصدور. ذات الشيء حقيقته، واشتقاقها من قولك: "ذا"، تعني[٣] الحاضر، وأضيفت إليها تاء التأنيث. ومعناها ههنا صاحبة الصدور وهي النفس. فهو سبحانه عليم بها علما مطلقا محيطا محقَّقا، أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ.[٤] ومن ذلك قوله: وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ.[٥] فذلك إخبار عن علم مخصص، وهذا ههنا عن علم عام مطلق. ونَسب الذات إلى الصدور لِما يكون في الصدور من الإرادات والضمائر، والحظوظ والخواطر، وتقلبات العزائم في بواطن السرائر، وما يصدر من الصدور أو يستقر في الأذهان / من اعتقادات الكفر والإيمان. [٤٣٠و]

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾

ولهذا بعده: ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، نبّه على أنه سينتقل[٦] عنكم ويُستخلف فيه غيركم بعدكم كما استُخلِفتم فيه بعد الذين من قبلكم، ونَدَبَنا إلى حالة لطيفة معناها أن يكون المنفِق بمنزلة مَن يُنفق من مال غيره بعد أن أُذِن له. فهو يحترز من الإسراف ولا يخطر بباله الإقتار. فالذين ءامنوا منكم، بالجزاء، وأنفقوا، اتباعا للأمر، لهم أجر كبير.

١ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ١٤/٦٧).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٢ من هذه السورة.

٣ ن: لا تعني.

٤ سورة الملك، ١٤/٦٧.

٥ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ (سورة ق، ١٦/٥٠).

٦ ن: سينقل.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾

ثم قال منكرا بصورة لفظ المُسائل:[١] **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم**، لكي، **لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثٰقكم**، أن تؤمنوا بالرسل فيما أنزله من الكتب، **إن كنتم مؤمنين**، بما تقدم منها. فهذا الخطاب عام لمن تقدم قبل نزول القرآن وخاص بالمؤمنين من أهل ذلك الزمان، لأن الميثاق كان إسلامهم ومبايعةَ الرسول على اتباع ما يأمرهم به من الجهاد وغيره. وكلهم كانوا يزعمون ذلك فليس لأحد منهم أن يتخلف عن الجهاد والإنفاق. ولهذا قال: **والرسول يدعوكم**، فهو خطاب خاص بالمدعوّين المخاطَبين، وعامّ لكل مدعوّ بلسان محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾

ولمّا كان الإنفاق علامة الإيمان، والدعوة إلى الإيمان بالله متقدمةً[٢] على الإنفاق في سبيله سبحانه قال ما معناه معلوم بدلالة المفهوم عن هذا الخطاب. وتقديره إذا كان الله سبحانه قد أنفق عليكم من الباقي فهلا تنفقون من الفاني. فهذا معنى الرابطة بين ما تقدم وبين[٣] قوله: **هو الذى ينزل علىٰ عبده ءايٰت بينٰت ليخرجكم**، هو[٤] سبحانه باتباعكم لها، **من الظلمٰت إلى النور. وإن الله بكم لرءوف رحيم.**

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾

وما لكم ألا، بمعنى أنكم لا، وهي كالأولى سؤال مُنكِر، غيرَ أن الأولى عن الإيمان وهذه عن الإنفاق. والكلام هٰهنا مبني على ما أجمله أولا بقوله: ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ،[٥] ثم قال: وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ،[٦] **وما لكم أن لا، تنفقوا فى سبيل الله**،

[١] ن: السائل.
[٢] ك – متقدمة، صح هـ.
[٣] ن – وبين.
[٤] ن: وهو.
[٥] الآية ٧ من هذه السورة.
[٦] الآية ٨ من هذه السورة.

والحالة هذه، وهي[١] قوله: ولله ميرٰث السمٰوٰت والأرض. ثم قال: لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقٰتل، بالذي أنفق بعده: وقٰتل، وحذفه لقوله بعده: أولٰئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقٰتلوا. وكلا وعد الله الحسنىٰ. والله بما تعملون خبير.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ١١﴾

من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا، ولم يقل: مالًا لتكون الإشارة إلى كل ما يُمكن أن يقرض من أنواع الرزق، وضروب الإحسان، والعفو، والعلمِ، والكلمة الطيبة، وغيرِ ذلك من كل شيء حسنٍ. ولهذا قال: قرضا حسنا، فيضٰعفه له، وهذا يدل على أضعاف متصلة إلى حيث يشاء الله تعالى. وكذلك هو نعيم الآخرة وإحسان الحق سبحانه. وله أجر كريم، بعد ذلك المضاعف بمعنى أنه مكرم له.

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾

يوم ترى المؤمنين والمؤمنٰت يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمٰنهم، أيضا نور ينوّرون به على من شاءوا، يقال لهم: بشراكم اليوم جنّٰت، أي بجنات، تجرى من تحتها الأنهر خٰلدين فيها. ذٰلك هو الفوز العظيم، الفوز من جنس الزلفى والظفر والربح[٢] في المعنى. وقد بيناه في مواضع[٣] أُخَر.[٤]

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾

يوم يقول المنٰفقون والمنٰفقٰت للذين ءامنوا انظرونا، أي أمهلونا، لأن المنافقين لا يُمكنهم السلوك مع المؤمنين في ذلك اليوم، والمؤمنون قد أُمر بهم إلى الجنات في نور معاملاتهم. وبقي المنافقون في ظلمات أعمالهم فيقولون للمؤمنين: ترفّقوا وتمهّلوا لنأخذ لنا قبسا. ولم يقل: منكم بل، نقتبس من نوركم. واستعار القبَس للنور

---

[١] ن: وهو.
[٢] ن: والريح.
[٣] ش ك: موضع.
[٤] ن: آخر.

[٤٣٠ظ] كما يقتبس من النار يسيرٌ، وقد بينا ذلك. قيل، هذا القول بلسان / حال وجودهم يسمعونه بمشهودهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، ليس أنهم رجعوا فلم يجدوا نورا بل المراد بالنور القرآن. ولمّا كان قد فات اتباعه والعملُ به كأنهم قيل لهم: ارجعوا إلى الدنيا فآمِنوا واعْملوا. وذلك بصورة الاستهزاء كالحوالة على الممتنع وقوعُه. فضُرب بينهم بسُورٍ له باب، أي بوضع سور. والضرب الإسراع في السير، وضرب البعير في جَهازه،[١] أي نفر. ومنه ضربُ البيت أو الخيمة. فلا تكون الباء ههنا زائدة بل بمعنى فحُجب بينهم بسور. وفضيلة الباب أن يكون ينغلق من جهة أهل الجنة فلهم فتحه. وأما أهل النار فهم في جهة ظاهر الباب، أعني البرّانِيّ منه. والسور حجاب غليظ لا يُمكن[٢] أن يلحق أهلَ الجنة سوءٌ كما لا يلحق أهل النار منه خير. وليس لأهل النار تسوّرٌ على أهل الجنة خصوصا وهم في الأغلال، ولأهل الجنة على أهل النار اطلاعٌ إذا شاءوا، لأن لهم فيها ما يشاءون.[٣] وقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ.[٤] فإذا فُتح الباب ورأى أهل النار أهلَ الجنة زادهم ذلك تَرَحا.[٥] وإذا رأى أهلُ الجنة أهل النار زادهم ذلك فرحا، لأن السور، باطنه فيه الرحمة وظْهره من قبله العذاب. ويُحتمل أن يقال: من هذا الباب يدخل إلى الجنة مَن عُذِّب في النار، ثم استحق أن يعفى عنه ويدخلَ إلى الجنة، لأن أبواب النار لا تُفتح بعد أن تُغلَق أبدا. وفي غَلْق الباب بعد فتحه قطعُ رجاء وتجديد بلاءٍ لأهل النار.

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾

ينادونهم ألم نكن معكم، في الإسلام بدليل قوله فيما يأتي: أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ[٦] ولهذا بعده ههنا: قالوا بلىٰ ولٰكنكم فتنتم أنفسكم، أوقعتموها في الفتنة باتباع الحظوظ والشهوات، والمسامحة عند الشبهات. وتربصتم، بالمؤمنين، كقوله:[٧]

---

١ ن: في جهارة.

٢ ك ن: لا يكون.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة ق، ٣٥/٥٠). وانظر أيضا: سورة النحل، ٣١/١٦؛ وسورة الفرقان، ١٦/٢٥.

٤ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۞ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۞ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۞ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ (سورة الصافات، ٥٣/٣٧-٥٦).

٥ قال ابن الأثير: الترح ضد الفرح (لسان العرب، «ترح»).

٦ الآية ١٦ من هذه السورة.

٧ ش: لقوله.

وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ.[١] وارتبتم، في كلام الله. وغرتكم الأماني، أقوال المضلين، حتى جاء أمر الله، بفراق الدنيا. وغركم بالله الغرور، وهو الشيطان، وكل غرور شيطان ولو كان من كان. ومن ذلك خواطر الإنسان التي تغرّه بما تُلقيه من الأماني بالوسوسة من أن الله تعالى عفوٌّ غفور. أولم يعلم أنه عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ.[٢]

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، لأن المخاطَبين ههنا منافقون. مأونكم النار هى مولٰكم، المولى ههنا يريد[٣] به[٤] أولى موضعٍ بكم، كقول لبيد:[٥]

قعدت كِلَا الفَرَجين تحسب أنها مولى المخافة خَلْفَها وأمامَها.[٦]

يريد أنه أولى موضع أن تكون فيه الحربُ. وسمِّي المولى مولًى لما يُوليه. فالنار هي التي توليهم وتعطيهم مما عندها فهي مولاهم. ويحتمل أنه بمعنى تَليكم وتباشركم، من قولك: داري تلي دارَ فلان. ويحتمل أن يقال: إنه لمّا أدّتْهم عبادتُهم لغير الله إلى النار كانوا عبيدَ النار، كما يقال: فلان عبد بطنه. ومن كان عبد النار كانت النار مولاه، ويكون الكلام صحيحا على ظاهره بهذا التأويل. وبئس المصير، مصير من يصير إلى النار. والواو في قوله: وبئس، كالواو في قوله عن المؤمنين: وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا.[٧]

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولمّا بيّن من أحوال الفريقين ما فيه لأولي العقول وجوبُ اتّباعِ ما جاء به الرسول قال بعده: ألم يأن، أي يَحِنْ بمعنى ألم يأتِ حينُ ذلك. وقوله: للذين ءامنوا،

---

١ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ (سورة التوبة، ٩/٩٨).

٢ انظر: سورة آل عمران، ٣/٤؛ وسورة المائدة، ٥/٩٥؛ وسورة إبراهيم، ١٤/٤٧.

٣ ش + مولى المخافة خلفها وأمامها.

٤ ن - به.

٥ أبو عقيل العامري لبيد بن ربيعة بن مالك، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وآله ويُعَدُّ من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الاسلام إلا بيتا واحدا. سكن الكوفة وعاش عمرا طويلا. وهو أحد أصحاب المعلقات. توفي سنة ٤١هـ/٦٦١م (الأعلام للزركلي، ٥/٢٤٠).

٦ معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ١/٣٣٦، ٤/٣٨٦، ٦/٤١٠، ٤٦٩.

٧ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (سورة النساء، ٤/٦٩).

يعم مِن أهل الكتابين ومن غيرهم مَن أظهر الإسلام وكان منافقا، ويخص الفسّاق من المؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكر / الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا [٤٣١و] الكتٰب من قبل فطال عليهم الأمد، في الدنيا وهو المدة، فلم يجدوا فيها الجزاء على الطاعات. فقست قلوبهم. ثم قال: وكثير منهم فٰسقون، أي لا لطول الأمد بل شأنهم هذا. ولذلك لم يقل: فكثير. ونبّه[1] على أن من طال عمرُه قسا قلبُه.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾

ثم نبّه على البعث الذي به يكون الجزاء للفريقين فقال مما يُفهَم منه صورة الحال بضرب المثال: اعلموا أن الله يحيِ الأرض بعد موتها، أي فكذلك يحييكم ويجازيكم. ولهذا أتبعه بذكر الأعمال في الآية التالية لهذه. وفي هذا أيضا تنبيه على أن القلوب القاسية الميتة يحييها الله بالقرآن. ثم قال: قد بينا لكم الآيٰت، العلامات الدالات على أننا نحيي الموتى.[2] لعلكم تعقلون، بما بيّنّاه مما شاهدتموه تحقيقَ البعث الذي وُعدتموه فتَصَدَّقُوا على غيركم بالمال وعلى أنفسكم بأحسن الأعمال.

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾

إن المصدقين والمصدقٰت، أُدغمت التاء في الصاد فشُددت، فهؤلاء تصدقوا، وأقرضوا الله، وهذا غير الصدقة وإن جاز أن يقال القرض عن الجميع،[3] أعني تكون الصدقة قرضا والقرض صدقة، لأن الإنظار صدقة على المقترض.[4] لكن هذا الذي قلناه أولى ما فُهم من الآية. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الصدقة بعشرٍ والقرض بثمانيةَ عشرَ».[5] قرضا حسنا. ومَن فَقِه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل»[6] علم أن المعطي ما أعطى إلا الله،

---

[1] ش ك: فنبه.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ (سورة يٰس، ١٢/٣٦).

[3] ن: عن الجمع.

[4] ش ك: على المقرض. وفي هامش ك: المقترض.

[5] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «رأيت ليلة أُسرِيَ بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، و القرض بثمانية عشر. فقلت: ياجبريل! ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة» (سنن ابن ماجه، الصدقات ١٩؛ والمعجم الأوسط للطبراني، ١٦/٧).

[6] أحكام القرآن لابن العربي، ٥٨٠/٢؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٦٧/١٠.

وكذلك المقرض.[١] وكذلك كل مُعامل عامل غيره إنما عامل الله بيد غير الله[٢] من خلق الله. وإذا نظر الآخِذ إلى أن المعطي لا يقدر أن يُعطي إذا منع الله ولا يمنع إذا أعطى الله[٣] رأى أنه لا يُعطي إلا الله، وإن كان بواسطة خلقه. فهذا الاعتبار يُظهر لك أن الله هو الآخذ والمعطي ولكن بوجه ووجه. فالله هو المعطي باعتبار الآخذ وهو الآخذ باعتبار المعطي. فالمؤمن لا يأخذ إلا من الله ولا يعطي إلا الله، فمعاملته مع الله أخذا كان أو عطاءً. ومن كان لا يعامل إلا اللهَ ولا يعامله إلا اللهُ لم يغب عنه الله. وهذه الصورة من جملة الصُّوَر المشار إليها بقول الصوفية: إن المتصوف يرى الله في الأشياء من غير حلول، بل كأنه يراه عين الأشياء من غير اتحاد. ومِن مثل هذا أيضا يقال: إن المتصوف رأى الأشياء كلها ألسُن الحقِّ، فهو مدعوٌّ بالكل وليس الداعي سوى واحدٍ سبحانه وإن تغايرت الألسنُ ولم تنحصر.

فإن قيل: كيف[٤] يصح أن تكون المعاصي والشهوات ألسنًا دعا الله بها عبادُه ليصح قولك: إنه تعالى دعا بكلٍّ إليه كما دَلّ بكل عليه؟

فالجواب أنه تعالى دعانا بالمعاصي إلى تركها. فإذا تركناها فقد أجبناه. فالمعاصي ألسنُ الرحمن داعيةً منه لنا إليه من باب تركها. وهي بعينها ألسنُ الشيطان داعيةً منه لنا إليه من باب فعلها. وقد مكّن الله الإنسان من إجابة الداعي لفعل الطاعة وتركِ المعصية وبالضد ليكون أجرُه كاملا بالشيء وضده. ولا يكون ذلك إلا بالقدرة على فعله وتركه طاعةً كان أو معصية. فعاد فعل الطاعة كترك المعصية، وفعلُ المعصية كترك الطاعة ليصح الابتلاء الذي به صح التكليف الذي به صح[٥] الجزاء الذي به صح كمال الإحسان ممن بدأ فبرأ. فثبت في العقول أن الله خالقُ كلِّ شيء وداعٍ بكل شيء.[٦] ومما نُظم في معنى ما قلناه:

بالكل دعاء لكل قلبٍ واعٍ ... فَافْقَهْ واقطع قواطعَ الأطماع،
الشهوة داع لك مِن باعثها ... إن أنت أجبتَ ما أجبتَ الداعي.[٧]

/وأبيَنُ من هذا في النظم قول القائل: [٤٣١ظ]

[١] ن - وكذلك المقرض.
[٢] ن - الله.
[٣] ن: إذا أعطى لله.
[٤] ن - كيف.
[٥] ك ن - صح.
[٦] ش ك - وداع بكل شيء، صح هـ.
[٧] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

هو داعٍ للكل بالكل في كل زمانٍ لم يدْعُهم إلا هو،
لكن المرء حين ما خالف الأمـ ـرَ رآه لمّا عصاه سواه،
غاب عنه الإلٰه في أي حين حَجَبَتْه الأهواء فَهْي إلٰه،
لو رآها تدعو إلى تركها بالأمر منه لم يدْعُ إلا الله.[1]

وقوله: يُضْعَفُ لهم، هذه المضاعفة غير محدودة ولكنها معلومة لكونها من جنس العمل المعلوم. وأما قوله بعد ذلك: ولهم أجر كريم، فهذا بعد ذلك وهو فوق ما تحصره العلوم أو تُدركه الفُهوم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩﴾

ثم عطف على ٱلْمُصَّدِّقِينَ[2] [قوله:] والذين ءامنوا بالله ورسله أولٰئك هم الصديقون والشهداء، جمع شاهد، كقوله: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ،[3] عند ربهم لهم أجرهم ونورهم. والذين كفروا وكذبوا بـٔايٰتنا أولٰئك أصحٰب الجحيم.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾

ولمّا ذكر فريقي المؤمنين والكفار من أهل هذه[4] الدار وحقق لهما الإخبار بأن المصير[5] إما إلى الجنة أو إلى النار مَحْض النصيحة للفريقين، فعرّفهم أنه ليس المراد بالحياة الأولى الفانية إلا الحياة الثانية الباقيةَ فقال: اعلموا أنما الحيوٰة الدنيا لعب، كلعب الصبيان، ولهو، كلهو الشُّبّان، وزينة، كزينة النسوان، وتفاخر بينكم، كتفاخر الإخوان، وتكاثر، كتكاثر الشيطان، فى الأموٰل والأولٰد، كمثل غيث أعجب الكفار، بالله، نباته. وليس المراد ههنا الزرّاعَ، لأن الدنيا أفتنُ للكفار فإنهم هم الذين غرّتْهم وأعجبتهم الحياةُ الدنيا فرضوا واطمأنوا بها. ثم يهيج فترىٰه مصفرا ثم يكون حطٰما،

[1] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
[2] من الآية السابقة.
[3] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (سورة النحل، ١٦/٨٩).
[4] ك – هذه.
[5] ن: أن المصير.

أي ذلك النبات يعود مُتَفَتِّتا. وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوٰن. وما الحيوٰة الدنيا إلا متٰع الغرور، وهو بضم الغين ما يَغُرّ من لذة الدنيا، وبفتحها الشيطان ومن يقوم مقامه.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾

ولما كان ما في الآخرة من المغفرة والرضوان منوطا بأعمال العباد ومقرونا بما يبذلونه من الاجتهاد حرّضهم على ذلك بقوله: سابقوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض. وذكر العَرْض فمثّله بأعظم مرئيّ بالأعين ليلزم أن يكون الطول أكثر، وأيضا لأن الطول غير معلوم لنا بالبصر كما نَعلم سعةَ عرضِها. وقد جهل كثيرٌ من الناس الجنة وظنوا أن ذلك خطاب على قدر العقول القاصرة فقالوا: لا نرضى بالجنة فخالفوا الأمر لقوله تعالى: سابقوا، وتمامِ الآية. والجنة في اللغة حجبة بمعنى أنها حَجَبة عن كل مكروه. ويلزم عن ذلك نيْلُ كلِّ محبوب. فافقه هذا الذي لا أبلغ منه. وقوله تعالى: وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ،[1] يعطي اقتراحَ كلِّ مقترحٍ ممن ظن بجهله أنه لا يرضى الجنة. وقوله: وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ،[2] يعطي ما لا يخطر بالبال فضلا عن أن يحصره المقال. فهل يسابَق إلا إلى الجنة. ولهذا قال: أعدت للذين ءامنوا بالله ورسله.

[تفصيل في معنى مشيئة الله تعالى وكونها على وفق العلم ومقتضى الحكمة]

وقوله: ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. لا تَفهم من هذا الفضل خروجا عن العدل، أو ميلا إلى هوى لكونه قرنه بالمشيئة، بل المشيئة[3] على وفق العلم كما نبين. فافقه قوله تعالى قبل ذلك: أعدت للذين ءامنوا. ولا تقل: أتَحْجُرُ على الله أن[4] يؤتيَ فضلَه من يشاء بغير علم؟

فالجواب أن العقل قضى لله تعالى بكل صفة تؤدي إلى مدح ونَزّهه[5] عن كل صفة تؤدي إلى قدح. فالاختصاص والمنع في الأزل مبني على العلم السابق بما سيكون

[1] ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٧٠-٧١).

[2] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة قٓ، ٥٠/٣٥).

[3] ش - بل المشيئة؛ ك - بل المشيئة، صح هـ.

[4] ش + لا.

[5] ن: وتنزهه.

من العمل. فلو أعطى أو منع بغير استحقاق لم يكن اسم الجود عليه فيما أعطى أولى من اسم البخل عليه فيما منع، إذا كان العطاء لا عن عملِ خيرٍ والمنعُ لا عن عمل شر. ولا جائز أن يُنسب إلى الغنيّ المطلق فعلٌ يدل على هوى، لأن ذا الهوى فقير إلى هواه. / فالمشيئة المنسوبة إليه سبحانه لا تكون إلا على وفق العلم ومقتضى الحكمة. [٤٣٢و] وذلك غير قادح في كمال القدرة بل لازم عن إطلاق الغنى، فافهم. وجميع ما ورد في القرآن مما يعارض ما قلناه هو من باب المتشابه، فَعُدْ به إلى المحكم تَفهمْه.[١] وذلك ينقسم إلى قسمين فالقسم الأول قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾،[٢] وأمثاله[٣] بلفظ الاختصاص والرحمة، وهذا يكون للمسيئين،[٤] كقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾.[٥] والقسم الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾،[٦] فهذا يكون للمحسنين. فكلّ ما هو بلفظ الرحمة فهو للمسيئين، وكلّ ما هو بلفظ الفضل فهو للمحسنين، وكلاهما عائدان إلى المشيئة. وإنما أعادهما[٧] إلى المشيئة ليُطمع المسيئين في عفوه والمحسنين في فضله بعد استحقاق المسيئين عقابه وبعد ما يؤتي المحسنين ثوابَه، ليُلجئ المسيئين إلى حسن الظن به فيستحقوا به العفو، وكذلك المحسنين فيستحقوا الفضلَ. فهذا الظن عملٌ بعد العمل، وليس بعده شيء.

وإيضاح ما قدمناه أن الاجتباء في الأزل هو على وفق العلم بما سيكون من العمل وهو في فريق واحد عَصيّ. فمن علم منه سبحانه أنه إذا اجتباه وهداه استمر اجتباه، كآدم. ومن علم منه أنه إذا اجتباه عاد إلى المعصية أبقاه وأضله كإبليس، لأن أفعال الباري لا تكون عبثا. وقد بيّن الله ذلك في الدنيا بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾؛[٨] وفي الآخرة بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾.[٩] وبهذا تَفْهم السابقة. وبهذا الشرح كُشف الغطاء من حكم المشيئة وعاد الجميع على وفق العلم والحكمة التي بمقتضاهما تتصرف القدرة وإن كانت مطلقة على كل شيء يخطر في البال. فافقه جملة هذه الأقوال. وإن نبا فهمك عن تحقيق ذلك فعُد إلى المحكم وأعِد إليه المتشابه. فمحكم[١٠] الآية الأولى

---

١ ن: تفهيمه.

٢ ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٠٥).

٣ انظر: سورة آل عمران، ٣/٧٤؛ وسورة الإسراء، ١٧/٥٤؛ وسورة العنكبوت، ٢٩/٢١.

٤ ك: للمشيئين.

٥ سورة العنكبوت، ٢٩/٢١.

٦ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٧ ن: أعادهم.

٨ سورة الأنفال، ٨/٢٣.

٩ ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٨).

١٠ ن: فحكم.

هو قوله تعالى: وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ، ثم قال: فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ،[١] وتمام الآية. فعاد ما يكتبه من الرحمة راجعا إلى مقتضى العلم والحكمة مما هو معلق بأعمال العباد. وقد بيّنا أن من جملة العمل بعد العلم[٢] حسن الظن. فافقه ما بيناه على ما قدمناه. وأما محكم الآية الثانية فهو قوله تعالى: لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ، ثم قال: وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦ،[٣] وكقوله: وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ،[٤] فهذا إنباء عن سعة القدرة التي لا تنحصر. فلما علق الفضل في بعض المواضع بالمشيئة كانت المشيئة على وفق العلم بما لا يعلمه العباد من أنفسهم. فافقه هذا لتعلم أن قوله تعالى: وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ،[٥] هو إعلام بسعة القدرة. ولا يلزم من هذا أن الله تعالى يؤتي فضله أحدا من عباده على غير مقتضى العلم والحكمة وإن كان قادرا على ذلك. وقد بيّنا ما يجب بيانه في العلم عند قوله تعالى: وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ،[٦] فافهمه ههنا وفي موضعه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾

ولمّا كان العلم سابقا قال بعد ذكر المشيئة التي لا يمكن أن تخرج عن وفق العلم وإن كان لها ذلك: **ما أصاب من مصيبة**، يريد مهما أصابَ مِن خير أو شر، **فى الأرض**، أي بأسرها، ويَعُمُّ سائرَ الظاهر. وقوله: **ولا فى أنفسكم**، يعم سائرَ الباطن، **إلا فى كتٰب**، وهو[٧] علم الله السابق بما يكون قبل أن يكون. ولهذا قال: **من قبل أن نبرأها**، في الأرض أو في الأنفس. **إن ذٰلك على الله يسير**، من اليسر. وكون الله تعالى عالما بتلك المصيبة وأنها في كتاب لا يتغير لا يمنع أن يكون العبد مكتسبا وأن تكون تلك المصيبة على العبد بما قدمت يداه، فإن الله تعالى لم يزل عالما بالكائن قاضيا بالحق فيه.

[القضاء والقدر]

وقد لخّصت لك ذلك في كلام ينكشف به سرُّ القدر فافقهه كلَّ الفقه. اعلم أن القضاء هو حكم الله تعالى في الأشياء. وحكم الله سبحانه في الأشياء هو على حدِّ علمِه

١ ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٦/٧).

٢ جميع النسخ: العمل.

٣ سورة فاطر، ٣٠/٣٥.

٤ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة ق، ٣٥/٥٠).

٥ الآية ٢٩ من هذه السورة.

٦ سورة الأنفال، ٢٣/٨.

٧ جميع النسخ + كريم.

[٤٣٢ظ] بها وفيها، وعلم الله / في الأشياء هو على ما أعطته المعلومات مما هي عليه في نفسها. والقدر تقدير ما هي عليه الأشياء في عينها من غير مزيد وتوفية.[١] فما حكم القضاء على الأشياء إلا بها. وهذا عين سر القدر. قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ[٢] على الخلق. فالحاكم على التحقيق تابع لعين المسألة التي يحكم فيها بما تقتضيه ذاتها. والمحكوم عليه بما هو فيه حاكم على الحاكم أن يحكم عليه بذلك. فكل حاكم محكوم عليه بما حكم به وفيه، كان الحاكم من كان. فهذا أصل ينبغي أن يُحفظ لفظه ويُفقه معناه. فإذا صح عقلا من غير معارضة فَابْنِ[٣] مِن بابه ما شئت عليه. ومهما أشكل عليك فارجع به إليه.

فصل مبنيّ على هذا الأصل

وضعناه[٤] كالمثال لما يُستنبَط منه ويتفرع عنه وهو مستنبَط ولازم من قوله تعالى: وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ.[٥] هذا[٦] يُعطي أن كل عطية: رزقا أو عملا، أو علما باطنا وظاهرا بكل اعتبار لا ينزّلها الله إلا بقدر معلوم. والقدر كما يشاء، وما يشاء[٧] إلا ما علم، وما علم إلا ما أعطاه المعلومَ. فتقدير العطية في الأصل للمعلوم؛ والقضاء، والقدر، والمشيئة، والإرادة، ومثل ذلك تابع للعلم الأزلي.[٨] والعلم يتبع المعلوم، فالكل أعطاه المعلومُ لا العلم. فاعلم واعمل. فالعالِم بهذا يعطيه علمه أتم الراحة وأتم التعب في دنياه، ويعطيه أكمل السعادة وأكمل الشقاوة في أخراه. وإذ قد تحقق أن هذا العلم يُعطي النقيضين، وعائد ذلك على العامل والأمر فيه إليه، فليعط امرؤٌ نفسه ما شاء. فإن الله تعالى لا يعطيه سوى أنه أعطاه أن يعطي نفسه ما شاء مما[٩] مكّنه الله فيه وخاطبه به بقوله: وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ.[١٠] فقد بان بهذا البيان أن الإنسان أعطى نفسه في العلم الأزلي ما أعطاها في الدنيا بالعمل مما مكّنه الله فيه. وكذلك سيعطي نفسه في الأخرى على ممر الأبد من الجزاء بحكم ذلك العطاء. ولهذا يقال له:[١١]

---

١ ش ك: وتوقيته.

٢ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٩/٦).

٣ ك: فأين.

٤ ن: وصفناه.

٥ سورة الحجر، ٢١/١٥.

٦ ن: وهذا.

٧ ن – وما يشاء.

٨ جميع النسخ: الأزل.

٩ ش – فإن الله تعالى لا يعطيه سوى أنه أعطاه أن يعطي نفسه ما شاء مما.

١٠ سورة الأعراف، ١٠/٧.

١١ ن – له.

اقْرَأْ كِتَٰبَكَ، إلى آخر الآيتين بقوله: حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا.[١] فلمّا كانت العقول تقصر عن إدراك هذا أرسل الله الرسل بالأمر والنهي لتتضح المحجة وتقوم الحجةُ. فهذا سرّ الشريعة وسر القضاء والقدر، وحكم الإرادة والمشيئة وحكم علم الأزل.

فصل

قد تحققت أنه لم يؤثّر فيك سؤالٌ، ولم يكن ما رزقك غيرُك وإن كان من عند الله سبحانه. وقد بان أن لك على نفسك القضاء والقدرَ، ومنك فيك برزت المشيئة ونفذت الإرادة. وأنت أجريت القلم بما كتب، وستُجزى ما تجزَى[٢] من الثواب والعقاب الذي بعملك لك أو عليك وَجَب. فقد صح عندك أنه لا تعلق لك بغيرك ولا بالله فيما أجرى عليك من العدل وإن كنت متقلبا منه في أنواع الفضل. وقد ظهر لك أنك لم تُؤتَ[٣] ولا تُؤتَى خيرا أو شرا إلا منك. وقد قام عذر الله وعذر عباده عندك ومعاذير الموجودات من حيّة وعقرب وعَثْرَة حجرٍ وغير ذلك. وهذا هو معنى قوله تعالى: وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ.[٤] فمتى رأيت مما كان ومما سيكون ما تكرهه فقل لنفسك: يداك أَوْكَتا وفُوكَ نَفَخَ،[٥] وإن كان ما أصاب في كتاب.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

وأما قوله تعالى: لكي لا تأسوا، تحزنوا، **علىٰ ما فاتكم ولا تفرحوا بما ءاتىٰكم،** فهو منسوق بقوله: ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا،[٦] وتمامِه، أي اعلموا أن الأمر كذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم منها. وقد بين ذلك بقوله بعده: **والله لا يحب كل مختال فخور،** فالمراد لا تفرحوا فرحَ المختال الفخور. / وهذا كقوله: لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ،[٧] [٤٣٣و]

---

١ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٤-١٥).

٢ ش: ما يجزى؛ ن: بما كتب ما ستجري.

٣ ن: لم يؤت.

٤ سورة الشورى، ٤٢/٣٠.

٥ العرب تقول لمن عمل شيئا يوبَّخ به: يداك أوكتا [أَثْرَتا] وفوكَ نفخ. قال الزجاج: يقال للرجل إذا وُبِّخ: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تَجْنيا شيئا، لأنه يقال لكل من عمل عملا: كسبت يداه، لأن اليدين الأصل في التصرف (لسان العرب، «يدي»).

٦ الآية ٢٠ من هذه السورة.

٧ سورة القصص، ٢٨/٧٦.

فهو مخصَّص بالدنيا، ولا يجوز إطلاقه لقوله تعالى: فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ.[١] ومن تحقق أن كل مِنْحة محنة، وأن سائر العطاء في الدنيا هو من باب الابتلاء لأجل الجزاء في الأخرى فكيف يحزن على ما فات أم كيف يفرح بما هو آت! وإنما يفرح أو يحزن بالعمل الذي عمله بالشيء لا بنفس الشيء. فقد علمت معنى هذه الآية حقَّ علمِها. وإنما أخّرها لينسق عليها: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول، عن الإنفاق، فإن الله هو الغنى الحميد.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

ولما كانت هذه الآيات كاملة في معناها لم يأت بواو العطف بعدها بل قال كالمادح لما أنزله على من أرسله: لقد أرسلنا رسلنا بالبينٰت. وقوله: وأنزلنا معهم الكتٰب، منسوق بقوله: وأنزلنا الحديد، أي أنزلنا هذا لمن يعقل وهذا لمن يجهل.[٢] فقدم وأخر تفصيلا وإيضاحا. و"الكتاب" ههنا يريد به اسم الجنس، لأنه قدم قوله: لقد أرسلنا رسلنا. وقوله: والميزانَ، يريد الصفة التي هي المراد بالميزان وهي العدل. وهذا هو مراد الشرائع كلها من العباد كلهم، وعلى محبته فُطرت العقول. فمنه ما ظهر فكفى فيه العقل، ومنه ما خفي فجاء به الوحي. ولهذا قال بعده: ليقوم الناس بالقسط، إذ به صلاحهم في الدارين. وأخّر قوله: وأنزلنا الحديد، لينسق عليه ما بعده، وليكون الانتصار بالحديد بعد مجيء الرسل بالكتاب والميزان. فافهم. وقوله: وأنزلنا، كقوله: وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ[٣] بمعنى الإيجاد بالأمر، والأمر منزَل. وقد ذكرنا الإنزال في سورة الأنعام[٤] وذكرنا[٥] الأمر في سورة الدخان.[٦] والمراد بالحديد ما يُعمل بآلات الجهاد التي تعمل منه. فكأنه قال: أنزلنا الكتاب لجهاد العدوّ الباطن،[٧] والحديدَ لجهاد العدو الظاهر،[٨] ولهذا بعده: فيه بأس شديد ومنٰفع للناس. وذلك [هي] الآلات

١ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة يونس، ١٠/٥٨).

٢ ك - يعقل وهذا لمن يجهل، صح هـ.

٣ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦).

٤ انظر: سورة الأنعام، ٦/١١١.

٥ ك ن: وذكر.

٦ انظر: سورة الدخان، ٤٤/٣-٥.

٧ ن: والباطن.

٨ ن: والظاهر.

وآلات الآلات الداخلة في سائر الصنائع. وبين المقصود بالإنزال فقال: وليعلم الله من ينصره، وهو[1] منسوق بقوله: ليقوم الناس بالقسط، وأخره ليذكر النصر بعد ذكر الحديد الذي إنما يكون به. وأضاف الواو في "وليعلم" ليكون النصر بالكتاب والحديد. وقوله: ورسلَه، أي وينصر رسله. وقوله: بالغيب، أي إيمانا بالغيب، لأن ما وعد الله على ذلك غيب. إن الله قويّ عزيز.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قفينا، تقدم.[2] ومنه قافية الشعر، لأن مقاطع الأبيات كل واحد يتّبع الآخر على إثره في صورة واحدة. علىٰ ءاثٰرهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وءاتينٰه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة. ثم قال: ورهبانية ابتدعوها، أي وابتدعوا هم بعده رهبانيةً، وهي مشتقة من الرَّهْبَة وهي الخوف. لكنه تعالى قال: ما كتبناها عليهم، أي في الإنجيل، لأن ما كتبه في الإنجيل عليهم هو فرض من لوازم التكليف، إلا، ابتدعوها، ابتغاء رضوٰن الله، من باب النوافل. ولفظ البدعة يطلق على ما يُحدثه المرء من طاعة ومن معصية، وهذه طاعة. فما رَعَوها حقَّ رعايتها، بل دنّسوها بالثَّالُوثِ وغيره. وقوله: فما رعوها، أي كلهم بل بعضُهم،[3] وهم من أسلم مع عيسى ومحمد عليهما السلام. وإليهم الإشارة بقوله: وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ،[4] والباقون ما رعوها. فـٔاتينا الذين ءامنوا منهم أجرهم، وهم الحواريون وتُبّاع محمد عليه السلام. وكثير / منهم فٰسقون. [٤٣٣ظ]

[1] ك ن: وهي.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٨٧).

[3] أي رعاها بعضهم.

[4] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٨٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

ولما كان قد[1] تقدم قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا،[2] الآية، وكان النداء للنصارى وإن عَمَّ اليهودَ أيضا، ثم فصَل ههنا بقوله: فـَٔاتينا الذين ءامنوا منهم أجرهم، نادى هؤلاء، أعني من آمن بالرسل الأوائل مِن الحاضرين والآتين ممن لم يُطبع على قلبه ولم يَحِقَّ عليه القولُ فقال:[3] يٰأيها الذين ءامنوا، بالأنبياء المتقدمين، اتقوا الله وءامنوا برسوله، محمد عليه السلام، يؤتكم كفلين، حظَّين، من رحمته، حظا لإيمانكم بمن تقدم وحظا لإيمانكم[4] بمحمد صلى الله عليه وسلم. ويَجعلْ لكم نورا تمشون به، في سبيل الآخرة، والنور هو القرآن. فإذا آمنتم بالرسول جعل الله الرسالة لكم نورا كما جعلها على من لم يؤمن عَمًى. ويغفر لكم والله غفور رحيم.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

وقوله: لئلا، معناه أن مِن أهل الكتاب من طبع الله على قلبه بكفره، فلا يمكن أن يؤمن. ومنهم من يمكن أن يؤمن، وهم المنادون في هذه الآية. فناداهم الله ووعدهم بالأجر في الآخرة لا في الدنيا، وهو قوله: يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ،[5] وكذلك النور والمغفرة. كل هذا جزاء وأجرٌ في الآخرة لا في الدنيا، إذ لو أعطاهم أجْرهم في الدنيا لَعَلم أهل الكتاب ممن عُوقب بالطبع على القلوب بذلك فكان ذلك مما يَقُودُهم إلى الإيمان، والله تعالى لم يُرد لهم الإيمان عقابا لهم. فجعل الله تعالى ثواب المؤمن غيبا لا يُرى إلا في الآخرة لكيلا يراه المطبوع على قلبه فيؤمن. وهذا هو من جملة الطبع والختم أن يمنع عنه أسباب الهدى، وهو العلم. فقال ما معناه: آمنوا بمحمد نُعْطِكم أجرين في الآخرة.

---

[1] ن - قد.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ (سورة النساء، ٤٧/٤).

[3] ك ن: قال.

[4] ن - لإيمانكم.

[5] من الآية السابقة.

وإنما أعطيناكم ذلك في الآخرة لكيلا، **يعلم أهل الكتٰب**، المعاقَبون في الضلال، **ألا، أن لا، يقدرون علىٰ شيء من فضل الله**، أي في الأخرة بل يحسبون أن لهم الآخرةَ. وهذا غاية العقاب، وهو أن يكونوا لا يقدرون ويحسبون أنهم يقدرون، بمعنى أنهم يعتقدون أن لهم أجرا وأنهم على هدى. ومع هذا سدّ عليهم باب العلم لئلا يعلموا أنهم لا يقدرون على شيء. وهذا من باب قوله تعالى: وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ،[١] أي مالكون لها؛ وهو كقوله تعالى: أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ،[٢] ومثله: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ.[٣] وتقديره لئلا يعلموا أنهم لا يقدرون، ولئلا يعلموا أن الفضل بيد الله. فدل على هذا المقدَّر المحذوف بالواو فقال: **وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**، وهذا الفضل هو بعد الجزاء ولا يكون إلا للمؤمن. ولهذا سمّاه فضلا، لأنه فضل عن الجزاء ولا آخِرَ له ولا تَعلمه نفسٌ. وإليه الإشارة بقوله: وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ الذي بعد قوله: لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا.[٤] ولهذا ختم السورة مُخبِرا عنه[٥] ههنا بقوله: **والله ذو الفضل العظيم**. فافهم هذا وتأنَّ لكي تُحقق ما ذكرته لك. واحذر أن تَضلّ عن العبارة فلا تفهمَ المعنى في هذه وأمثالها. فإذا طالعت ما قيل فقيِّد نفسك أوّلا بما أوصيتك به من تحقيق اللفظ من جهة العربية. واحذر أن تميل إلى كلام العرب لم يأت في القرآن مثلُه، أعني المنقول عنهم، بل مِلْ إلى ما جاء في القرآن مما[٦] وافقه كلامهم. ثم بعد ذلك انظر[٧] إلى مضمون اللفظ ماذا يلزم عنه، وكم صورةً يحتمل من المعاني. فإذا حصرت ذلك فخذِ الأحسن الأَولى بذلك الموضع المخصوص الموافق[٨] لسياق الكلام وسِباقه مع كونه قد جاء في مواضع من القرآن ما يصحح[٩] ما فهمته من المعنى. فنحن لمّا فهمنا / ههنا من اللغة ما هو أولى ومن المعنى ما هو أجدر وأحرى [٤٣٤و]
بتلك اللغة المفهومة ووافق ذلك ما جاء في كتاب الله في عِدة مواضعَ لفظا ومعنىً،

---

١ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (سورة يونس، ٢٤/١٠).

٢ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٠٠/٧).

٣ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

٤ سورة قٓ، ٣٥/٥٠.

٥ ك ن: عنهم.

٦ ش – مما؛ ك – مما، صح هـ.

٧ ن – انظر.

٨ ن – الموافق.

٩ ك ن: ما يصح.

وما هو في الوجود من حال النصارى واليهود، وما عاقبهم الله به بعد الطبع من نفي العلم الذي من شأنه أن يوجب الهدى أثبتناه. فمن رأى من المعنى ما هو أولى بهذا اللفظ مما قلناه وكان دليله على ما رآه أدلَّ فله العَوْد، لأن المراد هو أن لا يتَّبع إلا ما لا ريب فيه.

* * *

وإذ قد نجزتْ هذه السورةُ فلنذكر كلاما مجموعا من أقاويل الأوائل بعد حذف ما لم يوافق القرآن وزيادةِ ما وجب زيادته على قِيلِهم رغبةً في البيان. وذلك فيما يتعلق بقوله تعالى: هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ.[1] إذ في هذا المكان تنفد الطُّروس[2] بل تضمحلّ النفوس. فليأخذ الناظر من كل فصل ما يليق بسبيله بعد وضوح دليله، ولا ينحصر فيما قلته فقط بل يجعله مثالا. وَلْيَعْلم أن أجرام العالم تنفعل لهمم النفوس الصادقة إذا أقيمت في مقام الجمعية. فكيف إذا كان ما توجهت إليه الهِمَمُ واجبا وكان الله لها مساعدا، وكانت بذلك مأمورة، وله عاشقةً وعن غيره منصرفة، وبالثبات عليه مؤيَّدة. فليجرّد الهمة وليوحّد العزمةَ. وبالله التوفيق.

فصل فيه منافع في معرفة المصنوع والصانع

وجُلّ مرادنا هو إفهام ما يمكن استقراره في الأفهام مما يتعلق بهذا الفصل، والسلام.

فنقول: لا شك أن الإنسان يَشهد أنه مقهور، والمقهور له قاهر، وهذا كافٍ في أن النفس مخلوقة. وباعتبار المخلوق ظهرت أسماء الصفات للخالق؛ فأولها "الأول" وآخرها "الآخر". فكل أوليةٍ معلومة ومظنونةٍ بكل اعتبار لا بد أن يتقدمها الأولُ، وكذلك كل آخرية لا بد أن يتأخر عنها الآخرُ. فالأول هو الظاهر، والآخر هو الباطن. فالظاهر بائن مبائن، فارتفعت الشُّبَهُ[3] بقدم المشبَّه، لأنه إنما يقع إشكال في وصف مَن له أشكالٌ. والباطن جليّ عليّ؛ جلي بما تقرر أنه أولٌ ظاهر، عليٌّ بما تحقق أنه باطن آخرٌ. أقرّتِ العقولُ بأنه لم يزل ولا يزال وتحققت أن ليس لها معه من محال. فإن نظرت إلى الأول الظاهر لم تجهله، وكيف تجهله وهي[4] فعله.[5] وإن نظرت إلى الآخر الباطن لم تعقله.

[1] الآية ٣ من هذه السورة.

[2] الطِّرْس الصحيفة، والجمع طروس (لسان العرب، «طرس»).

[3] ن: الشبهة.

[4] أي العقول.

[5] ن: فعلة.

وكيف تَحُدّه[1] وهي محدودة به انقطع سير الفكر، ووقف سلوك الذهن، وبطلت إشارةُ الوهم، وعجز لطف الوصف،[2] وخرس لسان الحسّ، وغَشِيت عين العقل. فلا طور للقَدم في طور القِدم، ولا سبيل لدليل في بَيْداء الأبد:

مَرامٌ شَطٌّ[3] مَرْمَى العقل فيه فدُون مداه بِيدٌ لا تبيد.[4]

وإذْ[5] قد تقرر صحة هذا المقال فلنَعُدْ إلى ضرب الأمثال.

فصل [في أوصاف الروح]

لمّا رأينا أرواحنا جَلّت عن مجانسة أجسامنا فاحتجبت عن حواسنا للطافتها صحّ عندنا أنها عوفيت[6] عن قبول الكون والفساد اللذَين هما من علائق أجسامنا، لأن قوام الجسم بالنفس ولا ينعكس، فعلمنا أن النفس باقية. وأيّد ذلك العقلُ بوجوب الإقرار بعظم قدرة الصانع وتفننها[7] فلها خُلق الفاني والباقي، إذ هذه صفة القادر المطلق. فلمّا صح ذلك في الأفهام وأيّده العقلُ أكّده الوحي بقوله: عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ.[8]

فصل

لما كانت النفس عالما لطيفا بسيطا روحانيا، والبدن كثيفا مركّبا من العناصر لم تنْحلّ بانحلال الجسم، غير أنهما جوهران اثنان. فكما لا تُشبه أرواحنا المدرِكة العاقلة أجسامَنا / المدرَكة الواقعةَ[9] تحت الكون والفساد فكذلك بارئُهما جل جلاله لا يشبههما؛ فهو لا روحاني ولا جسماني، ولا تحت الزمان ولا فوق الزمان. وهذا العرفان في الإيقان ملحَق بالعِيان. [٤٣٤ظ]

فصل

كما ثبتت معرفتُنا بأنفسنا وثبتت بهذه المعرفة معرفةُ الصانع في هذا الباب، فكذلك تثبت بكل معرفة نَعرفها من أنفسنا معرفةٌ لبارئنا من علم وقدرة ومشيئة

[1] ن: تجده.

[2] ن: الأوصف.

[3] شطّ يَشِطّ شُطوطا وشَطَطا: بَعُد (لسان العرب، «شطط»).

[4] ذكره ابن الجوزي في المدهش، ص ١٣٧.

[5] ن: وإذا.

[6] ش ك: عوقبت. وفي هامش ك: عوفيت.

[7] أي تفنن النفس.

[8] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ (سورة هود، ١١/١٠٨).

[9] ن: والواقعة.

وإرادة وغير ذلك إلى أن تنقطع العبارات. وهذا هو أول الشهود الذوقي الذي هو آخر الشهود النطقي.

فصل

ثبت أنه لا جائز أن يكون الشيء صانعا لإياه حين لم يكن، إذ من المحال أن يتولى صنع نفسه فيكونَ صانعا مصنوعا، فلزم ثبوت قدم الصانع أزلا؛ ثم لزم أنه واحد، لأن مخرج الاثنين من الواحد، إذ الواحد علة العدد فلا يكون الثاني إلا بعده. فالعدد من الواحد وليس الواحد من العدد، إذ لا يتقدم الواحدَ عددٌ،[١] بل تقدم الواحد على العدد. فاستقام أن يكون منه العدد فهو سابقه وعلته، فالعدد مسبوق معلول. ولمّا كان الواحد العددي يقال على أشياءَ كان مبدع الأشياء واحدا لا كالأشياء، لأن الإنسان واحد فيه كل شيء بالقوة؛ والله أجل من هذه الواحدية[٢] والوحدانية، لأنه هو مبدعها، ولَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ،[٣] فانفصل كل شيء. وإذا اعترف الإنسان المصنوعُ أنه لا يحيط علما بإياه فبلا شك[٤] تعالى الله. وهذه آية من آيات الله في الأنفس.

فصل

نضرب بالمصنوع مثلا فنقول: إن الضرب من جهة المضروب هو مع المضروب، لأن المضروب به صار مضروبا. فأمّا من جهة الضارب فهو مع الضارب، لكنه ليس بمباين في هوية الضارب ولا أن يكون شيئا لا هو هو حين لم يظهر ولم يبدُ. بل ذلك قوة من قواه مع الجوهر الذي هو فيه وبه مُتَّحِد معا من غير أن يحتاج إلى مكان فيه كالمتمكن[٥] الجسماني المحتاج إلى مكان. فكذلك يحتمل أن يقال في الصنعة من جهة الصانع سبحانه في كل مصنوع: هو هكذا من جهة الدلالة بالمجاز، لكنه بالحقيقة يستحيل أن يكون هكذا، لأن هذا فعل المصنوع في المصنوع كثيف، وفعل الصانع سبحانه في المصنوع ألطف من هذا. حتى إنه لا يجوز أن يقال: فعل البارئ في المصنوعات كلها متحد معه، بل ألطف من الاتحاد، لأن كل فاعل دون الله سبحانه هو فاعل[٦] لفعله، وهو مفعول لفاعله سبحانه، فهو فاعل مفعول، وفعله متحد به وهو أبديّ.

---

١ في هامش ك: العدد قبل الواحد.

٢ ن: الوحدية.

٣ سورة الشورى، ٤٢/١١.

٤ ك ن: فلا شك.

٥ ك ن: كالتمكن.

٦ ش – فاعل.

والفاعل الأول سبحانه أزلي، والازلي[1] أجلّ من الأبدي المفعول. و"الأزلي" أيضا كثيف في اللفظ يشبه أنه مضاف إلى الأزل. ولا يجوز ذلك بالحقيقة إلا قولا كَثِيفا مجازيا من أجل التفهيم على شريطة صحة المعنى مما تُقر به الفِطر لا ما تحتمله الألفاظ. وبالله التوفيق.

فصل

الجسماني محتاج إلى مكان، والروحاني لا يحتاج إلى مكان ولا يجري عليه الزمان، فهو ألطف من الجسماني. والأشياء فيه بالقوة ألطف من أن تحتاج إلى مكان أو تخالفَ هويتُه في زمان. ولهذا لا ينقص من الإنسان شيء إذا برزت أفعالُه في أعيان. فالإنسان واحد بصفاته، غني بذاته، إذ منها برز ما أبرزتْه الإرادة في مصنوعاته. فهذا حاله وهو من مصنوع. فانظر إليه تَجدْه خارجا عن حدود الأفهام وتصورات الأوهام. ثم انظر إليه فيما برز عنه تجده مع شدة خفائه قد ظهر بمصنوعاته في غاية الظهور، فهو الذي لا يشهد ولا يُجْحَد.[2] ثم اقلِبْ النظر إلى بارئه / تجد أخفى منه مَن [٤٣٥و]
أخفاه عنه وأظهر منه من أظهره له، فاسْجُدْ وَاقْتَرِب.[3]

فصل

تعالى الله أن يكون في العالم محاطا، أو أن يكون العالم فيه فيكون مكانا، بل أزليّته متصلة بأبديّته. وهو المحيط[4] عِلمًا بالمبدَعات قبل إيجادها. ليس كإحاطة الأنوار بالأجسام ولا كما يَتلخَّص معناه بالكلام، أو يدخل في الأفهام، أو تومئ إليه الأوهامُ، إذ ذلك كله من فعلٍ فَعَله، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.[5] فلمّا علا حتى كاد أن يُعدَم ودنا حتى كاد أن يُعلَم عاد أبعدَ مِن أن يقال: انفرد بذاته، وأقربَ من أن يقال: اتحد بمبدَعاته.

فصل

اعلم أن الأسماء علامات منبهة على حقائق معانيها. فأسماء الله نحوَ معانيه، لا معانيه نحو أسمائه. ولا سبيل للإنسان أن يمجّد البارئ تعالى بغير هذه الأسماء.

---

[1] ن – والأزلي.
[2] ن: ولا يحجد.
[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ (سورة العلق، ١٩/٩٦).
[4] ك: للحيط.
[5] سورة الشورى، ١١/٤٢.

فإذا قال منها شيئا فإنما قال قولا محدودا مدرَكا للقائل. ولا يكون بارِئُهُ الذي هو معانِي هذه الأسماء محدودا مدركا.[١] فلا تقع الأسماء على حقيقة المراد، لكنها منبِّهة[٢] عليه مشيرة إليه إشارة إيمانٍ محقَّق بغيبٍ مطلق. فلا يقال: هل علمه هو أم غيره، إذ الأمر ألطف من إدراك ما بالنفس فضلا عن مدرَكات ما بالحس. مثال ذلك أنّا نتحقق أن مرتبة العلم والمعرفة منا ألطف من مرتبة السمع والبصر فينا، وإن كان الكل واحدا من جهة جوهرية النفس. لكن الفرقان في معاني أسمائنا ظاهر وإن كان دقيقا، لأن العلم مع ذات العالِم ذاتيّ فهو ألطف مرتبةً، إذ آلة القبول له هي هَوِيةٌ النفس الجامعة لهذه القُوى المتجزّئة. وأما الحواس كالسمع والبصر فحواس متباينة من جهة أجسامنا، كلُّ حاسة غير صاحبتها من الطرف الواحد، أعني المحسوس. وأما من الطرف الآخر، أعني جوهر النفس فالكل متَّحد عندها بجوهرها، وأعني بالكل ما هو مدرَك بالحواس. وما هو مدرَك بها هي من باب العلم والمعرفة، لأن النفس لها قُوىً، فهذا كله من قواها، وقواها متحدة بها. لكن هذا الاتحاد فيه نوع تركيب إذا خرج إلى الآلات[٣] تَفرّقُ وتجَزّأُ. فهو كالجسم المتكثر بالأعضاء، والماءِ المتكثر بالأطراف[٤] في سَقْي الصِّنْوان[٥] المتصف بصُوَر سائر النبات والحيوان. ففيه موصوفاته بالقوة قبل أن يخرج من بساطته فهو واحد متكثر، فليس له[٦] فيه تفصيل، أو تفضيل في وحدته. ولا شك أن كل شيء من موصوفاته هو في قوته، كما أن للدائرة سُدُسا ورُبُعا وأسماءَ مختلفة وصورا متباينة وإن كانت واحدة. فالمدرَك بالأجرام المركبة يحتاج إلى مكان، والمدرك بالقوة في البسائط لا يحتاج إلى مكان. فافقه أن هذه وحدة المفطور.[٧] وها أنت تُحَقِّقُ[٨] لطفها واتحادَها بوصفها. وأين هذه من وحدة الفاطر الذي لا يحصره الحاصر ولا يُمثّله الخاطر، وهو الأول الآخر الباطن الظاهر،[٩] المجهول باعتبار المَظاهر، المعروف بالحيرة عند أولي البصائر. فقد بان لك أنه لا يقال: إن الصور موجودة في واهب الصور، كما يقال: إن النار موجودة في الخشب[١٠] والفروخَ في البَيْضة.

---

١ ش + للقائل ولا يكون بارئه الذي هو معاني هذه الأسماء محدودا مدركا.

٢ ن: منبئة.

٣ ن: إلى الآت.

٤ ك: بالأظراف. وفي هامش ك: بالأطراف.

٥ الصِّنو: النظير والمثل؛ وهما صنوانِ، وهم صنوانٌ (المعجم الوسيط، «صنو»).

٦ ش ن – له.

٧ ك: المقطور. وفي هامش ك: المفطور.

٨ ن: تتحقق.

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٣ من هذه السورة.

١٠ ك ن: في الحشب.

فصل [النفس الناطقة]

النفس الناطقة ثمرة الكون وغاية الوجود، إذ كل صورةٍ ومعنًى من كل مبدَع[١] إليها ينتهي. ويجوز أن يقال: هي مبدؤه ففيها / الكل بالقوة التي هي كالبَزْر. وهذه القوة هي من جملة خصائصها، ولا يقال: هي غيرها. فيجوز بهذا الاعتبار أن يقال: إن النفس هي الكل وليس الكل غيرها. وهذا رقيق بمرة، ولكنا[٢] نترجمه فنقول: إن الأشياء كلها موصوفة بالنطق منعوتة به، فصار النطق سببا لوصف كل موصوف ونعتِ كل منعوت. ولا يدرك الموصوف قولا إلا بالوصف والمنعوتُ إلا بالنعت. ولا سبيل إلى النعت والوصف إلا بالمنطق. ولا شك أن المنطق ليس في غاية التمام، لأنه لا يقدر أن يصف الدقائق إلا بالأمثال والتقريب إلى الأوهام دون الحقائق لدقة الغَوْر[٣] فيها. وذلك لأن المنطق زماني جسماني مرَكبٌ تركيبَ كثيفٍ. والشيء الذي يصفه المنطق قد يكون روحانيا لطيفا. فلا يبلغ الجسماني بالصُّوَر أداءَ حقوق الروحاني بالحقيقة، فافقه. فإذًا هنالك فضلة من المعاني يُدركها بعض الأنفس بالإشارات لا بالعبارات. إذا كان المدرَك موجودا حاصلا للنفس فالألفاظ إذًا تَهْديها إلى الاطّلاع على ما هو فيها وإلا فلا. فالكلام بالحروف محمول[٤] فيه المعنى المقيَّد بها. فأما عند النفس فالحروف والنَّغَم والصوت والتركيب واحدٌ متحدٌ بها. وإذا صار الشيء متحدا خرج عن حدّ التركيب الجسماني إلى حد البساطة فدخل في حد التمام. ففي النفس مع هذا فضلةٌ عما يُدرَك بالمنطق فهو يشير إليها معترفا بقصوره عن التعبير[٥] عنها. فقد عادت النفس بما فيها من سائر مدلولات المنطق وما فَضَل عنه واحدة. فهي حاملة للكل حملا بسيطا لا تركيب فيه، ولا تحتاج محمولاتُها إلى أماكن شتّى منها، فتكون مباينة لها، أو متباينة فيها. فصار لها التمام من جهة المركَّبات، وهي فوق التمام من جهة ما فَضَل لها بالذات. وعادت مبدأ الكل وفيها الكل وإليها ينتهي الكل، وهي واحدة جلّت عما يشار إليه بلفظ الجزء والكل. [٤٣٥ظ]

[الرد على "الموحدين" أو الملحدين في النفس الناطقة]

وفي هذه الورطة رَسَخ الموحدون[٦] بزعمهم، إذ قالوا: إن الله هو الكل، لأنهم قالوا إذا كان الكل متحدا بالنفس وهي هو من غير غيرية، فالنفس بما فيها أشدُّ اتحادا بالبارئ

---

[١] ن – من كل مبدع.
[٢] ن: ولكن.
[٣] ن: الفور.
[٤] ك: مجهول. وفي هامش ك: محمول.
[٥] ك: عن التغيير. وفي هامش ك: التعبير.
[٦] ش ك: الموحدين.

وهو هي من غير غيرية. فسَرَوْا في هذا المَسْرَىٰ وولجوه من باب القياس والمثال. وهذا[1] غلط، لأن السِّوَى كلّه مبدَع وليس بأزلي، فهو يشبه بعضه لبعض ولا يُمكن أن ينعطف إلا عليه. وأما صانعه فلا نسبة له إليه. فمن مثّله به أو شبّهه فهو من المشبهة. ثم حملهم على ذلك حب المعرفة وغلبة الشوق إلى الصانع. فتناهَوْا في رياضة الأنفس وتصفيتها فصار لهم كشفٌ وذوق هو لازم عن رياضتهم. فهم يصيبون إذا قابلوا المحدثات. فأما إذا قابلوا مبدِعَها فلا ينطبع في مرآة ذوقهم إلا ما هو مبني على أصل عقائدهم التي هي أسّ مباديهم. فلمّا خالفتْهم الشرائعُ تأولوا لها تأويلات واتبعوا منها ما تشابه وعادُوا بها إليهم. ولم يستندوا إليها إلا فيما وجدوه حجة لهم، ونسبوها إلى أنها جاءت على مقدار عقول الجمهور. فجعلوا باطن الشرائع مخالفا لظاهرها، وتمدحوا بأنهم هم أصحاب الباطن، لأن لهم العلوم والأذواق. وقد قامت لهم براهينُ بصدق دعواهم. منها إخبارهم بالمغيبات، وإطلاعهم على كثير من الحِكَم والمشكلات، والاقتدارُ على إظهار [٤٣٦و] الكرامات، والتمكن من التصرف في كثير من أنفس / الناس والمخلوقات بأنواع من ضروب التصرفات. فما شك أحدٌ منهم ولا من رأى أو سمع بما ظهر عنهم أنهم بلغوا المرام إلا من هدى الله ممن اتبع رضوانه سبيلَ السلام. ثم هبّت عليه نسمةٌ لذيذة من هواء حب الرياسة، وزُين ذلك في قلوبهم من باب الفتوى لطلب النفع المتعدي، حتى ظنوا أنهم كُلِفوا ذلك كما كلِّفت الأنبياء. فمنهم من أظهر الرياسة فانقاد إليه خلائقُ. ومنهم من لم يرضَ[2] إظهار ذلك ولا التعريف بنفسه رغبةً في الرتبة العليا كتمانا لأمره، فهو بنفسه أشد فتنةً وأعظم غِرّة وأقوى رياسةً. فلمّا جزموا بما علموا عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم.[3] فهم ملحَقون بتبّاع بعض الشرائع المنسوخة أو الملحدين[4] الصابئين عن اتّباعِ شريعة. ولو دخلوا من الباب وهو ما أنزله الله من الكتاب لتحققوا أن الله تعالى جعل الأقوال والأفعال وكلّ ما يخطر في البال من باب الأمثال. ولهذا قدم قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، يريد سائر الأمثال لسائر الناس، ثم قال بعد ذلك: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾،[5]

---

[1] ك ن: وذلك.

[2] ش: لم يرضى.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٧١).

[4] ن: والملحدين.

[5] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر، ٥٩/٢١-٢٤).

وتمام الآيات إعلاما بعد ما ظهر من الآيات المقدمات أن سائر ما يستقر في الذوات من أسماء الصفات ليس إلا أمثلة تُعطي التعظيم، وهو العلي العظيم. فالنفس الناطقة مثل مضروب بالفعل. وسائر ما قدمناه فيها وما يُخبَر به عنها وينسب إليها وأضعافُ أضعافه وصفُ مخلوقٍ، والله خالقه، ومثالٌ مضروب، ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛[1] ومُلك، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾؛[2] وحكمة، ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ﴾؛[3] وعِلم، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾؛[4] ومعلوم، ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[5]

[الولاية والكرامة]

فقد بان في هذا الفصل من تعظيم النفس ما يكفي [و]من توحيد الحق ما يشفي. وآية[6] ما ادعيناه في علوّ رتبة الأنبياء أن الحكماء لهم أخبارٌ وحقائقُ تُستحسَن، والأنبياءَ لهم مع ذلك آثارٌ وخوارقُ تُستعظَم. وأما الأولياء فهم تبّاع الأنبياء لا غير، ولهم كرامات. ولا تُبطِل كراماتُ الأولياء معجزاتِ الأنبياء، بل تُحقق صدقَها وتُثبت حقَّها وتُعطي طمأنينةً بعد الإيمان بها. فكلاهما حق وبينهما فرقٌ، هو أن الكرامات من كرم الله، والمعجزاتِ من قدرة الله. فالنبي أُمر بالفعل إظهارا للقدرة، والولي أبيح له الفعلُ إظهارا للكرم. وتفسيرُ الولي بالتحقيق ليس إلا أنه عبارة عمن اتخذ[ه] الله وليا فجعله متوليا سائر أموره، وليس ذلك إلا باتباع أوامره الصادرة بلسان نبيه، فافهم. وأما الآحادَ المجذوبون فهم على هذا الحُكم وإن كانوا لا يعلمون. وليس المراد الآحاد، بل فضلُ الله عامٌّ على سائر العباد من غير هوى. وليست الكرامات علامة الوَلاية، لأن مثلها يظهر من الرهبان، فهي من خصائص أفعال الإنسان، أو ما فُطر[7] عليه[8] للابتلاء والامتحان. وأما الولاية فليس إلا اتباع أمر القرآن. فالولاية كاملة والنبوة كاملة ومُكمّلة. فالولي كالمَلَك، والنبي كالإنسان الذي ساوى الملك من طرف وزاد عليه من طرف آخر إذ[9] لم تحكم عليه المادة بل صارت[10] معينة له على الغرض الذي لأجله حصل التركيب وعُطّلت الوحدة والبساطة. فليس الكمال في فقدان قوتي الشهوة والغضب،

---

[1] ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة إبراهيم، ٢٥/١٤). وانظر أيضا: سورة النور، ٣٥/٢٤.

[2] سورة البقرة، ٢٤٧/٢.

[3] سورة البقرة، ٢٦٩/٢.

[4] سورة يوسف، ٧٦/١٢.

[5] سورة النحل، ٨/١٦.

[6] ن: وآنه.

[7] ك: ما قطر.

[8] ش: إليه.

[9] جميع النسخ: إذا.

[10] ن: بل سادت.

بل في استخدامهما[1] بحيث لا تُنازِع بل تُساعِد، ولا تَعيق بل تُعين. وبهذا صار الإنسان كاملا مُكمّلا.

فصل [لا مشابهة بين صفات الله تعالى وبين صفات المخلوق]

[٤٣٦ظ] قد صح بما قدمناه ومثلِه أن المفطور الذي هو في غاية اللطافة لا يكون / مماثلا للطافة الفاطر فيجانسَه من جهة. فكيف يجوز ذلك من سائر الجهات حتى يقال: هو كل ما في الأرض والسماوات، لأن اللطافة عادت صفة للمفطور. وأما الفاطر فهو الذي جل مسماه عن اسمه المعروف من اللطافة. وإذا لَطُف عن اللطافة فمحال أن يحتمل الكثافة. ولهذا ضرب الأمثال لنفسه ثم قال: لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ.[2] وإذا خرجت أسماء الله تعالى عن الدخول في العقول فأين هناك قول القائل هل علمُه هو[3] أم غيره؟ ولنزِدْ البيان إيضاحا بأمثال[4] فنقول: إن بين الحواس تباينا والحاسّ بها واحد. ومن سرِّ ذلك الإعلام بتفنن قدرة الصانع والإقرارُ بعجز المصنوع. فالبصر يدرك ما قابله[5] من السماء مع بُعْدها عنه، والسمع لا يدرك إلا من بُعْد يسير[6] دون إدراك البصر بدرجات لا تكاد تتناهَى. والشمّ لا يُدرك إلا من بُعْد دون ذلك.[7] واللمس لا يدرك إلا من قرب ليس فيه مسافة. والذوق لا يدرك إلا بواسطة زائدة وهي الرطوبة التي تَصْحَب الطعام ليغوص في مَسامّ اللسان ويتصل بواسطتها إلى عصبه. ولهذا خُلقت المائيّةُ في الفم لفرط الاحتياج إلى ذلك. فعجزُ النفس عن الإدراك بالحواس الخمس إدراكا واحدا متساويا في المسافة ظاهرٌ، وتفنن القدرة من الصانع أظهر. ونحن إذا طلبنا الفرق بين شيئين فذلك يُحرّضنا على مشاهدة القدرة،[8] وإذا طلبنا الجمع بين شيئين فذلك يُحرضنا على مشاهدة الوحدة. فنقول: لا جائز أن يقال: العقل والعاقل والمعقول واحد إلا على طريق التوسع، أو من وجهٍ لا من كل وجه، كما لا جائز أن يقال: الأبعاد الثلاثة في الجسم واحد، أعني الطول والعرض والعمق.

فإن قيل: الجسم محسوس والوحدة فيه عارية، وليس كذلك العقلُ، فإن الوحدة فيه بالوجوب والكمال؟ فالجواب هذا مقبول، وهو موضوع على سواد العين ومصون

---

١ ش ك: في استخدامها.

٢ سورة الشورى، ٤٢/١١.

٣ ن – هو.

٤ ك – بأمثال، صح هـ.

٥ ن: ما قائله.

٦ ن – يسير.

٧ ن – دون إدراك البصر بدرجات لا تكاد تتناهى والشم لا يدرك إلا من بعد دون ذلك.

٨ ش + الوحدة.

في حَبّة القلب. ولكن العدد في الشاهد والغائب محفوظ الصورة لا يكون الكثير منه واحدا ولا الواحد كثيرا، أعني التثليثُ بالحس لا يعاند التثليث بالعقل، لأن طبيعة التثليث واحدة أينَ كانت وكيف وُجدت إلا أن كانت تلك المعاندة بالنوع، وهذا لا يدخل فيما قدمناه. فكيف تقوم ثلاثة في العقل وترتفع فيه كأنه يَكْذِب عند إياه؟ فمتى صار العقل والعاقل والمعقول شيئا واحدا ارتفع العقل أن يكون عقلا، والعاقل أن يكون عاقلا، والمعقول أن يكون معقولا. فما ذلك الواحد؟ وهنا[1] ما هو أعجب: كيف تُستفاد الوحدة من خارج وإنما الوحدة للواحد بالذات، ولهذا نَعمِدُ إلى المربَّع فنكسوه صورته مرة ونسلُبها أخرى فنقول "واحدا" بالعارية. وليس كذلك الواحد بالحقيقة فإنّ وحدته لا تنسَلِب، وعاريتنا له لا تثبت فتكون هو. ولو أمكن أن يُلحظ الوجود معرًّى عن الموجود لجاز[2] أن يُلحظ الموجود معرًّى عن الوجود، فالوجود نعت مفتقر إلى منعوت يقوم به.

فإن قيل: إذا ذكرت الموجود تصريحا فقد ذكرت الوجود كناية أردت ذلك أو لم تُرد، كقولك: "أب" يلزم عنه ابن، فالأول باختيارك والثاني باضطرارك؟ فالجواب هذا في غاية الحُسْن، ولكن هذه الجملةَ مدخولة، لأن الأب غير قولنا: واحد، فالواحد / ليس فيه تضمين كما ليس في النور ظلمة. فقول القائل "الكل" هو لا يصح، لأنه [٤٣٧و] مقابل بالعالم العلوي والسفلي. فإن أراد أن العالم قيامه بصانعه واستمداده منه، فهذا غير قوله: العالم هو، والعقل أقر لصانعه، إنه مع غناه به فقير إليه، ومع عزه به ذليل له سبحانه. فكيف يكون هو هو فضلا عن الطبيعة والأعيان المختلفة. وإذا كان الكل قد تَضمَّن الكثرةَ والواحد قد تنزه عنها بالوحدة فكيف يوصف بالكثرة ولا هو هي وبالعكس. وهذا كله خيال وخبط ومجاز، ولا يصح إلا باعتبار مّا. والواحد سبحانه يصح أنه واحد بكل اعتبار. فإن كان لقولهم: "الكل هو وهو الكل" حقيقةٌ فما أَوْلاك بالإبانة عنها، وإن لم يكن فما أحراك بالبرهان على فساده؟

[نسبة لفظة "الصورة" إلى الله تعالى]

فإن نُقل عن بعض المحققين أنه قال: إن الله تعالى روح العالم والعالم صورته، أو إن الله صورة العالم. فالجواب أنه لم يُرِد أن الله تعالى يوصف بالروح المخلوقة

[1] ن: هنا.

[2] ن: ولجاز.

من الأمر[1] وهو[2] هي وإن كانت غير مكيَّفة، ولا أنه تعالى يوصف بالصورة الشخصية أو النوعية أو بما يلحقه فيه نقص، تعالى عن ذلك. ولكنه سبحانه لمّا سمّى نفسه حيا وعالما وقادرا وسميعا وبصيرا وسمَّى الإنسان أيضا بهذه الأسماء، كقوله: فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا،[3] عادت هذه الأسماء للصانع والمصنوع. وقد تحققنا أنه لا شريك له سبحانه. فعلمنا أن هذه الأسماء تُنسب إلى الصانع على معانٍ لا توجب شِبْها ولا تقتضي نقصا، بل تدل دلالة ثابتة على وجود الصانع من غير تكييف. وكذلك القول في الروح، كقوله: وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى.[4] وكذلك الصورة في قوله [عليه السلام]: «خَلَق آدم على صورته». وكذلك اليد والعين. كل هذه الأسماء مشهودة للمصنوع مسمياتُها تعقلا وتيقنا، عِيانا وعرفانا، وللصانع وجوبا ولزوما تحققا وإيمانا، مع صحة الاعتقاد أنه تعالى ليس كما علمنا عرفانا بل ما أشرنا إيمانا. وهذا الكلام المنقول عن بعض المحققين هو معنى الحديث فيما رواه مسلم: «إن الله خلق آدم على صورته».[5] وإذا كان الإنسان على صورة الرحمن وهو العالم الأصغر.

فبمثل[6] ذلك قيل: إن العالم على صورة الرحمن وهو الإنسان الأكبر. وإيضاح هذا المقال يُفهَم عند أهله بضرب المثال مع غاية التنزيه عن التشبيه بما قيل أو يقال. وذلك هو أن قولهم: "إن الله تعالى روح العالم" يُفهم المراد من هذا الكلام بما معناه أنه لمّا كانت روح الإنسان مُحرِّكةً لجسمه والله تعالى محرِّك الكل بأمره قيل من باب التمثيل: "هو[7] روح العالم" ليصل إلينا المقصود بالمثال مع التنزيه عما يخطر من المثلية في البال. وكذلك[8] إذا قيل من هذا الباب: هو روح العالم، عاد العالم بما فيه كأنه صورة له، إذ هو محرِّك عنه كما تتحرك الصورة عن الروح. وهذا مفهوم ظاهر اللفظ. ويُفهَم من باطنه ما هو أدق من ذلك. وكذلك جوزوا أن يقال: هو صورة العالم، بمعنى أن الوجود الحقيقي له. فلمّا أعطى العالم بما فيه وجودا من عدمٍ صار وجود العالم

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).

[2] ك ن: هو.

[3] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٢/٧٦).

[4] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (سورة الحجر، ٢٩/١٥).

[5] وفي حديث ابن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٤٤/٢، ٢٥١، ٣٢٣، ٤٣٤، ٤٦٣، ٥١٩؛ وصحيح مسلم، البر ١١٥، والجنة ٢٨).

[6] ن: فيمثل.

[7] ك ن: وهو.

[8] ن: كذلك.

كلّا وجودَه،[1] إذ ليس له قوام بذاته. وصار هو سبحانه والعالم كموجود واحد من جهة اتحاد النعت، أعني الوجود. وصار كأنه صورة له به ظهر كما ظهر لنا المصوِّر بصورة صوّرها فهو -أعني المصوِّر- وإن لم / يُرَ عِيانا، فقد تحقق وجوده برهانا. ثم [٤٣٧ظ] إن أحكام تلك الصورة وصحتها ولطائفها ولطافتها دال على ما عند مصوِّرها. فكأنه قد صار بهذا الاعتبار صورة مشهودة بما صنعه وصوّره. وليس هناك جسمٌ له صورةٌ ولا صورةٌ كصورة إنسان أو غيره، بل حالةٌ عبِّر عنها بلفظ الصورة، كما يعبر بهذه اللفظة عن صورة المعنى المقرَّر في الأذهان عند إقامة البرهان. فهي تُشهَد[2] بالإيمان كما تشاهَد الصور الجسمانية بالعيان، بل هي أشد ظهورا وأقوى[3] تحققا في باب الإيقان. ولكن ليس آلة إدراكها كآلات المدرَكات الحسية، بل تلك الآلة هي النفس المطمئنة بعد كمال الإيمان، كقول إبراهيم عليه السلام: بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.[4]

ومع هذا إذا قلنا: "العالم صورته"، يجب أن تفهم هذا القول مقيدا بالحق لا ملحوظا بالظن. وتقييده أن نقول: "العالَم صورته في العالَم"، فافهم هذه الكلمة. وإيضاحها بالمثال أننا إذا قلنا: "الدار صورة الباني" -ولم نَرَ إلا بعض الدار- لم نر صورة الباني، بل رأينا صورة صانعٍ ما رأيناه من الدار بما رأيناه فقط.[5] فتكون رؤيتنا بالنسبة إلى صورته في الدار الواحدة أيسر اليسير، وتكون صورته في الدار الواحدة بالنسبة إلى رؤيتنا فوق الكثير.

وإذ قد تحقق هذا المقال بضرب الأمثال فيجب بعد هذا العرفان أن تنظر[6] بعين الإيمان التي قد كَحَلْتُها لك بجَلاء البرهان، فترى أنه إذا كانت الدار صورة الباني على ما شرحناه وكما شرطناه -ونحن نتحقق أن الباني له قدرة لا تتناهى على أن يَبني[7] ما شاء من كل دار لا تشبه الأخرى- وجب أن نقيد الكلام فنقولَ: إن الدار صورة الباني في الدار. ولهذا لمّا كانت صورته في الدار الواحدة أبدا تتباركُ في نظرنا وتتكبرُ لزم أن نقول عند رؤية كل ما يَتعرف إلينا به فيها: "الله أكبر"، وبقدر عُلوّه منا[8] يكون دُنُوُّنا منه.

---

[1] ش + وجودا؛ ك: وجودا؛ ن: وجود. وفي هامش ك: وجوده.

[2] ن: نشهد.

[3] ن: أو أقوى.

[4] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٠).

[5] أي بل عرفنا صورة الصانع الذي لم نره قبل بقدر بعض ما صنع من الدار.

[6] ن: أن ننظر.

[7] ك: على أن ينبني.

[8] ك ن: علوه من.

وآلة هذا النظر ذواتنا المطهَّرة من نجاسات الهوى بالتقوى. ولقد جهل من رام أن يُدرك مُدْرَكا بغير آلة إدراكه، كمن أراد أن يسمع بلسانه أو يتكلم بأُذنه. وأنت تتحقق بالإيقان ظهورَ روح الإنسان، فهي المرئية لكل راء والمَظْهرة لكل مرئي برز عنها من مصنوعاتها. فأنت لا ترى من الإنسان إلا روحه، هي الناظرة في ناظره، والمتكلمة بلسانه، والمتحركة في أعضائه. فالجسم آلة الكاتب والقلم آلة اليد. فإذا سقطت الآلاتُ في نظر امرئ لم ير إلا الفاعل، أعني روح الإنسان. ويجب أن تفقه أن هذا الفاعل وإن كان قلم القدرة الإلٰهية فليس هو كالقلم من جميع الوجوه، أعني ليس هو [إلا] آلة فقط، لأن القلم لا يَعود فعلُه عليه، والإنسانَ يعود فعله عليه.[1] فهو فاعل فقير إلى فعله، والله فاعل غني عن فعله، ولهذا، لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ.[2] وها نحن إذا اعتبرنا صورَ بني آدم أو أصواتَهم مع كثرتها لم نجد فيها واحدا يُشبه واحدا. وكذلك كل مخلوق لو أمكن تدقيق النظر لوُجد أنه ليس له ثانٍ. فهذه الواحدة من المخلوق دالة على وحدة الخالق. ومن هذا الباب ومثله قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.[3]

وهذه الصورة المصورة في تصور الإنسان هي مرشدة له إلى الاعتراف بوحدة الصانع من غير حلول، ولا سريان ذاتٍ ولا مماثلة، إذ قد بان أن كل مخلوق منفصل عن المخلوق الآخر، والصور الباطنة الروحانية والمعنوية كالصور الظاهرة الجسمانية واللفظية، / أعني لا واحدةَ منها تُشبه الأخرى. وإذا لم يماثل مخلوقٌ مخلوقا والنسبة [٤٣٨و]
حاصلةٌ فكيف يماثل مخلوقٌ خالقا ولا نسبةَ هناك؟ أم كيف يتحد به وإن كان الكل دالا عليه دلالةَ الصورة على المعنى بل أدل من ذلك وأظهرَ؛ إذ الصورة الواحدة دلت على معناها، والجسم على روحه، والصانع سبحانه ذل عليه كلُّ شيء وضدُّه من الأجسام والأرواح والصور والمعاني، والأنوار والظلم وغير ذلك كالعلم والجهل، فالكل صورته بهذا الاعتبار. وباعتباراتٍ تحقق للقول وجها تصححه العقول، وتُحققه الشرائع، ويتعالى به الصانع سبحانه. ولا يكون ذلك كما غَلِط [من قال:] "يا ليسَ الحكيمُ" وأمثاله، إذ زعموا أن الله تعالى صورة سيالة في العالم. ومنهم من قال: إن الله تعالى ثابت في الأشياء. وقال قوم: هو عين الأشياء، ولكن له مراتب،

---

[1] ن -.والإنسان يعود فعله عليه.

[2] سورة الشورى، ٤٢/١١.

[3] البيت لأبي فراس. انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٤٠٦.

فكل شيء في مرتبته وهو هو. وقال قوم: إن كرة العالم هي الله تعالى، وإن المعلول هو العلة. وإنما حملهم على هذه الأراء الفاسدة ما رأوه[1] من سَرَيان الوحدة في الموجودات، وأن وجود كل شيء متعلق بوجوده سبحانه. وسمعوا قول المحققين من الموحدين: إن الله تعالى مع كل شيء وفي كل شيء، ولم يفقهوا مرادَهم بهذا ومثله، فأنتج لهم هذا التوهم الخبيثَ، لأنه لو كان كذلك لكان الله تعالى محمولا في غيره، إذ كل صورة مفترقة إلى موضوع يحملها. ويلزم من ذلك أن يكون العالم قديما، فتبطل دلائل الحدوث. ويلزمهم أن يكون الله تعالى واقعا تحت الأزمنة مُخْتَلًّا[2] في الأمكنة في استحالة دائمة، لأن مِن شأن الهَيُولى[3] عندهم أن تلبسَ الصورة تارة وتخلعها تارة. فيكون الله تعالى عندهم تارة شخصا، وتارة نوعا، وتارة جنسا، وتارة منفعلا، وتارة غير ذلك، وهو كل ذلك وشِبه هذا من المحالات التي تأباها العقول الصحيحة والشرائع المحقَّقة.

وقد أجمع العارفون بالله سبحانه على أن الله تعالى مباين للعالم من جميع الجهات، لا يشبهه شيءٌ ولا يشبه شيئا، مبايَنَةً لا تقتضي تحيّزا بمكان وانفصالا، وأنه موجود مع كل شيء وجودا لا يقتضي ممازجةً واتصالا، بل صفته صفة لا تحيط بها العقول. فهو المتعرِّف بصفته التي لا صفة لها في علمِ عالمٍ فيه للعلماء به يقينٌ يعرفونه ولا يعرفونه بسواه،[4] بل يعرفون به سواه.[5] وأما الجمهور فإنهم يعلمون ذلك بما تدل عليه الدلائل من غير تصوير ولا تمثيل، وسائرِ ما نسب إليه من العين واليد، والصورة وسائر الأسماء. كذلك تُثبَت ولا تُكيَّف، بل يُعلم بما عُلم أنه ليس كما عُلم، وأنه معطي المعلومات كلِّها. فله الأسماء الحسنى[6] وجوبا، وهو المتعالي بذاته عما نحيط[7] به علما من صفاته. فافهم هذه الدرة اليتيمة لئلا تعتقد الاتحاد في واحد متكرر بالرتبة،

---

[1] ك ن: ما رأوا.

[2] ش: مختلا. | محتلا: أي داخلا.

[3] الهيولى: هي عند الحكماء شيء قابل للصور مطلقا من غير تخصيص بصورة معينة و يسمى بالمادة كما وقع في بحر الجواهر. وجاء في كشف اللغات: الهيولى شيء تظهر فيه صور الأسماء، وذلك ما يسميه الصوفية الأعيان الثابتة، والمتكلمون حقائق الأشياء، والحكماء ماهيات الأشياء (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الهيولى»).

[4] ش: سواه.

[5] ش – بل يعرفون به سواه؛ ك – بل يعرفونه به سواه، صح هـ.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٠).

[7] ن: عما تحيط.

فليس الاثنان واحدا،[1] بل واحدان، فهما واحد متكرر في مرتبتين. والواحد الأول سبحانه لا يحتاج إلى مراتب بل هو مرتِّب المراتب، ولا اتحاد له بغيره، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾.[2] ومن عز عليه فهمُ ما قلناه فليسلك سبيلَ المحبة التي هي التقرب بالنوافل،[3] وهي بَعد الفرائض الشرعية. فبذلُ أعَزِّ مجهودٍ يُنيل أعزَّ مطلوب، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾.[4] شعر:

لو لم تكن سُبُل الغَرام عزيزةً ... لا تُرتَقَى إلا بعزْمَةِ ماجد،
لَتوارد الضدان: أربابُ العلا ... والأرذلون على مقامٍ واحد.[5]

فالحمد لله الذي حبّب إلينا الثناء عليه، وأحوجنا إلى السؤال منه، وخلقنا لعبادته، [٤٣٨ظ] / وعرّفنا بغِناه عن ذلك كله، ومكّننا تمكينا بقدر احتياجنا؛ فما في طاقتنا لا نَعْجز عنه، وغيرُه لا نقدر عليه ولا نحتاج إليه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

[1] ن – واحدا.
[2] سورة مريم، ١٩/٩٣.
[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه. فإذا أحببتُه كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» (مسند أحمد بن حنبل، ٦/٢٥٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).
[4] سورة العنكبوت، ٢٩/٦٩.
[5] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه:
لو لم تكن سبل الولاء بعيدة
لا تُنتحى إلا بعزمة ماجد
لتوارد الضدان أرباب العلا
والأرذلون على محل واحد.
انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٣٦١.

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾

قد سمع الله قول التى تجٰدلك فى زوجها، أي فيما فعل معها زوجها، وتشتكى إلى الله، بما تشتكيه إليك من أجل أنها قد بانت من زوجها، إذ تَظَهَّر منها. وهذه القضية وإن كانت قد نَزلت في حق امرئ[1] لواقعة مخصَّصة فالحكم عامّ، والمشروع مستمر. والله يسمع تحاوركما، تجاوبكما، والمِحْور ما تدور عليه البكرة لكثرة انقلابه وتردده. إن الله سميع بصير.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

ثم قال: الذين يَظَّهَّرون، بتشديد الظاء والهاء،[2] وأصله هو القول الذي كان مشهورا في العرب، وهو أن يقول: أنتِ علَيّ كظَهْر أمّي. وأما من قرأ يتظاهرون فهو أولى بأن يكون من معنى المظاهرة لا الظِّهَار، كقوله تعالى: وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ.[3] وإذا رأيت قراءتين إحداهما ليس فيها اشتباه وإن جازت الأخرى فاقرأ ما ليس بمشتبه، لأن ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ.[4] والمعنى يتبرءون،[5] منكم مِنْ، ولهذا لم يقل: على نسائهم، أي يجعلون ما قالوه من لفظ الظِّهار محرّما عليهم الأزواجَ. ما هن أمهٰتهم، بكسر التاء. إن أمهٰتهم، برفعها، إلا الّٰئى وَلَدْنَهم، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزُورا، يشير إلى ما قالوا من لفظ الظهار. وإن الله لعفو غفور، لمن تاب عن ذلك القول وتركه.

---

[1] ش: أمرء.

[2] وهي قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، كما في تفسير القرطبي، ٢٠/٢٨٥.

[3] ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (سورة التحريم، ٦٦/٤).

[4] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٢٣).

[5] ن: يترؤن.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾

والذين يظَّهرون من نسائهم، في المستقبل، **ثم يعودون لما قالوا**، بمعنى إلى ما قالوا، أي ثم يعودون مرة ثانية يقولون ما قالوه في الأولى. وهذا يدل على أنه إذا قال أول مرة فليس عليه شيء. ولكنه إذا عاد لِما[1] قال، **فتحرير**، فعليه تحرير، **رقبةٍ**. ولم يقل: مؤمنة لظهور الواجب كما بيّنّاه في سورة النساء.[2] **من قبل أن يتماسَّا**، أي من قبل أن يمس كلُّ واحد منهما صاحبَه، وهو كناية عن الجماع ههنا، كقوله: وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ.[3] ففي الأولى ليس عليه إلا أن يستغفر الله ويتوبَ عما كَذِبَه، فإنه كذب بما قال من المنكر والزور. وفي الثانية يجب عليه ما أوجبه الله قبل الوطء. فإن وَطِئَ قبل ذلك فقد خالف الله تعالى وتلزمه الكفّارةُ بعد التوبة؛ ولا تَجْزِئه[4] تلك الكفارة إذا أتى بها بعد الوطء، بل يجب عليه أن يفعل المأمور به مرة أخرى قبل الوطء، إلا إن كان جاهلا بذلك فعليه كفارةٌ واحدة مع التوبة. فإن تكرر منه الوطء مراتٍ وهو غير جاهل بالتحريم لزمه عن كل مرة كفارة. ثم لزمه بعد ذلك أن يأتي بالمشروع قبل المِساس ليكون المساس على وفق الأمر في البَعْدية والمشروعُ من الكفارة على وفق الأمر في القبلية. وما عدا ذلك فكفارة المخالفة الصادرة منه بالفعل لا كفارةُ القول. فافقه ذلك فهذا لازم هذه العبارة. والله أعلم بكلامه.

وقد قيل: إن وَطِئَ قبل الكفارة لزمهما حدُّ الزنى، لأنه أقام الظهار مقام الطلاق. وليس كذلك إلا إن عَزَمَ الطلاق، فإذا لم يقصد ذلك فالنكاحُ باقٍ. وحكمه في ذلك حكمُ الذين يُؤْلُون ما لم يصدر منه وطءٌ ولا كفارة. فالكفارة قُبالةَ ما بدا منه في اتباع أقوال الجاهلية وتقديمُها جُعل على سبيل الموعظة الزاجرة له عن العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وإلى التقديم أشار بقوله: **ذٰلكم توعظون به**. ولهذا[5] كرر قوله:

---

[1] ن: ولما.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء، ٤/٩٢).

[3] ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٧).

[4] ن: ولا تجزيه.

[5] ن: ولذلك.

مِن قَبْلِ / أَن يَتَمَآسَّا،[١] وإن فُهِم منه زيادة على ما قلناه. والله بما تعملون خبير، أي وإن [٤٣٩و]
أخفيتم ذلك عن الناس.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، من مسلم وكافر. وقد قيل: لا يلزم أن يكون الإطعام قبل المسيس كما لزم العتق والصيام بدليل أنه ذكره بغير مسيس، بخلاف الصورتين المقدمتين؟ قلنا: بل يلزم لأنه عوض عما يلزم. وإنما استغنى ببيانه في الحالتين المتقدمتين وهما الاكثر عن تكراره في الواحدة وهي الأقل للزوم ذلك عقلا ونصا. **ذٰلك**، الغرض وتقديمُه قبل المساس، **لتؤمنوا بالله ورسوله**، إيمانا فاصلا بينكم وبين الجاهلية والكافرين. **وتلك حدود الله**، للمؤمنين به. **وللكٰفرين**، بها من المؤمنين، **عذاب أليم**، عند الله. فهذا خاصّة[٢] وإن كان داخلا في العموم. وأما العموم فسيأتي بعد ذكر الآيات[٣] فهو إشارة إلى كل كافر. وأما ههنا فالمراد مَن خَرَج عن الحدود. ولهذا بعده: **إن الذين يحادون الله ورسوله**، أي يخالفونه فيما حدّه لهم فيجعلون حدا غير ما حده، **كُبِتوا كما كبت الذين من قبلهم**، وهم الذين قاتلوا الأنبياء وحادَدُوهم. والمعنى أُغيظوا وصُرِفوا بذُلّ. **وقد أنزلنا ءايٰت بينٰت**، مع كل رسول. **وللكٰفرين**، بها، **عذاب مهين**. ولهذا بعده: **يوم يبعثهم الله جميعا**، أي هم والذين مِن قبلهم، **فينبئهم بما عملوا أحصٰه الله ونسوه. والله علىٰ كل شىء شهيد.**

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

---

١ من الآية التالية.
٢ ك ن: خاصه.
٣ أي بعد الآية ٥ و٦ وما بعدهما.

ثم برهن على هذه الدعوى بقوله: **ألم تر أن الله يعلم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض،** هذا خطاب خاص بالنبي عليه السلام وعام لكل معتبر. والرؤية ههنا رؤية القلب بمعنى ألم تعلم، ولم يقل: ألم تعلم، لأن طريق تلك الرؤية بالبصيرة الرؤيةُ بالبصر لما في السماوات والأرض، وهو مبني على قوله تعالى: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.[1] وقد خلق ما في السماوات والأرض، فنحن نعلم ونرى ما به نعلم أنه يعلم ما في السماوات والأرض. ومن شاهد نظام الموجودات علم أن الصانع تقدم علمُه بما صنع، فكيف لا يعلمه بعد وقد علمه قبلُ. ولمّا كان عالما من قبل كعلمه من بعدُ قال بعد قوله: **يعلم: ما يكون من نجوىٰ ثلٰثة.** وأصل النجوى من النَّجْوة وهي المكان العالي. **إلا هو رابعهم، ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم،** بدأ بأول الجمع ليكون شفعا لكل وتر. ولمّا ذكر أنه رابعٌ تلا ذلك بما بعده في العدد وهو الخامس. ثم قال: **ولا أدنىٰ من ذٰلك ولا أكثر إلا هو،** أي بنفسه سبحانه، **معهم؛** وذكر المعية لتتحقق[2] الغيرية لكل منسوب إلى الأينية، **أين ما كانوا،** بالضمائر والنيات، والأبدان والخطرات. واعلم أن صدور المجالس حيث أميرُها، فاحذر من مجلس لم تكن فيه مأمورا لئلا تكون ساقطا، فإنه لا يكون سبحانه معك فيه عاضدا وإن كان عليك فيه شاهدا. **ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيٰمة. إن الله بكل شىء عليم.**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑧﴾

ولما كان النهي أولا عن قول وجعل الكفارة لازمةً لمن يعود إليه بعد مرة واحدة في عمره نهى ههنا عن قول ليس على قائله كفّارةٌ بل إثمٌ وعدوان، فقال: **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوىٰ،** بالإثم والعدوان. **ثم يعودون لما نهوا عنه ويتنجون،** وحذف الأول[3] لقوله ههنا:[4] **بالإثم والعدوٰن ومعصيت الرسول،** أي وبما فيه معصية له. **وإذا جاءوك حيّوك بما لم يُحيّك به الله،** وهو كقولهم: رَٰعِنَا،[5] وغير ذلك من كل تحية،

---

[1] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ١٤/٦٧).

[2] ن: لتحقق.

[3] أي الظهار.

[4] ش – وحذف الأول لقوله ههنا، صح هـ.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (سورة البقرة، ١٠٤/٢).

لأن تحية الله سلام كما أخبر عن الملائكة في الجنة،[١] وكما أمر المؤمنين في الدنيا بقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً / طَيِّبَةً﴾.[٢] وأما تحية الكفار من أهل [٤٣٩ظ] الكتاب فكانت بضد ذلك. ولهذا وصفها الله بقوله عنهم: ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول، أي لو كان محمد على الحق لكان الله ينتقم منا إذ نقول له ذلك ونطعن في دينه، وهو قوله تعالى: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾.[٣] فقال الله تعالى: حسبهم، أي يكفيهم، جهنم يَصْلَوْنها فبئس المصير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم قال للمؤمنين: يٰأيها الذين ءامنوا إذا تنٰجيتم فلا تتنٰجوا بالإثم والعدوٰن ومعصيت الرسول، جَمع في هذا النهي كلّ[٤] منهي عنه[٥] من كذب وسوءِ خُلق، ونفاق وغير ذلك لمن يتأمل هذه الأصول المذكورة. ثم جمع كل مأمور به عقلا وشرعا في قوله: وتنٰجوا بالبر والتقوىٰ، أي بما يُثمر لكم ذلك ويؤديكم إليه. ثم قال: واتقوا الله، بمعنى احذروا عذابه الذي هو على مثاقيل الذَّرّ من أعمالكم يوم الجزاء. لهذا ختم الآية بقوله: الذى إليه تحشرون.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

إنما النجوىٰ، بالإثم والعدوان ومصية الرسول، من الشيطٰن ليحزن الذين ءامنوا، إذا ناجاهم حزب الشيطان بذلك. وليس بضارهم، ذلك الشيطان، شيئا، أي ولا في أدنى ما يكون، وهو[٦] ما يقع عليه اسمُ الشيئية، إلا بإذن الله. افقه هذا جيدا لتعلم أن أفعال العباد أفعال لله[٧] تعالى وأن لا فاعل إلا هو، وإن كانت أفعالهم راجعة إليهم

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (سورة الزمر، ٧٣/٣٩).

٢ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (سورة النور، ٦١/٢٤).

٣ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ (سورة النساء، ٤٦/٤).

٤ ن + كل.

٥ ش – عنه.

٦ ك: فهو.

٧ ش ك: الله.

وعائدةً عليهم، فالفعل واحد لفاعلين، ولا شركة بينهما ولا إجبارَ. وإن صَعُب ذلك عليك فطالع قوله تعالى: مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ إلى قوله: كُلًّا نُّمِدُّ.[1] فقد أوضحنا ذلك هناك في عدة مواضع. وكررنا القولَ لعظم المنفعة بفهم هذا المعنى الذي بمعرفته تَصح السنة، ويتحقق التوحيد بتحقيق العبودية وتعظيمِ الربوبية. وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ولما ذكر أنه لا تقع ذرةٌ من ضُرّ إلا بإذن الله عرّف العباد أنه تعالى مكّنهم من كسب وإن كان هو المُمدَّ لهم به. فذكر ذلك في موضع الأمر لهم بمكارم الأخلاق والأدب النافع فقال: يٰأيها الذين ءامنوا إذا قيل لكم تفسحوا،[2] من الفُسْحة وهي الاتساع، فى المجْلس. فافسحوا يفسح الله لكم، عند الضيق في الدنيا، ويوسّع لكم في مجالس الجنة في الأخرى. وإذا قيل انشزوا، يريد اذهبوا، والنشز: العالي من الأرض وقد تقدم عند: وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا.[3] فانشزوا يرفع الله الذين ءامنوا منكم، قدمهم في الذكر، والذين أوتوا العلم درجٰت. انظر كيف جعل الإيمان إليهم والعلم إليه، وأخر العلم في الذكر لأنه سبحانه إنما يؤتيه بعد الإيمان. ولا تقل: فقد رأينا في الكفار علماءَ، فليس المراد إلا العلمَ بالله. ولمّا كانت درجات المؤمنين من الإيمان مختلفةً ودرجات العلماء من العلم كذلك كان الرفع من الله جزاء على ما صدر من المؤمنين. ولهذا قال أخيرا: والله بما تعملون خبير، فافقه كيف يرفع المؤمن على المؤمن لزيادة الإيمان، كقوله: فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا.[4] وذلك كإيمان أبي بكر[5] رضي الله عنه بالنسبة إلى من هو دونه في الإيمان وإن كان اسم الإيمان واحدا واقعا على سائر المؤمنين. فإذا علمت ذلك لم يُشكل عليك قولُه تعالى: يرفع الله الذين ءامنوا منكم.

[1] ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٨-٢٠).

[2] ك ن + في المجْلس.

[3] سورة النساء، ٤/١٢٨.

[4] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٤).

[5] انظر لمعرفة المزيد: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ٣٠/١٢٦-١٢٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾

وقد تقدم قبله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[١] لأنه في أول الآية نداء عام، ومثله قوله بعده: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا نٰجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجوٰكم صدقة**. بعض الناس يتصدق قبل كل فريضة. والصدقات أنواع منها الكلمة الطيبة.[٢] ثم عرّفنا أن ذلك ليس بفرض فقال: **ذٰلك خير لكم وأطهر**، لقلوبكم، لأن الصدقة تُكفِّر الذنبَ فيُطَهِّر القلب. **فإن لم تجدوا**، فاستغفروا الله، **فإن الله غفور رحيم**، ولهذا لم يقل: فإن لم تجدوا[٣] فلا جناح عليكم أو مثل ذلك. ولهذا أكد الأمر بقوله: **ءأشفقتم**، على أموالكم / مع القدرة [٤٤٠و] **أن تقدموا بين يدى نجوٰكم صدقٰت**، أي لا صدقة واحدةً بل صدقات مختلفاتٍ في أنواعها. **فإذ لم تفعلوا وتاب**، أي وقد تاب، **الله عليكم**، **فأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة**، وهذا يدل على صدقة غير الزكاة. **وأطيعوا الله ورسوله. والله خبير بما تعملون.**

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾

ولمّا كان البخل من صفات اليهود والكفار وكان الكرمُ أدلَّ دليل على الإيمان كما أن البخل أدلُّ على النفاق قال بعد ذكر الصدقة والمؤمنين: **ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم**، وهم اليهود والكفار، فتخلقوا بأخلاقهم في البخل والكفر. ثم وصف هؤلاء المنافقين بقوله: **ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب**، أي يقولون الكذب ويحلفون عليه[٤] أنه حق، كقوله: وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ،[٥] ومثله يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ.[٦] **وهم يعلمون**، أنهم كاذبون.

---

[١] من الآية السابقة.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «الكلمة الطيبة صدقة» (صحيح البخاري، الأدب ٣٤).

[٣] ش – فاستغفروا الله فإن الله غفور رحيم ولهذا لم يقل فإن لم تجدوا، صح هـ.

[٤] ن – عليه.

[٥] ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٦).

[٦] ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٦٢).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦﴾

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾

لن تغنى عنهم أموٰلهم ولا أولٰدهم من الله، أي من عذابه لهم بالجزاء على أعمالهم، شيئا. أولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٨﴾

يوم يبعثهم الله جميعا، أي هم وسائر الخلق. ويحتمل أن يكون قوله: جميعا، عائدا على المنافقين، أي لا يبقى منهم أحدٌ في قوم نبي من كل زمن إلا ويُبعث في ذلك اليوم. فإنهم وإن كانوا متفرقين بالأزمنة فإنهم مجتمعون بالنفاق فيبعثهم الله جميعا، فيحلفون له كما يحلفون لكم، الآن، ويحسبون، حين يحلفون لكم الآن، أنهم علىٰ شىء، من الحق. ألا إنهم هم الكٰذبون، في أيمانهم وإيمانهم.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩﴾

استحوذ، أي[1] استولى من كل جهة، من حاذ يحوذ مثل جاز يجوز،[2] عليهم الشيطٰن فأنسٰهم ذكر الله أولٰئك حزب الشيطٰن. ألا إن حزب الشيطٰن هم الخٰسرون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠﴾

إن الذين يحادّون الله ورسوله أولٰئك فى الأذلين، دنيا وآخرة، أي في حربهم وسلمهم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾

كتب الله، في الأزل: لأغلبن أنا ورسلى. إن الله قوى عزيز.

---

[1] ك ن – أي.

[2] ك: حاز يحوز.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوٰنهم أو عشيرتهم. أولٰئك كتب فى قلوبهم الإيمٰن وأيدهم بروح منه، في الدنيا. ويدخلهم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها. رضى الله عنهم ورضوا عنه: أولٰئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون.

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾

لمّا ذكر العزة والحُكم قال بعده ما يدل على ما قال بما فعل وذلك قوله: **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتٰب من ديٰرهم لأول الحشر**؛ مثلَ هذه اللام: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ،[١] ومثلها: لِعِدَّتِهِنَّ.[٢] والحشر هو الذي حشره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الجمع الذي جمعه لقتال اليهود. وهذا يدل على أنهم خرجوا من حصون مَنيعةٍ وبيوت عامرة هاربين لما ألقاه الله في قلوبهم عند أول الحشر، وهو الجمع. وما كان ذلك في ظن المؤمنين، بل ظن المؤمنون أن أهل الكتاب يقاتلون قتالا شديدا دون الخروج من ديارهم. فقال تعالى: **ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا**، هم، **أنهم مانعتهم حصونهم**، قبل ذلك، لأن اليهود كانوا قبل الحشر يظنون أن حصونهم مانعتهم من كل عدو. وقوله: **من الله**، أي من أمره، وما علموا أنه إذا أراد الله إخراجهم لم تنفعهم الحصونُ. **فأتٰهم الله من حيث لم يحتسبوا**، لأنه[٣] لم يكن في حسابهم أن الذُّعْر[٤] والرعب يُقْذَف في قلوبهم جملة.[٥] **وقَذَف فى قلوبهم الرعب**، حتى إنهم كانوا، **يُخربون بيوتهم بأيديهم**. وقوله: **وأيدى المؤمنين**، أي تخرّب أيضا. والدليل على أن المؤمنين خربوا أيضا قوله فيما سيأتي: مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ.[٦] ثم أمر المؤمنين / أولي الأبصار [٤٤٠ظ] بالاعتبار ليعلموا في مستقبل الزمان أنه لا مانع لهم من الله ولا من بأسه، لأن بأسه لا يأتي من خارج الحصن إلا وقد تقدم من داخل القلب من حيث لم يحتسب العبد

١ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ (سورة الإسراء، ٧٨/١٧).

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ (سورة الطلاق، ١/٦٥).

٣ ش: لأنهم.

٤ الذُّعْر: الخوف والفزع (لسان العرب، «ذعر»).

٥ ك ن: حملة.

٦ الآية ٥ من هذه السورة.

فيقذف في قلبه من الرعب ما يستعمل يديه في خراب ما بناه فيصير عونا على نفسه. وإذا صارت يد الإنسان عليه لا له ومن قلبه يؤتَى وهذا حاله في الدنيا فقد عاد هذا العذاب الأدنى دليلا له على صدق الوعيد بالعذاب الأكبر في الأخرى. **فاعتبروا يٰأولى الأبصٰر.** وليس هذا الكلام دالا على القياس كما في الشرع كما قيل: بل كما بيّنّاه في صدر هذا[1] الكتاب من أنه لا قياسَ بل لازمٌ.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾

ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء، وهو الخروج والذهاب عن الوطن، يقال: جَلَا وأَجْلَى، يتعدى ولا يتعدى. ومن أصله في المعنى "جَلوتُ السيفَ" إذا أزلت عنه الصَّدَأ، وجلوت همي. والاسم ههنا جِلاء بالكسر، وهنالك بالفتح. **لعذبهم فى الدنيا،** بأيدي المؤمنين، فجعل الله عذابهم بأيديهم، إذ كتب عليهم الجلاء في الدنيا. **ولهم فى الآخرة عذاب النار.**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

ولمّا أخبر سبحانه أنه كتب ذلك عليهم وكان ذلك موهِما بأنه أخبرهم[2] بما كتب عليهم أزال الشبهة منزِّها لنفسه عن الظلم بقوله: **ذٰلك بأنهم شاقوا،** شاقّقُوا، **الله ورسوله. ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب،** له في الدنيا والآخرة.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

ثم عرّفَ الله[3] المؤمنين أن الذي فعلوه بأهل[4] الكتاب من خراب ديارهم وقطع أشجارهم هو من جملة ما قضاه الله عليهم أزلا من الجزاء الذي استحقوه بأعمالهم فيما تقدم به علمُه أولا. فلمّا تقدم علمُه بذلك من قبلُ أذن لرسوله أن يفعله بهم من بعد، لأنهم لا يستحقون الجزاء إلا بعد الفعل وإن كان العلم سابقا قبل الفعل فقال تعالى مخبرا للمؤمنين: **ما قطعتم من لينة،** وهي الشجرة الصغيرة الليّنة، وقال الأخفش:[5]

---

[1] ك ن – هذا.

[2] ن: أجبرهم.

[3] ن – الله.

[4] ك ن: فعلوه من أهل.

[5] أبو الحسن سعيد بن مسعدة المُجاشِعي بالوَلاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط. نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ. سكن البصرة. أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتبا، منها: تفسير معاني القرآن، وشرح أبيات المعاني، والاشتقاق، ومعاني الشعر. توفي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م (الأعلام للزركلي، ٣/١٠١-١٠٢).

إنها واحدةُ لونٍ وهو الدَّقَل.[١] وقلبت الواو ياءً لِما انكسر ما قبلها.[٢] والدقل ضرب من النخيل،[٣] أو تركتموها قائمة على أصولها، ولم يقل: أصلها لئلا يُظنّ أن اللينة غصن أو فرع من أصل، فإن الشجرة الواحدة هي ذات أصول. فعرّفنا سبحانه أن جميع ما جرى عليهم فبإذن الله، جرى، وليخزي الفسقين، عن أمره سبحانه في كل زمن بما يستمعونه[٤] عن حال مَن كذّب الرسولَ وخرج عن طاعة الآمر.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾

ثم عرّفنا الله سبحانه ما يجب أن نعتمده أبدا بما قاله في قضية أموالهم بقوله: وما، أي الذي، أفاء، رَدّ، يقال: فاء يفيء فيئا إذا رجع، وأفأته أنا إذا رددته. والفيء ما رجع من أموال الكافرين فصار للمؤمنين بغير قتال، والغنيمة ما رجع من ذلك بقتال. فأما ما رجع من الغنائم فللّه خُمسُه[٥] ولمن[٦] ذكره الله هناك. وأما ما رجع بغير قتال وهو الفيء فللّه ولمن ذكره ههنا كله، وليس لأحد من الأغنياء فيه شيء بوجه من الوجوه. وأمّا ما عداهم من بقية المؤمنين غير الأغنياء فالرسول أو رب الأمر بعده يقسّم فيهم ذلك كما يقتضيه اجتهاده. وهؤلاء هم المأمورون بقوله: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ[٧] كما سنبين، فقال الله تعالى: الذي رد، الله على رسوله منهم، أي من أموال أهل الكتاب والكفار، فما، نافية، أوجفتم، أزعجتم؛ يقال: وَجَف يَجف وَجيفا إذا تحرك باضطرار،[٨] عليه من خيل ولا ركاب، إبل، ولٰكن الله يسلط رسله على من يشاء. جعل هذا الإيتاء من الله لرسوله خاصةً، وبين أنه[٩] سبحانه هو سلط رسله. فلهذا كان الرسول متصرفا فيما آتاه الله بما يراه من عطاء / ومنع بحسب ما يراه ممن عيّنهم الله من الفقراء [٤٤١و]
لا من الأغنياء. والله على كل شيء قدير.

[١] الدقل من التمر معروف، قيل: هو أردأ أنواعه. والدقل ما لم يكن من التمر أجناسا معروفة. والدقل أيضا ضرب من النخل عن كراع. ومن الدقل ما يكون تمره أحمر ومنه ما تمره أسود (لسان العرب، «دقل»).

[٢] معاني القرآن للأخفش، ٧٠٦/٢. وانظر أيضا: الجواهر الحسان للثعالبي، ٤٠٧/٥.

[٣] ن: من النخل.

[٤] ن: بما يسمعونه. وفي هامش ك: بما يسمعونه.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ (سورة الأنفال، ٤١/٨).

[٦] ش: وإن.

[٧] من الآية الآتية.

[٨] ن: باضطراب.

[٩] ن – أنه.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾

ولمّا أخبر سبحانه بذلك عرّفنا كيف يجب أن يفعل بالفيء فقال: **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرىٰ**، جميعا **فلله**، وسنبينه، **وللرسول**، أو من يقوم مقامه، **ولذى القربىٰ واليتمىٰ والمسٰكين**، من أقارب الرسول ومن بقية المسلمين. وقد بيّنّا المراد بقوله تعالى: وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ،[1] فافهمه في موضعه. والكلام ههنا في، **ذى القربىٰ**، عامّ يُفهم منه أيضا فقير له أقارب أغنياء، فنبّه الله[2] سبحانه على أن هذا الفقير وإن كان ذا أقاربَ فهو ممن يجوز له أن يأخذ من الفيء، ويجوز للرسول أن يعطيه. **وابن السبيل**، وهو أدل على الذين يتكففون الناسَ[3] في الطرق وإن احتمل غير ذلك. ثم عرّفنا بقوله: **كى لا يكون دُولَةً بين الأغنياء منكم**، إنه لا يجوز لغني أن يأخذ منه شيئا أو يُطمع نفسه بشيء منه فيتألّمَ إذا لم يُعطَ. فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو المعطيَ لذلك الغني اعتقادا منه عليه السلام بأنه من الفقراء فليس لذلك الفقير أن يأخذ إلا يجب عليه أن يعترف بأنه غني عن ذلك. وأما الفقير فإن أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من يقوم مقامه شيئا من ذلك فله أن يأخذ ذلك، كما عليه أن ينتهي عما ينهاه عنه مع احتياجه وضرورته إلى ذلك. فأنزل الله تعالىٰ هذا الكلام ليكون الفقير راضيا عن الله وعن رسوله وإن كان مضطرا، سواءٌ أعطى قليلا أو منع جملة. فالخطاب بقوله: **وما ءاتىٰكم الرسول فخذوه**، وتمامه خاصٌّ بالفقراء. ولمّا كنا قد نظن أن هذا الخطاب قد يعم الأغنياء والفقراء كرره في مواضع وبيّنه أولا بقوله: **كيلا يكون دُولَةً بين الأغنياء**، وأوضحه وخصصه أخيرا فيما سيأتي بقوله: لِلۡفُقَرَآءِ.[4] ومن الناس من ظن أنه تعالى لمّا قال أولا: **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**، عرّفنا ما يجوز لنا أن نأخذ من الفيء مع الغنى بقوله: **وما ءاتىٰكم الرسول فخذوه**. وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى قد نفى ذلك أولا بقوله: **كيلا يكون دُولَةً**، وبما بعده. وأما طاعة الرسول

---

[1] ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ (سورة النساء، ٣٦/٤).

[2] ن – الله.

[3] ن: للناس.

[4] من الآية التالية.

فهي معلومة في موضع قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾[١] وفي أمثال تلك الآية. ولو لم يكن الأمر على ما قلناه لعاد الكلام متناقضا كما يجده مَن تأمل. والدُّولة بالضم اسم الشيء الذي يُتداول به بعينه، والدَّولة بالفتح الفعل [نُقل] عن أبي عبيدة؛ والجمع دُولات ودُوَل، والدولة أن تداول إحدى الفئتين على الأخرى.[٢] يقال: كانت لنا عليهم الدَّولة بالفتح، والجمع الدِّوَل بالكسر. والدُّولة بالضم ما يتداولونه بينهم يكون مرة لهذا ومرة لهذا.[٣] ولا تَفهم من هذه الآية أن الفيء يقسم على مستحقيه بمقدار معلوم متساوٍ أبدا. بل القسمة عائدة إلى الرسول، يَنقص ويَزيد ويفعل باجتهاده ما يريد. وليس لأحد أن يتحكم عليه بل الأمر في ذلك إليه. فقال تعالى مخاطبا لمن يجوز له الأخذ من الفيء خاصة: **وما ءاتىٰكم الرسول فخذوه**، أي ما أعطاكم من الفيء. ولا تَفهم من هذا أنكم إذا سمعتم حديثا موضوعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسنَدا إليه اعملوا به واتركوا كتاب الله. فإن قيل: ما علامة الموضوع؟ فعلامته أنه يخالف الكتاب، فلا يكون هذا مما آتانا الرسول بل مما وُضِعَ عليه وإن نُسب إليه. ولا يقال: هذا الحديث بيان ما في الكتاب مع كونه مخالفا لمفهوم نص الكتاب، كما قالوا في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٤] على ما بيَّنّاه هناك. فما أراد الله ما قالوه ولا مثلَه في مثل تلك الآية. وأما[٥] طاعة الرسول فقد أمرَنا[٦] الله بها في مواضع أُخَر. وقد / بيّنّا ما سمعته فيها. والكلام ههنا يجب أن يُفهَم مفصَّلا لا مختلَطا، [٤٤١ظ] ومخصَّصا لا عاما، فافقه جيدا. إن جواز عمومه إنما هو جاء اتفاقا لا قصدا لازما من نص هذه الآية، بل كانت طاعة الرسول واجبةً علينا وجاء اللفظ ههنا محتملا للعموم. جعله أرباب الجدل حجة لهم.

---

١ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة المائدة، ٩٢/٥).

٢ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٥٣/٢٠. وانظر أيضا: لسان العرب، «دول».

٣ الدُّولة والدَّولة: العُقْبَة في المال والحرب سواء. وقيل: الدُّولَة بالضم في المال، والدَّولة بالفتح في الحرب. وقيل: هما سواء فيهما، يضمان ويفتحان. وقيل: بالضم في الآخرة وبالفتح بالدنيا. والجمع دُوَل ودِوَل. قال الأزهري: قال الفراء في قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾: قرأها الناس برفع الدال إلا السلمي، فيما أعلم، فإنه قرأها بنصب الدال، قال: وليس هذا للدولة بموضع، إنما الدولة للجيشين يهزم هذا هذا ثم يُهزَم الهازمُ... قال: والدُّولة برفع الدال في المِلْك والسنن التي تُغيَّر وتُبدَّل عن الدهر، فتلك الدُّولَة والدُّوَل. وقال الزجاج: الدُّولَة اسم الشيء الذي يُتداوَل، والدَّولة الفعلُ والانتقال من حال إلى حال (لسان العرب، «دول»).

٤ سورة الأعراف، ١٧٢/٧.

٥ ن: وما.

٦ ن: أمر.

[التقليد والتأويل]

ولا معنى لقوله تعالى: فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ،[1] إلا هذا. فإن أكثر ما ضل فيه أرباب الجدل[2] هو في المتشابه الذي يُفهَم منه عموم وخصوص. ويكون العموم مخالفا لبقية الكتاب والخصوص موافقا، أو بالعكس. فيتعلق المُبطل بما يخالف، ويتعلق المُحِق بما يوافق، كما قد وقع في الآيات التي يُفهَم منها الإجبار. فإذا علم المتقي أنها تخالف الآياتِ المحكمات ردها في التأويل إلى المحكمات وإن احتملت ما قاله الزائغ أيضا. وردها الزائغ إلى خَرْصه وهواه فعارض بها كتاب الله. ثم أخذ المقلد عن الزائغ ما وصل إليه. فإن كان قصدُه الجدل والمغالبة لا الحقَّ طبع الله على قلبه فلا يفقه إلا ما جاء[3] هو به. وإن كان قصده الحق ولكنه تحت عقد التقليد حَجَبه التقليد عن النظر اعتقادا منه أنه قد وصل وأنه يعجَز عن تحصيل ما لغيره حصل ممن هو مقلد له فيقول في نفسه: إذا كنتُ لا أصل إليه فكيف أردّ عليه. فإن اتفق لهذا المقلد محقٌّ قادرٌ على البيان فبين له وحَاقَقَه بالقرآن عرَف واعترف. ثم وقف وقال: لا أعلم كيف هذا، وأنثنى عن المحق فلم يكن له متبعا، لأنه يراه منفردا أو يظنه[4] مبتدعا، ثم اشتغل بشواغل دنياه عن تحقيق ما أشكل عليه فهمُه في كتاب الله؛ فهذا لم يُطبَع على قلبه بل باب الهدى مفتوح له، ولكنه هو لا يَلِجُه بل يعرض عنه لكونه واقعا[5] في ظلمة تقليده. ولو فَقِه هذا من قول الله تعالى مُنكِرا على المقلدين: أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ،[6] أن الله[7] قد أَمرنا أن نبحث بعقولنا عن عقول أقرب الخلق إلينا وأشفقهم علينا وعن هداهم وأن لا نُقلّدهم لم يقف مع التقليد. ومن لم يقف مع التقليد فقد اهتدى، إذ ليس [في عالَم الفكر] إلا التقليدُ أو الهدى، وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ.[8] فقوله ههنا: وما نهٰكم عنه فانتهوا، مخصص بالفيء. فلا تكون هذه الآية دليلا للزائغين الذين يتبعون ما تشابه من الحديث فينقضون به محكم الكتاب، ويستدلون بمتشابه الكتاب على صحة ما جاءوا به. واتقوا الله إن الله شديد العقاب.

---

[1] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (سورة آل عمران، ٣/٧).

[2] ن – الجدل.

[3] ك – جاء، صح هـ.

[4] ش: ويظنه.

[5] ك: واقفا. وفي هامش ك: واقعا.

[6] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧٠).

[7] ك ش – أن الله.

[8] سورة طه، ٢٠/٤٧.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

ولمّا كان الكلام بقوله: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ،[١] قد يُفهَم منه الإباحة للأغنياء في أخذ ما هو من الفيء إن أعطاهم الرسولُ عليه السلام أزال الاشتباه بقوله: **للفقراء المهٰجرين الذين أخرجوا من ديٰرهم وأموٰلهم**، لأجل الهجرة أخرجهم اتباع الرسول عليه السلام وهم أعزّاء. **يبتغون فضلا من الله ورضوٰنا**، فخصصهم دون من لم يهاجر. ويجب أن يكون هذا معطوفا على ما تقدم فيكونَ بيانا للمستحقين من المذكورين الأول. وذلك أنه تعالى لمّا منع أن يكون الفيء دُولةً بين الأغنياء وعيّن أقواما نفى الأغنياء منهم أيضا. وبيان ذلك أنه لمّا قدم قوله: فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ،[٢] بيّنه بقوله: للفقراء، أي الفقراء[٣] من هؤلاء. ثم وصف أقواما من جملة الفقراء المستحقين ببقية / الآية. ثم أتبع ذلك بقوله: وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ،[٤] [٤٤٢و] ليكون هذا البيان معمولا به إلى يوم القيامة بعد الأوائل المهاجرين الذين أُخرجوا يبتغون الفضل. **وينصرون الله ورسوله أولٰئك هم الصٰدقون.**

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم وصف من تقدمهم أيضا بقوله: **والذين تبوءو الدارَ**، يريد البلد، كقوله: فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ.[٥] **والإيمٰن من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا**، من القناعة، فافهمها فقد اختُلف فيها. ولهذا قال بعدها: **ويؤثرون**، غيرهم بنصيبهم، **علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**، أي احتياج إلى ذلك الشيء، فهو مما يجب أن يختصوا به دون غيرهم. ثم مدحهم ومدح أمثالهم بأوصافهم فقال: **ومن يُوقَ شُحَّ نفسه**، والشح أدنى البخل، **فأولٰئك هم المفلحون.**

---

[١] من الآية السابقة.

[٢] من الآية السابقة.

[٣] ن: أي للفقراء؛ ك - أي للفقراء، صح هـ.

[٤] الآية ١٠ من هذه السورة.

[٥] ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٧٧-٧٨). وانظر أيضا: سورة الأعراف، ٩١/٧؛ وسورة هود، ٦٧/١١، ٩٤.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾

والذين جاءو من بعدهم، بعد المهاجرين إلى دين الذين تبوؤا الدار من قبلهم. والعطف الذي في آل عمران -الذي هو: وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ-[1] دليله هو ما ههنا وهو قوله: يقولون ربنا اغفر لنا ولإخوٰننا الذين سبقونا بالإيمٰن ولا تجعل فى قلوبنا غلا، حقدا[2] وغشّا، للذين ءامنوا ربنا إنك رءوف رحيم.

واعلم أن في سورة الأنفال بيَّن الخُمُس وههنا[3] بين الكلَّ، وهو الفيء. وإذا لزم في الكل أمرٌ ونهيٌ بقوله: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ،[4] وتمامِه، أعني إذا لزم في كل الفيء للمستحق[5] من المؤمنين[6] أن يتأدّب ويقف مع ما يؤتيه الرسول أو ينهاه عنه فقد لزم أيضا ذلك الأدب والوقوفُ مع ما يؤتيه الرسول[7] في البعض وهو الخمس للمستحق من المؤمنين، وهم المذكورون في الأنفال. ولهذا عين الستةَ أقسامِ المذكورين بأعيانهم فبين بما في الأنفال بقوله: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ،[8] كيف يجب التصرف في الفيء عند عطاء المعطي. وبيّن ههنا بقوله: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ،[9] كيف يجب على المذكورين عند أَخذِ الآخذ منهم، أو مَنْعِهِ[10] من[11] أرباب الخمس مضافا إلى ما ظهر من الحِكَم المختصة بكل آية في موضعها والأحكام الواجبة منها. فافقه ذلك متأملا تجدْه إن لم تكن عجِلا، وليس لبيت المال شيءٌ إلا إن عُدمت سائرُ الأقسام أو فَضَل عنهم شيء.

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾

---

[1] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (سورة آل عمران، ٧/٣).

[2] ش: وحقدا.

[3] يشير المؤلف إلى الآية ٧ من هذه السورة.

[4] الآية ٧ من هذه السورة.

[5] ش: للمستحقين.

[6] ش – من المؤمنين.

[7] ش – أو ينهاه عنه فقد لزم أيضا ذلك الأدب والوقوف مع ما يؤتيه الرسول.

[8] ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤١).

[9] الآية ٧ من هذه السورة.

[10] ك: أو متعه.

[11] ن: أو منعه ما.

ولمّا قال عن المؤمنين ما يقولون لإخوانهم قال من المنافقين ما يقولون لإخوانهم، وذلك قوله تعالى: **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوٰنهم الذين كفروا من أهل الكتٰب لئن أخرجتم**، من دياركم،[١] **لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم. والله يشهد إنهم لكٰذبون.**

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم أخبر إخبارا عاما يعم المنافقين إلى يوم القيامة، وهذا فائدة هذا[٢] الكلام بعد قوله ما فيه كفاية، وهو قوله: إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ.[٣] فقال ليعُمّ كلَّ منافق في ذلك الحال والاستقبال: **لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم.** ثم قال:[٤] **ولئن نصروهم**، أي حضروا معهم في[٥] مقام الحرب لأجل نصرهم كما يزعمون، **لَيُوَلُّنَّ الأدبٰر ثم لا ينصرون**، الكفار بهم. فلم يبق مناقضا لقوله: **لا ينصرونهم**، أولا لأنه قال: **ثم لا ينصرون**، أخيرا. وإنما عرّفَنا ذلك لنعلم أن من المنافقين مَن يخرج إلى القتال نفاقا فلا ينصر بل يُولّي، ووصف هؤلاء بالنفاق مع الكفار بعد ما نافقوا المؤمنين بإظهار الإيمان.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال للمؤمنين: **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله، ذٰلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقٰتلونكم جميعا**، أي الكفار والمنافقون، **إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر. بأسهم بينهم شديد**، أي بأس المنافقين بين الكفار وهو عامٌّ أيضا. لهذا بعده: **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتىٰ**، من الأشتات المتفرقة. **ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون**، ما جاء عن الله من الترغيب لمن أطاعه والترهيبِ لمن عصاه. ولا شك أن داعي الحق واحد، ودواعي[٦] الهوى كثيرٌ. / فلزم أن تكون قلوبهم شتى لأجل الأهواء المختلفة. ولو كانوا [٤٤٢ظ] يعقلون لاتبعوا الحق فصارت المآرب كلها واحدة.

---

[١] ن – من دياركم.
[٢] ن – هذا.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ن – ثم قال.
[٥] ش ن – في؛ ك – في، صح هـ.
[٦] ك ن: وداعي. وفي هامش ك: دواعي.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾

ثم قال ما تقديره: مثل هؤلاء، **كمثل الذين من قبلهم قريبا**، أي في الدنيا عن قرب قبل جزاء الآخرة. **ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم**، في الآخرة أيضا، يشير إلى من تقدم قبلهم ففعل مع رسوله كما فعل هؤلاء مع الرسول عليه السلام من النفاق بالميل إلى الكفار.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾

ثم ضرب مثلا آخر لفعلهم مع الكفار، فالمثل الأول لهم فيما يجري عليهم وهذا فيما يجري منهم على الكفار،[1] فقال ما تقديره: ومثلهم،[2] **كمثل الشيطٰن إذ قال للإنسٰن اكفر. فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العٰلمين.**

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

فكان عٰقبتهما أنهما فى النار خٰلدين فيها. ثم قال: **وذٰلك جزٰؤا الظٰلمين**، لأنفسهم من هؤلاء وأمثالهم أبدا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

ثم لما ذكر الشيطانَ الذي يعبَّر عن الكفار والمنافقين وعن كل سوء وبليّة به لأنه عبارة عن جِماع الشر حذّر مِن طاعته فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله**، أي ولا تطيعوا الشيطان فيما يدعوكم إليه. وقوله: **واتقوا**، ثانيةً، أي ثم أطيعوا الله، فالأُولى تقوى من الله بمخالفة الشيطان، وهو ما يتعلق بالنفس من ضروب الهوى والميلِ إلى ما نهى الله عنه. ولهذا قال بعده: **ولتنظر نفس ما قدمت لغد**، وإنما قال: **لغد**، إشارةً إلى أن الدنيا كلها كيوم واحد. ثم قال: **واتقوا الله**، أي فيما أمركم به من الأعمال الظاهرة بالجوارح وتلك فيما يتعلق بالنفس فتكون[3] التقوى ظاهرا وباطنا. والأُولى

[1] ش – فالمثل الأول لهم فيما يجري عليهم وهذا فيما يجري منهم على الكفار.

[2] ك ن – ومثلهم.

[3] ن: فيكون.

أنه لمّا تقدم قوله تعالى: كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ، في الدنيا ثم قال: وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ،[١] أي في الأخرى نسق عليه [قوله:] **يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله**، أي اتقوا عذابه القريب في الدنيا. ويريد به ههنا الطبع على القلوب بالذنوب بدليلِ، فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ.[٢] ولمّا كان عذاب الآخرة أشد قال بعد قوله: **ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله**، أي اتقوا عذابه في الآخرة، وجعل قوله: **إن الله خبير بما تعملون**، مبيّنا أن العقابَيْن بأعمالكم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾

ولا تكونوا كالذين نسوا الله، أي نسوا لقاء الله فلم يُعِدّوا لأنفسهم عُدَّةً من العمل الصالح يوم لقائه. **فأنسٰهم أنفسهم**، أي فعاقبهم في الدنيا بأن أنساهم العمل الذي يعود نفعُه على أنفسهم، فكأنهم قد نسوها في حقيقة الأمر. وهذا مِن أدَلّ الدلائل على دفع الجبر، لأنه تعالى نهاهم عن تقديم فعل منهم يكون جزاؤهم مثله منه. وقد قدّمنا من مثل هذا البيان ما فيه كفاية. ولٰكنا[٣] نُنبّه على مثل ذلك في مواضعه ليقع الاستغفار من معتقَد الإجبار، ومن البيّن أن فاعل الخطيئة مأمور بالاستغفار، فلو كان مجبرا لَما حسُن أن يؤمر بأن يكون مستغفرا. فافقه ما أحسنَ هذا! فهؤلاء المذكورون في هذه الآية لمّا نسوا العمل لله أنساهم العمل لأنفسهم عقابا على ذنبهم بعين الذنب، لأنه لمّا كان مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ،[٤] فمن نسي عمله فقد نسي نفسه وأهملها إذ خرج عن أمر ربه. **أولٰئك هم الفٰسقون**.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

ولمّا كان قد تقدم [قوله:] وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ،[٥] قال بعد ذكر الفاسقين: **لا يستوى أصحٰب النار وأصحٰب الجنة أصحٰب الجنة هم الفائزون**.

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾

---

[١] الآية ١٥ من هذه السورة.

[٢] من الآية الآتية.

[٣] ن: ولكننا.

[٤] ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت، ٤٦/٤١).

[٥] سورة السجدة، ٢٠/٣٢.

ولمّا كانت التقوى عبارةً عن فعل من[1] اتقى المخالفةَ أمرا ونهيا، وذلك جميعه مُفصَّل مُبيَّن في القرآن قال بعد الإنذار بالنار لمن خالفه: **لو أنزلنا هٰذا القرءان علىٰ جبل لرأيته خٰشعا متصدعا من خشية الله**، أي لو كان الجبل ممن يعقل ويَشعُر بما أنزله الله في هذا القرآن من الزواجر والوعيد وأهوال القيامة وما بعدها، مع غِلَظه، وجفاءِ طبعه، وشدةِ قوته وكِبَرِ جُثّته فخالف القرآن لَخشع وتشقّق من خشية[2] مُنزِله

[٤٤٣و] سبحانه. / فالإنسان الضعيف الذي أولُه نطفة مَذِرَة[3] وآخره جيفة قَذِرَة[4] أولى وأحق بالخشية. وهو لا يزال مخالفا فلا يَلين قلبه ولا يخشع لربه سبحانه. والمراد بالخشية أن الذي يخشى لا يخالف القرآن. ثم لمّا كان ذكر الجبل على طريق المثل قال بعده: **وتلك الأمثٰل نضربها للناس لعلهم يتفكرون**، فيعلمون صحة هذا المثل بالتفكر.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

ولما قال: مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ،[5] ذكر بعده من صفات الله عز وجل ما يحقق العظمة ويوجب الخشية فقال: **هو الله الذى لا إلٰه إلا هو عٰلم الغيب**، هو ما غاب علمه عن العباد، **والشهٰدة**، ما شهدوه بالعين أو الفؤاد.[6]

[مكانة الأسماء الحسنى في الإيمان بالله]

واعلم أن كثيرا من الناس يخلقون في قلوبهم معتقَدا في ربهم بنظرهم الفكري، أو الظني، أو بتقليدهم، فذلك إلٰه المعتقد. ويتنوع هذا الإلٰه ويختلف ويُعبَد بصُوَرٍ شتى. وذلك الإلٰه هو مألوه العبد ومخلوقه لا خالقه. ولهذا سئل الجنيد عن العارف والمعرفة بالله فقال: لون الماء لون إنائه.[7] ومن ههنا غلط الفلاسفة في اعتقاد قِدَم العالم، لأنهم ظنوا أن الواحد الأول سبحانه لمّا كان حيّا قادرا لزم عنه وجودٌ حيٍّ قادر. وهذا غلط يلزم عنه استمرارُ الإيجاد أزلا وأبدا. وهو بخلاف صريح الشرائع، والصواب عكسه. وهو أنّا لمّا وجدنا الإنسان حيّا قادرا مختارا لَزِمَنا العقلُ بوجود حي قادر مختار متقدم عليه ذاتا وعلما. فالذي عرف من الصانع ليس إلا ما عَرف بالمصنوع لا غير.

---

١ جميع النسخ: عبارة عمن.

٢ ش + الله.

٣ مَذِرَتِ البيضة مَذَرًا إذا غَرْقَلَت، فهي مَذِرَةٌ: فَسَدَتْ وأَمذرتْها الدجاجةُ. وإذا مذرت البيضة فهي الثَّعِطَةُ، وامرأةٌ مَذِرَةٌ قَذِرَةٌ رائحتُها كرائحة البيضة المَذِرَة (لسان العرب، «مذر»).

٤ القَذَر: ضد النظافة (لسان العرب، «قذر»).

٥ من الآية السابقة.

٦ ك: والفؤاد.

٧ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ٢٥٥/٣.

فالمعروف كله لازم عن المصنوع تعقلا وعلما ضروريا. واللازم عن المصنوع لا تعلق له بذات الصانع ولا تَشَبُّهَ إلا بقدر ما يرجع على المصنوع فقط. وذلك نَزْر[١] ولا نسبة له إليه سوى أنه مصنوعه لا غير. فالمصنوع صفاته كذاته مصنوعةٌ وإن تَسمَّى بأسماء الصانع، كقولنا: عالم. ومُدرَكات المصنوع مصنوعة سواء كانت علما أو شهودا، فهذا حده. فهو مخاطَب بما يعلمه من أسمائه، مكاشف بها ذوقا وشهودا، متحقِّق بها علما ووجودا. فليس في عِيانه وجَنانه من وجوده وشهوده إلا هو. وهذا هو المحجوب بنفسه ما لم يحصل له الإيمان بالرسل. والإيمان بالرسل يُعطي أن الله تعالى ليس كما شاهدناه، أو علمناه بل هو معطي ذلك كله. وذلك كله خلْق لا خالق، وهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.[٢] فهو المتسمي لعباده بما أعطاهم من أسمائهم هداية بها إليه ودالّةً عليه، مع إفاضة ما به يكون تيقُّنُهم أنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌ﴾.[٣] فعلمُ الإنسان محدَث كيف كان وإن كان عِلْما بقديم. ولهذا كان منافيا للعلم الأزلي[٤] في الأزل والأبد. والأسماء الحسنى كلها من هذا القبيل. ولهذا إن لله عز وجل من الأسماء ما استأثر به في علم الغيب عنده ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.[٥] فقد عادت سائر الأسماء والأقوال داخلة في باب الأمثال، مشيرةً إلى الترقي في معارج التعظيم والإجلال.

* * *

ولمّا كان الإنسان زبدة الأكوان وقد تقدم العلمُ بكسبه وما يستحقه من العقاب على ذنبه جاء ذكر الرحمة بعد العلم أُنسا للعباد وإطماعا لهم في بلوغ المراد. فلمّا قال: عٰلم الغيب والشهٰدة، بعد قوله: لا إلٰه إلا هو، دل هذا النظم البديع بالمفهوم على غاية التخويف لمن أشرك بالله أو اتخذ إلٰهه هواه.[٦] ولمّا كان قوله: عٰلم الغيب والشهٰدة، يتضمن علْمَ كل شيء بكل اعتبار وحكم وعلى كل صورة وعلمٍ دخل في ذلك ما يسرّون وما يُعلنون من العقائد والأعمال وخائنة الأعين،[٧] وخَطْرة البال وكلّ ما قيل ويقال.

[١] النزر القليل التافه. قال ابن سِيده: النزر القليل من كل شيء (لسان العرب، «نزر»).

[٢] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٩-٥٠).

[٣] سورة الشورى، ١١/٤٢.

[٤] جميع النسخ: الأزل.

[٥] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٥٩).

[٦] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۞ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٤٣-٤٤). وانظر أيضا: وسورة الجاثية، ٤٥/٢٣).

[٧] ك ن: العين.

[٤٤٣ظ] فلمّا اشتد الحذر / وعظُم الخطرُ أعقب ذلك بذكر الرحمة كأنه يقول: إن الذي هو بما تعملون عليم، هو الرحمن الرحيم، إعلاما أنه لولا رحمته لأهلككم بما علمه مما سيكون منكم حين العمل. ودليله: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ.[١]

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم كرر قوله: هو الله الذى لا إلٰه إلا هو، منزِّها له عن الشريك المدلول عليه بمثل هذا الاسم، وهو قوله: الملك. ولهذا أعقبه بقوله: القدوس، وهو المنزَّه عما يخطر في البال من الصفة والمثال. فالفِطَر تعترف به عند الشدائد. والواصلون يَعرفونه بصفته التي لا صفة لها في علمهم. فلهم به يقين يعرفون به سواه ولا يعرفونه بسواه. وقوله: السلٰم، مشتق من السلامة لسلامة عباده من ظلمه، إذ كلٌّ منهم إنما يعود عليه من السوء ما صدر عنه. وقوله: المؤمن، معناه في اللغة المصدّق، لأنه سبحانه صدق كلامه بكلامه وأنبياءه بأنبيائه، كما صدق موسى بمحمد صلى الله عليهما وسلم، وصدق أقواله بأفعاله، وصدق نفسه بنفسه، فشهد أنه لا إلٰه إلا هو. ولهذا بعده: المهيمن، وهو الشاهد؛ وقد تقدم فيه كلام.[٢] العزيز، هو الممتنع عَزَّ على[٣] العقول إدراكُه، فهو في عزة قولِه: عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ،[٤] وهي في ذلة. قوله: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا،[٥] وهذه العزة مطلقة. ولهذا أعقبها بقوله: الجبار، يَجبُر[٦] عباده برحمته لهم، ولا يُجبرهم على أفعالهم مع قدرته على ذلك وعلى منعهم من ذلك. المتكبر، لفظ المتفعل إنما هو لمن يُنسب إلى شيء ولم يكن منه كالمتشجّع، إلا في حق البارئ تعالى، لأنه من باب استعلَى واستقرّ. ولمّا قدم قوله: لا إلٰه إلا هو، وكان المراد بما تلا ذلك من الأسماء تحقيق التوحيد قال بعده: سبحٰن الله عما يشركون.

---

١ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة النحل، ٦١/١٦).وانظر أيضا: سورة فاطر، ٤٥/٣٥.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (سورة المائدة، ٤٨/٥).

٣ ن: عز عن.

٤ من الآية السابقة.

٥ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ (سورة طه، ١١٠/٢٠).

٦ جبره: أصلح شئونه وعطف عليه؛ جبر الفقر: كفاه حاجته (المعجم الوسيط «جبر»).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قرّب إلى أفهامهم بذكر الخلق ما يدركون به حقيقة الفرق، وهو كقوله تعالى: أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ،[١] فقال: هو الله الخلق، يخلق من شيء ومن لا شيء. البارئ، المخترع لِما لم يتقدم له مثلٌ كالسماوات والأرض. المصور، هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ،[٢] في كل صورة إنسان، صور من هيئة عظامه وعروقه وأعصابه وغير ذلك. ثم قال: له الأسماء الحسنىٰ، لأن الأسماء كلها تنقسم إلى قسمين: حُسْنَى وقُبْحَى، كالعزيز وضده الذليل، والكريم والبخيل. فالإنسان له بنفسه الأسماء القبحى[٣] وبربه الأسماء الحسنى، وهو معنى [قوله:] مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ.[٤] وأما الله سبحانه فهو المنفرد بالأسماء الحسنى. وأما اسمه "المُنتقم"، و"المُضِل"، و"المُذِلّ" وأمثال ذلك فكله[٥] على طريق الجزاء لا على وجه من وجوه الابتداء. فتلك الأسماء له من جهة عباده جزاءً لا من جهة نفسه ابتداء، تعالى عن ذلك. ولهذا له الحمد على كل حال. يسبح له ما فى السمٰوٰت والأرض وهو العزيز الحكيم. قوله: وهو العزيز، بعد قوله أولا: ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ،[٦] هذه العزة لها اعتبار غير الاعتبار الأول. وكذلك يُمكن أن يقال في كل اسم من أسماء الله تعالى: إنه[٧] باعتبار مّا غير الاسم الآخر الذي هو هو في اللفظ؛ يَفْقَه ذلك معتبِرٌ هُدِيَ إلى طريق الاستنباط من علوم وصل إليها، أو ذو مَوهبة فطره الحكيمُ لما يشاء عليها. وقوله: يسبح له ما فى السمٰوٰت والأرض، هو كقوله: وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ.[٨] ومما يقال على طريق المثال: إن المعتبِر يرى كلَّ موجود مسبِّحا باسم من أسماء صانعه، فذو اللطافة يسبح باللطيف، وذو القوة بالقويّ، وذو السمع بالسميع، وذو البصر بالبصير. فإن كلّ موصوف صفته دالة على صانعها وهو الله خالقها. فتلك لسان مسبّح يُفصح بكله عن كله وعن مُمِدّه وبارئه. ومن ههنا قيل: إن كل / ما في الكون أسماء الله وصفاته، وهذا [٤٤٤و]
صحيح بشرط الفناء عما سواه والبقاء به سبحانه، أو في نظر الراسخين في العلم

[١] ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل، ١٧/١٦).
[٢] سورة آل عمران، ٦/٣.
[٣] ن: القبيح.
[٤] سورة النساء، ٧٩/٤.
[٥] ن: وكله.
[٦] من الآية السابقة.
[٧] ن – إنه.
[٨] ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ٤٤/١٧).

وإن لم يَلحقوا أصحاب العمل، فإن أصحاب العمل هم الذين لم يَبْقَ لهم مع الله اختيارٌ، فلم يبق لهم صفةٌ من جهة أنفسهم، فهم الموصوفون بما وصفهم به[1] سبحانه من قوله: «كنتُ سَمْعه وبصرَه».[2]

ولمّا كان كل شيء مسبِّحا باسم أو أسماء وكان الإنسان فيه من كل شيء كان هو الأولَ بأن يسبح الله تعالى بسائر أسمائه الحسنى وأن يدعَوه بها. فالمفهوم من قوله: فَٱدْعُوهُ بِهَا،[3] من ظاهر الكلام هو أن مَن طلب حاجة يُحسن أن يدعوَ الله بما يناسب حاجته من أسماء الله، كالفقير يدعو "يا غني"، والضعيفِ "يا قوي". ويفهم من باطن الكلام أن قوله: فَٱدْعُوهُ غير قوله: فادعوه منه، ويكون الدعاء بالحال لا بالقال.[4] والحال هو اتصاف الداعي بحيث لا تبقى له إرادةٌ بنفسه، إذ لا بد له من إرادة ولكن بربه. فإنّ إرادته أن لا يريد هي إرادةٌ بنفسه، وإرادتَه أن يريد ما أراد الله منه أن يريده إرادةٌ بربه، سواء أراد منه سبحانه إرادة مطلقة أو مقيدةً أو نفَى إرادةٍ. وقد نظم في هذا المعنى من قال، نظم:[5]

وليس لعبد أن يريد إرادة ولا نفيَها بل يأمر العبدَ سيدُه.[6]

وهذا له أصلٌ عند العلماء وهو أن الإرادة من المخلوق ميل لتكملة نقص. وههنا غلطٌ من الفلاسفة من نفى الإرادة عن البارئ سبحانه ظنا منه أن إرادة الخالق ميل منه إلى الخلق. فاضطره ذلك إلى القول بالفيض لا بالإرادة. ووجه الغلط أن الميل إذا لم يكن له تعلقٌ بذات الخالق فليس ذلك بمكمِّل لنقصٍ،[7] بل هو زيادة على كمال. ولو لم تكن له إرادةٌ لم يكن مكملا بل كاملا فقط. ولا يلزم من كون أن له إرادةً أن يكون الشيء المرادُ بها قديما، أعني الكون لئلا يكون المريد تحت قهر الإرادة، فيكون مجبَرا عليها فقيرا إلى مقتضاها. ليس كذلك بل هي له وهو غني بذاته عنها

---

[1] ن: بما وصفهم الله.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه. فإذا أحببتُه كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به ويده التي يَبطش بها ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما تردّدتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» (مسند أحمد بن حنبل، ٦/٢٥٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

[3] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٠/٧).

[4] ك ن: لا بالمقال.

[5] ن – نظم.

[6] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر. | ش + نثر.

[7] ك: فنقص.

وعن مقتضاها، فعاد وإن كان مائلا بالإرادة مكمِّلا لغيره لا لنفسه. ولم يكن ميله نقصا في ذاته بل كان ميله فوق الكمال. وكان اقتداره على ترك الميل فوق الفوق. ومنه قول القائل، نظم:[1]

شهودي لكم فوق حد الكمال   وإنكمُ فوقَ ما أَشهدُ،
وهذا غِنًى مطلقٌ لم يزل   كما ليس يشهد [من] يَجْحَد.[2]

والحمد لله رب العالمين. تمت سورة الحشر.

---

[1] ن - نظم.

[2] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء، ثم بيّن ذلك الاتخاذ بقوله: **تلقون إليهم**، أي قولا وإن احتمل غير ذلك، **بالمودة**، أي بالمودة التي كانت بينكم في الجاهلية، ولهذا لم يقل: بمودة. وليست الباء زائدة، وإنما معناها أنها باء التعدية. ولمّا كان الإلقاء قد يكون بالقول، كقوله: فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ،[1] وقد يكون بالسمع، كقوله: أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ،[2] عبّر لنا بهذه العبارة كيلا نلقي إليهم بلسان ولا بأُذن بمودة. فلو ألقينا بغير مودة لجاز، فافهم ذلك. **وقد كفروا بما جاءكم من الحق**. فهم، **يخرجون الرسول وإياكم**، واو المعية، وهو قوله: هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ.[3] / وتقديره كراهة، [٤٤٤ظ]
أن تؤمنوا بالله ربكم، أي ذَنْبُكم عندهم الإيمانُ. ويحتمل أن قوله: **يُخرجون**، في موضع نصب بمعنى مخرجين ويكون ذلك بقولهم ودعواهم، كما تقول: فلان خارج عن الإيمان خارج عن الحق؛ وتقول: فلان يُخرج فلانا عن الإيمان بمعنى يعتقد فيه أنه لا يؤمن بالله. وهذا هو المعنى ههنا، لأن الكفار يعتقدون الكفر فيمن خرج عن مذهبهم من المؤمنين. فهم يُخرجونهم أن يكونوا مؤمنين، ويكون الإيمان أيضا هو ذنبَ المؤمنين عند الكفار كما ذكرنا أولا، ولا يتناقض. ولما تم الكلام الذي أخبر الله به عن حال الكفار عاد إلى جواب الكلام الأول وهو شرطه، فهو منسوق به. وتقديره لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، **إن كنتم خرجتم جهٰدا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى**.

---

١ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة النحل، ٨٦/١٦).

٢ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ (سورة ق، ٣٧/٥٠).

٣ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ (سورة محمد، ١٣/٤٧).

ثم قال ما يحتمل أن يكون استفهام إنكار: تُسِرُّون، بمعنى أتسرون، إليهم، والأَولى[1] أنه إخبار لهم بحالهم، كقوله أولا: تلقون. وقوله: بالمودة، كالأولة، ومعناه كيف تسرون ذلك. وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم. ثم قال: ومن يفعله منكم، أي بعد هذا، فقد ضل سواءَ، عن وسط، السبيل.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ٢﴾

إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون، وإن لم يثقفوكم أظهروا لكم الصداقةَ والمودة. ثم عرّفنا أن المودة التي كانت بين المؤمنين والكفار وهي مودة الأقرباء لا تنفع يوم القيامة. وذلك يدل على[2] أن المنهي عن موالاتهم، [و]هم أقارب وأنساب، وإذا كان المنهي عن موالاة الأنساب والأرحام واجبا فغيرهم أولى بأن ينهى الله عن موالاته من سائر الكفار.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣﴾

وبيّن ذلك بقوله: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولٰدكم يوم القيٰمة، ثم كأنه كرر فقال: يوم القيامة، يفصل بينكم والله بما تعملون بصير.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٤﴾

قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبرٰهيم والذين معه، من المؤمنين. إذ قالوا لقومهم إنا برءٰؤا منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا، ظهر، بيننا وبينكم العدٰوة والبغضاء أبدا حتىٰ تؤمنوا بالله وحده، العداوة في الفعال والبغضاء في القلوب، وهي التي تظهر في الأقوال. ثم قال تعالى آمرا لنا بما معناه تَأَسَّوْا بإبراهيم إلا في استغفاره لأبيه المشرك فقال: إلا قولَ، أي إلا في قول، إبرٰهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك

---

[1] ن: الأولى.

[2] ك ن – على.

من الله مِن شيء، يعصمك من عذابه إن كفرت به. ثم نسق على ما ذكر عن إبراهيم والذين معه قولَهم: ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦﴾

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، أي لا تمتحنهم[1] بنا فتعذّبنا بأيديهم. المعنى أن الكفار إذا ظهروا علينا ظنوا أنهم على حق. ومن ههنا يُعلَم أن العامل بالشر يعود عليه عملُه. وأما المعمول معه ذلك لا يُعْمَل معه إلا ما يستحقه. فلهذا بعده: واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. فهذا من دعاء إبراهيم، فكان منه فعل حسنٌ وهو تبرئة من الكفار وقولٌ[2] حسن، وهو هذا الدعاء. ولهذا تكررت الأسوةُ ليُعلم أنه من كلامه وليعطف عليه ما بعده في بقية الآية، فكرره لما بعده فقال: لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة. ولمّا كان تمام الآية المتقدمة بعد ذكر الأسوة وصفا لأقوال الذين مع إبراهيم جاء تمام هذه الآية المتأخرة بعد ذكر الأسوة وصفا لأفعال الذين مع محمد صلى الله عليه وسلم. وذلك قوله: لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، أي منكم إلى[3] يوم القيامة. ومن يتول، أي لا تحسبوا أن عائد الإيمان ونفْعَه / يعود على الله، ولا تحسبوا أن ضرر الكفر يعود إلا على أنفسكم. فإن الله هو الغنى الحميد، سواء قبلتم أم تولّيتم عن إجابة الداعي. ثم وعدهم بأن هذا التبرُّء والعداوة وتركَ الموالاة هو السببُ في إسلام مَن ربّما أسلم منهم بطريق ذلك، أي من أقارب المؤمنين الذين هم على حالهم في الكفر. وذلك شدة الهجر والترك ممن أسلم لبقية أهله الكفارِ مع المودة التي كانت أكيدة. والقرابة والصحبةُ يُشعر كل ذي لب أنه لولا أنّ ما وصل إليه من أسلم أمرٌ عظيم وحق هائل لَمَا ترك أقاربه وأحبابه وهَجَرَهم هذا الهجرَ. ثم إن ذلك الهجر يزيد في المودة ويضاعفها في صدور الكفار للمؤمنين من أقاربهم. فيصير ذلك الهجر مع داعي المحبة والقرابة من الكفار محرّكا للكفار على اللحوق بالمؤمنين والدخول في زمرتهم واتباع الإسلام، فيكون نعمة على الفريقين. [٤٤٥و]

---

[1] ك ن: لا تمحنهم.
[2] ن: وقوله.
[3] جميع النسخ: وإلى.

﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾.

فلهذا قال تعالى: عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، بالإسلام إن فعلتم ما أمرناكم به من معاداتهم وترك موالاتهم. والله قدير والله غفور رحيم.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾

ثم عرّفنا أن هذه المجانبة الشديدة لمن عادانا. وأما[1] منع الموالاة فهو لسائر الكفار. ولكن يجوز لنا أن نُحسن إلى بعضهم دون بعض ونبرّهم ونُقسِط إليهم، ففصلهم[2] لنا بقوله: لا ينهٰكم الله عن الذين لم يقٰتلوكم فى الدين، خاصة لا في غير الدين، فإن القتال في غير الدين،[3] لا يشير إليه ههنا بأنه مانع. ولم يخرجوكم من ديٰركم أن تبروهم وتقسطوا، أي أن تعطوهم قسطا نصيبا من أموالكم ولكن بالقسط الذي هو العدل. ولهذا قال ما معناه: إحسانا، إليهم، ولم يقل مكان "إليهم": معهم، أو فيهم، أو غير ذلك. ولمّا كان القسط يقع في الأقوال والأفعال كالعهود، كقوله: فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ،[4] ذكر لفظ القسط ههنا ليدل على وجوب العدل في كل معاملة تحتمل[5] العدل والظلم. وقال بعد ذلك: إن الله يحب المقسطين.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

إنما ينهٰكم الله عن الذين قٰتلوكم فى الدين وأخرجوكم من ديٰركم، لأجل الدين أيضا. وظٰهروا علىٰ إخراجكم أن تولوهم، أي ينهاكم أن تتولوهم. ومن يتولهم فأولٰئك هم الظٰلمون.

يجب أن تقف وتَفهم ما ذكر في الآيتين وتُكرِّرَ النصَّ لتَفهم منه، لا من كلامي بل بكلامي. وذلك أنه تعالى ذكر في الأولى أنه لا ينهانا أن نُحسن إلى من لم[6] يُسِئ إلينا من الكفار. فذلك إباحة إحسان لا إباحة موالاة، لكنها إباحةُ ما هو محبوب منا

---

١ ك ن + من.

٢ ش ك: ففضلهم. وفي هامش ك: ففصلهم.

٣ ك – فإن القتال في غير الدين، صح هـ.

٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (سورة التوبة، ٩/٤).

٥ ن: يحتمل.

٦ ن – لم.

عند الله لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.[١] وأما العدوّ من الكفار فمسكوت على البر إليهم ومنطوق بالنهي عن موالاتهم. وأمّا موالاة مَن لم يقاتلنا فمنعها معلوم من قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[٢] فموالاة من لم يقاتلنا حرامٌ من آية أخرى،[٣] والإحسان إليهم مباح من هذه الآية. وأمّا من عادانا وقاتل أو أخرج فنهانا ههنا عن موالاته. وفائدة هذا النهي الخاص وقد دخل في العام أن العام لم يُفهَم منه إباحة البِرّ ولا منعُه. وأما ههنا فإنه ذكر منع الموالاة لعدو كافر بعد ذكر إباحة الإحسان إلى كافر غير عدو ليُفهَم جوازُ الإحسان. وذلك أنه إنما نهانا عن الموالاة فقط دون الإحسان،[٤] والأوائل يُظهر أنه أباح البر دون الموالاة. ولو لم نَفهَم أن الأوائل قد مَنع
[٤٤٥ظ] موالاتَهم من موضع آخرَ لكانت موالاتُهم جائزةً من هذه الآية، كما أن / الثواني قد جاز الإحسان إليهم من الآية الثانية، إذ ما لم يُخصَّص بالذكر فهو في محل الجواز،[٥] ولم يخصص بالذكر لا موالاة الأوائل ولا البِرُّ إلى الثواني. فلمّا منع موالاة[٦] العدو الكافر ولم يُبِحْنا البر إليه ولا منعنا ذلك أيضا لا في الآية المذكورة ههنا ولا في غيرها علمنا أن الأمر إلينا لنفعل فيه ما نراه إلا في أمر الوالِدَين. فإنه فَرَض علينا البر لهم مع شركهم ومع جهادهم لنا بقوله: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾،[٧] الآية. وأما من عدا الوالدين فالعقل كافٍ في أمرهم. وذلك لأن الإحسان إليهم مما يقوّيهم على الفَتْك والأذية للمسلمين وليس الأوائل كذلك. فلزم عقلا ونصا أن يبيحنا البر إلى الأوائل وأن لا يمنعنا[٨] ولا يبيحنا البر إلى الثواني. فافقه ذلك وتأنَّ فيه ليصل إلى خاطرك جليا إن شاء الله تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

---

١ من الآية السابقة.

٢ سورة آل عمران، ٣/٢٨.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٧).

٤ ك - وذلك أنه إنما نهانا عن الموالاة فقط دون الإحسان، صح هـ.

٥ ش ك: الجواب.

٦ ش ك: موالات.

٧ ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (سورة لقمان، ٣١/١٥). وانظر أيضا: سورة العنكبوت، ٢٩/٨.

٨ ك ن: لا يمنعها.

ثم قال: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا جاءكم المؤمنٰت مهٰجرٰت**، سمّاهن المؤمناتِ إشارةً إلى أنهُنّ إنما جاءوا لأجل الإيمان لا لأجل غير ذلك، وأنهن إنما هاجَرْن إليه، **فامتحنوهن**. وصورة الامتحان ههنا لم يعيِّنْها، لأنه تعالى جعل ذلك موقوفا على غلبة الظن من الممتحِن لهن في كل زمن وقومٍ بحسبهم. وهذا الامتحان إنما هو بحسب ما يظهر من أقوالهن وأفعالهن ظاهرا، وأمّا الباطن فهو لله. **الله أعلم بإيمٰنهن. فإن علمتموهن مؤمنٰت فلا ترجعوهن إلى الكفار**، هؤلاء الكفار هم أصحاب الهُدْنَة[1] خاصة إذا جاءتنا[2] من عندهم مهاجراتٍ إلى الدين فلا جائز بعد امتحانهن أن نُرْجِعَهن إلى الكفار. **لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن**. بيان ذلك أنه لمّا كان الكافر لا يجوز عنده أن يتزوج المسلمة عرّفَنا الله تعالى أننا لو رددنا إليهم مسلمة لَمَا كان[3] يتزوجها أحد من الكفار لأنها لا تحل له، فتبقى بغير بعل فتَهْلِكَ. وأما قوله: **ولا هم يحلون لهن**، فهذا معلوم، لأننا نحن أباحنا الله الزّواج من نساء اليهود والنصارى، ولم يبح نساءنا أن يتخذن من رجالهم بعلا. فهذا فائدة التكرار. وانظر إلى حكمة هذا الكلام في كونه غيّر العبارة. لمّا[4] تغير المعنى فلم يقل: "لا هن حل ولا هم حل" بل قال: **ولا هم يحلون**، بلفظ المستقبل. ويبين لك ذلك إذا جعلتَ اللفظتين[5] عن[6] شيء واحد فقلت: لا هو حل ولا يحل، أي لا هو حل الآن ولا يحل في مستقبل الزمان. فالمفهوم من هذه العبارة أن المؤمنات حل في أنفسهن، ولكنْ لهؤلاء ليسوا حلا. وأما الكفار فلا يحلون بوجه أبدا. فافهم ما أحسن هذا!

ولمّا كانت المؤمنة قد تكون ذات بعل وقد تكون غير ذات بعل، وبيننا وبين الكفار هُدْنَةٌ، فلهم أن يطلبوا منا ما أنفقوا على تلك المؤمنة وقيمةَ كسوتها، أو الكسوةَ نفسها، إذ الهدنة تلزم بأننا نعطيهم ما أنفقوا عليها دونها هي، فقال: **وءاتوهم ما أنفقوا**، عليهن من كسوة جئن بها إلى المسلمين. ولهذا سمّاه نفقة ولم يقل: أجورا أو صدقات. فهذا حكم الكافرة إذا جاءت مهاجرةً إلى الإسلام، وهي التي قد سماها الله ههنا مؤمنة. وأما غير هذه فسنبينه. وليس المراد بالنفقة الأجورَ. ولهذا ذكر الأجور لهؤلاء بعد ذكر النفقة فقال:

---

[1] الهدنة: المصالحة بعد الحرب (لسان العرب، «هدن»).
[2] ش: إذا جاءتا؛ ن: إذا جاءنا.
[3] ك - يتزوج المسلمة عرفنا الله تعالى أننا لو رددنا إليهم مسلمة لما كان، صح هـ.
[4] ن: فلما.
[5] ن: للفظتين.
[6] ش ن: من.

ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتموهن أجورهن، أي لا بأس عليكم ولا إثم إن تزوجتم بهن بصداق.

ثم قال: ولا تمسكوا بعصم الكوافر، عصم جمع عصمة، وكوافر جمع كافرة. والكوافر جماعة / من النساء الكافرات. وأما "عِصَم" فتفسيرها: بَقَايَا. قال أبو عمرو: [٤٤٦و]
والعصيم بقية كل شيء وأثره،[١] والعُصُم بالضم مثله وواحدة عِصَم عِصْمَة، مثل حِكَم وحِكْمَة، وكِسَر وكِسْرَة، وقِطَع وقِطْعَة. فلمّا قال الله تعالى: وءاتوهم ما أنفقوا، عرّفنا أنه كما أن المؤمنة لا يجوز لنا أن نَرُدَّها إلى الكفار فكذلك لا يجوز أن نمسك بقايا النساء الكافرات عندنا. فكأنه قال: ولا تمسكوا أنفسكم، أي تُلزموها أو تلزموا بعضكم بعضا. والعصمة أيضا هي الحَبْل، وكل من أمسك شيئا فقد عصمه. والمراد أن لا تَعْصِموا الكوافر من أزواجهن. وقيل: بَايَعَهُن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يصافحْهن بيده،[٢] بل بيد عمر. فلم يَلْمَسْهن ولا في المبايعة لِما كان يعلم من نفسه[٣] من شهوة النساء، وأذن لعمر لما علم منه. وفي ذلك تعليمٌ للأمة عظيم يُدرك منه المتأمل حِكَما فافهمها متأملا. ونُقل أنه بايعهن وعلى يده ثوب. ونقل أنه بايعهن فاستدعى بقدح فيه ماء، فغمس يده فيه ثم غمسْنَ أيديهن فيه.[٤] وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾،[٥] يدل على خروجهن من الشرك بهذه المقالة بدليلِ، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.[٦] والمشرك سمِّي كافرا لأنه كفر بما أمره الله به من التوحيد، ولا يسمَّى الكافر مشركا إذا كان يُوحِّد الله كاليهودي. فقال ههنا بلفظ مطلق ليَعُمّ: ولا تمسكوا بعصم الكوافر، منهن، أعني من النساء الممتحَنات بل ارجعوهن إلى الكفار.

وَسْئَلُوا ما أنفقتم، على الكافرات في مدة الامتحان، أو من حين جئن هارباتٍ إن كنّ جئن لا من أجل الإسلام. وقوله: ولا تمسّكوا، بتشديد السين[٧] أولى قراءةً

---

١ الصحاح للجوهري، «عصم». وانظر أيضا: تاج العروس للزبيدي، «عصم».

٢ مسند أحمد بن حنبل، ٢/٢١٣، ٦/٣٥٧، ٤٥٤، ٤٥٩.

٣ ك ن: في نفسه.

٤ عن عروة بن مسعود الثقفي، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضع عنده الماء، فإذا بايع النساء غمسْنَ أيديهن فيه (معرفة الصحابة لأبي نعيم الإصفهاني، ٤/٢١٨٨).

٥ الآية ١٢ من هذه السورة.

٦ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ (سورة التوبة، ٩/١١٣).

٧ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم التاء وفتح الميم وتشديد السين، وافقهما اليزيدي. وعن الحسن بفتح التاء والميم وتشديد السين المفتوحة. وقرأ الباقون بضم التاء وسكون الميم وتخفيف السين (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٤٠).

لأنه يلزم عنها أيضا معنى المخففة. وَلْيَسْـَٔلُوا ما أنفقوا، هم على المؤمنات إذا ردّهن الكفار إليكم. وأما إن هَرَبت واحدة من عندنا من المؤمنات وكفرت فليس لنا عليهم شيء سوى أثوابها وما أخذته إن كانت أخذت شيئا، لأننا إنما كنا أنفقنا عليها وهي على ديننا ومن أجلنا لا من أجل الكفار؛ بخلاف ما إذا رددنا إليهم الكافرة وردّوا إلينا المسلمة، فإن كلا منا ومنهم يطلب ما أنفق.[1] فافهم ذلك. ولهذا قال: ذٰلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم، لأن هذا حكم إذا تأملته علمت أنه عدل، فهو حكم الله يقينا، وهذا كله مع الهُدْنَة. فإن جاءت المسلمة في الأصل مهاجرة إلينا ولم نجدها[2] عند الامتحان مؤمنة وكان مجيئها من قومٍ كفار سواء كان بيْننا وبينهم هدنة أو لم تكن نُخيِّر بين الإسلام أو القتل. فإن استجارت بنا وجاءت من أهل الحرب ولم تدّعى الإسلام ولم تكن مسلمة في الأصل فإنا نُجيرها وتبقَى على دينها كأمثالها، لقوله تعالى: لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ.[3] فإن كانت هذه من قوم مشركين خيّرت بين الإسلام والرق،[4] لقوله: وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ.[5] فلو كان مكانَ هذه المرأة رجلٌ خيِّر بين الإسلام والقتل،[6] لقوله: فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ،[7] والله أعلم.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم قال: وإن فاتكم شيء من أزوٰجكم إلى الكفار فعاقبتم، لا يكون العقاب إلا لغير أولي هُدْنَة، لأن أولي الهدنة يَردّون علينا المؤمنات ونردّ عليهم الكافرات. وأما هؤلاء فذَكَر عنهم المعاقبة إعلاما أنهم غير معاهدين. وتقديره فعاقبتم وكسبتم، فئاتوا الذين ذهبت أزوٰجهم، إلى الكفار، مثل ما أنفقوا، على أزواجهن، وهو الكسوة، أو ما أُخذت له معها، وهو إشارة إلى من أسلم وهاجر ومعه زوجته؛ ولها أقارب من الكفار فارتدت وذهبت إليهم. ثم قال: واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون. / وهذا خطاب [٤٤٦ظ] للمعطين لئلا يمنعوا، وللآخذين لئلا يشتَطّوا[8] ويأخذوا فوق حقهم من مال المسلمين.

---

١ ش ك: ما اتفق.

٢ ش ن: ولم تجدها.

٣ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٦/٢).

٤ ن: أو الرق.

٥ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢٢١/٢).

٦ ك ن: أو القتل.

٧ سورة التوبة، ٥/٩.

٨ ش: لئلا يشطوا. | الشطَط: مجاوزة القدر في بيع، أو طلب، أو احتكام، أو غير ذلك من كل شيء (لسان العرب، «شطط»).

وقد قيل: إن النفقة المشار إليها بقوله: وءاتوهم ما أنفقوا، هي الصَّداق.[١] واحتج من قال ذلك بما نُقل عن الرسول عليه السلام فجعل هذا القائل فعلَ الرسول بيانا للآية ومفسرا لها، مع أن أكثر القائلين يدّعون نسخ هذه الآيات. وليست الآيات منسوخة ولا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكم المنقول عنه مبينا أو مفسِّرا للآية، بل فعله منسوخ بالآية لأنه عليه السلام لم يفعل ما فعله إلا لما شرط على نفسه حين الهُدْنَة، ثم نزل الكتاب بغير ذلك. وإيضاح ما قلناه مما نقله ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالحديبية، وصالحه مشركو مكة على من أتاه من أهل مكة رَدّه عليهم، ومن أتى من أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو لهم ولم يردوه عليه. وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه. فجاءت سُبَيْعَة بنت الحارث الأسلميةُ مسلمةً بعد الفراغ من الكتاب والنبي عليه السلام بالحديبية. فأقبل زوجُها في طلبها وكان كافرا، فقال: يا محمد اردد عليّ زوجتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طِينة[٢] الكتاب لم تَجُفَّ بعدُ. فأنزل الله الآيات المتضمنة خلاف الهدنة بقوله: فلا ترجعوهن إلى الكفار.[٣] وقال ابن عباس: امتحانهن أن نستحلفهن[٤] ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبةٍ عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا خرجن إلا حُبًا لله ولرسوله. قال: فاستحلفها[٥] رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرجت بغضا لزوجها ولا عِشقا لرجل من المسلمين، ولا خرجتْ إلا رغبةً في الإسلام، فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك. فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها عليه. ثم تزوجها عمر.[٦] وقد قيل: إن الذي يتزوج هذه يعطي مهرها لزوجها الكافر. وهذا أيضا خلاف الآية، لأن الله تعالى قال: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ،[٧] ولم يقل: إذا آتيتموهم. ولو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هادَنَ الكفار لمَا أعطى أجور الأزواج، فكانت الأجور لأجل الهُدْنة لا لمقتضى الآية. فإن الآية لا يُفهَم منها الأجور بل النفقات. كما لو مرضت[٨] الممتحَنة عندنا

---

[١] جامع البيان للطبري، ٥٧٩/٢٢-٥٨٠.

[٢] الطينة قطعة من الطين يختم بها الصك ونحوه. وَطِنْتُ الكتاب طَيْنا جعلتُ عليه طِينا لأختِمه به (لسان العرب، «طين»).

[٣] التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد جزي، ٤٣٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٢/١٣.

[٤] ش: أن نستخلفهن.

[٥] ن: فاستخلفها.

[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٩٧/٨.

[٧] من الآية السابقة.

[٨] ن: لو فرضت.

أو غَرِمْنا عليها بسبب من الأسباب غرامة.[1] ثم تبين لنا أنها كافرة فعلينا أن نردها ونسأل ما أنفقنا. وكذلك على الكفار المعاهدين. فافقه هذا كله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

ثم بين الله بقية ما يتعلق بالنسوة المشار إليهن بقوله: **يٰأيها النبى إذا جاءك المؤمنٰت**، المتقدَّم ذكرهن،[2] **يبايعنك علىٰ أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولٰدهن**، ولا يريد به الوَأْدَ،[3] بل كثير من النساء تحمل فتتحيّل على أن تُسقط الولد لأمر تختاره. ومنهن[4] من تَخْنُق ولدها أو تقتله لأسباب يطول شرحُها. وقوله: **ولا يأتين ببهتٰن يفترينه بين أيديهن وأرجلهن**. هذا هو ما يفترينه من ولد يأتين به ويَضعنه بأيديهن بين رِجْلَي امرأة منهن ويدّعين أن هذا قد ولدته هذه افتراءً منهن على زوج المرأة. فلمّا ذكر أولا، **ولا يقتلن**، ذكر بعده ضده وهو الإتيان ببهتان. وهذا أولى الوجوه. ويحتمل أن يكون المراد ما تعمله[5] الأيدي وتسعى به الأرجلُ. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **بين أيديهن**، الأفواه، **وبين، أرجلهن**، الفروج، كما قد تقول [٤٤٧و] المرأة: أنا طاهرة / وهي حائض. فيكون اللفظ مطلقا يَعُمُّ هذه الصور وأمثالها وإن كان بعضها أولى باللفظ من بعض. وتقول في العموم: "ظللتُ[6] البارحةَ بين قائم وقاعد" تريد الإخبار بأنك كنت تستعمل القيام والقعود. وتقول: وصلت من السفر[7] بين ماش وراكب، أي تارة هذا وتارة هذا. فيكون النهي عن مطلق البهتان بين ما تفعله الأيدي وتسعى به الأرجل. **ولا يعصينك فى معروف فبايعهن**. وقوله: **واستغفر لهن الله**، إباحةُ ما كان محظورا من الاستغفار للمشركين. **إن الله غفور رحيم**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

---

١ الغرامة: ما يلزم أداؤه (لسان العرب، «غرم»).
٢ انظر: الآية ١٠ من هذه السورة.
٣ ن: به الولد. | الوأد: وَأَد ابنته يَئِدُها وأدا: دفنها في القبر وهي حية (لسان العرب، «وأد»).
٤ ك ن: ومنهم.
٥ ن: ما يعمله.
٦ ن: طلبت.
٧ ن: في السفر.

يٰأيها الذين ءامنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم، هو أولى باليهود ويَعُمّ من سوى المسلمين. ولهذا جاء قوله: **قوما**، منكَّرا ليعم كل قوم، **قد يئسوا من الآخرة**، بمعنى أنهم لا يعتقدونها فيعملون لها، لأنهم لا يرجونها بوجه. ثم ضرب المثل لهم فقال: **كما يئس الكفار من أصحٰب القبور**، أي من قيام أصحاب القبور فإن الكفار قد يئسوا من ذلك، فمن صدق به فهو مؤمن. ويحتمل وهو[1] الأولى أن المراد كما يئس كفارُ أصحاب القبور من أجر الآخرة. وإنما كان إتيانه بالمعنى في اللفظ الأفصح أولى، وهو بالألف واللام. ولمّا ذم الأحياء بقوله: **يئسوا**، علمنا أن من المذكورين من يعتقد الآخرة كاليهود. ولكنهم لمّا كانوا يكتمون الحق وهم يعلمون[2] ويقتلون الأنبياء[3] ومثل ذلك تحققوا أن لا نصيب لهم[4] في أجر الآخرة فيئسوا منه قبل الموت كما يئس الكفار منه بعد الموت عند كشف الغِطاء. وإنما قلنا: إن هذا المعنى أولى بهذا اللفظ لأن اليأس من الآخرة لا من البعث. وهذا الكلام مطلق يَعُمّ، وهو عائد على قوله أولا: **لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ**.[5] فوصفهم أخيرا ونهى عن موالاتهم بقوله: **لا تتولوا**، كما نهى أولا بقوله: **لَا تَتَّخِذُواْ**، والله أعلم.

---

[1] ن: هو.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٤٦/٢).

[3] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٦١/٢). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ١١٢/٣؛ وسورة المائدة، ٧٠/٥.

[4] ن – لهم.

[5] الآية ١ من هذه السورة.

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾

سبح لله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم، لمّا كان قد جاء بعد هذه الآية من أقاويل الكفار الكاذبة ما يقتضي أن يقال من أجله: سبحان الله، كما تتعجب من خصمك فتقول: سبحان الله، كيف تقول[1] هذا الكلام؟ وكقوله تعالى: سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ،[2] سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ،[3] ومثل ذلك كثير قال ههنا ما يدل على أن كل شيء في السماوات والأرض يسبح لله متعجبا كيف يقول الإنسان ما لا يفعل؟ فأتبع التسبيح بقوله بعده لمن ادعى الإيمان: **يٰأيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون،** وهذا كقوله: لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ.[4]

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. وعلمنا أن هذا القول الذي قالوه وإن كان عاما ولكنه يدل بالتخصيص على من يقول قولا قبل الجهاد، فإذا[5] جاء يوم الجهاد لا يفعل ما يقول. فلهذا تلا الآية بقوله: **إن الله يحب الذين يقٰتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيٰن مرصوص،** وهو الذي لا خلل بينه. والأولى أنه ما بُني بالرَّصاص. وعُدل به للوِزان.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

---

١ ن: نقول.

٢ سورة الصافات، ١٥٩/٣٧. وانظر أيضا: سورة المؤمنون، ٩١/٢٣.

٣ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٤٣/١٧).

٤ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور، ٥٣/٢٤).

٥ ش: فإنه.

ولمّا كانوا إذا تولوا عن الجهاد وقالوا ما لم يفعلوا قد أَذَوْا النبيَّ عليه السلام واستحقوا الزيغ كما أذى قوم موسى لموسى فاستحقوا الزيغ قال بعده: **وإذ قال موسىٰ لقومه يٰقوم لم تؤذوننى**. مكتوب في التوراة أن بني إسرائيل قاموا ليَرْجُموا موسى وهارون بالحجارة.[1] وقوله: **وقد تعلمون**، أي وقد علمتم أنكم تعلمون، **أنى رسول الله إليكم**. **فلما زاغوا**، عن اتباع الرسول بعد العلم بصدقه، **أزاغ الله قلوبهم**، عقابا لهم، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾.[2] **والله لا يهدى القوم الفٰسقين**، إجبارا.

[٤٤٧ظ] واعلم أن الزمان لا يدرَك له حالٌ حاضر / بالحقيقة، بل إما ماضٍ وإما مستقبلٌ، لأن النَّفَس الواحد يُمكن انقسامه. وقد جاءت مخاطبات العرب في كثير من كلامهم إذا أرادوا أن يعبروا عن الحاضر بأن يأتوا تارة بلفظ الماضي وتارة بلفظ المستقبل. تقول: المَلِك يأكل، بمعنى أنه آكل، فعبّرتَ[3] عن الحال بلفظ الاستقبال. وقد تضاف قرينةٌ للدلالة كقولك: الملك الآن يأكل. قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ [وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ]﴾،[4] أي الآن فجاء به بلفظ الاستقبال. ولمّا كانت لفظة قد تقدم على الماضي وأحرف الاستقبال تقدم على الفعل المستقبل وأردنا الإخبار عن الحال الحاضر جَمَعْنا بينهما. فمعنى قوله: **وقد تعلمون**، أي ها قد عُدْتُم الآن عالمين تعلمون، فافهمها وأمثالها. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾،[5] يريد أننا[6] عالمون لَمْ نَزَلْ لأنه تعالى لم يكن قط غير عالم على الإطلاق. وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾،[7] بمعنى نحن عالمون الآن كأنه قال:[8] قد علمنا ماضيا ونعلم مستقبلا علما واحدا فيلزم العلم فيما بينهما، لأن الحال الحاضر لا يدرَك بل هو محصور بين ذلك فتذهّنْ ما ذكرته لك.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرٰءيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التورٰة. الوجه في كونه أُتبِعَ ما تقدم بهاتين الآيتين هو أنه لمّا قال: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾،[9]

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فصرخ موسى إلى الرب قائلا: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليل يرجمونني» (الخُرُوج ٤/١٧).
[2] سورة النساء، ١١٥/٤.
[3] ن: فعبر.
[4] سورة آل عمران، ١١٩/٣.
[5] سورة قٓ، ٤/٥٠.
[6] ن: أنا.
[7] ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٣٣/٦).
[8] ن – قال.
[9] الآية ٢ من هذه السورة.

أراد أن يعرّفنا أن ذلك زيغ عن العهد مع الله وأن فاعل ذلك يستحق العقاب العظيم وهو أن يزيغ الله قلبه فتلا قصة بني إسرائيل في حين مّا بعد تحققهم صدقَ نبيهم. وذلك تحذير للمؤمنين من مثل ذلك. ثم أتبعها بمثلها، ثم نسق على ذلك ما بعده. وقوله: **ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد**. هذا الاسم إنما سمِّي في الإنجيل بلغة أهل الإنجيل، كقوله تعالى: وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ.[1] وهو مأخوذ من "الحمد" بوزن أفعل التفضيل.[2] وبيانه أنه لمّا قال تعالى: وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ،[3] كان كل شيء حامدا لله؛ ولكن محمدا[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحْمَدُ، وقد جاء في الإنجيل ما يُستنبط منه مثل ذلك. مع أنهم أعني بني إسرائيل حرّفوا وكذّبوا وزادوا ونقصوا، لأن اعتمادهم على ما في السطور فهم يأخذون عنها ما في الصدور. وذلك بضد الملة الإسلامية في القرآن العظيم. **فلما جاءهم بالبيّنٰت قالوا هٰذا سحر مبين.**

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

ومن أظلم ممن افترىٰ على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلٰم، وهذا خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مع ما فيه من الإخبار[5] عن أمة موسى وعيسى عليهما السلام. فإن قولهم: هَٰذَا سِحۡرٞ،[6] لمن جاءهم بالحق ودعاهم إلى الله بالإسلام أعني الاستسلام له هو ظلم لأنفسهم، فلا أحد أظلمَ لنفسه منهم. **والله لا يهدى القوم الظّٰلمين.**

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

يريدون، أن يفتروا ويسمُّوا ما جاءت به الأنبياء سحرا، **ليطفئوا نور الله بأفوٰههم**. لمَا كان الإنسان قد يطفئ نور السراج بِفِيه جاء اللفظ بصورة الاستعارة، فشبه أقوالَهم بالكذب بالريح التي تَذهب. ولمّا كان ما يُهتدَى به في الدنيا نورا وكان كلام الله يهدي العباد في الدنيا والآخرة إلى غاية المصالح لهم سمِّي نورا. ولمّا أراد مَن كفر مِن بني إسرائيل وأمثالهم في كل زمن أن يطفئ ذلك النور بكَذِبه لئلا يتم قال الله تعالى: **والله متم نوره ولو كره الكٰفرون.**

[1] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ (سورة إبراهيم، ٤/١٤). | ن + وهو مأخوذ بلسان قومه.

[2] ش: التعظيم.

[3] ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ (سورة الإسراء، ٤٤/١٧).

[4] ن: محمد.

[5] ن: من الاختيار.

[6] من الآية السابقة.

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

المعنى في هذا التسبيح ههنا كأنه قال: سبحان ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا.[1] ولما كانت هذه النعمة بهذا الرسول عليه السلام عظيمة أضاف الشكر عليها إلى كل ما في السماوات وما في الأرض. فكأنه قال: سبحانه من كل مسبِّح، والحمد له من كل حامد في كل آن. ثم جاء هذا اللفظ بصورة المضارعة ليدل على الحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة شكرا لله وتسبيحا بحمده على إرسال هذا الرسول، فهو تسبيح آخر غير الأول[2] وما قبله. ولهذا جاء الأول بلفظ الماضي، والثاني بلفظ المستقبل. على أنه لو جاء الجميع بلفظ واحد لم يكن ذلك مكرَّرا إلا لزيادةِ معنى. فإنه لو أعطاك المَلِك عطية فدعوت له على تلك العطية بدعاء، ثم أعطاك عطية أخرى فدعوت له بذلك اللفظ بعينه لم تكن مكرِّرا في المعنى وإن كنت مكرِّرا في اللفظ، لأن الدعاء ثانيا معناه عائد على العطية الثانية. وكذلك لو أعطى ثالثة ورابعة وكررتَ الدعاء الواحد لم تكن بمثابة من كرر دعاءً واحدا على عطية واحدة؛ خصوصا إذا أردت أن تدعوَ له بأفضل دعاء فإنك تُلزِمُ نفسك بتكرير ذلك الدعاء عند كل عطية للأفضلية التي لا تجدها في دعاء غير الأول. ولا معطيَ أكرمَ من الله، ولا عطية أعظم من عطائه، ولا دعاء أعظم من التسبيح بحمده. وليس في أذهان البشر ما يفهمونه مسبِّحا لله أكثرَ مما في السماوات وما في الأرض. فعلّمنا الله سبحانه في كلامه ما إذا تلوناه نكون قد قُمْنا[3] بأفضل ما يجب له علينا مما يمكن أبناءَ البشر وإن كان هو أعلى من مجهودهم. ولكنه غفور رحيم، عزيز حكيم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

هو الذى بعث فى الأميين، الأمي منسوب إلى أمة لا يعرفون الكتابة، رسولا منهم يتلوا عليهم ءايٰته ويزكيهم ويعلمهم الكتٰب والحكمة، هي حديثه صلى الله عليه وسلم،

---

[1] من الآية التالية.

[2] يريد المؤلف سورة الصف.

[3] ن: قد فهمنا.

لأن العطف على الشيء يلزم عنه ذلك، وإن كانوا من قبل لفى ضلٰل مبين.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

وقوله: واءخرين، تقديره وبعث في آخرين رسولا، منهم لمّا، هي لم مؤكّدة، يلحقوا بهم، وهم بقية الأمم أرباب الكتب. وبرهان ذلك معلوم من قوله تعالى: وَمَآ
[٤٤٨ظ] / أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ.[1] فقوله ههنا: لمّا، أي إن الآخرين لم[2] يلحقوا في الشرف والرتبة بالأميين وإن كان البعث قد وقع فيهم منهم كما وقع في الأميين منهم. وإيضاح ذلك أنه تعالى لمّا عيّن أن هؤلاء أميون ورسولهم أمي، وعيّن أنه أرسل في غير الأميين رسولا منهم أيضا فهو غير أمي، وكان الذي يظهر للعقول أن بقية الأمم خير من هذه الأمة، لأن غير الأمي خير من الأمي، بيّن الله سبحانه عند ذكر الآخرين وهم ما سوى هذه الأمة أنهم لم يَلحقوا بهذه الأمة. واللحوق لا يخلو إما أن يكون في الزمان أو في الشرف والرتبة. ولا شك أن اللحوق في الزمان موجود، فلزم أن يكون ذلك في الرتبة. ثم عطف على قوله: ويعلمهم الكتٰب والحكمة، قولَه: وهو العزيز الحكيم. ولهذا جاء بعد هذه الآية: ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لأنه سبحانه يؤتيه على مقتضى العلم السابق ووفقِ الحكمة لا عن هوى، جل وعلا. ولما كان هذا الفضل[3] مرتبا على الجزاء لمستحق[4] الجزاء وكان مما لا يدخل في الأذهان ولا يخطر في البال بضرب الأمثال قال: والله ذو الفضل العظيم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

ولمّا كان قوله: يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ،[5] لفظا يقع فيه الاشتباه بيّن بالمفهوم من الآية الآتية أنه تعالى علم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا حُمّلوا القرآن حَمَلوه حقَّ حملِه، فاستحقوا الفضل العظيم بعد الأجر. فقال ما يفهم منه زوال الاشتباه وهو قوله: مثل الذين حملوا التورٰة، وهو كما تقول: هذا حاملٌ كتابَ الله. ولمّا كان الحمل قد يكون بالبدن،

---

١ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم، ٤/١٤).

٢ ك ن – لم.

٣ ن: الفصل.

٤ ن: المستحق.

٥ من الآية السابقة.

وقد يكون بالحفظ، وقد يكون بالامتثال قال بعده: **ثم لم يحملوها**، إعلاما أنهم حملوها علما ليعملوا، فعلموا ولم يعملوا. فكان مثلهم فيما حملوه علما ولم يحملوه عملا، **كمثل الحمار يحمل أسفارا**، ولهذا لم يقل: "ثم ما حملوها" بلفظ الماضي بل باللفظ الدال على الحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة، ومعناه أريد منهم حملها[١] فلم يحملوا. ولفظ الحمل استعارة كقوله عن الأمانة: وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ،[٢] أي التزم بها. وبين بقوله: يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ،[٣] ما معناه أن من[٤] له إطلاق القدرة على أن يؤتي فضله من يشاء وإن لم يكن مستحقا كيف لا يؤتي فضله من يستحقه بعمله كالمؤمنين، ويمنعه عمن لا يستحقه كالكافرين. **بئس مثل القوم الذين كذبوا بئايٰت الله. والله لا يهدى القوم الظٰلمين**، إشارة إلى أن منع الهدى ليس من قِبله بل من قبل ظلمهم لأنفسهم، إذ كذبوا رسله فهو جزاء فعلهم.

واعلم أن جُلّ اليهود يُعلِّمون أولادهم التوراة ولا يعلمونهم تفسيرها، وهم لا يعرفون لغتهم التي هي العبرانية إلا بعد أن تفسَّر لهم بالعربية.[٥] وتجد أكثرهم يصلّون في كنائسهم وبيوتهم ولا يفهمون كلمة مما يقولونه. وربما دعا أحدهم على نفسه وهو يظن أنه يدعو لها.

واعلم أن من قرأ القرآن وهو لا يفهم معناه، ثم أعرض عن ذلك إعراضَ مَن لا يحتاج إليه كان هذا مثلَه، وهو لاحق باليهود في ذلك. وإن حَفظه وهو طالب لمعناه وقد قدّم حفظَه فليس من أهل هذا المثل. وقد بين الله تعالى ذلك[٦] بقوله: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا.[٧] وأما قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ،[٨] فاقرأ ما بعده، واقرأ الآية المحكمة وهي قوله: يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ،[٩] وقد بيناه في موضعه. فإن المراد العملُ ولا عملَ إلا عن علم. لكنه لا يلزم كلَّ أحد أن يَفهَم كلَّ حكمة فيه، بل يلزمه كل حكم يجب العمل به إما أنه هو / يفهمه أو يتفهمه. ولا يجوز نبذ القرآن وأخذُ ما يقوله القائلون، [٤٤٩و]

---

١ ن - حملها.

٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ (سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣).

٣ من الآية السابقة.

٤ ن + لم.

٥ ك: بالعبرية.

٦ ك ن - ذلك.

٧ سورة محمد، ٢٤/٤٧.

٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ (سورة فاطر، ٢٩/٣٥).

٩ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ١٢١/٢).

ويزعمون أنه هو المراد من القرآن وبه يجب العمل وإن خالف القرآن. ولا يجوز أن يُنسخ القرآن ويئوّل ويقام ما يخالفه من فقه أو حديث. فلا فقهَ بفقه ولا حديثَ بحديثٍ إن خالف كتاب الله، وأعني بذلك إن خالف عند المجتهد المحقّ لا غيره. والمجتهد المحق هو صاحب الدليل. والدليل موجود في العقل، لأن الله فطره على معرفة الحق إذا لم يَحْجُبْه هوًى. ولما كان العقل مفطورا على معرفة الحق وقعت حجة المحق على الخلق. ومن ذلك قوله بعده ههنا:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦﴾

فهذا الاحتجاج على الكفار بالعقول يعطي الاحتجاج على المؤمنين بالعقول في كل أمر يدل عليه الدليل.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾

ثم أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ولا يتمنونه أبدا، وهذا الإخبار ههنا غير الإخبار الذي جاء في البقرة بقوله: وَلَن يَتَمَنَّوْهُ.[١] وذلك لأن المراد في البقرة هو الإعلام بأنهم لا يكون منهم ذلك أبدا. والمراد ههنا هو الإعلام[٢] بحالهم حين المحاجَجَة لهم، كأنه يقول ما معناه: فتمنوا الموت، وها أنتم لا تتمنونه الآن لأنكم ظلمتم أنفسكم.[٣] وجاء اللفظ على صورة الإخبار عن الغائب لئلا يختص بالمخاطب الحاضر فقط. فلهذا لم يقل: ولا تتمنّونه.[٤] وقوله: بما قدمت أيديهم، هي باء السبب، أي إن السبب المانع لكم من[٥] تمني الموت هو ما قدمتْه الأيدي من السوء. والله عليم بالظّلمين، أي فتأخير الموت لا يُسقط الجزاء.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾

---

١ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٩٤-٩٥).

٢ ش - بأنهم لا يكون منهم ذلك أبدا والمراد ههنا هو الإعلام.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٥٤).

٤ ن: ولا يتمنونه.

٥ ن: عن.

ثم قال: **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملٰقيكم**، أي أنتم تظنون أنكم تفرون منه إلى عكس الجهة، وليس كذلك بل إلى جهته تفرون. ومع هذا فإنه هو أيضا آتٍ إلى لقائكم. وتقدير الكلام أن الموت الذي تفرون منه لا مفرَّ لكم منه، فإنه ملاقيكم من الجهة التي إليها مفرُّكم منه. فهذا معنى الفاء في قوله:[١] **فإنه ملٰقيكم. ثم تردون إلىٰ عٰلم الغيب والشهٰدة فينبئكم بما كنتم تعملون**. وهذا الإخبار والمخاطبة وإن كانت لليهود فهي لغيرهم أيضا ممن يفرّ من الموت. ولمّا كان هذا الإخبار عن اليهود إخبارا للمؤمنين قدّم ذكر اليهود ووصفهم في مخالفة ما حملوه من فرائض التوراة تخويفا للمؤمنين من مثل حال اليهود إذا خالفوا ما حُمِّلُوه من فرائض القرآن.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾

ثم فرض عليهم بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا نودى للصلوٰة من يوم الجمعة فاسعوا إلىٰ ذكر الله**، وهذا فرضُ سعيٍ إلى ذكر في فرضِ صلاةٍ، كثيرا كان السعي أم قليلا. وليس في بقية الصلوات فرض سعي بل فرض صلاة فقط.[٢] وليس في كتاب الله ذكرُ الأذان إلا في هذه الآية. فإذا سُمع الأذان وجب السعي[٣] وحرُم البيعُ. والجمعة لا تَسقط عن الاثنين إذا لم يوجَد الثالثُ، بل تقوم بما يقال له: جَمْعٌ قلَّ أم كثر، وهو رأي بعض أصحاب أبي حنيفة رحمه الله. وقوله: **فاسعوا**، **وذروا**، أثبت صلاةً يختص هذا اليومُ بها. وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم شرائطها، والإجماع أغنى عن نقل هذه الأحكام فقد ثبت بالاستفاضة والتواتر. وقد كان يجوز في هذه الصلاة أن تكون كالظهر بأن تُفعَل في كل مسجد ومجمع، فثبت أنها لا تُفعل[٤] إلا في موضع مخصوص ووقتٍ وجمعٍ. ولا تفعل فرادى ولا تقضى. ومتى لم تكمُل شرائطها فالواجب أنها ظُهر. وكل هذا دليل على أنها الصلاة الوسطى. وقوله: **وذروا البيع**، يُفهَم منه البيع والشراء. ولهذا يقال: شهدت على المتبايعَين. **ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**.

---

[١] ش – من الجهة التي إليها مفركم منه فهذا معنى الفاء في قوله.

[٢] ش – وليس في بقية الصلوات فرض سعي بل فرض صلاة فقط؛ ك – وليس في بقية الصلوات فرض سعي بل فرض صلاة فقط، صح هـ.

[٣] ش + وليس في بقية الصلوات فرض سعي بل فرض صلاة فقط.

[٤] ك: فثبت أنها لا تجمع وتفعل.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

[٤٤٩ظ] فإذا قضيت الصلوٰة، أي انقضت، فانتشروا في الأرض، / إلى مآربكم وهو بصورة الإباحة. وابتغوا من فضل الله، من وجوه الحلال. واذكروا الله كثيرا. لا تنس قوله: كثيرا، في هذا اليوم، لعلكم تفلحون. واعلم أن اليهود يتركون معائشهم يوم السبت فلا يصنعون صِناعة، فخفف الله سبحانه ذلك عن المسلمين وجعله من حين المناداة وهي الأذان. ولمّا فرض الله سبحانه يوم عبادةٍ للمسلمين كما كان قد فرض يومَ عبادة لليهود -أعني السبت- قدّم ذكر اليهود وذمّهم. وذلك لأنهم يجعلون يوم السبت مقصورا على اللهو والمآكل[١] الطيبة، فنهى الله المسلمين عن التجارة لأنها من أكبر الشواغل،[٢] ثم عن[٣] اللهو الذي هو من أفعال اليهود في اليوم المفروض للعبادة. فهذا المعنى هو الرابطة بين قوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ،[٤] وبين ما تقدم من ذكر اليهود.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

ولهذا قال ههنا واصفا للمنافقين بوصف اليهود: وإذا رأوا، من رؤية القلب، تجْرة أو لهوا انفضوا إليها. واعلم أن الانفضاض بالقلب هو المحذور. وإذا فهمت وجدت الانفضاض لا يكون إلا إلى[٥] تجارة أو لهو. فجمع الله في هاتين الكلمتين أسباب الانفضاض، ونهى عنه بالمفهوم عن الإخبار بالوصف المذموم، وصرّح بأن ذلك الانفضاض إنما هو بالقلب، وذلك بقوله: وتركوك قائما، أي في الصلاة. وتقدير الكلام: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا فعلوا كذلك. فلهذا لم يقل: إليهما، ولأن الانفضاض واحد ولا يكون إلى جهتين معا، بل إما إلى هذا أو إلى هذا. وهذا كقوله: وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا،[٦] ولم يقل: بهما، ومثله وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ،[٧] ولم يقل: يرضوهما. ثم قال لكل مأموم: قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجْرة،

---

١ ن: والمأكل.

٢ ن: المشاغل.

٣ ن – عن.

٤ من الآية السابقة.

٥ ك: إلا عن.

٦ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء، ١١٢/٤).

٧ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة، ٦٢/٩).

ولهذا لم يقل: قل لهم لئلا يتخصص بل يعُمّ. ولمّا كان الرزق من أكبر الشواغل عن الصلاة والتفكر فيه مما لا يكاد القلبُ أن[1] يتخلص منه قال بعد الأمر بالصلاة واستحضار القلب للمناجاة: والله خير الرّٰزقين، إعلاما أنه تعالى هو الذي يقوم بالرزق وأنتم تقومون بالصلاة. فنبّه على فتح باب الرزق، كما نبّه بقوله: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا، ثم قال: لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ،[2] كما بيناه. والمعنى ههنا ما تلخيصه: لا يَشْغُلَنَّ أحدَكم عن ذكر الله تجارة أو لهوٌ، فإنه لا يفوتكم الرزق بترك البيع إذا أطعتم الله فيما أمر. ونبه بذكر الانفضاض على ما بطن أو ظهر، فعم به سائرَ الصور من الشواغل البدنية بالعمل أو القلبية بالفكر. ومِنْ أنفع الوصايا أن تأتي إلى الصلاة مُودِّعا تائبا عن المخالفة، منتظرا في وقوفك ما تؤمر به من القدوم على الله بواسطة الموت الطبيعي في كل صلاة. فإن ردك إلى الحياة وقفت مع ما أمرك به في الحياة وهو الشرع. وأعني بهذا الوقوف امتثالَ الأمر عملا ونيّةً، سرًّا وجهرًا، فيكون الموت جسرا، وصلاتك وقوفك على بابه. فإن رجعت فإلى الأمر وإن عبرت فإلى الأمر.

تمت سورة الجمعة، والله أعلم.

[1] ن - أن.

[2] سورة طه، ١٣٢/٢٠.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾

إذا جاءك المنٰفقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنٰفقين لكٰذبون، انظر كيف سَمّى ما قالوه بأفواههم دون قلوبهم كذبا وهو عين الصدق، ولكنهم قالوه غير معتقدين صحته فصار منهم عين الكذب. قال عبد الله بن / عمر: كان النفاق غريبا في الإيمان، ويوشك أن يكون الإيمان غريبا في النفاق.[1] [٤٥٠و]

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ②﴾

اتخذوا أيمٰنهم جنة، وقاية، **فصدوا عن سبيل الله**، سالِكها بإيمانهم وبأعمالهم. **إنهم ساء ما كانوا يعملون**.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ③﴾

ثم عطف على قوله: فَصَدُّوا،[2] [قوله:] **ذٰلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع علىٰ قلوبهم**، جزاء لهم، **فهم لا يفقهون**. وهذا داخل في معنى قوله تعالى:[3] يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ.[4]

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ④﴾

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، قَدًّا وصورة وما يُعجب من الجسم. **وإن يقولوا تسمع**، بمعنى تقبل، **لقولهم**، والفرق بين سمعت القول وسمعت للقول أن الأول بالأذن والثاني عبارة عن القبول. دليل الأول قوله تعالى: حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ.[5] ودليل الثاني

---

[1] انظر: صفة النفاق للفريابي، ص ٧١.

[2] من الآية السابقة.

[3] ن – قوله تعالى.

[4] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٢٤/٨).

[5] ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (سورة التوبة، ٦/٩).

قوله تعالى:[1] لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ.[2] والقول المشار إليه ههنا هو ما تقدم في أول السورة: قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ،[3] وإن احتمل العموم أيضا. فأخبر الله أن هذا قولهم فإذا جاء الجهاد، كأنهم خشب مسندة، تمثيلا بالأصنام التي كانوا يعبدونها فتُجْعَل على صور بني آدم، ثم تُسنَد[4] لتبقى قائمة، فشبههم بها إذا خرجوا مع المؤمنين في القتال. ويُفهَم من هذا الكلام أنهم كخشبة نَخِرةٍ لا تحمل سقفا، وليس لها أصل في الأرض كالنابتة، بل مقطوعة مسنَّدة على الأرض من جهاتها لئلا تقع من الجهة التي ليس لها فيها سِنادة. وهذه صفة الجبريّ الذي يظن أن ليس فيه حركةٌ من نفسه بل هو بمنزلة الخشبة المُسنَّدة. ثم وصفهم فقال: **يحسبون كل صيحة**، يسمعونها بآذانهم[5] ويسمعون بها من غيرهم. ولهذا أطلق فقال: **كل صيحة عليهم**. ثم قال ما معناه ولا انتصار لكم بهم من عدوّ بل، **هم العدو فاحذرهم قٰتلهم الله**. ومن قاتله الله قتله الله، وهذا مبالغة في الدعاء عليهم، إذ جعلهم بمنزلة من يقاتله الله سبحانه. **أنى يؤفكون**.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾

وإذا قيل لهم تعالوا، وجواب الأمر: **يستغفر لكم رسول الله لوَّوا**، بالتشديد،[6] **رءوسهم**، وتكرار اللَّيّ[7] بمعنى إن قيل لهم من جهة اليمين لووا إلى الشمال، وإن قيل من الشمال لووا إلى اليمين. **ورأيتهم يصدون**، لازم والأول متعد.[8] **وهم مستكبرون**، في موضع نصب على الحال وغيّر للوِزان.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾

سواء عليهم، ولم يقل: عليكم[9] أو عندنا، **أَستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم. إن الله لا يهدى القوم الفٰسقين**، عقابا لهم لكونهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم.

[1] ن – قوله تعالى.

[2] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢٦).

[3] الآية ١ من هذه السورة.

[4] ن: تستند.

[5] ش ك – يسمعونها بآذانهم.

[6] خفف الواو الأولى نافع ورَوْح، وشددها الباقون ولا خلاف بينهم في تخفيف الواو الثانية (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٢١).

[7] لعل المؤلف يشير إلى كون باب التفعيل للكثرة والتكرر.

[8] انظر: الآية ٢ من هذه السورة.

[9] ن: عليك.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾

هم الذين يقولون لا تنفقوا علىٰ من عند رسول الله حتىٰ ينفضوا، عنه من عنده. ولله خزائن السمٰوٰت والأرض ولٰكن المنٰفقين لا يفقهون، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ.[1]

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾

يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يحسبون أن العزة لهم،[2] ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولٰكن المنٰفقين لا يعلمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تلهكم أمٰولكم ولا أولٰدكم عن ذكر الله، كما أَلْهَتِ المنافقين. ومن يفعل ذٰلك فأولٰئك هم الخٰسرون. وقوله: لا تلهكم، هذا النهي واقع في الظاهر على الأموال وفي الباطن على المخاطبين لقوله: ومن يفعل ذٰلك، فأضاف الفعل إليهم. وإنما حسن ذلك لأنك إذا لَهَوْت بالشيء[3] فكأنه قد ألهاك، ومثله قوله تعالى: أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا،[4] والسورة لا تزيد، وإنما هم ازدادوا بها؛ ومثله: أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ،[5] والأصنام لا تُضل. واحتج بعض من يزعم أن أفعال العباد ليس منهم وهي منسوبة إليهم بهذا، فلزمه أن الذم الواقع يكون عائدا على الفاعل دون من نُسب إليه الفعل. كما إذا ذُمّ الصنم كان الذم لعابده، أو ذم المال كان الذم للملتهي به. فافهم / ذلك. [٤٥٠ظ]

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾

---

[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٥٨).

[2] ن: لله. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ (سورة النساء، ٤/١٣٩).

[3] ن: الشيء.

[4] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٤).

[5] ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٣٥-٣٦).

وأنفقوا،[١] أي افعلوا خلاف المنافقين القائلين: لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ.[٢] وهذه النفقة غير الزكاة المفروضة، بل في الجهاد وغير ذلك من أنواع البر، مما رزقنكم، ليس المراد الذهب والفضة والعَرَض فقط، بل العلم والعقل والقوة والسمع والبصر وغيرُ ذلك. وهذه النفقة منها ما أنت أحق به كالعُمر الذي يُنفقه الإنسان في شهوات نفسه أو مطالب عيالِه، أو فيما يفنى، فلينفقه فيما يبقى، من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلىٰ أجل قريب فأصدق وأكن من الصٰلحين. طلب التأخير وقد حضر الموت.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

[الأجل هل يمكن تأخيره؟]

فأجابه الله في الإخبار بقوله: ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها، تقديره المستحِقُّ بعملها فهو منسوب إليها، لأنه مقضيّ بعملها[٣] عليها، كقوله: مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ.[٤] فأما قبل مجيء الأجل المقضي بالعمل إن حصلت التوبةُ والطاعة، فقد وعد الله بالتأخير إذا وُجد الشرط، كقوله تعالى: أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى. ولمّا كانت الطاعة تؤخر العبد إلىٰ المسمى بيّن الله بعد قوله: إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى أن لا تأخير بعد ذلك لئلا يطمع الطائع في دوام الحياة أبدا، فقال: إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ.[٥] فالأجل الأول هو أجل النفس العاصية، ولهذا بعده: فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ،[٦] والثاني أجل الله المسمى كقوله: وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى، كما بيّنّاه في سورة الأنعام،[٧] وسورة نوح.[٨] وهو أجل الله المسمى عنده سماه الله في وقت: من ساعة، من يوم، من شهر، من سنة، من عمر. ومثله قوله تعالى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ.[٩] فلهذا عبر عن أجل الله بهذه العبارة، أعني المسمّى ليُفهَم اللفظ بمثله. وأما الأجل الأول الذي قضاه[١٠] قبله فهو غير مسمى وإن كان معلوما عند الله،

١ ش – وأنفقوا.

٢ الآية ٧ من هذه السورة.

٣ ك ن: بعلمها.

٤ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ (سورة نوح، ٢٥/٧١).

٥ ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة نوح، ٧١/٢-٤).

٦ من الآية السابقة.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢/٦).

٨ سبق آنفا.

٩ سورة البقرة، ٢/٢٨٢.

١٠ ن + الله.

لكنه مشروط موقوف على فعل العبد وإرادته. وتأخير العبد عنه مشروط بالتقوى الصادرة منه والعبادة وطاعةِ الرسول. فإن امتثل العبد ما أُمر به أخّره الله إلى المسمى. وإذا انتهك العبد ما نُهي عنه قدّمه الله إلى المَقضيّ بعمله عليه دون المسمى الذي يُمكن وصوله وتأخيرُه بالطاعة إليه. فقد بان أن أجل النفس العاصية مَقضيّ بعملها عليها لأن الله قضى أن يكون ذلك إليها. ولهذا تواعدها إن عصت،[1] كقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾[2] وتمام الآية؛ ووعدها إن أطاعت، كقوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[3] الآية، وكقوله: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾.[4] وقد ورد «أن الدعاء يردّ القضاء».[5] ولولا ذلك لَمَا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه معلما لأمته: «اللّٰهم إني أعوذ بك من شر القضاء وشر القدر وشر ما جرى به القلمُ».[6] وقال في قنوته: «وَقِنَا ربَّنا شرَّ ما قضيت»،[7] إعلاما بأنه تعالى قضى بأن تكون[8] أقوالُ العبد تردّ قضاءَ الرب إذا كان ذلك القضاء جزاء للعبد. فكأنما العبد بما فُوِّض إليه قد عاد قاضيا على الرب بأن يقضي ما قضاه عليه. فالعبد حينئذ هو الذي يقضي على نفسه بما يصل إليه من قضاء ربه، لقوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾.[9] وأما قوله: «لا رادَّ لما قضيتَ»،[10] فمعناه إلا بإذنك، فافقه هذا جيدا لتزول المناقضة، ولتَعلم أنه تعالى قد قضى بأن تكون أنت ابتداء تقضي بما يقضيه[11] عليك جزاء، وأن تردَّ ما قضاه جزاءً بما تقوله دعاءً. فكما قضى بأن يكون الأمر إليك / فيما يقضي به عليك كذلك قضى بأن يكون [٤٥١و]
الأمر إليك في نقضه بعد إبرامه، وحلِّه بعد عقده وتمامه. فانظر إلى هذا التمكين الأتمّ والكرم الأعمّ لترى مولاك برؤيتك إياك. ومنبع هذا الفهم مستنبط من قوله تعالى:

---

[1] ش ك: إن عصيت.

[2] ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٠).

[3] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ (سورة النور، ٢٤/٥٥).

[4] ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٧).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» (البحر الزخار للبزار، ٦/٥٠٢؛ وسنن الترمذي، القدر ٦).

[6] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[7] سنن أبي داود، الوتر ٥؛ وسنن النسائي، قيام الليل ٥١؛ ومسند أبي يعلى، ١٢/١٢٧.

[8] ن: بأن يكون.

[9] سورة النساء، ٤/١٢٣.

[10] جامع معمر بن راشد (مع مصنف عبد الرزاق)، ١٠/٤٤٠؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٢/١٣٣.

[11] ك ن: بما نقضيه.

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ،[1] الآية. فقد صار الطائع له أجل واحد هو المسمى، فالطائع هو الذي يموت مَيتةَ ربه. وقد صار العاصي له أجل واحد مَقضيّ بعمله، والعاصي هو الذي يموت ميتةَ نفسِه بذنبه، لأن الموت الذي دهم[2] نفسَه قبل الأجل[3] المسمى هو أجل نفسه لا أجل ربه. فإذا طلب التأخير -وقد علم الله سبحانه أنه لا يتوب كما علم من قوم نوح[4] عليه السلام- كان التأخير عبثا لا حكمة فيه. ولهذا لمّا قال تعالى ههنا ما تقديره: ولن يؤخر الله نفسا عاصية إذا جاء أجلها المَقضيّ عليها بسوء عملها قال بعده: والله خبير بما تعملون. والحمد لله رب العالمين.

---

[1] ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٥٤).

[2] كلُّ ما غَشِيَك فقد دَهَمَك (لسان العرب، «دهم»).

[3] ن - الأجل.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة هود، ١١/٣٦).

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

يسبح لله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض. هذا التسبيح ههنا مقدَّم على خلق البشر. وذلك لعظم الإنسان الذي سخِّرت له الأكوانُ، وأُنزل من أجله القرآنُ. ولهذا كان نظم هذا السورة بما قبلها حسنا، لأن آخر ما قبلها: وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ.[1] ثم ابتدأ بعد التسبيح والتعظيم بقوله: فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.[2] ولهذا لمّا قال: **يسبح لله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض**، قال بعده: **له الملك وله الحمد**، أي فلهذا يُسبح له كل شيء؛ ولأن من له الملك فله يجب الحمد، فكيف لا يسبحه العباد. **وهو علىٰ كل شيء قدير**، فمن أحق منه بالتسبيح والحمد.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ②﴾

ثم ذكر أفضل مخلوقاته وهو المكلف فقال: **هو الذى خلقكم**، تقديره ليبلوَكم. **فمنكم كافر**، بسوء اختياره لنفسه وميله إلى هواه، **ومنكم مؤمن**، باختياره لنفسه كما قد مكّنه الله. ولهذا بعده: **والله بما تعملون بصير**. وهذه العبارة أعني "فمنكم كافر" يُفهَم منها نفيُ الإجبار، ولهذا لم يقل: خلقكم كافرا ومؤمنا. وأما قول الزجاج من أن الله تعالى خلق المرء كافرا في بطن أمه.[3] فحكاية المقالة تدل على قلة التحصيل. فقد علم الزجاج أنه لم يُخلَق في بطن أمه عالما بالنحو ولا عاقلا مُميِّزا. فإن أراد بذلك علم اللهِ بأنه سيكون فيجب أن يكون كافرا قبل خلقِ أمه بل لم يزل، وهذا العلم لا أثر له في الكفر. ومن لم يعتقد ذلك بعلم فقد أبطل حجة الله بقوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ.[4] فافقه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③﴾

ولمّا ذكر خلْقَ الإنسان ذكر ما هو أكبر منه في الخلق فقال: **خلق السمٰوٰت والأرض بالحق**. ثم ذكر التمكين من جهة التصوير فقال: **وصوركم فأحسن صوركم**.

---

[1] سورة المنافقون، ٦٣/١١.

[2] من الآية الآتية.

[3] معاني القرآن للزجاج، ٥/١٧٩.

[4] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٥).

وأراد بالحُسْن ههنا مع إطلاق القول حسْنًا يساعد على المصير إلى الله. ولهذا بعده: وإليه المصير، والمراد أن سائر الحيوان ليس فيه من هو على صورة الإنسان.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

ولما ذكر القدرة على مصنوعاته ذكر العلم فقال: يعلم ما فى السمٰوٰت والأرض، أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ؟[1] ويعلم ما تسرون وما تعلنون. قدّم ذكر العلم بالأعلى والأكبر وهو السماوات لنَستدل على أنه من يعلم الكبير يعلم الصغير. والله عليم بذات الصدور.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾

ثم نسق على قوله: فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ،[2] [قوله:] ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم، في الدنيا، ولهم عذاب أليم، في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾

ذٰلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينٰت فقالوا أبشر يهدوننا، وهم مثلنا، ولو شاء الله لأنزل ملائكة.[3] فكفروا، بالله، لأن الذي كفر بالرسول كفر بالمرسِل له. وتولوا، عما أنزل الله. واستغنى الله، / عنهم[4] وعن إيمانـهم بمعنى أن دينه قام من غير انتصار بالمذكورين. والله غنيّ، أي عن المؤمنين والكفار، حميد، محمود في ذاته وإن لم يعترف الكفار والجهال باستحقاقه الحمدَ عليهم. [٤٥١ظ]

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾

ثم قال واصفا بالكفار بأبلغ ما يوجب الفساد المبنيَّ على سوء الاعتقاد، وهو تكذيب الرسل فيما جاءوا به من صحة البعث، إذ على اعتقاد البعث يبنى[5] اعتقاد الثواب

---

١ سورة الملك، ١٤/٦٧.

٢ الآية ٢ من هذه السورة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٤/٢٣).

٤ ك ن: منهم.

٥ ن: ينبني.

والعقاب وتلزم التقوى: زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلىٰ وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذٰلك على الله يسير، سهل.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يوم يجمعكم ليوم الجمع، سمي بذلك لأنه يوم يُجمَع فيه المؤمن والكافر. **ذٰلك يوم التغابن**، ولم يقل: يوم الغَبِينَة بل هذا إخبار يدل على تفاعل بين اثنين، كل منهما يُظهر أن مصيبته أعظم وغبينته أشد. كما تقول: يوم التكاثر، أي كلٌّ يكاثر خصمَه، ومثله يوم التخاصم، كلٌّ يخاصم. ولا غبينةَ أبلغَ من غبينة مَن فاته نعيم الجنة الموعودُ فيها بلقاء الله، وخُلّد في عذاب النار التي من وعيدها، ولا يكلمهم الله. والغبن النقص في المعاملة، فهو كالتدسية التي ضدها التزكية.[١] **ويوم الجمع**، يُجْمَع فيه الكافر والمؤمن، فالكافر غبن نفسَه الكلّ، إذ فاتته الجنة، والمؤمن غبن نفسه البعض، إذ[٢] فاتته المنازل العليا من الجنة. ولمّا قضى العقل أن من لم يقم بحد استطاعته في عبادته فقد غبن نفسه في معاملته لها، [و]كانت هذه التسمية -أعني قوله: **يوم التغابن**- من أفصح المقال الشاهد بصورة الحال في يوم السؤال، إذ لا أحدَ من الخلق يثبت طولَ عمره على القيام بكل مجهوده في سبيل الحق. ولمّا كان الغبن جاءهم من قِبل أنفسهم حسن أن يقول بعد ذكر التغابن: **ومن يؤمن بالله ويعمل صٰلحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها أبدا. ذٰلك الفوز العظيم**.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

والذين كفروا وكذبوا بـٔايٰتنا أولٰئك أصحٰب النار، ونصب، **خٰلدين**، على تقدير "يكونون"، **فيها وبئس المصير**.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

---

[١] دسا يدسو دَسْوَةً: نقص وصغر، ضد زكا (لسان العرب، «دسا»).

[٢] ش ك: إذا.

ثم أخذ سبحانه يعرّفنا أن المصيبة التي أصابت الكفار وخُلّدوا بها في النار ليست عن اتفاق بل باستحقاق، لأنها بإذن الله أي بعلمه. والإذن حقيقة المراد به الإطلاقُ. أذنت لك في الخروج، أي أطلقتُه لك. فقال مخبرا عن كل إنسان في كل آن: **ما أصاب، أحدا، من**، للتبعيض، **مصيبة**، وإن شئت لتبيين الجنس، **إلا بإذن الله**، فهي عن عدل بحق. فللمؤمن تكفير، وللسابق توفيرٌ،[1] وللكافر عذاب ليرجع بها إلى الله، كقوله تعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ،[2] الآية. ولمّا كان الجميع ابتلاءً قال بعده: **ومن يؤمن بالله يهد قلبه**، تقديره بمصيبته، وخص القلب لأنه محل الإيمان، لقوله: وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ.[3] وإنما قلنا: **يهد قلبه**، بمصيبته من خير أو شر لأنها تَرُدّه إلى الله، كقوله: ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ،[4] فهذا في الشر. وأما في الخير فكقول سليمان عليه السلام: هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ،[5] فهذا حكم المؤمن. وأما الكافر فهو كما قال عليه السلام: «كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه ولِمَ أرسلوه».[6] وتقدير الكلام: ومن يكفر بالله يُضلّ قلبه بمصيبته. فحَذف أحد اللفظين لما دلّ عليه الآخر، فهذا كقوله: فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ، ثم قال: وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ،[7] وتمام الآية، وكقوله في المحكم: ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ / عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ [٤٥٢و]
أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ،[8] وتمام الآيتين. فقد عادت المصيبة مانحة بالخير للمؤمن ثوابا، مانعةً بالشر للكافر عقابا لما قدمت يداه. ولهذا بعده: **والله بكل شيء عليم**، وهذه الآية تزيدك بيانا في شرح مماثلتها، وهي قوله تعالى: مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ، فقوله هناك: إِلَّا فِى كِتَٰبٍ،[9] كقوله هنا: **والله بكل شيء عليم**. وبيّن ههنا ما قلناه

١ فللمؤمن تكفير لسيئاته، وللسابق توفير لحسناته وأجوره.

٢ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٢١/٣٢).

٣ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (سورة الحجرات، ١٤/٤٩).

٤ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٥٦/٢).

٥ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

٦ لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

٧ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١٢٥/٦).

٨ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (سورة محمد، ٤٧/١-٢).

٩ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ (سورة الحديد، ٢٢/٥٧).

من تفسير الإذن أنه العلم والإطلاق؛ ولا يكون الإطلاق[1] في الشيء إلا بعد العلم به. وقد علمت أن العلم محيط لا موجب ومجبِرٌ.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾

ثم عطف على قوله: فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ،[2] [قوله:] وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما علىٰ رسولنا البلٰغ المبين.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾

ولمّا أمر بطاعة الله ورسوله نبّه على أعظم الشواغل القلبية فيما يتعلق بالقلوب من المحبوب لئلا يكون الحب إلا من أجل الله في القريب الحلال، فكيف يجوز في غير ذلك من بالبعيد الحرام، فقال: يٰأيها الذين ءامنوا إن من أزوٰجكم وأولٰدكم عدوا لكم فاحذروهم. المعنى أنه تعالى لمّا أمر بطاعة الله ورسوله أتبع ذلك بذكر الأسباب التي تصرف عن هذه الطاعة، وأوكدُها الأزواج والأولاد، إذ كثيرٌ من الناس يُفني عمرَه ويرتكب الأخطارَ والمحرماتِ من أجل صلاح حال زوجته وأولاده، واتّباع أهوائهم. فلمّا كانوا بمثابة الأعداء للرجل من أجل ما يوقعه بنفسه [إلى المهلكات] بسببهم سماهم الله أعداءً. لكن الله تعالى نهى عن التبرئ منهم -كما يجب مع العدو- بما نبّه به على الصفح عنهم كما يجب للصّديق، فلهذا قدم الحذر. ولمّا حذّر قال بعده: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، وكل واحد من هذه الأوصاف له موطن لا يقوم مقامَه غيره فيه. فافهم لتكون متخلقا بأخلاق الله. فإن الله غفور رحيم.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

[1] ك - ولا يكون الإطلاق، صح هـ.

[2] الآية ٨ من هذه السورة.

ثم زاد التنبيه بقوله: إنما أموٰلكم وأولٰدكم فتنة، أي وإذا[1] كان هذا في القريب الحلال فكيف لا تَحذرون البعيد الحرام! وقوله: والله عنده أجر عظيم، أي لمن اجتنب[2] الافتتانَ وسلك سبيل العفو. ولهذا بعده بالفاء: فاتقوا الله ما استطعتم. وهذه الآية محكمة مبينة لتلك التي هي المتشابهة وهي قوله: حَقَّ تُقَاتِهِۦ،[3] ودليل ذلك قوله تعالى: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا.[4] واعلم أن الله تعالى يُقرّبك على قدر همتك به، فهمة العبد أنزلته ذلك المنزل. ولا يطالب الله أحدا إلا بقدر استطاعته وبمقدار قوة همته. فالعطية واحدة وإن اخلتفت مقاديرها. ولهذا خاطب الكل مطلقا بقوله: واسمعوا، أي اقبَلوا، ومثله: «سمع الله لمن حمده»،[5] أي قَبِل ذلك، ومنه: وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ،[6] أي تقبل. وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم. ومن يوق شح نفسه فأولٰئك هم المفلحون.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾

إن تقرضوا الله قرضا حسنا، وهو وضع الشيء في موضعه ليكون حُسْنه كاملا، لأنه على وفق الشرع وحكمِ العقل لا تبعا للهوى، فهو حَسَن من كل وجه لائقٌ به في بابه. يضٰعفه لكم، في الآخرة، ويغفر لكم، في الدنيا والآخرة، والله شكور، الشكور في لغة العرب هو الذي يرضيه القليل، حليم.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

---

[1] ن: إذا.

[2] ك ن: لمن تجنب. وفي هامش ك: لمن اجتنب.

[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٠٢).

[4] سورة الطلاق، ٦٥/٧.

[5] عن الزهري حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله وسلم إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللّهم العن فلانا وفلانا وفلانا، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» (صحيح البخاري، المغازي ٢١).

[6] ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/٤).

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

يٰأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، بمعنى إذا أردتم طلاق النساء، وهو كقوله تعالى: إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ،[1] وكقوله: فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ.[2] فقوله: **فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة**، لا بد لهذا الأمر من فائدة. والفائدة ظاهرة من قوله تعالى: **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذٰلك أمرا**، أي أمرا يوجب الإمساك. / وليس الإشارة [٤٥٢ظ] إلى الولد، أعني بأنها تكون حاملا فقط، بل إلى ذلك وغيره كما قال المفسر: إنه نزاع نفس الرجل إلى المرأة، وجزمه بالمراجعة، واضطرارُه[3] بوجه ما. والوجوه الموجبة لذلك كثيرة. لهذا عبر بقوله: **يُحدث بعد ذٰلك أمرا**. وكونه تعالى نسب الإحداث إليه يدل على معنى عجيب، وهو أن الإنسان ربما كان قد جزم بأن لا سبيل إلى مراجعة هذه المطلّقة بوجه. فأحدث الله ما أوجب المراجعة مما[4] لم يكن لِيخطر في البال لمصلحة هو أعلم بها سبحانه. فلهذا لم يقل: يَحدث أمرٌ، بل الله يُحدث ما يشاء على ما تقدم به العلمُ بالمصلحة الجارية على وفق الحكمة ومقتضى الرحمة. فنبه العباد على الإيمان بالغيب وقيدهم بالشريعة التي هي جِماع الخيرات ومعدِن الراحات، فهذه حكمة هذه العبارة، أعني قوله: **فطلقوهن لعدتهن**، إلى قوله: **أمرا**.

[الطلاق الرجعي وطلاق البائن]

فمتى قلنا: إن الطلاق يقع ثلاثا جملة فقد بطلت حكمةُ هذه العبارة إلا مِن حفظ[5] النسب فقط، أعني أن تكون حاملا. ويبقى قوله: **فطلقوهن لعدتهن**، لا معنى له يُفقَه

---

[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ (سورة المائدة، ٦/٥).

[2] ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (سورة النحل، ٩٨/١٦).

[3] ن: أو اضطراره.

[4] ن: المراجعة ما.

[5] ش: من خطف.

من هذه العبارة. بل كأنه قال: فطلقوهن واعتدّوا لهن، فتكون العدة غيرَ معلقة بالطلاق بل هي معنى آخرُ بعد الطلاق لما لا يتعلق به. وقد منعتِ العبارة من ذلك، أعني قوله: لعدتهن، بل هذه العبارة تعطي ما قلناه. والدليل على أن العدة أمر لازم لا من جهة بيانِ الحمل وجوبُها على من تُوفّي بعلها وليست بحامل، أو قد وضعت قبل تمام العدة. فلزم أن تكون العدة وإن كانت من أجل الحمل أيضا فهي من أجل غيره. ولزم أن الثلاث لا تقع في مرة واحدة بل تقع منها طلقة واحدة، كما بيّنّا عند قوله: ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ.[١] لأن ذلك، وإن احتمل أن يَجمع بين المرّتين، فيحتمل أيضا أن تكون كلُّ طلقة بمفردها، فبيّنه قوله: فَإِن طَلَّقَهَا، وهي طلقة مفردة، فعلمنا أن كل واحدة إنما كانت مفردة. وأيضا إن الواحدة يحصل بها الطلاقُ والبينونة، فإذا أراد أن لا يراجعها فله ذلك. فلم يبق فائدة إيقاع الثلاث جملة إلا أنه حرم على نفسه أنه لا يراجعها حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ،[٢] فكان[٣] قصده هذا فقط. وهذا التحريم منه افتراءٌ وظلم لنفسه ولزوجته. وبيانه أنه لو وقعت الثلاث في مرة لم يَبْقَ لقوله: **لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا**، فائدةٌ. فدل بذلك على أنه أراد بلفظ الطلاق واحدة ليكون للإحداث[٤] فائدة كما قدمناه. والسنة أن يطلقها إذا أراد الطلاق بعد طُهرها من حيض، ثم يمسك عن وطئها إلى أن تنقضي عدتها. فتلك طلقة واحدة، وله الرَّجْعة في مدة العدة بغير مَهْر. فإن لم يراجعْ ومضت العدة كان واحدا من الخُطّاب، ولها السكنى والنفقة ولا تَخرج حتى تنقضي عدتها، وله أن يدخل عليها بغير إذن لكن يسلّم ويَتَنَحْنَح. ولهذا قال: أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم.[٥] قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحيةَ بيتك أَسْكِنْها فيه.[٦] والوُجد المقدِرة من مِلك أو كراء. وقال في ضياء القلوب:[٧] يقال في القدرة: وجدتُ أجد وُجْدا بالضم، وفي الحزن وَجدا بالفتح، وفي الغضب مَوجِدة، وفي الظفر بالشيء وجودا، وفي كله أنا واجد.[٨]

١ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٩).

٢ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٠).

٣ ك: فكأن.

٤ ش: الإحداث.

٥ الآية ٦ من هذه السورة.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٣/٦٠.

٧ هذا الكتاب تأليف المفضّل بن سلمة، توفي سنة نحو ٢٩٠هـ/٩٠٣م (وفيات الأعيان لابن خلكان، ٤/٢٠٥).

٨ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

والدليل الأكبر على أن الثلاث لا تقع في مرة قوله تعالى: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ،[١] لأن المَسْك لا يجوز بعد ذلك. ولا شك في[٢] أن له الاختيارَ قبله؛ لأنه إذا راجعها زال التحريم وبطلت العدة وعادت[٣] إلى ما اقتضاه عقد النكاح. وأَجَل العدة آخر المدة، لأنه الوقت الذي له / أن يفعل كلَّ واحد من الأمرين. وإن [٤٥٣و] مات وَرِثَته[٤] وإن ماتت ورثها ما دامت في عِدّتها. وهذا يعطي أنها في حكم الزوجة ما خلا الوطء إلا إن راجعها، فإن راجعها قبل انقضاء العدة لم تكن عليه طلقةٌ بل أحدث الله أمرا كما ذكر سبحانه، وهذا هو كقوله: فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[٥] فهو مثل الظهار الذي يحرّمها.[٦] وبالرجعة يزول التحريم ما لم تَنقَضِ[٧] المدةُ.[٨]

فإن قيل: هذا مما يوقع إمكان الضرر بالزوجة، لأن الرجل يقدر أن يطلّقها ويراجعها دائما قبل العدة، ولا تقع عليه طلقة واحدة؟ فالجواب قد نهى الله عن ذلك بقوله: وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟،[٩] الآية. فتأمل هذه الجُملَ ومثلها في البقرة ولا تجزم بما تفهمه منها إلا بعد تحرير نظر النُّظّار بحثا.

ومع هذا فاعلم أن الكلام هو فيما يلزم عن لفظ القرآن لا فيما يجب أن يعتقد فيُعْملَ به تقليدا واتباعا.[١٠] فقوله: لعدتهن، كقوله: لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ؛[١١] أي حين انقضاء عدتهن لا يتقدم ولا يتأخر. والعدة مشتقة من العَدّ. فإن أجل كلِّ مطلقة له عَدَدٌ معلوم كما سنبينه.[١٢] ولهذا قال: واحصوا العدة واتقوا الله ربكم، فالإحصاء واجب على الرجال، لأن الخطاب لهم وإن عمّ النساءَ. وكذلك التقوى، وأمرهم بالتقوى لئلا يزيد أحدٌ على العدة، أو ينقصَ منها. وبين أن هذا الأمر وإن كان عاما للنساء والرجال، أعني الأمر بالإحصاء والتقوى، لكنه مخصَّص بالرجال لقوله لهم: لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ، ولم يقل: ولا، بل لا تخرجوهن أنتم، ولا يَخْرُجْنَ، هن، لأنها إذا خرجت في زمن العدة

١ من الآية السابقة.

٢ ن - في.

٣ ش - في أن له الاختيار قبله لأنه إذا راجعها زال التحريم وبطلت العدة وعادت، صح هـ.

٤ ن: ورثته.

٥ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، ٢٢٦/٢).

٦ انظر: سورة الأحزاب، ٤/٣٣؛ وسورة المجادلة، ٢/٥٨-٣.

٧ جميع النسخ: ما لم تنقضي.

٨ ن: مدة.

٩ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ (سورة البقرة، ٢٣١/٢).

١٠ ن: أو اتباعا.

١١ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ (سورة الإسراء، ٧٨/١٧).

١٢ ش: كما سيبينه.

جاز أن تُمكّن من نفسها مَن تعلق منه وتدّعي أن ذلك من بعلها ولأسباب غير ذلك. ثم استثنى من قوله: ولا تُخرجوهن، [قوله:] إلا أن يأتين بفحشة. والفاحشة كلمة تُطلَق على كل سوءٍ منهيٍّ عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، للعقل، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾[1] عن العقل، أي خفي عن العقل حكمة تحريمه. فيجب على العقل تركُ العقل والتقيد بالشرع. وقد بيّنا ذلك في موضعه. وههنا خَصّص من الفواحش فاحشة، وإفرادُها مُنبِّهٌ على تخصيصها بالزنى، كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾.[2] ثم قال: مبيِّنة، بكسر الياء فافهمها وهي من البَيْن، وهو الفراق، لأن الزوج لا يجوز له وطؤها إلا بعد عدة. فقد أوقعت الفاحشة بينهما بَيْنًا، فهذا وجه قراءتها بالكسر. وأما من قرأها بالفتح[3] فإنه أراد أن الشهداء يُبيّنونها. وجازت هذه القراءة، لأنها لا تدل إلا[4] على حكم النساء بالنساء لاختلاف الحُكْمَين، لأنه بين هناك بقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾،[5] وجوز ههنا الإخراج. ثم قال: وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، وبهذا يظهر أن[6] من اعتقد أن الثلاث في مرة واحدة فقد دخل في حكم مَن ظلم نفسه إذ أبطل حكمة قوله تعالى: لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذٰلك أمرا. ومن الظاهر في العقول أن الثلاث لا تقع في مرة واحدة ولا المرتين[7] في مرة. فإن قول القائل: رَكِبتُ رَكبتين أو نَقطتُ نقطتين ولم يَنقُط[8] إلا واحدةً كَذِبٌ. فإذا وقع بذلك الكذبِ ضررٌ عليه من نفسه فقد ظلم نفسه. فمراد الآية أن الرجعة تقع بالمجامعة، ولا طلاق إلا بعد انقضاء العدة وإلا فقد ظلم نفسه. فانظر إلى هذا التحذير، وافقه كونه جعل تتمة العدة حد الطلاق فلا يتعداها قبلُ ولا بعدُ. أعني لا يجوز وقوع البينونة قبلُ ولا تأخيرها بعد، وإن كان الطلاق قد وقع عند التلفظ. لكن العدة لهن، لهذا أضافها إليهن، / وذلك لئلا يُخرجْن. [٤٥٣ظ]
وأما في الإيلاء فالعدة للرجال من النساء. ثم قال مخاطبا للزوج بخطاب الرسول عليه السلام: لا تدرى، أي وإذا كنت أنت لا تدري فكيف من سواك، لعل الله يحدث بعد ذٰلك، الطلاق،[9] أمرا، يوجب المراجعة قبل بلوغ الأجل.

---

١ سورة الأنعام، ٦/١٥١.

٢ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٣٢).

٣ فتح الياء ابن كثير وشعبة، وكسرها غيرهما (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٢٢).

٤ ك - إلا، صح هـ.

٥ ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، ٤/١٥).

٦ ك: أنه. وفي هامش ك: أن.

٧ جميع النسخ: المرتان.

٨ ن: ولا ينقط.

٩ ش - الطلاق، صح هـ.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾

فإذا بلغن أجلهن، لا قبل ولا بعدُ، **فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف**، لأنه يصح أن يُمسكها للمضاررة، ويصح أن يمسكها لحسن[1] الصحبة. وكذلك إذا فارقها يمكن كلا الأمرين، فأَمَره في أيهما اختار أن يقصد ما هو معروف ولا ينكره العقل. ولما كان الطلاق قد وقع ولكن لم تقع[2] البينونة إلا بعد انقضاء العدة قال: **فأمسكوهن**، إنباءً على أن الحكم له في مَسْكها في جملة أيام العدة، فافهمه. وقوله: **وأشهدوا ذوى عدل منكم**، أي في ذلك الوقت عند المسك أو المفارقة. وأخّر ذكر المفارقة فجعله بعد ذكر المسك ليكون الأمر مؤكّدا بالإشهاد على المفارقة، لئلا يَظنّ الظّانّ أنه عطف على الأقرب فيشهدَ على الإمساك وحده لو أخره في الذكر عن المفارقة. فافهم أنه لا بد من الإشهاد على المفارقة عند انقضاء العدة لا قبل ولا بعد. وقال قوم: إن[3] لم يُشهد عدلين على الطلاق فهو باطل. وليس كذلك فِقْهُ الآية بل يقع الطلاق بانقضاء العدة، ولكنه يكون عاصيا إن لم يشهد، فيجب الإشهاد لأن العداوة تقع بالطلاق في أكثر الأمر. فإذا لم يشهد جاز أن يدعي أحد الزوجين انقضاء العدة ويجحدَ الآخَر ليضر خصمه.

ثم أكد الأمر بقوله: **وأقيموا الشهٰدة لله**، مخلصين لوجهه الكريم. وفائدة ذلك لتحقّق[4] طلقةٍ واحدة. فلو عاد إلى النكاح بعد ذلك بغير شهداء منعهما الشهداء إلا بعقد جديد ورضًا من الزوجة. وقد كان الأمر قبل انقضاء العدة مباحا للزوج في إمساك الزوجة ولم تحصل طلقة. ولا يحتاج إلى شهداء إلا إن كَمُلت العدة، فقد حصلت طلقة ووجب إعلام الشهداء بذلك، وأما قبل كمال العدة فلا. ولهذا قال: **فأمسكوهن**، ولم يقل: فردّوهن كما قال: وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ.[5] ولم يقل: بإمساكهن في تلك الآية. وبيّن ههنا تعليل هذا الحكم بقوله: **ذٰلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**،

---

[1] ن: الحسن.

[2] ك ن: لم يقع.

[3] ن: وإن.

[4] ش ن: لتحقق.

[5] ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٨).

فإن من لا يؤمن لا يتقيد بأوامر الله. وانظر كيف جعل التعليل وعظا كما جعل في كفارة الظهار بقوله: فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا، ثم قال: ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ.[1] فجعل ههنا وقوع البينونة بعد انقضاء العدة واعظا وزاجرا للزوج، وقاطعا له ورافعا لحكمه على الزوجة. وقد كان حكمه نافذا في إمساكها قبل تمام العدة، لأن الله جعل له مخرَجا من قوله الذي هو الطلاق، لأنه عُسر، فهو في مدة العدة متمكن من الخروج من العسر بغير وقوع طلاق. وهذا هو معنى قوله تعالى ههنا: **ومن يتق الله يجعل له مخرجا**. قال عكرمة في معنى الآية: من طلق، كما أمر الله يجعل له مخرجا.[2] وجاء بهذا اللفظ على هذه الصيغة ليُفهم منه العموم والإطلاق. كأنه قال ما معناه: قد جعلنا لكم مخرجا من الحرج الذي قد توقعون فيه أنفسكم ثم يحصل لكم ندمٌ، أو ضرورة، أو يُحدث اللهُ أمرا بعد وقوعكم في ذلك الحرج الذي[3] هو الطلاق. فقد جعلنا لمن يؤمن بالله واليوم الآخر موعظة، ولمن يتقي الله مخرجا. فالموعظة وقوع الطلاق بعد انقضاء العدة. والمخرج تمكُّن الرجلِ من مَسْك المرأة في مدة العِدّة ولا طلاق عليه. وتقديره: قد جعلنا للمتقي مخرجا من الإثم والحرج / في هذا الحكم. وكل من يتق الله يجعلْ له مخرجا من عسره إلى يسره. [٤٥٤و]

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾

ولمّا كان رزق الإنسان مقدورا عليه، وقلبه في أكثر الأمر متعوبا به، وقد شرط عليه التقوى ووعده بالمخرج من كل عسر قال بعده: **ويرزقه من حيث لا يحتسب**، إعلاما للزوجة أن الله هو[4] الذي يرزقها إذا فارقها الزوج، وإعلاما للزوج أن الله هو الذي يرزقهما إن أمسكها مع الفقر أو يعوّضه عنها مع المفارقة. وكذلك الزوجة، فليس لأحد أن يفكر مهتمّا من أين يقيم[5] بعياله إن أمسكهن، أو من أين يعطيهن حقهن إن فارقهن، بل عليه إن يتقي الله تعالى. واعلم أن التقوى عبارة عن ترك المخالفة في الأمر والنهي.

---

[1] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة المجادلة، ٥٨/٣).

[2] جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٤.

[3] ك - قد توقعون فيه أنفسكم ثم يحصل لكم ندم أو ضرورة أو يحدث الله أمرا بعد وقوعكم في ذلك الحرج الذي، صح هـ.

[4] ن: وهو.

[5] ن: من أين تقسم.

ولا شك أن سائر الأمور تنقسم إلى قسمين: مكروه ومحبوب. فقوله: يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا،[١] يعُمّ كل مكروه، وقوله: **ويرزقه من حيث لا يحتسب**، يعم كل محبوب ظاهرا وباطنا، دنيا وآخرة في سائر الصُّوَر. ويعود قوله: مَخۡرَجٗا، جزاءً على[٢] المنهي عنه، وقوله: **ويرزقه**، جزاء على المأمور به.

ثم حقق ذلك في الضمائر لتطمئن القلوبُ بهذا الوعد المحبوب فقال: **ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بٰلغ أمره**، أي اعلموا أن الله قادر في كل آن بالغَ أمرِ المتوكل، فإن الله قادر عليه. وهو الذي يرزقه ويقوم بأمره؛ فليس الله بعاجز عن بلوغ أمر من أمور المتوكل وأحواله في أقواله وأفعاله. ثم استدل على هذه الدعوى بقوله: **قد جعل الله لكل شيء قدرا**، مقدارا ومنزلة ورتبةً فيما أريد به. فكيف لا يكون الذي جعل لكل شيء قدرا بالغًا أمرَ المتوكل عليه سبحانه، فيعطيه ذلك الرزق أو يخرجه من ذلك العُسر؟ فافهم الكلام الذي يشير به إلى الزوج والزوجة وإن كان مطلقا، لكن جاء ههنا مُفهِما لهذا التخصيص لئلا يَضعف قلب الزوجة إذا فارقها الزوج أو قلبه، وهو من باب قوله: وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ.[٣] فلا تهمل هذه الدقائق والتنبيهات التي قد قيل فيها: غير مفهوم لفظها، كما قيل في قوله تعالى: **إن الله بٰلغ أمره**. وأعِد الأمر إلى الله. فتأمل ذلك، واذرِ مقدارَ ما وهبك الله، إذ سخّر لك قلبا[٤] وبَنانا خطّت لك بيانا مفصَّلا يهدي إلى الرشد بغير كلفة ولا عَناء[٥] منك. فإن قلّ عندك فقد جلّ عند الله وعند الذين أوتوا العلم. ولمّا كان هذا الكلام المطلق مخصَّصا بالمطلقات ذكره في وسط الإخبار عنهم.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾

ثم تمم ذلك بقوله: **والّٰئى يئسن من المحيض من نسائكم**، المطلقات، **إن ارتبتم**، في حملهن، **فعدتهن ثلٰثة أشهر**. فأمّا إذا لم تقع رِيبةٌ في حملهن فالأجل الوضع.[٦]

---

[١] من الآية السابقة.

[٢] ن: عن.

[٣] سورة النساء، ١٣٠/٤.

[٤] ك - قلبا، صح هـ.

[٥] ش ك: ولا غناء.

[٦] ش - فعدتهن ثلٰثة أشهر فأما إذا لم تقع ريبة في حملهن فالأجل الوضع، صح هـ.

والّٰئى لم يحضن، عدتهن كذلك إن ارتبتم في أنها حامل أو حائل.[١] وقدم قوله: إن ارتبتم،[٢] ليتم الحكم، ثم يعطف عليه بعد تمامه بذكر الريبة والعدة تنبيها على أن هذا قِسْم واحد لا يتنوع؛ والمعطوف عليه قسم آخر يتنوع. فذكر اللائي يئسن من المحيض لكبرهن، وهن قسم واحد. وذكر اللائي لم يحضن بعده وهن[٣] ثلاثة أنواع: إما لصغرها، وإما لعادتها، وإما لأنها قد تكون مُرضعةً فيمتنع حيضها لذلك في غالب النساء. والرِّيبة هي الشك، لأننا لا نقطع بأنها حامل[٤] إلا بعد تمام الأقراء أو الأشهر.[٥] فالريبة هي[٦] قبل العدتين واقعة، وقد تُقطَع[٧] بأنها حامل قبل ذلك، فتزول الريبة بتحقق الحمل قبل العدة. ولا يصح أن تزول الريبة بأنها حامل إلا بعد العدة، فافهمه جيدا. وهذا يعرِّفُك أنه لا يُمكن أن تبقى الحامل أكثر من ثلاثة أشهر ولا يظهر أنها حامل. وأما أَقَلُّ فجائز أن لا يظهر.[٨]

[٤٥٤ظ] ثم قال بعد فراغ ذلك: وأولت الأحمال، / من المطلقات دون من تُوفي عنها بعلُها، أجلهن أن يضعن حملهن، سواء وضعت في يومها أو متى وضعت سقطت العدة. وأما لو مات عنها زوجها وهي حامل فوضعت بعد أربعة أشهر وعشر فذلك هو الأجل. فإن وضعت قبلُ فعليها أن تُكمل العدة. ولهذا قال في اللائي لم يحضن: فعدتهن، وفي هؤلاء: أجلهن. وكذلك في قوله: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا،[٩] ذكر الأجل لا العدة. ولمّا كانت من تُوفي عنها بعلُها، وإن لم تكن حاملا، لها أجلٌ وهو الأربعة أشهرٍ والعشرُ ومن كانت حاملا وإن لم يُتَوَفَّ عنها بعلُها بل طلّقها لها أجل وهو الوضع لزم أن التي جَمعت بين الصورتين، وهما التوفي والحمل، أن تجمع بين الأجلين وهما المدة والوضع، فعليها أقصى الأجلين ليدخل الأدنى[١٠] في الأقصى. وبه قال علي وابن عباس رضي الله عنهما.[١١] فافقه هذا في التوفي هناك ولا يُشكِل عليك، فإن الكلام ههنا في الطلاق، ولهذا قال: من نسائكم، فافهم جيدا[١٢] متأنيا.

---

١ الحائل: كل أنثى لا تحبل. يقال: امرأة حائل، وناقة حائل (المعجم الوسيط «حول»).

٢ ش – في أنها حامل أو حابل وقدم قوله إن ارتبتم.

٣ ك ن: وهو.

٤ ك ن: حابل.

٥ ن: والأشهر.

٦ ك ن – هي.

٧ ن: وقد نقطع.

٨ ن: أن يظهر.

٩ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٤).

١٠ ش ك: أقصى الأذى.

١١ أحكام القرآن لإلكيا الهراسي، ٤/٤٢١؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٨/٢٨٠.

١٢ ن + متأملا.

ومن جملة حكمة زيادة الأربعين يوما على الثلاثة أشهرٍ التي هي عدة من لم تَحِضْ ليعرِّفَنا أن المرأة أكثر ما تقدر على أن تصبر عن الزوج هذا المقدار. ومن الجائز أن يكون هذا المقدار بعده يزول الحزن عن قلب الزوجة وإن كان فيه حِكَمٌ أخرى، والله أعلم بها. ولمّا كانت العدة في كل مكان مفروضةً لحكمة وإن شارك البعض للبعض جعل الله عدة من توفي عنها زوجها أكثر من ثلاثة أشهر ليعرِّفَنا أن ذلك ليس المراد به بيانَ الحمل، فإن بيان الحمل يظهر إما في ثلاثة قروء[١] أو ثلاثة أشهر. ولهذا يلزم بعد الوضع أن تُكمل إن وضعت قبل أربعةِ أشهرٍ وعشر.

ولمّا كان الرجل حاكما على المرأة ولا يصده[٢] عن مضاررتها إلا تقوى الله قال بعده: **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**، فإن الله بالغ أمره فيجعل له منه سهولة. ومن جملة التقوى أن لا يطلقها إلا كما أمر الله وأن يُحصي العدة، ولا يصح الإحصاء إلا على حكم المنصوص. وقد ثبت في قصة ابن عمر لمّا طلق امرأته في الحيض وسأل عمر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك أنه قال له: «مُرْه فليراجعْها ثم يطلّقْها طاهرا من غير جماع».[٣]

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾

ذٰلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله، أي يتقي مخالفة أمرِ الله، **يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا**. وتكرار لفظ التقوى فإن الأول يرجع إلى الشهداء، لقوله: وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ؛[٤] والثاني خطاب للرجال يريد به امتثال الأمر في جميع ما تقدم من حديث العدة وإن صعب ذلك. ولهذا قال: يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا.[٥] فلفظ التقوى في هذه مبني على قوله تعالى في أول السورة للرجال: وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ؛[٦] فذكر التقوى أولا وآخرا. وأمّا الثالث فهو عام للنساء والرجال والشهداء وإن عمّ ذلك بقيةَ الخلق أيضا. ولهذا قال: **ذٰلك**، أي جميعه أمر الله أنزله إليكم. و"الأمر" يُفهَم منه الأمر والنهي، فاجتناب المنهي عنه يكفر السيئات، وامتثال المأمور به يُعْظِم الأجرَ، فهو كتوفير الحسنات. ولمّا كانت التقوى في جميع المواطن المذكورة ههنا عائدةً على ما يتعلق بالطلاق ذكرها الله بين هذه الآيات.

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ (سورة البقرة، ٢٢٨/٢).

[٢] ك ن: لا يصده.

[٣] صحيح مسلم، الطلاق ٢-٤.

[٤] الآية ٢ من هذه السورة.

[٥] من الآية السابقة.

[٦] الآية ١ من هذه السورة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

ثم تمّم الكلام في حق المطلقات وما يجب لهن على الرجال في مدة العدة فقال: **أسكنوهن من حيث سكنتم**. ولولا "من" للزم أن تكون معه في البيت الواحد من بيوت الدار. وقوله: **من وجدكم**، بضم الواو، فالوُجد هو الموجود، وَجَد يَجِد وِجْدانا ووَجْدا،[1] ولو فتحت الواو لكان من التواجد، والأصل واحد. / ولم يقل: من مُلككم [٤٥٥و]
بل، من وُجدكم، بحسب ما تجدون. **ولا تضارّوهن**، من الضرر بأي صورة من صوره، **لتضيّقوا عليهن**. وقد يَتوهم متوهم أن الأَولى أن يكون القول: "ولا تضيقوا عليهن"، لِتَضرُّوهن، وليس كذلك بل المراد ولا تضارّوهن[2] بصورة من صور الضرر[3] لأجل أن تضيقوا عليهن. فلو ضارَرَها لمصلحة شرعية جاز كما إذا تركت الصلاة فهجرها في المضجع فذلك يضيّق[4] عليها عَيْشَها؛ وكما قد يخاصمها لتخرج عما يجب عليه من نفقتها؛ وكما قد يوسّع عليها في النفقة فكذلك قد يضيق. **وإن كن أولٰت حمل فأنفقوا عليهن حتىٰ يضعن حملهن**، وهو الأجل الأبعد فلزم أن ينفق عليها مدة الأجل الذي هو دون ذلك. **فإن أرضعن لكم فئاتوهن أجورهن**. ثم قال للزوجين ولبقية المؤمنين: **وأتمروا بينكم بمعروف**، يعرفه العقلاء ولا يُنكرونه على قائله أو فاعله. **وإن تعاسرتم**، في مقدار الأجرة، **فسترضع له أخرىٰ**. ولم يقل: "فَلْتُرْضِعْ له" ليكون ذلك وعدا من الله بأنه يُيَسّر مرضعةً إذا تعاسرت[5] أمّ.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

ثم قال بلام الأمر معطوفا على [قوله:] وَأْتَمِرُوا:[6] **لينفق ذو سعة من سعته**، ولهذا قال:[7] لينفق، مُسَكّنة وليست لامها لام كَيْ، ولهذا لم تكن القاف منصوبة. والمعنى

[1] الوُجد والوَجد والوِجد: اليسار والسَّعة. وفي التنزيل العزيز: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ وقد قرئ بالثلاث أي من سَعَتكم وما ملكتم (لسان العرب، «وجد»).

[2] ك ن: ولا تضارروهن.

[3] ن – الضرر.

[4] ك: نضيق.

[5] ن: إذا تعاسرتم.

[6] من الآية السابقة.

[7] ش ك: قاف.

وَأتمروا بما أمرناكم به وهو: لينفق ذو سعة. وقوله: بينكم بمعروف، تقديره بمعروف هو بينكم معروف. ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما ءاتنه الله، تقديره بمعروف أيضا بحسب ما آتاه. لا يكلف الله نفسا إلا ما ءاتنها، سيجعل الله بعد عسر يسرا، هذا اليسر في الرزق ولهذا هو بعد العسر. ولا يناقض ذلك قوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾،[1] فإن ذلك فيما يبتلى به العبد المؤمن؛ فإنه إما أن يكفر الله به عنه سيئة أو يضاعف له به حسنةً، وكلاهما يُسْرٌ بنفس العسر، فهو معه وزنا بوزن.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾

ولمّا ذكر هذه الأوامر ذكر مَن خالف أوامر الله فاستحق العذاب فقال: وكأين، وهي أيٌّ، وليست من الاستفهام بل هي للتكثير[2] على معنى "كم"، من قرية عتت عن أمر ربها ورسله، أي وعن أمر رسله. فحَسبناها حسابا شديدا وعذبنٰها عذابا نكرا، منكرا في الطباع والعقول لا يُعرَف مثله.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾

فذاقت وبال، هلاك، أمرها. وكان عُقبة أمرها خسرا، والأمر ههنا هو الشأن والحال في الآخرة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١﴾

ثم شرح الخُسر بقوله: أعد الله لهم عذابا شديدا، ولم يقل: "لها" لئلا يُخصِّص القرية بل ليعُمَّ[3] تلك في الماضي ومن يعملُ مثل عملها في المستقبل إلى يوم القيامة. ثم قال ما معناه وإذ قد علمتم ذلك: فاتقوا الله يٰأولى الألبٰب الذين ءامنوا، لو لم يقل:

[1] سورة الانشراح، ٩٤/٥-٦.

[2] ن: التكثير.

[3] ن: بل يعم.

الذين ءامنوا،[1] لظن[2] كثيرٌ من أهل الكتاب والمشركين أن في العقول كفايةً. فعرّفنا الله سبحانه أن العقل بغير إيمان ليس بشيء، وأن التقوى المأمور بها إنما تحصل لذي اللب مع الإيمان، وأما بغير إيمان فلا. ثم خاطب المذكورين بقوله: قد أنزل الله إليكم ذكرا، رسولا، مع رسول فافهمها، يتلوا عليكم ءايٰت الله مبينٰت، بفتح الياء،[3] ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[4] وقد بيّنّا[5] الآيات، ليخرج الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت من الظلمٰت إلى النور. ومن يؤمن بالله ويعمل صٰلحا يدخله جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها أبدا، قد أحسن الله له رزقا، يرزقه فيها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

ثم استدل على صدق الوعد والقدرة عليه بالقدرة على خلق السماوات فقال: [٤٥٥ظ] الله الذى خلق سبع سمٰوٰت. وقوله: ومن الأرض / مثلهن، قيل: أراد الأقاليم السبعة، إذ لم يقل: ومن الأرَضِين، ولأنه في جميع القرآن لم يجمع في ذكر الأرض كما جمع في ذكر السماء بقوله: سمٰوٰت. وقيل: أراد بقوله: ومن الأرض، أي ومن وِجهة الأرض سبعَ سماوات مثلَهن. ولا تكون المماثلة إلا بين سماوات، وذلك أدلّ على عظم القدرة. ولو كان المقصود العِدّةَ لقال: وسبع أرضين، أو ما يخص العِدّة دون التصريح بالمماثلة.[6] وهذا يدل على أن السماء محيطة بالأرض. وقوله: يتنزل الأمر، أي بما شاء الله، بينهن، أي بين السماء التي من فوق الأرض والسماء التي من تحتها، فيعُمّ الأرض ومن فيها وما عليها وما يلج فيها و[ما] يخرج منها، والبحر المحيط بها وغير ذلك مما دخل في الكُرَة. وهذا أعم من أن يكون المفهوم بين السماء والأرض فقط وإن جاز أن يقال: بين طبقاتهن. ولمّا ذكر ما هو مرئيّ بالعيان من دلائل القدرة وجعله برهانا على صدق الوعد المشروط بالإيمان والعمل الصالح بيّن لنا أنّ خَلْق السماوات وما فيها

---

١ ك – لو لم يقل الذين آمنوا، صح هـ.

٢ ش: الظن.

٣ فتح الياء المدنيان والمكي والبصريان وشعبة، وكسرها غيرهم (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٢٢).

٤ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨-٤٩).

٥ ش ك: قد بينا.

٦ ش ك: المماثلة.

علامةً من علامات القدرة. فقال ما معناه: فعلنا ذلك، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، وشيء من أعم العموم. فذكر الكبير وهو السماوات ليدل على الصغير، وذكر العموم بقوله: بكل شيء. ولا شك أن من شاهد صورةَ عظام الإنسان مثلا علم أن لها صانعا تقدم علمُه بما يجب أن تكون عليه مخلوقاته. فإحاطته سبحانه وتعالى بالأشياء علما وقدرة أمر ظاهر. وظهور هذا في الشهادة عيانا يحقق الإيمان بالغيب إيقانا فصح قوله تعالى: لتعلموا، أي لتعلموا بما أريناكم ما وعدناكم.

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾

لمّا قدّم في السورة التي قبل هذه ذكْرَ الطلاق تلا ذلك في هذه بذكر تحريم الحلال تنبيها لمن يحرم على نفسه بالطلاق حلالا. فهذا من بعض مدلولات قوله تعالى: **يٰأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك**. وهذا العتاب ههنا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم على نفسه حلالا شَفَقة منه ومراعاةً لقلوب أزواجه. ولمّا كان المقصود بهذا الأمر الذي حكاه الله لنا أن يعلّمنا به أننا لا نحرّم[1] ما أحله الله لنا لم يعين ذلك الشيء، فلم يقل: إنه من مأكول، أو مشروب، أو منكوح، أو غير ذلك، إذ ليس المقصود أن يخبرنا بحكاية ما جرى بعينه، بل المقصود أن يعلمنا بما جرى لِيُفتِينا في مثله. فلو عيّنه لزم أن لا يكون المفهوم مطلقا والله أراده مطلقا. فليس لقائل أن يقول: كان قد حرم بعض أزواجه، أو شرابا من عسل، أو غير ذلك، إذ لو أراد الله تعيينَ ذلك لعيّنه، بل الحكمة في كونه لم يعيّنه، [و]قد ذكرنا منها ما يكفي ويشفي. لكن عَرَفْنا بالنص أنه عليه السلام إنما حرمه لأجل مرضات أزواجه وهو قوله: **تبتغى مرضات أزوٰجك**. ويحتمل أن يكون هذا بمعنى الاستفهام الخارج مخرجَ التوبيخ. ويحتمل أنه على صورة الإخبار، فهو من تمام الكلام. ثم قال: **والله غفور رحيم**.

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾

ثم أعقب الكلام بما يوضحه ويبيّن ما المقصود بهذا القول، وهو قوله تعالى: **قد فرض الله لكم تحلة أيمٰنكم**. التحلة من التحليل كالتتمة من التتميم، والتحلة من الحِلّ الذي هو الحلال، وليس من ضد العَقْد. وهذا يدل على يمين وقعت منه عليه السلام. وإنما حكى الله هذه عنه ومثلَها عن أيوب عليه السلام بقوله: وَخُذۡ بِيَدِكَ / ضِغۡثٗا،[2] [٤٥٦و]

[1] ك: لا تحرم.

[2] ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ (سورة ص، ٤٤/٣٨).

ليعرّفَنا أن الأنبياء عليهم السلام جرى لهم مثل هذه الأمور، وعلّمهم الله كيف المخرج لنقتدي بهم ولا نَقْنَط ونيأسَ إذا بدا من أحدنا شيء مثل ذلك. والله مولٰكم وهو العليم الحكيم.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾

ثم حكى من جنس هذه القصة فقال: وإذ، ولو كانت الإشارة إلى قضية واحدة لقال: إذ، أسر النبى إلىٰ بعض أزوٰجه حديثا. ولو أراد الله أن يعرّفَنا ما الحديث لَمَا ذكر أن النبي أسرّه وأنه وعظ أزواجَه وتوّبهن عن إفشاء السر، فليس لنا أن نَحْرُزَ[1] ما كان السر، وإنما أبهمه لحكمة هو سبحانه أعلم بها. فمما يظهر من ذلك أعني كونَه تعالى لم يُبيّن ما الحديث فلئلا يَحرُم على المرأة أن تشيع عن زوجها مثل ذلك فقط، فتَرَكه مطلقا[2] منكّرا ليعلّم النساء كتم أسرار الرجال، وليعلّم الرجال العفوَ والإعراض عن بعض ذنوب النساء مع التعنيف لهن. ثم لو أراد الله أن يخصص هذه الواقعة ويعرّفَنا مَنِ الآتية بها من نساء النبي صلى الله عليه وسلم لقال ذلك. وإنما في سترها وكتمانِ اسم المُنبئةِ حِكَمٌ يفقهها ذو النظر المتفطّن لِما قدمناه ومثله. فليس لنا أن نقول: كانت فلانةً، لأن الله تعالى لم يرد التعريف بتلك الواقعة فقط، بل جعل ذكرها تعليما وتأديبا لعباده إلى يوم القيامة. فضرب لهم الأمثال ولم يذكر من الأمثال ما لم يقعْ كما يضرب أحدنا لصاحبه، بل ذكر الوقائع الوجودية في أزمان الأنبياء والملوك والأمم. وضرب بهم[3] مثلا لمن يأتي بعدهم. وليس المقصود أيضا فَهْم تلك القضية بعينها من كل وجه[4] لم يبيّنه النص لنا، بل يجب أن نَفهم[5] ما جاء في النص ونقتصر عليه، لأنه تعالى إنما اقتصر على ما هو كاف، فأثبته لحكمة يجب أن تُعلم ليُعمل بها.

وقوله: فلما نبأت به، دل مع ما بعده على أنها نبأت لزوجة أخرى فقط لا أكثر. وأظهره الله عليه، أي حين الإنباء كان الإظهار. وقوله: أسر ونبأت، دل منها على قول لم تُسرّه بل صرحت به إلى الزوجة الأخرى. وقوله تعالى: وأظهره، أي أطلعه

١ ن: أن نحذر.
٢ ن: مطلق.
٣ ش ك: وضربهم.
٤ ك: من كل زوجة. وفي هامش ك: وجه.
٥ ش: أن يفهم.

إطلاعا ظاهرا لا من طريق الظن. ففي ذلك الحين أيضا: **عرّف بعضه**، بتشديد الراء لقوله: **وأعرض**، النبي صلى الله عليه وسلم، **عن بعض**، أي فلم يعرّفه. وهذا يدل على أنه عرّف من شاء لا أنه عرفها هي. وافهم قوله: **فلما نبأت**، **وأظهره**، **عرف**، الذي يدلك على حين واحد لئلا يطول الزمان فيقع في الظن أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع بذلك. والذي أعرض عنه النبي عليه السلام هو ما يصدر من الجاهلين مما يتعلق بتلك الواقعة، لقوله تعالى: وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ.[1] ولهذا لم يقل: وأعرضَ عن بعضه بل، **عن بعض**. فهي قالت ما قالته جهالةً لا عن قصد أذيةٍ، لكنه ذنبٌ تجب التوبة عنه. ولهذا أعرض عن البعض. ولو لم يرد أن يجعل ما أظهره آية لها لَمَا أظهر شيئا. ثم بعد أن عرّف الغير من الناس نبأها بالبعض. **فلما نبأها به**، أي بما عرّف لا بما أعرض عنه وإن كان الإعراض والتعريف إنما وقعا في حق مَن عرّفه النبي أولا قبل تعريفها. ولهذا قال: نبأها، وقال قبله: **عرّف**، أي من حضر مَثَلا فكأنه كان جالسا. فأوحى إليه ما جرى فأخبر من حضر ببعضٍ ما كان أسر إلى زوجته لا أنه قال: قلت لزوجتي كيت وكيت، ولا قال: قد قالت الآنَ فلانةٌ / لفلانة: كيت [٤٥٦ظ]
وكيت. بل[2] لما أخبرت هي صاحبتها ما أسرّ إليها وأطلعه الله عليه عرّف هو من حضر بعض أحواله.

وفائدة هذا التعريف أنه عليه السلام أظهر عن نفسه ما أسره بنفسه قبل أن يَظهر من الغير ليعرّفَنا أن ذلك لم يكن مكروها أو فاحشة، بل كان حديثا يجوز إظهاره للناس. وإذا تأملت الكلام مرات فهمت صورة ما جرى وفَقِهت أن النبي عليه السلام خاف على قلوب المؤمنين أن يَطرُقَ أسماعَهم عنه من زوجته حديثٌ لا يفقهونه فيظنوا به غير الواجب فيحصل الإثم العظيم. فعرّفَهم هو بعض الحديث إذا سمعوه عنه علموا صورة الحال مما سمعوه منه. ولم يقل: عرّفهم أو عرّفها بل، **عرّف**، أي لمن اتّفق لنعلم أن هذه القضية لم تكن عظيمة ولا واجبا عليه تعريفُها للجميع، بل إنما فعل ذلك شَفَقة منه عليه السلام. فلمّا نبأها به بعد ذلك قُدّامَ[3] صاحبتها كأنه قال ما معناه: إنكِ قلتِ لهذه كيت وكيت، قالت المنبئة متعجبةً: من أنبأك هذا أنني قلته لهذه على هذه الصورة؟ **قال نبأني العليم الخبير**.

---

[1] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٩٩/٧).

[2] ش – بل.

[3] ن: فدام.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾

ثم أوحى الله إليه قولا لهما في حقه فقال: **إن تتوبا إلى الله**، مما بدا منكما وستعلم ما بدا منهما، **فقد صغت**، صَغِي يَصغى، أي مال إلى استماع القول وقبوله. ويقال: صغي: مال، وأصغى: أمال. «كان عليه السلام يُصغي الإناء للهرة».[1] وتقول لصاحبك: اسمع كلامي وَاصْغَ إلى نُصْحي. وقوله: **قلوبكما**، ولم يقل: قلباكما تعريفا بجواز التعبير بهذه العبارة، أعني الجمع في موضع التثنية. والمعنى إن تبتم فقد مالت قلوبكم إلى الحق بعد أن مالت عنه وهو مراد الله منكم. ولهذا بعده: **وإن تظٰهرا عليه**، أي تتعاونا. وهذا هو الذي بدا منهما وهو أن الواحدة أخبرت الأخرى بما أسرّ إليها لتُعاونَها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك أمر من الأمور هو مكروه عندهما ومباح له عليه السلام. فتظاهرا وتعاونا على منعه من ذلك لِيَغلباه[2] على رأيه فيه. فقال الله تعالى: **وإن تظٰهرا عليه فإن الله هو مولىٰه**، ثم قال: **وجبريل وصٰلحُ المؤمنين**، يريد الصالح من المؤمنين كناية عن جمع. كما تقول: تقدم في الجيش القويُّ من المُقاتِلة. **والملٰئكةُ**. وقوله: **بعد ذٰلك**، أي بعد ذلك المولى وهو الله تعالى، **ظهير**. وتقديره فإن الله مولاه وظهير له. ولو لم يقل: **بعد ذٰلك**، لكان المعنى أن الله مولاه والملائكة ظهير.[3] ويحتمل: فإن الله هو مولاه وحده سبحانه وجبريل وصالح المؤمنين ظهير له، والملائكة بعد ذلك، أي بعد جبريل وصالح المؤمنين.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ مُّؤۡمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا ۝٥﴾

ثم توعّدهن إن لم يقع الإصغاء منهن إلى مراد الله وهو التوبة، وجعل ذلك بلفظ الجمع لتكون الموعظة عامة لسائر نسائه. فقال: **عسىٰ ربه إن طلقكن أن يبدله أزوٰجا خيرا منكن مسلمٰت مؤمنٰت قٰنتٰت تٰئبٰت عٰبدات سٰئحٰت**، من السياحة[4] -ويحتمل أنه أراد الهجرة والحج والسير في سبيل الله وما شاكل ذلك- **ثيبٰتٍ وأبكارا**،

[1] كنز العمال لعلاء الدين الهندي، ٧/٤٠.
[2] ك ن: ليغلبا.
[3] ن: وظهير.

[4] سياحةُ هذه الأمة الصيامُ ولزوم المساجد. وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾. وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام (لسان العرب، «سيح»).

وهذا يدل على وصف للثيبات أيضا. والجميع تعليم وتنبيه للنساء والرجال، وليعتبر مَن سمع بما سمع فيعتبر الرجال بالنبي عليه السلام والنساءُ بزوجاته. فإذا وقع في حق الرجال شيء من النساء كان لهم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن وقع في حق النساء ما فيه كراهة من أفعال الرجال كان لهن أسوة بنساء الرسول عليه السلام. وحقيق بالأدنى / أن يعتبر ويتأدب بالأعلى. [٤٥٧و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾

ولهذا أتبعه بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا قوا**، أمرٌ من وقى يقي وهو من الوقاية والبتر، **أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة، عليها ملٰئكة غلاظ**، على الكفار، كقوله: أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ،[1] خاصةً، **شداد لا يعصون الله ما**، مهما، **أمرهم**. وقوله: **ويفعلون ما يؤمرون**، إشارةٌ إلى قدرتهم، فإنهم قد لا يعصون لكنهم قد يَعجَزون عن فعل بعض ما يؤمرون، فعرّفَنا أنهم مع الطاعة قادرون على فعل ما يؤمرون به. وهذا من أتم صفات العبيد أن يُجمَع لهم بين الطاعة والقدرة. وأما ملائكة النار فالنار عليهم بردٌ وسلام. وإذا كانت على إبراهيم كذلك[2] وهو بشر فلا يُستبعَد أن تكون على غيره كذلك وهو ملك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

ثم حكى الله ما يقال لهم في يوم العذاب بقوله: **يٰأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٩/٢١).

ثم نادى المؤمنين بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا**، النصوح هو الناصح، وهذا الوزن يؤتَى به للمبالغة، كقول الشاعر:

ضَــــروبٌ بــأطــراف الأســنــة والــقَــنَــا.[1]

فالنصوح صفة الرجل المبالِغ في النصح، والمعنى توبةً مِن نصوح، ونُصب لِفقدان الخافض إشارة إلى التائب الذي نَصَح نفسه بصدق التوبة. فالنصوح صفة الرجل لا صفة التوبة. ولهذا لم يقل: نَصوحة. والناصح الخالص من العسل وغيره، ويقال: ناصح الجَيبِ بمعنى نقيّ القلب. والمعنى توبوا وليكن عزمكم عند التوبة. **عسىٰ ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر**. فمعنى عسى عائد على التائبين لا على الله، أي توبوا وفي ضِميركم وظنِّكم بالله هذا الرَّجاء. وإذا علم المذنب أن ذنبه عظيم بين يدَيْ سيده خاف ولم يجزم بقبول التوبة منه، وذلك لعظم الذنب. فإذا قَدِم على سيده بالتوبة عسى أن يغفر ذنبه، فقد ظن أن عفو سيده أعظم من الذنب، وهذا الاعتقاد هو نهاية المراد. وقوله: **يكفر**، ولم يقل: **يغفرَ** يُفهَم منه معنيان. أحدهما أنه يكفّر بالابتلاء، وهذا يعطي التائبَ أن يوطّن نفسه على الصبر. والثاني ينبئ عن أن هذه التوبة إنما هي عن الصغائر لئلا يطمع أحد فينتهك الكبائر. فهذا كقوله تعالى: إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ.[2] فقد تَلخّص من جملة الكلام أن من بالغ في نصح نفسه أنقذها بالتوبة من خطر عظيم، ولا خطر أعظم من خِزي العُصَاة. **يوم لا يخزى الله النبى والذين ءامنوا معه**، وإنما قال: يخزي إشارةً إلى أن الله تعالى في ذلك اليوم يخزي من لم يؤمن بالنبي المبعوث إليه، فلهذا عبر بهذه العبارة. ثم قال عن المؤمنين: **نورُهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمٰنهم**، أي في ذلك اليوم. وقوله: **وبأيمٰنهم**، إشارة إلى أن النور ليس بين أيديهم فقط، بل وإن كان الذي يسعى مع سعيهم أبدا لا يزال بين أيديهم، فلهم نور[3] آخر بأيمانهم. وذلك لئلا يختص النور بجهة واحدة فقط، وليكون ما بأيديهم لهم فيه التصرف بأن يضيئوا به لغيرهم. ويحتمل أن يكون قوله: **بين أيديهم**، يشير به إلى ما هو من فضل ربهم. وقوله: **وبأيمٰنهم**، إلى ما هو من كسبهم. وقوله: **يقولون**، أي هذه صفتهم في الدنيا: **ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا، إنك علىٰ كل شىء قدير**.

---

[1] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر. | القناة: الرمح الأجوف، وجمعه قنًا (المعجم الوسيط، «قنا»).

[2] سورة النساء، ٣١/٤.

[3] ن: نول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾

ولما قدم قوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ،[1] ثم أتبعه بقوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ،[2] نسق عليه يٰأيها النبى جٰهد الكفار والمنٰفقين واغلظ عليهم، ومثله: وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ.[3] وللمتصوفة في تأديب النفس تعليم كثير مستنبَط / من هذه الآية: ولأصحاب الفتاوى [٤٥٧ظ] والدعاوى ضد ذلك من الرفق بنفوسهم. ومأوٰهم جهنم وبئس المصير.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾

ولما جعل الله الواقعة المذكورة في أول السورة تذكرة وموعظة وتعليما للنساء والرجال ختَم السورة بما بدأها[4] به فقال: ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صٰلحين فخانتاهما، ولم يقل: بزنى ولا بغيره ليشتمل الكلام على ضروب الخيانة. وأما من قال: نساء الأنبياء لا يُنسَب إليهن الذنب، فكيف لا وقد نَسَب إلى الرجال من أزواجهن! ومن قال: نساء الأنبياء لا يجوز أن يُنسَب إليهن شيءٌ من ذلك فقد أبطل حكمة قوله تعالى: فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، وجعل قوله: وقيل ادخلا النار مع الدٰخلين، فعلَ غيرِ عادل، إذ عذَّب بالنار غير ظالم خصوصا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾

وقد ذكر ضد ذلك بقوله: وضرب الله مثلا للذين ءامنوا امرأت فرعون، فعاد معنى الآية تعريفَ العباد أن بعل[5] المرأة لو كان نبيا لا يغني عنها إن خانته، ولا يضرها إن كان هو الخائنَ دونـها. والمراد ما هو خيانة بأيِّ صورة كانت، ولكنها ههنا أحق بالزنى،

---

١ الآية ٦ من هذه السورة.

٢ الآية ٧ من هذه السورة.

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة، ١٢٣/٩).

٤ ن: بما بدأ.

٥ ك – بعل، صح هـ.

لأنه جعل في ضد ذلك ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا،[1] وقرنـها في الذكر بامرأة فرعون. ولا شك أنه تعالى لمّا قدم قوله: جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ،[2] وكان الجهاد بالقلب واليد واللسان بحسب المجاهد عرّف النساء أن الرجال لا يُغنون عنهن من الله[3] شيئا، وعرّف الرجال بمثل ذلك. فضرب الأمثال ليهاجر الرجل دون امرأته والمرأةُ دون بعلها من مكة إلى المدينة في زمن الهجرة. ثم بقي الأمر مستمرا إلى يوم القيامة في هَجْر[4] السيئات.

فإن قيل: إذا نسبت مثل[5] هذا المحذور إلى نساء الأنبياء كيف تمشّى قوله تعالى: ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ،[6] الآية؟ فالجواب أن الواقع في الدنيا هو كما أخبر الله تعالى من قصة نوحٍ وفرعونَ. وأما قوله: ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ، أي في الآخرة بدليل قول امرأة فرعون: إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى، في الآخرة، من فرعون وعمله، فبهذا ينحلّ الإشكال. ونجنى من القوم الظّٰلمين.

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾

وقوله: ومريم ابنت عمرٰن التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمٰت ربـها وكتبه، الكلمات ما أوحاه الملك بقوله: إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا،[7] ولهذا بعده: وكتبِه، وهي التوراة وما سيُنزل[8] الله مما وعد في التوراة بإنزاله وأمر فيها باتباعه. وكانت من القٰنتين. وهذا للنساء[9] وإن لم يكنّ ذوات أزواج ليعُمّ الكلام.

وهذان المثلان المراد بـهما سائر النساء. وإنما قال: لِلَّذِينَ،[10] ليعم الرجال والنساءَ. وبيان ذلك في قوله: فَلَمۡ يُغۡنِيَا،[11] ففهمْنا من ذلك أن الرجال ولو كانوا أنبياء لا يغنون عن النساء، فبالأولى أن لا تغني النساء عن الرجال كامرأة فرعون. وافقه كونه ضرب الكافرات مثلا للكفار ولو كنّ تحت المؤمنين، وضرب المؤمنات مثلا للمؤمنين

---

١ من الآية التالية.

٢ الآية ٩ من هذه السورة.

٣ ك – من الله، صح هـ.

٤ ش ك: في هجرة.

٥ ش – مثل.

٦ ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ (سورة النور، ٢٤/٢٦).

٧ سورة مريم، ١٩/١٩.

٨ ش: وما سينزله.

٩ ش: النساء.

١٠ من الآية السابقة.

١١ الآية ١٠ من هذه السورة.

ولو كن تحت الكفار. وأضاف إلى ذكر النساء مريم ونبّه بما وصفها به من الإحصان عن الحلال على أفضل الخلال[١] من العبادة للنساء والرجال، وذكر تعجيل الجزاء في الدنيا على هذا الحال. وقدم ذكْرَ الإحصان على ذكر التصديق والقنوت اللذَين هما من أخص الأعمال ودل بقوله: من القُنتين، على لحوق النساء بمقامات الرجال. فانظر إلى هذا التعظيم.[٢]

[١] ش: إطلاق.
[٢] ن: التعليم.

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾

تبٰرك، وهو من البركة، وأصله في العرف والعادة النموّ. ولمّا كانت الأسماء الحسنى لله / سبحانه[1] فقولنا: تبٰرك، هو أحسن من ضده، وهو مثل "تزايد" الذي [٤٥٨و] ضده "تناقص"، ومن جنسه "تعالى" الذي ضده "تنازل". وهذه جميعها هي ألفاظ تُفهَم بالنسبة إلى عقولنا وأذهاننا، لا لأنه هو سبحانه يتعالى بالمكان، أو بصورة تَلِج في الأذهان. لكن العقول الصحيحة قضت بأن ما لا يحاط به هو بلا شك في إدراك العقول يتعالى ويتبارك فيها سرمدا أبدا بلا انقضاء. فقد عادت هي المتباركة المتعاليةَ بتعاليه فيها دائما لا هو في ذاته، إذ هو أحد[2] لا يقبل التغير ولا يصح شيءٌ سواه إلا مقدوره أو مقدورُ مقدوره.[3] فهذه الألفاظ تقال لتنبيه العقل بذكر صفات الحق [و] تشتمل على معاني أمثالٍ علية[4] عظيمة عندنا لتعلو عقول العباد بها نحوَ المعبود.[5] والجميع من التسبيح والتعظيم والبركة وغير ذلك يعود إلى شيء واحدٍ عائدُه[6] على العباد. وأما الأمر في ذاته فعقول البشر مفطورة على الاعتراف بقصورها عن إدراكه، والأمر عندها أعظم. وإنما لمّا انحصرت العبارات الحاصرة دون أوصافه سبحانه عَبّر للأذهان الصحيحة بأعلى العبارات المعلومة للبشر. فأحسنُ ما قيل عما لا آخرَ[7] لِعُلُوِّهِ تعالى وعما لا نهايةَ لبركته: تبٰرك الذى بيده الملك، لفظةٌ عامة دالة على كل موجود باطنا وظاهرا في السماوات والأرض وما بينهما وغير ذلك من كل مشار إليه. كل ذلك بيده وقبضته[8] يصرّفه كيف يشاء[9] من كل وجه وبكل اعتبار. وهو علىٰ كل شيء قدير،

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٠/٧).

[2] ن: واحد.

[3] ن – أو مقدور.

[4] ن: عليه.

[5] ك: العبود.

[6] ش ك: عائدة.

[7] ن: لا أخير.

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (سورة الزمر، ٦٧/٣٩).

[9] ن: كيف شاء.

كلام عام تام دالٌ على قدرة مطلقة على كل ما يصح أن يقال: له شيء في الأكوان والأزمان وما عسى أن يكون وكان.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

ثم ذكر ما به قهر البشر فقال: الذى خلق الموت والحيوٰة، يعني أبدعه واخترعه، فهو وإن كان عَرَضا لكنه يشير به إلى الذوات التي يعرض لها ذلك وهي النُّطَف، كقوله: وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا،[1] وفي سورة يسٓ[2] كذلك استعارةً للمعدوم.

فإن قيل: كوننا عدما [يدل على أنه] لم نكن أشياء؟ قلنا: كقوله: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ.[3] وكل شيء في علمه سبحانه، فله أن يخاطب ما شاء قبل أن يوجده، وله أن يستعير من الألفاظ ما يوصل به[4] إلى أذهان عباده ما شاء كما يشاء، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ.[5] فالاستعارات اللفظية أمثال مفردة يُفهَم بها مثلها مما لا تحصيه العباراتُ وإن نبّه عليه بالإشارات في الاستعارات. وقد علمت من قوله تعالى: وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ،[6] كالنطفة[7] من الحي أنه، خلق الموت، أولا ثم بعد ذلك قال: والحيوٰة، لأن الموت متقدم. وأخر قوله: والحيوٰة، ليضيف إليها الابتلاءَ، ومعناه وخلق الحياة، ليبلوكم. ولمّا كان الوجود كله ينقسم إلى موت وحياة، والإنسان مبتلًى بالصورتين من جهة نفسه وغيره عرّفَنا سبحانه أن المراد بجملة الوجود -أعني بما هو عن "كُنْ"-[8] ليس هو إلا الابتلاءَ فقال: ليبلوكم أيكم أحسن عملا. ثم قال: وهو العزيز، أي إذا كفرتم وأعرضتم[9] لا تتغير عزته. وقوله:[10] الغفور، لأنه لولا مغفرته لأهلككم عاجلا بأعمالكم.

---

[1] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢٨/٢).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يسٓ، ٨٢/٣٦).

[3] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة النحل، ٤٠/١٦).

[4] ك ن: يوصل بها.

[5] انظر: سورة إبراهيم، ٢٥/١٤؛ وسورة النور، ٣٥/٢٤.

[6] ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ (سورة يونس، ٣١/١٠). وانظر أيضا: سورة الروم، ١٩/٣٠.

[7] ك - عليه بالإشارات في الاستعارات. وقد علمت من قوله... كالنطفة، صح هـ.

[8] ذكرت هذه اللفظة في آيات كثيرة، منها ما ورد في سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٧٣/٦.

[9] ك - وأعرضتم، صح هـ.

[10] ن - وقوله.

ويجب أن تَعلم أن الذي يحيا في الدنيا بعد الموت هو الذي يحيا في الآخرة بعد الموت. والموت في الدنيا هو أن لا تريد ما لا يريد، والحياة في الدنيا أن تريد ما يريد. فبهذا تكون في الدنيا حيّا وميتا[1] معا ممدوحا بكليهما على السواء. فما لا يريد هو النواهي وما يريد هو الأوامرُ. وهذا مجموع ما جاء عن الأنبياء، وجملة ما جاء به أهل التصوف من الوَرَثَة العلماء.[2] واعلم أن الحياة إنما ظهرت بالحركة. والحركة الإرادية تختلف باختلاف موجباتها. فحركة هوى إلى الهوى وحركة / رُقيّ إلى التقوى [٤٥٨ظ]
وكلاهما حيّان. فالمتحرك إلى المأمور به وعن المنهي عنه حي في الجنة، وضده حي في النار. وحكمُ من لا حركة فيه حكم من[3] لا روح فيه، وتختلف مراتبه من أدنى الجماد إلى أول الإنسانية. وأما نوع الإنسان بأَسْرِه فإما مَلَكٌ يَغرِس غراسا[4] لنفسه وغيره في الجنة، وإما شيطانٌ يوقد على نفسه وغيره في النار.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾

ولمّا كان الإنسان عبارة عن المتحرك بالإرادة، وكلُّ ما سواه إنما كان من أجله. والإنسان لا يظهر له من ذاته إلا بقدر ما يبدو له من أفعاله في حركاته، وكان أُسُّ مباديه وثمرات نهاياته معروفا بمعرفة الصانع تَعَرَّف إليه سبحانه بمصنوعاته فقال: **الذى خلق سبع سمٰوٰت طباقا**. فكما أن أفعال الإنسان دالة عليه كذلك أفعال الرحمن مشيرة إليه، إذ لا فعل إلا من فاعِل؛ فهو سبحانه موجود الذات إيقانا، مجهول العين عرفانا، معلوم الصفة إيمانا. ولمّا كانت الدلالة بالإنسان على صانعه تُوهِم مثليّةً نفى الله ذلك بقوله: **ما ترىٰ فى خلق الرحمن من تفٰوت**. "ما" ههنا نافية. والتفاوت بالحقيقة اختلاف ما بين الشيئين مع الصحة. تقول: كلاهما جيّدان وبينهما تفاوت مّا، أي مع جودتهما؛ والتباين امتناع ما بين كل واحد من الاثنين أن يصح مع الآخر. فنفى الله التفاوت فيما خَلق وجعل ذلك من باب الرحمة. فلهذا لم يقل: في خلق القدير أو الجبّار، بل الرحمن. وتقديره وإن رأيت لسوء نظرك، **فارجع**، غيرَ مهموزٍ، **البصر هل ترىٰ من فطور**،

[1] ن: ميتا.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما العلماء ورثة الأنبياء» (سنن الدارمي، المقدمة ٣٢؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة ١٧).

[3] ك ن: حكم ما.

[4] جميع النسخ: غروسا. | الغِراس: ما يُغرس من الشجر (لسان العرب، «غرس»).

أي فارجع بصرك إلى السماء هل ترى من انفطار وشقوق. ودل على أن المراد السماء لتقدم ذكرها ولقوله: **هل ترىٰ من فطور**. والمعنى أن من خلق هذه السماء كيف يكون في خَلْقه لشيء خَلَقَه تفاوتٌ.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾

وقوله: **ثم ارجع البصر كرتين**، أي[1] إلى ما ظننت فيه التفاوت بعد ما رأيت السماء واستدللت بعظم الصنعة على قدرة الصانع وحكمته. وهذا من أبلغ ما يجب أن يدخره امرُؤٌ لنفسه، لأنه إذا نظر إلى السماء علم أن بصره هو الناقص لا ما خلق الله. لهذا قال: كرتين، لأنه نظر إلى الشيء أولا، ثم نظر إلى السماء كَرّة، ثم عاد إلى نظر الشيء ثانيا فعاد قوله: كرتين، إلى الشيء. **ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير**، ناقص، وقيل: هو الكليل، مِن "يَحسِر البعيرُ".[2] وقوله: **خاسئا**، أي مطرودا، تقول: خسأ الكلبَ أي طرده، وخسأ الكلبُ أيضا يتعدى ولا يتعدى. وإذا لم ير البصر قصورا فيما هو أكبر وهو السماء فكيف[3] يكون تفاوت فيما هو أصغر، وهو المرئي أولا. فيلزم أن ينقلب إليك بصرك مطرودا بالعقل عما رآه من التفاوت في خلق الرحمن معترفا بأنه هو الحسير الكليل عن الاطلاع على حكمة ما خفي عنه. ولهذا قال: **وهو حسير**، وإن كان في موضع نصب على الحال. وافقه كونه لم يقل: ينقلب إليك بصرك بل، البصر، بمعنى البصر الحادّ الثاقب. والمراد البصيرة الحاصلة بواسطة البصر. فكأنه قال: فارجع البصر الظاهرَ ينقلبْ إليك البصر الباطنُ. ولهذا كرر لفظ البصر فلم يقل: ينقلب إليك وهو حسير، بل ذلك البصر المعيّن الذي رأى التفاوت، وهو نقص أحد الاثنين عن الآخر.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

ثم وصف السماء المذكورة فقال: **ولقد زينا السماء الدنيا**، أي الدانية إلى الأرض من السبع الطباق، لأن زينة الكواكب فيها لا الكواكب نفسها، **بمصٰبيح وجعلنٰها رجوما**،

---

[1] ك ن – أي.

[2] الحَسْرُ: الإعياء والتعب، حسرت الدابة والناقة حسرا. قال أبو الهيثم: حسرت الدابة حَسَرًا إذا تعبت حتى تُنْقَى (لسان العرب، «حسر»).

[3] ك ن: كيف.

أي راجمة / بشُهُبها، للشيٰطين، لقوله: فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ،[١] وهو لهبه. والرجم واحد الرجوم، [٤٥٩و]
وهو ما لا يوقف على حقيقة أمره، والمعنى هو الأول. فهذا حال الشياطين في الدنيا.
وأعتدنا لهم عذاب السعير، في الآخرة، والسعير شعلة النار التي تُسَعَّر.[٢]

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾

وللذين كفروا بربهم، كذلك أيضا، عذاب جهنم وبئس المصير. إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا، صوتا فظيعا[٣] بنَفَس كالنزع كما يتشاهق الإنسان، وهى تفور، كما تفور القِدر من شدة الغَلَيان الذي يدل على فرط الحرارة.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾

تكاد تميز، تتفصل وتتفطر،[٤] من، شدة، الغيظ، ووَصَفها[٥] بشدة الغيظ تمثيلا بالحَنِق[٦] على خصمه إذا استولى عليه وظفِر به. كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير، وهذا سؤال تعجب من الخَزَنَة لكثرة ما يرونه من الخلق الذين يُلقَوْنَ فيها أفواجا فيقولون: ألم يأتكم مَن أنذركم هذه النار وخوّفكم عذابَها.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾

قالوا بلىٰ قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم، وهو قولهم للرسل، إلا فى ضلٰل كبير. والدليل على أن هذا من كلامهم لا من كلام الخُزَّان قولُه بعده: وقالوا -وإن لم تَفهم كما قلناه عاد الضمير[٧] في "وقالوا" على الخُزّان- لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحٰب السعير.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾

---

[١] ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة الحجر، ١٥/١٦-١٨). وانظر أيضا: سورة الصافات، ٣٧/٦-١٠.

[٢] ش ن: تستعر.

[٣] جميع النسخ: فضيعا.

[٤] ك: تنفصل وتنفطر.

[٥] ك - ووصفها، صح هـ.

[٦] ن: بالحنق.

[٧] ن - الضمير.

فاعترفوا بذنبهم فسحقا، دعاء عليهم بما هو من سَحْق الكحل، لأصحٰب السعير، أي هلا اعترفوا بذنبهم حين ينفع الاعترافُ. فهو -أعني الدعاء- وإن كان حكاية عن الكافرين في ذلك اليوم فهو أيضا اليوم، لأن هذا الحال أوجب لهم ذلك المآل. وهذا أيضا من أبلغ الآيات في دفع الإجبار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

ثم قال مستعظما: إن الذين يخشون ربهم بالغيب، أي إيمانا بالغيب، لأنهم يخشون ما لا يرونه فهو غيب. ولهذا بعده: لهم مغفرة وأجر كبير.

قال بعده:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

ثم أتى بالبرهان القاطع فقال: ألا يعلم من خلق، إذ العمل لا بد أن يتقدمه العلم. ثم بعد ذلك قال: وهو اللطيف الخبير.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾

ثم بعد ما ذكر البرهان ذكر ما هو من باب العِيان فقال: هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا، أي كالناقة المذلَّلة لِتَحمل ما في طاقتها. فامشوا فى مناكبها، المَنْكِب مجمع عِظم العَضُد والكَتِف. فكأن الأرض رجل قد طأطأ[1] رأسَه وحمل على مناكبه، إذ بعض الأرض ظاهر والباقي في الماء. والمناكب استعارة كما أن الإنسان يحمل على كتفه وعلى ظهره، كقوله: مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ.[2] وكلوا من رزقه. ثم قال بعد المشي والأكل: وإليه النشور، ليحذّرنا في المشي إلا بخير والأكلِ إلا من حلال، إذ لا بد من النشور والجزاء.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾

ولهذا خوّف العُصاة في الدنيا بعده بقوله: ءأمنتم من فى السماء، وهو الله في السماوات وفي الأرض، وذكر السماء تنبيها على القدرة والإحاطة، إذ العالي يقدر

[1] طأطأ الشيء: خفضه، وطأطأ عن الشيء: خفض رأسه عنه. وكل ما حُط فقد طُؤْطِئ. وقد تطأطأ إذا خفض رأسه (لسان العرب، «طأطأ»).

[2] ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٤٥).

على ما دونه، أن يخسف بكم الأرض، أي التي تعصونه عليها في ذلك الحين. فإذا هي تمور، أي تدور وتنزل إلى حيث يشاء سبحانه.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير، مفعول بمعنى مُنذَرِي الذي أنذرته برسلي فخالفهم وكذبهم. ولهذا بعده: ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكيرِ، أي من أنكرتُ عليه المنكَر، كقوله بلسان لوط عليه السلام: وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ،[١] أي كيف رأيتم في الدنيا حال من أنكرت عليه ومن أنذرته. ويحتمل نكيري عليهم بمعنى إنكاري، ونذيري بمعنى إنذاري. والأول أولى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال عمن كذّب من قِبَل المخاطَبين وهو تقريع للتابعين لهم في التكذيب: / أولم يروا إلى الطير فوقهم صُفّت، أجنحتهن في الهواء، وهي جمع صافّة، ويريد [٤٥٩ظ]
جماعة صافَّةً، فصافات جمع الجمع، ونصبه على الحال. ويقبضن، أي أجنحتهن. وقوله: ويقبضن، هو أيضا في موضع نصب، وتقديره صافّاتٍ قابضاتٍ. وقوله: ما يمسكهن إلا الرحمن، أي في الفضاء العالي، أي ما يمسكهن في الحالين صفا وقبضا إلا الرحمنُ. والمَسْك ههنا من قوله: وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ [إِلَّا بِإِذْنِهِۦ].[٢] إنه بكل شيء بصير، من البصارة لا من البصر، تقول: فلان بصير بالطبّ.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

أمن هٰذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن. ثم قال: إن الكٰفرون إلا فى غرور.

[١] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٩).

[٢] سورة الحج، ٢٢/٦٥.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾

أمن هٰذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه، ثم قال: لا يؤمنون أن الله هو الرزاق وأن طاعته تجلب الرزق، ومنه:[1] بل لجوا، في طلب الرزق، فى عتو، عن امتثال أمر الرازق، ونفور، عن الإيمان برسله.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾

ثم ضرب مثلهم بالحَيَوان فقال: أفمن يمشى مكبا، رأسه، علىٰ وجهه، أي قُبالَة وجهه حيث اتفق، أهدىٰ أمن يمشى سويا، كالإنسان، علىٰ صرٰط مستقيم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾

ولما كان المراد بالسَوِيّ هو الإنسانَ وقد مكِّن من آلاتٍ مساعِدة على سلوك الصراط المستقيم قال احتجاجا عليه بما مكنه: قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة. ثم قال: قليلا ما تشكرون، على هذا التمكين والإنشاء، مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ.[2]

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾

ويقولون، مستهزئين: متىٰ هٰذا الوعد، بأننا نحشر، أي أخبرونا في يوم معلوم، إن كنتم صٰدقين.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

قل إنما العلم، علم الساعة، عند الله. وإنما أنا نذير مبين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾

ثم أخبر الله عنهم حين رؤيتهم لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال: فلما رأوه زلفة، أي في زلفة وهي الطائفة القليلة والقطعة من القوم. ومنه قوله: وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ.[3]

---

[1] ك ن: منه.

[2] ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ (سورة السجدة، ٨/٣٢). وانظر أيضا: سورة المرسلات، ٢٠/٧٧.

[3] ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ (سورة هود، ١١٤/١١).

والأَولى أن يكون قوله: زلفة،[١] أي في زلفة من نهار أو ليل، يريد في زمن مّا، لأنهم لم يكونوا رأوه. سيئت، ما لم يُسَمَّ فاعلُه من السَّوْء، وجوه الذين كفروا وقيل هٰذا، بمعنى أهذا هو، الذى كنتم به تَدَّعُون، علينا، وهذا قول الكفار للمؤمنين. ويَعضُد الكلام الأولَ أعني في زلفة من جماعة قولُه ههنا: قل أرءيتم إن أهلكنى الله ومن معى، أي وأهلك من معي، أو رحمنا فمن يجير الكٰفرين من عذاب أليم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

قل هو الرحمٰن، أي هو هذا لا غيره يجير؛ ءامنا به وعليه توكلنا، فستعلمون من هو فى ضلٰل مبين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غورا، في غور من الأرض مُسْتَفَلٍ. فمن يأتيكم بماء معين.

[١] ش - وهي الطائفة القليلة والقطعة من القوم ومنه قوله... والأولى أن يكون قوله زلفة.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾

[نٓ]، هي في اللغة دواة، وهي أيضا سمكة. ولمّا كان الوِزان في هذه السورة على "يفعلون" وحرف النون موافق للوِزان بدأ في هذه السورة[1] بنون فوافق الوِزان،[2] ودل على اسم السورة، فهي سورة الحوت لقوله: وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ.[3] وجاء موافقا لما قيل في اللغة من أن نون اسم للدواة. فكأنه أقسم بالقلم والدواة والكتابة وإن كانت الإشارة إلى ما تسطره الحَفَظَة. فأقسم بهم تارة وبأفعالهم أخرى وبآلات الأفعال. فجاء هذا الحرف ههنا منبئا عن حرف،[4] وموافقا[5] لوِزان، واسما لحوت، واسما لدواة، وقَسَما بأمر باطن وظاهر، واسما للسورة. وكل ذلك بعد المقصود، لأن المقصود حرف لا غير ثم وافقه[6] توابع.

وقد ألحقتُ بما قدمته في صدر الكتاب كلاما أفردته ههنا وجعلته خاتمة لما يتعلق بالحروف؛[7] وقسمته قسمين، فجعلت أحدهما مفتاحا للأذهان والآخر يقوم لها مقام البرهان. فالقسم / الأول الذي عليه المعوَّل هو أن الحروف لمّا كانت أبعاض [٤٦٠و]
الكَلِم الدالة على المعاني، وكانت تستعمل دالة على الشيء وضده كنور النار والجنة جُعلت في أوائل السور تدل على أمثالها الموجود في الكَلِم المعرَّبة[8] عن شيء وضده. ولمّا استعملت في كل كلام تارة في أول الكلمة وتارة في وسطها وتارة في آخرها كانت في القرآن كذلك. فجاء الحرف مشيرا إليها دالا على معناها لا معناه فيها.

[مقارنة قصيرة بين إعجاز القرآن وبين شعر العرب]

ويجب أن تعلم أن المقصود الأول هو أن هذه السورة أُنزلت على هذه الحروفِ الأربعةَ عشرَ ودُلّ[9] بها على مثانيها. ولهذا جاءت في تسعٍ وعشرين بعدد جملة الحروف،

---

[1] ش – في هذه السورة؛ ك – في هذه السورة، صح هـ.
[2] ش + في هذه السورة.
[3] الآية ٤٨ من هذه السورة.
[4] ن: على حرف.
[5] ن: وموافق.
[6] ش: واقفه.
[7] انظر: آخر سورة البقرة من هذا الكتاب.
[8] ك: المعرفة. وفي هامش ك: المعربة.
[9] ن: دل.

إذ بجملتها عُبر القرآن، ولكن أكثره بهذه المعربة. ولهذا قدمها[1] أمام السور مضافا إلى أشياءَ أُخَرَ. وقد قدّمنا أنها لا تخلو من بعضها كلمة من جميع كلام القرآن سوى نيّف وثلاثين كلمةً. ولمّا كانت هذه الحروف المعربة في كلمات من هذه السور المتوَّجَة بها أظهرَ لزم أن تُخصَّصَ بها دون بقية سور القرآن لينبّه على حروف كلمات الآيات بأمثالها مما هو أمام سورها. فلو لم يفعل ذلك لَمَا عَلِمْنا أن القرآن كله أُنزل على هذه الحروف. ولو لم نعلم[2] لم يكن التحدي بقوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾،[3] من أبلغ التعجيز. واعلم أنه لم ينزل القرآن على هذه الحروف من أجلها كما يعمل الشاعر قصيدا على حرف الراء. ولكن لمّا خاطب الله عباده بأحسن ما هو عندهم كانت الأحسنية في المبادئ والغايات، فجاء المفرد[4] من أحسن مبادئ المباني في ضمن المركب المدلول به على أحسن غايات المعاني، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾.[5] فلمّا جاءت هذه الحروف المفردات في ضمن الكلمات المركبات دل عليها بأمثالها.

وإذ قد فهمت ذلك، فاعلم أنه لمّا كان الشعر من سنّة العرب وبه يفتخرون، ولا جائزٌ أن يُتحدَّى عليهم بما ليس مِثلُه في يدَيهم أُنزل القرآن بلغتهم وعلى مثل سنتهم فيما عملوه،[6] ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾،[7] والشعر أذلّ وأحقر. فجاءت السور بمنزلة القصائد، والآياتُ بمنزلة الأبيات، والحروف[8] المفردة في أواخرها بمنزلة أحرف القوافي. ولمّا كانت سنتهم تنقسم إلى قسمين. أحدهما أن تُقصَدَ[9] الحروف ويضعون عليها كلاما، والآخر أن يوضع الكلام على أيّ حرف كان جاءت حروفُ التيجان[10] على القسم الأول وبقية الكتاب على القسم الثاني. ولمّا كان جملة الشعر يرجع إلى مدح أو ذمّ[11] كان الإيمان بمنزلة المدح والكفرُ بمنزلة الذم. ولمّا كانت الحروف يعبَّر بها عن الشيء وضده فهمنا أنها دلت في كل سورة على صورة[12] ويرجع الجميع إلى إيمان، أو كفر. ولما كان شعر العرب مضبوطا بحرف الرَّوِيّ[13] في آخر البيت وجاء القرآن على مذاهب العرب

---

[1] في هامش ك: قدمنا.

[2] ن – لم نعلم، صح هـ.

[3] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (سورة يونس، ٣٨/١٠).

[4] ش: والغايات في المفرد.

[5] سورة الزمر، ٢٣/٣٩.

[6] ك ن: علموه.

[7] سورة العنكبوت، ٤٥/٢٩.

[8] ن: والأحرف.

[9] ك: أن نقصد.

[10] لتيجان: جمعُ التاج.

[11] ن: وذم.

[12] ك: على سورة.

[13] الروي في علم العروض: الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وإليه تنسب. يقال: قصيدة بائية إذا كان رويها الباء (المعجم الوسيط، «روى»).

ولغتهم ولم يكن من قبيل الشعر أنزله[١] الله على حروفهم وجعل قُبالة وزن الألفاظ وزنَ المعاني. فلم ينحصر في الألفاظ ولم يتقيد بها تقييدا[٢] يشوّش المعاني، بل جعل الألفاظ خُدَّما للمعاني وتبعا لها. فإن صادفَتْ قافية تزيد المعنى وضوحا من غير تكلف ولا تعسف أتى بها على مذاهب العرب، ثم عدل بها إلى قافية أخرى تقيدا[٣] بالمعاني لا بالمباني. حتى كأنه يقول: إن نظمكم يُعجز به فصحاؤكم أمثالَهم مع لزوم حروف في قوافيه، ونَثْرُنا يُعجز[٤] فصحاءكم مع لزوم حروف[٥] واجبة فيه أُنزل عليها جملة من الكلام فيه الحِكَم والأحكام. / فأحرف قِوافيكم لا يلزم عنها فائدة سوى [٤٦٠ظ]
الاقتدار، وأحرف كلامنا يلزم عنها فوائد تتحير فيها الأفكار، بما دلت عليه يكون الاعتبار، والعامل به يوجب لنفسه الفوز بالجنة والنجاةَ من النار. فتلك لنظم كلمات، وهذه لانتظام معاني آياتٍ من أجل بيان معجزات وفوزٍ بجنات. ولمّا كانت آياتنا قد تقدمت فيما مضى من الزمان أفعالا ذكرنا عبادنا بها فيما يأتي من الأزمان أقوالا. فنبهنا الأذهان على رؤية الآيات بحروف معرَّبة قدمناها على بعض السُّوَر المنْزلات، وأنزلناها في ضمن بعض الكلمات، فجاءت كالأعلام الدالة على ما به يجب الاهتمام. فأنتم قيدتم الكلام بالحروف، ونحن قيدنا الحروف بالكلام.

فإن قيل: قد ادعيت أن سور التيجان أنزلت على حروفها ولم نجد حروفها إلا في بعض كلمات السورة؟ فالجواب أنه لمّا كان إنزال اللفظ ليس إلا من أجل المعنى، فعلى معنى الألفاظ التي تضمنت ذلك الحرفَ[٦] أنزلت بقية السورة. فلما كانت دلالة الحرف على ما أنزل عليه من الألفاظ دلالة بادية وكانت دلالته على معاني بقية السورة بمعاني ما أنزل عليه دلالةً هادية[٧] وجب تقديمه أمام سورته قطعا. فافقه ما عَزَبَ[٨] فهمه عن نظر النُّظّار في سائر الأعصار مع شدة وضوحه بتصريحه وتلويحه. وقد وضعت في آخر الكتاب ما فيه العُجاب من أحسن الجواب عما يُشكل من السؤال وما وقع عندي مما عسى أن يقال. وجمعت ما فهمته من حكم هذه الحروف وما أنزل عليها في سورها من[٩] الكلمات وما أشارت إليه في الآيات[١٠] من المعجزات.

---

١ ش ك: أنزل.
٢ ن: تقيد.
٣ ن: تقيدا.
٤ ش: بعجز.
٥ ن – حروف.
٦ ن: الحروف.
٧ ك: عادية. وفي هامش ك: هادية.
٨ كل شيء يفوتك حتى لا تقدر عليه فقد عزَب عنك، (كتاب العين للخليل بن أحمد، «عزب»).
٩ ن – من.
١٠ ش: في آيات.

وبيّنتُ اختلاف المعاني مع اتحاد حروف المباني. وتباينُ مقاصد السور والآيات فيما تكرر من القصص والكلمات ليَسْهُل تَناوُل ذلك على الأذهان، وليُفْهَم به أمثاله من القرآن، وليزداد الذين أوتوا العلم والإيمان.

ومن العجيب أنه كان تمام ما فتح الله به من فهم ما يتعلق بهذه الحروف عند تمام مدتها، أعني انقضاء عدتها وهو آخر سنة ثلاث[1] وتسعين وستمائة. وسأوضح في القسم الثاني ما ذكرته ههنا مجملا فأبينه مفصلا إن شاء الله تعالى.[2]

نٓ والقلم وما يسطرون، ويحتمل أن المراد بالقلم وما يسطرون كل قلم وكل مسطور بكل اعتبار من كل وجه يستحق أن يُقْسَم به ويَدخل فيما قلناه سائر ما قيل. **ما أنت**، الباء في [قوله:] **بنعمةِ**، باء الإلصاق، **ربِّك بمجنون**، تقدم في هذه الباء كلام،[3] وهي كقوله: وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا.[4] وهي في المعنى تشبه لامَ الجحود. **وإن لك لأجرا غير ممنون**، مقطوع. **وإنك لعلىٰ خلق عظيم**، ولا شبهة في أنه أقسم بثلاثة أشياء وهي: **نٓ**، **والقلم**، **وما يسطرون**، ليحقّق بالقسم ثلاثةَ أشياء، وهي قوله: **ما أنت بنعمة ربك بمجنون**، إلى قوله: **عظيم**. والمراد أن العاقل ضد المجنون، والخُلُق الجميل هو غاية العقل، فكيف إذا كان عظيما![5] فلمّا نسبوه إلى الجنون نفاه عنه، ولم يُثبت له العقل فقط بل أعلى درجاته باعترافهم فإنهم كانوا يعلمون صحة ذلك. وبرهن على ذلك بقوله: **وإن لك لأجرا غير ممنون**، أي منقطع بل متصل على الدوام. والأجر لا يكون إلا على العمل، والعمل لا يكون إلا على مقدار العقل.

[في الأخلاق والنفس الإنسانية]

فالخُلق ههنا هو خلق الإنسان الذي هو ذو خُلُقٍ حسنٍ. وأيّ وصف يكون أبلغ / من هذا الوصف حتى أننا نغيّر معنى لفظة الخلق فنقول: هو دين هو عقل، أو غير [٤٦١و]
ذلك خصوصا. وقد قال عليه السلام: «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».[6] وهذا الوصف

---

[1] ك ن: ثلاثة.

[2] ش + بسم الله الرحمن الرحيم وبه سبحانه نستعين ن؛ ن + بسم الله الرحمن الرحيم ن.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ (سورة يونس، ٧٤/١٠).

[4] ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (سورة يوسف، ١٧/١٢).

[5] ن – عظيما.

[6] الموطأ لمالك، حسن الخلق ٨؛ ومسند أحمد بن حنبل، ٣٨١/٢.

كان مختصا به عليه السلام. ومثله قول الله تعالى في التوراة عن موسى عليه السلام ما هذا مقلوبه: والإنس موسى متواضع جدا من كل الآدميين الذين على وجه الأرض.[١] وهذا الوصف أعني التواضع هو من جملة أحسن الخلق؛ لكن الخلق[٢] جامع للتواضع وغيره من سائر المَلاحات الخُلقية. ومن وصفه[٣] الله بهذا فقد وصفه بأعظم وصفٍ. فانظر إلى هذا الوصف مِن هذا الواصف لهذا الموصوف! وقوله أخيرا: عظيمٍ، وقد جاء في الحديث كثير من تعظيم حسن الخُلق في الرجل، كقوله عليه السلام: «إن الرجل ليدرك بحسن خُلقه درجةَ قائم الليل وصائمِ النهار»؛[٤] وكقوله عليه السلام: «ما شيءٌ أثقلَ في الميزان من خُلق حسن»؛[٥] وكقوله: «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا».[٦] وقد ذكر الأوائل في حسن الخلق ما يجب على كل[٧] عاقل فهمه والاجتهادُ في العمل به. فمن ذلك ما هو منتزَع من كتاب تهذيب الأخلاق[٨] وهو قولهم: إن الشمع إذا قبل نقشا من الخاتم لا يقبل غيره إلا بعد مفارقة النقش الأول، وكذلك الفضة إذا قبلت صورة الخاتم. وهذا حكم مستمر في الأجسام كلها. ونحن نجد أنفسنا تقبل صُوَر الأشياء كلِّها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام من غير مفارقة للأولى ولا زوالِ رسمٍ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا، وتقبل الرسم الثاني أيضا تاما وتقبل نقيضَه. ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة دائما. وهذه الخاصية مضادّة لخواص الأجسام، فليست النفس إذًا جسما ولا عرضا لأنها تحمل الأعراض، والعرض لا يحمل عرضا، لأن العرض محمول في غيره لا قوام له في ذاته. والنفس تقبل المعقولات قبولا لا آخر له. ومتى تركت اللذاتِ الجسمانيةَ المدركة بالحواسّ وانصرفت إلى ذاتها أدركتَ من المعقولات ما لا سبيل إلى إدراكه بالمحسوسات من لذات عجيبة هائلة لا يعرفها إلا مَن ذاقها. فهي لا تُدرَك بالأمثال إذ لا مثل لها. وأيضا فللنفس إدراكات لا تأخذها من جهة الحس، بل قد تحكم على الحس بأنه صدق أو كَذِب،

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (العَدَد ١٢/٣).

[٢] ن – لكن الخلق.

[٣] ن: ومن وصف.

[٤] الجامع لشعب الإيمان للبيهقي، ١٠/٣٦٥، ٣٦٦.

[٥] سنن الترمذي، البر ٦٢.

[٦] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه: «إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني أحاسنكم أخلاقا» (الإحسان لابن بلبان الفارسي، ١/٣٥١، ٧/٤٣٤).

[٧] ك – كل، صح هـ.

[٨] لابن مسكويه، كما سيأتي.

فإن الناظر يرى القطرة خطا. وقد وجدنا هذا الإدراك يتزايد[1] بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة بحسب جهده وطاقته.[2] وقد رأينا النفس إذا انقطع عنها الفكر المحمودُ المشار إليه بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،[3] تعطلت من النظر وانقطعت عنها مواد الخير ومرضت. فهي تحتاج إلى رياضة تحفظ صحتها كما يحتاج البدن لتصير له ملكة وقوة. فنحن تَقْوَى فينا الفضائل النفسانية بمقدار ما تَضعُف فينا الرذائل الجسمانية البهيمية التي هي ضدها. وقد وجدنا بعض الحيوانات كالخنزير أقدرَ من الإنسان على الاستكثار من الشهوة، ولا يكون بذلك أفضل من الإنسان. وأيضا لو استزاد الإنسان من المآكل الطيبة مثلا لحصل له الإضرار العظيم بخلاف لو استزاد من الفضائل. فقد بان وجوب رفض الشهوات والاقتصار على ما يوجبه العقل منها لا غير لتكون شهواتنا وراء عقولنا ولا نعكس.

وإذ قد فهمت ما قدمناه فاعلم أن كل موجود من جماد ونبات وحيوان، وكذلك بسائطها، أعني العناصر، وكذلك العُلْويات لها قُوىً بها يصير ذلك الموجود هو ما هو، وبها يتميز عن كل ما سواه وإن / كان له أيضا ما يشارك به ما سواه. والإنسان من [٤٦١ظ]
بين الموجودات كلها هو الذي يُلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية المؤدية إلى السعادة الكاملة. فقد اتضح أن إنسانية الإنسان إنما هي الأمور الإرادية التي تتعلق بها قوة الفكر والتميز والنظر. وذلك ينقسم إلى خير وشر، وبه يسمَّى الإنسان خَيّرا أو شَريرا.[4] فالخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه من الأمور التي لها وُجد ومن أجلها خلق. والشرور ضدها وهي ما يَعُوقه عن الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله[5] وانصرافه. وإذ قد ثبت أن كل واحد من الموجودات له كمال خاص به، وأن هذا الحكم مستمر في العلوِيّات كالشمس وغيرها، والسفليات[6] كالمعادن والنبات وسائر الحيوانات فالإنسان له كمال خاص به وفعل مميَّز له وهو ما يصدر عن قوته المميِّزة. فكل من كان تمييزُه أصح، ورؤيته أصدق، واختيارُه أفضلَ كان في إنسانيته أكمل،[7] وأشد تمسكا بشرائط جوهره الذي به تَميّز عن الموجودات.

١ ن: يتزيد.
٢ تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، ص ١٣-١٤.
٣ سورة آل عمران، ٣/١٩١.
٤ ش ك: وشريرا.
٥ ن: وكسله.
٦ ك ن: والسفليان.
٧ ن: أكمل في إنسانيته.

فقد وجب بالحق الذي لا مِزيَةَ فيه أن نحرِص على تمام ما به تميزنا وله خُلقنا، ونجتهد كلَّ الاجتهاد، ونبعد من أضداد ذلك أشدَّ البِعَادِ لئلا نَنْقُصَ عن حظّنا فننسلخ عن رتبتنا. فإن الفرس إذا قصر عن كماله ولم تظهر منه أفعاله الخاصةُ به حطَّ عن مرتبة الفرسية واستُعمِل كما يستعمل الحمار. وكذلك حال السيف وغيره. فكذلك الإنسان إذا قَصُر عما خلق له حُطّ عن مرتبة الإنسانية. فأما إن أتى بضد ذلك وهو الشرور والشهوات التي تشاركه فيها البهائمُ وما يَشغله عن تزكية نفسه التي تنتهي[١] به[٢] إلى المَلَك الرفيع والسرور الحقيقي الدائم في جوار مبدعه والنظرِ إليه فهو حقيق بالمقت من خالقه، خليق بتعجيل العقوبة له، وكفى بنفسه عليه مهما لم تكن له.

وإذ قد تبين أن سعادة كل موجود دائما هي في صدور أفعاله التي تَخُصّ صورتَه عنه كاملة، فاعلم أن قوى النفس تَنقسم إلى ثلاثة أقسام: وهي المميزة، والغضبية، والشهوية. فهذه قوى لنفس واحدة وإن جاز أن تسمّى نفوسا. فالناطقة هي المَلَكية وآلتها الدماغ. والغضبية هي[٣] السَّبُعية[٤] وآلتها القلب. والشهوية هي البهيمية وآلتها الكبد. فمتى كانت حركة النفس العاقلة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة لا المظنونة حدثت عنها فضيلة العلم وتَتْبَعها الحكمة. ومتى كانت حركة النفس السبعية معتدلةً بطاعة النفس العاقلة حدثت عنها فضيلة الحلم وتتبعها الشجاعة. ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلةً منقادة للعاقلة حدثت فضيلةُ العفة ويَتْبَعها السخاءُ. ثم تحدث من هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض فضيلةٌ هي تمامها وكمالها وهي فضيلة العدالة. ومتى زادت هذه الفضائل أو متى نقصت لم تصحّ العدالة، وعادت الفضيلة رذيلةً، وكانت النفس بها مريضة تحتاج إلى علاج. وبهذا العلاج جاءت الأنبياء عليهم السلام والعلماء ورثتهم.[٥] فمن أنفق من غير ميراثه فليس بعالم. فالعلماء هم أهل الذكر خاصة، وهو معنى / قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[٦] [٤٦٢و]

---

١ ن: ينتهي.
٢ ك ن - به.
٣ ش ك: وهي.
٤ ش: الشبعية.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما العلماء ورثة الأنبياء» (سنن الدارمي، المقدمة ٣٢؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة ١٧؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢/٦٤).
٦ سورة النحل، ٤٣/١٦.

[الخُلُق ومرض النفس]

واعلم أنه متى استمرت النفس على مرضها عاد المرض لها خُلقا. والخلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا رَوِيّة. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين. أحدهما طبيعي كالذي يَجْبُن أو يفزع من أدنى شيء، أو يضحك مُفْرطا بأدنى ما يُعجبه، أو يغتمّ ويحزن بأيسر[1] ما يصيبه. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والدَّيْدَنة،[2] ثم يصير ملكة وطبعا. والنفس مطبوعة على الانتقال عما هو في طبعها وإلى ما يصير لها طبعا من خير وشر. ولهذا وجبت السياسات، وبهذا جاءت النبوات؛ ولولا هذا لبطلت فائدة الملوك والقادة، والعلماء والسادة. وهذه الصِناعة أشرف الصنائع، لأن المصنوع بها أشرف الموجودات، وهو النفس الناطقة، واستصلاح جوهرها مفوَّض إلى الإنسان، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.[3] فهذه التزكية معلقة بإرادته لتصح دعوة الأنبياء والعلماء بعدهم، وتكون الحجة لله. ومن علم ذلك كان خوفه من القبيح أشدَّ من خوفه من الموت، لأنه موت بالحقيقة. ولمّا كان الإنسان مركّبا لم يكن كماله الخاصُ به كمالَ بساطة وإلا كان وجودُ المركّب باطلا. فالإنسان إذًا له فعل خاص به من حيث هو مركب وإنسان، فهو إذًا[4] يشاركه فيه كلُّ[5] شيء من الموجودات. وإذ قد ثبت ذلك فأفضل الناس أقدرهم على إظهار فعله الخاص به وألزمُهم له من غير تلوّن فيه. وإذا عرف الأفضل فقد عرف الأنقَص باعتبار الضد. ولا شك أن الكمال الخاص بالإنسان كمالان، لأن له قوتين: إحداهما العالمة والأخرى العاملة. فإذا كمُل بهما فقد سعد. فكماله النظري هو أن يصير في العلم بحيث يَصدق نظرُه فلا يَغلَط في اعتقاده ولا يشك في حقيقته، وينتهي إلى العلم بالله تعالى فيتجلى له المطلوب بحيث لا يشك فيه. وأما الكمال الثاني وهو العملي فهو الكمال الخلقي بحيث لا تتغالب قواه فيكون الكمال الأول بمنزلة الصورة والثاني بمنزلة المادة؛ فالأول مبدأ والثاني تمام. ومن البيّن أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته[6] فقد رضي بأخسّ[7] العبودية لأخسّ الموالي، إذ صير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة[8] عبدا

---

١ ن: لأيسر.
٢ ك ن: والدرية. وفي هامش ك: والديدنة.
٣ سورة الشمس، ٩/٩١.
٤ ك ن + لا.
٥ ك ن – كل.
٦ ك: غائبة.
٧ ن: بأحسن.
٨ ن: الملكية.

للنفس الدنيّة التي يناسب بها الخنازير. وكفى برهانا لأبناء الشهوات على وجوب رفضها أنهم إذا وجدوا واحدا قد ترك الشهوات والتمتع وصام وطَوى واقتصر على نبات الأرض مثلا عظّموه وكثر تعجبهم منه، وزعموا أنه صفي الله ووليه، وأنه شبيه بالملائكة، ويخضعون له ويَذِلّون، ثم يَعُدّون الذل له شرفا وأنهم بالإضافة إليه أشقياء. وهذا دليل على أن فيهم من تلك القوة الأخرى المميزة وإن كانت ضعيفة ما يريهم الحقَّ، ويُلزمهم بالخضوع له.

وإذ قد فهمت أن النفوس ثلاث، وأن البهيمية أخسّهن، والسبعية أوسطهن، والناطقة أشرفهن فالإنسان إنما صار إنسانا بأفضل هذه النفوس أعني الناطقة، وبها شارك[١] الملائكة وباين البهائم. وأشرف الناس من كان حظّه منها أوفر وانصرافه إليها أتم وأكثرَ. ومن غلب عليه[٢] إحدى النفسين الأُخريين[٣] فقد انحطّ عن مرتبة الإنسانية بحسب غلبة تلك النفس عليه. فانظر أين تضع نفسك وأين يجب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله عز وجل للموجودات. فإن هذا أمرٌ مردود إلى اختيارك. ولولا ذلك لَمَا / ظهر معنى الوجود[٤] ولا أقيمت الحدود. وقد قيل: كفى بالفواحش قبحا ميلُ فاعِليها إلى سترها، كما يميل أهل الفضائل إلى إظهارها والتمدح[٥] بها. ولا يَشكّ عاقل في أن الفضائل، كما أنها أغذية للناطقة تُنميها وتَغذوها فكذلك الرذائل[٦] للنفس البهيمية تزيدها وتُقوّيها. فقد لزم فطامُ النفس عن ثدي الشهوات التي هي[٧] بمنزلة غذاء واحد للطفل. فمن فطَمها أخذ أنواع اللذائذ من المعقولات، وعاد مستعملا لكل لذة في موضعها مترقيا بكل شيء وضده إلى ما لأجله خُلق، وعادت هذه الأنفس الثلاث فيه شيئا واحدا مع بقاء التغاير، ولكن الحكم للغالب. فالناطقة[٨] أديبة[٩] بالطبع، والسبعية عادمة للأدب ولكنها قابلة له. والبهيمية عادمة للأدب غير قابلة له، فليس إلا قهرها. ولهذا شبّه القدماءُ الإنسانَ في هذه الأنفس الثلاث براكبِ دابةٍ يقود فهدًا وكلبا للقَنَص.[١٠] فإن كان الإنسان هو الغالب المتصرفَ فلا شك في رغد العيش للثلاثة. [٤٦٢ظ]

---

١ ك: شاركت.

٢ ش ك: عليها. وفي هامش ك: عليه.

٣ ن: الأخرين.

٤ ك ن: للوجود.

٥ ن: والمتمدح.

٦ ك: الرزائل.

٧ ش – هي؛ ك – هي، صح هـ.

٨ ش: والناطقة.

٩ ن: أدية.

١٠ قَنَص الصيدَ يَقْنِصُه قَنْصًا وقَنَصًا: صاده (لسان العرب، «قنص»).

وإن كانت الدابةُ غالبةً ساءت حالُ الثلاثة وقَحَمت[1] بالفارس في أودية المهالك، وكذلك إن قَوِي الكلبُ. فالنفس إذا حَسُنتْ[2] خلافة الله على ذاتها بتعديل قواها كانت ممدوحة بقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا.[3] وهذا المطلب العلي لا يتم إلا بالصبر. ولهذا قال عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».[4] فهو رأس الإيمان وأُسّ الخيرات، عليه[5] يُبنَى[6] حسنُ الخُلق الذي به تَصلُح عَيشةُ الإنسان. وبه يَرْجَح الميزان.

وهنا عقيدة يجب عليك[7] أن تعتقدها. وهي أن بعض الناس خُلق على مقدار مخصوص من الخُلُق الجميل لا يقدر أن يزيد عليه، وبعضهم سُلِّم أمرُه في الازدياد إليه. فتجد الرجلين الصالحين وبينهما في حسن الخلق كما بَيْن الفقير والغني في قلة المال وكثرته. فيجب أن تعتقد أنّ أجرهما واحد إذا بذلا من جهدهما بقدر استطاعتهما، كما أن الغني والفقير إذا أخرجا عُشْرَ ما يملكانه لم يُنسبا إلى التقصير، بل يكون أجرهما واحدا وإن اختلفت المقادير. وهنا[8] للمتأمل حكمةٌ في طيّها رحمةٌ. وذلك كوننا لا نعلم مقدار ما أوتِيَه أحدُ الناس من حسن الخلق. فالعارفون يحملون الناقص من هذه الفضيلة على أنه خلق ناقصا كما خُلق الفقير فقيرا، فيوسّعونه عذرا ويَرْبَحون بطريقه أجرا. والجاهلون بهذه العقيدة يلومونه على اليسير، وربما انتقموا منه فيردعونه عن التقصير، أو يكون له ذلك من باب التكفير.

وجميع ما قدمناه لازم في العقل، لذيذٌ عنده لذةً يربَى على اللذات الجسمانية. ومن تحقق أن اللذاتِ العقليةَ فاعلة والجسمانية منفعلة كلذات الإناث نَزَّه نفسه عن رتبة الأنوثة. وكذلك من علم أن الإنسان كثير، وكلَّ كثرة لا يكون لها رئيس ينظمها ويوحّدها[9] فمآلها إلى الفناء، وعَلِمَ أن العقل يجمع الأضداد ويوحّدها كما تعود[10] المدينة بسياسة الملك العادل كالشخص الواحد الذي تجتمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد. فإذا اتحد الإنسان اشتاق[11] إلى شبهه ورأى بعين عقله وإدراك ذاته الخيرَ الأول، وصار إلى معنى الاتحاد به في صفته لا في ذاته، إلا أنه بعد مفارقة الطبيعة

---

[1] ش: قمحت. | قحمه في الأمر: أدخله فيه من غير روية (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «قحم»).

[2] ك ن: إذا أحسنت.

[3] سورة الشمس، ٩/٩١.

[4] المصنف لابن أبي شيبة، ٦٢٩/١٥.

[5] ك – عليه، صح هـ.

[6] ش ن: ينبني.

[7] ن – عليك.

[8] ش: وهذا.

[9] ن: ويوجدها.

[10] أي تصير.

[11] ن: إشتاق.

أحق بهذه الرتبة الشريفة. وهذا هو معنى [قوله:] ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.[1] فأَحَبَّهم لأفعالهم لا لهوًى منه جل وعلا، وأحبوه لمعرفتهم. وهذه المحبة مبنية على سر الوحدة في كل كثرة. وإليها تميل الطباع بالاجتماع في / مواطن الأفراح. وبها أمرت الشرائع [٤٦٣و] بالاجتماع في المساجد كلَّ يوم خمسَ مرات لأهل كل محلة، ثم لكثير من الناس في كل أسبوع مرة في صلاة الجمعة، لأنها تجمع المَحالَّ في الجامع الكبير كجمع أهل الدُّور في المسجد الصغير. ثم أوجب أيضا أن يجتمع أهل القُرَى والرَّساتيق[2] مع أهل المدينة في كل سنة مرتين بارزين مُضْحِرين ليسعهم المكان. ثم أوجب أن يجتمعوا في العمر مرة بالبيت الحرام ليجتمع أهل المدن المتباعِدة. وهذا كله معلن بسر الوحدة والمحبة الناظمة. والقائم بهذا المطلوب هو الإمام أو نائبه. فقد عاد تمام الإنسان عند غيره، ومن كان تمامه عند غيره فمن المحال أن يَكمُل بنفسه. ولهذا لم يَظهر حسن الخلق إلا مع أبناء الجنس. فكان أحق الناس بهذه المِدْحة العلية خيرَ البرية صلى الله عليه وسلم. فانظر إلى رجحان ميزان مَن رافقه وخسرانِ صَفْقَة[3] من فارَقه.

* * *

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

فستبصر ويبصرون. وقوله: بأييكم المفتون، أي المفتون من الناس بأيكم يكون، أَبِكَ أم بهم؟ فالمفتون قد لا يكون فاتنا ولا يكون الفاتن إلا مفتونا. فإن المفتون ضالّ والفاتن مُضلّ. وكل مُضل ضالّ ولا ينعكس. فالكفار كانوا يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم فاتن يَفتن الناس ويُضلّهم عن دين آبائهم فقال الله تعالى: فستبصر، أنت، ويبصرون، هم، بأيكم، يكون، المفتون، من الناس إلى يوم القيامة، لأنهم أئمة الكفر لمن تبعهم، وهو إمام الهدى لمن اتبعه. فافهم هذه الباء. ولهذا بعده: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

---

[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).

[2] رُسْتاق (رُزْداق) الجمع رساتيق: هو السواد، أي القرى حول البلد أو المدينة (المعجم الفارسي لإبراهيم الدسوقي «رستاق»؛ والهادي لحسن سعيد الكرمي «رزداق»).

[3] ك - صفقة، صح هـ | الصَّفْقَة: ضرب اليد عند البيع علامة إنفاذه، والعقد والبيعة (المعجم الوسيط، «صفق»).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾

المداهنة كالنفاق، وقد تقدم تصريفها.[1]

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾

. **ولا تطع كل حلاف**، وهو الكثير الحَلْف.[2] **مَهين**، مشتق من الهوان، ويريد به خسة النفس، وهو الوضيع بإكثاره من الكذب والقبيح. **همّازٍ**، الذي يَهْمِز أعراض الناس فيطعنها بالقبيح. وأصله من الدفع؛ ومنه[3] المِهْماز،[4] ومنه الهَمْزة من حروف المعجم، لأنها تخرج من الصدر بشدة اعتماد. **مشّاء بنميم**. **مناع للخير معتد**، من الاعتداء والتعدي. **أثيم**، بمعنى آثم. **عُتُلٍّ**، وهو الجافي الغليظُ الطبعِ. قال عليه السلام: «لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا عتل زنيم». فقلنا: ما الجَواظ؟ قال: «كل جمّاع منّاع». قلنا: ما الجعظري؟ قال: «الفظّ الغليظ». قلنا: فما العتل الزنيم؟ قال: «كل رَحْب الجوف، متين الخلق، أكول شَروب، غشوم ظَلوم».[5] وقوله: **بعد ذلك**، أي بعد ما جمع كل صفة من هذه الصفات المذكورة هو عتل، وأصله من العَتْل الذي هو حمل الشيء بعنف وغلظة. **زنيمٍ**، قيل: هو المُلصَق بالقوم وليس منهم، وأصله من زَنَمَة[6] التَّيس،[7] وهي فضلة في عنقه ليس له بها نفع. فكان الزنيم هو الذي له زيادة من الشر يعرف بها كما يُعْرَف التيس ذو الزنمة بزنمته، وهو من باب الذم كما يُشبَّه البليد[8] بالتيس.[9] وتقدير الكلام أن هذه صفاته بسبب، **أَنْ كان ذا مال وبنين**.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ (سورة الواقعة، ٨١/٥٦).

[2] ش – وهو الكثير الحلف، صح هـ.

[3] ش: وهو منه.

[4] المِهْماز: ما يُهْمَز به (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «همز»).

[5] لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. انظر نحوه في مسند أحمد بن حنبل، ١٦٩/٢، ٢١٤، ١٤٥/٣، ٢٢٧/٤؛ وصحيح البخاري، تفسر القرآن ١/٦٨ (سورة القلم ١)؛ وصحيح مسلم، الجنة ٤٦، ٤٧؛ وسنن الترمذي، صفة جهنم، ١٣.

[6] الزَّنَمَة: شيء يُقْطَع من أذن البعير فيُترك معلّقا، وإنما يفعل ذلك بالكِرام من الإبل (لسان العرب، «زنم»).

[7] التيس الذكر من المعز والجمع أتياس (لسان العرب، «تيس»).

[8] رجل بليد إذا لم يكن ذكيا، وقد بَلُد بالضم فهو بليد (لسان العرب، «بلد»).

[9] ن: التيس.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

ثم وصفه، **إذا تتلىٰ عليه ءايٰتنا قال أسٰطير الأولين**، فقال الله تعالى مجازيا على كفره: **سنسمه على الخرطوم**، من قوله: يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ.[1] والخرطوم الأنف وهو أعلى ما في الوجه، ومنه خَرْطَمَة الفيل المُدْلَاة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾

ثم أخبر عن هؤلاء الذين هم بهذه الصفة، وأنه ابتلاهم بالمال والبنين فقال: **إنا بلونٰهم كما بلونا أصحٰب الجنة**، لينفقوا في سبيل الله. وهؤلاء هم أصحاب جنة كانت لهم، وهي بستان مثمرٌ. ومضمون الكلام يعطي أنهم منعوا الصدقة / وبِرَّ المساكين منه، [٤٦٣ظ] وستسمع قولهم. **إذ أقسموا ليصرمنها**، أي لَيقطعُنَّها، أي ليقطعون ثمرها، **مصبحين**، أي في الصبح. **ولا يستثنون**، المراد ولم يستثنوا بقولهم: إن شاء الله كما أمر الله.[2] وغُيِّر لأجل الوِزان. ولهذا [قال]: **قال أوسطهم لولا تسبحون**، فذلك من جملة التسبيح، لأن معنوية، **ليصرمنها مصبحين**، لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ.[3] والواو واو الحال في [قوله:] **ولا يستثنون**.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، في بيوتهم. والطائف هو الذي يدور في الليل. يقال: طاف في الليل،[4] وأطاف في الليل والنهار. فأرسل الله عليها ريحا فيها صِرٌّ فأحرقت ثمارها في ليلة واحدة. **فأصبحت كالصريم**، المصروم، وهو المقطوع. ولم يقل: فأصبحت مصرومة، لأنه كان يدل على أن ثمارها سقطت تحتها. ولم يقل أيضا: فأصبح ثمرها مصروما، بل هي بقيت عِيدانا[5] قائمة بما أرسل الله عليها من بَرَد، أو حرّ، أو ما شاء.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾

فتنادوا، نادى بعضهم بعضا، **مصبحين: أن اغدوا علىٰ حرثكم**، فاصْرِموا ثمرَه، **إن كنتم صٰرمين**.

---

[1] سورة الرحمن، ٤١/٥٥.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٣-٢٤).

[3] ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٢٧).

[4] ن + والنهار.

[5] العُود: الخشب، الغصن بعد أن يُقْطَع، ج: عيدان (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «عود»).

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤﴾

فانطلقوا، من بيوتهم إلى جنتهم، **وهم يتخُفتون**، خَفَتَ نَفَسُه إذا اختفى. والنَّفَسُ الخافت هو الذي لا يَظهر. والمعنى يُسرّ بعضهم إلى بعض، فهم يتخافتون بالكلام الخفي وهو، **أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين**، كما دخل بالأمس. وهذا يدل على أنهم أرادوا قطعَ ثمرِها لا شجرها.

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾

ثم قال: **وغدوا علىٰ حرد**، أي على صورة الحَرْدان الذي لم يقبل قولَ ناصحه بل يخالفه وهو من الحَرَد والغضب، وخففت الراء. قال الأشهب ابن رُمَيْلَة:[1]

أُسُـودُ شَـرًى لَاقَـت أُسُـودَ خَفِيَّةٍ   تَسَاقَوْا على حَـرْدٍ دمـاءَ الأَسَـاوِدِ،[2]

أي على حرد وحنق وغضب. وتُسكَّن الراء وتُحرَّك. ويقال: حارَدَتِ[3] الناقةُ إذا لم تَحْلُب لبنا. وقوله: **قُدرين**، أي أولي قدرة ورزق بما لَهُمْ بزعمهم.[4] ومثله ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾،[5] أي دائما لا تتغير[6] قدرتُهم. ويحتمل أنه من معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾؛[7] بمعنى قادرين على المساكين نصيبَهم من الجنة.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾

فلما رأوها، أي قد بقيت على ذلك الحال وأحيط بثمرها أنكروها، **قالوا إنا لضالون**، عن طريق جنتنا، أي ما هي هذه. ثم عرفوها فقالوا: ما نحن ضالين، **بل نحن محرومون**، أي حُرمنا الرزقَ بسوء نيّتنا.

---

١ هو الأشهب بن ثور بن أبي حارثة بن عبد المدان النهشلي الدارمي التميمي، شاعر نجدي. ولد في الجاهلية، وأسلم، ولم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم، وعاش إلى العصر الأموي. نسبته إلى أمه (رميلة) وكانت أمَة اشتراها أبوه في الجاهلية. توفي سنة بعد ٨٦هـ/٧٠٥م (الأعلام للزركلي، ٣٣٣/١).

٢ جامع البيان للطبري، ١٧٨/٢٣؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٣٣٧/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٠/١٩.

٣ ك ن: حرادت.

٤ ن: يزعمهم.

٥ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ (سورة يونس، ٢٤/١٠).

٦ ش ك: لا يتغير.

٧ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ (سورة الفجر، ١٦/٨٩).

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾

قال أوسطهم، أي طريقةً وهو أفضلهم وأحقّهم بالحق. وكان قد أمَرَهم بالاستثناء وتفويض أمورهم إلى الله وما شاكل ذلك. وهذه الكلمة، أعني "أوسطهم" هي كقوله: أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً.[1] ألم أقل لكم، أي ما قلته: لولا تسبحون، بمعنى هلا سبحتم،[2] ولم لم تسبحوا، فغير للوزان.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾

قالوا سبحٰن ربنا إنا كنا ظٰلمين، أنفسَنا بمنع المساكين وتركِ الاستثناء.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾

عسىٰ ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلىٰ ربنا رٰغبون، أي إلى طاعته وأمره.

وفي هذه الحكاية تعليم وتنبيه على التوبة لمن فقد شيئا من رزقه ليرجع عن سوء نيته.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾

ثم قال: كذٰلك العذاب، أي الذي هو الأدنى نعذّب[3] به ذا المال والبنين ليرجع إلينا بالطاعة. وهذا عذاب قلبيّ لأنه من باب الأسف والحزن. ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦﴾

﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

أم لكم كتٰب فيه تدرسون، أي كتاب أنزل عليكم تدرسون فيه هذا الافتراء. ولمّا لم / يكن لهم كتاب قال بصورة الاستهزاء، كما يقال للأجذم:[4] إن في أصبعك خاتَما [٤٦٤و]
كما تختاره، إن لكم فيه لما تخيرون.

---

[1] ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ (سورة طه، ٢٠/١٠٤).

[2] ش: هلا تسبحون. وفي هامش ك: تسبحون.

[3] ش ك: يعذب.

[4] ن: للاجزم. | الأجذم المقطوع اليد، أو هو الذي ذهبت أنامله (لسان العرب، «جذم»؛ وتاج العروس للزبيدي، «جذم»).

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾

أم لكم أيمٰن علينا بٰلغة، واصلة، إلىٰ يوم القيٰمة، إن لكم، عندنا، لما، لَلَّذِي، وهي ما[1] مؤكَّدة بلام التأكيد، تحكمون، به لأنفسكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾

سلهم أيهم بذٰلك زعيم، سيد ومقدَّم يزعم[2] أن الأمر كما ادعيتم مِن إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ.[3]

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

أم لهم شركاء، يزعمون ذلك ويجعلونه لهم. فليأتوا بشركائهم إن كانوا صٰدقين، أي لينقذوهم من العذاب.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾

يوم يكشف عن ساق، يقال قامت الحرب على ساق، ووجدت أهل القرية على ساق، أي قائمين على سُوقهم. ففي ذلك اليوم يُكشف الغِطاءُ فيجد كلّ كلا على ساق قياما. ولهذا كان يومَ القيامة، لأنه مأخوذ من قوله: فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ.[4] ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون، لأنهم كانوا في الدنيا كذلك.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾

ثم وصف حالهم بقوله: خٰشعة أبصٰرهم، لهول ما يرونه من أنواع العذاب الذي تَخشع لرؤيته الأبصار فكيف لمباشرته. ترهقهم، تصيبهم،[5] ذلة وقد كانوا يدعون، في الدنيا، إلى السجود وهم سٰلمون، من هذا كله.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾

١ ك ن – ما.

٢ ن: بزعم.

٣ من الآية السابقة.

٤ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (سورة الزمر، ٦٨/٣٩).

٥ ك ن: تلحقهم.

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، القرآن، **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**، أنا نستدرجهم، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون. والاستدراج مأخوذ من الدرج، أي[1] نهبطهم درجة درجة وهم يحسبون أنهم مهتدون.[2]

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾

وأملي، أطيل وأؤخر العقاب وأُمهِل، **لهم**، ليزدادوا إثما. **إن كيدي متين**، قويّ، وهو[3] من المتانة وقد تقدم.[4]

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٦﴾

أم، يظنون أنك، **تسئلهم أجرا**، أي أجرة على ما بلّغتهم فتَثقُل الغرامة عليهم حينئذ فيتركون الاستماع منك. والمثقَل هو الذي حمل ما يثقله، يقال على الأجسام ويستعار في غيرها.[5] فهذا معنى قوله: **فهم من مغرم مثقلون**، أي فلهذا لم يجيبوك إلى ما تدعوهم إليه. ولهذا جاء في موضع آخر: قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ، ثم قال: وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ،[6] لأن المتكلف يستحق الأجر. ولهذا أن الله سبحانه لا يقال: له الأجر، بل: له الحمد.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤٧﴾

أم عندهم الغيب، أي الذي قد جعلناه عندك. ولهذا لم يقل: أم يعلمون، ثم قال: **فهم يكتبون**، أي وأنت لا تعرف الكتابة، ومن يكتب يكون[7] أولى بالعلم ممن لا يكتب،[8] فهلا دلّهم ذلك على صدقك مع علمهم به.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩﴾

---

[1] ش: أن.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧).

[3] ش – وهو؛ ك – وهو، صح هـ.

[4] هذا اللفظ (متين) ذكر في سورة الأعراف، ١٨٣/٧.

[5] ش ك: على غيرها. وفي هامش ك: في غيرها.

[6] سورة ص، ٨٦/٣٨.

[7] ك – يكون، صح هـ.

[8] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩).

فاصبر لحكم ربك، وهو ما أمرك به من البلاغ للمكذبين. ولهذا بعده: **ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادىٰ وهو مكظوم**، أي محبوس في بطن الحوت. والحوت كان كاظما له، والكاظم هو الحابس غيظَه، وهو ممدوح، لقوله: وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ،[1] وهذا مكظوم، وكان النداء في بطن الحوت. فنهى الله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون كصاحب الحوت، إذ لم يصبر على تكذيب قومه له، ولم يصبر لحكم ربه عليه بالبلاغ. ولهذا قدّم قوله لمحمد عليه السلام ههنا: **فاصبر**. ولا تفهم أنه نهاه عن الدعاء بل أمره بالصبر وحذّره إن لم يصبر لئلا يدعو كما دعا صاحب الحوت وهو مكظوم. ولهذا بعده: **لولا أن تدٰركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء**، الفلاة، وقد تقدم،[2] **وهو مذموم**، لكن تداركه فنُبذ غير مذموم.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾

فاجتبٰه ربه، تقدم،[3] وهو[4] بمعنى اختاره على علم،[5] لقوله تعالى: ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ.[6] **فجعله من الصٰلحين**.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

وإن، بمعنى وإنه، **يكاد الذين كفروا ليزلقونك**، معناه لَيُسقِطونك. وهو من معنى أزلق يزلق إزلاقا، ويقال: أزلقتَ الناقة إذا أسقطت. فالكفار يكادون بمعنى يقاربون أن يسقطوك على الأرض، **بأبصٰرهم**. وهذا يدل على نظرٍ من مستهزئ بعداوة تكاد تسقط المنظور إليه لِما يَرى من مَخائل الناظرين إليه ولَمَحاتهم له؛ واستدلاله / بذلك على فرط العداوة وشدة الحقد. ومنه قول الشاعر: [٤٦٤ظ]

يتقارضون إذا التقوْا في موطن ... نظرا يُزيل مَواطِئَ الأقدام.[7]

1 ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٣٤/٣).

2 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ (سورة الصافات، ١٤٥/٣٧).

3 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (سورة النحل، ١٢١/١٦).

4 ك ن – وهو.

5 ك ن: عن علم. وفي هامش ك: على علم.

6 ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (سورة الأنعام، ١٢٤/٦).

7 زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٣٤٤/٨.

أي ينظر هذا إلى هذا كما ينظر هذا إلى هذا حتى كأن كل واحد يُقرض الآخرَ نظرَه. لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون، أي والمجنون لا يصدر منه إلا هُجْر[1] ولغو.[2] فقال الله تعالى: وما هو إلا ذكر للعٰلمين.

---

[1] هجَر يهجُر هَجْرا بالفتح إذا خلط في كلامه (لسان العرب، «هجر»).

[2] ن: لهو.

سورة الحاقّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾

الحاقة، إخبار، ما الحاقة، سؤال. وما أدرٰك ما الحاقة، تعظيم للشأن[1] وغلظِ الحال في طول العذاب بهم، وهو كقوله: كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ.[2] ومعنى [قوله:] ما أدرٰك، ما أخبرك. ويقال: ما أدراك للمعلوم، وما يدريك للمجهول، أعني بالنسبة إلى من تخاطبه. والحاقة، اسم من أسماء القيامة. وسميت بذلك لِما[3] يَحقّ فيها من كلمة العذاب على الكافرين. وحَقّ القولُ، أي[4] وجب بحق فهي الواجبة. وأصلها الحاقِقَة، وهي الساعة التي تُحق الحقَّ، ويريد بها ههنا عذاب الدنيا. ويجوز أن يكون معناها المحيطة، من قوله تعالى: وَحَاقَ بِهِم،[5] وتكون الإشارة إلى إحاطة العذاب فلا مَخْلَصَ لهم بوجه. وهذا لا ينافي الأول في المعنى، لأن المراد العذاب المحيط الذي وجب استئصالُهم به. والعرب تُقدِّم الشيء في الذكر للاهتمام به ولتعظيمه، ثم تُخبر عنه، فجاء هذا الكلام على مذاهب العرب، لأنهم هم المخاطَبون به خاصة وإن كان لغيرهم عامة.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾

فقال: كذبت ثمود وعاد بالقارعة، وهو اسم من أسماء القيامة أيضا. ففي هذه السورة سمّاها حاقة وقارعة وواقعة.[6] والجميع صُوَر من العذاب تكون في ذلك اليوم وإن كان المراد ههنا هو وقوع ما يقع من أمثال ذلك في الدنيا، لأنهم كانوا لا يؤمنون بعذاب الآخرة، فحذّرهم بمثله من صُوَر عذاب الدنيا، وخص بذلك المكذبين. فكل قوم أَولى بصورة من العذاب.

---

[1] ن: للسان.

[2] ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة يونس، ٣٣/١٠).

[3] ش: بما.

[4] ك - أي، صح هـ.

[5] ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ (سورة هود، ٨/١١؛ وسورة النحل، ٣٤/١٦؛ وسورة الزمر، ٤٨/٣٩).

[6] انظر: الآية ١٥ من هذه السورة.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية، جزاء على التكذيب. والطاغية، ههنا صيحة جاوزت الحدَّ فزهقت بها أنفسُهم. والطغيان مجاوزة الحدِّ في الكفر. وطغى السَّيل إذا جاوز حدَّه. ومنه قوله تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ،[١] أي جاوز حدَّه[٢] وارتفع على كل شيء. وهذا كقوله: فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً،[٣] من ربا يربو إذا زاد. وكل شيء إذا[٤] جاوز حدَّه يقال له: طغى. والهاء في وزن طاغية تكون[٥] للتأنيث وتجيء للمبالغة. وقيل: المراد أنهم أُهلِكوا بالطغيان الذي بدأ منهم. فلمّا طغوا طغى عليهم العذابُ، كما طغى قومُ نوح[٦] فطغى عليهم الماءُ.[٧]

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾

وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية؛ ليس من العتو الذي هو العصيان، وإنما يقال: رجلٌ[٨] عاتٍ إذا بلغ منتهاه في الشدة والغلظة، ومنه: وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.[٩]

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾

سخرها عليهم سبع ليال وثمٰنية أيام حسوما؛ حَسَم بمعنى قَطَع، وهي جمع حاسم وهو القاطع، مثل رُقود وراقد، فهي حسمت وقطعت دابرَ هؤلاء الكافرين. وحسمتُ المادة أو الخصامَ: إذا قطعته قطعا بالغا. ويقال: قطعتِ الطيرُ قُطوعا إذا خرجت من بلاد البرد إلى بلاد الحرّ. فكانت الريح حاسمة لهم حسما بعد حسم حتى أفنتْهم، لأنهم ما حُسموا حسمة واحدة بل في، سبع ليال وثمٰنية أيام. فلم يكونوا كأصحاب الصيحة، أعني ثمود.[١٠] فعرّفنا أن أولئك أُهلكوا جملة وهؤلاء أشتاتا. ومعنى هذه / الكلمة، أعني [٤٦٥و]
"حُسوما" يُستعمَل في كثرة من الكلام كما يقال: هذا المريض عليه قِطْع. فتلك الأيام[١١] قُطوع سميت باسم صفتِها[١٢] مبالغةً. والأول أولى، وهو أن "حسوما" صفة الريح.

---

١ الآية ١١ من هذه السورة.

٢ ك – ومنه قوله تعالى... أي جاوز حده، صح هـ.

٣ الآية ١٠ من هذه السورة.

٤ ن – إذا.

٥ ك ن: يكون.

٦ انظر مثلا: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ (سورة النجم، ٥٢/٥٣).

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ١١ من هذه السورة.

٨ ن – رجل.

٩ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (سورة مريم، ١٩/٨).

١٠ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾... ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (سورة القمر، ٥٤/٢٣، ٣١).

١١ أي أيام عاد.

١٢ ن: وصفتها.

وهذه الأيام يعدها أرباب علم الفلك سبعةَ أيامٍ. والموجِب لهم أنهم عدّوها سبعة -وهي ثمانية كما قال الله تعالى- هو أن الله سبحانه عد الأيام وحدها والليالي وحدها. وهم إنما يعدّون الليالي في ضمن الأيام. واليوم عندهم عبارة عن مدةِ أربع وعشرين ساعة. وإن طال الليل كان قِصَرُ النهار يقابله وبالضد. فهم لمّا اضطرهم إلى ذلك وألجأهم ملجئٌ إليه ليتم حسابهم على قواعدَ لهم، لا بد فيها من هذا التدقيق: جعلوا يومهم من الظهر إلى الظهر أبدا والليلُ بينهما ليتمكنوا من وزن الشمس في النهار بالأَسْطُرْلَابِ والآلات. وأنت تعلم أن مِن ظُهرِ الأَحد إلى ظهر الأحد، على ما قدمناه من اصطلاحهم في أن اليوم من الظهر إلى الظهر، هو سبعةُ أيام. ثم إنك تعلم أن مِن يوم الأحد إلى يوم الأحد[١] إلى يوم بالأَحدين هو سبع ليالٍ وثمانيةُ أيام كما قال الله تعالى. فافهم ذلك بالاعتبار.

وههنا إشكال لم أجد أحدا تنبّه[٢] له وهو أن الآية دلت على أن ابتداء العذاب كان من أول الليل. وإذا عددْتَ سبع ليال وسبعة أيام لها تبقى ليلةُ اليوم الثامن خالية من العذاب. وأما أن تصير ثمانَ ليالٍ وهو مشكل عند المعتبَر. وحله هو أن ابتداء العذاب كان من أول النهار؛ ودليله قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾،[٣] وقوله أيضا: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾،[٤] أي مستمر[٥] إلى سبع ليال وثمانيةِ أيام. وإنما بدأ بذكر الليالي قبل ذكر الأيام لوجوب الأقل قبل الأكثر في العدد، لأنك تقول: سبعة ثمانية، ولا تقول: ثمانية وسبعة[٦] فافهم جيدا. فهنا عيّن العدة وهناك عيّن بداية العذاب فقال: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾.[٧] وهذه الأيام عند الفلكيّين هي ثلاثة من آخر شباط وأربعة من أول آذار، لا تتغير أبدا ويسمونها العامة "الأعجاز". وذلك غلط، وإنما هي أيام الأعجاز لقوله تعالى: فترى القوم فيها، أي في كل مدة[٨] ليرى بعضهم بعضا، صرعىٰ كأنهم أعجاز نخل خاوية. وأعجاز النخل أصوله قد قطع الهواء أطرافَها وفروعها، كذلك هؤلاء. والخاوية الفارغة. ولهذا قيل: هي أصول نخرةٌ. فهؤلاء خلت منهم الأرواحُ وبقيت الأجساد، ثم ذهبت أيضا[٩] بعد ذلك.[١٠]

---

١ ن – إلى يوم الأحد.

٢ ن: نبه.

٣ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (سورة فصلت، ١٦/٤١).

٤ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ (سورة القمر، ١٩/٥٤).

٥ ن – أي مستمر.

٦ ك: ولا تقول بالعكس.

٧ ش – لأنك تقول سبعة ثمانية ولا تقول ثمانية وسبعة فافهم جيدا فهنا عيّن العدة وهناك عين بداية العذاب فقال في يوم نحس مستمر.

٨ ن + ومدة.

٩ ش – أيضا.

١٠ ش + أيضا.

﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾

فهل ترىٰ لهم من، لتبيين الجنس، باقية، وإنما قال: باقية، لئلا يعين نفسا أو يدا أو ذرة.[1] وتقديره من بقيةٍ باقيةٍ.

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾

ثم نسق على المكذبين المذكورين أمثالهم فقال: وجاء فرعون ومن قبله. وأضاف إلى ذلك القرى المنقلبات فقال:[2] والمؤتفكٰت بالخاطئة، الخطيئة، وغيّر للوزان.

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠﴾

فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية، زائدةً تربو.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾

ثم ذكر من قضية نوح ما ينبه به على قضية فرعون في الغرق. وزاد عليه معنى آخر وهو المنّ بالسلامة، فلم يتعظوا لا بقليل ذلك كقوم فرعون، ولا بكثيره كقوم نوح فقال: إنا لما طغى الماء، تَجاوز حدَّه في الكثرة، حملنٰكم فى الجارية، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن وٰعية، من الآتين بعد نوح / إلى يوم القيامة. [٤٦٥ظ]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤﴾

ثم عاد إلى وصف القيامة بعد ذكر المكذبين ليعرّفَنا أنه وإن كان قد أجرى عليهم في الدنيا ما قد أجراه من العذاب الأدنى، فلا بد لهم في الآخرة من أنواع العذاب الأكبر. وكأن[3] الكلام منسوق بقوله: ٱلۡحَآقَّةُ،[4] في السورة ومبين له. فقال: فإذا نفخ فى الصور نفخة وٰحدة، بالرفع على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة وٰحدة، يقال: ناقة دكّاء، أي لا سنامَ لها. ومنه قوله: جَعَلَهُۥ دَكّٗا،[5] أي متساويا. والدكّ الدقّ، دَكَكْتُ الشيءَ أَدُكُّه إذا دققته حتى سوّيته بالأرض. ويقال لِما علا عن الأرض،

١ ك – أو ذرة، صح هـ.
٢ ك ن: وقال.
٣ ش ك: وكان.
٤ الآية ١ من هذه السورة.

٥ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧).

ويقال[1] لِما سَفَل أيضا؛ تقول: دككت الرَّكيّ،[2] أي دفنته إلى أن سويته فتساوى بالأرض. ومنه الدكة، أي المدكوكة المتساوية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾

وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، وهي الشيء إذا لم يستمسك لضعفه، كالثوب الواهي إذا تناثر وتهرّأ.[3] **والملك**، وهو اسم الجنس، فالمراد به الجمع كقوله: وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا.[4] والواو واو الحال في قوله: وَٱلْمَلَكُ، أي يكون ذلك، **والملك علىٰ أرجائها**، جهاتها وهي النواحي، واحدها رَجًا[5] مقصور. والمراد أن في ذلك اليوم تنزعج الملائكة فكيف ببني آدم. وفيه أن يوم الساعة لا تعلمه الملائكة فكيف غيرهم، بل تأتي بغتة والملائكة على أرجاء السماء من فوقها يحملون العرش. ويحتمل أن تكون الإشارة إليهم بقوله: ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ.[6] ويحتمل أنه أراد بقوله: **ويحمل عرش ربك فوقهم**، أي فوق الخلائق، **يومئذ ثمٰنية**، أراد الإعلام بعظم القدرة على خَلقِ ملائكة مع قلتهم وكونهم ثمانيةً. فهم في ذلك اليوم يحملون العرش فوق سائر الخلائق من الأولين والآخرين. ولهذا قال: **يومئذ**. وقوله: **ثمانيةٌ**، هو للوِزان. والمراد التخويف وإظهار عظم القدرة. وقال بعضهم: هو الآن محمول، ولكن كما تحمل النُّواة صورةَ النخلة، فالعالِم يرى ذلك الآن. وقد[7] علمت ما قد تقدم من أن المراد تخويف المجرمين بيومٍ يرون فيه العرش وحملته بحيث يتحققون عِدَّتَهُمْ مع قلتهم. فهذا تمهيد التخويف ليُنسق عليه [قوله:] **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**، أي مختفية كانت مهما كانت، ولينسق عليه ما بعده. وليس المراد التعريفَ بحال العرش والحَمَلَة،[8] إذ ذلك لا بد أن يروه على صورته التي يُشهدهم الله إياها في ذلك اليوم.

---

[1] ك - يقال، صح هـ.

[2] الركية: البئر (تاج العروس للزبيدي «ثرب»).

[3] هرأ اللحمَ وأهرأه: أنضجه، فتهرّأ حتى سقط من العظم (لسان العرب، «هرأ»). وتهرأ، أي تساقط.

[4] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.

[5] ن: أرجى.

[6] ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (سورة المؤمن، ٧/٤٠).

[7] ك ن: قد.

[8] ن: والجملة.

ولا فائدة لهم في ذكره "اليوم"[1] إلا التخويف به كما يجد المتأمل لِما قبل ذلك ولما بعده. ويحتمل أن قوله: والملك على أرجائها، أي ينتظر ما يؤمر به من سوْق أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة، لقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾،[2] بصورة الإرهاب بالتمثيل للملك القادر وجنده معه، فيكتفي منهم مع كثرتهم بالقليل. ثم يسوم المعذَّبين بالكثير إرهابا، ولا إرهاب أشد من تخيّل رؤية السماء مشقوقة[3] والحالة هذه. فليس المراد من تعريف العباد بما سيكون في المعاد إلا الترغيب والترهيبَ.[4] فَابْنِ على هذا وبيّن به مهما أَشكل، فإنك إن تغلط في البيان لم تغلط فيما أريد بجملة القرآنَ. وقد علمت أن المراد ضرب الأمثال لا بيان حقيقة الحال، إذ ذلك لاتسعه الأقوال لما فيه من العظائم والأهوال.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾

فأما من أوتى كتٰبه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتٰبيه، سرورا به، وأصل "هاؤم" معلوم من كلام العرب. فأهل الحجاز يقولون: ها يا رجلُ، وللاثنين هاؤما، وللجماعة هاؤم، وللمرأة هاء بهمزة ليس بعدها ياء، / وللمرأتين هاؤما.[5] وتميم وقيس يقولون: [٤٦٦و]
ها وهاء أو هاؤا، وكأن أصلها أعني[6] "هَاؤُمُوا" هاأَمّوا[7] من الأَمّ وهو القصد، أي هاء اقصِدوا. وذلك بصورة مَن كأنه فتح كتابه ورفع به يمينَه إلى الملائكة، وقال:[8] هاأمّوا[9] كتابي فاقرءوه، وأخّر "كِتَابِيَهْ" للوِزان. ولهذا قال بعده ممتدحا: **إنى ظننت أنى ملٰق حسابيه**.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾

فهو فى عيشة راضية، أي ذات رضا كأنه قال: مرضية، لأنها تُرضي صاحبها، وهي في التصريف كَلَيْلٍ دامس،[10] وماء دافق، وامرأة طامث[11] وطالق.[12]

---

[1] الآية ١٥ من هذه السورة.

[2] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.

[3] ن: مشقوقه.

[4] ن: في المعاد إلى الترغيب والترهيب.

[5] كتاب العين للخليل بن أحمد، «هاء».

[6] ك – أعني، صح هـ.

[7] ش: هاوأموا.

[8] ك – وقال، صح هـ.

[9] ك ن: هاء أموا.

[10] الليل الدامس هو الشديد الظلمةِ (لسان العرب، «دمس»).

[11] الطامِث: الحائض (لسان العرب، «طمث»).

[12] المرأة تُطلّق طلاقا فهي طالق (كتاب العين للخليل بن أحمد «طلق»).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

كلوا واشربوا هنيًا، وهو ما يتهنى به الإنسان. والهَنَاء ضد العَزاء في العُرْف والعادة لا في الأصل، فالهناء في الأفراح،[1] بما أسلفتم فى الأيام الخالية.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾

يْليتها، أي الموتةَ الأولى، كانت القاضية، الفاصلة. وقُضي الأمر إذا فُصل، وقضى فلان إذا انفصل عن الدنيا بالموت. والمعنى يا ليتنا قضينا نَحْبَنا في الموتة الأولى ولم نَحْيَ بعدها، وهو معنى قول الكافر: يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا.[2] ما أغنىٰ عنى ماليه هلك عنى سلطٰنيه،

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

كل ما يُتسلَّط به فهو سلطان. ولكل إنسان سلطان على نفسه، ودينه، وعيشه، ومآربه الممكنة له. وقال ابن عباس: كلّ سلطان في القرآن هو الحجة.[3] فهنالك تَهلِك الحجج وتبقى حجة الله. والسلطان الظاهر حجة الله على خلقه إذا كان مطيعا. والسلطان فيه قوة قهرِ الطبع، والعالِمُ فيه قوة ترقية العقل بالشرع. فإذا كان السلطان حاكما بالعقل المقيَّد بالشرع كان كاملا مطاعا ظاهرا وباطنا. وإن كان بالعكس كان سلطانه نارا عليه.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾

خذوه فغلوه، إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِى أَعْنَٰقِهِمْ.[4] ثم الجحيم صلوه، من الاصطلاء. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه، ولم يقل: فاسلكوها فيه كما ظن الضحاك أنها تدخل في فيه وتخرج من دبره.[5] ولكن افهم أن السلسلة دائرة وُصل طرفها الواحد بالآخر

---

[1] ش ك: في الأفراح.
[2] ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (سورة النبأ، ٧٨/٤٠).
[3] لسان العرب، «سلط».
[4] ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧١-٧٢).
[5] جامع البيان للطبري، ٢٣/٢٣٧.

وهي داخلة في الأغلال، والأغلال في الأعناق، كما قال تعالى: إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ،[1] أي بها. فالمجرمون يدخلون في داخل تلك الحلقة التي هي السلسلة مقرَّنين،[2] أي هم وقرناؤهم؛ فَهُمْ[3] واحد بجنب الآخر، وأبدانهم من داخل السلسلة، ووجوههم إلى بعضهم بعضا. فكل واحد منهم يرى الجميعَ ويراه الجميعُ، ولا يمنعه ذلك[4] من رؤية ما بين يديه من العذاب وهم يُسحَبون سَحْبا[5] لا مشيا في الحميم من مكان إلى مكان من النار.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

ثم بيّن الله أن ذلك جميعه مِن ظلمِ الظالم لنفسه فقال: **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض**، أي ولا يحثّ نفسه ولا غيره، **على**، إخراج، **طعام المسكين**، والإخراج ههنا[6] يريد به إخراج ما وجب من زكاة الطعام في مال الغني للفقير وما نبّه الشرع عليه من الصدقات، كقوله: إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ.[7]

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

فليس له اليوم هٰهنا حميم، تقدم.[8] وقيل: هو الذي يحامي عن صاحبه ويحمي لغضبه. **ولا طعام إلا من غسلين**، بوزن فِعلين من الغسل وهو الصديد الذي ينغسل عن أبدان أهل النار.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

[1] سورة المؤمن، ٧١/٤٠.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (سورة الفرقان، ١٢/٢٥-١٣).

[3] ن – فهم.

[4] ش ك + من رؤية ذلك.

[5] ن – سحبا.

[6] ك – ههنا، صح هـ.

[7] ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة، ٦٠/٩).

[8] ن – تقدم. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، ١٠٠/٢٦-١٠١).

إنه لقول رسول كريم، ولو قال: لَقول محمد لنُسب القرآن إليه، لكنه ذكر الرسول الذي لا يكون إلا برسالته. فجاز أن ينسب كلام المرسِل إلى المرسَل به / لأنه هو الذي [٤٦٧ظ] يقوله عن قائله له. ثم بيّنه فيما بعدُ: وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. ثم قال ما بيّن به ما تقدم وهو قوله: تنزيل من رب العٰلمين.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾

ولو تقول، افترى فقال غير ما قلناه له أن يقوله عنا، علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، تقديره لأخذنا باليمين من يديه. ولو قال: "لأخذنا منه اليمين" لدلّ على قطع اليد اليمنى منه، ولو قال: "لأخذنا منه بيمين" لدلّ على يمين القسم. ولو قال: لأخذناه[1] باليمين لدل على مؤاخذة من الله بسبب يمينٍ حلفها. فلزم أن يقول ما قال إعلاما أن المراد أخذ اليمين من يديه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم بيّنه بقوله: ثم لقطعنا منه الوتين، الوتين[2] عرق القلب، وهو الذي لا يعيش الحي إذا قُطع منه. ولو أراد قطْعَ اليد اليمنى[3] كما نُقل عن الحسن[4] لم يقل هذه العبارة ولكان الأولى أن يقول: ثم لقطعنا منه اليمين والوتين. وفرّق بَيْن قوله: لَأَخَذْنَا،[5] وبين قوله بعده: لقطعنا.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾

فما منكم من أحد عنه حاجزين، مانعين. والمعنى مِن حاجز، وغيّر للوِزان، وليعرِّفَنا أنهم لو اجتمعوا أيضا لم يَحْجِزوا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم نسق على قوله: إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،[6] [قوله:] وإنه لتذكرة للمتقين، يتقون مخالفته أمرا ونهيا.

---

١ ن: لأخذنا منه.
٢ ش ك – الوتين.
٣ تفسير القرآن العظيم لابن أبي زمنين، ٥/٣٣.
٤ ك: كما قال الحسن.
٥ من الآية السابقة.
٦ الآية ٤٠ من هذه السورة.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

وإنه لحسرة على الكُفرين، وهذا كقوله: وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى،[1] فافهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

فسبح باسم ربك العظيم، أي قل: سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ.[2]

---

١ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٤).

٢ سورة المؤمنون، ٢٣/٩١؛ وسورة الصافات، ٣٧/١٥٩.

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾

سأل سائل، من السؤال أعني الطلب، **بعذاب**، أي بوقوع عذاب [عدم] الإيمان،[1] **واقعٍ للكفرين**، في يوم كان مقداره [كذا]، فهذا جميعه مبتدأ وهو السؤال. ثم قال الله تعالى واصفا له: **ليس له دافع من الله**، أي من بأسه سبحانه. ثم وصف مُعظِما مُخوِّفا بقوله عن نفسه سبحانه: **ذى المعارج**. واعلم أن قوله: **من الله**، يحتمل أن معناه هو أن السائل سأل من الله؛ ويحتمل أن يكون العذاب من الله؛ ويحتمل أن يكون المعنى ليس للعذاب دافع يدفعه من الله، كما تقول: من يمنعك مني، أي من نقمتي ومما أريده بك؟ فهذه الصور الثلاث مقصودة بهذا اللفظ ههنا. لكن أولاها الأخيرة. وقد سمعت أنه متى احتمل اللفظ عِدّةَ معان تُبيّن الكلام وتقوي المعنى ولا تخالف المقصود فإن المتكلم قصد به جميع الوجوه ما لم يناقض بعضُها بعضا. وقوله: **ذى المعارج**، لأنه سبحانه يَعرُج إليه الأمر،[2] و ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ،[3] والروح، والملائكة لقوله: **تعرج الملٰئكة والروح**، جبريل. وقوله: إليه، كقوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي،[4] أي إلى رضاه مني، **فى يوم كان مقداره**، على الكفار خاصة، **خمسين ألف سنة**، مما تعدون اليوم في الدنيا. ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يكون على المؤمن كصلاة مكتوبة».[5] وهذا الكلام ههنا للكافرين هو بصورة التهديد لا التحديد. والسائل سأل العذاب الذي يَحِلّ بهم في الآخرة في ذلك اليوم أن يحل بهم اليوم في الدنيا. فالسائل ههنا بعض المؤمنين ممن كان أو يكون. ولهذا قال الله له: **فاصبر**، أيها السائل، **صبرا جميلا**، وهو صبر من يكون على ثقة من إنجاز الوعد على أحسن صورة يطلبها الطالب.

---

[1] ك ن: عذاب الآن. وفي هامش ك: الإيمان.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة السجدة، ٥/٣٢). وانظر أيضا: سورة هود، ١٢٣/١١.

[3] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ (سورة فاطر، ١٠/٣٥).

[4] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ (سورة الصافات، ٩٩/٣٧). | أي قال إبراهيم عليه السلام.

[5] وقع في حديث أبي سعيد عند أحمد: «إنه يخفف الوقوف عن المؤمن حتى يكون كصلاة مكتوبة». وسنده حسن. انظر: فتح الباري للعسقلاني، ٤٤٨/١١.

[معنى اليوم في القرآن]

واعلم أن الله تعالى سمّى هذه المدة يوما ليعرّفنا أن أيام الكفار في جهنم تطول عليهم، فتكون في باب التمثيل بهذا الطول في المقدار. وهذا يومٌ من سِنين، كقوله: / لَٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا،[1] لأن الكفار لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بعذاب لا آخرَ له. فيكفيهم [٤٦٧و]
عمرٌ تكون أيامُه هذه الأيامَ وبقياسها ومقدارها، بل تكفيهم سَنةٌ، بل يوم، بل بعضُ يوم. وفي ذلك موعظة وتخويف بالغ. وأما يوم الحساب فهو وإن[2] طال على الكفار لكن الحساب ينقضي، فسمِّي اليوم الواحدُ بأسماء ما يقع فيه لأنه[3] لا آخر له، فهو يوم الحساب، ويوم الألف ويوم الخمسين ألفا.[4] لكن يجب أن تعلم أن أصل ذلك يومان. أحدهما يوم من أيام الدنيا فيه تقوم الساعة، ويوم أوله قيام الساعة فلا آخرَ له. وكلاهما مذكوران في القرآن. وكل ما جاء من الجمع، والبعث، والحشر، وأمثاله فهو في يوم من أيام الدنيا. وكل ما جاء من أيام العذاب وأنواعه، كقوله: يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ،[5] يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ،[6] وأمثاله فالمراد به يوم الآخرة الذي لا انقضاء له. وبهذا يفرَّق بين قوله تعالى: إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ[7] وبين قوله: إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٍ.[8] وإيضاح ذلك أن المواضع التي قدم فيها ذكرَ اليوم على الوقت يريد يوما من أيام الدنيا، فقدم ذكر اليوم على الوقت[9] وأضافه إلى الوقت فصار معرَّفا به. ولهذا نظر إبليس إليه، لأنه لا يقدر بعده أن يَفتِن بل بطل شغله. وأما وقت اليوم فهو ذلك الوقت بعينه، لكنه مضاف إلى يوم لا آخر له. فلهذا قدّم ذكر الوقت. فاليوم المقدم أولا هو للأولى، واليوم المؤخر في الذكر[10] آخرا هو للأخرى.

وقوله: فاصبر صبرا جميلا، هو صبر الراضي لتحقُّقه أنّ تأخير مطلوبه عنه أولى من تقديمه له وإن نزعت نفسه إلى تعجيله.

---

[1] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ (سورة النبأ، ٧٨/٢١-٢٣).

[2] ن + كان.

[3] ن - لأنه.

[4] جميع النسخ: ألف.

[5] ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ (سورة القمر، ٥٤/٤٨).

[6] ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦٦).

[7] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ (سورة الحجر، ١٥/٣٦-٣٨؛ وسورة ص، ٣٨/٧٩-٨١).

[8] ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۞ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٤٩-٥٠).

[9] ك - يريد يوما من أيام الدنيا فقدم ذكر اليوم على الوقت، صح هـ.

[10] ك ن - الذكر.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾

إنهم يرونه، من رؤية القلب والظن، بعيدا، ونرىٰه قريبا.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾

يوم تكون السماء كالمهل، النحاس المُذابِ، **وتكون الجبال كالعهن**، الصوف، ويُشْبه أن يكون الأحمر منه فيوقَد على الجبال حتى تحمرّ وتبقى كالصوف، وعلى السماء حتى تذوب. والقطعة من العِهْن عِهْنَة، والجمع عُهُون.

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾

ولا يسئل حميم حميما، أي عن حميم، وبيّن السبب في انتفاء السؤال فقال: **يبصرونهم**، أي يقال له بالفعل: أبصرْ حميمَك كيف لا يغني أحدكم عن صاحبه شيئا. ومن قرأ "ولا يسأل" بالفتح[1] فمعناه لا يسأله شيئا لعلمه[2] بما قلناه. وبين ما شرحناه بقوله: **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصٰحبته وأخيه، وفصيلته**، قيل: سَرِيَّته بِمِلْك اليمين. واللغة تُعطي أنها فخذه الأدنى من القبيلة التي ينتسب إليها، يقال:[3] جاءوا بفصيلتهم، أي بأجمعهم. وسميت فصيلة، لأنها منقطعة انفصلت عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوّة خاصة، فهي جماعة ترجع إلى خاصة عن أبوة عامة،[4] ولهذا وصفها بقوله: **التى تؤويه**. وأتبعها بقوله: **ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه**، أي فيقال له بالفعل: **كلا**، أي لا تُفتدَى اليومَ ولا نجاة لك. ثم قال مستعظما: **إنها لظىٰ**، لهب لا جَمْرَ[5] له. ومنه قوله: فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ،[6] أي تتلهب. **نزّاعةً**، نَزْعٌ مُضاعَفٌ فهي فعّالةٌ، ذلك بحكم ما يؤكِّد للموصوف صفتَه دائما، كقولك: خبازة، وقلاعة، **للشوىٰ**، جلدة الرأس. وقيل: الشوى ما ليس بمَقْتَل من جميع الجسد. يقال: رماه فأشواه إذا أصابه ولم يقتله، ورماه فأصماه قتله، ورماه فأخطأه لم يصبه.

[1] قرأ أبو جعفر بضم الياء وغيره بفتحها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٢٧).
[2] ن: نعلمه.
[3] ن + يقال.
[4] ش: علية.
[5] الجمر النار المتَّقِدة (لسان العرب، «جمر»).
[6] سورة الليل، ١٤/٩٢.

[٤٦٧ظ] فيكون المراد أنها لا تقتل. وذلك ليستمر العذاب / دائما وهو معنى [قوله:] كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم،[١] الآية.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾

تدعوا، من الطلب لا المناداة. وهذا الطلب بالحال لأنها خلقت تدعو، من أدبر وتولىٰ، كما تدعو النار حطبها. ومنه: فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا.[٢] وجمع، الأموال، فأوعىٰ، ذلك في أوعية لكثرته.

﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾

ثم قال: إن الإنسٰن خلق هلوعا، الهلع ههنا من الحرص؛ ويقال: ناقة هلوع[٣] إذا كانت سريعة السير خفيفةً. قال عليه السلام: «شرُّ ما أُعطي المرءُ شُحّ هالع وجُبْنٌ خالع».[٤] والمعنى أن الإنسان لا يصبر ولا يتثبت. وبيّن ذلك بقوله: إذا مسه الشر جزوعا، الجزع الخوف، يخاف الفقر، فهو يحرص على الجمع. وإذا مسه الخير منوعا، يمنع إنفاقه حرصا على زيادته. وليس لمُحتجٍ[٥] من المُجبرة أن يقول: إذا كان الله سبحانه قد أخبر عن الإنسان أنه، خلق هلوعا، فأي حيلة له أو ذنب، إذ ذلك ههنا ذكره الله على صورة الذم، وهو تعالى لا يذم ما خلقه، بل هذا جاء على مذاهب العرب مبالغة في الصفة. تقول: "فلان خُلق من الكرم"، وبضده في الذم "خلق من اللؤم". ولهذا جاء هنا[٦] بما لم يُسَمَّ فاعلُه.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾

وبيّن صحة ما شرحناه بقوله بعده: إلا المصلين، الذين هم علىٰ صلاتهم دائمون، والذين فى أموٰلهم حق معلوم، أي عند الناس وهو الزكاة. وذلك كما بيّنه في سورة المؤمنين

---

١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (سورة النساء، ٤/٥٦).

٢ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (سورة الجن، ٧٢/١٥).

٣ ك: هلواع. وفي هامش ك: هلوع.

٤ مسند أحمد بن حنبل، ٢/٣٠٢، ٣٢٠؛ وسنن أبي داود، الجهاد، ٢١.

٥ ش: بمحتج.

٦ ن: ههنا.

إذ[1] ذكر الصلاة، ثم الزكاة.[2] فهذه الآيات مَثْنى تلك. وأما قوله في الموضع الآخر: حَقّ،[3] بإسقاط "معلوم". فهو ما يفرضه الإنسان على نفسه، أو يتبرع به يزيد وينقص، أو ما عاهد الله عليه كالنَّذر، أو تعبَّده به كمن يُخرج الخُمُس أو العُشْر من ماله، لكنه محافظ عليه في أمواله كلها. ولهذا لم يقل: في مالهم، فلم يعيّن الله في ذلك الموضع ذلك بقوله: معلوم، ليكون الأمر إليهم فيما هم فيه يؤثرون إخراجه لله سبحانه. لكنهم قد جعلوه حقا عليهم. فافهم هذا في جميع المواضع من أمثاله. للسائل، كان مَن كان، والمحروم، تقدم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾

والذين يصدقون بيوم الدين، الجزاءِ عن كل جزء من[4] أعمالهم، لأن من صدق ذلك صبر على الطاعة وعن المعصية بلا شك.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾

والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، على أنفسهم وعلى غيرهم. ويدخل في ذلك الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر. إن عذاب ربهم غير مأمون، وقدم ذكر العذاب قبل ذكر الفروج تعظيما لهذا الذنب وتخويفا منه فقال: والذين هم لفروجهم حٰفظون إلا علىٰ أزوٰجهم أو ما ملكت أيمٰنهم فإنهم غير ملومين، وهذا مُشعر باستحسان التنزيه عن الحلال إلا لضرورة بحيث لا يلام المرء، فافهمه.[5]

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾

فمن ابتغىٰ وراء ذٰلك، وطئا، فأولٰئك هم العادون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾

---

[1] ن: إذا.

[2] ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ١/٢٣-٤).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ (سورة الذاريات، ١٩/٥١).

[4] ش: ومن.

[5] ش ك: فافقه.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ٣٣﴾

والذين هم بشهٰدٰتهم قائمون، ومنه: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ،[1] وكقوله: وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ.[2] فقوله[3] ههنا: قائمون، أي لله بالقسط فيها. فإن قيل: ما فائدة هذه الكلمات التي قد كُرِّرت ههنا من سورة المؤمنين؟ فالمراد أنه لمّا استثنى من المذمومين الموصوفين بالهَلَع أقواما كَمَّل أوصافهم، فذكر منهم هناك ما نبّه على عظم الأوصاف، وكمّل ههنا على تلك ما أضاف إليها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ٣٥﴾

ولمّا ذكر المصلين ووصفهم ههنا بالدوام وجاز أنهم قد لا يحافظون ختم بقوله: والذين هم علىٰ صلاتهم يحافظون، تعظيما لقدر الصلاة وتنبيها على المحافظة على صلاة الجمعة كما بيّنّا،[4] وتعريفا للمصلين أن المحافظة شرط، إن لم يقوموا به لا يفي[5] لهم بالوعد الذي هو: أولٰئك فى جنّٰت مكرمون. فافقه هذه الآيات واجعلها نُصْبَ عينيك والله خليفتي عليك. فمن حافظ حفظه الله من وساوسه التي هي / مقدِّماتُ [٤٦٨و] أفاعيله. ومن أهمل نفسه جَمَحت به فعاد بأوصاف الكافرين وإن بَدَتْ منه أقاويل المؤمنين. وتقدير الكلام ههنا: وإن كان الأمر على ما قد وصفناه.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾

فمال الذين كفروا قبلك مهطعين، باهتين بأبصارهم وقد تقدم.[6] **عن اليمين وعن الشمال عزين**، العِزَة الفرقة من[7] الناس. والجمع عِزًى على فِعَل، وعُزون وعِزون بضم العين وكسرها، أي ما لهم مجتمعين حَلَقا [حلقا] نحوك عن يمينك وشمالك باهتِين، وهم بك غير مؤمنين. خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه

[1] ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٢/٧).

[2] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ (سورة الطلاق، ٢/٦٥).

[3] ن – فقوله.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.

[5] ش: لا يفئ؛ ك: لا نفي. وفي هامش ك: لا ينبئ.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ (سورة إبراهيم، ٤٣/١٤).

[7] جميع النسخ: بين.

فرآهم حَلَقا حلقا متفرقين فقال: «مالي أراكم عزين»،[١] فهم جماعات متفرقة، كل فرقة جماعة منفردة عن الأخرى. وتكون "عزين" منصوبة على الحال.[٢] والمراد في المعنى أنهم مختلفون في النبي عليه السلام وفيما جاء به. فكل طائفة منهم تَزعم فيه غيرَ زعمِ الأخرى، ولم يتفقوا على حالة سوى أنهم جميعَهم يكذبونه ويزّكون أنفسهم. ولهذا بعده: **أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم. كَلّا إنا خلقنٰهم مما يعلمون**، أي من نطفة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾

فلا، أي فلا يظنون أنهم يُعجزون مَن خلقَهم من هذا الضعف وصيرهم إلى هذه القوة. ثم قال: **أقسم برب المشٰرق والمغٰرب إنا لقٰدرون علىٰ أن نبدل خيرا منهم**، ولم يقل: نُبدّلهم بخير منهم ولا بدال غير مشددة بل مشددةٍ ليدل على قدرة تامة منه سبحانه على تبديل مُتَسَرْمِدٍ مرةً بعد مرة إلى حيث يشاء. فيبدّل كلَّ يوم بخير ممن قبلهم إلى ما لا نهاية له، لأن الجميع خير منهم، فافقهه.[٣] وقوله: **وما نحن بمسبوقين**، أي لا يَظنَّ أحدهم أنه يفوتنا، أو لا يدركه عذابنا، أو ينجو[٤] بسبق، فإن السابق لا يدرَك.

فإن قيل:[٥] إذا كان الإنسان قد خُلق على أحسن الصور[٦] الباطنة والظاهرة فكيف يصح أن يبدل بخير منه؟ فالمراد أن هذا التبديل هو كقوله: فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا.[٧] وقد علمت أنه سبحانه يخلق الكامل والأكمل، والناقص والزائد، والقويَّ والضعيف ويكون الأجر واحدا، لأنه على العمل لا على الخلق، ولَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا.[٨] فهم متساوون في التمكن من بلوغ الخيرية من جهته، متفاوتون من جهتهم، لأن كسبهم إليهم. وكذلك هم متفاوتون في الخلق غير متفاوتين في التمكن من المساواة في الأجر؛ كما ضربنا المثل في إخراج العُشر من مال الغني والفقير فيكون الأجر متساويا

---

١ مسند أحمد بن حنبل، ١٠١/٥، ١٠٧؛ وصحيح مسلم، الصلاة ١١٩.

٢ ن: عن الحال.

٣ ك ن: فافقه.

٤ ش: أو ينجوا.

٥ ن – فإن قيل.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (سورة التين، ٤/٩٥).

٧ سورة الزخرف، ٨/٤٣.

٨ سورة الطلاق، ٧/٦٥.

وليس المقدار مساويا. فيكون قوله: خيرا منهم، بمعنى مَن خلقناه أشدَّ خلقةً منهم ومن آتيناه أبلغ مما آتيناهم، كما خلق عادا[1] وآتى[2] قارونَ.[3]

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتىٰ يلٰقوا يومهم الذى يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث سراعا، مسرعين، كأنهم إلىٰ نصب يوفضون، الإيفاض العجلة، وهو من أوفض يوفض. فإن قيل ما معنى قوله: يوفضون، وقد تقدم قوله: سراعا؟ فالجواب أن قوله: سراعا، عائد على سرعة الأمر منه إعلاما بعظم القدرة، كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.[4] وقوله: يوفضون، عائد إلى صورة حالهم[5] وما يبدو منهم بعد الخروج وهم جماعات، لأن الأوفاض أيضا هي الفِرق والأخلاط من قبائلَ شتَّى. فكأنه قال: يوفضون أوفاضا. والنُّصب المذكور ههنا هو من المعاداة. تقول: نصبت لفلان نصبا بتسكين الصاد إذا عاديته وناصَبْتَه الحربَ مناصبة. فهم إذا خرجوا مجتمعين إلى معاداة وقتال فإنهم يخرجون / مختلطين مذعورين لا يعلمون أيَغلبون أم يُغلبون. فمثّل لهم خروجهم من الأجداث بأمره سراعا بقوله: كأنهم يوفضون إلى نُصُب أوفاضا. لكنهم يَخرجون، خٰشعة أبصٰرهم ترهقهم ذلة ذٰلك اليوم الذى كانوا يوعدون. [٤٦٨ظ]

[1] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٦٩/٧).

[2] ن: وأوتي.

[3] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (سورة القصص، ٧٦/٢٨). وانظر أيضا: الآية ٧٩ منها.

[4] سورة النحل، ٧٧/١٦.

[5] ك: على صورة حالهم عائد.

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ①﴾

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③﴾

قال يٰقوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. لمّا قدم عبادة الله والتقوى له سبحانه لزم أن لا تكون طاعتهم لنوح عليه السلام مناقِضةً. وكذلك لا يجوز أن ينسب إلى الرسول من الحديث ما يناقض الكتاب الذي كان به رسولا، فافقه ذلك.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ④﴾

يغفر لكم من ذنوبكم، لأن من الذنوب ما لا يغفر، ولأنه لو لم يقل: "مِن" لجاز أن يغفر ما تقدم وما تأخر. وقوله: **ويؤخركم إلىٰ أجل مسمى**، المسمى هو أَجَلُ الله. ولهذا بعده: **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.**

[الأجل المسمَّى وغير المسمى]

فاعلم أنه لمّا كانت الطاعة تعطي التأخيرَ إلى الأجل المسمَّى لزم أن المعصية تُعطي التقديمَ عن المسمى. فإذا فهمت هذا تحققت أن الله تعالى جعل للعبد أجلين، وقضى أن يكون أحدهما إلى العبد، وهو[1] أجل العبد وهذا غير المسمى، والآخر أجل الله وهو المسمى. ويحقق ما قلناه قوله تعالى في سورة المنافقين: وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا،[2] فنسبه إليها، لأنها هي التي أوجبت مجيئه بمعصيتها، إذ لو أطاعت لأخِّرت إلى المسمى بلا شك، لأن وعد الله لا يكون إلا صدقا. ثم قال تعالى في هذه السورة: **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر**، فنسبه إلى نفسه تعالى ويريد به المسمى. ولهذا جاء هذا الكلام بعد قوله: **ويؤخركم إلىٰ أجل مسمى**، أي بشرط الطاعة. ويؤكد ذلك أنه تعالى

---

[1] ن: فهو.

[2] سورة المنافقون، ٦٣/١١.

في سورة المنافقين ذكر العمل مِن قبل ومِن بعدُ،[1] وفي سورة نوح ذكر العلم بعد ذكر أجل الله.[2] فافهم ما أحسن هذا، لأن العالم يعلم يقينا أن العبد يؤخَّر بطاعته وأجل الله لا يؤخر[3] بوجه. وذلك لأن المسمى هو أجل الله فهو على مقتضى[4] حكمة الرب، وغير المسمى هو أجل العبد فهو جزاء مقتضى[5] كسب العبد. فافقه جملةَ ما قلته لك متأنيا لتلتذّ بفهم ما لم أجده مفصلا في كتاب غير كتاب الله تعالى. وافهم ما سطرتُه لك في سورة المنافقين[6] وفي أول الأنعام[7] ليقوم عندك وليتحقق[8] ما لا ريب فيه.

واعلم[9] أن الإيجاب العقلي يلزم بثلاثة أشياء: واجب، وممكن، وممتنعٍ. فموت العبد في الأجل المسمى هو من باب الواجب، وموته قبل المسمى هو من باب الممكن، وموته بعد المسمى هو من باب الممتنع. فالأجل الممكن هو[10] أجل مقضيّ من الله ممكنا لا واجبا كالمسمى، بل هو سبحانه قضى أن يكون ممكنا. والعبد ممكَّن من تقديمه وتأخيره، فلا يؤخر الله هذه[11] النفسَ إذا جاء أجلها، لأنه كذا قضى بل يؤخرها بشرط الطاعة، لأنه كذا قضى وكذا أخبر عن نفسه. ولهذا قال: ويؤخركم، ولم يقل: ويؤخر الأجل، فافهم ذلك جيدا. فعاد الأول إلى العبد، لأنه من كسبه بإذن ربه، إذ هكذا قضى الرب. وعاد الثاني وهو المسمى إلى الرب فلا يؤخَّر بحسن الكسب. وتلخيص ذلك أن الأول مقضيّ بشرط، فمتى وقع الشرط وقع الأجل المشروط وقضي بحسب الشرط والوعيد. والثاني غير مشروط، فهو[12] لا يتأخر ولا يتغير. ولو لم / تكن النفسُ تؤخَّر إلى بعد هذا الأجل المشروط لَما حسن أن يَمُنَّ علينا في الدنيا به، ولما جاز أن يعلّق الوعد منه بوقوع العبادة منا ويجعلَ فعله وراء فعلنا. [٤٦٩و]

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/١٠-١١).

[2] وهي هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

[3] ك - بطاعته وأجل الله لا يؤخر، صح هـ.

[4] ش - بطاعته وأجل الله لا يؤخر بوجه وذلك لأن المسمى هو أجل الله فهو على مقتضى.

[5] ش + بوجه وذلك لأن المسمى هو أجل الله فهو على مقتضى؛ ك - حكمة الرب وغير المسمى هو أجل العبد فهو جزاء مقتضى، صح هـ.

[6] لعل المؤلف يشير إلى تفسير الآية ١١ من سورة المنافقين.

[7] لعله يشير إلى تفسير الآية ٢ من سورة الأنعام.

[8] ك ن: الأنعام ليحقق عندك.

[9] ش: وافهم.

[10] ن + من.

[11] ن: هذا.

[12] ن: فهؤلاء.

فافقه كيف جعل الله العبد قادرا بأعماله أن يُنقّص عمره المقسوم وأن يُكمِله إلى نهاية الأجل المحتوم.[١] ثم انظر كيف مع كونه يفوز بالحياة إلى المسمى يَسْعَد بالطاعة ويَخرج إلى الجنة، والآخر[٢] مع كونه يُحْرَم الحياة إلى المسمى يشقى بالمعصية، ويدخل إلى النار. ثم تأمل كيف جعل الله الأمر في الحالين راجعا إلى اختيار الإنسان وموقوفا على مشيئته في سائر الأحيان، وكيف مكّنه من استدراك ما يفْرُط منه بالتوبة والإحسان. ولو لم يكن كذلك لَما نهى عن الكفر وأمر بالإيمان، ولا أفادت العقولُ والأذهان، ولبطلت فائدة القرآن، وذهبت حكمة إيجاد الأكوان. ولمّا كان من لا يعلم أن الأجل ينقسم إلى قسمين: مسمى وغير مسمى، يعتقد أن الأجل واحد أشكل عليه، لأنه لا يعلم. ولهذا قال في آخر الآية: لو كنتم تعلمون، لأنه إنما يعلم ذلك العلماءُ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصٰبعهم فى ءاذانهم، كراهة أن يسمعوا. **واستغشوا ثيابهم**، لئلا يُبصروا الداعي، أي استغشوا ثيابهم جعلوا الثياب تُغشّيهم، أي تستر منهم غير ما هو مستور بالثوب وهو الوجه. وقيل: إنما أراد بالآية أنهم كانوا يجعلون على الأصابع كما لو جعل أحدنا على إصبعه شيئا من ثوبه أو كُمّه يغشّيها به ثم يضعها في أذنه. وذلك مما يوجب له أن لا يسمع أَلْبَتَّةَ، لأنه يسدّ الأذن بذلك سدّا محكَما. والأول هو المراد. ثم قال: **وأصروا**، أي بقلوبهم.[٣] **واستكبروا استكبارا**، أي بألسنتهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾

ثم قال:[٤] **ثم إنى دعوتهم جهارا**. لمّا تقدم إخباره بأنه كلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم عرّفنا بقوله: "ثم" إنه مع كون أصابعهم في آذانهم دعاهم أيضا،

---

[١] ش: المختوم.

[٢] ك - مع كونه يفوز بالحياة إلى المسمى يسعد بالطاعة ويخرج إلى الجنة والآخر، صح هـ.

[٣] ك - أي بقلوبهم، صح هـ.

[٤] ن - ثم قال.

فلزم أن يكون جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم، الدعاء إسرارا. يقال: سارّه إذا جعل فمه عند أذنه، أي ساره في أذنه. فقال نوح عليه السلام قولا يدل على أنهم بعد ما جعلوا أصابعهم في آذانهم دعاهم أيضا جهارا مع كون الأصابع في الآذان. ثم أعلن لهم الدعاءَ، وكان الإعلان إسرارا في الآذان، أي إنه صاح في، ءاذانهم، كأنه قال: وأسررت لهم الإعلان إسرارا في آذانهم.[1] ولهذا قال: ثم، بعد "ثم"، والمراد أنه على طريق التمثيل والإعياء[2] في الدعاء بكل صورة. ولذلك دعا عليهم لمّا رأى منهم مع فعله معهم. وظاهر اللفظ يعطي أنه بدأ فدعاهم سرّا أولا، ثم جهرا مع إصرارهم، ثم سرّا وجهرا معا. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾

يرسل السماء عليكم مدرارا، الدُّرور اتّباع الشيء بالشيء. وقيل: خرج عمر يستسقي فما زاد على الاستغفار. ويمددكم بأموٰل وبنين. ويجعل لكم جنّٰت ويجعل لكم أنهٰرا.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

ما لكم لا ترجون، في المستقبل فضلا عن الحال، لله وقارا، توقيرُ الرسول توقير للمرسِل وبالعكس. وأصل الوقار ثبوت ما به يكون الشيء عظيما من الحلم والعلم الذي يمتنع معه الخرق. ومنه الوَقْر في الأذن وهو الثقل، لكنه ههنا ثقل التعظيم. فلثبوت العظمة في النفس سمِّيت توقيرا بمعنى تعظيما. فقوله: وقارا، بمعنى توقيرا. وعُدل به للوزان. وذكر الرَّجاء بمعنى أن الإنسان قد لا يتوب في الحالة [٤٦٩ظ] الراهنة، ولكنه ينوي التوبة ويرجو وقوعَها تعظيما لله. فهؤلاء كانوا على / حالة من المخالفة والمجاهرة بالخطايا لا يُوقِّرون الله سبحانه بترك مخالفته. ومع هذا كانوا لا يرجون من أنفسهم توقيرا لبارئهم مع علمهم أنه خلقهم في أطوار. فهذا معنى قوله: وقد خلقكم أطوارا، طَوْرا عَلقةً، وطورا مضغةً، وطورا عِظاما.[3] ولا شك أن العلم

[1] ش – الآذان أي أنه صاح في ءاذانهم كأنه قال وأسررت لهم الإعلان إسرارا في آذانهم.

[2] ش ك: والإغياء.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ (سورة المؤمنون، ١٤/٢٣).

بأن الله تعالىٰ خلق الإنسان ولو في طور واحد من هذه كافٍ بإيجاب التوقير له سبحانه فلا يُعْصَى. فإن لم يُوقّره العبد بل عصاه في الحالة الراهنة ميلا إلى الهوى، فلا شك أن العلم يوجب عليه التوبة والتقوى ليوقر خالقه الذي هذه صفته في المستقبل. فإن لم يَنوِ التوبة فهذا هو الذي لم يُوقّره؛ ولا رجا أن يوقّره. وهذا هو الذي أهلك نفسه واستحق الاستئصال من ربه، لأن الله إنما يؤخره ليتوب ويرجعَ. فإذا لم تُرْجَ له توبةٌ فلا حكمة في تأخيره إلا إن أراد الله زيادة إثمه، كقوله: إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا.[1]

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾

ثم ذكرهم بنِعَمه سبحانه مما يشاهدونه عيانا فقال: ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوٰت طباقا.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾

وجعل القمر فيهن نورا، لأن[2] نوره من نور الشمس. وجعل الشمس سرٰجا.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾

والله أنبتكم من الأرض نباتا، أي كالنبات، لقوله: كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ،[3] ولهذا لم يقل: إنباتا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾

ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا، ثانيا.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾

فهذا الكلام وأمثاله قاله لهم.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾

فلما أصروا واستكبروا كما تقدم، قال نوح: رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا. هذا يُعطي وجوب الطاعة وزيادة الاكتساب من الخيرات لمن آتاه الله

[1] سورة آل عمران، ١٧٨/٣.

[2] جميع النسخ: لأنه.

[3] ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (سورة الزخرف، ١١/٤٣). وانظر أيضا: سورة الروم، ١٩/٣٠.

مالا وولدا. فإن لم يفعل فهو من قوم نوح وإن كان في زمننا هذا، لأن الله تعالى إنما جعل لهم ذلك ليزدادوا به كسبا من الخير، فازدادوا به خسارةً. أي هؤلاء اتبعوا طريقةَ أولئك وإن لم يكونوا لهم سادة أو قادة بل هم على منهج المذمومين فاتبعوهم. ومكروا، بأنبيائهم وهو مطلق، مكرا كبارا، أي كبيرا مثل عُجاب وعُجّاب[1] بالتخفيف والتثقيل.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾

وقالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن ودا، وكان لكلب، ولا سواعا، وكان لهمدان، ولا يغوث، وكان لمَذحِج، ويعوق، لكنانة، ونسرا، لحِمْيَر.

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

وقد أضلوا، هؤلاء، كثيرا، وهذا كقوله: إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ،[2] وإن كان عبّادها أضلوا أنفسهم بها. ويحتمل أن يكون الإضلال منسوبا إلى القائلين: لَا تَذَرُنَّ.[3] ويحتمل أن يكون إلى المتبوعين، ويحتمل أن يكون إلى الجميع. ثم عطف على قوله: قَالَ نُوحٌ،[4] قولَه: ولا تزد، بمعنى وقال: لا تزد الظّٰلمين إلا ضلٰلا، والدعاء على المتبوع والتابع. ويحتمل أن تقدير الكلام: وزِدِ المؤمنين إيمانا ولا تزدِ الظالمين إلا ضلالا؛[5] لأن من زادته النعمة شكرا زاده المنعم إيمانا. وهذه الزيادة هي النعمة الكبرى، لأنها نعمة توجب النعمة[6] كما أن زيادة الضلال نقمة توجب النقمة. ثم أخبر الله سبحانه أنه لم يغرقهم إلا بما هو من أنفسهم، فقال: مما خطيٓـٰٔتهم، أي مما عظمت خطاياهم، أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا، لا من الإغراق في الدنيا ولا من الإحراق في الأخرى.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

---

١ ك: وعجائب.

٢ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٣٥-٣٦).

٣ من الآية السابقة.

٤ الآية ٢١ من هذه السورة.

٥ ش – والدعاء على المتبوع والتابع ويحتمل أن تقدير الكلام وزد المؤمنين إيمانا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا، صح هـ؛ ن: إضلالا.

٦ ن: النقمة.

وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكٰفرين ديارا، يقال: ما في الدار ديار، وأصله دَيْوار، وهي فَيْعال قُلبت الواو ياءً وأدغمت في الأخرى، وهو من الدَّور ومنه الدَّوَران. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. هذا تعليل لجواز[1] إهلاك أطفالهم الذين إنما خلقهم الله من أجل الآباء زيادة في تعذيب / الآباء، لقوله: [٤٧٠و] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾.[2] وهذا العذاب بصُوَر متعددة يفقهها المتأملُ.

فإن قيل: كيف جاز لنوح أن يدعوَ على قومه؟ فالجواب أنه لمّا أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن[3] ووعده بإغراقهم قال ذلك متمما لمراد الله بأعدائه. وأما نوحٌ فلم يَكفر له والد ولا والدة من آدم إليه، ولهذا قال: رب اغفر لى ولوٰلدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا، خاصة، وللمؤمنين والمؤمنٰت، في كل زمن. ولا تزد الظٰلمين إلا تبارا، تقدم،[4] وهو من قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾.[5]

---

١ ن: لحيوان.

٢ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٥).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة هود، ١١/٣٦).

٤ لعل المؤلف يشير إلى تفسير الآية ١٣٩ من سورة الأعراف. وانظر أيضا: الآية ٧ من سورة الإسراء.

٥ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٣٨-١٣٩).

سورة الجنّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾

قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن، هذا يدل على استماع منهم هم،[1] لا على أن الرسول أُرسل إليهم. وهؤلاء النفر هم الذين أخبر الله عنهم بقوله: وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ،[2] وتمامه. ولهذا قال الله مخبرا له: قل أوحى إليّ، لأنه عليه السلام أوحي إليه هذا اللفظُ عن الجن. فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا، أي قالوا ذلك لقومهم.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾

ثم وصفوه بقولهم: يهدى إلى الرشد فئامنا به ولن نشرك بربنا أحدا.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

وأنه تعٰلى جد ربنا، الجد سعادة المرء وسلطانه الذي يُعَظَّم به. فالجد ههنا هو من باب التعظيم والتنزيه له سبحانه عما جاء بعده من قوله: ما اتخذ صٰحبة ولا ولدا.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾

وأنه كان يقول سفيهنا، هو إشارة إلى كل قائل بالصاحبة والولد،[3] على الله شططا، بعيدا عن الحق في أفهام العقلاء من الخلق، ومنه شطّت الدار.[4]

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

وأنا ظننا، أي من قبل الإيمان، لأنهم كانوا نصارى، أن لن تقول الإنس والجن، من أصحاب هذه المقالة، على الله كذبا، أي بل ظننا ذلك حقا.

---

[1] ن: وهم.

[2] ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف، ٢٩/٤٦).

[3] ش – هو إشارة إلى كل قائل بالصاحبة والولد، صح هـ.

[4] شَطَّت داره: أي بَعُدت. وشط عليه في حكمه: جار في قضيته (لسان العرب، «شطط»).

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾

ومن تمام كلام الجن: **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن**، كما يعوذ المؤمنون بالله. والاستعاذة الاحتراز والاعتصام مما يخاف منه. فمعنى الآية أن هؤلاء أخبروا أن رجالا من الإنس كانوا يعبدون الجن فيعوذون بهم، لأن العابد يعوذ بالمعبود مما يخافه. وقوله: **فزادوهم**، أي الجنُّ زادوا الإنس المستعيذين بهم، **رهقا**، لُحوقا بما يخافونه، أي زادهم لحوقا وقربا مما طلبوا منه البعد[1] بالاستعاذة. والمراد أن العائذ زاد نفسه ونسب الزيادة إلى الجن، كقوله: فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ.[2] والسورة لا تزيد، وإنما هم ازدادوا بها. وإيضاح المعنى أن هؤلاء الإنس كانوا قد فعلوا من السيئات ما ألحقهم بما يكرهونه مما يستعاذ منه. فلمّا عاذوا منه بالجن دون الله كانت استعاذتهم بالجن كسبا ثانيا أردى مما كسبوه[3] أوّلا فازدادوا بلا شك. فاللحوق الأول هو جزاء كسبهم أولا إذ خرجوا عن طاعة الله. والزيادة منه ثانيا هي جزاء كسبهم ثانيا وهو أن عاذوا بالجن دون الله، لأن الإنسان إنما يعوذ بمعبوده الذي يعتقد أنه ينقذه[4] ويمنعه مما يكرهه ويضره.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

ومن جملة كلام الجن لقومهم: **وأنهم**، أي وأن رجالا من الإنس، **ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا**، أي رسولا من بعد موسى. وبين ذلك بقوله عنهم: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ،[5] الآية. فليس المراد هھنا ما قيل من بعث الأجساد.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾

وأنّا لمسنا السماء، بمعنى طلبنا. يقال: التمست من فلان حاجة، وهي استعارة في الكلام، مأخوذة من لمس الأجسام[6] بالحاسة. فإذا قيل: التمس الأمر،[7] أي طلب أن يحوزه

[1] ش: العبد.
[2] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٤-١٢٥).
[3] ش: مما اكتسبوه.
[4] ش ك: ينقضه.
[5] ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/٣٠).
[6] ن: الأجساد.
[7] ن - الأمر.

ويصلَ إليه كما يصلُ اللامس إلى الملموس. والمعنى ههنا، لمسنا، أي طلبنا أخبار السماء بالسمع. فوجدنٰها ملئت حرسا شديدا وشهبا، أي بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾

وأنا كنا نقعد / منها مقٰعد للسمع، وافقه قوله: منها، ولم يقل: فيها، فهم كانوا [٤٧٠ظ]
يقعدون في مقاعدَ لأجل السمع يسمعون من الملأ الأعلى[1] فيوحونه إلى أوليائهم إضلالا لهم وبهم،[2] إذ هذه صفة الشياطين، أعني الإضلال. وهذا كما كان يفعل الكَهَنَة. ومن يتحيل على الإخبار ببعض ما سيكون ليتملك التابعُ له ويستعبده[3] في مأربه، فقُطع ذلك عن الجن. فمن يستمع الآن يجد له شهابا، أرصد له إرصادا. فعدل به للوزان فقال: رصدا، وليس المراد ما تراه من انقضاض[4] الشهب. فلا خلاف أن ذلك قد كان قبل النبي عليه السلام. وإنما ذكر الشهاب على طريق التمثيل للبشر بما يشاهدونه، مع احتمال أن بعض الشهب التي كانت من قبل قد أُرصدت لهم من بعدُ.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾

وأنا لا ندرى، أي لا[5] ندري من أنفسنا، أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وإنما كنا ندري ما ندريه من ذلك لما كُنّا قبل بعثة هذا الرسول نَقعد من السماء في مقاعد. وأما الآن فقد مُنع ذلك.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾

وأنا منا الصٰلحون ومنا دون ذٰلك، أي في الصلاح. ولهذا بعده: كنا طرائق، أي في طرائق وهي جمع طريقة، وهي الجهة المستمرة. أصلها من الطريق[6] الموصل إلى المطلوب لسالكه، إذ كل سالك لا بد له من طريق يسلك فيه بجسمه، وطريقةٍ يسلك فيها[7] بعقله ونفسه. وقوله: قددا، القَدّ هو الفصل، أي كل فرقة لها طريقة مقدودة

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (سورة الأنعام، ١١٢/٦).

[3] ك: ويستبعده.

[4] انقضّ: تصدّع ولم يقع بعدُ، أي لم يسقط (تاج العروس للزبيدي، «قضض»).

[5] ن - أي لا.

[6] ش ك - الطريق.

[7] ن - بجسمه وطريقة يسلك فيها.

مفصولة تُباين الأخرى. والقِدّ والقدد ما قُدّ[1] من جلد واحد يشبه بعضها بعضا. لكن كل فئة في طريقة من الأعلى إلى الأدنى.[2] وهذا يشبه حال المكتسبين من بني آدم. وفي هذا التعريف تعظيم للرسول ولما جاء به من الرسالة، وأن الجن الذين كانوا يَصعدون إلى السماء رُجموا بالشُّهُب، فكيف حال الإنس. ومن فوائد هذا التعريف أنه يعطي مخالفة من لا يعتقد الجن كاليهود وأمثالهم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

وأنا ظننا، هذا من باب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.[3] والمراد به ما ترجّح من الظن الذي إنما يبني عليه صاحبه كما يَبني على اليقين، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك. وقد بيّنّاه في موضعه.[4] وقولهم: **أن لن نعجز الله فى الأرض**، أي كما إذا أراد نصر رسوله وتُبّاعهم، وإن كان أمرُنا وبأسنا عظيما، وقد كان لنا علوم مأخوذة من السماء. وقولهم: **ولن نعجزه هربا**، أي لو لم يكن قصدنا الانتصارَ على رسله بل أن لا ينالنا من بأسهم فيكونَ[5] هَرَبُنا قد أعجز الرسل عن الانتقام منا، أي هذا أيضا مما ترجح في ظنوننا أنا لا نقدر عليه، فلم يَسَعنا إلا الإيمان.

ولهذا قال[6] بعده: **وأنا لما سمعنا الهدى ءامنا به**. ومن تمام كلامهم: **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا**، نقصا من حسناته، **ولا رهقا**، لحوقا بسيئاته، لأن الإيمان يَجُبّ ما قبله.[7] والرَّهَق اللحوق، ومنه راهق الغلام إذا لحق حالَ الرجال. وقد بيّنّاه في [سورة] الكهف.[8] وقد تضمنت الآيات أن الجن لمّا سمعوا القرآن آمنوا به واعترفوا بعجزهم،

---

١ ك - والقد والقدد ما قُدّ، صح هـ | القَدّ: قطعُ الجلد وشقُّ الثوب ونحوِ ذلك. والقِدّ: الشيء المقدود بعينه (لسان العرب، «قدد»).

٢ ن: من أعلى إلى أدنى.

٣ سورة البقرة، ٤٦/٢.

٤ لعل المؤلف يشير إلى تفسير الآية ٤٦ من سورة البقرة.

٥ ش ك + بأسنا.

٦ ن - قال.

٧ عن ابن شِمَاسَة أن عمرو بن العاص قال: لما ألقى الله عز وجل في قلبي الإسلام قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعني، فبسط يده إليّ فقلت: لا أبايعك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدم من ذنبي قال: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عمرو! أما علمت أن الهجرة تجبّ ما قبلها من الذنوب، يا عمرو! أما علمت أن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الذنوب» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٠٥/٤؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ١٢٣/٩).

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ (سورة الكهف، ٧٣/١٨).

والإنس أحق بذلك. وفي قوله: لما سمعنا، آمنا تنبيهٌ على وجوب العمل في أول حين من تحقق العلم به. وذلك لئلا يقع للشيطان[١] تدبير إن حصل التراخي.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

وأنا منا المسلمون ومنا القُسطون، العادلون عن الحق، والمقسطون العادلون إلى الحق. وهؤلاء قسطوا بقولهم: إن لله صاحبة وولدا. وهذا آخر كلام الجن. ثم قال الله تعالى: فمن أسلم فأولٰئك تحروا رشدا، التحري طلب / الشيء والقصدُ له دون غيره [٤٧١و] حَسَب الإمكان. وقوله: وأما القُسطون فكانوا لجهنم حطبا.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

وألّو استقْموا على الطريقة، أي الطريقة الموصلة لهم إلى رضانا منهم، وهي ما أُمروا به. والدليل على أن هذا من كلام الله لا حكاية عنهم قوله: لأسقينْهم ماء غدقا، كثيرا. يقال: سقيته لشفته[٢] وأسقيته لماشيته وأرضه، وحيث يكون الماء كثيرا فالبركة والرزق هنالك. وههنا[٣] يريد بالماء الغيث الذي به حياة البلاد والعباد. وهذا بيِّن في التوراة عند قوله: إن حفظتم وصاياي وحكمتم بأحكامي أنزلت مطركم في وقته، فتُخرج الأرض عُشْبها وكل شجر ثمره.[٤]

وقوله: لنفتنهم فيه، معناه لنختبرهم فيما آتيناهم من الرزق الذي سببه الماء، هل يتصدقون منه أو يُسرفون فيه، وهل يشكرون أم يكفرون؟ فإن المستقيم ممتحن بالنِّعَم ليشكر، وغير المستقيم ممتحَن بالنِّقَم ليصبر. فشكر هذا على النعم يزيد في حسناته، وصبر الآخر على النقَم يكفّر من سيّئاته. و[هذا] لا يعارض بالأنبياء كأيوب ويوسف. فإن الله تعالى علّم عباده بأقواله للأنبياء وبأفعاله معهم؛ على أننا قد أوضحنا ذلك في مواضعه. واعلم أن المفتون هو المختبَر بتكليفه الانصرافَ عما تدعوه نفسُه إليه

---

١ ن: للشياطين.

٢ ش: لشقته.

٣ ك: وهنا.

٤ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها أعطي مطركم في حينه، وتعطي الأرض غَلّتَها، وتعطي أشجار الحقل أثمارها» (اللاويين ٢٧/٣-٤). وانظر أيضا: التثنية ١١/١٣-١٥.

من إيثار المشتهَى على المرتضَى في الحكمة، وفي ذلك المحنة الشديدة. والمثوبة هي[1] على قدر الصبر فيما تدعو إليه الشهوة، والاستقامةُ لا تطلق على طريقة الشر -كما قال بعضهم- وإنما على طريقة الخير وهي الشريعة. وأما الشرير إذا استقام على شرّه فقد ازداد ميلا عن الاستقامة. فعرّفَنا الله أنه إذا أثابهم في الدنيا على استقامتهم إنما يثيبهم فيها بفتنة يستحقون بالانصراف عنها ثواب الآخرة، فتحصل حينئذ لهم الدنيا والآخرة. وكذلك غير المستقيم مفتون أيضا بما يكفّر عنه السيّئات. فإذا صبر ورجع إلى الله حصلت له الآخرة الصالحة. وهذا جميعه مذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.[2] وحذف ذكر الثواب لِما دل عليه بقوله: **ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا**، لأنه يلزم أنّ من لا يعرض له ضد ذلك. وقوله: **صعدا**، أي صاعدا وعدل به للوِزان. والمراد به[3] زائدا أبدا، وهو من الصعود والارتفاع. ويقال: تصعَّدني هذا الأمرُ، أي شَقّ عليّ، والصُّعود العقبة الشاقّة. ويجب أن تعلم أن المعرض عن الله في الدنيا يَجزيه الله وصفه في الآخرة. وإذا[4] أنكر ذلك قيل له:[5] أتنكر إياك، فإن الصفة لا تقوم إلا بموصوفها؟ فعذابه معه أبدا متزيدا صاعدا في نار البُعد. وتزيده بالدوام[6] كتزيّد الحديد إذا طال مكثُه في النار حرارة وإن كانت النار يسيرة.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

ولمّا نفى الإعراض نفى بعده الشرك فقال: **وأن المسْجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا**. ويحتمل أن يكون نظم الآية بما قبلها يعطي أنه لمّا ذكر الذكر في الأولى[7] دل على أفضله وهو الصلاة في الثانية، فدل على أفضل المواضع له وأولاها به وقال لكل داع: **فلا تدعوا**، ولهذا لم يقل: فلا تدع. ولهذا نبّه على حال المنفرد في بيته وإن كان مصليا فقال: **وأنه لما قام عبد الله**، أي الذي يقوم لعبادة ربه، ولهذا قال: **يدعوه**؛ وقوله عن الجن: **كادوا يكونون عليه لِبَدًا**، أي متراكمين على قلبه. ومنه اللُّبادة.[8]

---

[1] ن – هي.

[2] سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.

[3] ن – به.

[4] ن: فإذا.

[5] ش + قيل.

[6] ش ك: في الدوام.

[7] أي في الآية السابقة.

[8] جميع النسخ: اللباد. | اللبادة: ما يلبس من اللبود للوقاية من المطر والبرد (المعجم الوسيط، «لبد»).

وهو إشارة إلى ما يعرض من الأفكار والوساوس والكسل وغيره مما يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة. فكل ذلك من الشيطان، إذ هذا وصفه ومراده، وليس المراد بعداوة الشيطان إلا البعدَ من مراده بنا، لأن ذاته لا بد لها من صفات. فنهى الله عن الاتصاف بها وجعل / اسم الشيطان جامعا لذلك كله. [٤٧١ظ]

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾

ثم بيّن أن الإخلاص ينفي ذلك كله بقوله: قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا. ومن قال: إنما أراد بالعبد[١] ههنا محمدا عليه السلام، وإنما[٢] الكفار كادوا يكونون عليه لبدا ليقتلوه، أو المؤمنون من الجن والإنس ليسمعوا[٣] القرآن فذلك تأويل بعيد. ولهذا بعد الإخبار عن العبد المكنيّ به عن الإنسان جاء الكلام بصورة الأمر للرسول[٤] بقوله تعالى له: قل إني لا أملك لكم ضرا، من ضلال وغيره إن أراد الله بكم رشدا، ولا رشدا، إن أراد بكم ضلالا عقابا لكم على معاصيكم.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾

قل إني لن يجيرني من الله، أي من عذابه، أحد، إن عصيته. ولن أجد من دونه ملتحدا، ملجأ وهو من اللحد، أي أختفي[٥] به من العقاب. وتقديره: فكيف أدفع عنكم ما لا أقدر أن أدفعه عن نفسي؟ ويلزم عن الآية المتقدمة أنني إذا كنت لا أملك لكم ضرا، فكيف تملكون لي ضرا أو رَشَدا.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥﴾

ثم نسق على قوله: لَآ أَمْلِكُ،[٦] [قوله:] إلا بلْغا، فإن الله ملّكه البلاغَ وجعل الفعل إليه بقوله: وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ،[٧] أي فأنت خُنْتَ العباد لا نحن. وقوله: من الله ورسْلته، أي

---

١ انظر: الآية السابقة.

٢ ك: وإن.

٣ ش: ليستمعون.

٤ ن - للرسول.

٥ ن: أي احتفى.

٦ الآية ٢١ من هذه السورة.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (سورة المائدة، ٦٧/٥).

ومن رسالاته التي جاءت بها أنبياؤه[1] في كل زمن رسول مما أُوحى إليّ نَبؤُه.[2] ولهذا بعده: ومن يعص الله ورسوله، أي في كل زمن وزمن،[3] فإن له نار جهنم خٰلدين فيها أبدا. والمعنى قل لهم: كيت وكيت. حتىٰ إذا رأوا ما يوعدون، تقديره علموا[4] في الدنيا أنا أزحنا الحجة وبيّنّا المحجة، ولكنهم استكبروا واستنصروا. ودل على هذا المقدر بقوله: فسيعلمون، أي في الدنيا، من أضعف ناصرا وأقل عددا، ولهذا بعده: قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا، وقتا ومدة.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ولمّا تبرأ من القدرة بقوله: لَآ أَمۡلِكُ،[5] ومن العلم بقوله: إِنۡ أَدۡرِىٓ،[6] جعل ذلك كله[7] لله[8] بقوله: عٰلم الغيب، أي ربي، ولهذا جاء مرفوعا. فلا يظهر علىٰ غيبه أحدا، وهذا كقوله: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ.[9] والاستثناء في الموضعين منقطع فإن غيبه سبحانه غير غيبهم؛ والجميع غيب وهو عالم به لكنه، لا يظهر علىٰ غيبه أحدا. والأنبياء لا يعلمون الغيب وإنما يوحَى إليهم فيتبعون الوحيَ وهو قوله: إلا، وهي[10] بمعنى لكن، من ارتضى من رسول، يريد كل رسول. و"مِن" ههنا لتبيين الجنس، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا، أي يحفظه ظاهرا من شياطين الإنس وباطنا من وساوس الجن. ليعلم، الله سبحانه، أن قد أبلغوا رسٰلٰت ربهم، فتثبّتت حجتُه بهم على عباده. قيل: ذكر العلم وأراد به المعلوم وهو بمنزلة قول القائل: "وقد عوتب على ما لم يكن منه ما علم الله مني ذلك" فينفي العلم لانتفاء المعلوم.

[معنى علم الغيب وإحاطة علم الله بكل شيء]

والمفهوم من الآية أن الرسل لا تعلم ما بين يديها ولا ما خلفها من قِصص الأمم الماضية مِن قبلُ، بل الله يوحي إليهم من ذلك ما يشاء. وأحاط بما لديهم، علما، وهو ما سيكون؛

[1] ك: أنبياء.
[2] ش: نبأه.
[3] ك - رسول مما أوحى إلي نبؤه ولهذا بعده ومن يعص الله ورسوله أي في كل زمن وزمن، صح هـ.
[4] ش: عملوا.
[5] الآية ٢١ من هذه السورة.
[6] من الآية السابقة.
[7] ك ن - كله.
[8] ن: الله.
[9] سورة البقرة، ٢/٢٥٥.
[10] ك ن: وهو.

ويلزم عن ذلك الإحاطةُ بما كان قبل أن كان، فلم يحتج إلى ذكره بل قال: وأحصىٰ كل شيء عددا. ومن ذلك[١] الرِّمال وهباء الذَّرّ؛ وكل[٢] ذلك أشياء متناهية في أنفسها. وإن لم تكن متناهية من جهة قدرتنا وعقولنا فذلك لعجزنا، لا[٣] لأنها أعني الأشياء المخلوقة غير متناهية. فكل مخلوق معلوم، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.[٤] وقد قيل في الإحاطة التي هي بمعنى العلم: إنها تشتمل على ما لا يتناهى. وهذا لا يصح في العبارة، لأن قولنا: يشتمل يعطي التناهي، وقولنا: لا يتناهى يعطي الاشتمال. ولكنْ ههنا مثلٌ أضربه لك وهو / أن تجعل[٥] العلم بمنزلة المرآة فهي تقبل ما لا نهاية له وتحيط به، فتكون [٤٧٢و] يد القدرة صالحة لما لا نهاية له. وكلما قابلت يد القدرة لمرآة العلم بشيء كان العلم محيطا به، إذ في قوة العلم الإحاطةُ على الدوام كما في يد القدرة الإيجادُ على الدوام، فحصل من قولنا: "المقدورات لا تتناهى" ما معناه القدرة لا تتناهى؛ وإلا فكلّ مقدور متناهٍ وكل معلوم محاطٌ به. وهذا كله مُستنبَطٌ من قوله تعالى: لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا.[٦] فكل ما هو شيء هو معلوم محاط به متناهٍ؛ والسِّوَى كله متناهٍ. فقد بطل قولُ من قال: إن البارئ تعالى لا يحيط بمعلوماته، لأن المحاط به متناهٍ، ومعلوماته لا تتناهى لأن قدرته لا تتناهى. فهذا قد[٧] كذّب نفسَه بلسانه. فكيف يقول: معلوماته ثم يقول: لا يحيط بها. وإنما وقع الغلط لجهلنا بمدلول العبارة، أو لكوننا نستعملها في غير موضعها، كما لا يصح أن يقال: هل يعلم العلم إياه، أو تحيط الذاتُ بإياها[٨] فتكون محيطة محاطةً، فلا مدخل للعبارة ههنا في باب التعريف. وإنما هنا أصل هو أن العلم صفة لازمة للذات. فلا نقول: هو غير الذات لأنه يكون زائدا عليها، ولا نقول: هو عين الذات إذ لو كان ذاتا لم يكن صفة؛ كما لا يقال: إن الطول والعَرْض عين الجسم، ولا [يقال] غير الجسم، بل صفة لازمة للجسم. ويصح أن يقال: هي عينه بوجه وغيره بوجه. وهنا وقع الغلط لاعتقاد أنها[٩] في أحد القولين من كل وجه، فافهم.

---

١ ك - الإحاطة بما كان قبل إن كان فلم يحتج إلى ذكره بل قال... كل شيء عددا ومن ذلك، صح هـ.

٢ ك ن: فكل.

٣ ش ك - لا.

٤ سورة الملك، ١٤/٦٧.

٥ ن: أن يجعل

٦ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ (سورة الطلاق، ١٢/٦٥).

٧ ك - قد، صح هـ.

٨ أي هل يعلم العلمُ العلمَ، أو هل تحيط الذاتُ بالذات.

٩ ن: لاعتقدا أنها.

ومن أعطى العقل حقه ولم يَقِفْ به دون حده لم يقع في هذه الوَرَطات وأمثالها، وحدّ العقل[١] الحق. ويمثّل[٢] هذا الغلط غلطُ من قال: إن الكامل[٣] يلزم أن يكون جاهلا ببعض الأمر وإلا يلزم أن يكون ناقصا. وكذلك يلزمه كل اسم وضده من الكذب والكفر والظلم. وهذا عين المحال بل حقيقة الاختلال، لأن الجهل والظلم صفاتُ قدْحٍ لا مدحٍ، والكمال لا يكون بالنقص. ولهذا قال تعالى: وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ.[٤]

وأضلُّ من هذا القائلِ مَن يقول: إن البارئ تعالى إنما أظهر الوجود ليرى ذاته في مرآة الأكوان،[٥] لأنه لم يكن يراها إلا بسيطةً. فلولا الوجود لفاتته فائدة التركيب. ولم يكن في الوجود أن[٦] لا وجود لئلا يكون فيه غيره، أعني العدم. فلزم إيجاد العالم ليكمُل وجود البارئ. هذا زبدة كلامه، يعني لزمه الإيجاد. وهذا من أعظم الغلط، لأن القادر المطلق لا يلزمه شيء ولا عليه أن يخلق ولا عليه أن لا يخلق، بل له أن يفعل و له[٧] أن لا يفعل كما بيّنّا في آخر سورة الكهف. وأما قوله: "أراد أن يرى ذاته في مرآة الأكوان" فهذا محض الهذيان، لأنه تعالى قبل الكون ومعه وبعده[٨] لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص. فهو الغني الكامل بذاته لا بمبدَعاته. ولو لم يكن كذلك للزمه الفقر والنقص قبل الإبداع، أو العبث بعده. والفقير الناقص أو العابث وإن لم يكن فقيرا ولا ناقصا لا يكون إلٰها. فتعالى الله في حد العقل حينئذ بلا شك. وإنما ذكرت هؤلاء الضالين في سورة سبإ، لأنهم يعبدون الجن.[٩] وهم بلا شك جن الإنس وشياطينهم يتسترون من أهل القرآن ويُضلون كلَّ ناقصِ الإيمان.

---

١ ن: الفعل.

٢ ن: ومثل.

٣ ن: قال بأن الكامل.

٤ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٠).

٥ ن: الألوان.

٦ ك – أن، صح هـ.

٧ ن – أن يفعل و له.

٨ ن: وبعده ومعه.

٩ جميع النسخ: في سورة الجن. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٤٠-٤١).

سورة المزّمّل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾

يٰأيها المزمل، الملتفّ في ثيابه. ومثله ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.[١] والغالب أنه كذلك عند النوم فناداه الله تعالى في هذه الحالة، كأنه بالمعنى يشير / إلى كل نائم متزمل ويقول له:[٢] قم، من [٤٧٢ظ] مَرقدِك إلى طاعة ربك. فجاء الخطاب للرسول مع جلالة قدره وقربه من ربه تحريضا لأمته وإعلاما لهم أنه لا أحد منهم يصل إلى رتبته. فكيف لا يتصف بصفته من قول الله تعالى له: **قم اليل**، يريد اسم الجنس، ومعناه قم في الليل، **إلا قليلا**، معناه أي من الليالي. وهذا لا يعطي[٣] أن يقول: كل ليلة ولا طولَ ليلة. فبين ذلك بقوله: **نصفه**، أي قم منه نصفه. وإذا لم نفهم من قوله أولا: **إلا قليلا**، ما قلناه لزم التناقض بقوله ثانيا: **أو انقص منه**، أي من النصف، **قليلا**، بدليل قوله بعده: **أو زد عليه**، فلا تكون الزيادة على الليل بل على نصفه. فافهم الإشكال، وافهم حلَّه متأنيا لتفقه حكمة هذه العبارة. وافهم كيف جعل هذه[٤] الزيادة والنقصان عائدةً إلى مراده واجتهاده، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب حتى يَمَلُّوا من العمل.

ورتل القرءان ترتيلا، الترتيل في القراءة الترسّل[٥] والتبيين بغير بغي. وكلام رَتَل، بكسر التاء وفتحها معا، أي مرتّل؛ وثَغْر[٦] رتل،[٧] إذا كان مستوى النبات وبين الأسنان فَرْج. فالمراد أن يكون بين الكلمتين مهلةٌ مّا بحيث تفهم واضحةً. وهذا مما يعطي أن كل ما أظهر المعنى وبيّنه للسامع من التأني والتلحين وغيره فهو ترتيل. وكلما زاد أو نقص[٨]

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ (سورة المدثر، ١/٧٤).

٢ ش – له.

٣ ن: وهذا يعطي.

٤ ن – هذه؛ ك – هذه، صح هـ.

٥ ش: والترسل.

٦ ن: وأخر. | الثغر: اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط. وقيل: هي الأسنان كلها كنّ في منابتها أو لم يكنّ. وقيل: هو مقدّم الأسنان (لسان العرب، «ثغر»).

٧ رَتَلٌ ورَتِلٌ: حَسَن التنضيد مُستوى النبات. وقيل: المُفَلَّج. وقيل: بين أَسنانه فُروج لا يركب بعضها بعضا. والرَّتَلُ بياض الأسنان وكثرة مائها، وربما قالوا: رجل رَتِلُ الأسنان (لسان العرب، «رتل»).

٨ ك: ونقص.

بحيث يغير المقصود من اللفظ، أعني فهْمَ المعنى فقد خرج عن الترتيل بقدر خروجه إلى ما هو ضد القصد به.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا، بمعنى عظيما، كقوله: ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.[١] وهي استعارة في الكلام كما تقول: فلان راجح العقل وثقيل الرأس؛ وتقول: يثْقل عليّ حمل إحسانك استكبارا[٢] واستعظاما له. ويحتمل أن يكون المعنى أنه لو وُزن بالقرآن أقوال أهل الأرض لرجح، لأن الإشارة إلى القرآن فأراد تعظيمه، كقوله: فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ.[٣] وقد تقدم الكلام في قيام الليل، وبعده: وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ،[٤] فلا يكون بين الكلام ما ليس منه. وأما الاحتمال فيحتمل أن يكون قوله: ثقيلا، أي على المكذبين، ولا يخرج عن كونه عائدا على القرآن خصوصا. وقد قال في هذه السورة: وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ،[٥] وهذا الكلام ثقيل عليهم إلى آخره. وقد قيل: يحتمل أن يكون القول الثقيل ما يسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من المكذبين ابتلاء من الله له بأقوالهم. ولهذا نبّهه على ذلك وأمره بالصبر عليه بقوله فيما سيأتي: وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ.[٦] وإنما قدّم القول الثقيل ولم يذكره مع المكذبين لئلا يبقى حجة لهم من أنهم مجبَرون على ذلك وليَعطِف على صبره ما يقولون ذكر الانتقام بما يذكرون. والأول أولى الصُّوَر.

ولهذا بعده: إن ناشئة اليل، أصلها من نَشَأَتْ تنشأ فهي ناشئة، وهو من قوله تعالى: ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ.[٧] والناشئة هي التي لم تكن فكانت. والمراد بها ههنا حالة كان ابتداء نشوئها في الليل ولم يكن في النهار. فناشئة الليل، هي أشد وطئا، من ناشئة النهار، وأقوم قيلا. والوطء خلاف الغِطاء وهي[٨] استعارة. والأقوم بوزن أفعل التعظيم وهو من المقوّم. والقيل القول. والمعنى أن الحالة التي تنشأ في الليل للمتعرض

---

١ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (سورة الأعراف، ١٨٧/٧).

٢ ك ن: استكثارا. وفي هامش ك: استكبارا.

٣ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (سورة القارعة، ١٠١/٦-٧).

٤ من الآية السابقة.

٥ الآية ١١ من هذه السورة.

٦ الآية ١٠ من هذه السورة.

٧ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٠/٢٩).

٨ ش ك: وهو.

لنفحات ربه أوطأ للقلب، وألين وأقوم في القول، وأحسن مما ينشأ في النهار. وذلك
لفراغ البال، وانقطاع / الأشغال، وجمع الخاطر، وفراغ القلب من أشغال الظاهر. وكل [٤٧٣و]
عبادة من صلاة، أو تلاوة، أو تفكر، أو تدبر، أو مثل ذلك مما يُنشئه الإنسان يقال له:
"ناشئ" ومؤنثه "ناشئة". فما كان في الليل نسب إليه، وما كان في النهار أضيف إليه.
وبين ذلك بقوله بعده: **إن لك فى النهار سبحا طويلا**، السبح التصرف والتقلب، وأصله
من السِّباحة تمثيلا للخطرات القلبية بالحركات الجسمية.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾

ثم عطف على قوله: قُمِ،[١] [قوله:] **واذكر اسم ربك وتبتل إليه**، بَتَلْتُ الشيء أَبْتِله
بالكسر بَتْلا إذا أبَنْتُه عن غيره، ولا يقال عن المرء: تَبَتَّلَ لكيت وكيت إلا إذا انقطع عن
جميع الشواغل من أجل أمر مّا.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾

واصبر علىٰ ما يقولون. هذا[٢] منفصل عما قبله من الكلام، وهو ههنا أمر مبتدأ
معطوف على أمرٍ آخر تقدم. **واهجرهم هجرا جميلا**، لا يلحظون منه ميلا إلى هوى
ومعاداة وبغضٍ، بل نصيحة وشَفَقَة، لأنه كان مع الهجر يَعظهم ويدعو لهم بالهدى
بلسانه ويتمناه بقلبه لهم. والهجر الجميل هو الذي لا يتوقع المهجور بعده مِن هاجره
سوءا، بل يعلم المهجور أنه هُجر بذنبه ولو رجع عنه لوُصل. فيكون الهجر سببا
للوصل فهو لَحْظ يتعلق بالمهجور لا بالهاجر، فهو جميل عند المهجور بلا شك.
وهذا هو عذاب البارئ لبعض عباده في الدنيا، كقوله تعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ
ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ.[٣] فالهَجْر الجميل حكمة بل رحمة.

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾

وذرنى والمكذبين أولى النعمة، من التنعم وقد تقدم.[٤] **ومهلهم قليلا**.

---

[١] الآية ٢ من هذه السورة.
[٢] ك - هذا، صح هـ.
[٣] سورة السجدة، ٢١/٣٢.
[٤] انظر: سورة الدخان، ٢٧/٤٤؛ وسورة الواقعة، ٨٩/٥٦.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾

إن لدينا أنكالا، النَّكْل القيد، **وجحيما، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما.**

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾

يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا، [الكثيب] التراب يؤخذ ما تحتَه ويهال عليه ما فوقَه. والكثيب الرمل المجتمع. ومهيل، مفعول، من قولك: هِلْتُ التراب إذا حرّكت أسفله فانسكب أعلاه. ويقال: مهيل ومهيول، كما يقال: مكيل ومكيول. وفي الحديث «كِيلُوا ولا تَهِيلوا».[1]

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾

فعصىٰ فرعون الرسول فأخذنٰه أخذا وبيلا، من الوبال، وهو الشدة. ولهذا يقال للوَخَم:[2] وبال.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾

فكيف تتقون، تَوْتَقُون، وهو من الوقاية والستر، أي فكيف تَقُون[3] أنفسكم، **إن كفرتم**، كما كفر فرعون ما استحقه[4] بكفره من العذاب، **يوما**، في يوم، **يجعل الولدٰن شيبا**، الشِّيب جمع أَشْيَب، فهو يُشيب الولدان قبل أن يصلوا إلى سن الشباب، فكيف حال غيرهم. وهذا من باب التعظيم له والتخويف به.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾

السماء منفطر به، في ذلك اليوم، ومثله: يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ،[5] و إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ.[6] **كان وعده مفعولا.**

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

إن هٰذه، الآياتِ المتلوّةَ عليكم، **تذكرة. فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه سبيلا**، لأنه قادر على الطاعة التي لو شاء لفعلها. وقد ندبه الله إليها، ورغبه فيها، وخوّفه مِن تركها،

١ مشارق الأنوار للقاضي عياض، ٢/٢٧٤.
٢ الوخم: الضرر (المعجم الوسيط، «وخم»).
٣ جميع النسخ: تقوا.
٤ ن: ما يستحقه.
٥ ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٢٥).
٦ سورة الانفطار، ٨٢/١.

وتواعده بالعذاب. وعلق الأمر بمشيئته هو أعني مشيئة الإنسان، وخاطبه بذلك، ولم يُعلِّق مشيئة الإنسان في هذه الآية بمشيئة البارئ لئلا يشتبه المقصود بالكلام. فجعل هذه الآية محكمة ليُفهَم بها التشابه. فقد بان أن الله[1] شاء أن يكون للعبد مشيئةٌ، وجعل استعمالها إلى العبد وأضافها إليه. فإن لم يشأ خيرا وشاء شرا أمده[2] الله بما شاء سبحانه مما شاء العبد وعاقبه بحق، لأن الله تعالى شاء لعبده أن يشاء. ولا تَفهم أنه ألزمه أن / لا يشاء إلا شيئا مخصوصا فقط، فذلك لا يقال له مشيئة. ومثاله لو قلت لصاحبك: [٤٧٣ظ] خذ ما شئت؛ فقد شئت له أن يشاء، وأذنتَ له بذلك، وجعلت المشيئة إليه فيما خيَّرتَه فيه؛ فالمشيئة له وإن كانت مجعولة له منك. ولا يصح أن يكون معنى قولك: خذ ما شئتَ بفتح التاء، وخذ[3] ما شئتُ بضمها، لأن ذلك منك رد عليك. فإذا كانت المشيئة قد جعلها الله للإنسان، وأوضح له المحجة بالقرآن، وأقام الحجة برسله في كل زمان فقد وَضَح السبيل وبطل القالُ والقيل. فمن شاء الأجود فإليه، ومن شاء غيره فعليه.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

إن ربك يعلم أنك تقوم أدنىٰ من ثلثى اليل ونصفه وثلثه، أي وتارة أدنى من نصفه وتارة أدنى من ثلثه. وهذا لا يدل على تحديد. والأدنى من الثلث يحتمل أقل ما يكون. وكل هذا لا يدل على فرض تقدم[4] ثم نُسخ، بل كان يقوم عليه السلام تعبدا وتقربا بالنوافل[5] بعد الفرائض، هو[6] وطائفة، لقوله: **وطائفة من الذين معك.**

[1] ك ن: بأن الله.

[2] ن: مده.

[3] ن: خذ.

[4] ن: تقوم.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببتُه كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به ويده التي يَبطش بها ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

[6] ك - هو.

والمراد من كان معه في ذلك الزمن. ويُحمل[١] أيضا على الإطلاق بما يفهم منه من كل تابع له في ذلك إلى يوم القيامة فهو معه. فهذا القيام لم يكن فرضا أولا ولا آخرا،[٢] أعني بقوله: قُمْ،[٣] بل جاء قوله: قُمْ، تخفيفا وإباحة وتخييرا كما إذا تأملته. وإذا لم يكن فرضا أولا ولا آخرا فقد بطل القول بالنسخ. **والله يقدّر اليل والنهار**، أي يعلم ما يفعل فيه بمقدار منه.

علم أن لن تحصوه، قياما، أي لن تستوعبوا الليل بالقيام لعجزكم عن ذلك. وهذا يدل على[٤] أنهم إنما كانوا يَرُومُون ذلك. وأضاف النهار إلى الليل لتقديره لهما سبحانه. ولهذا لم يقل: تُحْصُوهما. فإن قيل: لو لم يكن قد فرض عليهم أولا لَمَا حسُنَ أن يقول: **فتاب عليكم**؛ فالجواب أن من عَبَدَ الله عبادةً ثم تركها كان مستدعيا لمقت الله إن لم يتب[٥] عليه. فهذه التوبة ههنا هي كما بيّنّا في قوله تعالى: فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ.[٦] فافهم ذلك في موضعه.

وجعل قوله: **فاقرءوا ما تيسر من القرءان**، قُبَالَةَ ما فات من القيام. ولهذا ذكره بالفاء.[٧] ثم أقام عذر بعضهم وسكت عن الباقين ليبقى القيام مستحَبًا لأولئك ومسامَحا به لهؤلاء فقال:[٨] **علم أن سيكون منكم مرضىٰ وءاخرون يضربون فى الأرض**، يسافرون **يبتغون من فضل الله**، بهذا الشرط لا بالرقص واللهو. **وءاخرون يقٰتلون فى سبيل الله**، أي هم من المقاتِلة. وليس الكلام حين القتال وإن أعطى ظاهره ذلك. ولم يذكر غير هؤلاء لينبّه على فضيلة قيام الليل لمن لم يكن من هذه الأقسام المذكورة حَثًا لهم لا فرضا عليهم، لأنهم كانوا كَلّفوا أنفسَهم حالةً فخففها الله عليهم ولم يأمرهم بتركها جملة ولا بفعلها فريضة. وقوله: **فاقرءوا ما تيسر منه**، قيل: ليس ذلك بفرض أيضا، إذ لو كان كذلك لكان مستفاضا بين الأمة. وقيل: المراد به ما يُقرَأ في التهجد، كقوله: وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ.[٩] فذكر القراءة ههنا وقرنها بما تيسر تنبيها على ما تيسر مما هو معها من التهجد.

---

١ ك ن: ويحتمل.

٢ ك: ولا أخيرا.

٣ الآية ٢ من هذه السورة.

٤ ك ن – على.

٥ ن إن يتب.

٦ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (سورة البقرة، ١٨٧/٢).

٧ ك – وجعل قوله فاقرءوا ما تيسر من القرءان قبالة ما فات من القيام ولهذا ذكره بالفاء، صح هـ.

٨ ش – فقال.

٩ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء، ٧٩/١٧).

وليس كما قيل [من] أنه يُقرَأ في الفريضة لقوله بعده: وأقيموا الصلوٰة، وهي الفريضة، أعني هذه السبعة عشر[١] ركعة. والظاهر، أعني الراجح أن قوله: فاقرءوا، فرض عَطَف عليه [قوله:] وأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة وأقرِضوا الله قرضا حسنا، أي أقوالا وأفعالا.

وقوله: وما تقدموا لأنفسكم، أي بعد ذلك، من خير تجدوه عند الله، ليعرّفَنا أن ما سوى الفريضة إذا تركناه ليس علينا إثم. وإنما يفوتنا ثوابٌ / يُمكن كسبُه. وقوله: [٤٧٤و]
هو خيرا، أي هو بعينه، لكنه رجع خيرا مما قدمتموه في الدنيا ولو لم يكن فيه سوى أن هذا يفنى وذلك يبقى لكان خيرا، وقوله: وأعظمَ أجرا، أي أعظم مما تظنونه أو تتوهمونه. وقوله: واستغفروا الله، أي سواء قمتم أو لم تقوموا نافلة، لأن سيآتكم أكثر من حسناتكم على كل تقدير. إن الله غفور رحيم، فإذا لم تقدروا على أن تذْهبُوا الأفعالَ بالأفعال فأَذْهبُوها بالأقوال التي هي[٢] ههنا السؤال.[٣]

---

[١] ش ك: عشرة.
[٢] ش – هي.
[٣] أي طلب المغفرة من الله تعالى.

سورة المدّثّر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾

يأيها المدثر، جعل عليه من الدّثار[1] والقُماش زيادةً على ما كان عليه خيفةَ البرد، وهو كما قدمنا في المزّمل، أعني عند النوم، **قم فأنذر**. كأنه قال: يا أيها الطالب صرْفَ الأذى بالدثار إضْرِفْه بالقيام للإنذار. وهذا الأمر الخاص به صلى الله عليه وسلم هو أمر عامٌ لكل منتسب إليه: أن يبدأ فينذر نفسه، ثم عشيرته، ثم من استطاع. **وربَّك فكبّر**، خصوصُه في الصلاة وعمومه التعظيم، أي لربك وحده لا لما يكبّرونه ويعظّمونه من معبوداتهم. **وثيابك فطهر، والرجز فاهجر**، يريد ما يوجب الرجزَ في القلب. فإذا هجر السبب فقد هجر المسبَّب.[2] ومنه: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ،[3] أي العذاب الذي أوجب الرجز في القلوب بالخوف منه. فهو رَجفة تَحْدُث في القلب لتوقُّع ما يخاف من جزاء الذنب عاجلا أو آجلا. وقد بينا ذلك في موضعه.[4]

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾

ولا تمنن، تقطع. لمّا أمره بالقيام والإنذار والتكبير والتطهير وغير ذلك أمره بالاستمرار ليستمر له جزاء العمل إذا قال أو فعل، وهو قوله: **تستكثر**، أي تستكثر من الخير منا جزاءً على العمل منك. ومنه قوله:[5] لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ.[6] ثم قال له بعد الوعد: **ولربك فاصبر**، أي لا يكن صبرك للأجر الموعود منا، بل لأجلنا يجب أن يكون صبرك على امتثال أوامرنا، أي ليكن صبرُك لأجلنا إذا صبرتَ عما تُحب

---

[1] الدِّثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشِّعارِ (لسان العرب، «دثر»).

[2] ن + فقد هجر المسبب.

[3] ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ (سورة الأعراف، ١٣٤/٧).

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ (سورة البقرة، ٥٩/٢). وانظر أيضا: سورة الأعراف، ١٣٤/٧.

[5] ش – تستكثر أي تستكثر من الخير منا جزاء على العمل منك ومنه قوله، صح هـ.

[6] ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٨/٧).

أو على ما تكره إذا نزل بك، أو تعرضت إليه كهجر النوم ومداومة الصوم. والسبب الذي يَقْوَى به الصبر هو داعي العقل والتمسكُ به دون داعي الطبع، لأن الأول يدعو إلى التقوى، والثاني يدعو إلى الهوى. فالأول كالبصير والثاني كالأعمى، والمعنى اصبر على ما يقولون. فهذا خاصةٌ،[1] أي إلى أن يأتيك نصرُنا أو يأتيهم وعْدُنا. ولهذا بعْده: فإذا نقر في الناقور، ما يُنْقَر فيه للتصويت به، وهو فاعول من النَّقْر، ومثله حاطوم من الحطم. فذٰلك يومئذ يوم عسير. ولمّا[2] وجب أن يكون مع العسر يسر من وجه آخر قال بعده: على الكٰفرين غير يسير.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾

ذرني ومن خلقت، أي خلقته وحده، وحيدا، فذلك صفة المخلوق لا الخالق. والمراد في بطن الأم، لأن الخلق إنما كان هناك، لقوله: وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ إلى قوله: فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا.[3] فخلقه وحيدا في بطن أمه. وجعلت له مالا ممدودا، المال يقع على المواشي وغيرها، ويريد الكثير، كما يقال: ما مَدَّ البصرُ. وبنين شهودا، عليه بأن الله خلقه في[4] بطن أمه كما خلقهم، وهو من قوله تعالى: وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ،[5] الآية. ومهدت له تمهيدا، جعلت له أموره كالمهد الذي يُمهّد للطفل، فكفَرَ نعمتي. ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لِآيٰتنا عنيدا، معاندا. سأرهقه، سألحقه عذابا، صعودا، من قوله: يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا،[6] كما بيّنّاه، أي صاعدا لا يزال. فحذف ههنا ذكر العذاب، ودل عليه بصفته.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

---

١ ن: خاصه.

٢ ن: فلما.

٣ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ١٢/٢٣-١٤).

٤ ك ن - في.

٥ ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٢/٧).

٦ ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ (سورة الجن، ١٧/٧٢).

وبيّن أن ذلك العذاب بذنبه فقال: إنه فكر وقدر، بفكرته تقديرا يُصدّق عنده كفره. فقتل كيف قدر، بمعنى: قاتله الله[١] كيف قدر[٢] ما لا يصح تقديره في العقل / ولا تقوم [٤٧٤ظ] عليه حجة. وقوله ثانيا: ثم قتل كيف قدر، يحتمل أن يكون الأول بمعنى قاتله الله في الدنيا، والثاني بمعنى ثم قاتله الله في الأخرى. ويحتمل أنه لمّا قال: إن هٰذا إلا سحر يُؤْثَر، إن هٰذا إلا قول البشر، لعنه مرتين على القولين المقدَّرَيْن إعلاما أن هذا الكافر وأمثاله ملعون على كل صورة يعتقدها ويقدرها بفكرته فهو ملعون على تقديره كيف قدر. ويحتمل أنه كرر القتل، كما كرر قوله: أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ[٣] بمعنى الويل. فكرره تنبيها على استمراره واستحقاق دوامه، وهٰذا أولى وهو مناسب لما قدمناه أولا. وقوله: قدر، بمعنى حَسَب واعتقد. ثم نظر، يحتمل أنه من رؤية القلب فنسقه في المعنى على التفكر. ويحتمل أنه نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئا. والأول أولى، لأن الكلام عن القرآن. ثم عبس، من العبوس، وبَسَر، وهو من المبادرة بإظهار الكراهة في الوجه. يقال: بَسرَ في الأمر إذا عجل به قبل حينه، ومنه البُسْر لتعجيل حاله قبل الإرطاب.[٤] ثم أدبر، عن الإيمان. واستكبر، في نفسه.

فقال إن هٰذا إلا سحر يؤثر، يؤثره محمد مع علمه بأنه سحر، فهو يؤثره على الحق الذي هو دين آبائه، إن هٰذا إلا قول البشر.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

فقال الله تعالى: سأصليه سقر، الإصلاء الإلزام. وسقر، اسم من أسماء جهنم. يقال: سقرَتْه الشمس إذا آلمت دماغه. وما أدرٰك ما سقر، تعظيما لها في وصفها. لا تبقى ولا تذر، ولم يخصص شيئا معلوما ليبقي الكلام مطلقا يُفهَم منه كلُّ تقدير يلزم عنه التخويف والعذابُ. فإن قلت:[٥] لا تبقي شيئا معلوما إلا أنت عليه، ولا تذر من شيء أنت عليه إلا أهلكته؛[٦] أو قلت: لا تبقي أحدا فيها حيا ولا تذره ميتا، أو لا تبقي لحما

---

١ ن – الله.

٢ ك – بمعنى قاتله الله كيف قدر، صح هـ.

٣ سورة القيامة، ٧٥/٣٤-٣٥.

٤ أرْطَبَ البُسْرُ: صار رطبا أو بدا فيه الترطيب (المعجم الوسيط، «رطب»)

٥ جميع النسخ: قيل.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٤٢).

إلا أكلته ولا تذر دما إلا شربته؛ أو قلت غير ذلك مما يليق بوصف النار ويحتمله هذه العبارة جاز. لواحة للبشر، ولم يقل: لائحة، وذلك لأنها تلوح لهم من كل[1] جهة. وقوله: عليها تسعةَ عَشَرَ، مبني على الفتح لأنه أخفّ الحركات، وإنما بُني لأنه تضمّن معنى الحرف، لأن تقديره تسعةٌ وعَشْرٌ، وبُنِيَا على حركة تمييزا لهما عما بُنِيَ، وهو في موضع رفع، لأنه مبتدأ، وعليها، خبره. وقوله: تسعة عشر، أي من الأملاك.[2]

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

وأوضحه بقوله بعده: وما جعلنا أصحٰب النار إلا ملٰئكة. ولم يقل: عليها من الملائكة تسعةَ عشرَ لئلا يُفهَم من ذلك أن ملائكة النار هم مثل بقية الملائكة، أو أن بقية الملائكة[3] مثلَهم؛ ليس كذلك بل ملائكة النار كما وصفهم بقوله: غِلَاظٌ شِدَادٌ،[4] الآية. وما جعلنا عدتهم، تسعة عشر، إلا فتنة للذين كفروا، أي يستقلّون هذا المقدار. والمعنى أن هذه العدة لم تكن عن عجز عن الزيادة، ولكن جعلناها كذلك فتنة، ليستيقن الذين أوتوا الكتٰب، لأنهم يؤمنون بأن القادر سبحانه جعل هذه العدة مع قلتها كافية لجميع أهل النار مع كثرتهم. وأراد بقوله: الذين أوتوا الكتٰب، أي أوتوا فهْمَه. والكتٰب، ههنا اسم الجنس وإن كان المراد به القرآن، ويريد من أسلم، دون غيره من أهل الكتاب ولهذا لم يقل: ليستيقن أهل الكتاب. وقوله: ويزداد الذين ءامنوا إيمٰنا، لأن شهادة من آمن من أهل الكتاب بصحة القرآن تزيد الذين آمنوا من غير أهل الكتاب -وهم الأعراب- إيمانا بلا شك. ولهذا ذكر اليقين للعلماء الذين أوتوا فهْمَ الكتاب وزيادة الإيمان لمن دونهم. وعرّفَنا أن المؤمنين لم يكونوا مرتابين، ولكنهم كانوا مؤمنين فازدادوا / إيمانا ويقينا وطمأنينة بما أنزل إليهم وبما سمعوه من العلماء [٤٧٥و]

---

١ ك - كل، صح هـ.

٢ وهو جمع المَلِك بمعنى صاحب الأمر والسلطة (المعجم الوسيط، «ملك»).

٣ ك - أو أن بقية الملائكة، صح هـ.

٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم، ٦/٦٦).

من بيان معاني كتاب الله، كقوله: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ،[١] ولا يبين إلا[٢] مَن فهم. وإلى هؤلاء إشارة الآية ههنا، لكن المراد من أسلم كما تقدم. ولهذا لم يقل ههنا عن المؤمنين: ولئلا يرتاب، بل، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتٰب والمؤمنون. ويحتمل ما معناه: ولا يرتابون بعد ذلك اليقين والزيادة. ثم نسق عليه [قوله:] ليستيقن، وليقول الذين فى قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والكٰفرون، مطلقا، ماذا أراد الله بهٰذا، فضربه، مثلا. هذا من باب الاستهزاء، فإنهم يكذبون الجميع. فمتى وجدوا كلاما يُحتمل الطعن بسببه في كلام الله كالغامض والمتشابِه طعنوا واستهزءوا. فكان ذلك لهم فتنة، كما روي أن بعضهم قال: اتركوا لي[٣] منهم سبعة عشر. وهذا المثل ههنا هو[٤] كما جاء في [سورة] البقرة.[٥] ولهذا بعده ههنا كما بعده هناك: كذٰلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء، إليه وإلى فهم أمثاله وآياته. فالمؤمن يزداد إيمانا، لأنه يعلم أن الله يكفي الكثير من الخلق بالقليل من الملائكة. والكافر تزيده الآيات الفاتنة كفرا، لأنه يستقل هذا المقدار فلا يخاف من عذاب النار. فجعل الله هذه العِدّة فتنة، وهو أكثر جنودا من أن يُعلم عدتهم وقوتُهم إلا هو، ولهذا بعده: وما يعلم جنود ربك إلا هو؛ وهذا[٦] يدل على صحة ما شرحناه من أن العلماء والمؤمنين لم يعلموا ذلك إلا من القرآن فهما وإيمانا، لأنه نفى أن يَعلم الجنودَ بشرٌ أو ملك، ولهذا لم يقل: وما يعلم عدة جنود ربك. ثم نسق على قول القائل عن الآيات: إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ،[٧] فقال:[٨] وما هى إلا ذكرىٰ للبشر.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

كلا، أي ليس كما قال. ثم تلا المنعَ لِما قال المكذِّبُ بالقسم إيجابا للتصديق وجزما بالتحقيق فقال: والقمرِ، والليل إذ أدبر، أي إذ[٩] دبرَ النهارَ فجاء في دُبره. وأما أدبر

[١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٨٧).

[٢] ش ك: إلى.

[٣] ش ك - لي.

[٤] ن - هو.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦).

[٦] ن: فهذا.

[٧] الآية ٢٥ من هذه السورة.

[٨] ش ن - فقال.

[٩] ش ك - إذ.

فمعناه وَلَّىٰ مُدْبِرًا،[1] أي إلى جهة دُبره كما أن المتوجه إلى جهة وجهه. والصبح إذا أسفر، أظهر وكشف. وقيل: أسفر،[2] بمعنى[3] أشرق، وهو الأَولى. إنها، يعني الآيات، لإحدى الكُبَرِ، أي المعجزات الكبار، وهو جمع كبرى. نذيرا، أي مع نذير، للبشر، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. هذه حجة بالغة على نفي الإجبار؛[4] لأن التقدم لا يكون إلا بالطاعة والتأخرَ لا يكون[5] إلا بالمعصية. والمراد الإيمان بهذه التذكرة فهو التقدم، أو الكفرُ بها فهو التأخر. ولهذا بعده: كل نفس بما كسبت رهينة، أي من أنفس المكذبين، إلا أصحٰبَ اليمين، ليسوا كذلك بل، فى جنّٰت يتساءلون عن المجرمين. المعنى أنه يسأل بعض المؤمنين بعضا: أسألتم المجرمين، ما سلككم، ما الذي أدخلكم، فى سقر. فأخبر المؤمنون المسئولون للسائلين عما قال المجرمون.

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾

ودل على هذا المقدر المحذوف بقوله: قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض، في آيات الله مكذبين لها وفيما لا يرضاه لنا، مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين، حتىٰ أتىٰنا اليقين، ما تيقناه الآن، من العذاب، لأنهم كانوا في شك مريب منه. قال الله تعالى:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾

فما لهم، الآنَ والحالةُ هذه، عن التذكرة معرضين. وقد اتضحت ولزمت وهم لا يفقهونها حتى، كأنهم حمر مستنفرة، بفتح الفاء منفَّرةٌ وبكسرها[6] نافرة. والقراءة بالكسر أولى لقوله بعده: فرت من قسورة، لَبُؤَة.[7] والقسور الأسد. وإنما ذكر الأنثى، / لأنها أشرّ. [٤٧٥ظ]

[1] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ سورة النمل، ١٠/٢٧. وانظر أيضا: سورة القصص، ٣١/٢٨.

[2] ش ن - أسفر.

[3] ن: بمقتضى.

[4] ك - على نفي الإجبار، صح هـ.

[5] ن - لا يكون.

[6] قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الفاء، والباقون بكسرها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٦٢).

[7] اللَّبُؤَة: الأنثى من الأُسُود، والجمع لَبُؤ (لسان العرب، «لبأ»).

وقيل: أصلها من القسر وهو القهر.

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤﴾

بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة، من السماء تختص به.[١] كلا، أي ليس كما يزعمون، بل لا يخافون الآخرة، أي جزاء الآخرة. كلا، أي وليس الأمر أيضا كما يزعمون أنه لا خوفَ عليهم في الآخرة من تكذيب هذا الكلام. إنه تذكرة، بالله وثوابه وعقابِه.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾

فمن شاء، مِن كل سامع له، ذكره، أي إننا قد مَكّنا العباد ونَصَبْنا لهم الأدلة وأَزَحْنا العلةَ ليتذكروا بهذه التذكرة إن شاءوا. ثم أخبر عن حالهم معه بعد فعله معهم بما معناه، أي فعلنا معهم هذا كله، وما يذكرون إلا أن يشاء الله، إنهم يذكرون إجبارا لا اختيارا. هو أهل التقوىٰ، أي الصادرة من المؤمن له سبحانه، وأهل المغفرة، الصادرة منه لعباده، لأنهم إذا اتَّقَوه غَفَر لهم.

---

١ ن: يختص به.

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾

لا أقسم، معناه أقسم، إلا أنه لا يُبتدَأ في القسم بلا إلا إذا كان ردّا على منكر. فإذا قلت: "لا والله إن الرسول لحق" فقد أكْذبت قوما في ذلك. وقرأ القَوَّاس[1] عن ابن كثير لَأُقْسِمُ[2] بلام التأكيد.[3] وأبين القراءات ما قدمناه. والمعنى ههنا ليس الأمر كما تقولونه من جحد البعث ولا كما تظنونه من أنكم غير مدينين.[4] ولهذا لمّا أقسم "بيوم القيامة"، قال بعده: **ولا أقسم بالنفس اللوامة**، فقدم نفيا في الموضعين على القسم ينفي به ما أثبتوه ويثبت ما نفوه.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾

ثم أوضح ذلك بقوله بعده: **أيحسب الإنسٰن ألن نجمع عظامه**. ثم حقّق الرد الأول من قوله: "لا"، بالإيجاب الآخر وهو قوله: **بلىٰ قٰدرين**، أي نجمع قادرين. فالنصب على الحال، إذ هذه الصفة دائمة موجودة لله. فكأنه قال: لم نَزَلْ قادرين ولا نَزَال، فنُصب على الحال، وأنبأ عن الماضي والاستقبال. ووعد وعدا ووعيدا بقوله: **قٰدرين علىٰ أن نسوى بنانه**، أي فنَرْصُفَ بعضها على بعض بعد أن بَليت فنردّها كما بُدئت. وذكر البنان، وهي الأصابع، لأنه ذكر العظام. وفي كل يد من عظام الأصابع خمسة عشر عَظْما. فلو فرضنا تجردها[5] عن اللحم وخَلْطَ بعضها ببعض لم يمكن أحدا أن يَصِفَّها

---

[1] لعله أبو الحسن أحمد بن محمد بن علقمة المكي النبال المقرئ المعروف بالقواس. قرأ على أبي الإخريط وهب بن واضح، وحدث عن مسلم بن خالد الزنجي وغيره. وجلس للإقراء مدة، قرأ عليه أحمد بن يزيد الحلواني، وقُنْبل، وعبد الله بن جبير الهاشمي، ومحمد بن شريح العلاف. وقيل: إن البزي قرأ عليه القرآن أيضا. توفي سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م (معرفة قراء الكبار للذهبي، ٣٧٠/١-٣٧١).

[2] قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام، والباقون بإثبات الألف وهو الوجه الثاني للبزي، ولا خلاف بينهم في إثبات الألف في الموضع الثاني (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٣١).

[3] معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٩/٨.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة الواقعة، ٨٦/٥٦-٨٧).

[5] ش: تجريدها.

ولا يَعرِفَها لاشتباه العظامِ الكبارِ بالكبار والصغارِ بالصغار. وإذا اعترف الإنسان بعجزه عن أن يصفّ عظامَ البنان صفا على الأرض لزمه الإقرار والطاعة للقادر سبحانه في كل آن على تسوية البنان وردِّها في يوم القيامة خلقا جديدا من كل إنسان.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

ثم قال ما تقديره: **بل يريد الإنسٰن**، أن يجحد البعث، **ليفجر أمامه**، قُدّامه، لأن من اعتقد أنه لا يبعث ولا يعاقَب على أفعاله الردية فعل ما شاء اتباعا لهواه، وفَجَر وخالف عقلَه ومولاه. **يسئل**، سؤالَ مستهزئ، **أيان**، أيَّ آنٍ يكون، **يوم القيٰمة**؟

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾

فجاوبه الله بلسان التخويف: **فإذا برق البصر**. يقال: برق السيف بفتح الراء يبرق بضمها بروقا، أي تلألأ، وبرِق البصر بكسر الراء إذا تحير. **وخسف القمر**، بمعنى انخسف. يقال: خَسَف الله به الأرض وخسف هو، كما يقال: خسف المال إذا نقص منه جملةٌ لا يُعلَم وجه نقصانه[1] تشبيها بما خسفت به الأرض. **وجمع الشمس والقمر**، لأنهما لا يجتمعان إلا[2] يوم القيامة. والاجتماع الذي يذكره الفلكيّون معناه العبور، أعني عبور القمر على الشمس بحيث يُسامِتها في الدرجة مُوازيا لها، ثم يستقبلها جاريا على حاله.

﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾

يقول الإنسٰن يومئذ أين المفر؟ كلا، أي لا مفر له. وقوله: **لا وزر**، أي لا حَمْل، وهي لا وِزْر بتسكين الزاء، وحرّكت / للوزان مثل بحْرٍ وبحَر، أي لا حَمْلَ اليومَ، إذ لا أحدَ يحمل عن أحد حِمْله. **والمستقر**، مبتدأ، خبره: **إلىٰ ربك**، فأخر، **يومئذ المستقر**، للوِزان. [٤٧٦و]

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

ينبؤا الإنسٰن يومئذ بما قدم وأخر، تقدم شرحه.[3] ثم قال ما معناه: وليس يحتاج الإنسان إلى منبئ ينبئه بحاله وبما يستحقه في ذلك اليوم. **بل الإنسٰن علىٰ نفسه بصيرة**،

---

[1] ش ك: نقصانها. وفي هامش ك: نقصانه.

[2] ش: إلى.

[3] انظر مثلا: سورة يسٓ، ٣٦/١٢؛ وسورة الانفطار، ٨٢/٥.

وهو كقوله: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا.[١] والمراد أنه لا يُنَبَّأُ بشيء مما قدم وأخر إلا وهو يعرفه من نفسه ويشهد عليها به. فليس يحتاج مع بصيرته فيما يشهد على نفسه به مما ينبأ به إلى حجة. ولو ألقى معاذيره، بين يدي الملائكة والناس. فإن نفسه لا تقبل تلك المَعْذِرة وإن قبلها غيرُه وأقام عذره، إذ بصيرته تُريه في ذلك اليوم أن معاذيره غير مقبولة، فقد عادت عليه لا له. وهذه البصيرة موجودة من الآن شاهدة على الإنسان. وإليها أشار في أول السورة بقوله: وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ،[٢] فهي التي تلوم صاحبها على الشر لِم فعله وعلى الخير لِم أخّره، أو لِم لا استكثر مما قدمه؟ وسمّاها اللوامة لقيامها بهذا الوصف، ولهذا لم يقل: اللائمة بل على وزن فعّال للمبالغة. واللوامة صالحة، وضدها الأمّارة، وكلاهما والمطمئنة واحدةٌ. ولها أوصاف تعود صفتها عين ذاتها. وقد بيّنّا ذلك في مواضع. فلا ينبغي لأحد أن يفهم من كلامنا في موضعٍ ما يناقض به الآخر،[٣] بل يتأتّى ليتحقق المقصود.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

لا تحرك به لسانك، مستعجلا به[٤] في تلاوته إذا أَقْرأناك إياه، **لتعجل به**، أي بما نوحيه إليك بعد الذي تلوناه عليك، أي بل اقرأه[٥] كما يُقرأ عليك. وذلك أن القرآن نزل منجّما.[٦] فكان محمد صلى الله عليه وسلم إذا أبطأ عنه الوحي إلى أن يقع السبب الذي يقضي بالنزول اشتاق إلى الوحي. فإذا نزل منه ما اقتضاه السبب أحبّ أن يوحى إليه ما بعد ذلك ليَجمعه ويُقرئه، فقال الله له: **إن علينا**، نحن، **جَمْعَه وقرءانه**، أي وقراءته وليس عليك ذلك ولا أن تبينه أنت في حياتك. ولهذا قال: **ثم إن علينا بيانه**، لمن يستحق ذلك من العلماء من كل قوم في كل عصر. فكأنه قيل له:[٧] اشتغل بما هو من قِبلك وفعلك دون ما هو من قِبلنا وفعلنا، ولا تعجل بمقالك مستزيدا من الوحي بحالك.

---

[١] سورة الإسراء، ١٧/١٤.
[٢] الآية ٢ من هذه السورة.
[٣] ش: الأمر.
[٤] ن - به.
[٥] ك: اقرأ؛ ن: القراءة.
[٦] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٠٦). وانظر أيضا: سورة الفرقان، ٢٥/٣٢. | نجّم الشيء: قسّطه أقساطا (المعجم الوسيط، «نجم»).
[٧] ن - له.

ولهذا بعده: فإذا قرأْنه، أي عليك بلسان جبريل، فاتبع قرءانه، أي فاتبع قراءته عليك كما نقرأه. والاتّباع أن يقرأ كما يُقرأ عليه من غير سرعة ولا تغيير بصورة. وفي الحديث «من قرأ القرآن في أقلّ من ثَلاث لم يفقهه».[1] وبعد الأمر له عليه الصلاة والسلام بالاتباع وَعَدَه سبحانه بقوله: ثم إن علينا بيانه، وهو منسوق بالأول، كأنه قال: إن علينا جمعه وقرءانه، ثم إن علينا بيانه،[2] ولم يقل: بيانه لك، فإنه كان مبيّنا له صلى الله عليه وسلم من غير تراخ لازم عن قوله: ثم، ولكنه لم يؤمر بتفسيره، وذلك لئلا تموت الفِكَرُ ويُهْجَر الاستنباط والنظر.

[ضرورة الاجتهاد في فهم القرآن]

وإنما أراد الله أن يحيي العقول بالتفكر، ويجعل ذلك من جملة كسب القلوب الذي إنما يقع الجزاء بالحقيقة عليه. فهذا من بعض فوائد كونه عليه السلام لم يفسر القرآن، بل فَتح لأصحابه باب الاجتهاد، فاتّبعهم الأئمة مجتهدين غيرَ مقلدين، إذ لو اتبعوا أقوال الصحابة تقليدا لهم لشرف قدرهم وتقدمِهم وغير ذلك / لكانوا غيرَ [٤٧٦ظ] متَّبِعين لهم بالحقيقة في فعلهم الذي هو الاجتهاد، ولخرجوا[3] عن المراد، لأن تقليد الأئمة للنبي صلى الله عليه وسلم كان أحقّ وأولى من تقليدهم للصحابة لو قلدوا، كما أن تقليد الصحابة للنبي عليه السلام كان أولى بالحق من اجتهادهم فيما اجتهدوا. فلمّا كان ترك البيان من النبي عليه السلام واقعا صار سنةً. ولمّا كان الاجتهاد في زمنه من خواصه واقعا صار سنةً بل فرضا واجبا على العلماء. ولهذا لم يقل به إلا الخواصُ من الأئمة الصلحاء. ولمّا لم يجز لكل أحد أن يقوم في هذا المقام الذي هو مقام الوِراثة من النبي صلى الله عليه وسلم لزم تقليد الإمام، وكان عليه البيان وإقامة الدليل والبرهان. وبقي هذا الباب مفتوحا لأهله في كل زمان لتقوم حجة الله على عباده بالحق، وتكون الدعوة على بصيرة من تُبّاع الرسول لسائر الخلق. فعرّفَ الله رسوله صلى الله عليه وسلم وسائر الخلق بقوله: ثم إن علينا بيانه، أنه[4] سيبين[5] ما يشاء لمن يشاء في كل زمن وقوم بحسبهم، ليكون هذا الكلام أبدا قائما في الخلق بلسان الحق.

---

[1] المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ٣/٣٥٦؛ وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٧٨.

[2] ش – وهو منسوق بالأول كأنه قال إن علينا جمعه وقرآنه ثم إن علينا بيانه، صح هـ.

[3] ن: وخرجوا.

[4] ش: أي.

[5] ش: سنبين.

ويعود هذا الحديث جديدا على ممر الأزمان، لأنه ليس بعده كتاب ينسخه أو يكمّل نقصَه، فلزم أن يكون كاملا بيّنا في صدور الذين أوتوا العلم. فكان[1] ما بيّنه الله ويبيّنه في كل زمان مخصوصٍ بلسان رجل مختار عند الله من العلماء المستنبطين كتابا جديدا[2] غيرَ الكتاب الأول وهو هو بعينه. وإنما ظهر منه بحسب القوم ما شاء الله ظهورَه لِما هو أعلم به من الحِكَم التي لو سئل عن بعضها العلماء لأجابوا. فكان العالِمُ بذلك بُعث بعثا جديدا بكتاب جديد إلى عالَم جديد، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾.[3] وإنما أظهر الله في كل زمن وارثا حافظا للدين، وأفاض على قلبه نورا، وعلمه من لدنه علما، فأطلعه من معاني القرآن على ما لم يظفر به مَن قبله فيما مضى من الزمان، لا لنقص مَن تقدم عمن تأخر وإنما لاحتياج[4] الناس إلى ما ظهر مما لم يكن من قبلُ لِيظهر. فكان ذلك الظهور لقوم مخصوصين حجةً من الله على من خالف الكتابَ وطمأنينةً لأولي الألباب. ولله أن يختص برحمته من يشاء[5] على وفق الحكمة ومقتضى العلم السابق بما يُبتلى به كل أناس في عصرهم، كما خص سبحانه بعض عباده بموسى، ولم يكن قبلهم مَن كان فيهم موسى بعينه ولا التوراة. وليس لمن قبلهم أن يتظلم على الله كونَه لم يُخلَق في زمن موسى أو في زمن محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[6] فافقه قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي على علم منا لا على هوى. وهذا لا يدل على نقص إبراهيمَ ونوحٍ عليهما السلام وتُبّاعهما عن موسى أو محمد عليهما السلام وتباعهما،[7] بل الكل في درجة واحدة إذا اتبعوا الأمر الواصل بلسان نبيهم إليهم والكتاب المنزَّلَ عليهم. وكذلك حال تبّاع الأئمة المهديين من علماء المسلمين إلى يوم الدين وإن ظَهر المتأخرَ بما لم يظهر به المتقدم. وذلك كله في الأنبياء والعلماء لحكمة إلٰهية يَعلمها العالم وإن لم يحط بتفاصيلها علما، وينكرها الجاهل وإن فهم من بعض أقسامها قسما. فافهم هذه الجملة مستمدا من الله ما يحقق لك الحقَّ فيها لا المعارضة لها. فاحذر أن تجعل حظك معارضةً ما[8] علّمه الله لبعض عباده من / فهم في الكتاب لئلا يُغلَق عليك هذا الباب. فهذه نصيحتي لك والسلام. [٤٧٧و]

١ ك ن: فكأن.

٢ ك ن: كتاب جديد.

٣ سورة الأنعام، ٣٤/٦.

٤ ن: لاحتاج.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (سورة البقرة، ١٠٥/٢). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ٧٤/٣.

٦ سورة الدخان، ٣٢/٤٤.

٧ ن – وتباعهما.

٨ ك: مما. وفي هامش ك: ما.

وههنا إشارة لطيفة تُفْقَه من قوله تعالى: فإذا قرأنٰه فاتبع قرءانه، فالمفهوم من هذا بعد ما أوضحناه خاصٌ بالرسول، عامٌ لكل قارئ يَقرأ القرآن في سائر الأزمان، قد فتح الله له بابا إلى فهم الكتاب وييّسر له بهذا التعليم الإلٰهي سبيلا إلى الصواب. فإذا اتبع قراءته حرفا حرفا ولا يَعْجَل ولم يخرج عن مفهوم مَبانيه ومقتضى ألفاظه ومَثانيه فقد ضمن الله له بيان معانيه. ومن شروط هذا الاتباع المعرفةُ بما يجب من اللغة العربية التي لا يصح أن يكون متّبعُ القراءة متبعا إلا بعد علمها وإتقانها؛ إذ من لم يعرف لغةَ قوم كيف يدرك ما تضمنته لغتُهم من مقاصدَ ومعانٍ دقيقة أو جليلة.

[قصة غريبة تتعلق بتأليف هذا الكتاب]

ولقد حكى لي مَن لا أشكُّ في صدقه من السالكين أنه كانت تَرِد على قلبه في صِباه مواردُ شريفةٌ، ويسمع أحيانا كلاما خطابيا تلا[1] عليّ بعضَه فأدهشني عجبا، وأنه كان تعتريه غَيبةٌ عن حواسه، فيَسأل في ذلك الحين فيجاوَب بجواب شاف منظوم شعرا وجيزا محكمَ الصنعة. ولقد كان يأتيه ذلك جملة يسمعه بأذنه اليمنى فيقوله، وهو لا يدري ما يقول إلا في بعض الأمر، حتى إذا عاد إلى حسه تُلي عليه ذلك فيستحسنه ويتكلف حفظ ما شاء حِفْظَه منه. فإذا سُئل عن بعض معانيه المشكلة لم يدر ما قال، فيوضحه له رجل فاضل كان يكتب عنه أحيانا ما يقوله. ثم بعد هذا طَرَتْ له أمورٌ فذهب عنه ذلك كلُّه حتى كأنه لم يكن. وكان يرى أنوارا معايَنَةً في الخارج، ويرى ما لا حاجة بنا إلى الإطالة بإثباته. ثم بعد ذلك بقي كأن لم يكن له ما كان وهو على حاله من الصدق والعمل. ولكن عنده من الكآبة ومن الحزن على ما فقده أمرٌ عظيم. فاتفق له اجتماع بأحد الأفراد من الرجال، فشكى حاله إليه والتمس منه سبيلا يردّ حاله عليه. فقال له: يا هذا لا تأسفنّ على ما كان ولا تطلب أن يعود هو أو مثله. إنما أنت سالكُ سبيلٍ مرّ بنَشْزٍ[2] من الأرض فرأى ما تحته. ثم هبط في واد فلم ير شيئا مما كان رآه.[3] وسيمرّ بنشزٍ آخر فيرى شيئا آخر. وليس المقصود به أن يرى، بل أن يكون على الجادة الموصلة. وأما أن يرى ما يراه في الجادة أو يقفَ مع شيء واحد مما قد يراه فذلك لا يلزمه بل لا يجوز له. فلمّا سمع السالك مقالة الناصح ذهب حزنُه كله

[1] ش: تلى.

[2] ن: مر نبشر. | النَشْز/النَشَز: المتن المرتفع من الأرض، وهو أيضا ما ارتفع عن الوادي إلى الأرض وليس بالغليظ (لسان العرب، «نشز»).

[3] ك ن: يراه.

وعدل عن الميل إلى تطلُّب تلك الأحوال. فقال له العالم: اجعل كشفك في كتاب الله وتأمل مبانيه لتفقه معانِيَه لتعمل بما فيه. واقطع كلّ أرَبٍ دون هذا الأرب. فامتثل السالك ما أمر به حتى عبر سنّ الأربعين. فجمع الله له كلَّ ما كان قد منّ عليه به من قبلُ، وجعل له[١] فهما في كتاب الله تعالى بصُوَر مختلفة في نوم ويقظة، وقراءة كتاب، وحديثِ إنسان ووقوع واقعةٍ، كلٌّ يشرح له ويبين. وجُلُّ ذلك بموارد قلبية فهم بها[٢] من الدقائق واللطائف ما بعضه مثبَتٌ في هذا الكتاب.

فسألته عن ابتداء أمره فيما خوطب به في سره فقال: باحثتُ عالما في الفرائض حتى / قرب الصباح. ولم يكن ممن يقلِّد، ولا كنت قيّما بعلم الكلام ولا مقتدرا على [٤٧٧ظ] إيضاح ما أجده في نفسي ببراهين قاطعة لحججه.[٣] وكنت أجدني في بعض الأجوبة نائيا عن الصواب وإن كنت ناقلا لكلام أحد الأئمة. فقمت عن الجدل كئيبا، وخصمي يستهزئ بي ويقول: اذهب فانظر الحق فيما تدّعيه من الكشف، فكأنما جرح قلبي. فوضعت رأسي على الوسادة وقد طار النوم من عينيّ. وابتهلتُ إلى الله بإخلاص كنت أعرفه، وصدقٍ كنت أعهده من نفسي قبل، فجاءني [حال] في تلك الساعة حتى رأيت جوارحي كلها تدعو الله أن يبين لي الحق. فسمعت قائلا كنت أسمعه من عِدّة سنين ولا أرى له صورة وذهب عني، فإذًا به يقول بصوت[٤] دقيق لذيذ كأنه يتكلم من حمّام: اقرأ لأعلمك[٥] الفرائض. فقلت: ما الذي أقرأ؟ فقال: اقرأ لأعلمك، ثم قال: الفرائض. ففهمت أنه يريد اقرأ آيات الفرائض لأعلمك الفرائض. فقرأت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾.[٦] فقال: صَهْ[٧] لا تقرأ هكذا! بل قل: "يُو"؛ ثم طوّلِ النَّفَس متأملا ما تقول سامعا ما أقول؛ ثم قل: "صِي"، وطوّل كذلك؛ ثم قل: "كُمْ" كذلك إلى أن تفرغ، ففعلتُ. فكنت أقرأ كذلك وهو يشرح وأنا أسمع وأرى معاني الكلام منطبقا على مباني الألفاظ لا خروجَ له عما يَشرحه لي بلسانٍ طَلْقٍ لا أستطيع أن أصفه حسْنا ولذاذة. فلمّا فرغتُ القراءة ناداني: تحبّ أن يَبِينَ لك برهان يُحقّق عندك ظاهرا ما سمعته مني باطنا. فقلت بلسان الحال: نعم. فقال: هذا رجل نائم في جانبك اسمه علي، إذا أنت جلست سمعته يبكي في نومه.

---

١ جميع النسخ: وجعله.
٢ ن – بها.
٣ ش ك: بحججه.
٤ ن: لصوت.
٥ ن: لأعملك.
٦ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ (سورة النساء، ١١/٤).
٧ صَهْ: كلمة بنيت على السكون، وهو اسم سمّي به الفعل، ومعناه: اسكتْ (تاج العروس للزبيدي، «صهصه»).

فإذا أيقظته وسألته ما الذي يبكيك؟ سيقول لك: رأيت أبي في نومي وهو يُقطَع بالسيوف. قال: فَمَا استَتَمْتُ[1] كلامه حتى ذهب عني. فجلست متحققا أنني لم أكن نائما، وأين النوم مني. فحين استويت جالسا سمعت باكيا من أحد الجماعة الذين كانوا في مسجد، كنت حينئذ فيه في قلعة محاصَرة من الفَرَنْج.[2] فناديت يا علي ثلاث مرات فاستيقظ. فسألته عن بكائه في نومه. فأجاب باللفظ الذي قيل لي: إنه سيقوله بعينه. فحمدتُ الله وقمت بقوة ونشاط لم أَعْهَدْه من نفسي فيما مضى من عمري. فأيقظت العالم وخبّرته ما جرى، فصدقني وكنت أظنه لا يصدقني، فقال لي: اكتب ما تقول، ثم طرح رأسه وتمم نومه. فكتبتُ ذلك. ولما استيقظ عرضتُه عليه فتعجب منه. ثم قال: هذا طريقك ولست بمقلدك، لكني أُحسن الظنَّ وأَقصُر نظري على تحقيق ما قلتَه بالدليل لعلي أجده عن قرب. ففعل فوجد من طريق العلم ما وجدته من طريق الكشف من غير مناقضة. فلمّا تحقق ذلك سَطَره بخطه رحمه الله. وهو ما تجده أيها القارئ مكتوبا في هذا الكتاب من الفرائض المثبتة بأدلتها. وإنما طوّلت لك ما حكيته مع غاية الاختصار لتُحسن الظن بما تقرؤه في هذا الكتاب ولتتعلم القراءة المفيدة.

فإن قال قائل: هلا جمعت أقاويل من تقدم ونقضتها لِتَبِينَ[3] الحق بصورة لا تخفى عن الخلق؟ فالجواب أنني لم أدَّعِ فيما انفردت به أنه من اجتهادي ونظري، ولا أنا ممن يعتقد في نفسه أنه في رتبة المجتهدين ممن كان قبلي أو في عصري، ولا في رتبة العلماء والصلحاء،[4] ولكني سمعت من غيري ما لم يسعني كتمه. وغيري قال لي ما قيل له. وأما الأدلة والبراهين التي ذكرتها فبعضها مما لاح لي، وبعضها استنبطه
[٤٧٨و] رجل عالم عامل كان في عصري، / وبعضها رأيته في كتب التفاسير. ولكل ذي نظرٍ نظرٌ فيما جمعته. وأنا إنما أحببت سبيلا ورأيت سلوكه واجبا عليّ، فسلكته فوجب عليّ تبيينُ ما وصل إليّ، فبينته بحسب طاقتي وحدي من الفهم، لا بحسب ما يجب عند المجتهدين من العلماء في بيان العلم وإقامة البراهين على صحته والرد على مخالفيهم. فذلك ليس مما كلِّفتُه، إذ لست من أهله. ومن طالع كلامي لم يخفَ عليه

[1] ش: استتممت.

[2] الفَرَنْج: الإفْرَنْجة: جيل، معرَّب إفرنك. أفرنجة: بلدة عظيمة ومملكة عريضة في بلاد النصارى، (آثار البلاد لزكريا القزويني، «أفرنجة»؛ وتاج العروس للزبيدي، «فرنج»).

[3] ن: فتبين.

[4] ن: أو الصلحاء.

صدقي في هذه الدعوى. والله سبحانه يسخّر من بعدي من يشاء ليبين تحقيق ما جئت به حدَّ البيان أو الردَّ عليه بالقاطع من البرهان فضلا ورحمة وعدلا[١] وفتنة على مقتضى حكمته وعلمه،[٢] إنه لطيف قدير. ومن كان ذا نظر وتأمل كلامي تأمل واقفٍ خائف لم يَخْفَ عنه مقصودي به،[٣] فليعمل[٤] بحسبه على معرفة نفسه وربه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾

كلا بل تحبون العاجلة، وهي ما يقود إليه الطبع. وتذرون الآخرة، وهي ما يقود إليه العقل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾

[كيفية رؤية الله تعالى في الجنة]

وجوه يومئذ ناضرة، نضرةَ النعيم.[٥] إلى ربها ناظرة، ليس من الانتظار، لأنه لا يصح أن يكون في الجنة وعدٌ، بل نقدٌ، والمنتظِر عادمٌ لما ينتظره، وليس هناك عدمٌ وكيف يكون ذلك ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم،[٦] وهم لا يشتهون الانتظار لما يشتهونه من ثواب كما قيل. ولا يجوز تأخير الثواب عنهم ولا الفضل. ثم إذا كانوا يشتهون النظر -ولهم ما يشتهون- فكيف يصح صدقُ الوعد إذا لم تكن هناك رؤيةٌ بل انتظار. وأما من قال: إنه تعالى يكشف الحجاب ويزورهم ويكون بعضهم أقربَ إليه من بعض. وإن بعض الناس رد على قائل ذلك، وقال: هذه طريقة تُثبته جسما وصورةً، ويُجوّز عليه المكان والانتقال. فالجواب معلوم من قوله تعالى: وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ.[٧] وقد كان من دعائه عليه السلام «اللّٰهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك وشوقا إلى لقائك».[٨] وقال عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً لَمَن ينظر

---

١ ن: أو عدلا.

٢ ن: علمه.

٣ ن - به.

٤ جميع النسخ: فعمل.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ (سورة المطففين، ٨٣/٢٢-٢٤).

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/ ٣١). | ن: أنفسكم.

٧ سورة العنكبوت، ٤٣/٢٩.

٨ مسند أحمد بن حنبل، ١٩١/٥؛ وسنن النسائي، السهو ٦٢.

إلى خُزّانه وأزواجه وسرُرِه ونعمه مسيرةَ ألفِ عامٍ، وإن أكرمكم على الله لَمَن ينظر إلى وجهه بكرة وعشيا»، وقرأ هذه الآية.[١] ولهذا قال المحققون: إن الإنسان يُمكنه في الدنيا أن يعرف حاله في الأخرى. فإن كان مشغولا ههنا بنِعَم الله عن الله أو به عن نِعَمه كان كذلك في آخرته. والله تعالى لا يحجب عن نِعَمه ولكن نِعَمه تحجب[٢] عنه. فافهم. وأما من عارض هذه الآية بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾،[٣] فقد بيّنّا ذلك، وأن قوله المرادُ به في الدنيا. والفرق بين النظر والإدراك ظاهر، إذ النظر ما يقع وإن لم تدر حقيقة المنظور وماهيته، والإدراك أن تعلم ذلك. والعرب تقول: نظرت إلى الرجل بمعنى انتظرته، ونظرت إلى الرجل بمعنى أبصرته. والعبارة ههنا تعطي الثاني دون الأول عند أصحاب اللغة.

ومن قال: إنه الآن يراه لأنه الوجود، يعني أجسام العالم، وادعى أن حقيقة الوجود واحدة وأن الوجود صفة الواحد؛ فحيث كان الوجود كان هو الواحد، ولا يُطلَق اسم الوجود إلا على الواحد، فهذا قد بيّنّا بطلانه في آخر السورة. ونقول ههنا: إن هذا القائل بهذه المقالة إن اعترف بدلالة الحدث أبطل قوله، لأن الحدث لا يكون لعدم بل لوجود[٤] فعاد لفظُ الوجود، وإن كان واحدا يُفهَم منه معنيان بالنسبة والإضافة. إنْ
[٤٧٨ظ] نَسَبْتَه إلى القديم كان قديما وهو / ما هو بنفسه، وإن نسبته إلى المحدَث كان محدثا وهو ما هو بمحدِثه. ولا يصح أن يكون المحدَث عدما فيكون الحق تعالى محدِثا غير محدَث. لٰكنا إذا نسبنا المحدَث إلى القديم فلا شك أن وجود المحدَث عدمٌ في هذه النسبة وإن صح أن وجود المحدث وجودٌ بالنسبة[٥] إلى نفسه من كونه محدثا لا عدما. فافقه. والعدم نريد[٦] به أن لا وجود.

واعلم أنه لا سبيل إلى الفهم من جهة السمع إلا بالحديث، والحديث مِثلَ اسمه محدثٌ لفظا كان أو إشارة إلى لفظ. فنحن إذا أشرنا القديم أو عرفناه إنما نعرفه بالحديث.

---

١ عن ثُوَيْر قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره [من] مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله مَن ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾» (مسند أحمد بن حنبل، ٦٤/٢؛ وسنن الترمذي، الجنة، ١٧، وتفسير القرآن ٢/٧٥ (سورة القيامة ٢)).

٢ ش ك: يحجب.

٣ ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ (سورة الأنعام، ١٠٣/٦).

٤ ن: بل الوجود.

٥ ن: النسبة.

٦ ن: يريد.

وهذه سنة الله في باب التعريف والإخبار عن نفسه، كقوله: أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا،[١] وتمامِ الآية. فعرّفهم نفسه بالحديث المشهور والمحدَث المنظور. فقولنا: "وجود" هو من جملة الحديث؛ فقد نشير به إلى القديم فنؤمن به غيبا، وقد نشير به إلى المحدث فنشاهده عينا. فإذا أشرنا به إلى القديم أشرنا بمعروف إلى مجهول، وإن أشرنا به إلى المحدث أشرنا بمعلوم إلى معلوم. ولا يصح أن يكون المجهول معلوما، ولو كان لم يكن هو، كما لا يصح أن يكون المعلوم مجهولا لأنه هو. ولا شك أن المحدث لا ينطبق على محدِثه لتقدمه عليه وتأخر المحدَث عنه؛ إذ هذا له أول وهذا لا أول له، واستواءُ ما له أولٌ بما لا أولَ له محال. فكيف الاتحاد به وإن كان قد يسمى باسم من أسماء صفاته كالسميع والبصير،[٢] وكذلك أيضا يوصف كلٌّ منهما بالوجود. وهو منزَّه عما ندركه[٣] من أسماء الصفات، لأننا لا نُدركها إلا بما فينا منها من المثال الذي من أجله وقعت الشركة في التسمية. ونحن لا نشك في الفرق وأن ليس الخالق كالخلق، فهو المتصف بالأسماء الحسنى من أسماء عباده تعريفا، وهو مع ذلك، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ،[٤] تنزيها. فلا يقال: هو الوجود، لأنه قبل الوجود، وقبل القبل قبلية لا تتناهى. والوجود المعلوم لنا متناهٍ محدثٌ، ولا سبيل إلى علم المجهول إلا بمثال. فإذا امتنع وجود المثال فقد امتنع علمُنا بالمجهول إلا من باب أفعاله. ولهذا لم يتعرف إلينا إلا بذلك، كقوله: هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ.[٥] فقد عاد وجه العقل متمكنا من النظر إلى الصانع بالنظر إلى كل ما يراه من صنعته،[٦] فيراه بها إيمانا كما يراها به عيانا، وينزهه عما يخطر في باله من المثلية إيقانا. وعلى هذا المنوال تكون كشوفُ الرجال والأذواق والأحوالُ وإن ظهرت لهم الأهوال وتعدَّوا طور ما يقال. فكل ذلك من باب التعريف بالأمثال، وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ.[٧] وكيف لا، وقد منع الله العلم عن كل نفس بما أعده لهم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ.[٨] وإذا امتنع العلم فالإدراك أشد امتناعا. وإذا كان هذا حالَ كل نفس في العطية فكيف حالها في المعطي.

---

١ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٦١).

٢ ن: كالسمع والبصر.

٣ ش: تدركه.

٤ سورة الشورى، ٤٢/١١.

٥ سورة آل عمران، ٣/٦.

٦ ك ن: في صنعته.

٧ سورة البروج، ٨٥/٢٠.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/١٧).

ولأجل هذا الإيضاح والتقرير الذي هو مبنيّ على الأصل نقول: إنه تعالى لمّا قال للكل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1] كان[2] أولُ ما عرّف به المتقين مادحا لهم قولَه تعالى في أول سورة البقرة: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.[3] ومن حيث ثبت هذا التنزيه والإجلال [٤٧٩و] فَلْنَعد إلى باب التعريف بالمثال / وإن كانت الأمثلة كلها مدرَكة بالعقل معلومَة للنفس مدلولا عليها بالقول. فنقول: ما نُنَبِّه به على مقصودنا بالتقريب ليدرَك من مكان قريب "الإنسانُ"، [فهو] لا يدرك ذاته ولا يجحدها، فذاته غيب لكنه يؤمن بها بلا شك. وكذلك ذاته لا تُدرِك صانعها ولا تجحده، فهو غيب لكنها تؤمن به بلا شك. ومن رأى ذاته مصنوعة رأى برؤيته لها صانعا إيمانا، كما يرى المرئيَّ عيانا، ولكل إدراك آلة وشرط. فلمّا كانت العين آلة الإبصار والشرطُ نورَ السراج أو النهار، فكذلك آلة النظر ذات الإنسان والشرط نور الإيمان. وقد علمت أن من له إطلاق القدرة له كمال الإحسان، وكمالُ الإحسان يُعطي كمالَ اللذة للزوم ذلك. فنقول بالجزم: قضى كرم الكريم أن يكون إحسانه كاملا، ومن كماله[4] قربه، ولا أقربَ من ذاتك إليك ولا ألذّ من النظر إليه. فانظر أين تنظر؟ فذاتك مرآتك، فطهرها بالامتثال للأمر وترك الهوى من صَدَإ السوى ليقوَى نظرك بها، فيحصل اللقاء المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾.[5] ولا يمكن ذلك إلا بالاتصاف بصفاته التي مُكِّن العبد من الاتصاف بها فتلقى الصفةُ الصفةَ ثم تزيد. فكلما زدت نظرا ازددتَ نضارة، وكلما ازْدَدْت نضارةً ازددت نظرا.

كل شيء يزيدني فيكم حبا[6] ... فيربو على الغرام الغرامُ،
كلما زدتُ في الهُيام[7] بكم ... زدتم جمالا فزاد عندي هُيامُ.[8]

فهذا حال الوجوه الناضرة المشارِ بها إلى وجوه القلوب الناظرة في الدنيا والآخرة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٌ ٢٤﴾

ووجوه يومئذ باسرة، البُسور[9] ظهور حال الغمّ في الوجه، وهو من قبيل العُبوس، كقوله:

---

١ سورة الحجرات، ١٣/٤٩.
٢ ن: كما.
٣ سورة البقرة، ٣/٢.
٤ ن: ومن كمال.
٥ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (سورة الكهف، ١١٠/١٨).
٦ ك: حيا.
٧ الهُيام: أشد العطش. الجنون من العشق (المعجم الوسيط، «هام»).
٨ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٩ ن: الباسر. وفي هامش ك: البسر.

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ.[١] وقيل: إن منه البُسْرَ لتجعّدِ[٢] جلدته تشبيها بما بين الحاجبين من البَسارة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾

تظن أن يفعل بها فاقرة، كاسرة لفَقَار الظَّهر.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾

كلا، ردٌّ لدعوى كاذبة، أي ليس الأمر كما تزعمونه، ولكن، **إذا بلغت**، النفْس عند خروجها من الجسد إلى، **التراقي**، جمع تَرْقُوَة وهي عَظْم مقدَّم الحلق من أعلى الصدر، كأنه سمي بذلك لأنه إليه تترقى النفْس عند الموت وعنده تجتمع الحَشْرَجَة.[٣] والتراقي جمع ترقوة ولكنّ واحدها واجبها[٤] تَرْقِيَة، ولا يقال: كذا.[٥] قالت العرب: بل هي مثل تَغْزِية وتَهْنِئَة. وحكى أبو يوسف: تَرْقيتُ الرجلَ تَرْقاةً، أي أصبت ترقوته،[٦] وهي العظم الذي بين ثغرة النحر[٧] والعاتق. **وقيل من راق**، من الرَّقْيِ، أي مَن يَرقي لنا هذا المريضَ؟ لأن الأطباء عجزت عنه فمال أهله إلى الدعاء والأسماء والرُّقَي يطلبون له شفاء بذلك. **وظن**، ذلك الإنسانُ، **أنه**، قد جاءه، **الفراق**، لهذه الدنيا. ثم بُعث بعد الموت يوم القيامة. **والتفت الساق بالساق**، يشير إلى الوقوف في الازدحام، فإنّ ساق المرء يلتفّ بساق أخيه قائما وسالكا إلى الموقف؛ لأنه ذكر عذاب الموت، ثم عذاب الحساب، وهو كقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ.[٨] ولهذا قال ههنا بعده: **إلى ربك يومئذ المساق**، فحُوسب عما قدَّمه.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾

فلا صدق، الرسلَ، **ولا صلى، ولكن كذب وتولى**، عن سماع الأمر الواصل إليه من ربه على لسان[٩] رسوله. وهذا التكذيب قد يكون بلسان الحال وإن خالفه المقال. فإن من لا يصلي فقد عادت حالته حالةَ المكذِّب في ظاهره، والله أعلم بما في باطنه.

---

١ سورة المدثر، ٢٢/٧٤.

٢ تجعد: تقبّض (لسان العرب، «جعد»).

٣ الحَشْرَجَة: الغرغرة عند الموت وتردد النفَس (تاج العروس للزبيدي، «حشرج»).

٤ جميع النسخ + واجبها.

٥ أي لا يقال: ترقوة.

٦ الصحاح للجوهري، «ترق».

٧ ثغرة النحر: نُقرة النحر (تاج العروس للزبيدي، «ثغر»).

٨ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (سورة القلم، ٤٢/٦٨).

٩ ك ن: من ربه بلسان. وفي هامش ك: على لسان.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾

[٤٧٩ظ] وقوله: ثم ذهب إلىٰ أهله يتمطىٰ، قيل: يتبختر. والتبختر / مد اليدين في المشي علىٰ وجه الاستكبار عند الإعراض عن الشيء. واعلم أن المَطَا المقصور هو الظَّهر في لغة العرب. ويقال: امتطيتُها، أي اتخذتها مطية. والمطو المد، ومنه المطية. فاللفظ ههنا مأخوذ من المطا، أعني الظهر كما قدمنا. فأراد أنه كان يلوي مطاه بمعنى يتمطى[1] أهلَه. فالتصريف يرجع إلى هذا أصلا. والمعنى يحتمله لفظا، فافهم بماذا عابه. وذلك أنه أشار إلى حاله في الدنيا مِن أنه كان يكذِّب ويتولى ويذهب إلى شهوة فرجه. فقال الله له الآن: أولىٰ لك فأولىٰ، يا صاحب هذه الأوصاف في الدنيا.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾

ثم أولىٰ لك فأولىٰ، في الأخرى، وهي بمعنى أخزى. وأصلها من الويل وهو من جنس ما يهدَّد به. والأظهر أنه أراد الدعاء بالويل المستمر فكرره وألحق به الفاء ثم كرره، وألحق تنبيها على استمراره ودوامه، والله أعلم. وهذا الكلام هو لكل متصف بهذه الصفات. ولهذه بعده: أيحسب الإنسٰن أن يترك سدىٰ، هَمَلا مهملا.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾

ألم يك نطفة من منى يمنىٰ، في الرحم. ثم كان، بعد النطفة، علقة، تتعلق بالرحم كما تتعلق العلقة تمتص الدمَّ. فخلق، الله منها مضغة، ثم خلق المضغة عظاما.[2] فسوىٰ، من ذلك إنسانا سويا.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

أليس ذٰلك، الفاعل، بقٰدر علىٰ أن يحيى الموتىٰ، بلى سبحانه وتعالى.

[الرد على النصارى في الصلة بين "الوجود" و"الله" وبين "الصفة" و"الموصوف"]

وإذ قد نَجَزتْ هذه السورة فَلْنتمِّم ما ذكرناه من إبطال دعوى مَن ادعى أن الوجود هو الله تعالى، وقال: إن الصفة عينُ الموصوف. فأقول: إني لا أجد واضع مذهب النصارى

---

١ ك ن: يتمطي.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/١٤).

إلا واحدا يدّعي هذه الدعوى. فأخذ عقلَ المَلِك بها، ولهذا تسمَّى تُبَّاعُه بالمَلِكِيَّة. ولم يكن هذا المذهب من قبلُ للنصارى، بل لبعض الفلاسفة من قبل أرسطو فيما حكاه النوبختي[١] في كتابه المعروف بالآراء والديانات.[٢] وقد رأينا الآن في زماننا من الإسلاميين مَن غلط كغلط النصارى من جهة كونهم يجعلون عيسى[٣] صفةً لله سبحانه فيدّعون أنهما واحدٌ من أجل أن الصفة عينَ الذات. ووجه الرد على الجميع أن الصفة لا تكون عين الذات. وقد أثبتُّم أنها صفة، إذ لو كانت ذاتا لم تكن صفة، بل كانت تحتاج إلى صفة باعترافهم[٤] أن الذات لا تكون إلا بصفات. ومن قال: إنه[٥] الاسم الواحد كقولنا: "الوجود" لا يكون له سوى حقيقة واحدة. قلنا له: أنت تعلم أن للجسم صفات وللنفس صفاتٍ،[٦] ولا يلزم من كون أن الصفة واحدة في التسمية ويشار بها إلى أشياء مختلفة الذوات أن تكون الصفة هي ذاتَ الموصوف بها لئلا يلزم أن يكون الجسم والنفس واحدا. ولكن نُوقع صفاتِ الجسم على النفس أحيانا وبالعكس، فنقول ذلك مجازا واستعارة للتفهيم والتعليم تعريفا لمجهول بمعلوم، مع تحقق العقل تنزيهَ النفس عن صفات الجسم وبُعْدِ ما بينهما وانتفاءِ المماثلة من كل وجه. وكذلك نقول: للنفس صفات وللرب صفات، ونُوقِع صفاتِ النفس على الرب مجازا للتعريف كما قدمنا مع غاية التنزيه عن المثلية. وليس معنى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[٧] إلا هذا. فكما نوقع صفات الجسم على النفس من أجل التقريب للتفهيم فكذلك نوقع / صفات النفس [٤٨٠و] على الرب من أجل التفهيم للتعظيم، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.[٨] ومثال ذلك لو فرضنا مخاطبة الأجسام وأردنا تعريفها بصفات العقل لم نخاطبها من أوصافه إلا بأوصافها الحسنى المماثِلة، كقولنا: "لطيف"، ثم نُنَزِّهه عندها عما علمته منها وإن كان التعريف لها لم يحصل إلا بها.[٩] فلم يَبْقَ إلا هيئةُ التعظيم والإجلالِ عن أحسن ما علمته منها. وكذلك الحال في تعريف العقول ببارئها جل وعلا، إذ المراد تعظيمه في العقول لا في ذاته،

---

[١] أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد النوبختي، فلكي عارف بالفلسفة، كانت تدعيه المعتزلة والشيعة. وهو من أهل بغداد. من كتبه: فرق الشيعة، والآراء والديانات، واختصار الكون والفساد، والجزء الذي لا يتجزأ، والرد على أصحاب التناسخ، والفرق والمقالات، والرد على المنجمين، والرد على الغلاة. توفي سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م (الأعلام للزركلي، ٢/٢٢٤).

[٢] لم أجد هذا الكتاب.

[٣] ك - عيسى، صح هـ.

[٤] ك: باعرافكم.

[٥] ك ن: إن. وفي هامش ك: إنه.

[٦] ك - وللنفس صفات، صح هـ.

[٧] سورة الشورى، ٤٢/١١.

[٨] سورة البقرة، ٢/٢٥٥؛ وسورة الشورى، ٤٢/٤.

[٩] أي بالأشياء.

وتعظيمُه في العقول لا يتناهى، لأن عظمته في ذاته لا تتناهى. وهذا هو مراد الشرائع. ولمّا تحققنا أنا لا نعلم ذواتنا تحققنا أنا لا نعلم[1] ذات مبدِعنا. فلولا[2] الجهل بنا ما علمنا الجهل به. فجَهْلنا أوجب عِلمَنا، وعلمُنا[3] ألزم جهْلَنا. ولمّا كنا لا نعلم إلا صفاتنا فقط خُوطبنا بها تمثيلا لا تحقيقا، إذ لو كان المثْل هو الممثولَ لم يكن مثلا بل كانا واحدا، والواحد مستغن عن التعريف لإياه بمثل، لأنه لذاته أظهر من مثله. [و]لو فُرض وجوده فقد عاد العلم كلُّه منسوبا إلينا ومقصورا علينا في باب الصفات، والجهلُ كله مختصا بنا في باب[4] الذوات. ولا فائدة لنا في اتحاد الاسم إذا اختلفت مسمياته. وإذا كان قولنا: "نفس" يقع على نفوس مختلفة، وليس كل واحدة منها عين الأخرى، وكذلك قولنا: إنسان، أو فرس، أو جسم، أو غير ذلك. فقد بان لنا ببيان التغاير أن اتحاد[5] الاسم لا يعطي اتحادَ المسميات به. فكما أن الأسماء الكثيرة تكون لذات واحدة كأسماء الصفات للخالق، فكذلك يكون الاسم الواحد لذوات كثيرة كاسم المخلوق. ومن تَحقق أن قولنا: "وجود" هو اسم صفة تقع على الخالق وتقع على المخلوق ذهب عنه الاشتباه. ومن أنكر ذلك فهو[6] يعترف أنه لا يكون وجودٌ بغير موجود ولا موجودٌ بغير وجود، كما لا يكون موصوفٌ بغير صفة. فسبْق الوجود للموجود مستحيلٌ ذِهنا وعينا كاستحالة سبق الصفة لموصوفها، أو موصوفها لها.

[شبهة النصارى]

وهذا المعنى هو باب الضلال الذي دخل منه هؤلاء، فاحتجوا بأن قالوا: لا يخلو[7] إما أن يكون وجود البارئ عين ماهيته أو غيرَ ماهيته؛ ولا جائزٌ أن يكون غيرَ، لأنه يكون زائدا فيكون معه غيره، فلزم أن يكون وجودُه عين ماهيته. فهذه شبهتهم. وموضع الغلط هو أنهم لم يفرقوا بين الضدين والنقيضين؛ فالضدان لا بد من أحدهما، والنقيضان يحتمل انتفاؤهما بوجود قسمٍ ثالث. وذلك أن الضدين كالتفرق والاتصال في موضع واحد من الجسم وفي زمن واحد، لا بد من أحدهما، ومتى وجد عُدم الآخر وبالعكس. والنقيضان كالقيام والقعود، يحتمل انتفاؤهما بقسمٍ ثالث وهو الاتكاء على الجَنْب. فظن هؤلاء أن الوجود

---

١ ش - ذواتنا تححقنا أنا لا نعلم.

٢ ن: لولا.

٣ ك - وعلمنا، صح هـ.

٤ ش ك: في ذلك.

٥ ش: أن الاتحاد.

٦ ك ن: هو.

٧ ن: لا يخلق.

ضدُّ العدم للخالق كما هو للمخلوق، وليس كذلك، لأن الممكن، أعني المخلوق لم يكن فكان، فوجوده[١] ضدُّ عدمه. والواجب سبحانه لم يزل، فوجوده لا ضد له، وما لا ضد له[٢] لا يُحكم[٣] عليه حكمَ ما له[٤] ضد. فلهذا لا يقال: هل وجوده عينُ ماهيته أو غيرُها بل صفة.

وقد بيّنّا أن الصفة / لا تكون عين الموصوف وإن كانت لازمة له. فلنَزِد بيانا [٤٨٠ظ] ولنحقق برهانا بأن نقول: إن صفة زيد إذا اتصف بها عَمْرٌو لم تكن -وهي لعمرٍو- صفةً لزيد بل صار لعمرو صفةٌ مثل صفةِ زيد. وكذلك لو اتصف بصفةِ زيد ما شاء الله من الخلق سَرْمَدا فإن صفة زيد لم تكن لغيره ولا خرجتْ عنه، سواء كانت الصفة وجودا أو علما، أو غير ذلك. وهو معنى قوله تعالى: وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ.[٥] فلا يكون العلم واحدا وإن كان اسمه واحدا للقديم والمحدَث، بل علم المحدَث محدَثٌ كما أن علم القديم قديم. ولا يتصف المحدث بالقديم كما لا يتصف القديم بالمحدث. فقد صار قولنا: "علم" لفظا نشير إليه لا نشير به إلى العالِم بل نعيّنه في الذهن لنحكم عليه أو لنلحقه بموصوف. فهو فَرْض وهميّ يُتصوَّر ذهنا بغير فائدة، كقولنا: "جسم". إلا إذا ألحقناه بموصوف به ظهرت حينئذ فائدته، لِما قامت بالموصوف صفتُه فانفرد عن مثله بصفته، كما انفرد بذاته. فصارت الصفة الواحدة -وإن كانت متحدة من جهة اسمها- فإنها متغايرة من جهة مسماها. فالاسم لا غاية له دون المسميات، والموصوف به لا نهاية له في المخلوقات. وإذا كان المخلوق الواحد غير الآخر في الذات والصفة مع الاتحاد في التسمية، وهناك نسبة بينهما، فلا شك في أن الخالق غير المخلوق في الذات والصفة،[٦] ولا نسبة بينهما وإن كان قد جمع بينهما اسمُ الوجود في التسمية التي قد تحققنا أنها لفظ فقط لا حقيقةَ له إلا بعد أن يضاف إلى مسماه، ومتى أضيف تغاير مفهوما وإن اتحد تسميةً. ولو كان في مخلوقين فكيف في مخلوق وخالق جلّ وعلا.

[ردود أخرى على النصارى]

فافهم في سائر الصفات المتحدة بالتسمية إذا اختلفت بالمسميات كذلك [هي] لِتَخْلُص[٧] من توحيد قوم جعلوا الاسم والجسم والفاعل واحدا في اعتقادهم لجهلهم

---

[١] ك: فكان وجوده.
[٢] ك - وما لا ضد له، صح هـ.
[٣] ن: لا نحكم.
[٤] ك: حكم فما له.
[٥] سورة يوسف، ١٢/٧٦.
[٦] ش - مع الاتحاد في التسمية وهناك نسبة بينهما فلا شك في أن الخالق غير المخلوق في الذات والصفة.
[٧] ن: لنخلص.

بسلوك السبيل الموصلة إلى مرادهم. ولو اعترفوا بأن لهم صانعا لم يخلقهم عبثا وأنه غني عنهم للزمهم في عقولهم أن يهديهم إلى سبيلهم الذي سماه من أجلهم سبيله،[1] فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.[2] وهؤلاء قوم ضُلَّالٌ قنعوا بألفاظ للظفر بأعراض وأغراض، فتلك مَبَالِغُهم. ولهذا وقفوا عندها وأخذوا من كلام من قبلهم من الصالحين ما تشابه، ثم أخذوا مثل ذلك من كتاب الله تعالى دليلا لهم بزعمهم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛[3] حتى ظنوا أنهم على غاية الصواب، وأنّ نبذهم للكتاب هو اتباع للكتاب، بل هم أهل الكتاب، والكتابُ ومُنْزِل الكتاب. فقالوا: إن الذات العلية لها اعتباران لازمان. أحدهما اعتبار الوحدة فلا نُطْق فيه، والآخر اعتبار الكثرة وهو محل الأضداد وكلِّ نُطقٍ. والوحدة سارية في الكثرة سرمدا ولم تزل كذلك، فالقائل والمقول له واحد أبدا من أَجْل ذلك. فكل معارضٍ عارَضَهم أو مخالف خالفهم أجابوه بأن ما ندّعيه أيضا صحيح وواجب لأن الكل واحد. وتارة يدّعون أنه واجب من جهة أنه ضد للحق، فهو أيضا حق من جهة الضدية وإن كان باطلا في نفسه. ثم يقولون: بل هو حق في حقيقة الأمر، لأنه مَظهر من مظاهر أسماء الله تعالى، وهو المتصف بالشيء وضدِّه؛ ولم يفقهوا / أنه اتصف بالضد جزاء لا ابتداء. فعادت العقول والأديان، [٤٨١و] والأقوال والأفعال القبيحة والمليحة عندهم واحدا. وهذا ضَلال مبين حملهم عليه بعد أهوائهم غَلَطٌ في النظر إلى أحوال قوم رضي الله عنهم، إذ تقربوا إليه بالنوافل[4] فامَّحَى في نظرهم السِّوى لما انفصلوا عن الهوى، فأصفاهم مولاهم، وأضل بهم مَن سواهم ممن قال كمقالهم ولم يفعل كأفعالهم. فظن أن محوَ[5] السوى في النظر هو محوٌ في الحقيقة، وليس كذلك، وإلا لزم أن محو الحقيقة في النظر محو للحقيقة في الحقيقة. وهذا برهان مُفحِم. ولهذه الغَلْطَة يدّعون أن الوجود -أعني العالم بأسره- خيال لا حقيقة له، وجهلوا أن القدرة المطلقة تَخلق الخيال والحقيقة من شيء ومن لا شيء

---

١ أي صراطه.

٢ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (سورة الأنعام، ١٥٣/٦).

٣ سورة الصف، ٥/٦١.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما تردّدتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٥ ش ك: أن محوى.

بكل صورة معلومة لنا ومجهولة عندنا. وتارة يجعلون الكون مرآة للبارئ يَرَى ذاته فيها فيُشرق بنوره وفيه يَغْرُب من غير زيادة ولا نقصان، وهذا فعل العابث. وتارة يجعلون الكون قديما وتارة محدثا، ويدّعون أن الكل واحد، وأن أسماء الأضداد تقتضي منه تعالى ذلك، وأن اسَم "المحيط" تلزم عنه الإحاطةُ بالأضداد كلها. وهذا الكلام وإن أمكن تخريجه على صورة تَحْسُن باعتبار مّا فهم لم يقصدوا تلك الصورة، ولم يفرِّقوا بين الكفر والإيمان. وهذا محض الهذيان منهم ومن أمثالهم. ومن وضع الكلام في غير موضعه لم يحصل له منه حاصل. وإن من انتفى عنده الفرق وساوى بين الباطل والحق فالإضراب عنه لازم، لأنه كفانا همَّ الاحتجاج عليه وحَقّق عند أهل الحق سوءَ مصيره الذي يصير إليه، والسلام.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾

هل أتىٰ على الإنسٰن حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، لمخلوق من سائر الخليقة إنسا وجِنّا وملائكةً وغير ذلك لو فُرض. وهذا سؤال جاء من أجل تقرير القصد، ثمرته إقرار المسئول لتقوم عليه حجة السائل بالحق، إذ ليس جوابه إلا بلى. والحين المراد ههنا هو ما تومئ إليه التصورات من دهر لا أول له، فترجع منقطعةً عن أزل لم يزل ولو دامت تتخيل ذلك مع الأبد. وهذا مما يوجب اعتراف الإنسان بأنه محدَث لم يكن، وله محدِث لم يزل. ولمّا كان الحق تعالى أزليَّ الوجود والإنسانُ أزليَّ العدم ثم صار له وجود فلا شك أن الموجِد له قادر على رده إلى ما كان، وإعادتِه إلى ما صار. ولهذا لمّا قال في آخر السورة المتقدمة: أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ،[1] بدأ هذه السورة مفتتِحا لها بذكر حال الإنسان ليقوم عليه من نفسه البرهان. وقد قال بعضهم: هذا الكلام لا يجوز، لأن "لا شيء" لا يأتي عليه الدهر؟ فالجواب أن الخطاب الآن هو لشيء لم يكن شيئا فيما مضى، كأنه قال لكل شيء مصنوع: هل أتى على الصانع حينٌ مّا ولو طرفةَ عينٍ لم يكن معه شيء. فالمراد إثبات تقدم الصانع على الصنعة، وهذا لا شك فيه. ولهذا قال: حِينٞ، لأنه متى ثبت التقدم للصانع ثبت التأخر للمصنوع. فالمصنوع يدرك من نفسه أنه لم يكن لأنه حادث، ويدرك من صانعه أنه لم يزل لأنه غير حادث. فالحادث لم يكن شيئا في علم نفسه / وإن كان شيئا في [٤٨١ظ]
علم محدِثه. ولهذا قال: **مذكورا**، كما قدّمنا. والمراد بالإنسان الجنس لا آدم.

ولهذا بيّن ذلك بقوله: **إنا خلقنا الإنسٰن من نطفة أمشاج نبتليه**، بالأمر والنهي تعبدا، لقوله: وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ.[2] وقوله: **فجعلنٰه سميعا بصيرا**، أي ليصح الابتلاء، وإلا[3] لا يصح مع عدم السمع أن يبتليه بما يتعلق بالسمع، ولا مع عدم البصر أن يبتليه بما يتعلق بالبصر.

---

[1] سورة القيامة، ٧٥/٤٠.
[2] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.
[3] ش: والّلا.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

ثم بعد هذا الجعل ذكر الابتلاء بما يتعلق بالعقل، فدل عليه بقوله: **إنا هدينٰه السبيل**، أي المنجية ليسلكها والمردية ليتركها. وتقديره ليكون، **إما شُكرا وإما كفورا**. ويكون[1] الهدى قد شمل الكافر أيضا لتثبت[2] عنده حجة الله عليه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولَد على الفطرة حتى يعبّر عنه لسانه»،[3] فعنده، **إما شُكرا وإما كفورا**، والمراد كفر النِّعَم. ولهذا قدم الشكر، وبيّن أن من كفر النِّعَم فقد كفر بالمنعِم، وليس من لم يشكر كافرا بل [هو] لا شاكر ولا كفور حتى يبدوَ منه أحدهما. ويدخل في ذلك اتّباع الرسل، لأنهم النعمة الكبرى في الدنيا والأخرى. فمن اتبع رسوله نالته تلك النعمةُ فشَكَر ربه عليها، ومن لم يؤمن به فقد كفر تلك النعمة؛ ولا بد للإنسان من إحدى الصورتين. ولهذا جعل القسمة ثُنائيّة، لأنها لا تصح إلا مع المكلفين. ولهذا ذكر الابتلاء أولا، والابتلاء لا يصح إلا لمن يقدر على الفعل والترك في الشيء وضده. ولهذا حسن قولُه بعد ذلك: **إنا أعتدنا للكٰفرين سلٰسل وأغلٰلا وسعيرا**.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

ثم ذكر الشاكرين بعد ذكر الكافرين فقال: **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا**، ذكر الكافور لبرده وبياضه. والمعنى أنه وصف الماء الذي يشربون به [و]الكأس بهذين الوصفين، أعني الصفاء والبرد، فالصفاء في لونه والبرد في كيفيته. وتقديره كان مزاجها كافورا،[4] وليس المراد الطعم. وبين ذلك بقوله: **عينا**، فهو منصوب على فقدان الخافض. وتقديره: يشربون من كأس مُزجت بماء كالكافور، ذلك الماء من عين، **يشرب**، ذلك الكأس، **بها عباد الله**. ولهذا لم يقل: فيها، أو عليها. وقوله: **يفجرونها تفجيرا**، أي بعد تفجير دائما في منازلهم ومقاعدهم،[5] وحيث شاءوا، فهم يُفجرونها. وذكر التفجّر تنبيها على عظم تلك العين، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.[6]

١ ن: أو يكون.
٢ ن: ليثبت.
٣ صحيح مسلم، القدر ٢٣.
٤ ك ن: كافور.
٥ ن: مقاعدهم.
٦ سورة البقرة، ٢/٧٤.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

ثم أتبع ذلك بذكر ما به نالوا هذه المنزلةَ فقال ما تقديره: كانوا، **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا**، يطيِّر العقولَ. وهو من استفعل بمعنى "استعمل زيدا" إذا جعله عاملا. فهذا اليوم يستطير القلوب من الصدور. وهو وصف من باب المثال تعظيما لشر ذلك اليوم ليحصل الخوف منه في هذا اليوم.

[أثر الخوف والابتلاءات في التدين]

واعلم أن الخوف يميت الشهوة ويطفئ الغضب، ويذهب بالكبر حتى تَعتدل به الطبائعُ. فإذا ضعف الطبع قوي العقلُ. فلو تُرك الناس بلا مؤدِّب لم تكن فيهم قوةٌ لمداواة دائهم. وهذا المؤدب قد يكون جزئيا، فيكون عقل الإنسان لنفسه أو لغيره كالمعلم. وقد يكون كليا كالسلطان. وأعم من ذلك ما يكون من جهة الوجود، أعني لا بواسطة / إنسان كالجوع في المجاعات والوباء. ولهذا تجد كثيرا من الناس يتقلبون [٤٨٢و] في الفقر. وذلك لحكمة إلٰهية ورأفة بهم لئلا يكون للطبع ما يُمده فيقوَى فيضعُف العقل. ومن هذا القبيل تكون الابتلاءات لأنها من حكيم رحيم. ويجب أن يَتحقق أن كل شيء ينصر العقل على الطبع قد ورد مفصلا في الشرع. فافقه ذلك في موضعه من الكتاب واستعملْه في موضعه عند احتياجك إليه. وكل مرحوم لم يَقْهر نفسه بالكتاب اختيارا من نفسه تعبّدا قُهر[1] في الوجود اضطرارا من جهة ربه تذكيرا وتفقدا، فعادت الرغبة فيما به تضعف الشهوة مَطْلبا من أعز المطالب. ولهذا مدح المذكورين بقوله: **ويطعمون الطعام علىٰ حبه**، أي على أنهم يحبون ذلك الطعام، ومنه قوله تعالى: أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ، وهي المكاسب الإنسانية، وقوله: وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ،[2] أي من طيبات ما أخرجنا. فذلك هو المحبوب الذي هو من أحد المحبوبات من الطعام. وفرقٌ بين من تصدق بطعام يحبه وبين من تصدق بطعام[3] فَضَل عنه أو لا يحبه. ومن تحقق أن عائد أفعاله عليه وزنًا بوزنٍ كره أن يُطعم في الدنيا إلا ما يحب أن يأكله في الأخرى. وفي قوله: **يطعمون الطعام**، تنبيه على الطعام المطبوخ المشتهى لصاحبه،

---

[1] ن: فهو.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٧).

[3] ك ن: بطاعم.

لأن اليتيم وأمثاله لا يقدرون على طبخ مثل ذلك وإن قدروا على قيمته. وفي هذا القول أيضا تنبيهٌ على أن المطعِم لم يكن له إلا طعام واحد فآثر به على حبه له، مسكينا ويتيما وأسيرا، معتقدا في ضميره.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا، وصفه بصفة الرجل العابس بل العبوس المقطِّب،[1] لأن ذلك حال الظالم اليومَ في ذلك اليوم، إذ فيه تَعبِس وجوهُ الكفار عند رؤية النار. وهذا كما يقال: يوم بارد. وقوله: **قمطريرا**، أي شديدا، يقال: اِقْمَطَرَ الأمرُ إذا اشتد بلاؤه.

ولمّا كان ضدُّ العُبوس الاستبشارَ قال بعده: **فوقٰهم الله شر ذٰلك اليوم ولقٰهم نضرة**، في الوجوه، **وسرورا**، في القلوب.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾

وجزٰهم بما صبروا، على ابتلائهم به مِحَنًا وتعبّدا، فصبروا أيضا على المأمور به وعن المنهي عنه. ولهذا قال: **صبروا**، ولم يخصصه، لأنه يريد عموم الصبر، **جنة وحريرا**، من اللباس تمثيلا بما يحبه الناس.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾

ثم وصف حالهم في الجنة بقوله: **متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا**؛ ومن لا يراه كيف يذوقه؟ وهذا من باب المبالغة. **ودانيةً عليهم ظلٰلها**، من الأشجار المثمرة. ولهذا بعده: **وذللت قطوفها تذليلا**، مناسبا لمرادهم لينالوا ذلك قياما وقعودا وعلى جنوبهم كيف شاءوا. والمراد: وجنةً أخرى دانيةً، فهذه فضيلة الواو، فافهمها. وذلك جزاؤهم لأنهم قالوا: إِنَّا نَخَافُ،[2] ودليله: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ،[3]

[1] قطَّب وجهَه تقطيبا أي عَبَس وغَضِب (لسان العرب، «قطب»).

[2] الآية ١٠ من هذه السورة.

[3] سورة الرحمن، ٤٦/٥٥.

جسمانية وروحانيةٌ، وإلا فلا فائدة. ولهذا وصف الكأسَ في هذه بغير وصف الكأس المتقدم.[١] والكأس عبارة عن المملوءة[٢] لا الفارغة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

ويطافُ **عليهم بئانية من فضة وأكواب كانت قواريرا**، قيل بمعنى مستقرة بحيث إذا وُضعت على الأرض مَلْآنَة لم تَتَبَدَّدْ. ثم قال: **قواريرَ من فضة**، وهي قراءة ابن كثير.[٣] ويحتمل أن يكون معنى التكرار من باب ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.[٤] والأولى أن التكرار عائد على الآنية والأكواب، فكرر لئلا يختص بالأكواب فقط. ولهذا كرر قوله: **من فضة**، / فافهم. وتقدير الكلام: بآنية من فضة كانت قواريرا، وأكواب من فضة كانت قواريرا.[٥] وأما المعنى فمراده بذكر القوارير الزُّجاج. ولمّا كان الزجاج مما ينكسر عرَّفَنا أنه من فضة ولكنها شفافةٌ كما يَشفّ أرقُّ الزجاج وألطفه فيُرى ما في باطنه من خارجه تلذذا بالنظر إليه. وقوله: **قدّروها تقديرا**، أي على مقدار رِيِّهم لا ينقص فيحتاج مَزيدا، ولا يفضُل فيحتاج تبديدا. ويكون المعنى قدروها الوِلْدان على قدر رِيِّ كل إنسان في الجِنان. والأولى أن المؤمنين قدروها في أنفسهم فجاءت على ما قدروا فكما أنهم يفجّرون فكذلك هم يقدّرون. [٤٨٢ظ]

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا، أي كالزنجبيل رائحةً. وهذا صفة الكأس ههنا لا صفة العين إلا أن تكون العين ههنا خمرا. ويحتمل أن يكون المزاج ليس المراد به ما تُمْزَج به الخمرة بل نفسُ مزاجها. فوصفه أولا بالكافور وأخيرا بالزنجبيل، يريد الشيء وضده لِما في هذا من التبريد ولِما في هذا من التسخين، ويكون التسخين بالقوة والتبريدُ بالفعل تشبيها[٦] بما تَشربه الملوكُ من الفُقّاع[٧] البارد وإن كان فيه الزنجبيل.

---

[١] انظر: الآية التالية برقم ١٧.

[٢] ن: عن المملوء.

[٣] قرأ الأول بالتنوين الحرميان والكسائي وأبو بكر وهشام، والباقون بغير تنوين، ووقف عليه حمزة بغير ألف ووقف الباقون بالألف. وقرأ الثاني بالتنوين نافع والكسائي وأبو بكر وهشام ووقفوا عليه بالألف، والباقون بغير تنوين في الوصل وبغير ألف في الوقف (كتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ٢٠١).

[٤] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.

[٥] ك ن – وأكواب من فضة كانت قواريرا.

[٦] ن: فشبهها.

[٧] الفُقّاع: شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد (لسان العرب، «فقع»).

ويُحتمل أنه أراد ما قد يفعله بعض أهل الدنيا من أنهم يُطيّبون الخمر تارة بالكافور وتارة بالزنجبيل وتارة بهما معا ليدفع أحدهما ضرر الآخر، ويطبخون ذلك ويستعملونه للدواء وللتمتع وإن أضافوا إليه غير ذلك، والله أعلم. وقوله: **عينا**، أي من عين، **فيها**. ويحتمل أن تكون العين ههنا عينَ ماءٍ. والأولى أنها عينُ خمرٍ. وكذلك ما قبلها، والله أعلم. وقوله: **تسمى سلسبيلا**، قيل: مأخوذ من السَّلْسَل وهو السهل في الحَلْق[1] دخولُه لعُذوبته وصفائه من الأكدار. والذي يقرُب في الأذهان أن السلسل هو ما يُشبه السِّلْسِلَة لَتجعده[2] في جريه وامتداده وحركته فهو غير الواقف من المياه. وقال بعضهم: هو مركب من كلمتين، أي سَلْ سَبيلا إليه.

﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾

ويطوف عليهم ولْدن مخلدون، ولدان[3] لا يتغيرون عن كونهم ولدانا. **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا**. اللؤلؤ إذا نُثر تَفرق فوقع شعاعُ بعضه على بعض فكان أحسن من المجموع فيبقى كالنجوم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾

عْليهم، منصوب بقوله: رَأَيْتَ،[4] أي قد علا عليهم من الأثواب، **ثياب سندس**، قيل: هو الديباج الرقيق، **خضر**، بالرفع تابع للموصوف وهو الثياب، **وإستبرقٌ**، أي وثياب استبرق وهو ديباج غليظ له[5] بَريق. وهذا يدل على أن الاستبرق غير أخضرَ لكونه قُدِّم عليه الموصوف بالخُضْرة. ولمّا جعل الاستبرق غير معيَّن اللون احتمل أن يكون لونه غير الأخضر أيّ لونٍ كان، ولزم أن تكون ثياب الاستبرق أيضا بينة عليهم لكن فوقها السندس الأخضر، وهو مفتوح كالفَرَجِيَّة مثلا فيكون عاليا قد علا على ما تحته من الثياب، وتحته الأحمر أو غيره من الألوان. وهو أيضا يحتمل أن يقال بأنه علا

---

[1] ش: في الخلق.
[2] ن: فتجعده. | تجعد: تعقّد (لسان العرب، «جعد»).
[3] جميع النسخ: ولدانا.
[4] من الآية السابقة.
[5] ن – له.

على ما تحته[1] لكنه ظاهر من قُدّام. ثم قال: **وحُلّوا**، من الحُلِيّ، **أساور**، بأساورَ، **من فضة. وسقٰهم ربهم**، هو[2] الساقي، **شرابا طهورا**، هذا الطُّهر لا يدركه إلا ذائقه. ثم يقال
لهم:[3] / **إن هٰذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا.** [٤٨٣و]

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾

فاصبر لحكم ربك، أي لأجْل حكمه حتى يقضي في أجَله على وفق الحكمة. **ولا تطع منهم ءاثما أو كفورا.**

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

ومن اليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا، أي في ليل طويل. يريد الليالي الطوال وهي من فصل الشتاء. وهذا ليس بفرض بل تنبيه على النوافل، فأمر بالسجود في سائر الليالي. ولهذا ذكر "الّيل" معرَّفا أولا، ثم بالتسبيح مع السجود في ليل طويل، ولهذا ذكره ثانيا منكَّرا.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾

ولمّا كان السجود والتسبيح مما ترجى به الآخرةُ قال بعده: **إن هٰؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم**، ولم يقل: أمامهم، لأنهم أعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم وإن كان أمامهم. فلما عادت وجوهُ مقاصدهم إلى الدنيا صارت وراءهم، **يوما ثقيلا.**

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨﴾

ثم قال ما معناه: كيف يعبدون من لم يخلقهم؟ **نحن خلقنٰهم**، متمكنين من الطاعة ليرتقوا بفعلها، ومن المعصية ليرتقوا بتركها. **وشددنا أسرهم**، تقول: هذا الشيء لك بأسره، أي برُمّته. ومنه الأُسْرة وهي الجماعة. والأسير الذي جمعتَه إليك،

---

[1] ن – من الثياب وتحته الأحمر أو غيرُه من الألوان وهو أيضا يحتمل أن يقال بأنه علا على ما تحته.

[2] ش: هذا.

[3] ك ن – لهم.

وقد تَشُدّه بالقدّ[1] وقد لا تشده، فهو أسير لكونه مجموعا إليك دون غيرك، لا لكونه مشدودا كما قيل. ولو كان الأسر الشدَّ لَمَا حسن أن يتقدمه: وشددنا. ولو كان الأسر الخَلْقَ لَمَا حسُن أولا أن يقول: نحن خلقنٰهم. ولهذا قيل: أَسْرَهم: مفاصلهم فهو المعنى، غير أنه معلوم من قوله: أسرهم، لا من صريح اللفظة، أعنى حقيقة مفهومها بل مما دلت عليه. وذلك أن كل مخلوق مجموع من عِدّة عِظام وغيرها. والله سبحانه شدّ الجميع بأسره. فكأنه قال: وشددنا بأسرهم، أي جميعهم. والمعنى أنا بَلَغْنا بهم حالَ القوة في الجسم والعقل والتميز، ومع ذلك يحبّون العاجلة ويؤثرونها على الآخرة. ثم قال مبينا لهم عن قدرته: وإذا شئنا بدلنا أمثٰلهم تبديلا، أي مستمرا على الدوام إشارة إلى قدرة لا تتناهى ولا تنحصر. ويُفهَم من هذا الكلام تعريضُهم لعظيم الثواب بالشيء وضده إذا قدرهم عليهما، وأنه لو شاء لبدّلهم، بل بدّل أمثالهم ومِثْلَ المِثل بمِثل على الدوام. ولمّا كان قادرا على التبديل ولم يبدل عُلم أنه تعالى أراد وقوعَ الطاعة منهم اختيارا لا منه لهم إجبارا.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

ولهذا بعده: إن هٰذه، الآيات تذكرة. ولمّا قال أولا: إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا وإمّا[2] قال أخيرا: فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه سبيلا. وهذا يلزم عنه أن للعبد مشيئةً كما قلنا في سورة الكهف[3] وغيرها[4] في عدة مواضع. لكن تلك المشيئة ليست منفصلة عن مشيئة الله سبحانه، بل مشيئة الله أعطتْنا مشيئة فهي مشيئة لنا بمشيئة الله، لأنه شاء[5] أن نشاء. ولا تَفهم أنه شاء أن نشاء شيئا[6] مخصوصا دون ضده. فتلك لا يقال لها مشيئةٌ منا، بل إجبار منه لنا على ما يشاء الذي قد يكون ضد ما نشاء، شئنا أم أَبَيْنا.[7] فلهذا يجب أن تفهم[8] أن المراد مجردُ المشيئة فقط، فوهبَنا الله مشيئة لا غير. ونحن نشاء بها فَنُوَقِّعها على ما شئنا من شيء أو ضده مما أقدرَنا عليه ابتلاءً لنا ليَعْظُم أجرنا بفعل الواجب وتركِ ضده. وقد علمت أنه يلزم من قول القائل: "خذ ما تشاء من هذه الثياب" مثلا

---

١ أي بالقامة.
٢ الآية ٣ من هذه السورة.
٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٢٩ من سورة الكهف.
٤ انظر على سبيل المثال: سورة النساء، ٧٩/٤؛ وسورة المزمل، ١٩/٧٣.
٥ ن: الله لا شاء.
٦ ن: مشيئا.
٧ ك ن: أم أبيناه.
٨ ش ك: أن يفهم.

أن يكون / القائل قد حكم المقولَ له وشاء أن يشاء ما يشاء.[١] [٤٨٣ظ]

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ۝٣١﴾

ثم عرّفه أنه لم يكن مالكا تلك الثياب ولا المشيئةَ في أخذ شيء منها إلا أن يشاء مالكها له شيئا منها أو مشيئة فيها فقال: **وما تشاءون إلا أن يشاء الله**، أنكم تشاءون. وهذا التقدير لازم في العقل، لأنك لو قلت: "لا تأكل إلا إن شئتُ" كان تقديره: إن شئت أن تأكل، وليس تقديره: إن شئت أن تسافر. وكذلك قوله: **وما تشاءون إلا أن يشاء الله**، تقديره: أن تشاءوا، فافقه هذا جيدا. وقوله ههنا: أَنْ، هي[٢] شرط، وليس معناها "ما" التي هي بمعنى الذي، وههنا غَلط مَن غلطَ، ولو وقف مع مفهوم اللفظ سَلِمَ. وما ذلك الغلط إلا لكونه أقام "أَنْ" مقام "مَا". وذلك بخلاف ما قال الله، إذ لو قال: وما تشاءون إلا ما يشاء الله، لَزِم ما قال الغالط ولم يكن غالطا. ومن حيث لم يقل لزم أن الغالط خرج عن نص الكتاب إلى ما اعتقد هو أنه نصُّه ومعناه، وليس كذلك. فافقه هذا جيدا جيدا. وقال الرُّمَّاني:[٣] الشيء هو مصدر شاء يشاء شَيْئًا، مثل جاء يجيء جَيْئًا، والمشيئة كالمجيئة. وإنما اعْمَلْ على ما ترى لِتعلّق كل ما تجد[٤] حسا وعقلا وظنا ووهما بالمشيئة، واكتسى بهذا المعنى بعض خصائص الاسم وخرج به عن أصل المصدر،[٥] تم كلامه.

[مشيئة الله ومشيئة الإنسان]

واعلم أن الإنسان لا يقدر أن لا[٦] تكون له مشيئة وإن لم تظهر منه، كما لا يقدر أن لا يكون له نطقٌ وإن صَمَت، لأن النطق من لوازمه ومقوِّمات ذاته، وكذلك المشيئة. وبرهان ذلك أن الخصم إن سلّم ما ادعيناه من أن الإنسان لا يقدر أن لا تكون له مشيئة فقد بطل النزاع وثبت الحق. وإن نفى ذلك فقد أثبته بنفس نفيه له لأنه شاء النفي.

---

[١] ك ن: ما شاء.

[٢] ن - هي.

[٣] هو أبو الحسن الرماني علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة. أصله من سَامرّاء. له نحو مائة مصنف، منها: الأكوان، والمعلوم والمجهول، والأسماء والصفات، وكتاب التفسير، ومعاني الحروف، والنكت في إعجاز القرآن. توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م (الأعلام للزركلي، ٤/ ٣١٧).

[٤] جميع النسخ: ما نجد.

[٥] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[٦] ك - لا.

وإذا عاد النفي مُثبَتا لزم أن ينتفي إثبات ما ينفي، وعادت المشيئة من ملازم الإنسان ولوازم حقيقته التي لا تنفصل عنه، ومقوّماتِ ذاته وجزءِ وجوده الذي لا يصح إلا بجزئه. وفي ذلك قيل نظما:

أبدع مخلوقاتِه ومنهم ... خلائقٌ بينهم الخُلْفُ فشا،
قالوا: له مشيئة سابقة ... فينا ونحن ما لنا إذا نشا؟
قلنا: صحيح سبقت مشيئة ... وكل ما أنشأه بها نشا،
فشاء ما شاء على ما شاءه ... وشاء أن يخلق مخلوقا يشا.[1]

فافقه أنه سبحانه شاء أننا نشاء فقط، لا أننا نشاء الأبيض دون الأسود مثلا، أو بالضد. فقد بيّنّا أن ذلك لا يقال له مشيئة منا، بل منه سبحانه، فليس لأحد أن يفهم من هذا الكلام ما معناه: وما تشاءون قبيحا أو عُسْرا إلا أن يشاء الله لكم أن تشاءوه بعينه، فإنه تعالى قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.[2] فهل يشاء أن نشاء ما لا يريده لنا؟ فيلزم عنه أنه يريد ما لا يريد،[3] ويعود ذلك ردّا عليه عز وجل. فتأنَّ لتَفهم. ولا شك أنه لم يجعل لنا مشيئةً مطلقة بل مقيدةً بما هو لنا كسبٌ من شيء وضده، إذ ليس لأحدنا أن يصعد إلى السماء أو يأتيَ بالشمس من المغرب، بل له أن يعبد الله أو يعبدَ[4] الشيطان بمشيئته التي شاء الله أن تكون له مشيئةٌ. فمن زعم أنه ليس للعبد مشيئة، فقد / أبطل [٤٨٤و]
حكمة الخطاب، وكذّب الكتابَ، وأبطل مشيئة رب الأرباب. وذلك محال بل ضلال.

ولما نبّه بقوله: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، على أن العبد غير مبتدئ بمشيئة هي منه استقلالا بما يشاء عَلَّل[5] على[6] ذلك بقوله بعده: **إن الله كان عليما حكيما**، أي إنه لو فعل ذلك لبطلت الحكمة. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ [وَمَن فِيهِنَّ]﴾.[7] وقد أوضحنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾،[8] فلا فائدة في إعادته. ولكن ههنا كلام مفهوم من النص يجب أن تَسمعه وتَفقهه بعد ما سمعت هذه الجملة، فهو المراد بهذه الآيات ولا يناقض ما قدمناه.[9] وذلك أن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾،[10]

[1] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
[2] سورة البقرة، ١٨٥/٢.
[3] ك - ما لا يريد، صح هـ.
[4] ش ك: ويعبد.
[5] ك - علل، صح هـ.
[6] ك ن - على.
[7] سورة المؤمنون، ٧١/٢٣.
[8] سورة الإسراء، ١٨/١٧.
[9] ك ن: ما قدمنا.
[10] الآية ٢٩ من هذه السورة.

معناه قد أزحنا العلة وفتحنا باب الهدى لمن شاء سلوكَ سبيله بهذه التذكرة. ثم قال على سبيل التبكيت لمن قَصَروا الإخبار بحال من كفر؛ أي مع كوننا أزحنا العلة، وأوضحنا المحجة بالكتب، وأقمنا الحجةَ بالرسل، ومكّنّاكم من اتخاذ السبيل المنجية: **وما تشاءون**، أي وأنتم مع هذا كله ما تشاءون اتخاذَ السبيل إلى ربكم، **إلا أن يشاء الله**، ذلك إجبارا لكم، وبين أنه لا يجبر العباد، لأن ذلك يُبطل غرضَ التكليف. وذلك البيان هو بلازم[١] قوله: **إن الله كان عليما حكيما**، إذ[٢] لم يجبركم. ولهذا فَصَل الفريقين بالوعد والوعيد فقال: **يدخل من يشاء فى رحمته**. وقوله: **والظلمين أعد لهم عذابا أليما**، تقديره ويدخل الظالمين في عذاب أليم أعده لهم. والأَولى أنه تنبيه على قدرته سبحانه وإن لم يفعل ذلك، أي مع كونه قادرا على إدخال الظالم في الرحمة وإجبارِه[٣] على اتخاذ السبيل لا يفعل ذلك، لأنه عليم حكيم، إذ ذلك يُبطل الغرضَ بخلق الإنسان وإنزال القرآن وإيجادِ الأكوان. فلا يصح ذلك كله مع الإجبار، بل مع المشيئة للعبد والاختيار ليصح الابتلاء له والاختبار.[٤] ولمّا قدم قوله: **يدخل من يشاء فى رحمته**، إنباءً عن قدرته فقال: **والظلمين**، أي ويدخل الظالمين. تقديره: الذين أعد لهم عذابا أليما، أي لو شاء لفعل لكنه لا يفعل إلا على[٥] وفق العلم والحكمة. فالكلام جملة فافهمه، وإن كان غير المعنى الأول ولكنه لا يناقضه في المقصود به. وكلاهما مفهومان من اللفظ ولكن الثاني أحقُّ به والأول محتمل له. فكرِّرْ هذه الألفاظ على خاطرك متأملا لها فَاقِهًا[٦] واقفا مع معانيها، لا واقفاً مع ما عسى أن يَعْرِض لك من الرد على العبارة التي قد لا ترضيك في بعضها فتشتغل بنقضها. بل افهم المعنى من كلام الله بكلامي لا من كلامي ليَثْبت الحق في خاطرك ثبوتا لا تعارضه الشكوك، ثم عبّر بما شئت إن شئت. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فمن لم يَفهم ما بيّنّاه لم يَفهم[٧] ما الإنسانية. وذلك ما لزم من قوله تعالى أولا: نَّبۡتَلِيهِ[٨] وأخيرا: فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ.[٩] والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

١ ك ن: هو يلازم.
٢ ن: إذا.
٣ ش ك: وإجبارهم.
٤ ك – ليصح الابتلاء له والاختبار، صح هـ.
٥ ش – على.
٦ ك ن – فاقها.
٧ ك – ما بيناه لم يفهم، صح هـ.
٨ الآية ٢ من هذه السورة.
٩ الآية ٢٩ من هذه السورة.

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾

والمرسلٰت، أقسم بها وهي الرياح الساكنة المرسَلة، ولا يريد بها أنها مسيَّرة / من جهة إلى أخرى، بل الإرسال الذي هو كالإباحة، كما يقال: أرسل كلامه مثلا،[1] [٤٨٤ظ] وأرسل فرسه في المَرْج[2] إذا أطلقها. وقوله: عرفا، أي معروفا؛ وهو كما تقول: هذا الشيء معلوم في العرف والعادة. فهو يشير إلى الرياح التي هي غير عاصفات بل هي مرسلات في العرف لتُمدّ أولي الحياة بالتنفس عند الاستنشاق، إذ لو حُجبت لم يَبْق ذو حياة متنفس إلا مات. فالعٰصفٰتِ عَصْفا، أقسم بالرياح العاصفات أيضا. وقوله: عصفا، مصدر. فأقسم بها مع السكون ومع الحركة، أعني الرياح. والنّٰشرٰت نشرا، وهي رياح أيضا تنشر السحاب، لقوله: وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ.[3] والوجه في تكرار القسم بالرياح وإن كانت واحدة هو ما اختصت به في حال دون حال. فأقسم بها حال كونها ساكنة، ثم حال كونها[4] متحركة، ثم حال كونها ناشرة، ثم حال كونها فارقة. فقال: فالفٰرقٰتِ فَرْقا، وهي الرياح أيضا تَفرُق السحاب على البلاد، كقوله تعالى: ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ إلى قوله: وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا.[5] فهو يفرق فرقا بين الكسفة والأخرى ويسوق كل واحدة إلى بلد يشاء. وانظر كونه بدأ بالواو في قوله: والمرسلٰت، ثم بالفاء، ثم بالواو، ثم بالفاء وغيّر الترتيب ليدل على أن المراد غير الرياح، فقال بالفاء: فالملقيٰت ذِكْرا، يريد الملائكة. فأقسم بالرياح والأرواح. وقوله: ذكرا، يريد كتاب الله على قلوب رسله إلى خلقه. عُذْرا أو نُذْرا، "عذرا" ما يقيم عذر البارئ عند عباده إذا تركوا الطاعات ففاتهم الثواب، أو "نذرا" إذا انتهكوا المعاصي فنالهم العقاب.

---

١ ك - أرسل كلامه مثلا، صح هـ.

٢ المَرْج: أرض ذات كلأ ترعى فيها الدوابُّ، وفي التهذيب: أرض واسعة فيها نبت كثيرة تمرج فيها الدواب (لسان العرب، «مرج»)

٣ سورة الأعراف، ٥٧/٧.

٤ ك - ساكنة ثم حال كونها، صح هـ.

٥ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ (سورة الروم، ٤٨/٣٠).

ولهذا كان جواب القسم: **إنما توعدون لوٰقع**، أي ما توعدون به من الجزاء بالعذاب، أو الثواب[1] واقع لا محالة.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

فإذا النجوم طمست، بدأ بما به يهتدون في ظلمات البر والبحر.[2] وفيه إشارة إلى فَقْد العلماء المنذِرين بالقيامة. **وإذا السماء فرجت**، شُقّت. **وإذا الجبال نسفت**. **وإذا الرسل أُقِّتت**، وبالواو قرأ[3] الأكثر،[4] ومن قرأ بالألف أراد معنى الواو. والمراد أُتي بها في وقتها الذي وُقّتت له لكي تشهد على الأمم، لأنه تعالى ضرب لها ميقاتا لتقوم الحجةُ بها على العُصَاة.[5] ولهذا قال بعده مستعظما مخوِّفا: **لأيّ يوم أُجِّلَت**، يعني الرسل. **ليوم الفصل**. **وما أدرٰنك ما يوم الفصل**؟ ثم وصف بعض ما فيه بقوله: **ويل يومئذ للمكذبين**، "ويل" كلمة وعيدٍ كما أن "طوبى" كلمة وعد وغبطة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

ثم خاطب الحاضرين والآتين بما لا سبيل لهم إلى جحوده من حال الماضين فقال: **ألم نهلك الأولين**، كقوم نوح، **ثم**، أَلَمْ، **نتبعهم الآخرين**، كقوله: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ.[6] ولم يقل: مع، نتبعهم: "أَلَمْ" ليبقى الأمر كذلك دائما. وبين ذلك بقوله بعده: **كذٰلك نفعل بالمجرمين**، أي إلى يوم القيامة. **ويل يومئذ للمكذبين**، كرر ذكر الويل، لأن صوره مختلفة وإن كان اسمه واحدا. ولهذا ذكره بعد النِّقَم والنِّعَم.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

١ ن: والثواب.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٧). وانظر أيضا: سورة النمل، ٢٧/٦٣.

٣ ن: وبالواو وقرأ.

٤ قرأ أبو عمرو وصلا ووقفا بواو مضمومة في مكان الهمزة مع تشديد القاف، وأبو جعفر بواو كذلك مع تخفيف القاف، والباقون بهمزة مضمومة مع تشديد القاف (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٣٤).

٥ ش: على العصات؛ ك – على العصاة، صح هـ.

٦ سورة الإسراء، ١٧/١٧.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فجعلنٰه فى قرار مكين، من صلب الرجل، ثم في بطن المرأة، **إلىٰ قدر**، بمعنى أجل مقدَّر، **معلوم**، لسائر الخلق إلا ما تفرد بعلمه الحق، بقوله: وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ.[1] **فقدرنا**، أي جعلنا ذلك بمقدار معلوم كالأشهر التسعة للإنسان والسَّنة، أو ما دونها لبقية الحيوان. وقوله: **فنعم القٰدرون**، أي عند من يعلم من عبادنا، لأن من يقدر على الإبداء يقدر على الإعادة، والقادر عليهما[2] نعم القادر، إذ لا قدرة أبلغَ من قدرته. وقرأ بعضهم "فقدرنا" بالتشديد.[3] وقال الفراء: التخفيف والتشديد / بمعنى [٤٨٥و]
واحد.[4] ولمّا ذكر القدرة على الإبداء والإعادة لزم القدرةُ على الجزاء، فكرر وقال: **ويل يومئذ للمكذبين**.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم نبّههم على الاعتبار بالقريب المشهود من الشيء المعهود فقال: **ألم نجعل الأرض كفاتا**، الكفات ما يُكفَت[5] فيه شيء فيُضم. وهو بمعنى كافتة.[6] ويحتمل أن تكون -أعني الكلمة- بمعنى المصدر من كفَت يَكْفِت كَفْتا وكِفَاتا: مثل خَدَع يَخدع خَدْعا وخِداعا بمعنى ما نُقل من المصدر إلى الاسم. وقال الفراء: كفاتا، أوعية،[7] ويريد ما يُبنى على ظهرها للأحياء وما يستودع في بطنها من الأموات. ولهذا قال: **أحياء**، أي الآنَ: **وأموٰتا**، أي من قبل ومن بعدُ، ثم[8] يصير الجميع إليها. **وجعلنا فيها روٰسى شٰمخٰت**. نبّه بكونه جعل الأرض كفاتا للأحياء على نعمة عظيمة، كقوله: وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا،[9] ثم نبّه على كون الأرض كفاتا للأموات على ما هو أبلغ

---

[1] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٦٧/٤٠).

[2] ن: عليها.

[3] قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بتشديد الدال، وافقهم الحسن، والباقون بالتخفيف (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٦٧.

[4] معاني القرآن للفراء، ١١٣/٣.

[5] كَفَت الشيءَ إليه يَكْفِته: ضمّه وقبضه (تاج العروس للزبيدي، «كفت»).

[6] ن: كافة.

[7] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٥٠٦/٢١.

[8] ن + ثم.

[9] سورة النحل، ٨٠/١٦.

في النعمة على الأحياء، إذ لو بقي الأموات مع الأحياء دون دفن في الأرض لهلكوا. ثم ذكر النعمة بالرواسي لئلا تَمِيد الأرض بسكانها.[1] وأسقينٰكم، وقد تقدم الفرق بين سقيناكم وأسقيناكم،[2] ماء فراتا. قال عليه السلام: «إذا شرب أحدكم الماء فليشرب أبرد ما يقدر عليه، لأنه أطفأ للمِرّة وأنفع للغُلة وأبعث على الشكر».[3] وكرر: ويل يومئذ للمكذبين، أي بهذه الأدلة على الصانع المذكورة في كل فصل. فهذا وجه التكرار، فاحفظه جيدا.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٍ كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾

انطلقوا إلىٰ ظل ذى ثلٰث شعب. حُكي عن الحسن قال:[4] ما أدري ما هذا الظل والشعب الثلاث.[5] وقيل: المراد بالظل النار، كقوله: لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ؛[6] وإنه جعل النار كالشجرة، وثلٰثِ شعب،[7] بأنه، لا ظليلٍ ولا يغنى من اللهب، وإن فيه شررا. والشرر مشتق من الشر، وقيل: بالعكس. والأولى أن الظل هو دخان جهنم. الشعب الثلاث ما فيه من الشَّرَرَ. فشعبة ترمي المكذِّب من أمامه، وشعبة ترميه من يمينه ومثلها من شماله. ولهذا وصفه بأنه: لا ظليلٍ ولا يغنى من اللهب، لأن حرّ اللهب فيه، وفيه شعب خارجة من النار من جهة الأمام واليمين واليسار. فإلى هذا الظل يكون أولا الانطلاق، ثم يتجاوزونه إلى الاحتراق.

وبيّن الشعب بقوله: إنها ترمى، المنطلقَ إليها، بشرر كالقصر. فلو لم يكن المَرْميّ بالشرر خارج النار لما كان للشرر فائدة إلا تعظيم النار. وأما ما قلناه فيُفهَم منه التعظيم والتعذيب من قبل دخول النار. ولمّا كان الدخان قبل النار وصفه بذلك.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٥. وانظر أيضا: وسورة لقمان، ٣١/١٠؛ وسورة الأنبياء، ٢١/٣١.

[2] لعل المؤلف يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ (سورة الجن، ٧٢/١٦).

[3] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر والمراجع. فالله أعلم بصحته.

[4] ك - قال، صح هـ.

[5] انظر: غرائب القرآن للنيسابوري، ٢٩/١٣٧.

[6] سورة الزمر، ٣٩/١٦.

[7] قال ثعلب: يقال: إن النار يوم القيامة تتفرق إلى ثلاث فرقٍ، فكلما ذهبوا أن يخرجوا إلى موضع ردتهم. ومعنى "الظل" هنا أن النار أظلته، لأنه ليس هناك ظلٌّ (لسان العرب، «شعب»).

والقصر واحد القصور، لأنه لمّا جعل قُبالةَ ظل أهل الجنة[1] دخانَ جهنم وسماه ظلا جعل قبالة قصور أهل الجنة شررا وسماه قصورا. وفي قول الحسن: [القصر] الجِذْل[2] من الخشب، واحده قَصَرَة، مثل جَمْر وجَمْرَة وتَمْر وتَمْرَة.[3] والقصر بلغة هَمَدان قطع الشجر. كأنه جِمٰلَتٌ صفر، وهي جمع جمالة مثل جماعة وجماعات. والجمالة جماعة جِمال وهي جمع جَمل، كحَجر وحجارة. فهي قطعة أو سُرْبَة[4] من جِمال، والجمالات[5] جمع الجمع فهي[6] قطع مجموعة من جِمال، كل قطعة منفصلة عن الأخرى. فشبه الشَّرَر بالجِمالات، وشبه الواحدة منهن بالقصر. وإنما وقع التشبيه بذلك لكون العرب يعرفونه.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾

هٰذا يوم لا ينطقون، أي بحجة، وبهذا يزول التناقض.[7] **ولا يؤذن لهم فيعتذرون**، وإن لم تكن لهم حجة، لأن العذر غير الحجة. وقال المعارض: / الاعتذار داخل في [٤٨٥ظ]
النطق، فكيف يصح أنهم لا يؤذن لهم في الاعتذار، وقد ذكر أن النطق ممتنع عليهم؟ فالجواب تقدم. وأيضا إذا كان الإذن عائدا على النطق زال الإشكال، أي لا ينطقون فيمكنهم الاعتذار. فنفى النطق من جهتهم ونفاه من جهته لو طلبوه منه. وإذا انتفى النطق لزم أن يكون الاعتذار منفيا. والمراد أنهم لا حجة لهم فلا ينطقون بحجة، ولا يؤذن لهم في النطق بعذر وإن كانوا قد ينطقون بالويل والثبور وغير ذلك. **ويل يومئذ للمكذبين**.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾

هٰذا يوم الفصل، يُفْصَل فيه بين أهل الجنة وأهل النار بعد أن جُمع الجميع. ولهذا بعده: **جمعنٰكم والأولين**، واو المعية. والمراد جمعناكم مع أمثالكم من الأولين

[1] انظر: الآية ٤١ من هذه السورة.

[2] الجِذْل: أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع (المعجم الوسيط، «جذل»).

[3] لسان العرب، «قصر».

[4] السُّرْبَة: الجماعة من الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين. وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين (لسان العرب، «سرب»).

[5] قرأ رويس بضم الجيم وغيره بكسرها، وقرأ حفص والأخوان وخلف بغير ألف بعد اللام على التوحيد، وغيرهم بإثباتها على الجمع (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٣٤).

[6] ن – فهي.

[7] أي بين هذه الآية وبين الآيات التي تخبر كلام أهل النار.

المكذبين الذين آذوا[1] رسلي في الدنيا وانتقمتُ منهم بها. **فإن كان لكم كيد فكيدون،** في هذا اليوم كما كنتم تزعمون في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾

ويل يومئذ للمكذبين، بهذا الوعد، لأنهم إذا رأوا صحته كان لهم ويل وأي ويل بفواته، كما لهم ويل بصحة ما رأوه من وعيدهم! وكذلك يتنوع ويلهم بتنوع الوعد وبتنوع الوعيد، فلزم التكرار للإعلام بذلك.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾

كلوا وتمتعوا قليلا، من العمر، **إنكم مجرمون. ويل يومئذ للمكذبين،** من عذاب ما تمتعوا به لغير الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾

ويل يومئذ للمكذبين،[2] الذين يكذبون بهذا الحديث.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾

جاء في الحديث «إذا قرأ أحدكم المرسلات فأتى على آخرها فليقل: آمنت بالله وبما أنزل».[3]

---

[1] ك ن: كادوا. وفي هامش ك: آذوا.

[2] ك – من عذاب ما تمتعوا به لغير الله وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين، صح هـ

[3] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين، ٥/٨١.

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

عم، عن ما، بمعنى عن أيّ شيء، **يتساءلون**. والعرب إذا وضعوا "ما" في الاستفهام حذفوا ألِفَها تفرقة بينها وبين الاسم، مثل فِيم، ولِم، وعَلامَ، وحتّام، ومِمّ، وبِم. وقولهم: "إمّا" بتشديد[1] الميم، أصلها "أم" زِيد عليها "ما" النافية وبكسر الألف، أصلها إن ما. وقوله: **عن النبأ العظيم**، بصورة السؤال.

ثم وصف الحال بقوله: **الذى هم فيه مختلفون**، يسأل بعضهم بعضا: أيّ شيء هو هذا النبأ عندك، أسحر، أشعر، أكهانةٌ؟ وكل واحد يخالف الآخرَ في الخَرْص[2] ويوافقه في الكفر. والمعنى عن النبأ العظيم تساؤلهم[3] ليس كما اختلفوا وقالوا فيه. وهو معنى [قوله:] **كلا سيعلمون**، في الدنيا نبأه، كقوله: وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ.[4] **ثم كلا سيعلمون**، في الأخرى. والذي تواعدهم به في الدنيا الانكسار، وفي الآخرة النار. وبيان ذلك في قوله تعالى: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ،[5] ليكون صدقه عندهم في الدنيا دليلا على صدقه عنهم في الأخرى. وسمّي القرآنَ النبأ، لأنه نبّأهم به ما يجري عليهم في الدنيا والأخرى. فلزم أن يقول: **ثم كلا ستعلمون**، مع جواز أن يكون ذلك التكرار تعظيما وتفخيما زيادة في التحذير بالتكرير. ثم حذف ما معناه: أيظنون[6] أننا لا نقدر على مجازاتهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾

السُّبْت في اللغة القطع، فهو قطع للأعمال الظاهرة والأفكار الباطنة لتتعطل النفس فتستريح بانقطاعها عن الابتلاء والكدّ، فهذه قدرة قادرٍ يَعْلم النعمة بها المريضُ ومن فُقد النومَ.

---

١ جميع النسخ: وتشديد.
٢ ش ك: في الحرص.
٣ ش: تسالوهم.
٤ سورة ص، ٣٨/٨٨.
٥ سورة آل عمران، ٣/١٢.
٦ ن: معناه يظنون.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

وجعلنا الليل لباسا، ولمّا كان اللباس قد يقي من الحر مع أنه ساتر، والليلُ ساترا
[٤٨٦و] وواقيا من حر الشمس، إذ لولا غيبة الشمس في الليل لهلك أكثرُ الموجودات / من الحيوان والنبات كانت هذه الاستعارة من بديع الكلام. وكذلك استعار لليل سَكَنًا[١] لمكان السكون فيه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾

وبنينا فوقكم، من السماوات، سبعا شدادا، قوية، وهو[٢] من الشد، ومنه الرجل الشديد. وشداد جمع شديدة.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾

وجعلنا، فيما بنينا، سراجا، وهو الشمس، وهّاجا، ذا وَهَج لفرط الحرارة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

وأنزلنا من المعصرٰت، الريح التي تُعصر إعصارا فهي معصرة تُعصر السحاب، أي تتركه يَعْصُر ماءه. وإنما قال: من المعصرٰت، لأن المعصرات تصيب أحيانا بما يُحرِق الزرعَ، كقوله: فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ،[٣] فأنزل الله من هذه، ماءً. ولهذا لم يقل: من المعصَرات بفتح الصاد ولا العاصرات[٤] وهي السُحُب بل ذكر سبب السبب. وقوله: ثجاجا، دفّاعا يدفع بعضه بعضا. ثجّ الدمُ من البدن يَثُجّ ثُجوجا، وهو المندفقُ الصبِّ كالصبّاب، ويريد تتابع القطر. والثجُّ يكون لازما ومتعديا. لنخرج به حبا ونباتا وجنّٰت ألفافا، أي[٥] ملتفّة وهي الشجر المُجِنّة الملتفّة فهي ساترة.[٦]

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٦).

٢ ن – وهو.

٣ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٦).

٤ ك ن: ولا العصرات.

٥ ك ن – أي.

٦ ش: سائرة.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾

ولمّا ذكر هذه النِّعَم بعد الوعيد المتقدم بقوله: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ،[١] جعلها برهانا على من كفرها، وعاد إلى الوعيد له فقال مستعظما مخوِّفا: **إن يوم الفصل كان ميقٰتا، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا، وفتحت السماء فكانت أبوٰبا**؛ الفتح والشقّ[٢] والانفطار يتقارب. وقد يوصف الفتح بأنه باب وإن لم يُغلق عليه. **وسيرت الجبال فكانت سرابا**، كالماء المائع فيما يراه الناظرُ من بعيد وليس بشيء في الحقيقة. والمراد أنها لها حقيقة لكنها في النظر تشبه السرابَ. ولهذا لم يقل: فصارت بل، **فكانت**، في النظر كسراب. وذلك قوله تعالى: وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ.[٣]

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾

إن جهنم كانت مرصادا، تَرصُد مَن حق عليه العذاب. والأولى[٤] أنه وصفها بأنها موضعٌ لمن يرصد، وهم ملائكة العذاب، كقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ،[٥] وهو مفعال من الرصد. **للطٰغين مـٔابا**، مرجعا لهم يرجعون إليه بعد الحساب وهَوْلِه. **لابثين فيها أحقابا**، الحُقُب بالضم ثمانون سنة. وقيل: يوم السنة ألف عام لأنها من الأيام التي عند الله. والجمع حِقاب، والحُقْبة واحدة الحقُب وهي السنون. والحقب الدهر والأحقاب الدهور، وهو المراد ههنا أي دهورا لا آخر لها. **لا يذوقون فيها بردا**، أي بردا يَلْتَذُّون به، كقوله تعالى للنار: كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا،[٦] **ولا شرابا إلا حميما وغَسّاقا**، أي إلا من حميم وغساق، وهو صديد أهل النار. **جزاء وفاقا**، على وفق عملهم بحساب على الذَّرّ.[٧]

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾

---

١ الآية ٤ من هذه السورة.

٢ ن: الشق.

٣ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨٨).

٤ ن: والأول.

٥ سورة الفجر، ٨٩/١٤.

٦ ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٦٩).

٧ ش ك: على الدر. | لعل المؤلف رحمه يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (سورة الزلزلة، ٩٩/٧-٨).

إنهم كانوا لا يرجون حسابا، بيّنّا "يرجون" في سورة نوح.[1] وكذبوا بئايْتنا كِذّابا، بوزن فِعّال للمبالغة ولموافقة الوِزان.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ۝٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾

وكل شيء، مما كسبوه، أحصينٰه كتٰبا، في كتاب، يشير إلى ما كتبته الحَفَظَة من كسبهم، لهذا بعده: فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ۝٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ۝٣٤﴾

ثم قال في ضد الوعيد مُعظّما للوعد: إن للمتقين مفازا، تذكيرُ مفازة، وهي الطريقة يفوز سالكُها بمقصوده، ولهذا لا تقال في الشر: فهي مفازة إلى الحدائق. حدائق وأعنٰبا، وكواعب، جمع كاعب وهي الجارية بَرَزَ نَهْدُها، أترابا، أي أتراب "المتقين" في الشِّبه والحسْن. ويحتمل أنهن أتراب بَعضهنّ لئلا يشتاق أحد إلى ما لغيره، بل كلهن في غاية الحسن فهنّ أتراب. وكأسا دهاقا، مُتْرَعَة،[2] من الدَّهْق وهو التتابع / والشد والازدحام. [٤٨٦ظ]

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ۝٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ۝٣٦﴾

لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذّٰبا، كَذِبا، وقيل تكذيبا. جزاءً من ربك. ولمّا كان أهل النار هم الذين أوجبوا الجزاء لأنفسهم لم يقل: من ربك.[3] وأما أهل الجنة وإن كانوا أيضا أوجبوا لأنفسهم هذا الجزاء، لكنه مقرون بالفضل الذي فَضُل عن الجزاء فلهذا قال فيه: من ربك عطاء حسابا، بحساب. والمعنى أنه تعالى هو الذي يتولى هذا الجزاء بنفسه. وأما الكفار فالذي يتولى جزاءهم ملائكة النار.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ۝٣٧﴾

ثم قال: رب السمٰوٰت والأرض وما بينهما، لأنه لمّا قال: مِن رَّبِّكَ،[4] عرّف أنه رب الكل، ولهذا قال: الرحمنِ. وقوله: لا يملكون منه خطابا، إشارة إلى أن[5] من يملك شيئا فهو لا يملك من الله أن يخاطبه الله وإن ملك غير ذلك. والمراد [هنا] الروح والملائكة.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ (سورة نوح، ١٣/٧١).

[2] ش: منزعة. | المُتْرَع: المملوء (لسان العرب، «ترع»).

[3] مثلا في الآية ٢٦ من هذه السورة.

[4] من الآية السابقة.

[5] ك – أن، صح هـ.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

فبيّنه بما بعده وهو قوله: **يوم يقوم الروح**، جبريل، **والملٰئكة صفا**، فلا هو يخاطبهم إلا إن شاء ولا هم يخاطبونه إن شاءوا. ولو كان معنى قوله: **لا يملكون منه خطابا**، بمعنى مخاطبة له لأغنى قوله: **لا يتكلمون**. ثم قال: **إلا من أذن له الرحمن**، أن يتكلم فهو يتكلم ولا يملك منه سبحانه خطابا. فافهم قوله: **منه**. وقوله: **وقال صوابا**، شرط، لأنه إن أذن له الرحمن أن يتكلم[1] لا يتكلم بما شاء إلا إن قال قولا صوابا فهو يتكلم. ومعنى الصواب ههنا الواجب من الحق.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾

ذٰلك اليوم الحق، لأنه لا باطل فيه من قائل ولا من فاعل كان من كان. **فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه مٓابا**. إخبار عن قدرة العباد على ذلك لا ريب فيه، وهو من المحكم الذي به ينحلّ مثلُه من المتشابه الذي تعلقت به المجبرة. وحقق ذلك بقوله بعده: **إنا أنذرنٰكم عذابا قريبا**، كل آت قريب، وعمر الدنيا في عمر الآخرة يسير لا نسبة له إليه، فالعذاب قريب. **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكٰفر يٰليتنى كنت ترٰبا**، أي لا إنسانا.

فإن قيل: كيف يحسُن من الكريم الرحيم الغني عن العباد أن يخلق مَن علم منه[2] أنه يتمنى أنه [لو] كان ترابا وإن كان ما أوجب له ذلك التمني عائدا عليه من نفسه لا من ربه؟ وهلا أحسن إليه بأن لا يخلقه فلا يجزيه، كما أحسن إلى المؤمن بأن يخلقه ويجزيه؟

فالجواب بيّنّاه في آخر الذاريات وآخر الكهف. ونزيده ههنا إيضاحا فنقول: من البيّن إن الحكيم لا يفعل إلا حكمة، وليس من الحكمة إيجاد الخير دون الشر بل إيجاد الشر من أجل الخير. وتحقيق ذلك أنه ليس من الحكمة تمكين الإنسان من الخير دون الشر بل منهما ليترقّى بفعل الخير وترك الشر، فيكون تمكينه من الشر من أجل الخير. فهذا يصحح ما قدمناه. وإذ قد لزم هذا في الواحد من الناس

---

[1] ن - يتكلم.

[2] ن - منه.

فقد أمكن أن يتفرد بالشر وبالضد. وإذ قد ثبت أن ليس من الحكمة إيجاد الشر إلا من أجل الخير فقد لزم إيجادُ مَن عَلم الله منه أنه يتفرد بالشر، ولزم أن لا يكون إلا لأجل من يتفرد بالخير، فافقه ذلك. ثم تقول: ليس من الحكمة وضعُ الخير في أهل الشر فالرحمة إذاً محرّمة عليهم، فلو أنه تعالى لم يوجدهم لكان قد رحمهم وليس ذلك من الحكمة. ثم تقول: نحن نقطع جزما بأننا نعلم مما علمه الباري أزلا ما قد علمناه / الآن [٤٨٧و] من الوجود، إذ لا يمكن أن يكون في الوجود إلا ما تقدم العلم بكينونته على وفقه حتى كأنه هو لا محالة. فالكافر في الأزل لم يزل معلوما لله، فكأنه كان موجودا وطلب من ربه أن يوجده في الدنيا كما يوجد المؤمن، فأخبره أنه إن أوجده كان مصيره إلى النار فكذبه هناك كما كذبه ههنا. إذ[1] أخبرته الرسل فكذب وأبى فلزم إيجاده في الدنيا ليتقم منه في الأخرى بحقٍّ واجب عند الكافر، إذ لو خلقه أولا في النار لكان عنده كالظالم له وإن كان سبحانه لم يفعل به إلا ما علم أنه يستحقه. فكما أنه تعالى يبعث الكافر في الآخرة ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين[2] كذلك خلقه في الدنيا ليعلم الذين كفروا إذا وصلوا إلى الأخرى أنهم كانوا في الدنيا وفي الأزل كاذبين مكذبين. وقد بيّنّا أن فائدة إيجادهم عائدة على المؤمن، إذ لا جائزٌ أن تكون عائدةً عليهم ولا أن تكون عبثا. فقد عاد وجود الكافر لازما في العدل من أجل نفسه، واجبا في العقل من أجل غيره، وليس [هو] إلا المؤمن.

[الشر: حكمة خلقه وتعلقه بإرادة الله تعالى]

فإن قيل: قد بينت أن إيجاد الكافر في الدنيا لازم في الحكمة وواجبٌ في العقل، وأنه وبال عليه، فلِم رزقه دون المؤمن وحَرَم المؤمن، وقد كان الكافر أولى بعذاب الدنيا والآخرة، كما أن المؤمن أولى بنعيم الدنيا والآخرة؟ فالجواب أنه تعالى عَلم من[3] المؤمن الذي منعه أنه لو أعطاه أفسد وإذا منعه أصلح فمنعه؛ وعلم من الكافر الذي أعطاه أنه إن منعه أفسد وإن أعطاه أفسد، فأعطاه لأجل غيره لا لأجل نفسه. وقد بيّن الله تعالى عدلَه في جزاء الكافر بقوله: مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، ثم أعقبه بقوله: أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ.[4]

---

[1] ن: إذا.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ (سورة النحل، ٣٩/١٦).

[3] ك ن – من.

[4] سورة هود، ١١/١٥-١٦.

وبيّن أنه يُمد الكافر والمؤمن بما هو من مشيئته معذوق[١] بإرادتهما المخلوقة التي آتاها العبادَ ليصح التكليف منه. وذلك في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ إلى قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾، الآية، كما بيّنّاه في موضعه. ثم نقول كما أن الله تعالى قال:[٢] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.[٣] فكذلك من كان يريد من الله في علمه الأزل أن يوجده ليس على الله أن يجيبه إلى ذلك بل يجيب مَن يريد اللهُ إجابته لا غير. وهو من علم منه أنه يفعل باختياره أفعالا تَتِمّ بها حكمةُ البارئ في الوجود، فيكون الفاعل فاعلا لنفسه وهو بعينه فاعل لربه. وهذا يَطّرد في الكافر والمؤمن. وبهذا الاعتبار تُعْرَف عقيدة السنة، لأن الجبري لا يصح له إثبات العبودية ولكن يصح له إفراد الربوبية، والمعتزليّ بالضد؛ فكلاهما بدعتان،[٤] إذ هما في طرفي نقيض. والعقل لا يُجوّز إطلاق نفيهما، والنقل لا يُصحح إطلاق الميل إلى أحدهما، والسنة تجمع فيما يصح منهما بينهما. وذلك أن يكون الفعل الواحد منسوبا إلى فاعلَين من عبد ورب من غير شركة، بل بوجه ووجه. والدليل على أن هذا هو السنة ما يجده المتأمل من الجمع بين آيات[٥] القرآن الذي استدل بها على صحة مذهبه كل واحد من الفريقين. فلا سبيل[٦] إلى الجمع بين الآيتين والفريقين[٧] فيما صح إلا لمن عرف السنة. ثم تنضاف[٨] إلى ذلك موافقة / السلف فيما [٤٨٧ظ]
أُخذ عنهم نقلا وتقليدا فيعود عقلا وتحقيقا. ثم بعد ذلك موافقة العقل الذي به حصل الإيمان وعليه مدار التكاليف الشرعية في سائر الأزمان. ثم بعد ذلك موافقة الفريقين من غير انفراد بأحدهما، بل بالجمع بينهما من وجه بحيث إن كل فريق منهما تَصح وتثبت دعواه فيما صح منه عند من عرف السنة، ويتحقق أن كل واحد منهما فيما لم تصح[٩] منه مع البدعة. ثم ينضاف إلى ذلك معرفة العبودية والربوبية بحيث تقوم الشريعة ويلزم التكليفُ والتوبة. ويكون الله وحده هو الخالق لأفعال العباد والمريدَ لِما يقع منهم من الكفر والفساد. وهو منزّه عن ذلك كله تنزيها يصح في العقل مع صحة القول

---

[١] عَذَق فلانا إلى كذا: نسبه (المعجم الوسيط، «عذق»).

[٢] ش – الآية كما بيناه في موضعه ثم نقول كما أن الله تعالى قال.

[٣] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٨-٢٠).

[٤] ن: مدعيان.

[٥] ن: الجمع من آيات.

[٦] ش ك: ولا سبيل.

[٧] ش: والفرقيين؛ ك: والفرقتين.

[٨] ش: ينضاف.

[٩] ن: فيما لا يصح.

بأنه هو أراد. وهذه العقيدة لا يخالفها إلا المائل إلى إحدى البدعتين علم أو لم يعلم، فإما معاند، أو جاهل، أو غافل. وبهذا القول يُفهَم كلام الصوفية من رؤية الحق في الخلق، ورؤيةِ الجمع والفرق مع التنزيه عن الحلول على ما تشهد به العقول. وبهذه العقيدة يصح أن يكون الفعل الواحد لفاعلين، ويكون كله لهذا وكله لهذا،[١] وكل واحد منهما فاعل وحدَه بلا شركة. فإن قلنا: لا فاعل إلا الله فصحيح. وإن قلنا: لا فاعل إلا الإنسان فصحيح. وبهذا تعود أفعال العباد كلها خيرها وشرُّها أفعالا لله،[٢] والعباد مكتسبون لها فاعلون لأفعالهم[٣] بالحقيقة غير مجبَرين عليها. فصح الجمع والفرق، وعُرف فعل الخالق وفعل الخلق، وزهق الباطل إذ جاء الحق،[٤] ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.[٥] وفي هذا المعنى نظم هذه الأبيات.[٦]

يا سائرا سائلا عن سنة الرسُلِ ... إن شئت معتقَدا حقا فقِفْ وسَلِ،
تَسمعْ وجيزا من النظم البديع به ... تحقيق ذي العلم لا تلفيق ذي جَهَلِ،
فخذه معتبَرا واحذر تقلُّد[٧] من ... يأتيك بالقال أو بالحال[٨] والحِيَلِ،
في قدرة الله إيجاد بلا عدد ... لِخلق ما شاء مِن خلقٍ بلا مَلَلِ،
من كل عبد له فعل يخصصه ... فمنه أفعاله تبدو بلا عِلَلِ،
بل مكّن الكل فيما قد قضى أزلا ... تمكينهم منه في التفصيل والجُمَلِ،
فليس من أحد فيما قضى أزلا ... بمجبَر منه بل كلٌّ بذاك مَلِي،
وها أنا أُوضِح المقصود عن كَثَب[٩] ... في الرب والعبد تصريحا بلا مَثَلِ،
أحاط علما بما قد يعملون به في ... الكون من قبل كون الكون في الأزل،
فمن رآه على وفق المراد له ... في الكسب أبداه في الكون للعمل،
عن اختيارِهم فيما قضى لهمُ ... فيه اختيارا بلا جبر ولا دَخَلِ،
فالكل في شُغُلٍ منهم لأنفسهم ... والكل في كل آن منه في شُغُلِ،
يقضي بأيديهم ما شاء من حِكم ... وكم بها نِعما أعطى بلا بَخَلِ،

---

١ ن – وكله لهذا.

٢ ن – لله.

٣ ن + لا.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (سورة الإسراء، ٨١/١٧).

٥ سورة طه، ٤٧/٢٠.

٦ ش ك – هذه الأبيات.

٧ ن: تقليد.

٨ ك ن: الحال.

٩ ش: عن كسب. | الكَثَبُ: بالتحريك القُرب وهو كَثَبك أي قُربَك. ويقال: هو يَرمِي من كَثَبٍ أي من قُرب (لسان العرب، «كثب»).

فكل أفعالهم فعل الإلٰه على مراده من قويم الفعل أو زَلَل،
والكافرون لأجل المؤمنين به في المنزلين فقِف تَفْقَهْ بلا عَجَل،
والكل مكتسب للفعل مقتدر يختار أفعاله من كل مفتعَل،
/والحَجْر منه على كلٍّ فحيث أزا لَ الْحَجر فالكسب باقٍ غيرُ منتقِل، [٤٨٨و]
فعاد كالمجبَر المسلوبِ قدرتُه في كل فعل ومختارا بلا خَلَل،
فالفعل لا شك أن الله فاعله والفعل[1] فعلي لما أختار من أَمَلي،
والله يعدل بالظلم الذي هو من فعلي وعائدُ أفعالي عليّ وَلي،
وَهْوَ الغنيُّ تعالى عن إرادته الـ لَتِي على وفقها الأفعالُ من قِبَلي،
لكنها رحمة منه وعائدها على العباد بلا شك فقمْ وقُلِ،
الحمد لله مبدئ الكون وَهْو على عرش الغِنَى عن جميع الكون لم يزل،
فافقه مقالي تجده في الكتاب على ما قال لا قولَ جَبْريّ ومعتزليّ،
واحذر هوىً أصبح التقليد مَنشأه ولا تكن خائضا في لُجّة الجدل،
فهذه سنة الرسل الكرام فخُذْ ما عَلْمَه[2] رجل ألقى إلى رجل.[3]

تم سورة النبأ. فافقه ما فيها من النبأ. والحمد لله وحده. وصلواته على سيدنا محمد وآله.

---

١ ك ن: الفعل.

٢ أي ما علّمه.

٣ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾

والنّٰزعٰت، قال ابن عباس: ما من كافر يحضره الموت إلا عُرضت عليه جنهم قبل خروج نفسه، فيراها فوقه كالذي يَسبح في الماء، تارة ينغمس وأخرى[1] يرتفع حتى يدركه الرَّبْو[2] فتَغرَق نفسُه في صدره. وقال في [قوله] والنّٰشطٰت: ما من مؤمن عند الموت إلا تُعْرَض عليه الجنةُ، فيرى فيها أشباها من أهله يدعونه إلى منزله ويستبشرون به، فهو إليهم نشيط ويحبّ أن تخرج[3] نفسه حتى يأتيهم.[4] فنقول:[5] إن الله تعالى أجرى عادته في القَسَم أن يُقسم بالخيرات من مخلوقاته ولم يُقسم بالنفس الأمّارة. وإنما يحتمل أنه أقسم بالسُّفُن، ولهذا لم يقل: نَزْعًا بل، غرقا، كما قال: نشطا، وسبحا، وسبقا. وقوله: غرقا، هو مصدر من غَرِق يَغرَق غَرْقا أو غَرَقا مخففا ومثقلا. وإنما قرئ مخففا[6] لمشابهة ما بعده من أواخر الآي، أي والتي تَنزع[7] من الغَرْق، فالسفن نازعاتُ غَرْقَى[8] أبدا. ويصح أن يقال: إنها نازعات[9] وإن لم تكن لها من نفسها الحركةُ بل من الريح، كقوله: وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ،[10] فهي[11] تنزع وتجري بالريح. والنزع هو القلع من مكان إلى آخر. ويحتمل أن يكون الإشارة إلى الكواكب. والأُولى أَولى باللفظ. وإنما أقسم الله بها لتنبيه العقول على عظم شأنها. والمراد بذلك تعظيم عقول البشر، إذ من أعمالهم هذه. والمراد بتعظيم عقول البشر[12] تعظيم خالق العقول مضافا إلى الإشعار بنِعَم الله بها، إذ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ.[13] فتعظيم المصنوع تعظيم للصانع.

---

١ ن: وتارة.

٢ الربو: كل ما ارتفع من الأرض (لسان العرب، «ربا»).

٣ ش ك: أن يخرج.

٤ انظر نحوه في بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، ٤٤٢/٣.

٥ ن: ونقول.

٦ أي بالجزم لا بالفتح.

٧ ن: نزع.

٨ وهي جمع غريق.

٩ ن: نزعات.

١٠ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ (سورة الحج، ٦٥/٢٢).

١١ ن: ففي.

١٢ ش – إذ من أعمالهم هذه والمراد بتعظيم عقول البشر.

١٣ سورة العلق، ٥/٩٦.

وهذا ههنا هو[1] تعظيم مصنوع المصنوع. ولأن في ركوب البحار يحصل من الخوف والاعتبار وإخلاصِ الدعاء وغير ذلك ما لا يكاد أن يحصل في غيره.

وقوله: والنّٰشِطٰت نشطا، نشطه إذا ربطه لكن رَبْطا يَسهُل حلُّه؛ ومنه الأُنْشُوطَة، وأنشطه إذا حلّه. وأصله من النشاط كأنه جعله ناشطا وهي السفن أيضا. أقسم بها في حال دون حال، لأن كل حال من أحوالها يعطي رُكّابها حالا غير الحال الآخر.[2] والسّٰبحٰت سبحا، وهي السفن أيضا. ولهذا ذكرها بالواو متابعة. ثم قال بالفاء: فالسّٰبقٰتِ سبقا فالمدبرٰتِ أمرا، ليعرّفَنا أن هذه غير تلك، وهذه أَولى بأن تكون الكواكب، والله أعلم، لأنه أقسم بالسفن أولا فأتبع ذلك بالكواكب، لأن الاهتداء في ظلمات البحر لا يكون إلا بها، كقوله: وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ.[3] ويكون معنى قوله: فالسّٰبقٰت، / أنها تسبق الكواكب الثابتة، ويريد السبعة السيارة. ولهذا ذكر بعدها: [٤٨٨ظ] فالمدبرٰت، بأمر الله تعالى. ولهذا لمّا قال: فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ، قال بعده: وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ،[4] لأنه لا يعلم عظمه إلا العالِم. ثم حذف ما عيّنه في مثل[5] هذه السورة وهو قوله: إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ،[6] لأنه قد أثبته بعد أقسامٍ مثلَ هذه الأقسام، فقال ههنا مثل ذلك القسم.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾

ثم قال: يوم ترجف الراجفة، الأرض والجبال، تتبعها الرادفة، السماء. فالأول لقوله: وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ.[7] وأما الثاني فمن قوله في الحاقّة بعد ذكر الأرض: وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ.[8] ويحتمل[9] أن تكون السماء تنشق أولا، لقوله: إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ، ثم قال: وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ.[10] ولا تكون الراجفة إلا الأرض، لقوله: يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ.[11] فانتفى أن يكون انشقاق السماء أولا، لأنها تتبع الراجفة، ولهذا سماها "الرادفة". ويكون المعنى أن الأرض ترجف بالأحياء ثم تنشق السماء،

---

١ ن – هو.

٢ ك: الأخير. وفي هامش ك: الآخر.

٣ سورة النحل، ١٦/١٦.

٤ سورة الواقعة، ٥٦/٧٥-٧٦.

٥ ش – مثل.

٦ سورة المرسلات، ٧٧/٧.

٧ سورة الحاقة، ٦٩/١٤.

٨ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ (سورة الحاقة، ٦٩/١٦).

٩ ن: وتحتمل.

١٠ سورة الانشقاق، ٨٤/١، ٣.

١١ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ (سورة المزمل، ٧٣/١٤).

ثم تمتد الأرضُ بعد ذلك وتُلقي ما فيها من الأموات فلا يتناقض. وقيل: "الراجفة" و"الرادفة" النفختان، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ.[١]

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١﴾

ثم وصف من حال الناس ما يكون في ذلك اليوم فقال: **قلوب يومئذ واجفة.** الوجيف ضرب من السير بشدة واضطراب، وَجَف الشيء إذا اضطرب. وقوله: **أبصٰرها**، أي أبصار القلوب خٰشعة. **يقولون**، قبل موتهم: **أءنا لمردودون**، أحياء، وقدِّم، **فى الحافرة**، وغيِّر للوِزان. **والحافرة**، الحفرة وهي القبر، لأنهم فيه يُحْيَوْن ويُخرجون أحياء، وليس يخرجون منه أمواتا. ويُردّون بعد الإخراج إلى الحياة التي كانوا بها قبل الموت، بل هم مردودون حال كونهم في حفر القبور. ولهذا لم يقل: إلى الحافرة، لأنه كان يدل[٢] على موتة ثانية بعد البعث. وقد قيل: هذا مأخوذ من مَثَل تَضربه العرب، تقول في الرجل: يرجع إلى ما كان عليه رجع فلان في حافرته.[٣] وما قلناه أولى باللفظ، والله أعلم. ولهذا يقولون متعجبين، فهو[٤] يحكي حالهم الآن في الدنيا. والذي يظهر من هذه الجملة أن ليس فيها محذوف كما تقدم القول. بل المعنى أنه تعالى أقسم بأن قلوبا في ذلك اليوم واجفةٌ بسبب تكذيبهم اليوم للبعث. ولهذا قال عنهم: **يقولون: أءذا كنا عظٰما نخرة**، فهذا قولهم في الدنيا. وهو الذي أوجب وَجِيفَ[٥] قلوبهم. ولأجل التعريف بحالهم تقدم القسم، فكان جوابه: **قلوب**، وتمامه.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

ثم حكى الله تعالى قولهم يوم البعث إذا رأوا صحة ما جاءت[٦] به الأنبياء: **قالوا**، لعلمهم بأعمالهم ومخالفة أنبيائهم: **تلك إذًا كرة خاسرة**، كرّ إذا رجع. فافقه كونه عبّر أولا بقوله: **يقولون**، وثانيا بقوله: **قالوا**. وهذا فائدة لفظة "قالوا". فمعناه هم يقولون الآن

---

[١] الآية ١٣ من هذه السورة.

[٢] ك: تدل.

[٣] العرب تقول: أتيت فلانا ثم رجعت على حافرتي أي طريقتي الذي أصعدتُ فيه خاصة، فإن رجع على غيره فلم يقل ذلك، وفي التهذيب: أي رجعت من حيث جئتُ. ورجع على حافرته، أي الطريق الذي جاء منه (لسان العرب، «حفر»).

[٤] ش – فهو.

[٥] وجف القلب وجيفا: خفق واضطرب (لسان العرب، «وجف»).

[٦] ك: ما جاءوا.

كيت وكيت، فإذا رأوا ذلك قالوا كذا وكذا. ثم قال: فإنما هي زجرة وحدة، زجر البعير ساقه بصوت يصيح به فيه. والزجر بالطَّرْف[1] الإيماء به تمنع الغير أو تأمره بأمر تريد به الحتمَ الذي لا بد منه. فإذا هم بالساهرة، وهي وجه الأرض. ويحتمل أنه سماها بهذا لأن الساهر تكون عينُه مفتوحة. فكأن الأرض إذا تشققت عند خروجهم منها بقيت قبورهم مفتوحة كالأعين الساهرة. وقيل سميت بذلك لأن السائر بها يسهر من خوفه،
[٤٨٩و] يعني البيداء[2] المُقْفِرة.[3] والمراد أنه لمّا قال: خاسرة، وأراد خسران أهلها كذلك / قال: ساهرة، وأراد سَهَر أهلها، والسهر من صفة الحي. فيكون المعنى فإذا هم أحياءُ على وجه الأرض.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾

ثم ضرب مثلا لمن كذب بالبعث إعلاما أنه يُهلكه في الدنيا والآخرة كما أهلك فرعون. وجعل الخطاب للنبي عليه السلام تسلية له وإعلاما بسنّة المكذِّبين مع الرُسُل وبسنة الله مع المكذبين، فقال: هل أتىٰك حديث موسىٰ، إذ نادىٰه ربه بالواد المقدس طُوًى، تقدم شرحه.[4]

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠﴾

فقل هل لك إلىٰ، أي أدلّك إلى، أن تزكىٰ، تكون زاكيا، وأهديك إلىٰ ربك، أي إلى طاعته، فتخشىٰ، لأن «خشية الله رأس كل حكمة»،[5] والمعنى فتخشى عذابه. فأراه الآية الكبرىٰ، الثعبان،[6] وقد تقدم الكلام في "الكبرى"،[7] وأكبرَ من أُختها.[8]

---

[1] الطرف: اسم جامع للبصر لا يثنى ولا يجمع (لسان العرب، «طرف»).

[2] البيداء: الفلاة (تاج العروس للزبيدي، «بيد»).

[3] قد أقفر المكانُ: خلا، وقد أقفرت الأرض من الكلأ والناس: خلت (لسان العرب، «قفر»).

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (سورة طه، ١٢/٢٠).

[5] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ٥٣١/٢؛ ومسند الشهاب لمحمد سلامة القضاعي، ٥٩/١.

[6] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة الأعراف، ١٠٧/٧؛ وسورة الشعراء، ٣٢/٢٦). وانظر أيضا: سورة طه، ٢٠/٢٠.

[7] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ (سورة طه، ٢٢/٢٠-٢٣).

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٨/٤٣).

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

ثم أدبر، فرعون عن الإيمان، يسعىٰ، في الأرض فسادا على ما كان عليه من كفره، إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ.[١] فحشر، السحرة وهو قوله: وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ،[٢] فنادىٰ، فرعون في قومه: أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ.[٣]

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

فقال، بالحال من أفعاله واستبداده بنفسه ونَبْذِه لأمر الله. فهذه عبارة عن زعمه وحاله، ولهذا لم يقل: أنا الله، أو الرب،[٤] بل، أنا ربكم الأعلىٰ، لأن له نُوّابا ووُلَاةً عليهم وهو الأعلى.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

فأخذه الله نكال، بنكال، الآخرة والأولىٰ، أي بعذابهما المانع في العقل للمعتبر من المكذبين. ولهذا بعده: إن فى ذٰلك لعبرة لمن يخشىٰ، مثل ما جرى.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾

ثم خاطب الحاضرين[٥] والآتين بقوله: ءأنتم أشد خلقا، تقديره: أم فرعون؟ أم السماءُ، وهذا التقدير لازم بالمفهوم مما قدمه من ذكر فرعون وموسى للاعتبار بهم. ثم ذكر من قدرته برهانا على أنه قادر على مجازاة المكذبين فقال: بنىٰها، رفع سمكها. والمعنى [أ]أنتم أشد خلقا عليّ من خلقكم مع صغركم أم السماء مع كبرها. فسوىٰها، على أفضل المراد بها كُرِيَّةً شفّافة بغير عمد[٦] وغير ذلك. وفي كل وصف من أوصافها موضعُ تفكرٍ يدل على عظم القدرة.

---

١ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٤).

٢ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٣٦).

٣ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٥١).

٤ ش: والرب.

٥ ك: المحاضرين.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (سورة الرعد، ١٣/٢).

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾

وأغطش ليلها، الغَطَش[1] في العين شبه العَمَش.[2] وأغطش يتعدى ولا يتعدى وهو بمعنى أظلمه، أي جعله مُظلِما ظلمةً يسيرة، ومثله الغَبَش.[3] وفي ذلك رحمة لمن فكّر. وأخرج ضحىٰها، ذكر الضحى لتمام انبساط الشمس وكمال النور.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾

والأرض بعد ذٰلك دحىٰها، تقدم في سورة فصلت.[4] أخرج منها ماءها، العيون، ومرعىٰها. ولمّا كان قد يُفهَم من قوله في أول هذه السورة [يَوۡمَ] تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ،[5] أن الأرض خُلقت قبل السماء بيّن[6] لنا في هذه السورة بقوله: بعد ذٰلك. وقوله: والجبالَ أرسىٰها، متٰعا، هو معطوف على جميع ما تقدم من النِّعَم، لكم ولأنعٰمكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾

فإذا جاءت الطامة، يقال: طمّ الرَّكية[7] إذا دفنها، فالطامّة الدافنة، لأنها تَدفِنُ في العذاب الأكبر. ولهذا قال: الكبرىٰ، تعظيما. والجميع يوم واحد لا آخر له. فوصف "الطامة" بأنها كبرى لا يُلزم أن تكون ثَـم طامّة صغرى أيضا.

﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾

يوم يتذكر الإنسٰن ما سعىٰ، إذا رأى الجزاء ذكر ما أوجبه من عمله الذي كان ناسيا[8] له.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾

---

١ الغَطَش: الضعف في البصر (تهذيب اللغة للأزهري، «غطش»).

٢ العَمَش: أن لا تزال العين تُسيل الدمع، ولا يكاد الأعمش يُبصر بها. وقيل: العمش ضعف رؤية العين مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها (لسان العرب، «عمش»).

٣ الغَبَش: شدة الظلمة، وقيل: هو بقية الليل، وقيل: ظلمة آخر الليل (لسان العرب، «غبش»).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة فصلت، ٤١/١٠-١٢.

٥ الآية ٦ من هذه السورة.

٦ ن: وبين.

٧ لرَّكية: البئر ذات الماء (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «ركا»).

٨ ن: نسيا.

وبرزت الجحيم لمن يرىٰ، وهذا يدل على بروز بعد بروز وهم يرونها، لأنهم كلّما قَرُبوا منها برز لهم مقدار في رأي العين. لهذا قال: لمن يرىٰ، كما أن القادم إلى المدينة يبرز له منها شيء بعد شيء[1] إلى أن يَحُلّها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

وأما من خاف مقام ربه، وهو الذي يقوم بين يديه فيه للحساب. ونهى النفس عن الهوىٰ. قيل: سميت "النفس الجزئية" لتعلقها بالجزء، فإذا تجردت عادت كلية كما في النوم، ألا ترى كيف ترى المستقبل؛ وحدُّ / التجريد للأحياء هو نهي النفس عن الهوى. [٤٨٩ظ]
ففي ذلك خير الدنيا والآخرة.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

فإن الجنة هي المأوىٰ. فيا مَن يَقْدِر على أن يُؤثر وعلى أن يَنهى لِم تُؤثِر أسوأ المنزلين مأوى.

شعر:[2]

نـون الـهـوان مـن الـهـوى مـسـروقـةٌ وأسـيـر كـل هـوًى أسـيـرُ هـوانِ.[3]

ولا تفهم من الهوى ما لا يجوز فهمُه. فلولا الهوى لما كان للإنسان[4] من ذاته حركة. فأما المنهي عنه فإنه هوى النفس، ولهذا كان النهي لها. والمراد النفس الأمّارة[5] لا المطمئنة،[6] إذ لا بد للحي من هوى. فإذا جعلت[7] هواها رضا مولاها فقد صار داؤُها دواءَها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾

يسئلونك عن الساعة أيان، أيُّ آنٍ، مرسٰها، مقرّها وحلولُها التي ترسو فيه من الزمن كما ترسو السفينة السائرة. ومن تمام كلامهم: فِيمَ أنت من ذكرٰها، أي في أيّ مدة

---

١ ك - بعد شيء، صح هـ.

٢ ن: بيت؛ ك - شعر، صح هـ.

٣ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٩/١٦٠.

٤ ش ك: الإنسان.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٥٣).

٦ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (سورة الفجر، ٨٩/٢٧).

٧ ن + النفس.

أنت من ذكر وقوعها، كم بينك وبينها من الزمن، وهو كما تقول لصاحبك: أين نحن من رأس الشهر، وفيم نحن من المنزلة؟ فقال الله تعالى: إلى ربك منتهٰها، أي منتهى علمها. وبيّنه بقوله: لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ.[1]

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا، في الدنيا والقبور، **إلا عشية،** من يوم، **أو ضحٰها،** ضحى عشية، أي لم يكن يوما كاملا، وهذا كقوله: إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ.[2]

---

١ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٧/٧).

٢ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦).

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾

عبس وتولىٰ، كراهة، أن جاءه الأعمىٰ. وقوله: عبس، مثل قوله: سَأَلَ سَآئِلُۢ.[1] فالمعنى عبس عابس من أجل أن جاءه الأعمى. وليس المراد عَمَى العينِ، لأنه أوضح ذلك بعده بقوله: وما يدريك لعله يزكىٰ، وليس هذا الخطاب للنبي عليه السلام، لأن الله تعالى نزّهه وشهد له بضد ذلك وهو قوله: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ،[2] وبقوله: بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ،[3] وبقوله: وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ،[4] وأمثال ذلك. وحاشى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه كان يتصدى لمن استغنى. وإنما هذا خطاب من الله لكل متصف بهذه الصفة إلىٰ يوم القيامة. أو يَذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرىٰ، وهذا يدل على أنه متى تَذَكَّرَ نفعتْه الذكرى، أو جاز أن تنفعه. والأول أولى.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾

أما من استغنىٰ فأنت له تصدىٰ، تتصدى، وهو من التعرض للشيء. وما عليك أن، أنه، لا يزكىٰ، أي لا تُبالي ولا تجد عندك حرجًا من كونه لا يتزكى بل تتصدى له مع ذلك.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾

وأما من جاءك يسعىٰ وهو يخشىٰ، الله، فأنت عنه تلهىٰ، تتلهى، تميل عنه إلى لهو. والمراد أنك تميل ميلَ اللاهي. ولمّا أثبت الغنى لأحد المذكورين لزم أن الأعمى فقير، وعرّفنا صفة الأعمى الفقير الضال عن الهدى الذي يجب أن نهديه.[5] وهو الذي يجيء إلينا يسعى لطلب الهدى. وهو في سعيه يخشى الله، فاعرفهما.

---

[1] ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ (سورة المعارج، ١/٧٠).

[2] سورة القلم، ٤/٦٨.

[3] ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة التوبة، ١٢٨/٩).

[4] ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ (سورة آل عمران، ١٥٩/٣).

[5] ن: أن تهديه.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾

كلا، أي ليس ينبغي أن يكون الأمر كذلك بل كما في هذه التذكرة وهي القرآن. إنها، هذه الآياتِ، تذكرة. فالقرآن ذكر، لقوله:[1] وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ،[2] وتذكرةٌ لقوله: تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ،[3] وذكرى لقوله: ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ.[4] وقوله: فمن شاء ذكره، تقديره: ذَكَرَ وأُلحقت الهاء للوزان.

[من هو الجبري في الحقيقة؟]

وهذه الآية دالة على تمكين ليس لأحد من المجبرة حجةٌ بعده. ولمّا رأيت اعتقاد الجبر غالبا على الأكثر من الخلق قلت: ليس الجبري عندي من يقول بهذه المقالة بل من يفعل بمقتضاها، وأمّا غيره فهو جاهل ومثاب بثواب دون ثواب العالِم بالواجب. وأقول: إن العالم بالواجب إذا كان لم يكن عاملا بعلمه في هذه العقيدة كان معاقَبا بعقاب أشد من عقاب / العالم العامل بجهله بمقتضى هذه العقيدة؛ لأن الجاهل غيرَ [٤٩٠و]
العامل دخل من باب التعظيم لربه لئلا يكون معه غيره. وهذا ليس بجبري في الحقيقة بل معتقد للجبر. وأما الجبري فهو الذي اعتقد وعمل. فهو وإن كان سَيِّئَ الحال فأسوأُ حالا منه من علم بالحق ولم يعمل به.

ثم قال تعالى: إن هذه التذكرة، في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة، يكتبون السِّفْرَ، وسمِّي سفرا، لأنه يكشف عن الشيء ويوضحه، كرامٍ، على الله سبحانه، بَرَرَةٍ، من الأبرار. وهذه الصفات المذكورة يحسن أن تُرَدّ إلى المكتوب من القرآن، والكاتبين له، والحاملين له من بني آدم بالصورة وبالمعنى. ويحتمل أن ترد إلى ما تضمنه المكتوب وإلى الملائكة، والله أعلم.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾

قتل الإنسٰن، الذي لا يتذكر بهذه التذكرة، ولهذا بعده: ما أكفره، أي ما أشد كُفْرَه بمُنْزل هذه التذكرة. وقوله: ما أكفره، يمنع أن يكون خَلَقه كافرا، أو أجبره على الكفر.

---

[1] ش: كقوله.

[2] ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ (سورة الأنبياء، ٥٠/٢١).

[3] ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/٢-٣).

[4] ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ (سورة المدثر، ٣١/٧٤).

والمعنى أنه لا شيءَ مما عاملناه به من حينٍ كان نطفة إلا ويقتضي أن يشكر، وهو مع ذلك يكفر، فقتل، ما أكفره! من أى شيء خلقه، ربه حتى أنه يتكبر. من نطفة خلقه فقدره، أي جعله قادرا على الخير والشر. ويحتمل "فقدره" بمقدار في أعضائه على الوجه اللائق به والأصلح له. والأول أولى لقوله بعده: ثم السبيلَ، أي إلى ما كلّفه ربه، يَسّره، لقوله: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا.[١] واعلم أن قوله تعالى: وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ[٢] يلزم عنه تيسير الخير دون الشر إلا إذا كان جزاء. فإن الله أقدر العبد على الأمرين: خيرا ليكتسب وشرا ليجتنب. فإذا بدأ بأحد الأمرين يسّره الله تعالى له. وذلك مذكور في سورة والليل، ولهذا بدأ فيها بقوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ،[٣] كما سنبين فيها. فالخير مركوز في جبلّة العقول مُيَسَّرٌ من أول الفطرة. ولكن من تمام العطية وكمال القدرة أن أقدر على الشر أيضا. ثم عرّف به ونهى عنه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله: ثم أماته فأقبره، دفنه في قبر. ثم إذا شاء أنشره، أي بنفس مشيئته في الحين الواحد، وهو معنى "إذا"، لأن الوقت[٤] غير معلوم بل هو إلى المشيئة، وأنه قادر سبحانه في كل حين على إقامة الساعة والنشور، وهذا أبلغ التخويف. ولهذا قال: لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً.[٥]

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عن الكافر: كلا، وهو رد عليه، لمّا، لم، يقض ما أمره، بقضائه وهو ما كلّفه في هذه التذكرة.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾

ولما قدم قوله: ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ،[٦] ضرب مثلا للبعث بقوله: فلينظر الإنسٰن إلى طعامه، الذي يأكله من الأرض، فإنه يستدل به على البعث. ولينظر أيضا كم من نعمة أنعم الله بها عليه في أسباب ذلك الطعام حتى حصل وتهيّأ لأن يكون طعاما.

---

[١] سورة الطلاق، ٦٥/٧.

[٢] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٥).

[٣] سورة الليل، ٩٢/٥.

[٤] ك: لأن التوقف. وفي هامش ك: الوقت.

[٥] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٧).

[٦] الآية ٢٢ من هذه السورة.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾

أنا صببنا الماء صبا، وفي ذلك من حديث الرياح وسيرها وبسطها للسحاب. وجعل السحاب كِسَفا عجائب،[١] لكنه ذكر الجُمَل، وهذا بعث. ثم شققنا الأرض شقا، يحتاج النبات الضعيف إليه مع صلابة الأرض عند بروزه منها.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ۝٢٨ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾

فأنبتنا فيها حبا، هذا وما بعده إذا تأمله ذو العقل وجد في كل واحد مثالا للبعث. وعنبا وقضبا، القَضْب ما يُقتضب، أي ما يقتطف[٢] من الشجر رطبا ليؤكل كما يؤخذ من قُضْبان[٣] الكَرْم. ولهذا ذكره مع العنب. وكذلك البُطْم[٤] والفُسْتُق واللَّوْز وغيره. وزيتونا ونخلا وحدائقَ غُلْبا؛ والحدائق جمع حديقة، وسميت بذلك لأن حائطها قد أحدق بها، ومنه الحَدَقَة. والغلب جمع أغلب، وهو الغليظ. يقال: / شجرة غَلْباء إذا كانت [٤٩٠ظ] غليظة. وفكهةً، أي غير ذلك، وأبًّا، وهي الكلأ والمرعى، وهو مما في الحدائق، ومما في الجبال والبراري كالفاكهة البرية، متْعا لكم ولأنْعمكم، لتشكروا ولئلا تكفروا.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾

ثم تواعد مَن كفر بعد الوعد لمن شكر فقال ما معناه: قد ابتليناكم في هذه الدنيا بهذه النِّعَم، فإذا جاءت الصاخة، الصيحة تُصِمُّ الأذن لشدتها، تقول: صخَّ الصوت الأذن يَصِخّها صخا، وضربت الصخرة بحجر فسُمعت لها صخة. يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصْحبته وبنيه، وذكر سبب الفرار بقوله: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، أي يكفيه من أن يزيد على همّه همّ غيرِه ولو كان أقربَ الخلق إليه. وإذا[٥] لم تَبق فيه فَضْلة يحمل بها من مصيبة أقربِ الناس إليه شيئا فكيف الأبعدُ.

---

١ ن: عجائبا.

٢ ن: أي يقتطف.

٣ القضيب: الغصن، وكل نبت من الأغصان يُقضب، والجمع قُضْبان (لسان العرب، «قضب»).

٤ البطم: شجر الحبة الخضراء. عن ابن الأعرابي: البطم: حبة الخضراء (تهذيب اللغة للأزهري، «بطم»).

٥ ش: وإذ.

والمعنى، إذا جاءت الصاخة، في ذلك اليوم ففيه، وجوه يومئذ مسفرة، عما في قلوبها من الفَرَح،[١] فهي، ضاحكة، لما تحققته، مستبشرة، بما لا عينٌ رأته.[٢] ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها، تلحقها، قترة، وهي ظلمةُ دخان اللحم المحترق، ومنه القُتَار.[٣]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾

١ ك ن: من الفرج.

٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه السلام: «قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ (صحيح البخاري، بدء الخلق ٨؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٣١٢).

٣ القُتَار عند العرب: ريح الشواء إذا ضُهِّب على الجمر (لسان العرب، «قتر»).

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾

إذا الشمس كورت، لُفِف بعضها على بعض، ومنه الكَارَة.[1] وتقول: كوّرت العمامة على رأسي. والمعنى كوّر نورها فجمع بعضه على بعض كأنه سُتر في كارة، لأنه وقع عنه الغنى بذهاب الدنيا. ولهذا بعده: وإذا النجوم انكدرت، انصبّت. كَدر الإناءَ إذا كان فيه شيء يتبدد فَقَلبه فانصبّ ما فيه جملةً. ويقال: انكدر، أي ما في الإناء. وسمّي النجم نجما لأنه[2] يَنْجُم للعين في ظلمة الليل إذا بدأ بالظلام نَجْمَ النجم. وكذلك ينجم من تحت الأرض في بقية الليل فيرى، وفي النهار وإن لم يُرَ.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾

وإذا العشار عطلت. العشار من النُوق[3] التي من شأنها أن تَعْشِرَ[4] فتُعَطَّل لاشتغال أصحابها عنها بما نابهم. ولأن الذكر لا يطلب الأنثى لعظم الهول الذي يشاهده فيُدهشه ويَشغله حتى تذهب شهوته بالخوف مع كونه لا يعقل ما يعقله[5] الإنسان. والعِشار واحده[6] العُشَراء، وهي الناقة يأتي لحملها عشرة أشهر. وقيل: المعنى أنها أغلى[7] هذه الناقة عُطّلت فبقيت عاطلة لا ينتفع بلبنها ولا بولدها ولا بها.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾

وإذا الوحوش حشرت، وهي الحيوانات الوحشية على اختلاف أجناسها حَشَرها هولُ ما رأته من انكدار النجوم وغير ذلك، فلا يفترس بعضها بعضا. لهذا قال:

---

[1] الكارة: عِكْم الثياب، وهو منه، وكارة القصار من ذلك، سمّيت به لأنه يكوِّر ثيابَه في ثوب واحد ويحملها فيكون بعضها على بعض (لسان العرب، «كور»).

[2] ن: لأن.

[3] النوق: جمعُ ناقة.

[4] عَشِرت الناقة: صارت عُشَراء. والعشراء من النوق ج: عِشار: التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «عشر»). العشار من الإبل التي قد أتى عليها عشرة أشهر. وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾. قال الفراء: لقح الإبل عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم، ولا يعطلها قومها إلا في حال القيامة (لسان العرب، «عشر»).

[5] ش: ما يعقل.

[6] ك ن: واحدة.

[7] ن: أغنى.

الوحوش، فتعود كالأنسية لهول ما تراه، كما حشرها الطوفانُ في زمن نوح عليه السلام إلى جهة السفينة. فكان يمد يده فيأخذ [نوح] مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ.[1]

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾

وإذا البحار سجرت، من سجَرتُ التَّنُّور إذا أوقدته. وإذا صار البحر موضعا للنار يسجر كما يُسجّر التنور، فيكون موضع الماء نارا[2] فكيف غيره. وضد هذا في الطوفان، [ك]قوله: وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ.[3] فالذي جعل فَوران الماء في موضع السَّجّار يجعل في موضع الماء سجارا في البحار.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾

وإذا النفوس زوجت، أي جُعل مع كل نفس قرينها، وهو من قوله: وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً،[4] ومثله: فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا،[5] ومنه: قَالَ قَرِينُهُۥ،[6] ومنه: مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ.[7]

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾

وإذا الموءودة، التي تُدفَن في التراب حيّةً، وسميت موءودةً لما عليها من تراب [٤٩١و] أثقلها، ومنه قوله: وَلَا يَـُٔودُهُۥ،[8] / أي لا يُثقله. وقال عليه السلام: «الموءودة والمولود في الجنة».[9] ولا تكون الموءودة إلا من الكفار، إذ هذه سُنَّة المشركين. وأما قوله: سئلت، فمعناه طُلبت من قاتلها، كما تقول: وإذا الحاجة سئلت، أي طُلبت ممن يطالَب بها، فافهم هذا جيّدا. فالموءودة نفسها طلبت[10] مِن قاتلها، كأنه يقال له: أَخْلِقْ، أو أَحْيِ لنا ما قتلته بيدك ظلما ممن خلقناه، أي أحضرها كما كانت حين أخذتها. فهذا معنى "سئلت"، ومنه يقال: المملوك يَسأل كيت وكيت، بمعنى يَطلب. وتقدير الكلام:

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (سورة هود، ٤٠/١١). وانظر أيضا: سورة المؤمنون، ٢٧/٢٣.

[2] ك ن: نار.

[3] من الآية السابقة في الحاشية.

[4] سورة الواقعة، ٧/٥٦.

[5] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (سورة النبأ، ١٨/٧٨).

[6] ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (سورة ق، ٢٧/٥٠).

[7] ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ (سورة إبراهيم، ٤٩/١٤).

[8] ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ (سورة البقرة، ٢٥٥/٢).

[9] مسند أحمد بن حنبل، ٥٨/٥.

[10] ن: طولبت.

ويقال للقاتل: بأي ذنب قتلتَ؟ وأما من قرأ سَألتْ بفتح السين[1] فلا إشكالَ عليه، لكن القراءتين[2] ههنا جاءت على ما لم يُسَمَّ فاعله، فبالضم أولى. وجاء ذكر "الموءودة" بعد قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾،[3] تنبيها على أن من[4] دسّى نفسه فقد جعلها موءودة في تُرْبة جسمه، كما تُدفَن الموءودة مع وجود الحياة، لأن معنى قوله تعالى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾،[5] عن الموءودة وهو معنى قوله تعالى عن[6] كل نفس: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾،[7] ولفظه مشتق من لفظه.

شعر:[8]

لا تجعلنّ النفسَ موءودة ... في تربة الجسم تُذِقْها العذاب،
فإنها مطلوبة منك والمسـ ... ـئول عنها أنت يوم الحساب،
بأي ذنب قُتِلَتْ هذه ... أمانةٌ حُمِلْتَها ما الجواب،
فكلاهما خائبان في المآب ... ومسئولان يوم الحساب.
ومقترنان في العذاب.[9]

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾

ولهذا لما قرنهما في الذكر ههنا قال بعد ذكرهما: **وإذا الصحف نشرت**، صحف العباد المكتوبُ فيها أعمالُهم.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾

وإذا السماء كشطت، من مكانها كما تُقلع جلدة الرأس عنه. وفي قراءة عبد الله قشطت.[10]

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

وإذا الجحيم سعرت، اشتعلت. **وإذا الجنة أزلفت**، قُرِّبت. ولم يحتج إلى وصف الجنة كما وصف من النار لأن المراد التخويف. فذكر ما ينالهم وعدّه، ثم ذكر ما يفوتهم

---

[1] سئلت: لحمزة فيه وقفا التسهيلُ بين بين والإبدال واوا محضة على مذهب الأخفش (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٧٣؛ والبدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٣٨).

[2] ش ن: القراءين.

[3] الآية ٧ من هذه السورة.

[4] ن - من.

[5] ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل، ٥٩/١٦).

[6] ك ن: من.

[7] سورة الشمس، ١٠/٩١.

[8] ك - شعر.

[9] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[10] جامع البيان للطبري، ١٥٠/٢٤.

مما يفوز به غيرهم لِيَعْظُم التخويف. ولهذا بعده: **علمت نفس ما أحضرت،** من عمل عملته في الدنيا وهو جواب [قوله:] **إذا الشمس،** وما بعده.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾

فلا أقسم بالخنس، الكواكبِ فهي خُنَّس تَغيب بعد طلوع، **الجوار،** لأنها جنس الجوار، **الكُنَّسِ،** مأخوذ من الكِنَاس، وهو بيت الظبي في شجر يختفي فيه. ومنه الكنيسة لاختفاء[1] اليهود فيها اختفاء[2] لِما يقولونه في صلواتهم من الدعاء على سائر الأمم، خصوصا على المسلمين ويسمونهم مملكة القُحَّة، ويسألون الله سرعة إهلاكها في أيامهم. هذه صورة لفظهم في كل صلاة يصلونها كما يصلي المسلمون بالحمد. ثم يَدْعون في صلواتهم على الضالّين بما معناه: يا رب من أَضْلَلْته فلا تَهْدِه، ويعنُون المسلمين ويقولون بأجمعهم: آمين. فهم يدعون على أنفسهم من حيث لا يشعرون، وهذا من عجيب حالهم. وقوله: **والليل إذا عسعس،** دنا من أوله، كقوله: **والصبح إذا تنفس،** والاعتساس الاكتساب والطلب.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾

إنه، القرآن، **لقول رسول كريم،** جبريلَ، فهو منسوب إلى جبريل لكونه رسولا به من ربه، ولهذا لم يقل: لَقول جبريل. ولهذا وصفه بالأمانة على الرسالة أخيرا بعد ما وصفه بقوله: **ذي قوة عند ذي العرش مكين،** مُمَكَّن، **مطاعٍ ثَمّ،** بين الملائكة، **أمينٍ،** لا يخون فيما حُمِّله من ربه من رسالة إلى أنبيائه بوجه من الخيانة.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢﴾

ثم قال عن محمد صلى الله عليه وسلم: **وما / صاحبكم بمجنون،** أي كما تدّعون فيه، لأن من الجنون أن ينقل كلاما من غير أمين ويُسنده إلى رب العالمين، فما عاقل يدخل مع الله في هذا الخطر. [٤٩١ظ]

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣﴾

ثم[3] قال: **ولقد رءاه،** محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريلَ، **بالأفق المبين،**

[1] ك ن: لإخفاء.
[2] ك ن: إخفاء.
[3] ن – ثم.

وهو أفق المشرق، أي رآه بعينَي رأسه مَلَكا قبل أن يراه على صورة رجل فتحقق أن الملائكة لا تكذب.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

ثم قال عن محمد صلى الله عليه وسلم وهو الرائي: **وما هو على الغيب**، الذي أوحيناه إليه برسالة جبريل، **بضنين**، ببخيل[1] على أمته. فلم يكتم أمتّه شيئا من الغيب، وهو القرآن، لقوله: ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ.[2] والمراد نفي الجنون عن النبي عليه السلام، وإثباتُ صدقه في رسالته إليهم بما أرسل اللهُ به جبريل إليه، وتعظيمُ جبريل لكونه وصفه بما تقدم، والإعلام بأن محمدا عليه السلام تقدمت رؤيته بعينه جبريلَ على صورته في الأفق ملكا قبل أن يراه في الأرض على صورة دِحْيَة[3] رجلا؛ فعرفه معرفة لا يَشكّ فيها عاقل، وسمع منه ما لم يَقُلْه بشرٌ ولا شيطان. ولهذا بعد تعظيمهما صلى الله عليهما عظّم ما أوحاه إليهما بقوله: **وما هو**، أي الغيب المقدم ذكرُه بأنه، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،[4] ليس هو، **بقول شيطٰن رجيم**، كما يقول الكُهّان وأرباب البهتان. ولهذا بعده: **فأين تذهبون**، ليس المراد ذهابا بالجسم بل كما تقول: "أين يذهب بك؟" تريد ذهاب عقله عما دللتَه إليه من الخير. ولهذا بعده: **إن هو إلا ذكر للعٰلمين**، أي في قوة هذا الكلام الهُدَى لسائر الأنام. ولكنه لا يظفَر به من لم يقصد الاستقامة إلى ربه بل هو هدى، **لمن شاء منكم أن يستقيم**. وقوله: **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العٰلمين**، بيّنّاه في سورة الإنسان[5] وفي كثير من آيات القرآن. وكل تفسير يحتمله اللفظ ولا يوقع في الإجبار الذي يلزم عنه التناقضُ فهو صحيح، لأن المجبَر قد سُلب والمكتسِب[6] قد وُهب. والتمكين يلزم عنه التكليف وبالعكس، فإن التعطيل يلزم عنه الإضراب والترك لبيان العذر وارتفاعُ النُكْر، وإلا يلزم التناقض في كلام الله وفي أفعاله، والله أجلّ وأعلى.

---

[1] ش ك: بخيل.

[2] سورة آل عمران، ٣/٤٤.

[3] هو دِحْيَة بنُ خليفة بن فَرْوة بن فضالة الكلبي: صحابي، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام. وحضر كثيرا من الوقائع. وكان يضرب به المثل في حسن الصورة. وشهد اليرموك فكان على كردوس. ثم نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية. توفي سنة نحو ٤٥هـ/٦٦٥م (الأعلام للزركلي، ٢/٣٣٧).

[4] الآية ١٩ من هذه السورة.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٣٠).

[6] ك ن: والمكتب.

[رؤية الله في الدنيا من محمد عليه السلام ومن جبريل]

وإذ قد نجزتْ هذه السورة فلنذكر ما وعدنا بذكره من بيان الآيات المذكورة في سورة والنجم[1] على قول من يقول: إن الرؤية لم تكن في النزلتين من محمد صلى الله عليه وسلم إلا لجبريل. ونُحقق[2] أن الأولى كانت هذه المذكورةَ في هذه السورة،[3] والثانية كانت نزلةَ جبريلَ من عند ذي العرش إلى سدرة المنتهى. فنقول: إن المتشابه في سورة والنجم حمل الناس على الخلاف في الرؤية. فمنهم من قال: إن المرئي في النزلتين هو الله سبحانه، وإليه الإشارة بالدنوّ والتدلي وغيره لا[4] جبريل، واستدل بقوله: فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ.[5] ولا يكون محمد صلى الله عليه وسلم عبدا لجبريل وجبريل خادمه بإذن ربه، وإلى هذا ذهب الحسن. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن محمدا رأى ربه بقلبه؛[6] وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة، وهو ما تكلمنا عليه في تلك السورة. ومنهم من قال: إن الرؤية في النزلتين لم تكن من محمد إلا لجبريل، وهذا أولى بلفظ الآيات. وبيانه أن قوله تعالى: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ،[7] تقديره: من الله إلى جبريل. ونسق عليه قوله: فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ،[8] أي فأوحى جبريلُ إلى محمد ما أوحى الله إلى جبريل.[9] ولا شك في أن المراد بقوله: إِلىٰ عَبْدِهِ، ليس إلا محمد عليه السلام فلم يحتج إلى التصريح بذكر / الله ههنا لشدة دلالة العبدَ على الرب، [٤٩٢و] ولشدة دلالة الوحي المذكور أولا على الله. وهذا كقوله: مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ.[10] فأضمر الأرض وأشار إلى غير مذكور لشدة دلالة ما أظهر على ما أضمر. والعرب إذا وثقت بفهم المخاطب لِما أضمرته بما أظهرته تستعمل ذلك. فجاء الكلام بلسانهم على سُنّتهم في التخاطب. وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ،[11] ومناسب لما في سورة كُوِّرَتْ من قوله: لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،[12] ولبقية الكلام فيها، فلا تتنافر الآيات بينها وبين سورة والنجم. ولهذا لم يقل في كُوِّرت: إنه لقول جبريل بل،

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآيات ١٣-١٨ من سورة النجم.

[2] ش: وتحقق.

[3] انظر: الآية ٢٣ من هذه السورة.

[4] ك ن + إلى.

[5] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (سورة النجم، ١٠/٥٣).

[6] صحيح مسلم، الإيمان ٢٨٤؛ وسنن الترمذي، تفسير القرآن ٤/٥٣ (سورة النجم ٤).

[7] سورة النجم، ٤/٥٣.

[8] سورة النجم، ١٠/٥٣.

[9] ش - ونسق عليه قوله... أي فأوحى جبريل إلى محمد ما أوحى الله إلى جبريل.

[10] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة النحل، ٦١/١٦).

[11] الشعراء، ١٩٣/٢٦-١٩٤.

[12] الآية ١٩ من هذه السورة.

لَقَوْلُ رَسُولٍ، لأن الرسول إنما استحق هذه التسمية بما حُمله من الرسالة من المرسِل له[١] إلى المرسَل إليه. ويجب أن تعلم أن الأفق الأعلى[٢] هو غير الأفق المبين.[٣] فالأعلى فوق سدرة المنتهى،[٤] ومنه كان الدنو إلى سماء الدنيا؛ والمبين، هو أفق المشرق، وإليه كان التدلي من السماء. ولا شك أن محمدا عليه السلام لم يَرَ جبريل على صورته سوى مرتين فقط. الأولى[٥] بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ،[٦] بالبصر ولهذا قرنه بصفات الجسم من الدنو والتدلي وغيره ليتحقق أنه بالبصر. والثانية عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ[٧] بالفؤاد؛ ولهذا لم يعبر عنه إلا بالمنتهى و جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ،[٨] ولم يقل: ما الذي غشي السدرة بل قال:[٩] مَا يَغْشَىٰ[١٠] إعلاما أن ذلك من مشاهدات القلوب فالعبارات دونه. فأحال على ما يُعلَم بالإيمان والخبر،[١١] والأول على ما يدرك بالبصر. وأما قوله عن جبريل: فَٱسْتَوَىٰ،[١٢] فهو كما يقال: فلان تعلّم القرآن واستوى، أي استوى لأن يكون معلِّما بعد أن كان متعلما. فالمراد استوى جبريل -وهو المعلِّم لمحمد- استوى فيما علّمه الله بالوحي إليه أولا. ولهذا قال: فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا، من الأعلى إلى سماء الدنيا، فَتَدَلَّىٰ[١٣] منها إلى ٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ،[١٤] فرآه النبي صلى الله عليه وسلم وهي الرؤية الأولى رآه بعيني رأسه في ٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ، فخرّ مغشيا عليه كما جاء في الحديث، وفي كتب التفسير؛[١٥] فتَصَوّر له في صورة رجل فكان منه كقاب قوسين أو أدنى[١٦] في رأي العين. والتدلي ذكر للتمثيل بمن يتدلّى بحبل من علو إلى أسفل إشارة إلى الرفق بمحمد عليه السلام لكونه لم يهبط في مرة واحدة، أعني جبريل بل بالتدريج، لأن التدلي دون الهبوط في السرعة. وأما الوحي فهو لفظ يدل على أشد السرعة ومنه ٱلْوَحَاءَ ٱلْوَحَاءَ.[١٧] وتقول: نزل المطر أوحَى من لمح البصر، أي أسرع.

---

١ ك - من المرسل له، صح هـ.

٢ انظر: سورة النجم، ٧/٥٣.

٣ انظر: الآية ٢٣ من هذه السورة.

٤ انظر: سورة النجم، ١٤/٥٣.

٥ ش: فالأولى؛ ن: بالأولى.

٦ الآية ٢٣ من هذه السورة.

٧ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (سورة النجم، ١٣/٥٣-١٤).

٨ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النجم، ١٥/٥٣).

٩ ك ن - قال.

١٠ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (سورة النجم، ١٦/٥٣).

١١ ك ن: والخير.

١٢ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ (سورة النجم، ٦/٥٣).

١٣ سورة النجم، ٦/٥٣-٨.

١٤ الآية ٢٣ من هذه السورة.

١٥ انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١١٦/٢٢.

١٦ سورة النجم، ٩/٥٣.

١٧ الوحاءَ الوحاءَ يعني البدارَ البدارَ، يعني الإسراع (لسان العرب، «وحي»).

وأما قوله: مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ،[1] فمعناه أن الفؤاد قد يَرى شيئا فيُبطله ويُكذِّبه وقد يُحقِّقه فيُصدِّقه. فأخبر الله بقوله عن فؤاد محمد: مَا كَذَبَ ما رآه، أي بل حققه وهو رؤية جبريل على صورته. ولهذا قرئت مَا كَذَّبَ بتشديد الذال،[2] أي ما كذب فؤاده ما رآه بالبصر من جبريل، وهو على صورته الأفق المبين أولا، ولا ما رآه بالفؤاد تحت الأفق الأعلى ثانيا. ودل على أن المراد بالرؤية جبريل، وذلك بقوله: وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ،[3] أي بالفؤاد عند سدرة المنتهى، ولهذا بعده: مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ، أي أولا، وَمَا طَغَىٰ،[4] الفؤاد أي ثانيا؛ لأن الزيغ أولى بالبصر، كقوله: وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ،[5] والطغيانَ / أولى بالفؤاد، كقوله: فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا.[6] ولما كانت رؤية النبي لجبريل على صورته من العظمة آية عظيمةً تَدل على عظمة خالقه سبحانه حقق الجميع بقوله: لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ.[7] وانطبق عليه قوله في سورة الإسراء: لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَا[8] فزالت الشبهة لكونه جعل الإسراء لأجل رؤية الآيات. وأما قوله: نَزْلَةً أُخْرَىٰ، فقد عيّنها بالمكان وهو قوله: عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ،[9] وبالزمان بقوله: إِذْ، ولم يقل: إذ غشي بل حين، يَغْشَى،[10] كما بيّنّا الفرقَ في قوله: وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، بلفظ المستقبل ثم قال: وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ،[11] بلفظ الماضي. فافهمه فيها. [٤٩٢ظ]

واعلم أن نزلة جبريل إلى عند سدرة[12] المنتهى[13] هي نزلة من الأفق الأعلى وهو أفق العرش. والسدرة والجنة تحت العرش، إذ ليس فوقه إلا الله عز وجل وحده، والملائكة وسائر المخلوقات تحته فهو فوق سدرة المنتهى تحت العرش. وهذا فائدة قوله: ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ.[14] وبين معنى قوله: سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ، بأنها منتهى البشر وذلك بقوله:

---

[1] سورة النجم، ٥٣/١١.

[2] قرأ هشام وأبو جعفر بتشديد الذال وافقهما الحسن، والباقون بتخفيفها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٢١).

[3] سورة النجم، ٥٣/١٣.

[4] سورة النجم، ٥٣/١٧.

[5] ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/١٠).

[6] ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات، ٧٩/٣٧-٣٩).

[7] سورة النجم، ٥٣/١٨.

[8] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١).

[9] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (سورة النجم، ٥٣/١٣-١٤).

[10] ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (سورة النجم، ٥٣/١٦).

[11] سورة الليل، ٩٢/١-٢.

[12] ن: السدرة.

[13] ك – المنتهى، صح هـ؛ ن – المنتهى.

[14] الآية ٢٠ من هذه السورة.

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ،[١] لأن الانتهاء إنما يكون إلى المأوى، والجنة هي مأوى المؤمنين والأنبياء. وأما قوله: إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ،[٢] أي من عظمة جبريل وما عليه من الأنوار والآثار المختصة به من ذي العرش. ويحتمل أن تكون[٣] السدرة ههنا هي شجرة[٤] الحياة المذكورة في أول التوراة،[٥] والله أعلم.

وأما ما نُقل عن جبريل من أنه قال في ليلة المعراج لمحمد صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسك بيده لو تقدمتَ أنملةً لاحترقت بالنور»،[٦] فذلك لِما رآه من النور المختص بمحمد صلى الله عليه وسلم من رب العزة ولم يكن جبريل رأى مثلَه قبله، لا لأن جبريل لا يُمكنه التقدم إلى منزلته من ذي العرش، بل لا يُمكنه ذلك مع محمد صلى الله عليه وسلم.

[التفضيل بين الملك والبشر]

فإن قيل: فهل منزلة الملك أقرب من منزلة البشر أم بالعكس؟ فأقول: إن منزلة الملك أقرب ومنزلة البشر أفضل، ولهذا وقع الخلاف بين الناس. وذلك لأن الملك مجبَر على الخير دون الشر، وهذا أقرب إلى صفة البارئ تعالى، لأنه الخير المحض بكل شيء وضده. وأما البشر فهو مكتسِب للخير والشر غير مجبَر على أحدهما، فهو يترقّى بفعل الخير وباجتناب الشر، فبفعل[٧] الخير ضاهى الملكَ وباجتناب الشر فضُل عليه. ولهذا قال تعالى: وَفَضَّلْنَٰهُمْ، وقدم على التفضيل: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ.[٨] وأوضح سبب الإكرام منه لهم بقوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ.[٩] فإن قلت: قد بينت أن الملك أقرب والبشر أفضل بشرط العمل الذي هو التقوى. فإذا عمل البشر بالتقوى بحسب ما يَقْوَى فأيهما[١٠] خير: هو أم الملك؟ فأقول: لا شك أن البشر بهذا الشرط خير البرية،[١١]

---

١ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ (سورة النجم، ١٣/٥٣-١٥).

٢ سورة النجم، ١٦/٥٣.

٣ ش ك: أن يكون.

٤ ك: الشجرة.

٥ التكوين ٩/٢، ٢٢/٣، ٢٤.

٦ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر بهذا اللفظ. انظر لتفصيل المسألة: صحيح البخاري، الأنبياء ٥، وتفسير القرآن ٥/١٧ (سورة الإسراء ٥)؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٦٣-٢٦٩.

٧ ن: فيفعل.

٨ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٧٠/١٧).

٩ سورة الحجرات، ١٣/٤٩.

١٠ ن: فإنهما.

١١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٧/٩٨).

كما سيأتي في سورة والتين. فإذا فهمت الفرق بين الألفاظ، أعني قولنا: "أقرب" و"أفضل" و"خير" زال الاشتباه. ولولا أن يكون الملك أقرب لَما جُعل واسطة بين النبي والإلٰه. ولولا أن يكون البشر أفضل بشرط التقوى التي لا تكون إلا للعالِم لَمَا أسجد اللهُ الملائكةَ لآدم،[1] لِما شرّفه بفضيلة العلم عليهم. ولهذا يعود الأفضل أقربَ فلا يحتاج إلى الملك كما كان في ليلة الإسراء. فالملك قريب والبشر مقرَّب، / فافهم. [٤٩٣و]

[فضيلة العقل والعرفان]

ولو لم يكن البشر خير البرية بالشرط لَمَا كان خليفة الله. وأقول: يكفي هذا الخليفةَ الموعود برؤية ربه في الأخرى رؤيةُ نفسه في الدنيا. فإنه متى عرف نفسه بالحدَث عرف ربه بالقِدَم. وهذا العرفان هو مفتاح الشرائع التي هي مفتاح السعادة في النشأة الآخرة.[2] ولا يقال: كيف تجعل العرفان مفتاحَ الشرائع ولكن اجعل الشرائع مفتاح العرفان. ليس كذلك، فإن الشرائع لا فائدة فيها لمن لا عرفان له، وأعني بالعرفان ثمرة العقل. بل أقول: إن الهوى حَجَب العقل عن السير إلى حده. ولو زال الحجاب لوصل العقل إلى حده الذي هو عين الشرائع، لكنه يصل إليها بكدٍّ وأيِّ كدٍّ وجهدٍ وأيِّ جهد. فيجد الأنبياءَ قد جاءت بذلك على أتمّ صورة من الواجب في العقل بأيسر سعيٍ وأسهل معاناةٍ. قال الله تعالى: قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ.[3] وقد بيّنّا في آخر سورة الإخلاص ما به يُعلَم عقلا أن الأرواح كلها مخلوقة [و]أمرٌ[4] من أمر الله، بَان اللهُ عنها[5] وبانت عنه، والأمر "كُنْ". و"كُنْ" أمر لما يتكوّن، وما يتكوّن لم يكن كائنا. ولو كان كائنا لكانت "كن" لم تكن أو كانت عبثا، وتعالى الله عن ذلك. وبهذا الاعتراف تصح الرؤية بعين اليقين. وأما بالجارحة -أعني[6] العين الباصرة- فالعقل قد مَنع من ذلك في هذه الدار والنص بقوله: لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ،[7] والحديث في صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه».[8]

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ (سورة طه، ١١٦/٢٠).

[2] ك: الأخرى.

[3] سورة ص، ٨٦/٣٨.

[4] ش ك - أمر.

[5] ش ك - بان الله عنها. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).

[6] ك - أعني، صح هـ.

[7] ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام، ١٠٣/٦).

[8] مسند أحمد بن حنبل، ١٥٧/٥، ١٧١، ١٧٥؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٩١.

والمعنى غلبني نور وبهرني فكيف أراه؟ ودل على هذا الروايةُ الأخرى قال: «رأيت نورا».[١] وقد بيّنّا مفهوم الآيات في سورة والنجم،[٢] وسورة كُوِّرت جملةً في هذا الموضوع[٣] بما لا يَشُكّ[٤] فيه من تقيّد بالنص. وأما ما قدمناه في سورة النجم[٥] أولا مما هو مبيّن لرأي من قال: إن الرؤية لم تكن لجبريل بل لله سبحانه فهو محمول على لفظ الآيات. وإنما أثبتناه في موضعه وأفردناه لئلا تبقى للخصم حجةٌ يظن[٦] أننا لم نُحط بها علمًا، فبيّنّا ذلك بأقوى أدلته وأحسن ما أمكن في عبارته. ثم ذكرنا ههنا ما لا محيصَ عنه من لازم اللفظ لا ما[٧] يحتمله. وذكرنا ذلك على تلك الصورة لينتفع به أهلُه. ولم نخرج به إلى رأي من يقول: إن الرؤية بالجارحة، أعني البصر. وأما البصيرة فلا شك في الرؤية بها لكل بحسبه، ولكن البصيرة تَرى ما يراه البصر كتخيل الأجسام ورؤية المنام. وليس هذا من خصائصها. وإن قدرت عليه وترى أيضا رؤية أخرى باليقين والإيمان كما ترى ما تحققه[٨] بالدليل والبرهان. وترى أيضا ما تشهده[٩] ولا تجحده[١٠] مما لا يدخل تحت العبارات ولا تومئ إليه الإشاراتُ، بل هو من خصائص الأفراد. وأبلغُ ما ضُرب له من المثال ما يجده العاشقُ مما لا يقدر أن يعبّر عنه لِلْخَلِيّ الذي لم يَذُق العِشْق مرة. ومرادي بهذا التمثيل التعريف بحقيقةٍ مدرَكة بالمَثَل لا يستطيع البليغ أن يعبر عنها للخليّ فيمثّلَها في عقله. وإذا كان ذلك كذلك فما ظنك بمن لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ.[١١]

---

١ صحيح مسلم، الإيمان ٢٩٢؛ ومسند أبي عوانة، ١٢٨/١-١٢٩.

٢ انظر: سورة النجم، ٥/٥٣-١٨.

٣ ك ن: في هذا الموضع.

٤ ن: لا شك.

٥ ش - وسورة كورت جملة في هذا الموضوع بما لا يشك فيه من تقيد بالنص وأما ما قدمناه في سورة النجم.

٦ ك ن: بظن.

٧ ن: اللفظ لا ما. وفي هامش ك: مما.

٨ ن: ما نحققه.

٩ ن: ما نشهده.

١٠ ن: ولا نجحده.

١١ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ (سورة الشورى، ١١/٤٢).

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾

إذا السماء انفطرت، الانفطار هو أول الانشقاق.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾

وإذا البحار فجرت، خُرق بعضها إلى بعض فاختلط المِلْح بالحُلو، وخُرقت على الدنيا فغَمَرت بمائها. وإذا القبور بعثرت، مثل بُحْثرت،[١] من البحث وهو إثارة الشيء. والمعنى أن الله يأذن ببحث[٢] التراب الذي في القبور / من أجل استخراج العظام الصغار [٤٩٣ظ]
المختلطة بالتراب والبالية فيه، ويُخلص الأجزاء ويجمع، ويُسَوّي الميت حيا، ويبعثه خلقا جيديا.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾

علمت نفس ما قدمت، لنفسها في الدنيا، وأخرت، فيما[٣] بعدها، فلَم تُقدّمه لها إلى الأخرى لأنها كانت تسوق وتؤخر فعل الخير من مدة إلى مدة وتُقدّم فعل الشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

يٰأيها الإنسٰن ما غرك بربك الكريم، حتى كفرتَ به، الذى خلقك فسوٰك، التسوية عائدة على الأعضاء، كقوله: نُسَوِّيَ بَنَانَهُۥ.[٤] فعدلك، في المزاج وغيره. وقوله: فى أىّ صورة، قيل: ليس المراد صورَ[٥] الأجسام، لأن تركيب النفس في الجسم لا يصح،

[١] بحثر الشيء: بحثه وبدّده (لسان العرب، «بحثر»).
[٢] ن: يبحث.
[٣] ن: فيها.

[٤] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٤).
[٥] ن: صورة.

وإنما التركيب في الأجسام، بل معناه: في أيّ صورة، مّا، من الصور التي شاء، أنْ تتصورها وتتصور بها في باطنك وتكوّنها، ركبك، فيها بحيث إنك تتحد بها كما يتحد المرّكب من شيئين فيصير واحدا. فالخطاب للنفس[1] لا للجسم. ولهذا ذكر ذلك بعد الخلق والتسوية والتعديل. فلمّا فرغ ما يختص بالجسم الذي هو الآلة للنفس ذكر صاحب الآلة واصفا لِما وهبه كما وهبه في جسمه. ولكن الجسم في صورة والنفس في كل[2] صورة. وفي ذلك قيل، شعر:[3]

يا آخر الكل فيك الكل مندرج وقوليَ الكلَّ كاف إن تكنْ فَطِنًا،[4]
وأنت جزءك أو جزءُ الوجود كما تكون عينا إذا ما شئت أو أُذُنا،
فالجزء والكل أو ما فوقه أبدا أضحى بقصدك معذوقا ومرتَهَنَا،
إن غبت غاب وإن تحضُر تجدك له ذاتا تراها لما حاولتَه وطنا،
فإن تكن فلكا أو إن تكن ملكًا أو كنت روحا لروح الكل أو بَدَنا،
أخطأت قصدك فالمقصود كونك إنـ سانًا وعبدا ومفتونا وممتَحَنا،
هذا مقام رسول الله قم أبدا به تكن آمنا في الكل مؤتَمَنا.[5]

وقيل في قوله تعالى: في أيّ صورة، كلام منفصل ذكره استعظاما لصورة الإنسان، أعني جسمه المخلوق المسوّى المعدَّل، لأن نصفه يعادل نصفه الآخر من اليمين والشمال. ثم قال: ما، بمعنى مهما، شاء، الله من الحيوانات، ركّبك، عليه، من الركوب لا من التركيب. وذلك مِثْل امتنانه سبحانه بقوله: وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا [وَزِينَةً]،[6] وكقوله: لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ،[7] الآية. وأما ما قلناه من التعظيم لصورة الإنسان بلفظة "أيّ" فهو ما تقول: رأيت رجلا وأيَّ رجل، معه سيفٌ وأيَّ سيفٍ، تريد بذلك الوصف والتعظيمَ. ولا شك في أنه[8] كونُ الإنسان خُلق على هذه الصورة وسُلّط[9] على ركوب ما شاء[10] الله من الحيوان فهذا مما إذا فكّر فيه المُفكِّر وجد من العجائب ما يجب الشكر لله عليه والاعتراف بقدرة الصانع ونعمته الباهرة. وكان هذا الكلام بهذا التفسير

---

١ ش: للأنفس. وفي هامش ك: للأنفس.
٢ ك – كل، صح هـ.
٣ ك – شعر.
٤ ك ن: قطنا.
٥ شجون المسجون لابن عربي، ص ١٦٠.
٦ سورة النحل، ١٦/٨.
٧ ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/ ١٢-١٣).
٨ ش: ولا شك أنه.
٩ ن: ويسلط.
١٠ ش ك: ما يشاء.

منسوقا بما تقدم من ذكر النعم. وأما من فهم من قوله تعالى: ركّبك، تركيبا لا ركوبا، فلا ينطبق على الكلام الأول الذي هو من جملة النعم على العبد، بل إنما يُفهم منه قدرة الرب فقط. ولهذا اضطروا إلى أن قالوا: "ما" زائدة، وجعلوا المعنى "في أيّ صورة شاء ركبك". فإن أرادوا صور الآدميين واختلافَها بالشكل فالصورة واحدة وإن خالف الشكل والتخطيط. ومدلول الكلام / يقتضي صُوَرا لا صورة. وأيضا إنه لو [٤٩٤و] قال موضع "ركبك": "أظهرك" لزال الإشكال. ولا شك أن الخطاب للحي الناطق من الإنسان، ولا شك في[١] أنه غير الجسم، ولا يصح التركيب إلا في الأجسام. وإن قيل: التركيب على صورة الاستعارة، فالمراد بالاستعارة البيان والتفهيم، فإذا لم يحصل ذلك بل ضدُّه فقد عاد الميل إلى المفهوم من ظاهر اللفظ أقرب وأولى وأليَق بما تقدم، وأنسبَ إلى المراد. ولا يجوز العدول عما هذا شأنُه إلا إلى ما هو أولى منه وأشدُّ وِفاقا وأظهر انطباقا. ولم نجد ذلك، ومن وجد ذلك فعليه البيان.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾

كلا بل تكذبون بالدين، الجزاء.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

يعلمون ما تفعلون، ليس المراد يعلمونه قبل الفعل، بل كما تتواعدُ الخصمَ فتقول: قد علمت ما فعلت. وذلك أن الشاهد لا يشهد إلا بما علم، فذكر العلم من أجل الشهادة على العبد يوم القيامة. وأيضا إن الكاتب لا بد أن يعلم الشيء ثم يكتبه، فذكر العلم المتقدم على الكتابة، فاستغنى بقوله: **يعلمون**، عن قوله: "يكتبون" بما ذكره من قبل بقوله: **كٰتبين**. فعِلْمُهم لم يحصل لهم إلا بعد الرؤية. فلما تقدمت الرؤية حصل العلم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾

ولما كان الكرام الكاتبون[٢] هم على سائر الخلق وصف الفريقين بقوله: **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم**، وتقدُّمُ لفظة "إن" يعطي[٣] تعظيم ما بعدها.

---

[١] شن: ولا شك أنه.
[٢] شن: الكاتبين.
[٣] ك ن: إن تعطي.

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ
أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾

يصلونها يوم الدين، الجزاء الذي كانوا يكذبون به. **وما هم عنها بغائبين. وما أدرٰك ما يوم الدين، ثم ما أدرٰك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله**. وقيل معنى التكرار: إن الأول للأبرار والثاني للفجار. وقيل: هو للتعظيم والتخويف وهو الأولى، والله أعلم.

سورة المطفّفين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾

ويل للمطففين، عرّفهم بقوله: **الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون**، أي مالهم على الناس. ولو قال: من الناس جاز أن يكون منهم وليس مما عليهم. تقول: اكْتَلتُ منك، أي اشتريت، واكتلت عليك، أي أخذت ما كان عليك.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، هذا دليل على أن قوله: وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ،[1] يريد به الميزان الظاهر. ولمّا عيّن الوزن ثانيا لم يحتج إلى ذكره أولا. وأصل التطفيف التنقيص. ويقال: خذ ما طفّ، أي ما عَلا، وطفّ به الفرسُ، إذا وثب فَعَلا عن الأرض. فجاء اللفظ ههنا دالا على الزيادة وعلى النقصان. فإن انفرد أحد العباد بأحد الوصفين كان مطفِفا.[2] والخطاب ههنا للمؤمنين، وذلك لقوله: **ألا يظن أولٰئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم**. وقوله: **يظن**، لأن العقل متى جوّز ذلك ظنا وجب[3] أن يحترز، فكيف إذا وجب تحقيقا. وفائدة اعتقاد البعث هذا، وهو أن[4] من اعتقد البعث من أجل المحاسبة والجزاء على مثقال ذرة وجب أن لا يقدّم لنفسه ما لا يحبّ أن يراه في ذلك اليوم. وهو بخلاف من لا يعتقد البعث والحساب. فإنه يفعل ما يشاء ولا يخاف، **يوم يقوم الناس لرب العٰلمين**.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾

كلا، أي ليس كما يظنون أنه لا بعثَ، بل لا بد من بعثٍ وجزاء. ثم فصّل الجزاء بقوله: **إن كتٰب الفجار لفى سجين**، ولم يقل: الكفار، فهو[5] خطاب للمؤمنين المُنذَرين

---

[1] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ (سورة الرحمن، ٩/٥٥).
[2] ن: مطفف.
[3] ن: ويجب.
[4] ش: أنه.
[5] ك: فهذا.

[٤٩٤ظ] من جهة أعمالهم بالنار. فلفظة / "سجين" من السجن وهو الحبس، بوزن فِعّيل مثل ضِرّيب وإكّيل.[١] وقيل: سجين: شَديد. والرَّقْم الأثر الراسخ. ورُقْمَتا[٢] الحمارِ أو الفرس أثران بباطن أعضادهما. وقال أبو عبيدة: سجّين مثل سجيل.[٣] وقيل: سجين جهة سفلي، كما نقل عنه عليه السلام أنه جُبٌّ في جهنم وقُبالته عِلّيون.[٤] واللفظ لا يعطي أن نفس الكتاب عليون بل في عليين. المراد من الكتاب ما هو مكتوب فيه من حال الفريقين واحدهما من جهة سُفلى والآخر من جهة عُليا. فالمفهوم من ذلك أن حساب هؤلاء وجزاءهم عند كتابهم أسفل، والآخر[٥] في ضده. والكتاب علمُه سبحانه أزلا. فظاهر اللفظ بالمَثَل مفهوم وباطنه بالإيمان معلوم. فقوله: **لفى سجين وما أدرىٰك ما سجين**، كقوله: لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ.[٦] وكلاهما في الموضعين معترض جاء للبيان والتعظيم. وأما نظم الكلام فتقديره: إن كتاب الفجار، **كتٰب مرقوم**، أي مكتوب فيه أزلا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾

الذين يكذبون بيوم الدين، فهذا[٧] رَقْم الكتاب.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

ثم أخبر الله عن المكذين[٨] بقوله: **وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلىٰ عليه ءايٰتنا قال أسٰطير الأولين**.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

كلا، رد لِما قال، أي ليس كذلك، **بل ران**، يَرين رَيْنا ورُيُونا، أي غلب فحَجَب. والمعنى ستر الذنب على الذنب حتى مات القلب. وقال عليه السلام: «إياكم ومُحقَّراتِ الذنوب».[٩]

---

[١] ش ك: ولكيل.

[٢] ش ك: ورقمنا.

[٣] انظر: تاج العروس للزبيدي، «سجن».

[٤] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[٥] ش: والأخير.

[٦] الآيتان ١٨-١٩ من هذه السورة.

[٧] ش: فلهذا.

[٨] ش ك: عن المكذبين.

[٩] سنن الدارمي، الرقاق ١٧. فنحوه: «إياك ومحقرات الأعمال» (سنن ابن ماجه، الزهد ٢٩).

فإن الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيما ضخما. واعلم أن الأكِنَّة مأخوذة من الكَنّ.[١] والرَّيْن أعظم وهو أن يَسْوَدَّ القلب من الذنوب، فهو ستر من السواد كالصَّدَأ لتردد الذنب الواحدِ عليه، فكيف إذا كان أكثر. والطبع أن تصير الذنوب طبعا مألوفا، وذلك أشد. والإقفال أشد من الطبع. والختم أعظم من الجميع، وهو لمن لا تَنفع فيه الموعظةُ، ولا يجوز منه وقوع التوبة. والرَّيْن في الدنيا عن أوامر الله يعطي الرينَ في الآخرة عن النظر إلى الله، فحَجَبَهم عن رؤيته ما عملوه[٢] في الدنيا. فصار في الأخرى، علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون. ولهذا بعده: **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون.**

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

كلا إن كتٰب الأبرار لفى عليين، جمع عِلِّيّ، من العلوّ جاء للمبالغة. وهذا العلو وضده بالمكانة لا بالمكان، كما يصدر من الرجل فعلٌ جميل فيكون في أعلى رتبة من نفسك، ثم يَصدر ضده فيصير في أحطِّ رتبة من نفسك. وكذلك[٣] فافهم أن الفاعل للخير أو الشر هو في نفس الأمر كذلك ولو كان في أنفس العباد بالضد. **وما أدرٰك ما عليون، كتٰب مرقوم يشهده المقربون.** وكفى بالمرء يعمل عملا يأنف أن يشهده المقربون، وكفى به مدحا أن أعماله مشهودة لهم لأنهم في عليين. وهنالك كُتبت أعماله فهم يشهدونها بلا شك من الآن، ويشهدون له بها في ذلك اليوم. فيجب على المرء أن ينظر أين يضع عمله فيعادي شهوته أو عقله.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾

والمرقوم: **إن الأبرار لفى نعيم علىٰ الأرائك ينظرون**، إلى ربهم، لأن بعده: **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم**، والنظر المقرون بالنضرة هو النظر إلى الله سبحانه.

---

١ كَنَّ الشيءَ يَكُنُّه كَنًّا: ستره. الكِنّ: ما يَرُدُّ الحرَّ والبرْدَ من الأبنية والمساكن، والجمع: أَكْنان وأَكِنَّة (لسان العرب، «كنن»).

٢ ش ك: بما عملوه.

٣ ن: فكذلك.

ولا يَحجبهم ذلك عن نعيم الجنة ولا نعيمَ الجنة عنه. لهذا بعده: **يُسْقَون من رحيق**، خمرة صافية، ولا يقال: إلا للمروَّق[١] أو مثلِه في الصفاء. **مختوم**، إشارةً إلى أنه مطيَّن كما يطيَّن / وعاء الخمر، لكن هذا عِوضُ الطين. [٤٩٥و]

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾

ختمه مسك. وفي ذٰلك، النعيم، **فليتنافس المتنافسون**، الآن في الدنيا لا للدنيا[٢] التي هي فانية. فالتنافس يجب أن يكون فيما يؤدي إلى ذلك لا إلى ضده. فهؤلاء لهم عُذوبة الرحيق وأولئك لهم عذاب[٣] الحريق. والمنافسة مشاقّة في نفيس[٤] كأن كُلًّا منهما يريده لنفسه ويبذل نفسَه في تحصيله.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾

ومزاجه من تسنيم، يقال: نَبتٌ سَنِمٌ، أي مرتفع، ومنه سَنام الناقة لارتفاعه. فالتسنيم كالترفيع. وقوله: **عينا**، منصوب على فقدان الخافض، وتقديره: مزاج الرحيق من تسنيم ذلك التسنيم من عين، وهو ماء[٥] يتعالى ويَنْخفق فيؤخذ من عُلُوّه وما يَمزُج[٦] به ذلك الرحيقُ. ولهذا بعده لم يقل: يشرب منها، بل، **يشرب بها المقربون**، رحيقَهم.

[اللذات الأخروية والسعادة]

ويجب أن تعلم أنه ليست اللذات الأخروية هي السعادةَ بل اللذات تابعة للسعادة. فلما ضرب الله المثل لهذه السعادة قال: فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم،[٧] وقال: عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ؛[٨] وهذا هو المشار إليه بلقاء الله، فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ،[٩] وقوله: إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ.[١٠] وهذا هو المطلب الذي يطلب لذاته لا لغيره، إذ لا غاية إلا هو. وأما قول علي عليه السلام

---

١ ن: للمعروق. | روّق الشراب: إذا صفّاه (تاج العروس للزبيدي، «روق»).

٢ جميع النسخ: لا في الدنيا.

٣ ش – الرحيق وأولئك لهم عذاب.

٤ ن: في نفس.

٥ ش: الماء.

٦ ن: ما يمزج.

٧ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، ١٧/٣٢).

٨ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ (سورة القمر، ٥٤/٥٤-٥٥).

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (سورة الكهف، ١٨/١١٠).

١٠ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣).

إن صح عنه: أنا رفعت سماءها، وبسطت أرضها، وأجريت[١] أنهارها، وأنبت أشجارها،[٢] بمعنى أنني كنت السببَ، إذ لولاي لم توجد.[٣] ومن هذا الباب قال بعض المتصوفة[٤] بيت.

ما أقلقني الشوق إلا[٥] إياي ونظرت في زُلالِ الماء معنايَ،
معناه[٦] مُوَلَّـةٌ على معناي ما الكون وما وجوده لولاي.[٧]

وهذا كله وإن كان صحيحا فهو في عرف العقول. وكل ما هو في عرف العقول فهو دون السعادة. وأين هذا من قوله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ.[٨] وهذه السعادة قد لزم أنها لا تُنال إلا بالإيمان، ولوازمه معروفة من القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وإذا مروا بهم يتغامزون، إذا مر المؤمنون، لأن الضمير عائد في "مرّوا" إلى أقرب المذكورين.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾

وإذا انقلبوا، يريد المجرمين المتغامزين، إلى أهلهم انقلبوا فكهين، أي بحديث المؤمنين والاستهزاء بهم، كقوله: فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ،[٩] أي تتفكهون[١٠] بهذا الكلام. والفاكه الطالب ما يتفكه به من نوادر الأمور، كما تُتَّخذ الفاكهة تشهّيا وتلذّذا، وهو على سبيل الاستعارة والتمثيل.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

فقال الله تعالى: وما أرسلوا عليهم حُفظين، أي يحفظون أعمالهم ويكتبونها كما تفعل الحَفَظَة من الملائكة.

---

١ ش: وأخرجت؛ ك: وأضرحت. وفي هامش ك: وأجريت.
٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٣ ش ك: لم يوجد.
٤ ك ن + ذو.
٥ ن: إلى.
٦ ش: معناي.
٧ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٨ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، ١٧/٣٢).
٩ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٦٥-٦٦).
١٠ ش ك: أي يتفكهون.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

فاليوم الذين ءامنوا من الكفار يضحكون، أي يضحكون من الكفار. **على الأرائك ينظرون**، إلى الكفار في النار ويقولون لهم: **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون؟** فهذه أمثال ضربت في الدنيا بالدنيا للأخرى من أحوال وأقوال، والأمر أعظم مما قيل بالمثل. وإذا كان أعظم فالمثل بعينه فيه باق في عالم البقاء، فإن القليل في الكثير ولا ينعكس.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾

إذا، شرط موقَّت يقتضي جوابا إلى آخر الآيتين،[1] واعترض دون جوابه: **يٰأيها الإنسٰن**، فهو خبر قائم بنفسه. ثم أجاب عنهما جميعا بقوله: **فأما أوتى**، وتمامه. فقوله: **إذا السماء انشقت وأذنت**، أي سمعت كما يسمع[2] ذو الأذن. قال الشاعر:

/صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذكرتُ به وإن ذكرتُ بسوء عندهم أَذِنـوا.[3] [٤٩٥ظ]

لربها، أي لأمره. **وحقت**، أي وحُقّ لها أن تسمع في ذلك اليوم العظيم. فكأن ذلك الاستماع صار حقا عليها فحُققت به. **وإذا الأرض مدت**، بُسطت، لأنها كانت قد انطوت على ما فيها فبُسطت. **وألقت ما فيها**، من الأموات، **وتخلت**، من الخلوّ كما تخلو الحامل إذا ألقت حَمْلها. **وأذنت لربها وحقت**.

ثم اعترض ههنا: **يٰأيها الإنسٰن إنك كادح**، الكدح مباشرة الأمر باجتهاد، **إلى ربك كدحا فملٰقيه**، فرغ المعترض.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾

ثم جاوب عنهما معا بقوله: **فأما من أوتى كتٰبه بيمينه، فسوف يحْسب حسابا يسيرا**، أراد المعنيين[4] القليل والسهلَ. **وينقلب إلى أهله مسرورا**، في الجنة. و"أهله" ههنا -بعد أهله من النسب- أهله من النسبة، وهم أهل الله وخاصّتُه.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾

---

[1] أي الآية التي في السماء والآية التي في الأرض بتمامهما.
[2] ش: كما سمع.
[3] زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٩/٦٢.
[4] ش: المعنين.

وأما من أوتى كتٰبه وراء، من وراء، ظهره، فسوف يدعوا ثبورا، بثبور. ومعناه يستغيثوا ثُبورَاهْ، وا هَلاكاه. والمثابرة المواثبة على ما يُهلِك. ويَصلَى سعيرا. إنه كان فى أهله، في دنياه وكفره مسرورا. إنه ظن أن لن يحور، يرجع، ومنه المِحْوَر لكثرة رجوعه إلى ما كان عليه عند دورانه، ويريد البعث.

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾

فلا، يظنَّ ذلك، أقسم بالشفق، وهو حمرة شعاع الشمس ما بين المغرب والعشاء. وأصل الشفق الرِّقَّة. ومنه أشفق عليه بمعنى رقّ قلبُه عليه. والّيلِ وما وسق، حمل. تقول: وسقتُ الشيء إذا جمعته فحملتَه. فالليل جمعَ ما يُرى بالنهار فأخفاه، وهو مِن "وسق المركبُ". والقمر إذا اتسق، بمعنى اوتسق، أي تكامل في ضوئه وهو من الوَسْق أيضا. لتركبن طبقا عن طبق، والركوب ههنا استعارة كما قال الشاعر:

رَكِـــب الأهــــوالَ فـــي زَوْرَتـــــه.[1]

وتقول: ارتكبت الخطر في الأمر الفلاني. والطَّبَق ههنا هو الحال المطابق لمِثْله، كما تقول: طابقت بين الكلامين أو الحالتين، فكلٌّ[2] منهما يقال له: طبق، لأن المطابقة هي المفاعلة، والمفاعلة لا تكون إلا بين شيئين. والمعنى ههنا عائد على قوله: إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ.[3] فسمِّي الكدح طبقا في الدنيا، ثم سمِّي الجزاء عنه طبقا في الآخرة لمطابقة هذا لهذا، لأنه مثله من خير أو شر، لا يزيد ولا ينقص. ولهذا بعده: فما لهم لا يؤمنون، أي إذا كان الإنسان يلاقي في الآخرة صورةَ عمله في الدنيا طبقا عن طبق، ويلازمه ملازمةَ الراكب لمركوبه فيطابق له الجزاء على قدر العمل.

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾

---

١ البيت لأبي الحسن علي بن جَبَلَة بن مسلم بن عبد الرحمن المعروف بالعَكَوَّك. وتمامه:
ركـــب الأهـــوال فـــي زورتـــه
ثـــم مـــا ســـلم حـتـــى وَدَعـــا.
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣/٣٥٠.

٢ ن: وكل.

٣ الآية ٦ من هذه السورة.

فما لهم لا يؤمنون، بالله. وإذا قرئ عليهم القرءان لا يسجدون، أي ينقادون إلى أوامره، ومنها السجود. فذَكَره لأنه علامة الانقياد والتصديق. ولهذا بعده: بل الذين كفروا يكذبون.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾

والله أعلم بما يوعون، في قلوبهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، والقلوب أوعية. يقال: أوعيت المتاع ووعيت[1] العلم، فهي أوعية العلم والجهل والإيمان والكفر.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾

فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت لهم أجر غير ممنون، أي غير[2] مقطوع.

[1] ش ك: وأوعيت.
[2] ش ك - أي غير.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾

والسماء ذات البروج، وهي السماء الثامنة فوق السبع الطباق. ولا يلزم من كونه لم يعيِّنْها في العِدّة أن لا تكون مخلوقة. وإنما لمّا كانت السبعُ للسيارة السبعِ خصص هذه بالذكر، وعرّفنا أن سائر البروج فيها فتخصص ما سواها بالسيارة. ونحن نَرى البروج ثابتة ونرى بالعِيان / الكواكبَ سيارة. فلهذا ذكر ذات البروج مفردة. وإنما لم يعيِّنْها مع [٤٩٦و] السبع لأن السبع فيها سبعة من الكواكب فقط، فهي المرئية بالأعين المعروفة بسيرها دون ما يشبهها من غيرها. ثم ذكر ما فوقها بمفردها، لأن فيها بقيةَ الكواكب المرئية جملة مما يعرف ومما لا يُعرف. فسماها بما يعرف وهي البروج. وهذا التفصيل أولى في باب التعريف. وقوله: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا،[١] ولم يقل: في السماوات يدل على سماء واحدة. فإن قيل: هي واحدة من السبع لكن الله جعل فيها بروجا؟ قلنا: لا نعلم ما يرجح ذلك وإن كان جائزا. لكنّا نعلم أن الله تعالى ذكر أيضا سماء الغيث بقوله: أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً.[٢] ولا يلزم أن تكون أحدَ السبع الطباق كما لا شك فيه. وإنما كل سامٍ سماءٌ، لأنه من سما يسمو فهو سامٍ. وقد علمت قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ،[٣] فهو فوق السبع. وقد قدمنا أن كل سام[٤] سماء، فيحتمل ما شاء الله من سماوات فوق السبع تحت الكرسي. وأما كونه عيّن مدة خلق فيها السبع فقد علمت أنه تعالى يخلق ما يشاء بقوله: "كُنْ".[٥] فلا يلزم[٦] من كونه خلق سبع سماوات في يومين[٧] أنه لم يخلق غير ذلك قبله أو بعده أو معه. ولكنه لم يعينه مخلوقا في زمان ليعرّفَنا أنه خلق ما شاء في مدةٍ شاء، وخلق ما شاء مما هو أعظم منه في واحدة

---

١ سورة الحجر، ١٥/١٦.

٢ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٧). وانظر أيضا: سورة البقرة، ٢/٢٢؛ وسورة الأنعام، ٦/٩٩.

٣ سورة البقرة، ٢/٢٥٥.

٤ ن: كل سماء.

٥ انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/١١٧؛ وسورة آل عمران، ٣/٤٧، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٦/٧٣.

٦ ش ك: ولا يلزم.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (سورة فصلت، ٤١/١٢).

كَلَمۡحِ بِٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ.[1] ولم يبيّن لنا إلا ما في بيانه فائدة، ومن حيث بيّن هذه السماء وسمّاها باسم خاص بها. فما[2] قلناه أولى، والله أعلم. واليومِ الموعود، أي الموعود به، وشاهد ومشهود، نكّره[3] للعموم ليعُمَّ الخلقَ والحقَّ. فمن عرّف ما نكّره الله فقد غلط إذ خصص، وإنما يدخل ما قاله فيما قال الله تعالى.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾

وجواب القسم: قتل [أصحٰب الأخدود]، بمعنى لُعن، وهو كقوله: قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ،[4] [وكقوله]: قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ.[5] وأما أصحاب الأخدود فقد قيل: إنه روي عن علي رضي الله عنه أنهم قوم من المجوس.[6] والأخدود، شق في الأرض. والكلام يحتمل أن يكون عن قضية مخصصة مشهورة وقعت. فضربها الله مثلا ولعن فاعلها ليرتدع[7] من يريد أن يفعل كفعله. والذي دلت الآيات عليه أن قوما شقّوا في الأرض أخدودا، وأوقدوا فيه نارا، وأحرقوا فيها قوما من المؤمنين. وقعد أولئك الكفار على النار يشاهدون ما يجري للمؤمنين، ولم يكن للمؤمنين ذنبٌ إلا أنهم آمنوا بالله دون آلهتهم. ثم نقول: إن الكلام يحتمل أيضا ما نقوله وإن كان النقل صحيحا. فلا يلزم من تخصيص السبب نفيُ العموم للحكم في مثله، فأصحاب الأخدود أصحاب جهنم. وكَسْرُ النار، على البدل مما قبله. ذاتِ الوَقود، وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ.[8] إذ هم عليها قعود، من قوله: لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا.[9] وهم على ما يفعلون بالمؤمنين، اليوم، شهود، في ذلك اليوم على أنفسهم، وهو كقوله: كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا.[10]

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾

---

١ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (سورة النحل، ٧٧/١٦).

٢ ن: مما.

٣ ن: نكرة.

٤ سورة عبس، ١٧/٨٠.

٥ سورة الذاريات، ١٠/٥١.

٦ جامع البيان للطبري، ١٨٨/٢٢.

٧ ن: ليرتفع.

٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (سورة التحريم، ٦/٦٦).

٩ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ (سورة مريم، ٦٨/١٩).

١٠ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٤/١٧).

ثم حكى حال الكفار بقوله: وما نقموا منهم، من المؤمنين، أي ما فعلوا ما فعلوه على وجه النقمة، إلا، كراهةَ، أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السمٰوٰت والأرض، دون آلهتهم. والله علىٰ كل / شيء شهيد، فيجزي كُلًّا بما يستحقه. وذكر النقمة [٤٩٦ظ]
لأن المنتقم لا يترك من مجهوده شيئا متى ظهر.[١]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾

ثم ذكر كلاما يشتمل على كل كافر فاتن يقاتل المؤمنين فقال: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنٰت، وهذا كقوله: إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[٢] فالفتنة ههنا يحتمل أنه أراد بها القتل، ويحتمل أنه أراد مطلق الفتنة بأي صورة كانت، ويدخل القتل في ذلك، وهو أولى. وقوله: ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. أراد أن يعرّفنا أنهم إن تابوا ولو أنهم قد كفروا وفتنوا المؤمنين بأي صورة كانت الفتنة فإن الله يمحو ذنوبهم ويتوب عليهم إذا فعلوا، ثم تابوا. وذكرُ التوبة ههنا يدل على قوم كانوا مؤمنين، ثم خرجوا عن الإيمان بما فتنوا، ثم تابوا من بعد ذلك، وهذا فائدة الكلام. والمقصود من القصة سواء كانوا أحرقوا المؤمنين بالنار أو فتنوهم بفتنة ليطمع سبحانه في رحمته ومغفرته. ولهذا بعده: إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت، أي بعد ما فتنوا وفعلوا ما تقدم، لهم جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر ذٰلك الفوز الكبير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾

ثم خوّف من لم يؤمن ممن فعل أو لم يفعل فقال: إن بطش ربك لشديد، أي بمن لم يتب. وبرهن على ذلك بقوله: إنه هو يبدئ ويعيد، ومن يقدر على ذلك فبطشه شديد بلا شك. ثم قال عمن فتن المؤمنين ثم تاب: وهو الغفور، وبعد المغفرة ذكر أنه هو، الودود، لهذا المغفور له لئلا يبقى عنده قُنوط الذنب وحياءُ مخالفة[٣] الرب

---

[١] ن - متى ظهر.

[٢] ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (سورة النساء، ١٠١/٤).

[٣] ش ك: المخالفة.

وإن غَفر له ولم يعاقبه. ثم قال: **ذو العرش**، أي لا تَتعاظَمُه ذنوبُ عباده، **المجيدُ**، الممجَّد، وإن كفر به من كفر. ولمّا كان قد قدم أنه غفور ودود لمن فتن المؤمنين والمؤمنات قال بعده: **فعال لما يريد**، كقوله: يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ.[1] ولمّا كان قد قدم أيضا قوله: **إن بطش ربك لشديد**، ذكر أنه، **فعّال لما يريد**، وهذا هو المقصود والذي قبله محتمل.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾

ثم ذكر من أفعاله ما دل على شدة بطشه ونفوذ فعله فيمن يريد نفوذَه فيه فقال: **هل أتىٰك حديث الجنود فرعون وثمود**، فهلا يَعتبر بهم مَن بعدهم. وأراد بذكر "فرعون" كونهم فتنوا المؤمنين من بني إسرائيل ثم لم يتوبوا.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾

بل الذين كفروا فى تكذيب، لما جئتَ به من وعد ووعيد وإخبار وإنذار. **والله من ورائهم محيط**، بهم بمعنى القدرة على الإحاطة بهم فلا يَفلِت من عذابه أحدٌ، وتقديره:[2] فليس كما يزعمون في تكذيبهم ما جئتَ به.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾

بل هو قرءان مجيد، ممجَّد، بمعنى ذو مجد وتعظيم في صدور المؤمنين. **فى لوح محفوظ**، علمِ الله الأزلِ، وهو الآن في لوح القلوب المحفوظ من كل شبهة، والمراد القرآن لا لفظه فقط، فافهم. وقيل في اللوح: إنه شيء يلوح للملائكة فيعرفون به ما يُلقي إليهم. فإن قيل: والكفر أيضا في علم الله لم يزل معلوما؟ قلنا: القرآن في علم الله قرآن ممدوح مُنجٍ، والكفر في علم الله كفر مذموم مُهلك. والمراد أنه لا يبدَّل ولا ينعدم، كما تزعم الكفار، بل هو في الدنيا كما يكون المكتوب في لوح[3] محفوظ من كل أذًى وعارض.

---

[1] ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/ ١٢٩. وانظر أيضا: سورة المائدة، ٥/١٨، ٤٠؛ وسورة الفتح، ٤٨/١٤).

[2] ك: أحدا أو تقديره.

[3] ن – لوح.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

والسماء؛ اعلم أنه لمّا تقدم ذكرُ السبع الطِّباقِ، ثم ذكر السماء ذات البروج[1] ذكر ههنا / الجميعَ بقوله: والسماء. ثم ذكر جميعَ الكواكب بقوله: والطارق، النجم الذي [٤٩٧و] يَطرق فيَطلَع بعد الغيبة كما يقال: طَرَقنا ضيفٌ. وأصله من سلوك الطريق ليلا. وكل شيء أتاك ليلا فقد طرق. وبيّنه بقوله: وما أدرٰك ما الطارق: النجم الثاقب، يريد كلَّ نجم. فهو اسم الجنس، كما تقول: والطير، وكذلك والسماء. يريد اسم الجنس لِما[2] ذكره دون ما سيأتي في هذه السورة، لأنه ذكر من النجم إلى ما دونه وهو ما قدمه من السماء ذات البروج ومن السبع الطباق.[3] و"الثاقب" المضيء، كقوله: شِهَابٌ ثَاقِبٌ،[4] كأنه يثقب البصر. وقيل: أصله في اللغة من قولهم: ثَقَبت النارُ تثقُب ثُقوبا وثَقابة إذا اتقدت. ويحتمل أن يكون المراد بالثاقب تشبيها كأنه ثقب مكانا فظهر منه، وهذا أولى الصوَر، لأنه بنوره يثقب السماواتِ السبعَ من ذات البروج إلى أبصار أهل الأرض. والمعنى أنه تعالى أقسم بكل سماء لكل نجم إعلاما للعباد أن الذي جعل هذه الأفلاك حافظةً لحركاتها، والنجومَ حافظةً لنظامها عند طلوعها ومغيبها ليلا ونهارا، في ثباتها وحركاتها وآثارِ مقابلاتها بإذنه واتصالاتها، وجعلها كوجوه رجال تنظر من السماء إلى أهل الأرض كوجوه الحفظة، أي الذي بقدرته جعل هذا هو قادر على أن يجعل على كل نفس حافظا من أنفُس العباد فيجازيهم بأفعالهم يوم بعثهم. فهذا معنى قوله بعد القسم بما قدم: إنْ كلُّ نفسٍ لمّا، لَلّذي، عليها حُفظ، وبيانه في قوله: وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ،[5] الآية.

---

[1] لعل المؤلف رحمه يشير إلى الآية ١٥ من سورة نوح، وإلى ابتداء سورة البروج.

[2] ش ك: كما. وفي هامش ك: لما.

[3] قد مر آنفا.

[4] ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ (سورة الصافات، ١٠/٣٧).

[5] ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (سورة الانفطار، ١٠/٨٢-١٢).

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

ثم دل على قدرته على النشأة الثانية التي بها يكون الجزاء ببداءته للنشأة الأولى التي كان بها العمل فقال: **فلينظر الإنسٰن مم خلق، خلق**،[1] إخبار والأول تحقير. وكرره ليشرحه[2] بقوله: **من ماء دافق**، مندفق، وهو كقولك: سرّ كاتم، أي مكتوم. **يخرج من بين الصلب والترائب**، جمع تَريبة، وهي عظام الصدر وموضع القلادة. وسمي الصلب لصلابة عظامه، وبين هذين يتولد من أغذية المعدة وطبخ الكَبِد مَنِيّ الرجل والمرأة، لأن الأغذية وآلاتها بين الصلب والترائب من كل ذكر وأنثى.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

وقوله: **إنه علىٰ رجعه لقادر**، يريد رجع الإنسان بعد الموت، وذلك بالبعث. وليس المراد رجع الماء في موضعه ولا رَجْعَ الإنسان نطفة. ولهذا بعده: **يوم تبلى السرائر**، بالبلاء الذي هو جزاء ما قَدَّمته.[3] ولهذا بعده: **فما له من قوة ولا ناصر**، يدفعه عنه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾

ولمّا ذكر رَجْعَ الإنسان وأنه سبحانه قادر على ذلك ذكر برهانا لقدرته مشهودا بالأبصار للمؤمنين والكفار فقال: **والسماء ذات الرجع**، وهي الفلك الأطلس المحيط الذي يرجع الكلَّ، أعني جميع ما احتوى عليه من السماء ذات البروج، ومن السبع الطباق من المشرق إلى المغرب في يوم واحد بليلته، وهو صاحب الحركة المشرقية. وجميع هذه الكواكب دورانها الطبيعي من الغرب إلى الشرق، ودورانها القَسْري من الشرق إلى الغرب. فأخبر سبحانه بهذا القَسَم الذي أقسم به أنه من قدر على رجع ذلك كيف يَعْجَز رَجْعَ الإنسان ليجازيه. ثم ذكر بعد المَرْئي القاصي، وهو السماء العُليا، المرئيَّ الداني فقال: / **والأرضِ ذاتِ الصَّدع**، تنصدع[4] بالنبات والعيون. وفي رجع السماء صورة دالة على البعث، وفي صدع الأرض كذلك. [٤٩٧ظ]

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾

ثم قال بعد القسم: **إنه لقول فصل، وما هو بالهزل**. وقد قيل: الضمير في "إنه" عائد على القرآن وإن لم يتقدم في الذكر بل عُرف بصفته. والأولى أن القول الفصل

---

١ ك – خلق، صح هـ.
٢ ش: بشرحه.
٣ قدّمته نفس الإنسان.
٤ ن: تتصدع.

هو ما ذكره بعده بقوله: إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا، أي يكيدون المؤمنين بالكَسْر وأكيد كيدا للمؤمنين بالنصر، أي أكيد جزاءً كيدا يُبطل كيدهم الذي كادوه ويعكس عليهم ما أرادوه. والكيد الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، كقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.[1] وهذا الوعيد لهم في الدنيا هو بعينه دال على وعيد لهم في الأخرى، كقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.[2]

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾

فمهل الكٰفرين أمهلهم رويدا، أصله من الرفق والتمهّل وهو تصغير الترخيم من إِرْوَادٍ الذي هو مصدر أَرْوَدَ يُرْوِد. ويقال: رادت الريحُ تَرود رَوْدا إذا[3] تحركت حركةً ضعيفة. وكأنه قال متواعدا بكل كلمة وحدها[4] مُرَدِّدا معنى الأول في الثاني ومعنى الثاني في الثالث، فقال: فمهل الكٰفرين، ثم قال: أمهلهم، ثم قال: رويدا.

[1] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٢).

[2] سورة آل عمران، ٣/١٢.

[3] ك - إذا، صح هـ.

[4] ش: واحدها.

سورة الأعلىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

سبح اسم ربك، وهو أن يقول: سبحان الله والحمد لله، ومثل ذلك، كقوله: وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ.[1] الأعلىٰ، جاء بوزن أفعل التعظيم حتى يكون كلُّ ما يخطر في البال أو يعبَّر بالمقال فهو سبحانه أعلى منه. ولم يقل: سبح ربك، لأنه أراد نَزَّهَ اسمه أن يسمَّى به غيره، لأنه هو، الأعلىٰ. الذى خلق، يشتمل على كل مخلوق، فسوىٰ، كلَّ شيء خلَقه على الوجه الأحسن لِما أريد به. وإلى هذا أشارت الآية بقوله: وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ،[2] كما بيّنّاه[3] في موضعه، لأنه ذكر الأكبر ليشتمل على الأصغر، وهو ما حوته السماوات. فلو فكرِ الإنسان في أمر جزئي تفكرا يُرقيه لَأدّاه إلى أمر كلي يوصله إلى بارئه، كما لو فكّر في خلقة عينه وأنها من سبع طبقاتٍ، وثلاثِ رطوبات، واثنَيْ عَشَرَ عَضَلة، وأوضاعِ العضل في مواضعه مع صغره ليحرّك الحدقة إلى الجهات الأربع ويديرها. فإن قابل بها السماءَ أدرك باللمح الواحدِ من أجل نسبة بين المدرِك والمدرَك[4] في الشكل والطباق، والصفاء والنور أكبرَ مدرَك بأصغر مدرِك في أسرع زمان مع بُعْد ما بينهما. وإذا كان هذا حالَ الناظر بالبصر مع شدة البُعْد فكيف بالبصيرة مع فرط القرب. فلا شك أن الناظر بذلك الناظر يرى أعلى فيسبح اسم[5] ربه الأعلى ويتحقق أنه، الذى خلق فسوىٰ، والذى قدر، ما أوجده من الأشياء على ما اقتضاه علمُه وحكمته أزلا. وهو بمعنى [قوله:] وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ،[6] فهدىٰ، كلَّ حيوان إلى ما فيه منفعتُه ليكتسبها ومضرتُه ليجتنبها. فظهرت هدايته فيما أظهرته مخلوقاته، كما أظهر النَّحْلُ[7] فيما صنع وما أظهر العقل فيما اخترع.

---

[1] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ (سورة الفرقان، ٥٨/٢٥).

[2] سورة آل عمران، ١٩١/٣.

[3] ن: كما بينا.

[4] ك – والمدرك، صح هـ.

[5] ك – اسم، صح هـ.

[6] سورة الرعد، ٨/١٣.

[7] انظر: سورة النحل، ٦٨/١٦-٦٩.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾

ولمّا ذكر أتمّ النعم الباطنة بالهدى ذكر أعم النعم الظاهرة[1] بقوله: **والذى أخرج المرعىٰ، فجعله غثاء أحوىٰ**، أخّر "أحوى" لأجل الوِزان. وتقديره والذي أخرج المرعى أحوى، أي إنه حوى كلَّ لونٍ وطعم، ورائحة ومنفعة، ومضرة وغير ذلك كالشكل والخاصية. فجاء بوزن أفعل من حوى يحوي فهو حاوٍ وأحوى. ثم ضرب / به مثلا للدنيا بقوله: **فجعله غثاء**، وهو الهَشِيم اليابس المُتفتِّت بعد ما قد كان أحوى، وكذلك الدنيا، وهو كقوله: إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا إلى قوله: جُرُزًا.[2] [٤٩٨و]

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾

وجاء قوله تعالى: **سنقرئك فلا تنسىٰ**، بعد هذا التسبيح الواجب لفاعل ذلك كله، لأنه وعده بشيء يجب أن يسبّح الله عليه ويتعجب منه، لكونه عليه السلام لا ينسى شيئا مما يقرؤه جبريل. فكأنه قال: سبح على النعم العامة ظاهرا والخاصةِ باطنا في سائر الخلق، وسبحه على ما خصك به دون سائر الخلق. ولو كان قوله: **لا تنسىٰ**، نهيا على طريق الوصية لكان مجزوما. ولان النسيان ليس إلى الإنسان،[3] فنَهْيه عما ليس إليه غير لائق بالحكمة. وإنما هو إخبار من الله ونعمة عليه بما ليس إليه. فإنه لا يقدر على أن لا ينسى شيئا، أعني لا ينسى على الإطلاق. ولهذا بعده: **إلا ما شاء الله**، هذا الاستثناء منقطع، ومعناه إلا ما شاء الله أن تنساه من غير القرآن. فيكون هذا من جملة المعجزة، أعني أنه ينسى مثل غيره إلا الوحيَ. فافقه جيدا. ولهذا بعده: **إنه يعلم الجهر وما يخفىٰ**، أي هو أعلم بما أخبرك به من أنك لا تنسى ما سيقرئك.[4] فصدّقه في هذا الإخبار فإنه، **يعلم**، كل شيء **والجهر**، ما أظهره العبد، **وما يخفىٰ**، أي عن صاحبه من عمله الذي سيعمله[5] ولا يعمله[6] قبل ذلك فهو خفي عنه. فذكر الطرفين، أعني الظاهر لكل أحد والخفي عن كل أحد حتى عن عامله، وهو من بابِ، عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ.[7]

---

١ ش: الباهرة.

٢ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٧-٨).

٣ أي ليس مربوطا إلى إرادة الإنسان.

٤ ش ك: ما سنقرئك.

٥ ن: سيعلمه.

٦ ش ن: ولا يعلمه. وفي هامش ك: ولا يعمله.

٧ ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٧٣). وانظر أيضا: سورة التوبة، ٩/٩٤، ١٠٥؛ وسورة الرعد، ٩/١٣.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

ولمّا كان من جملة اليُسر أنه لا ينسى الوحي قال بعده: ونيسرك لليسرىٰ، أي في هذا وغيره من جميع أمورك. ويُسْرَى فُعلى من اليسر مثلَ عُسْرَى من[١] العسر.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

ثم جعل قوله: فذكر، كأنه في موضع شكر النعمة التي هي اليسر. ولهذا جاء بالفاء. وقوله: إن نفعت الذكرىٰ. قيل: معناه البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول المرء لغيره إذا بَين له الحق: قد نصحتك إن قبلت. ولا يجوز أن يكون شرطا، لأن الأمر بالذكر[٢] له عليه السلام مطلق لتقوم الحجة. ويحتمل أن معناه "إن نفعت" فيما تظنه وتتوقعه، ويكون هذا بعد البلاغ الأول؛ فإن بعض الكفار نزل في حقه: وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ.[٣] فمن خصص بذلك فليس عليه أن يذكره وإن كان عليه أن يبلغه. ويحتمل أن معناه الأمر بتكرار التذكير لهم إن رأى الذكرى نافعةً فيستمر على تذكيرهم. فأما إذا لم يجدها نافعة فما عليه ذلك، لأن البلاغ قد وقع وقد بان له عليه السلام، إما أن الذكرى منه لمن بَلَغه نفعت أو لم تنفع. ولا يتبين ذلك إلا بعد البلاغ المفروض عليه. فإن بان له النفع فُرض عليه المداومة، وإن بان ضده فلا عليه ذلك. وهو معنى قوله تعالى: فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا،[٤] وهذا بخلاف قوله عن غير هؤلاء: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ.[٥]

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

وقد بين الله ما ذكرناه من هذا التفسير بقوله ههنا بعد هذا الكلام: سيذكر من يخشىٰ، وهو قوله تعالى: وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ.[٦] وليس المراد التذكر باللفظ بل بتدبّر المعنى.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾

١ ك - عسرى من، صح هـ.

٢ شر: بالذكرى؛ ك ن: بالذى. وفي هامش ك: بالذكر.

٣ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يس، ١٠/٣٦). وانظر أيضا: سورة البقرة، ٦/٢.

٤ سورة النجم، ٢٩/٥٣.

٥ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ (سورة النساء، ٦٣/٤).

٦ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ (سورة عبس، ٨/٨٠-١٠).

ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرىٰ، جهنم، وذلك صفة لها ولا يلزم أن يكون هناك[1] صغرى. ولا يقال: نار الدنيا،[2] بل الكبرى، [كما في] قوله تعالى: فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ.[3]

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

[٤٩٨ظ] ثم لا يموت فيها ولا يحيىٰ، وهذا الكلام، أعني من قوله: / سَيَذَّكَّرُ[4] إلى قوله: يحيىٰ، يَعلم به الإنسان في الدنيا حاله من السعادة أو الشقاوة في الأخرى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦﴾
﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

وقوله: والآخرة خير وأبقىٰ؛ هو المشار إليه بقوله: إن هٰذا لفى الصحف الأولىٰ صحف إبرٰهيم وموسىٰ. الصُحُف جمع صحيفة. والصحف قارئها قد يغير المعنى. فيقال: صَحَّف أي روى عن الصُحُف،[5] ومصدره التصحيف ومفعوله مصَحَّف.[6] وأما المُصْحَف فهو مأخوذ من أصحف إصحافا، وأصله أن الصحف الأولى جُمعت فيه. ولأنه أيضا كُتب أولا في صحف ثم جُمع.

[فضيلة الموت]

واعلم أنه قد اتضح لكل ذي عقل أن كل حالة انتقل الإنسان إليها هي أفضل من التي كان عليها. فكما أنه كان جنينا خيرا مما كان نطفة، وصار طفلا خيرا مما كان جنينا. فكذلك[7] حاله بعد الموت بل أبلغُ بدرجات كثيرة. ويجب أن تعلم أن مبدأ الحياة الدنيوية الطبيعية،[8] ونفس النمو والحِسّ، ومبدأ الحياة الأخروية هي النفس الناطقةُ والعقل الإلٰهي. فمعاد النفوس الناطقة يكون إلى العالم العقلي لأن به حياتها الحقيقيةَ،[9] وهي السعادة الإلٰهية التي لا يدركها الإنسان إلا بعد الموت الطبيعي، ومهما أدركه قبل ذلك فهو أمثال.

---

١ ش ك: هنالك.
٢ ن + وقيل.
٣ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة النساء، ١٤٥/٤).
٤ الآية ١٠ من هذه السورة.
٥ صحَّف الكلمة: كتبها أو قرأها على غير صحتها لاشتباه في الحروف (المعجم الوسيط، «صحف»).
٦ ن – مصحف.
٧ ش ك: وكذلك.
٨ ن: الطبيعة.
٩ ن: الحقيقة.

ولو أمكن إدراكُ الحقيقة في الحياة لذهبت فضيلة الموت، فالموت تمام الفضائل كلِّها. ولا يتمنى الموت الطبيعيَّ إلا مَن قدّم الأعمال الصالحة، وعَلِم العلوم الحقيقية، وعمل بالنواميس الشرعية والفضائل الإلٰهية. فالحياة الفانية الدنيا هي بمنزلة الآلة والأداة للحياة الباقية الأخرى. فيجب على العاقل أن ينزِّل الآلة محلَّها ويعمل بالأداة ما أمره الله أن يعمل بها، لأن الغرض المقصود من إبداع الله تعالى جميعَ الأشياء هو تقدير النشأة الآخرة العقلية التي هي الغاية والتمام، والله تعالى هو مقدِّرها بتوسط المبادئ. وهذه هي النظام العقلي، وخاصةً النوع الإنسانيُ الذي ميّزه الله على جميع بدائعه. ولمّا ظهر للعقل تصرفه ههنا في العظائم الجسمانية بالآلات الحسية، كعمل السفن وتحريك الأثقال وتسخير أعظم الحيوان، ثم استخراج الرموز ثم إبداعِ العجائب عَلم أنه إذا تجرد ظهرت له قوةٌ كامنة فيه. فتَصرَّفَ[1] بها خلافَ تصرفه بالمواد الحسية الفانية، وصار ما فيه الآنَ ههنا بالقوة وإن ظهر جزؤه[2] بالفاني ظاهرا هنالك بالفعل قائما كليا بالباقي. فلو فرضنا عدم الموت الطبيعي لعُدمت فضيلة الإنسان بل فضيلة الإبداع كله. ومن تحقق فضيلة الموت استعدّ له وعمِل للحياة الباقية، والعمر الطويل، واللذات العقلية، والوعودِ الإلٰهية التي إنما أدرك العقل منها أمثلةَ ما يحبه ويعرفه. شعر:[3]

فكيف والأمـر أعـلى أن يـحـاط بـه   فـليس يُـدرَك بـالأوصـاف والـخبر.[4]

---

[1] ك: فتصرف.

[2] ش: جزءه.

[3] ش ك – شعر.

[4] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾

هل أتاك حديث الغَشية، المُجلِّلة،[1] وهي النار تُغشِّيهم بعذابها. والمعنى هل أتاك منا، كما تقول لصاحبك: أخبرتك عن كيت وكيت، إذا أردت إخباره ثم تقول له ذلك، فيكون القول الأول تنبيها وتيقيظا[2] لما تريد قولَه. والغَشية، من قوله تعالى: يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ،[3] وهذا أولى، لأنه لم يقل: المغشِّية فهو من الغِشيان / لا الغَشاوة، والمراد به ما يغشاهم يوم القيامة من الخوف والهول. [٤٩٩و]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾

وجوه يومئذ خُشعة عاملة ناصبة، من النَّصَب وهو التعب. وهذا وصفها الذي كانت عليه في الدنيا، فهو يريد الإخبار عنهم بما تعبوا فيه من الطاعات بزعمهم. وهو كقوله: وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا.[4] وخص[5] الوجوه بالذكر لأن الذل عليها يظهر. وهذا الكلام أولى بالرهبان اليومَ وأمثالِهم من أرباب العبادات، وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ.[6] فهذه الوجوه في الدنيا ناصبة، وفي الآخرة، تصلىٰ نارا حامية تسقىٰ من عين ءانية، ناضجةٍ بالغة في الحرارة، ومنه غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ.[7]

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾

ليس لهم طعام إلا من ضريع، قال الحسن: لا أدري ما الضريع، لم أسمع من أصحاب محمد فيه شيئا.[8] والضريع في اللغة يَبِيسُ الشِّبرِق، وهو نبت يكون بالحجاز يشبه إذا جف كفَّ الهِرّة لا يُسمن ما يرعاه[9] من إبل وغيره. ويحتمل أن قوله: من ضريع،

---

[1] جلَّل الشيءُ تجليلا أي عمّ (لسان العرب، «جلل»).

[2] ن: وتيقظا.

[3] سورة العنكبوت، ٢٩/٥٥.

[4] سورة الفرقان، ٢٥/٢٣.

[5] ش: وخصص.

[6] سورة آل عمران، ٣/٨٥.

[7] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٥٣).

[8] اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٤.

[9] ن: من يراعاه.

بمعنى ضارع، وغيّره للوزان وهو من المضارعة، أعني المشابهة، أي ما يشبه الطعام وليس بطعام. فهو في الطعام يُظن طعاما كما يُظنّ السرابُ ماءً. ويجوز أن يكون بهذا المعنى، من ضريع، أي ما يشبه ما يُسقَون منه من العين الآنية. فكذلك يُطعَمون كالزقوم، وهذا أولى الوجوه، والله أعلم. فكما أن مشروبهم لا يُروي فكذلك مأكولهم، لا يسمن ولا يغنى من جوع.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

وجوه يومئذ ناعمة، من التنعم بالنِعَم، لسعيها، وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا،[١] راضية فى جنة عالية، وهي العليا التي يدخلها السابقون. وعلامتها أنه قال: فيها عين جارية، كما جاء في سورة الرحمن.[٢] لا تسمع، بالياء أولى القراءات[٣] فيها لْغية، تقدم الكلام على خَآئِنَة،[٤] ومثلِها في الوِزان، والمراد لا تسمع فيها كلمة لغو، وغيّر للوِزان، وبيانه لا لغو فيها؛ ومثله لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا.[٥] فيها عين جارية، يحسن أن تُقرأ الهاء مُسَكَّنة[٦] في هذه وأمثالها.[٧] فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة، بين أيديهم، والأَولى أنها في أكُفِ الولدان وهم يطوفون بها عليهم. وقال: موضوعة، إشارةً إلى أنها غير ممسوكة بالأيدي بل موضوعة في صحن الكف مملوءة مما[٨] يحبون شربه لا يبرح ذلك فيها جديدا. ونمارق مصفوفة، واحدها نُمرُق ونُمرُقَة وهي وِسادة صغيرة. وربما سموا الطُّنْفُسَة[٩] التي فوق الرحل[١٠] نُمرُقةً. عن أبي عبيدة: والأولى ههنا أنها الوسائد صُفّت فوق الزرابي.[١١]

١ ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ (سورة الإنسان، ٢٢/٧٦).

٢ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ (سورة الرحمن، ٥٠/٥٥، ٦٦).

٣ ك ن – بالياء أولى القراءات. | قرأ نافع "تسمع" بالتاء المثناة الفوقية المضمومة و"لاغية" برفع التاء، وابن كثير وأبو عمرو ورويس بالياء التحتية المضمومة في "تسمع" من رفع التاء في "لاغية" والباقون بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة في "تسمع" ونصب التاء في "لاغية" (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٤١).

٤ ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة المائدة، ١٣/٥)؛ و﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (سورة المؤمن، ١٩/٤٠).

٥ سورة مريم، ٦٢/١٩؛ وسورة الواقعة، ٢٥/٥٦؛ وسورة النبأ، ٣٥/٧٨.

٦ انظر: إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٥٨١.

٧ سورة الحاقة، ٢٢/٦٩؛ وسورة القارعة، ١١/١٠١.

٨ ك: بما.

٩ الطنفسة: النمرقة فوق الرحل. وقيل: هي البِساط الذي له خمل رقيق (لسان العرب، «طنفس»).

١٠ ش: الرجل.

١١ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٣٦/٢٤، ٣٣٧.

ولهذا بعده: وزرابيّ مبثوثة، واحدتها زُرْبِيّة وهي البُسْط الكبار الفاخرة ذات الخَمْل.[١] وقوله: مبثوثة، أراد سعة المكان وكثرة نُزَهِه المختلفة. فقد بُسط في كل موضع نزهة زُربيّة ليجلس المتفرج[٢] المتمتع حيث شاء فصارت مبثوثة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال ما نبههم به[٣] على قدرته على صحة هذا الوعد الذي في الآخرة بقدرته على ما عجّل لهم في الدنيا مما متعهم ونعّمهم به: **أفلا ينظرون**، أي نظرَ متفكرٍ، **إلى الإبل كيف خلقت**، أي من ماء مهين مع قوتها وشدتها. فضرب المثل بما بيْن أيديهم مما لا يقدرون أن يدعوا فيه القِدم كما قد يعتقد بعضهم في السماوات. والمراد أن كل واحدة من هذه تدل على صانع فكيف يشركون به من لا يصنع؟ ثم ترقى إلى ذكر خلق الأقوى فقال: **وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت**، والانتصاب ضد[٤] الانسطاح.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾

فذكر إنما أنت مذكر، ذكّرهم بأيام الله. **لست عليهم / بمسيطر**، مثل مُبَيْطِر،[٥] وقال [٤٩٩ظ] أبو عبيدة: لا ثالث لهما. وقال في موضع آخر: هي خمسة: المهيمن والمبيقر،[٦] وهو الذاهب في الأرض كأنه يشقها بسيره، ومنه بَقَرٌ، والمُجَيْمر[٧] اسم جبل. وكأنه أراد بالخمسة المشابهةَ في الوزن وبالتثنية المماثلة في الياء والطاء والراء. وأصله من السَّطر لا من الأساطير وإن كان الأصل واحدا، غير أن الأساطير الأباطيل المسطورةُ. وأما المسيطر[٨] فهو مُجري حكم السطر على غيره قهرا كما بيّنّاه. وقوله: **إلا من تولى وكفر**، هذا الاستثناء هو من قوله قبله: **فذكر**، وهذا كقوله في السورة المتقدمة: إن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ[٩] فهو مبين له. ولو لم يقل ههنا: **فذكر، إلا من تولى**، ثم قال: **وكفر**،

---

[١] الخمل: ريش النَّعام (لسان العرب، «خمل»).

[٢] ك: المنفرج.

[٣] ن: ما ينبههم به.

[٤] ن: عند.

[٥] ش: مسيطر.

[٦] اللباب لابن عادل، ٣٦٥/٧.

[٧] المجيمر: جبل بأعلى مُبْهِل. وقيل: أرض لبني فزارة (معجم البلدان لياقوت الحموي، «المجيمر»).

[٨] ن – وأما المسيطر.

[٩] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ (سورة الأعلى، ٩/٨٧).

لزمه تكرار الذكرى أبدا على سمع الكفار مع التولي منهم. وذلك منه متعذر بل عليه أن يبلّغهم ويُنذرهم إلى أن يتولى أحدهم ويكفر، فلا عليه ذلك بعد ذلك.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾

وقوله: فيعذبه الله العذاب الأكبر، عذاب الآخرة، والأصغر عذاب الدنيا لقوله: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ[1] الآية.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

[1] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٢١).

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾

والفجر، يحتمل أنه أقسم بفجر ليلةِ القدر، ويحتمل كل فجر. وإنما أقسم به لشرفه بدليلِ، وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ.[1] وكل هذه الأقسام يريد بها أحوالَ[2] الإنسان إذا نظر معتبِرا لمخلوقات الرحمن. فشَرُفَت الأشياء لشرف الإنسان عند اعتبارها والاستبصار بها. وشَرُف هو لِما[3] نازله من الاعتراف بالصانع والترقي بمشاهدة قدرة القادر في المقدورات. فصار القسم بهذه قرآنا منبها للسامع على التماس هذه الحالات من نفسه عند مشاهدة هذه الأشياء وأمثالها عِيانا. فافقه. وسمِّي الفجر تشبيها بانفجار الماء السائح، وذلك في أفق المشرق. فضَوْء الصباح المُقْبلِ في أطراف الليل المُدْبِر يشبه انفجار الماء. وقال المتصوفة: الفجر ما يتفجر من ينابيع الحكمة من القلب على اللسان بحسب الصدق والإخلاص والإيقان.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

وليال عشر، وهي من آخر شهر رمضان وإن احتمل غير ذلك. وإنما يرجح ما قلنا ما روي من اجتهاد[4] الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك العشر، ولهذا لم يجعلها أياما بل ليالي. ويحتمل أنه أشار إلى ليال مّا تنبيها على العدة، فإن للعِدّة المخصوصة خاصِيّةً لا يتم الأمر المطلوب بدونها. ولهذا قال: وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ.[5] فأقول: إن هذا العشر أولى بهذا القسم ههنا وإن جاز غير ذلك.

وأما خواص الأعداد فأمرٌ آخر لا مدخلَ له في المعدودات. والمراد ههنا المعدود لا العدد وإن كان في العدد فنون ونِسبٌ واتفاقات، كما رأينا في وفق الثلاثة من أن جملة عدده خمسة وأربعون، وعدد ضِلْعه خمسة عشر. ثم رأينا حساب حروفِ آدم كجملته،

---

١ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (سورة الإسراء، ٧٨/١٧).

٢ ك - أحوال، صح هـ.

٣ ش: بما.

٤ ش: من اجتهاده.

٥ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (سورة الأعراف، ١٤٢/٧).

وحِساب حروف حواء كضِلْعته في العدد، وكان[1] أولَ ما وَفق مناسبا في العدة لأول[2] ما[3] خلق، ولا تعلُّقَ لهذا الفن وأمثاله بهذه الآية.

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾

والشفع والوتر، كل ما جاء عن الله غير معيَّن يجب أن نفهمه[4] مطلقا فلا نقول: إن المراد ههنا الشفع والوتر في الصلاة، ولا آدم وحواء، ولا نفسُ العدد، بل كل معدود
[٥٠٠و] من الخلق والخالق فهو قَسَمٌ بنفسه وبسائر مخلوقاته، / لقوله: سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ،[5] وكقوله: وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ.[6] ويدخل في ذلك ما يسمَّى وترا، ويدخل في ذلك العددُ أيضا. فليس في السماوات والأرض، والبواطن والظواهر، والدنيا والآخرة إلا شفع ووتر. فأقسم بالكل، ولهذا لم يُعيِّن شيئا مخصوصا، فيجب أن تفهم[7] ذلك كما جاء عن الله. فافقه هذا واعتمد مثله في مثل هذه الآية.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾

والليل إذا يسر، بمعنى يسري. وقد قيل: إنه أراد يَذْهَب، لقوله: وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ.[8] قيل: بل المعنى أقبل، لقوله: وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ.[9] والظاهر أنه لمّا أقسم في الموضعين[10] المذكورين بالإدبار والإقبال أقسم ههنا بما بينهما، ولهذا لم يذكر غير ذلك. ويقال: سرى الليلُ إذا مضى. ويقال: سار فيه السائر، والليل سارٍ. فقوله: يسر، يشتمل على كل آن منه؛[11] فإنه ما دام موجودا فهو يسري، فإذا فرغ فقد سرى. وقيل: سأل المُؤرِّج[12] الأخفش عن سقوط الياء، فقال حتى تخدمني سنةً، فسأل بعدها فقال: أما الآن فالليل لا يسري،

---

١ ن: في العدة فكان.

٢ ن: الأول.

٣ ش: من. وفي هامش ك: من.

٤ ن: أن تفهمه.

٥ سورة يس، ٣٦/٣٦.

٦ ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٤٩).

٧ ش: أن نفهم.

٨ سورة المدثر، ٧٤/٣٣.

٩ سورة الليل، ٩٢/١.

١٠ أي في سورة المدثر.

١١ ن: كل أزمنة.

١٢ هو أبو فَيْد مؤرج بن عمرو السدوسي، عالم بالعربية والأنساب. من أعيان أصحاب الخليل بن أحمد. من أهل البصرة. أخذ العربية عن الخليل، والأنساب عن أبي زيد الأنصاري. وكان مؤرج ضليعا في اللغة، مطلعا على غريبها اطلاعا غزيرا. من مؤلفاته: الأنواء، وغريب القرآن، وجماهير القبائل، والمعاني. توفي سنة ١٩٥هـ/٨١٥م (معجم الشعراء لكامل سلمان الجبوري، ٥/٤٦٤).

وإنما يُسرى فيه.[١] وقد عُدل به عن معناه فوجب أن يُعدل به عن لفظه.[٢]

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾

هل فى ذٰلك قسم لذى حجر، عقل، وهو في الأصل من حَجَر يَحْجُر. ومنه حَجْر الإنسان، لأنه يحجر على ما فيه. ويقال: عَقَل الناقةَ وحَجَر الفرس. والعقل يحجر عن مخالفة الصانع فتَتُمّ السعادة. ولهذا قيل:[٣] الوجود آلة للعاقل والجاهل آلة للوجود. وليس في جوهر العقل شر من جهة الإثبات بل من جهة النفي، فليس للشر أصل.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾

وقوله: ألم تر كيف فعل ربك بعاد، هذا معترض بين القَسَم وجوابه، وجوابه: إِنَّ رَبَّكَ.[٤] إِرَمَ، وعاد، اسم الأمة، وإرم، اسم مدينتهم، كما تقول: أقباط مصر ويهود خيبر. ذاتِ العماد، صاحبة الأعمدة. وذلك يدل على تمام القدرة وعظمِ البناء، لأن العُمُد التي تُرى في الأبنية القديمة والثغور[٥] والبِيَع[٦] هي التي لعِظَمها[٧] تَبقى عبرةً للرائين. ثم زاد الوصفَ وعرّفَنا أنها بلد بقوله: التى لم يخلق مثلها فى البلٰد. وقيل: إرم، اسم الملِك، وعاد، أمته وهي ذات عماد وماشية، أي أهل عمود فكانوا لكثرتهم لا يحصرهم بلدٌ بل البَيْداء[٨] الواسعة. ولم يُخلَق في البلاد مثلُ هذه الأمة لكثرتها[٩] ولطول أبدانها. ولهذا طُوّلت العُمُد. والأول أولى. وقيل: إرم، مشتق من أرِمَ بنو فلان، أي هلكوا.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩﴾

وثمود الذين جابوا، قطعوا، من جاب يجوب، الصخر بالواد، فجعلوه بيوتا وأصناما.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠﴾

وفرعون ذى الأوتاد، الجبال لقوله: وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا.[١٠]

١ معالم التنزيل للبغوي، ٤١٧/٨؛ ونظم الدرر لبرهان الدين البقاعي، ٢٣/٢٢.

٢ ش: عن لفظ.

٣ ش: قبل.

٤ الآية ١٤ من هذه السورة.

٥ الثُّغر والثغرة: كل فرجة في جبل، أو بطن واد، أو طريق مسلوك. الثغر ما يلي دار الحرب، والثغر موضع المخافة من فروج البلدان (لسان العرب، «ثغر»).

٦ البِيعَة: متعبَّد النصارى، وقيل: كنيسة اليهود، والجمع بِيَع (تاج العروس للزبيدي، «بيع»).

٧ ن: يعظمها.

٨ البيداء: الفلاة (تاج العروس للزبيدي، «بيد»).

٩ ن – لكثرتها.

١٠ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ (سورة النبأ، ٦/٧٨-٧).

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾

ثم قال عن الجميع: **الذين طغوا فى البلٰد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب.** لما كان السوط هو الذي يعاقَب به في الدنيا ذكره واستعاره للعذاب. وسمِّي سوطا مشتقا من ساط يسوط إذا خلط المطبوخ من الحلوى على النار، فكأن[1] السوط يخلط اللحم مع الجلد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾

ثم قال بعد فراغ المعترض جوابَ القسم المذكور أولا: **إن ربك لبالمرصاد**، من رَصَد يَرْصُد إذا راقب الأمرَ متحريا وقوعه. فهو مفعال مثل مسمار، أي لا يفوته شيءٌ بل يجزي كلًّا بحسب عمله.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾

ولمّا ذكر أنه بالمرصاد في رؤية أعمال العباد قال بعده: **فأما الإنسٰن إذا ما ابتلٰه ربه فأكرمه**، بالدنيا، **ونعمه**، لينظر هل يشكر أم يكفر، **فيقول ربى أكرمن.** وكان الواجب أن يقول: هَٰذَا / مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِي.[2] [٥٠٠ظ]

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾

وأما إذا ما ابتلٰه فقدر عليه رزقه، بمعنى ضيّقه، **فيقول ربى أهٰنن.** والمعنى[3] أن الإنسان يظن أن الله إنما يكرم بالدنيا ويُهين بالفقر، وليس كذلك، ولكن الغنى والفقر ابتلاء.

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾

كلا، هو رد على من قال: ربي أكرمني، لأنه قد يُضله بالمال، وكذلك على من قال: ربي أهانني، لأنه ربما صانه بالفقر. ولهذا بعده: **بل لا تكرمون اليتيم**، وتمامه، أي فلهذا منعناكم رحمة لكم ورزقنا أولئك فتنة لهم. وإذا كان اليتيم لا يكرَم والمسكين لا يطعَم فكيف غيرهم.

---

١ ن: فكان.

٢ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤٠).

٣ ن: ومعنى.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾

وقوله: **ولا تحضّون**، تَحثّون أنفسكم وغيركم من باب الأمر بالمعروف، **علىٰ طعام المسكين**، فتُخرجونه من أموالكم كالزكاة، فإنها طعام المساكين فرضه الله على الأغنياء.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

وتأكلون التراث، الميراث، **أكلا لمّا**، لمّ الشيءَ إذا جمعه كله. والمعنى تأكلونه ليس بالأفواه بل أكلا هو لمٌّ وجمعٌ كما تقول: فلان أكل مال اليتيم، بمعنى أخذه من غير الوجه الحلال. واللمّ عبارة عن جمع الشيء بسرعة كيف كان، أي حراما أو حلالا،[1] وما له وما لغيره. **وتحبون المال حبا جما**، كثيرا.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

كلا، أصل "كلا" لا دخل عليها لامُ التأكيد، لأنها دخلت على الأسماء والأفعال والحروف. فلمّا أريد إدخالها على لفظة "لا" لتكون مؤكدة أُبدلت بالكاف وشُددت اللام، فهي لا ولكنها بلام تأكيد. والمعنى أنه ليس كما ظن من أكرمناه[2] بالمال ولا كما ظن من زعم أنا أهنّاه بالفقر. بل إذا قامت القيامة تحقق من أكرمناه ممن أهنّاه، لأن الإكرام والإهانة منا لا يكونان إلا بالباقي. وأما الفاني فهو كله فتنة. ودل على ما ذكرناه بقوله عن أحد الفريقين: **يٰليتنى قدمت لحياتى**، وعن الآخر بقوله: يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ.[3] فقال ما معناه: ليس الإكرام والإهانة في دار الفتنة، ولكن، **إذا دكت الأرض دكا دكا**، بالزلزلة، أي دكا بعد دكٍّ حتى لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا.[4]

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾

وجاء ربك، أي أمره بالجزاء، **والملك**، اسم الجنس، ولهذا بعده: **صفا صفا**.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

---

[1] ش ك: وحلالا.

[2] ن: من أكرمنا.

[3] الآية ٢٧ من هذه السورة.

[4] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ (سورة طه، ٢٠/١٠٥-١٠٧).

وجِاىءَ يومئذ بجهنم، وقفْ، يومئذ يتذكر الإنسٰن، وأنىٰ، وكيف، له الذكرىٰ، أي كيف له بها، كما تقول: من لي بالنجاة، وكيف لي بها. وهو معنى قوله: فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ،[1] الآية.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

يقول يٰليتنى قدمت، في حياتي الفانية،[2] لحياتى، الباقية. وهذا رد على المجبِرة تامٌّ.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

ولا يوثق وثاقه أحد، أي يوثق في العذاب لئلا يخرج منه بل هو أسير عملِه.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

يٰأيتها النفس المطمئنة، بصدق الوعد، لأنها آمنت بالله، ثم شاهدت ما اطمأنَّت به في ذلك اليوم، كقول إبراهيم عليه السلام: وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى.[3] فهي في يوم الفزع الأكبر مطمئنة بأن لها الجنةَ. وخاطب النفس ليعُمّ الذكَرَ والأنثى، حُرّا وعبدا، صغيرا وكبيرا، ارجعى إلىٰ ربك راضية، عنه، مرضية، عنده، رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ.[4] فادخلى فى عبٰدى، أي في زمرتهم، من قوله: وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا.[5] ولهذا بعده: وادخلى جنتى، نسبها إليه لأنها جنة الفضل بعد الجزاء بالعدل. وذلك معنى قوله: وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.[6]

[النفس المطمئنة]

ويجب أن تَعلم أن النفس في المثال مرآةُ ما يُرَى فيها كان ما كان. وكما أن المرآة لها أثر في المرئي بها من جهة شكلها فتُقلّبه إلى الطول أو العَرْض، كمن ينظر

١ ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٨٤).

٢ ش – في حياتي الفانية، صح هـ.

٣ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٠).

٤ سورة المجادلة، ٥٨/٢٢.

٥ سورة الزمر، ٣٩/٧٣.

٦ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة قٓ، ٥٠/٣٥).

في السيف وقد تَقَلُّبه[١] إلى الصغر وإلى الكبر[٢] وغير ذلك وهي واحدة. ولو قابلها كلَّ صورة لوسعت كل صورة[٣] ولم تضق بصورة، وليس فيها صورة ولها أثر / في [٥٠١و] كل صورة تقابلها. وليس لها أثر في صورة من جهةِ ذات الصورة بل أثرها فيما قَبِلَتْه من الصور. فالأثر في صُوَر الصُّوَر فأثرها[٤] فيها. فإن كانت المرآة صحيحة فهي تري الأشياء كما هي ولا يكون لها أثر في الصورة البتةَ. وإذ قد اتضح المثال، فكذلك النفس المؤتمرة بالأمر الإلٰهي عادت مرآة صحيحة، وبقدر ميلها عن الأمر الإلٰهي هي مائلة عن الصحة. فالمؤتمرة هي النفس المطمئنة. فلمّا ائتمرت قلنا: إنها قائمة بالله. ولمّا أَمَرَتْ قلنا: هي الأمّارة وهي القائمة بها لا بربها. وهذا زبدة التصوف وسر الشريعة. فإذا كانت قائمة بربها فبه ترى الأشياء على ما هي عليه. فإذا قابلت اسما من أسماء الله رأته رؤية صحيحة فيها فتكون بتلك الرؤية مرآةَ ذلك الاسم. ولهذا تراه غير محدود ولا مضدود. فإن قابلت العزة مثلا سميت مرآةَ العزة؛ وكذلك تكون مرآة القدرة ومرآةَ الرحمة وغير ذلك، فهي مرآةُ ما قابلته. ولها ما قبلته مما قابلته فهي ترى فيها أسماءها. فإذا كانت مرآةَ الأسماء الحسنى فلها الأسماء الحسنى، لا لأن لها أثرا في الأسماء ولا للأسماء فيها أثر، بل كما تقدم في المثال. وهذه النفس هي الواسعة وإليها أشار أبو يزيد[٥] بقوله: "لو كانت الدنيا والآخرة في جنب قلب المؤمن لما أحس بها"، وإن جاز أن يعتبر قولُه بصُوَر أُخَر.[٦] فهذه النفس إن رأت الأشياء كلها أسماء لله تعالى بمعنى أن الأشياء هي تشهدها، كقوله تعالى: فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ،[٧] ارتفعت الأشياء من نظرها وبقيت الأسماء. فإن رأت الأسماء كلها مع اختلافها راجعة إلى مسمًّى واحدٍ وإن أسماءه هي من جهة مبدَعاته لا من جهة ذاته ارتفعت الأسماء وبقي الواحد. وهذه هي التي قال المتصوفة عنها: إنها ترى الله بالله، وهي المطمئنة التي رأت كيف يحيي الله الموتى. فقد تلخص لك من هذه الجملة أن النفس ذات وجوه؛ كلُّها تنقسم إلى قسمين. ومتى توجهت النفس إلى وِجهة سميت باسم تلك الوجهة فيقال:

---

١ ك ن: وقد نقلبه.

٢ ن: والكبر.

٣ ش ك - لوسعت كل صورة، صح هـ.

٤ ن: فآثرها.

٥ لعله طيفور بن عيسى البِسطامي، أبو يزيد، ويقال بايزيد، زاهد مشهور. له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م فيها (الأعلام للزركلي، ٣/٢٣٥).

٦ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

٧ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٥).

النفس الأمارة[1] واللوامة[2] وغير ذلك. وكونها أعني وجوه النفس تنقسم إلى قسمين فقد نُظم ذلك، وهو قول القائل.

للنفس وجهان لا تَنفكُّ قابلةً — مما تقابل من عالٍ ومُستَفِلِ،
وجهٌ إلى الحق فيه الحقُّ ثم لها — وجه إلى الخلق لا ينفكُّ من زَلَلِ،
كنَحْلة[3] طَرَفاها في مقابلة — فيها من اللَّسْع ما فيها من العَسَل،
والعقل يشهدها الأُولى فكن أبدا — مقابلا قابلا في القول والعمل.[4]

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (سورة يوسف، ٥٣/١٢).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة، ٢/٧٥).

[3] ش: كنخلة.

[4] انظر نحوه في أعيان العصر للصفدي، ٤٧٩/٤.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

لا، مثلَ قوله: فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ،[1] ومثلُه: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ.[2] معناها ردٌّ لشيء سبق لم يُذْكَر[3] وما بعده مؤتَنَف.[4] وهذه كانت سُنّة القوم في كلامهم وفي نظمهم. قال الشاعر:

فـلا وأبـيـكَ لا أخـشَـى انـتـقـاصـا ولا وأبـيـك لا أرجـو ازديـــادا.[5]

ومثله:

أَجَـلْ أيـهـا الـربـع الـذي خـفَّ آهـلهُ لقد أدركـتْ فيكَ النوى ما تحاولهُ.[6]

/فافهم هذه الأمثال التي معناها يعطي ردا، ثم يأتي بضده كما قدم ههنا ردا [٥٠١ظ] عليهم. ثم قال بعده: أُقسم بهٰذا البلد، مكةَ. وأنت حل بهٰذا البلد، "حل" من الإحرام لكنه إنما حَلّ عقد الإحرام بهذا البلد. فيكون الكلام قد احتوى على معنى الحل الذي هو ضد عقد الإحرام، وعلى معنى الحلول الذي هو الحضور. ولزم أن يكرر قوله: بهٰذا البلد، لا للوِزان فقط بل لمعنى آخر أتمَّ منه، لأنه تعالى لم يتكلم بلفظ أو حرفٍ زائدٍ إلا لزيادة معنًى لائقٍ. والمعنى أنه سبحانه أراد أن يُقسِم بهذا البلد وإن لم يكن به النبي عليه السلام، ثم يقسم به مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم فيه. ولو قال: وأنت حل به للزم أن لا يكون القسم إلا والنبي صلى الله عليه وسلم به، وإن لم يكن به فلا قَسَمَ. وأما ما[7] قاله سبحانه فهو يدل على شرف البلد نفسِه وإنه عظيم عند الله وإن لم يكن فيه النبي عليه السلام. ويدل على أن النبي عليه صلى الله عليه وسلم

---

[1] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ (سورة المعارج، ٤٠/٧٠).

[2] ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ (سورة النساء، ٦٥/٤).

[3] ن: لم يذكره.

[4] ائتنف الشيء: أخذ أوله وابتداُه (تاج العروس للزبيدي، «أنف»).

[5] البيت لمحمد بن هانئ. انظر: الحماسة المغربية لابن عبد السلام الجراوي، ٧٦٩/١.

[6] البيت لأبي تمام الطائي، انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٧٥/٦.

[7] ن – ما.

أشرف من البلد الشريف الذي هو بيت الله. ولو لم يقل كذلك لكان قد نسب الشرف إلى الرسول دون البلد. وكونُه نسبه أولا إلى البلد، ثم نسبه ثانيا إلى الرسول حالَ كونه في هذا البلد يدل على تعظيم لقدر الرسول زائدٍ على ما كنا نفهمه لو قال: أُقسم بهذا البلد وبك، إذ لو كان الكلام كذلك لدل على شريفين. وهذا يدل على شريف وأشرف، فافهم ذلك فهو من دقيق المعاني في محكم المباني. ويقال: حِل وحلال إذا حل من إحرامه. وقوله: حِلّ، بالكسر ولم يقل: حَالٌّ، لأن الحالّ هو الحاضر وإن لم يكن حِلا. وهذا إنما أراد به أن يعرّفَنا أن أفضل ما كان الإنسان في عمره عليه[1] هو زمان قد أحرم وحج وفرغ من مناسكه وحل العقدَ. فهو أولى أن يكون[2] ذنبه مغفورا وسعيه مشكورا وحجه مبرورا، لأنه قد غُفرت ذنوبه بما أتى به من فضيلة الحج، وأنه لم يكن حَلّ بالبلد لأجل تجارة ومعاش أو لهو. وإنما حل به حاجّا، فكيف إذا كان هذا الحال حِلّا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد فهمتَ أنه لا جائز أنه كان الكلام على غير هذه الصورة إلا وهذه أتم وأحسن. فتفكَّر وتفهَّم[3] تعلمْ أنه لا غاية تُفهم من هذا الكلام لو بُدِّل، أو غيّر، أو قدِّم، أو أخر، أو غير ذلك كما يُفهَم منه وهو على حالته هذه؛ وأن ذلك المعنى البارد المكرَّر الذي فهمتَه قبل الشرح إنما كان في ذهنك لا في كلام رب العالمين. فهذا الذي قد بينته لك هو[4] من نتيجة حسن الظن بالله وبكلامه. فقِف عند أمثاله وتفقه بما آتاك الله في مقاله تعرفْ المراد منه على حاله إن شاء الله تعالى.

وقوله: ووُلد وما ولد، ليس المراد به آدم وبنيه فقط بل ومع ذلك كل والد من كل ذي حياة وكلِّ مولود وإن لم يكن والدا، فنفس[5] اللفظ يقتضي هذا العمومَ فلا تُخَصّصه. فقد أقسم تعالى بمخلوقاته الحية كلها ليَعُمَّ بذلك الكلَّ ثم يخصص الإنسانَ من هذا العموم بالتكليف. ولهذا بعده: لقد خلقنا الإنسٰن فى كبد، من المكابدة، وهي مقاساة الأمر الشديد على النفس. ويقال: تكبّد اللبنُ إذا غلَظ واشتد. ومنه الكَبِد، لأنها دمٌ اشتدّ. والإشارة ههنا إلى مكابدته لهواه في طاعة مولاه، لأن كلَّ مخلوق خلقه الله لم يخبر الله[6] عنه بما أخبر به عن الإنسان، وهو قوله: نَبْتَلِيهِ.[7] ومن كان كذلك من حينِ كان نطفةً إلى يومِ يموت فلا شك أنه في كبد وأيِّ كبد.

---

١ ش – عليه؛ ك – عليه، صح هـ.

٢ ش + عليه.

٣ ش ك: فتفهم وتفكر.

٤ ن – هو.

٥ ك – فنفس، صح هـ.

٦ ك – لم يخبر الله، صح هـ؛ ن – لم يخبر الله.

٧ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٢).

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

ثم قال: / أيحسب أن لن يقدر عليه أحد، والمعنى أنه يكابد من المشقات [٥٠٢و]
والمتاعب البدنية والنفسانية ما يكابده دائما، وهو مستكبر بعد ذلك لا يرى أنه ينقهر ولا ينفعل لبارئه. فأيَّ شيء يَحسب هذا في نفسه، أيحسب أن الذي خلقه من أول[1] مرة في كبد لا يقدر على مجازاته؟ وإذا كان مقهورا من أول الخِلقة إلى آخر المدة كيف لا يعلم بهذه الحالة أن عليه قادرا يقدر على مجازاته بما يفعله. يقول أهلكت مالا لبدا، هو ما يتراكب بعضه على بعض. ومنه اللُّبادة.[2] تقول: لَبَد القطن أو الصوف إذا كَبس بعضه على بعض. والمعنى أنه يقول: قد أنفقتُ أموالا كثيرة في الشهوات والمعاصي ولم يحاسبني عليها أحدٌ. وهذا المقال هو بالحال، وذلك أنه لا يُقِرّ[3] بالحِساب في الآخرة ويرى أنه لـم يحاسَب في الدنيا. أيحسب أن لم يره أحد، يُحصي عليه أعمالَه ويجازيه بها. وكيف لا يرى مَن جعل الإنسانَ يرى.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾

ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين، فكيف يظن أنه لا يحاسَب وهو قادر على أن يحاسِب غيرَه. وهديناه النجدين، لتزول حجته ويتحققَ تمكينُه مما كلفناه. والنجد العالي من الأرض سمّي نجدا لعلوه عن انخفاض تِهامةٍ. وإنما قال: النجدين، عبارةٌ عن الغايتين، أي أعلى صورة من الخير وأعلى صورة من الشر. وبيانه في قوله: إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا،[4] إشارة إلى أنه فاعل مختارٌ. وما كان فاعلا مختارا كيف يَخلقه غيرُ فاعل مختار. والنِّجاد[5] ما علا على العاتق من حميلة سيف أو مثلها.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾

فلا اقتحم، بمعنى الدعاء عليه،[6] أي لا فَعَل ذلك قط، لأننا إنما جعلنا له العينين واللسانَ والشفتين وهديناه ليقتحم -فلم يقتحم- فينجو من النار ويفوزَ بالجنة،

---

١ ن: خلقه في أول.
٢ جميع النسخ: اللباد. | اللبادة: ما يلبس من اللبود للوقاية من المطر والبرد (المعجم الوسيط، «لبد»).
٣ ن: لا يفر.
٤ سورة الإنسان، ٣/٧٦.
٥ النجاد: ما وقع على العاتق من حمائِل السيف (لسان العرب، «نجد»).
٦ ن - عليه.

فلا اقتحم أبدا. والاقتحام الدخول على الشيء الشديد. تقول: اقتحم الأمرَ اقتحاما، وأقحم إقحاما، وتقحم تقحّما، وقحّم تقحيما. وقوله: العقبة، أي الطريقة في الصعود مترقيا بها إلى رضوان الله، وهي استعارة. فإن العقبة تُوهِن عَقِب المرتقي بها، لأن أعمال البر والخير تَشقّ على النفس، كما يشق على الجسم الارتقاءُ في العقبة. ثم قال مبينا: وما أدرٰك ما العقبة، قال سفيان بن عيينة:[١] كل ما فيه "وما أدراك" فقد أخبره به، وكل ما فيه "وما يدريك" فلم يخبره به.[٢] فَكُّ رقبة. كان الأسير في العرب تُشدُّ يداه إلى رقبته، فإذا حُلّ عنه قيل: فُكَّ رقبته. أو إطعام فى يوم ذى مسغبة، هذا وصف لليوم بوصف الناس فيه. تقول: يوم جوع، ويوم تعب، وهي فرط الجوع؛ من سغِب بالكسر يَسْغَب سَغَبا. يتيما ذا مقربة، قرابة، وذكره تنبيها على الأُولى أولا؛ أو مسكينا ذا متربة، المكان الذي يُؤخذ منه التراب، يستوطنه المسكين لنومه ويستظل به فقد صار ذا متربة، أي صاحبها. والمراد أنه ليس له ما يجلس عليه سوى التراب، كما نجد الضعفاء من السائلين جالسين على قارعة الطريق.[٣]

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾

ثم كان، المطعِم، من الذين ءامنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، يعني[٤] أن الإنسان لا يكفيه أن يَرحم نفسه وغيرَه بل يوصي بذلك أيضا لمن أمكنه خصوصا لأهله وقومه. أولٰئك أصحٰب الميمنة، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ،[٥] وهم الذين يأخذون كتابهم بأيمانهم.[٦]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

عليهم نار مؤصدة، مطبَقة، لأن الباب ينطبق وهو الوصيد. ويحتمل موقَدة.

---

١ أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي. من الموالي. ولد بالكوفة، وسكن مكة، وتوفي بها سنة ١٩٨هـ/٨١٤م (الأعلام للزركلي، ٣/١٠٥).

٢ زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٩/١٣٤.

٣ قارعة الطريق هي وسطه، وقيل: أعلاه (لسان العرب، «قرع»).

٤ ش ك: يعطي.

٥ سورة التحريم، ٦٦/٨.

٦ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ (سورة الانشقاق، ٨٤/٧-٩).

/سورة الشمس [٥٠٢ظ]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

والشمس وضحٰها، قسَمٌ، أتبعه بمثله وهو قوله: والقمر، وما بعده مبيّنٌ لِما بعد ذكرِ الشمس، وجعل الخبر عن الجميع قَدۡ أَفۡلَحَ.[١] وقوله: وضحٰها، الواو فيها ليست للقسم كما في [قوله:] والشمس، بل للحال، أي وهي في حال ضحاها. ولهذا قال في القسم الثاني: والقمر، ثم قال: إذا، ليبين أن الشمس كذلك، أعني أنه أشار إلى زمن بالواو كما أشار بإذا. وضحوةُ النهار بعد طلوع الشمس وبعده الضحى. فإن نَوَّنْتَ[٢] ضحًى أردت غير ضحى يومِك، وإن قَصَرْتَه فهو ضحى يومك. وأصله من الضواحي، وضاحية كل شيء ناحيته البارزة. وضحا الطريق يضحو ضَحْوا إذا بدا[٣] وظهر. ويوم الأُضحى بالضم.

والقمرِ إذا تلٰها، طالعا من الشرق، وهي آفلة من الغرب. ولا يكون ذلك إلا حين الإبدار في نصف الشهر. وقد قيل: إذا تلٰها، عند الغروب في أول الشهر، لأنه يظهر تِلْوَها، وليس كذلك لأنه قال عن الشمس: وضحٰها، فالقمر لا يتلوها في ذلك الحين. وضحى الشمس يدل على الظهور وقوةِ النور، فمثله في القمر. وأيضا لو قال: والشمسِ والقمرِ إذا تلاها لاحتمل ما قيل. فلمّا قال: وضحٰها، وليس ذلك حينا يتلوها فيه كان ما قلناه أولى. وأيضا إن القمر يُسمَّى في أول الشهر هلالا وهو من الهَلّ، أعني الظهور. وأيضا إن القسم بما هو أظهر للأعين وأحسن أولى وأحسن. والدليل الواضح على صحة ما قلناه أنه لو أراد أول الشهر لقدَّم ذكرَ الليل ههنا على ذكر النهار، لأن الهلال إذا تلا الشمس في أول الشهر عند مغيبها غَشِيَها الليلُ بعد ذلك. فافقه هذا الترتيب العجيب في اللفظ الدال بموضعه على حُسْن المقاصد به في دلالته على ما أراد به قائله[٤] سبحانه.

---

[١] الآية ٩ من هذه السورة.
[٢] ن: وإذا نويت.
[٣] ك: إذا بدأ.
[٤] ك: قابله.

فلهذا لم يقل: بعد ذكر القمر. والليلِ بل، والنهار إذا جلىٰها، من التجلي، ومنه جِلاء العروس. وأصله من الجَلِيّ وهو ضد الخفي. فأقسم بالنهار كله. ثم قال مثل ذلك: والليلِ إذا يغشىٰها، وهذا وإن دل على أول الليل لقوله: إذا، لكنها في حالة مستمرة. فمعناه إذا كان مغشيا لها ليكون ذلك ضدَّ قوله: جلىٰها. والسماءِ وما بنىٰها، عبّر بالأعم، فلم يقل: ومَنْ. والمعنى والذي بناها سبحانه، كقوله: وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ.[1] والأرضِ وما طحىٰها، بسطها وهو مثل دحاها.[2]

وكأنه أراد بلفظة "ما" في جميع هذه المواضع إلزامَ الكفار بالاعتراف بالصانع، لأن كل مصنوع لا بد له من صانع. فلمّا ذكر المصنوع لم يعيّن الصانع بلفظة "مَن" بل بلفظة "ما"[3] بمعنى "والسماء وبالباني لها كان ما كان" تعريفا لهم وإلزاما بصانع لها، لأنهم يعلمون أن آلهتهم لم تَصنع ذلك. فأقسم بما هو في أذهانهم لازم، إذ لا بد من صانع لكل مصنوع لِيُلزمهم بالمصنوع الاعترافَ[4] به لا المعرفة له. فأما موضع المعرفة فكقوله: هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ،[5] وما بعد ذلك من أوصافه دون مصنوعاته.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۞١٠﴾

ونفس، ذكرها منكَّرة للعموم ذَكَرا وأنثى، مؤمنا وكافرا؛ وما سوىٰها، دليل على أن قوله: فَسَوَّىٰكَ، يريد به النفس، وقوله قبل ذلك: خَلَقَكَ، يريد به الجسم، وقوله أخيرا: فَعَدَلَكَ،[6] يريد به العقلَ وإن جاز أن يُوقَع كل صفة على كل موصوف، لأن كل واحد من الجسم والنفس والعقل مخلوق مسوًّى معدَّلٌ. وقوله: فألهمها فجورها وتقوىٰها. / الإلهام غير الإلزام كما ظن الجُهّال والعوام. فلو ألزمها تقواها لَما نهاها، [٥٠٣و] ولو ألزمها فجورَها لما أمرها. والفجور يشتمل على سائر المعاصي، والتقوى على سائر الطاعات. وتقدير الكلام: ونفسٍ ملهمة فجورُها وتقواها. فلو كان الإلهام إجبارا لم يُعِد الأمرَ إلى صاحب النفس ولم يمدحه أو يذمه بقوله: قد أفلح من زكىٰها.

١ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٧٣).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ (سورة النازعات، ٧٩/٣٠-٣١).

٣ ش + في جميع هذه.

٤ ن: الاعتبار.

٥ سورة الحشر، ٥٩/٢٢، ٢٣.

٦ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/٧).

وقد خاب من دسّٰها، أخفاها، وأصله دَسَّها، كقوله: أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ.[١] ولمّا كانت التزكية مأخوذة من معنى النموّ والظهور والزيادة فالتدسية ضدُّها فقد عاد الإنسان هو المزكي. فإن دَسَّى نفسه فقد جعلها المَوْءُودة في جسمه. فقد علمتَ أنك أنت المزكي كما قد أخبرك الله، إذ ليس المراد قد أفلح من زكاه الله.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾

ولهذا[٢] ضرب الله المثل بعده بقوله: **كذبت ثمود بطغوٰها**، أي لم يكونوا مجبَرين على ذلك. والمعنى أن نفس طغيانها هو تكذيب منها للرسل ولو لم يَبدُ ذلك منهم قولا. ثم شرح ذلك الفعل الذي هو بوجهٍ طغيانٌ وبوجه تكذيب فقال: **إذ انبعث أشقٰها**، انبعث في الأمر إذا بادر ذاهبا إليه ولم يبعثه غيره عليه. والأشقى ههنا هم جماعة. **فقال لهم**، لثمود والجماعةِ منهم،[٣] **رسول الله**: احذروا أن تَمَسُّوا، **ناقةَ الله**، بسوءٍ يَمسّكم السوءُ. وقوله: **وسقيٰها**، أي لا تتعرضوا إلى شرْبها. **فكذبوه**، فيما تواعدهم به ودعاهم إليه، **فعقروها فدمدم**، بمعنى فدمّر، **عليهم ربهم بذنبهم**، وهذا آخر الكلام. وقوله: **فسوٰها ولا يخاف عقبٰها**، هو منسوق بما قبله، وأُخِر للوِزان والبيان. وذلك أنه لمّا قال: **إذ انبعث أشقٰها**، لم يقل ماذا فعل. فلمّا بيّن قول الرسول لهم وتكذيبَهم له ذكر الفعل فصار الكلام مفهوما إذا نَسقتَ الأخير على الأول فيعود **إذ انبعث أشقٰها** [هو] **فسوٰها ولا يخاف**، أي سوّى مخالفةَ أمر الرسول بقتله الناقةَ وهو غير خائف عقبى المخالفة بل فَعل فِعل الأمن، لأن الذي سوّى قَتْلَةَ الناقة كان الأشقى من القوم وهم جماعة، أعني تِسْعَةَ رَهْطٍ.[٤] فتأمل ذلك متأنيا لتفهمه جيدا.

[تزكية النفس]

واعلم أن المقصود من قوله تعالى: قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا،[٥] هو[٦] تطهير النفس عما هو غريب عن طبعها، وأن تَضْعُف علاقتها البدنية وتتنزه عن كل خُلق مذموم، فيشتدّ شوقها

---

١ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٥٨-٥٩).

٢ ش ك: ولقد. وفي هامش ك: ولهذا.

٣ ش ك + قال.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤٨).

٥ الآية ٩ من هذه السورة.

٦ ن: وهو.

إلى عالَمها، فتزكوا وتنموا كما ينمو الزرع ويرتفع. ويكون البدن لها بمنزلة المزرعة التي تَنبت فيها الأنوار وإلا فهي أَقْطاع[1] إبليس. وإذا دامت عينها مكحولة بالنظر إلى عالم القدس واستمرت مستمدة من لطائف الفيض الإلٰهي والنور الروحاني استحقرت عالم الكون والفساد، واشتاقت إلى معشوقها الذي هو معشوق جميع العالم وسائر الموجودات. وكلما صَفَت من كُدورة الطبيعة وصارت كالمرآة المَجلوَّة انتقش فيها هيئة الموجودات، ولم تحتجب بها عن الموجِد بل يعود الحجاب لها كاشفا. فقابلت جمالَ الحق الأولِ وأنارت بالنور الإلٰهي من جهته بعد أن كانت مستنيرة به[2] من جهتها، فصارت عالَما معقولا مضاهيا للعالم الموجود الموصوف بقوله: وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ،[3] وبالضد حالَ الأخرى. وكل نفس قرينها / فيها فهو أثر عملها بها من خير أو [٥٠٣ظ] شر. فإذا فارقت البدنَ استمرت على منوالها نامية صاعدة سَرْمدا. تمت سورة الشمس، فانْهَضْ واستشرِقْ.

[1] القِطْع من الشجرة ونحوها: الغصن. ج: أقطاع (المعجم الوسيط، «قطع»).

[2] ن – به.

[3] سورة العنكبوت، ٦٤/٢٩.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾

والليل إذا يغشىٰ، غشيني فلان إذا جاءني. وقال: **يغشىٰ**، بلفظ المستقبل. وقال: **والنهار إذا تجلىٰ**، بلفظ الماضي، فالفطِنُ يَفهم الفرق بين قول القائل: "إذا قام زيدٌ قُمْ، أي إذا استوى وتَمّ في قيامه"، وبين قوله: "إذا يقوم زيد قم، أي إذا شرع وهمّ بالقيام". وكثير من الناس لا يفرِّقون بين ذلك. فقدّم[1] ههنا ذكر أول الليل، وتلاه بذكر أكثر النهار لكونه ذكر السعي من الذكر والأنثى، إذ في جوف الليل يبطل السعي فهو بالنهار أولى. وكذلك أخّر الليل في وَالضُّحىٰ،[2] لأنه تلاه بذكر التوديع والانقطاع فهو أنسب. وليس مرادنا بهذا البيان النظرَ في هذا التدقيق إلا لتدقيق النظر فيما يلزم فيه التحقيقُ. **وما خلق الذكر والأنثىٰ**، أي من ماء واحد، وهو مطلق يشير به إلى كل ذكر وأنثى. **إن سعيكم لشتىٰ**، لَمتفرق، وهي جمع شَتيت ومنه شَتّانَ، أي بعُد ما بينهما.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾

فأما من أعطىٰ، ما أُمر به ونبِّه عليه من ماله وعمره، وعلمه وقوله، وفعله وغير ذلك. **واتقىٰ**، المخالفة أمرا ونيها. **وصدق بالحسنىٰ**، جزاء على أعماله الحسنى وفضلا وُعد به بعد الجزاء من ربه. **فسنيسره لليسرىٰ**، من اليسر ومن اليسار أيضا الذي هو الرزق. يقال: "أيسر فلان" إذا كثر ماله. وكلاهما من أصل واحد وإن استُعملا في موضعين واشتملا على معنيين. ولهذا بعده ما يحتمل المعنيين أيضا وهو قوله: **وأما من بخل واستغنىٰ**. وقدم ذكر البخل على الغنى، لأنه قد لا يكون غنيا ويكون بخيلا، فإن كان ذلك مع وجود الغنى كان أشد ذمّا. فإن كان كذلك، **وكذب بالحسنىٰ**، **فسنيسره للعسرىٰ**، عقابا له في الدنيا، وإلى مثله يصير في الأخرى. والمراد جزاء يكون له به اليسر في الدارين، أو العسر كمن يُفني عمرَه في كسب ما يفنى. وبهذا يَعرف المرءُ نفسَه في عِيشته ومعيشته، ومواطن كسبه وخطرات قلبه.

---

[1] ش ك: فقد تم.

[2] ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (سورة الضحى، ٩٣/١-٢).

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾

وما يغني عنه ماله إذا تردىٰ، من الرَّدى. ولمّا قدم هذه الكلمات التي تُحَقِّق عند العبد أنه لا يكون جزاءٌ إلا بعد ابتداء لزم أن يكون المبتدئ بأفعاله وهو العبد عالما بها فوجب في العدل الذي مبدؤه الفضل أن يُهدَى فقال: **إن علينا للهدىٰ**. وهذا ينفي قول المجبرة، إذ لو كان له أن يُضل من شاء إجبارا بغير ذنب يستحق به الإضلال لما كان عليه الهدى حقا ولو لم يكن حقا لما قال: فَأَنذَرْتُكُمْ[1] وتمامه، ولهذا جاءت بالفاء. والمعنى أن مع التكليف ليس علينا إلا البيان والتمكينُ، والذي يؤديكم إلى اليسر أو العسر هو أعمالكم. ولهذا قال: **وإن لنا للآخرةَ والأولىٰ**، أي مرجعكم في الدارين إلى مالكهما فهو الميسر والمعسِّر فيهما جزاءً لكم بما تكسبونه. فأين تفوتونه وتذهبون من ملكه.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

وإذ قد تحقق ذلك، **فأنذرتكم**، أي فقد أنذرتكم، **نارا تلظىٰ**، تشتعل. ولمّا قال فيما تقدم: إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا،[2] قال ههنا: **لا يصلىٰها إلا الأشقىٰ، الذى كذب وتولىٰ، وسيجنبها الأتقىٰ**. ولمّا قال من قبل: قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا[3] قال ههنا: **الذى يؤتى ماله**، ولم يعين بل قال: **يتزكىٰ**، فليس المرادُ الزكاةَ بل التزكية. والزكاة تدخل في ذلك إذا كانت لأجل التزكية لا للرياء. ولهذا بعده: / **وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ**، أي النظرَ إليه. وفي ذلك كلُّ خير يرجى، وصرفُ كل ما يُخشى، وفوقَ ما يُعلَم[4] في الدنيا والأخرى، لقوله: وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.[5] وهذا المزيد بعد قوله: **ولسوف يرضىٰ**. [٥٠٤و]

وهذه السورة من المحكمات، إليها يُرَدُّ ما هو من بابها من المتشابهات. فافهمها وأفهِمْها، واعلَم واعملْ.

١ من الآية التالية.
٢ سورة الشمس، ١٢/٩١.
٣ سورة الشمس، ٩/٩١.
٤ ش + بربك؛ ك + بربها.
٥ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة ق، ٣٥/٥٠).

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

والضحىٰ، قوله هنالك: وَضُحَىٰهَا،[1] جمع يشتمل على أوقات، أي من كل يوم. وههنا هو اسم يدل على شرف الوقت ليُذكَر اسمُ الله فيه، وهو على فُعَلٍ مثل صُرَدٍ ونُغَرٍ.[2] وضَحْوة النهار هي بعد طلوع الشمس، ثم بعد ذلك الضحى. والليل إذا سجىٰ، امتدّ ساكنا، ومنه سجيتُ الميت. وقيل: سجا يسجو سَجْوا بمعنى سكن، وساجي اللحاظِ، أي ممتدُّ العين تشبيها بأعين التُرْك. فذَكَر الليل من قبل:[3] إِذَا يَغۡشَىٰ، وههنا "إذا سجىٰ". وذكر "الضحىٰ" مع "سجىٰ"، كما ذكر يَغۡشَىٰ مع تَجَلَّىٰ،[4] فافهمه. وقوله: ما ودّعك ربك، المودِّع مفارقٌ للمودَّع. فعرّفه الله سبحانه أنه ما ودّعه فكيف يفارقه، لأن الوداع يتقدم على الفراق. فذكر الحالة التي تدل على الفراق ونفى وقوعَها نفيا لوقوع ما بعدها. ولمّا كان الوداع هو ترْكَ المودَّع في دعَةٍ وضدُّه التركَ عن بُغض بغير توديع قال بعده: وما قلىٰ، أبغض. ولم يقل وما قلاك، لأن المعنى وما قلى منك حالةً لجواز أن الإنسان لا يبغض الآخر وإن كان قد يبغض منه بعض[5] أوصافه.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾

ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ، وهذا الوعد في الدنيا. وأما في الأخرى فله خير من ذلك. ولهذا قدم القول به ودل على أن ذلك من جهة الدنيا بقوله: ألم يجدك يتيما فئاوىٰ ووجدك ضالا فهدىٰ، أي ضالّا عما هداك إليه، وهو قوله: مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ.[6] وكثير من الناس يغلطون، إذ يضعون النقيضين في موضع الضدين. فالضدان[7]

---

[1] ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ (سورة الشمس، ١/٩١).

[2] ن: ونفر. | النُّغَر: فرخ العصفور والبلبل، ويجمع نِغْرَانا (لسان العرب، «نغر»؛ والمعجم الوسيط، «نغر»).

[3] ن: من قبيل

[4] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (سورة الليل، ٩٢/١-٢).

[5] ن - منه بعض.

[6] سورة الشورى، ٤٢/٥٢.

[7] ن - فالضدان.

لا يمكن رفعُهما ولا بد من وجود أحدهما، والنقيضان يُمكن رفعُهما بقسم ثالث مثل هذا الموضع الذي لا يجوز فيه أنه عليه السلام كان يدري الإيمان ولم يكن كافرا، بل كان على فطرة الإسلام، ثم علمه الله، كقوله: وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ.[1] وكما لا يقال قبل أن يدري الإيمانَ: كان[2] كافرا، فكذلك لا يقال قبل أن يعلّمه: كان جاهلا بل لا جاهلا ولا عالما، بل قابلا للعلم. وقد قال تعالى: وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا،[3] فهم ضالون عن السبيل، ولكن غيرُ سالكين في ضده. وتحقيق ذلك هو أن ما ليس باختيار العبد لا يمدح عليه ولا يُذم، لأنه ليس من كسبه. فلا يقال: كافر[4] إلا للمكتسب المختار ولا مؤمن إلا كذلك. فقوله: وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ،[5] يريد به أنك لم تكن على إحدى[6] الحالتين، لأن الله سبحانه إذا سلب عنه أنه لم يكن يدري الإيمان، فمثله أنه لم يكن يدري الكفر. وقوله: ووجدك عائلا فأغنى.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾

ثم ذكر له ما يكون كالشكر منه بالفعل على ما تقدم به القول مما فعله الله معه. وفيه التعليم أيضا لأمته فقال: فأما اليتيم فلا تقهر، وخصص لفظ القهر، لأنه يشتمل على عدة صُوَرٍ من الأقوال والأفعال المنهي عنها في حق اليتيم. وأما السائل فلا تنهر، أي من حيث هو سائل. وأما من نراه من شياطين الفقراء لا تجوز الصدقة عليهم بل ولا الإحسان إليهم، فهم خارجون عن / مراد الآية. ومما نُقل عن النبي صلى الله عليه [٥٠٤ظ]
وسلم: «إذا رددتَ السائلَ ثلاث مرات فلم يرجع فلا عليك أن تَزيده».[7] فأراد بذلك تأديب السائل لئلا يحصل منه الإلحاحُ الذي يوجب الحرمانَ له ولأمثاله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

وأما بنعمة ربك فحدث، بلّغ ما أُنزل إليك من نعمة الله عليك وعلى من اتصل بك أو مال إليك. فالنعمة ههنا هي الكتاب والحكمة التي أُوتِيَها. ولهذا أمره بحديث، ولم يقل: وأما بنعمة ربك فتصدَّقْ. فيجب أن تعلم أن الفصاحة اختيار اللفظ للمعنى لا بالعكس.

---

١ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ١١٣/٤).

٢ ك - كان، صح هـ.

٣ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل، ٧٨/١٦).

٤ ش: كافرا.

٥ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (سورة الشورى، ٥٢/٤٢).

٦ ش ك: على أحد.

٧ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

سورة الانشراح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾

ألم نشرح لك صدرك، هذا معلوم من قوله تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ.[1] فشرحه بنصر المؤمنين وكسرِ الكافرين. والشرح فتح الشيء بتبيين ما خَفي فيه. ومنه شرح الكلام الغامض. وفائدة قوله: لك، أنه قد ينشرح صدر الإنسان بخير يحصل لأخيه أو لمن يحبه. وأما ما قال الله لرسوله عليه السلام فهو مما يحصل للإنسان بنفسه. ومثال ذلك لو قلت لصاحبك: حصِّلْ لي دارا أسكنها، أو قلت: حصل دارا أسكنها، فالأول يتضمن أن الدار نفسَها، وإن كانت كل دار تُسكن، لكن هذه دار تصلح لي بما فيها من مآربَ تختص بي؛ والثاني يتضمن أن القصد السَّكَن. فافهم معنى قوله: لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك، الوزر هو الحِمل، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.[2] وعكس الشرح ههنا هو[3] الضيق.

واعلم أن الواجب أن يعتقد التابع عصمة المتبوع لئلا يجري بينهما ما جرى بين الخَضِر وموسى عليهما السلام.[4] وأما المتبوع في نفسه فهو غير معصوم. فصورة الاعتقاد بأنه معصوم مع العلم بأنه غير معصوم يصح بما نبيّنه. وهو أنا نعلم أن المكتسب أفضل من المعصوم إذا وصل بكسبه إلى حد المعصوم. والأولى بالإمام نبيا كان أو غيرَه أن يكون في هذه الرتبة. ونحن نتحقق أن الإنسان قد يخطئ حتى يبقى بينه وبين الإيمان برزخٌ بحيث لو أراد الإيمان لم يقدر عليه. وهذا هو الذي أَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ،[5] وبالضد مِن هذا مَن أحاطت به حسنته[6] فبلغ درجة المعصوم ولكن بكسبه. وهذا نهاية ما وصل إليه فهمُ مَن طلب الحق. وقد بيّنّا عند قوله تعالى: وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ،[7] ما فيه كفاية.

---

[1] سورة الحجر، ٩٧/١٥.

[2] انظر مثلا: سورة الأنعام، ١٦٤/٦؛ وسورة الإسراء، ١٥/١٧.

[3] ك ن – هو.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قصة موسى عليه السلام مع عبد من عباد الله آتاه رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما. انظر: سورة الكهف، ١٨/٦٥-٨٢.

[5] ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٨١/٢).

[6] ن: خطيئته.

[7] سورة الأنعام، ٨٨/٦.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

وقوله: **الذى أنقض**، أثقل، **ظهرك**، أراد بهذا الكلام التنبيهَ على عِظم قدره عليه السلام وأنه كان يرى السيئة الصغيرة منه كالحِمل العظيم. وفي هذا التعريف ما لا يخفى من التعليم. فلمّا أوحى إليه: لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ،[1] حصل الشرح المشار إليه ههنا بقوله: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ.[2] **ورفعنا لك ذكرك**، من جملة الرفع أن يُقرَن اسمُه باسم الله في كل أذان بأعلى مكان. وقوله: **فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا**، الفاء للتعليل، تقول: ألم أطلب منك فإني فقير. والتكرار للتأكيد يحقق ما قبله به ويقوّيه. ويجب أن تعلم أن العسر الذي يجده المؤمن كائنا ما كان لا بد أن يكون معه يسرٌ. وبيانه أن العسر إما أن يكون لذنب تقدم من العبد فيكون العسر تكفيرا؛ أو أن يكون العسر ابتداءً من الله تعالى بصورة الابتلاء فيستحق العبدُ به العوض فيكون توفيرا. فعلى كلا[3] الصورتين يكون اليسر مع العسر / بلا شك. ولمّا كان هذا اليسر [٥٠٥و] باقيا والعسرُ المقترن به فانيا وجب أبلغُ الشكر على العسر لاقترانه بهذا اليسر الذي يبقى، لأنه أبلغ من اليسر الذي يفنى. ولهذا بعده: **فإذا فرغت**، من تكليف ما فرضناه عليك من تبليغ الرسالة وواجب العبادة، **فانصب**، فاتعَب في النوافل شكرا. وهذا شكرٌ بالقول والفعل. وبينه بقوله: **وإلى ربك**، لا إلى ما منه فارغب، والرغبة إليه بامتثال أوامره. وتقديم [قوله:] **وإلى ربك**، يعطي ما معناه: إليه وحده دون غيره. ويحتمل أن يقال: [هو] زيادةٌ في معنى تكراره ذكرَ العسر واليسر؛ وهو أنه لمّا دلت السورة الأولى بالمفهوم على عسر وجده النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيها تعزيةٌ له وتقوية لقلبه، وبسط لرجائه. وذلك بقوله: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ، ثم ضرب مثلا يدله على صدق الوعد فقال: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا،[4] وتمامه. ثم نسق عليه بلفظة، أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ،[5] وتمامه. ثم حذف ما معناه فلا تبتئس بما وجدته من العسر **فإن مع العسر يسرا**، أي الذي وجدتَه؛ ويريد باليسر الأجر الباقي كما قدمنا شرحه. ثم أكد الخطاب المخصوص به عليه السلام بقوله مطلقا: **إن مع العسر يسرا**، أي الذي يجده كل مؤمن في كل آن.

---

[1] ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١-٢).

[2] الآية ١ من هذه السورة.

[3] ك ن: كلي.

[4] ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ (سورة الضحى، ٩٣/٥-٦).

[5] الآية ١ من هذه السورة.

فيكون الأول إخبارا مُنبئا عن حال النبي عليه السلام، والثاني إيجابا وتعريفا غير مخصَّص بل مطلق لكل أحد من المؤمنين. وهذا في المثال كما تقول لمن شكا[١] إليك شدةً وجدها من مرض، أو فقر، أو غيره: اصبرْ فإن مع الشدة فَرجا -تعني مع الشدة التي قد شكوتها- فَرَجا لك وإن لم تعلم ذلك. ثم تؤكد ما بشرتَه به خاصة بما تخبره من أن الأمر كذلك في نفسه عامة[٢] فتُكرر الكلام بغير فاء وتقول: إن مع الشدة فرجا، تعني لكل أحد، فيدخل من بشّرته في الجملة، ويتأكد عنده صحة ما قدمته بما كررته وما خصصته به بما أجملته لكل مؤمن. ثم تقول له ما معناه: وإذ قد علمت ذلك فإذا فرغت من الأشغال[٣] فاشكر على هذا النوال. تمت سورة الشرح، فتأمل الشرح.[٤]

١ ك - شكا، صح هـ.

٢ ش: وعامة.

٣ ش ك: من الاشتغال.

٤ ن - فتأمل الشرح.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾

والتين، هو[1] ما يؤكل، **والزيتون**، المعروف. والله تعالى أقسم بهما كما أقسم بغيرهما من مخلوقاته تعظيما لِما خَلق، لأنه لا يَخلق أحد مثلَه. ومتى كان المخلوق عظيما فخالقه أعظم. وأما تخصيص ما أقسم به في كل مكان دون غيره فلعظم نفعه وظهور فائدته واشتهارِه في الأذهان والبلدان. ثم قرنه[2] في الذكر بما يُعرّفه إذا أضافه إلى زمان، أو مكان. فالزمان كقوله: وَٱلۡفَجۡرِ، ثم قال: وَلَيَالٍ عَشۡرٍ؛[3] والمكان كقوله ههنا: **والتين والزيتون**، ثم قال: **وطور سينين**، وهذا الثمر بتلك الجهة أكثر وبما حَولَها أشهر. وهذا الطور هو الذي كلّم موسى عليه.[4] ثم ذكر بعده البلد الذي كان فيه محمد صلى الله عليه وسلم إذْ أوحي إليه. فأقسم الله بهما لعظمِ قدر ما أَنزل فيهما. وذلك كما يقال في باب المثال: "وحقِّ هذا البيت وما يقال فيه" يعني المسجد، وتارة يقول: "وحقِّ هذا البيت"، فلولا "ما يقال فيه" لَما تميَّز عن غيره. وأصل الكلمة ههنا طور سينٍ،[5] ثم نوِّنت النون فصارت سنين بنونين منطوقتين.[6] / ثم وقف عليها لموافقة الوِزان فكتُبت [٥٠٥ظ]
سِينِينَ.[7] وأما كونه قدَّم القَسَم بهذين الموضعين فلمناسبةٍ بينهما وبين ما من أجله أقسم بهما. وذلك أن قوله: **لقد خلقنا الإنسٰن فى أحسن تقويم**، مناسب للأول؛ وقوله: **ثم رددنٰه**، مناسب للثاني. فالأول معروف بالبلاد المُزوِية المُعْشبة المُثْمرة، والثاني مشهور[8] بالبراري المُعْطشة المُزملة المُقْفِرة. والله سبحانه أنزل الهدى في الجهتين وأرسل الرسل به إلى الفريقين. فكأنه قال بهذا المثال: نحن خلقنا البلاد ومكّنّا العباد؛ فإن آمنوا فكالبلد الخصب، وإن كفروا فكالجَدْب. وهذا نظير قوله تعالى: وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ.[9] ولمّا كان المراد بذكر البلد ذم الممثول لا ذمّ ما ضَرب به المثل

---

[1] ش ك: وهو.

[2] ن: قرنه.

[3] سورة الفجر، ٨٩/١-٢.

[4] جاء في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ (سورة مريم، ٥٢/١٩). وانظر أيضا: سورة القصص، ٢٩/٢٨ وما بعدها.

[5] ش: سنين.

[6] ن: منطوقين.

[7] ك ن: سنين.

[8] ن: المشهور.

[9] ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ (سورة الأعراف، ٥٨/٧).

أعني البلد نزّهه عن الذمّ وخصّه بأحسن وصف من أوصاف البلاد، وهو ما به تَطيب حياةُ العباد لينفي عنه ما قد يتطرّق إليه الوهم من صفة القدح بصفة المدح وهي الأمن، فلهذا قال: **وهٰذا البلدِ الأمين**، أي الآمن.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾

فقوله ههنا جوابا للقسم: **لقد خلقنا الإنسٰن فى أحسن تقويم، ثم رددنٰه أسفل سٰفلين**، ليس المراد به جسدَ الإنسان وأنه يعود إلى الهرم والضعف. وإنما المراد به الهدى للجميع ثم الجزاء لمن لم يؤمن. ولهذا استثنى بقوله: **إلا الذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت**. وهذا لا يعطي ما قيل من أن المعنى ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾[1] بل إن قوله: **فى أحسن تقويم**، أي من جهة معناه، لأنه لا شيء أحسن ممن يترقى دائما بكل شيء وبضده، إذ يفعل هذا ويترك هذا. فلزم أن قوله: **ثم رددنٰه**، أي بعمله، **أسفل سٰفلين**، وإن كان لا يعلم ذلك إلا في الآخرة، كقوله: ﴿ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.[2] ودل على ما شرحناه بقوله: **إلا الذين ءامنوا**، أي هم على أحسن تقويم يترقون في الآخرة كما كانوا يترقّون في الدنيا؛ إذا رأوا النار شكروا على النجاة من العذاب الأليم، وإذا رأوا الجنة افتخروا بالفوز والثواب العظيم. وحقق صحةَ ما قلناه من هذا التفسير بقوله عنهم بالفاء: **فلهم أجر غير ممنون**، مقطوعٍ، بل مترقٍّ سرمدا. وهذا أحسن تقويم بلا شك، لأنه لا عوج فيه ولا عيب، إذ لا وقوف فيه فلا يصح الارتداد، بل يتحقق الازدياد على ممر الآباد.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

ولمّا قدم قوله: **لقد خلقنا الإنسٰن**، خاطبه بقوله: **فما يكذبك**، أيها الإنسان، أي يوجب لك التكذيبَ، **بعد بالدين**، بالجزاء بعد هذا القسم العظيم والحق المبين. **أليس الله بأحكم الحٰكمين**، الأول من الحكمة، والثاني من الحُكم، لأن ذا الحكم قد لا يكون ذا حكمة. فبين أن الله تعالى أعظم حكمةٍ من كل حكيم حاكم. ولمّا كانت الحكمة يلزم عنها العلمُ والحكم يلزم عنه القدرةُ كان هذا الكلام جامعا بين أبلغ العلم وأعظم القدرة. وفي هذا الكلام من الرد على المجبرة ما لا خفاء فيه،

[1] سورة يٰس، ٣٦/٦٨.

[2] ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٥).

إذ لا يصح أن يكون أجبر بعضَ العباد على الكفر والظلم، ولا يلزم من كونها خَلْقا له أنه أجبرهم عليها، أعني أفعالهم، بل كما بيّنّا في آخر سورة النبأ. فلو كانوا مجبَرين منه على أفعالهم من الخيرات وضدِّها لم يكن سبحانه بأن يسمَّى أحكمَ الحاكمين بأولى من أن[١] يسمَّى أسفهَ السفهاء جل وعلا، لأن الأكثر هم العُصَاة وأهل النار. وقد بيّنّا في تحقيق السنة ما يجب بيانُه ويصح بالعقل والكتاب والوجود برهانه. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[١] ن: بأولى بأن.

/ ## سورة العلق [٥٠٦و]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾

اقرأ باسم ربك الذى خلق. المعنى اقرأ، وهو أمر قائم بنفسه، والمقروء باسم ربك. وليست الباء زائدة، لأنه لم يُرد أن يبتدئ فيقول: اسم ربك بالرفع ولو نصب لكان المقروء هو[1] الاسمَ خاصة. والمقروء إنما هو الوحي، وهذا كقوله: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وليس مراده: اسم الله الرحمن الرحيم. وهذا كقوله: "قُلۡ"، فهو أمر ثم قال له ما يقول وهو أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ.[2] وكذلك قوله: اقرأ. وقوله: **خلق الإنسٰن من علق**، كقوله: مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ.[3] قيل: كرر "خلق" لأن الأول يدل على الإطلاق، كقوله: ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ،[4] وخصص من ذلك الإنسان فكرر لأجل ذلك. وأما كونه كرر "اقرأ"؛ فالأول وما بعده، كقوله:[5] بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، والثاني هو المقروء، ولمّا بَعُد كرره بعينه. وفي تكراره فوائد، لأن الأول يدل على جملة المصنوع عاما بقوله: **خلق**، وخاصا بقوله: **خلق الإنسٰن**، فذلك شامل لجميع الموجودات، لأن الإنسان نهايتها. فذكر المسخِّر والمسخَّر له وهو جميعه محسوس. والثاني هو الغاية من ذلك كله، وهو المعقول، فهذا من حيث المصنوعُ. وأما من حيث الصانع فإنه لما كان أبلغ الصفات وأوجبَها عقلا مما ينبغي في أذهاننا[6] أن يكون للصانع سبحانه ليس إلا صفة القدرة ثم صفة العلم قال أولا: اقرأ، وذكر القدرة، ثم قال ثانيا: اقرأ، وذكر العلم. فانظر ما أحسن هذا الكلامَ الذي هو معشوق لِمن وعاه. ومن تأمل الكتاب من هذا الباب رأى فيه[7] العُجابَ. فهذا معنى تكرار قوله: اقرأ، والمقروء، **وربك الأكرم الذى علم بالقلم**، يريد كلَّ قلمٍ يَكتب به كاتبٌ.

---

١ ش ك: وهو.

٢ سورة الفلق، ١/١١٣.

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

٤ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ (سورة الرعد، ١٦/١٣). وانظر أيضا: سورة الزمر، ٦٢/٣٩.

٥ ن: كقولك.

٦ ش: في عقولنا. وفي هامش ك: عقولنا.

٧ ن – فيه.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾

علم الإنسٰن ما لم يعلم، وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا.[1] فقوله: علم الإنسٰن ما لم يعلم، كلام جامع لكل معلوم للإنسان بكل صورة وفي كل آن. فمن أبطل العلم والتعليم فقد سدَّ باب الحياة الباقية وأبطل فضيلةَ النشأة الثانية.

[العلم الإلهي وطريق كسبه]

ولمّا كان الله سبحانه هو المعلِّمَ بالإطلاق فالعقل حينئذ إذا أدرك الصُّوَر العقلية بالتعليم الأول الإلٰهي صار عاقلا بالفعل بعد أن كان عاقلا بالقوة. فإذا ترك الآلة العنصرية عاد معقوله معقولا روحانيا، وصار العقل والعاقل والمعقول بمنزلة الشيء المتَّحِد من الإنسان. وقد تحققنا ههنا أن الإنسان يتعلم ما شاء الله من العلوم المختلفة والأعمال العجيبة وتبقى في ذاته موجودة، ولا يقال: أين هذه إذ لا مكان. ولا يكون العلم غيرَ العالم حينئذ ولا هناك زحمة[2] ولا ضيق ولا غير ذلك من سائر العبارات والاعتبارات.

ولكن هنا إشارات لطيفة[3] للتفهيم بالأمثال، كما تقول:[4] إن المتأمل لِما يتخيله يجد في ذاته سعة لا أفقَ لها وقدرةً لا عجز بها.[5] فهو يصوِّر في خياله ما شاء متى شاء كيف شاء. فكيف إذا تم الأمر، وظهر العقلُ، وزال الحاجزُ، وامتلأ القابل،[6] واستمر السكب، وجَدّ السير في الترقي؟ وكان هذا الإنسان من قبلُ قد استكمل الحكمة العلمية والعملية باستعمال كل أداة فيما خُلقت من أجله. فإن الأعضاء الإنسانية والقُوى النفسانية آلات هي لإظهار الأفعال وإتمام الأعمال. فهذه أحوال الفاضل ما دامت نفسه مقارنةً لجسده. فإذا مات الموت الطبيعي فقد تقدس / عن النوم والسِّنَة والغفلة، [٥٠٦ظ]
وعن الدُّؤوب[7] والنَّصَب وجميع الحركات الكائنة، وألقى عن جوهره القشور الطبيعية، وباشر من السعادة الإلٰهية أفعالها الشريفةَ مباشَرةً عقلية، وصار متحدا بها اتحادا إلٰهيا أبديا. فيكون هو السعيد المتحدَ بالسعادة المستحِقة له أزلا، فتعود له أبدا كما سنبين. فلا يحتاج إلى استعمال الفضائل الخُلُقية ولا العاداتِ الجميلة ولا النواميسَ الشرعية،

[1] سورة النحل، ٧٨/١٦.
[2] ش: رحمة.
[3] ن: لفظية.
[4] ن: كما نقول.
[5] ك: لها. وفي هامش ك: بها.
[6] ك – وامتلأ القابل، صح هـ.
[7] دأب فلان في عمله، أي جدّ وتعب يَدْأَب دأباً ودُءوبا (لسان العرب، «دأب»).

لأنه عاد مَلَكا إلٰهيا في مُلكٍ لا يفني، وعزٍّ لا يَبلى، وعطاءٍ لا ينقطع. ومن أراد فتح هذا الباب فعليه بفهم هذا الكتاب، وليعلمْ أن العلم لا يُغني إلا مع العمل بالطاعات وترك الشهوات. وفي ضد ذلك قال الله تعالى: أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ إلى قوله: غَيًّا.[١] وإليه الإشارة بقوله: إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ.[٢] وهذا كما قدمنا ووعدنا ببيانه هو المستكمل للسعادة التي من أجلها خلق الإنسان على ما في الإمكان. فإمكانه سبحانه أعطى الإنسان في هذه الدار تمكينا محدودا بحسب الحكمة لا بحسب القدرة منه سبحانه؛ وأعطاه في الآخرة تمكينا غير محدود، فهو بحسب القدرة؛ ولم يكلّفه[٣] في التمكين المحدود إلا بحسب ما آتاه، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا.[٤] فقد عاد الأمر إلى الإنسان الممكَّن من المحدود الذي في الإمكان. فإن بلغ إلى حده في الدنيا وجب له ما في الأخرى، فنظر إلى ربه سبحانه ببصيرة جديدة ليست من آلات هذه الدار، فلا سبيل إلى وجودها فيها قبل القيامة. وإذا استحال وجود الآلة استحال العمل بها. فلهذا أوصيك أن تَبنيَ أُسَّ عقيدتك على أن البارئ سبحانه منزه عن جميع المناسبات والعقليات، إذ هو منفرد بحقيقته التي هي له بلا شركة، وهي وجوب ذاته الغنية. فلا غاية لمخلوق أعلى من صحة الانتساب إليه بالعبودية. فانظر إلى من تنتسب، وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب.[٥]

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾

كلا إن الإنسٰن ليطغىٰ، بسبب، أن رءاه، رأى نفسه، استغنىٰ، في الدنيا.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾

ثم عرّفنا أن الإنسان مؤاخَذ بالطغيان فقال: إن إلىٰ ربك الرجعىٰ.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾

ثم ضرب مثلا لِما يفعله الإنسان بنفسه بما يفعله بغيره فقال: أرءيت الذى ينهىٰ عبدا إذا صلىٰ. أرءيت إن كان على الهدىٰ، أو أمر بالتقوىٰ، أي فكذلك الذي يَنهى نفسَه[٦]

---

١ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم، ٥٩/١٩).

٢ سورة الحجرات، ١٣/٤٩.

٣ ن: ولم يكفله.

٤ سورة الطلاق، ٧/٦٥.

٥ الآية ١٩ من هذه السورة.

٦ ن – نفسه.

عن ذلك هو كمن ينهى غيرَه. وهذا النهي بالفعل من الإنسان لنفسه. ولهذا بيّنه بقوله بعده: أرءيت إن كذب وتولىٰ، هل يكون على الحق فيما أتى أم يظن أنه لا يُجزى.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾

ألم يعلم بأن الله يرىٰ، المراد بالباء علم الخبر، تقول: علمتُ كيت وكيت، إذا علمته بنفسك، وعلمت بكيت وكيت إذا أُخبرت به من جهة غيرك.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦﴾

كلا، أي مع كونه يعلم فقد عاد كأنه لا يعلم. ثم تواعده بقوله: لئن لم ينته لنسفعًا، لنَجْذِبَنْ، وكُتبت بنون وبغير نون، وقرئت "لنَسْفَعًا" منونةً وغير منونة.[1] والناصية: شَعر في مقدَّم الرأس، أصله من ناصى يناصي، أي وصل فهي واصلة بالرأس. وقوله: بالناصية، أي نجذب صاحبَها بها. وتكرار قوله: ناصيةٍ، لبيان الناصية المستحقة لذلك، وهي مجرورة على البدل مما قبلها، كقوله: ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثم قال: صِرَٰطَ.[2] والمراد صاحب الناصية. فوصفها بقوله: كٰذبة خاطئة.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾

وقوله: فليدع ناديه، أي أهل النادي، كقوله: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ.[3] والمراد فليدع ناديه [٥٠٧و] للانتصار أو للخلاص / من الجزاء المذكور.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾

سندع الزبانية، يقال: الناقة تَزْبِن الحالب، أي تركُضه برِجْلها. وحقيقة الزبن الدفع.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾

وقوله: كلا لا تطعه، أي لا تطع مَن ينهاك عن الصلاة لا من نفسك ولا من غيرك.

---

[1] انظر لمعرفة المزيد: إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٢.

[2] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الفاتحة، ١/٦-٧).

[3] ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٢).

ولهذا بعده: واسجد، لربك، واقترب، إليه بعد الفرائض بالنوافل.[١] ومن النوافل أن لا يزال العبدُ ذاكرًا لله بقلبه[٢] وداعيا مهما أمكن بلسانه. اللهم إني أسألك توبة اختصاصٍ تُؤهِّلني لمناجاتك، وتُهيِّئني[٣] لرحمتك وتَحْجبني عن مَقتك. وقيل: السجود ههنا وفي ألم تنزيل[٤] وحم السجدة[٥] والنجم[٦] وهي أربعة من العزائم. وقيل: هذه السورة أول ما نزل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بعد نزول هذه لم يَلْقَني حجر ولا شَجَرٌ إلا سلّم عليّ».[٧] تمت سورة "اقرأ"، فافقه ما تقرأ.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببتُه كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به ويده التي يَبطش بها ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما تردّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» (مسند أحمد بن حنبل، ٦/٢٥٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٢ ك - بقلبه، صح هـ.

٣ ن: وهيئني.

٤ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/١٥).

٥ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٣٧).

٦ ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ (سورة النجم، ٥٣/٦٢).

٧ لم أهتد إلى هذا الحديث فيما بين يدي من المصادر التي أمكنني الوقوف عليها.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾

إنا أنزلنٰه فى ليلة القدر، وكَرّر له. **وما أدرٰك ما ليلة القدر**، يُعجبه منها تعظيما لها. والقدر لفظ مشترك، تقول: قدَر الله الأمر يَقْدِره قَدْرا، أي جعله على مقدار. ويدل أيضا على جلالة الرتبة وعظمِ الشأن، كما يقال: فلان له قدر كبير ومنزلةٌ رفيعة، والقدْر والقدَر يرجعان إلى أصل واحد. وقد قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ.[1] فالقدر بالتسكين مصدر وبالفتح اسم للفعل. ولمّا كانت هذه الليلة فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ،[2] كما بيّنّاه في سورة الدُّخان كان المفهوم من قولنا: ليلة القدر[3] مأخوذا من قَدَرَ اللهُ الأمرَ يقدره قدرا فهو مصدر كما قلنا. ولمّا كانت هذه الليلة أولَ الإنزال للقرآن كان لها قدرٌ كبير ومنزلة جليلة. ولمّا كانت فضيلة العمر التزيد والكسبَ كانت[4] هذه الليلة يحصل فيها للعامل من الكسب والخير ما هو خير من عملٍ[5] ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلة قدر. قال تعالى منبّها على ذلك: **ليلة القدر خير من ألف شهر.**

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾

ثم أخبر عنها واصفا لها بقوله: **تنزل الملٰئكة والروح**، جبريل، **فيها بإذن ربهم من كل أمر**، ولم يقل: بكل أمر. والأمر ههنا ما يأمر الله به في تلك الليلة من كينونة ما يكون في تلك السنة. فصار المفهوم من ذلك أن كلَّ ليلة قدرٍ من رمضانَ كلَّ سنةٍ تنزل[6] بها الملائكة من أولَ الليلة إلى آخرها بما[7] يأذن الله لها أن تتنزل من كل أمر يكون في تلك السنة. ولمّا كان ذلك الأمر منقسما إلى قسمين من خير وشر كان التنبيه على الأدعية والعبادات في هذه الليلة واجبا والعملُ بذلك فيها عظيما ليستجلب المرءُ

[1] سورة القمر، ٥٤/٤٩.
[2] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٣-٤).
[3] ن – قولنا ليلة القدر.
[4] ش: وكانت.
[5] ك ن: من علم.
[6] ك ن: تتنزل.
[7] ك – بما، صح هـ.

فيها الخيراتِ بالطاعات، ويدفعَ عنه الشرورَ[1] بالأدعية والتَّوبات. فإن الأدعية تَرُدّ القضاء وتدفع البلاءَ، كما كان يقول نبيُّنا صلى الله عليه وسلم: «اللّٰهم إني أسألك خير القضاء وخير القدر، وخير ما جرى به القلم. وأعوذ بك من شر القضاء وشر القدر وشر ما جرى به القلم».[2] وكذلك في القنوت «وقِنا ربَّنا شرَّ ما قضيتَ».[3] وإذا كان هذا نافعا في سائر الأيام فبالأولى أن يكون نافعا بل أنفع في هذه الليلة المباركة من الشهر الشريف في كل[4] عام. وقد قدّمنا في آخر سورة الدخان ما فيه كفايةٌ من أنّ أشرف[5] الأوقات التي فُرض فيها الصلوات كالأعياد والجُمُعات، والأسحار وآناءِ الليل وأطرافِ النهار للتسبيح والأذكار، كل ذلك لا شكَّ فيه، إذ بذلك تنزلت / الأنباء، [٥٠٧ظ] وأمرت وفعلت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا مشهور عند الخاص والعام.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

وقوله: سلٰم، يحتمل أن المعنى من السلامة، ويُحتمل أنه من التسليم وهو الأولى. ويكون مرفوعا على القول المقدَّر، أي يقولون: سلام، كقوله تعالى: قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ.[6] فلمّا ذكر ههنا أن الملائكة تتنزل في جملة تلك الليلة ذكر السلام منهم، كقوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا.[7] وقوله ههنا: تَنَزَّلُ،[8] بلفظ المستقبل يدل على ما سيكون في كل ليلة قدر من كل شهر رمضان يأتي. فلهذا لم يقل: تنزلت الملائكة والروح فيها، لئلا يكون مختصا بالإخبار عن الماضي فقط، كما قال: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ.[9] فقد لزم أن هذا الإخبار ليس المراد به إلا ما سيكون في المستقبل، فتصح فائدة الإخبار له عليه السلام ولأمته، وإلا فهو قد رأى تلك الليلة، ورأى الروحَ جبريلَ عليه السلام. ويبقى الإخبار مقصورا على تعريفه بما كان من بركة تلك الليلة التي مضت، لا يفيد سوى تعظيمها وبركتها فقط. وأما ما قلناه من أن التعريف إنما هو لما سيكون ففائدته ظاهرة. ولا ينقص من بركة تلك الليلة الماضية

---

١ ش: الشر.

٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

٣ الإحسان لابن بلبان الفارسي، ٥٢/٢. نحوه: «وقني ربنا شر ما قضيت» (سنن الدارمي، الصلاة ٢١٤).

٤ ن - كل.

٥ جميع النسخ: شرف.

٦ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ (سورة هود، ٦٩/١١).

٧ سورة الواقعة، ٢٥/٥٦-٢٦.

٨ من الآية السابقة.

٩ الآية ١ من هذه السورة.

وتعظيمها شيئا[1] بل يزيد، لأن بها صارت البركة في أمثالها، إذ بها بدأت الرحمة العامة من الحق للخلق بإنزال الهدى المستوعِب بيانَ السبيل المنجية الموصلة للناس أجمعين إلى النعيم المقيم في جوار رب العالمين. وعادت أمثال هذه الليلة كما عاد العيد[2] في كل سنة تذكرةً وبركةً لِما جرى لإبراهيمَ خليلِ الله وولده إسماعيل فيما مضى. وكلٌّ من المؤمنين يأخذ نصيبه من تلك الرحمة بما يفعله في ذلك اليوم إلى يوم القيامة. فقد صار للتعريف بهذه الليلة فائدة عظيمة. وازداد الأجر بإخفائها وترك تعيينها لتُطلَب في سائر الشهر فتكثر العبادات والأدعية، ويعودَ ذلك عادةً للإنسان، وقد قال عليه السلام: «الخيرُ عادةٌ»؛[3] مضافا إلى ما يكفِّر من السيئات بالحسنات، وإصلاح النيات والتَّوَبات، وما يختص به أرباب العقول من التفكر فيما تضمنته الآيات وخلقُ الأرض والسماواتِ، وأربابُ القلوب من التعرض إلى النفَحَات[4] والاسترواحِ بما يَرِدُ عليهم من جناب الله تعالى من أنواع الراحات ومما لا تحتوي عليه العبارات. والحمد[5] لله الذي أنعم بهذه الليلة وبما أنزل فيها فيما كان ودل على مثلها وما يُنزل فيها إلى آخر الأزمان. وقوله: هي، مبتدأ، خبره: حتىٰ مطلع الفجر، أي أول طلوعه. ولهذا لم يقل: حتى يطلع.

ورغّب في الطاعة في هذه الليلة بجملتها تنبيها على تعظيمها وبركتها وتيسيرا على العباد بحيث إن مَن فاته من الطاعة في بعض ساعاتها شيء أدرك مثله في ساعة أخرى منها. فمن[6] لم يقدر على الزيادة لم تَفُتْه[7] العبادة. ولمّا كانت العبادة فيها وفي غيرها مقبولةً، ولكنها -أعني العبادة- فيها أعظمُ أجرا أخفاها عن الإنسان ليلا، إذا عَاقَه عائقٌ من نوم أو غيره يرجع بالحرمان بل يبقى على حسن ظنه بالله. ويكون الذكر في سائر الليالي من أجل مصادفة هذه الليلة أشمل، والعبادةُ أكملَ، وهذا بلا شك هو الأفضل. ولمّا كانت ليلة الجمعة من سائر ليالي الأسبوع أفضلَ، وليالي الأفراد من النصف الثاني من رمضان أفضل، ولا تكون هذه الليلة / إلا واحدةً في النصف [٥٠٨و]
الثاني من الشهر كانت من جهة الأفضلية أولى بليلة القدر. ومِن أحسن ما قيل:

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الليلة المباركة التي ذكرت في أول سورة الدخان.

[2] ن: العبد.

[3] سنن ابن ماجه، المقدمة ١٧.

[4] ش: إلى النفخات.

[5] ن: فالحمد.

[6] ك: فإن. وفي هامش ك: فمن، صح هـ.

[7] ش ك: لم يفته.

إنه كما قال الله تعالى: شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ،[1] والمراد ليلة منه فيها مبدأ الإنزال، كذلك قوله: إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ،[2] والمراد حينٌ منها فيه[3] مبدأ الإنزال. وإنما أُخفي الحينُ في جملة الليل لسرّ أخفيت الليلة في جملة الشهر من أجله. فوجب قطع الأفكار وصحةُ التوجه والمراقبةِ بالدعاء والاستغفار ليظفَر بحين هو خير من جملة العمر بل من جملة الأعمار. وهذا الاختصاص أولى بالخواص. وما قبله من الكلام أولى بالعوام.

١ ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٥).

٢ الآية ١ من هذه السورة.

٣ ن – فيه.

سورة البيّنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾

لم، حرف نفي، وكأنه مِن "لا" و"ما" جُمعا، **يكن الذين كفروا من أهل الكتٰب والمشركين**، مجرورة بمِن، **منفكين**، خبرُ "كان". والمعنى لم يكن الذين كفروا من سائر أهل الكتاب ومِن جميع المشركين. فهي في[1] الموضعين -المظهَر والمُضمَر- لتبيين الجنس لا للتبعيض، أي لم[2] يكونوا منفكّين يوم القيامة، **حتىٰ تأتيهم البينة**، بما يحقق عندهم نفيَ الظلم من البارئ لهم واستحقاقَهم العذابَ بمخالفتهم. وهو معنى قوله تعالى: وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ،[3] الآية. والكلام ههنا كما تقول لخصمك: لا تنفكُّ مني حتى تقومَ البينة على أحدنا فيتبين الظالم والبينة.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾

رسول من الله، يشير إلى كل رسول جاء في كل زمن إلى قوم، ويخصص محمدا صلى الله عليه وسلم ليعُمَّ الماضين والآتين من الكفار والمشركين. ولهذا قال: **يتلوا صحفا**، واحدتها صحيفة كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.[4] والمصحف هو الذي أُصْحِف بمعنى جُمعت فيه الصحفُ، وأُطْرِفَ جُعل في طرفيه عَلَمان، وأُجْسِدَ أُلصق بالجسد. وقوله:[5] **مطهرةً**، أي عن أن يَمسّها نجَس[6] أو نجِس، ويدخل في ذلك[7] المشرك والكافر. وليس المراد أنه لا يقدر أن يمسّ المصحف نَجِسٌ بل لا يجوز ذلك. ففي ظاهر الأمر هذا مشهور من أن التوراة عند اليهود والإنجيل عند النصارى مطهَّر مُصَان محفوظ لا يَقْرُبه فيما يعتقدونه نَجِسٌ. وفي باطن الأمر أن الصحف في كل زمان مطهَّرة لا تُدركها الأفهامُ والقلوبُ النجسةُ بالعقائد الفاسدة، لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ.[8]

---

١ ك ن: فهي من.

٢ ك – لم، صح هـ.

٣ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (سورة الأحقاف، ٣٤/٤٦).

٤ انظر: سورة الأعلى، ١٩/٨٧.

٥ ن – وقوله.

٦ ن: بخس.

٧ ك – ذلك، صح هـ.

٨ سورة الواقعة، ٧٩/٥٦.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

وقوله: **فيها كتب قيمة**، القيمة صفة الكتب الباقية القائمة بحجة الله على خلقه إلى يوم القيامة. ولمّا كان القرآن فيه ما تقدم كان من حين الإنزال بينةً لمن آمن وعلى من كفر؛ كما كان ما قبله من التوراة والإنجيل لمن قَبل هذه الأمة من الفريقين أو عليهم. وكلما جاءت بينة بعد بينة آمن البعض وكفر البعض. فتفرق المؤمنون بالكتاب المتقدم بعد مجيء المتأخر، فالإشارة بالتفرق إلى المؤمنين بالكتاب المتقدم لا غيرَ. وأما الكفار به -أعني بالكتاب المتقدم- فأولئك ما تفرقوا، لأنهم ما اجتمعوا مع المؤمنين بذلك الكتاب في الإيمان، بل ما برحوا[1] على حالهم كفارا، فليس الكلام عنهم. ولهذا قال ههنا: **وما تفرق الذين أوتوا الكتٰب**، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، لم يتفرقوا، **إلا من بعد ما جاءتهم البينة**، الأخيرة وهي القرآن، لأنه بينةُ ما في الصحف الأولى المنزَّلة فيما تقدم من الأزمان. وتلك الصحف فيها التوراة والإنجيل؛ والمصحف فيه مجموعُ سائر الصحف. وفيه أيضا ما به أكمل الله الدين. ولمّا كانت الصحف قد
[٥٠٨ظ] وُعدت بمجيء هذا الرسول صلى الله عليه وسلم كان مجيئُه بينةً شاهدة / بصدقها وصحتِها ونجاةِ من آمن بها وهلاكِ من خالفها حين وجوب العمل بأحكامها، فقامت به الحجة في كل زمن. ولهذا بعده: **وما تفرق الذين أوتوا الكتٰب**، ويريد بالذين أوتوا الكتاب[2] ههنا اليهود والنصارى.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

وما أمروا، أي سائرَ الخلق في جميع الأزمنة، **إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوٰة ويؤتوا الزكوٰة وذٰلك دين القيمة**، في كل زمن. و"القيمة" الأولى يريد بها الكتبَ، وهو[3] قوله: فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ،[4] فهي القائمة بأوامر الله في خلقه. و"القيمة" الثانية الأنبياء القائمون بأحكامها والبلاغ بها. فأخبر الله أن هذا القرآن فيه الكتب المنزلة، وأن هذا الدين هو الدين المأمور به سائرُ الأنبياء. وإذا كان دينَ الأنبياء فهو دين الملة القيّمة في كل زمن، وليس إلا أهلَ الكتاب.

---

[1] ش: بل ما يرجوا.
[2] ن – ويريد بالذين أوتوا الكتاب.
[3] ن – هو.
[4] الآية ٣ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾

فلمّا بيّن مَن قام به قال بعده: **إن الذين كفروا من أهل الكتٰب**، من بعد مجيء هذه البينة وإلى يوم القيامة، **والمشركين فى نار جهنم خٰلدين فيها أولٰئك هم شر البرية.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

ثم ذكر الفريق الآخر في كل زمن لأنهم كأمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من أمته: **إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت أولٰئك هم خير البرية**. وهذا لا يدل على أنهم خير البرية ممن خُلق من تراب فقط بل من كل ما بَرَأ الله، لأن لهذا الفريق جاء الخطاب بقوله: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ،[1] والملائكة مما في السماوات. ولهذا أسجد الكلَّ أولا لآدم،[2] وعرّفنا أن الكل إذا آمنوا وعملوا[3] لهم منزلة واحدة من جهة الجزاء.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

جزاؤهم عند ربهم جنّٰت عدن تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه، أي بما عَمل كما رضي عنهم بما عملوا. ولهذا علق الجميع بقوله أخيرا: **ذٰلك لمن خشى ربه**، أي خشي عقابَ ربه. والعقابُ لا يكون إلا جزاءً بما هو من نفس المعاقَب على ذنبه. فَلْيَخْشَ كل امرئٍ نفسَه، إذ لا سُوء ولا ما يَسوء إلا منها وعنها. ومن فَقِه كلام الله وتدبّره فهم منه أكثر مما يفهمه من الكلام عليه. فهذا كلام هو أبين مما يُبَيَّن به. واعلم أن الرضا في الدنيا عن الله تعالى لا يكون إلا على قدر قوة العلم به والرسوخ في معرفته. ولا تكون المحبة له إلا بقدر ذلك أيضا، إذ ما لا يُعلم به ولا يعرف لا يُحَبّ ولا يبغض. فأما البغض فلا يكون إلا للظالم. فالعالم بالله انتفى عنده الظلم فانتفى منه البغض، وتحقق الفضل الذي هو بعد الجزاء بالعدل

---

[1] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية، ١٣/٤٥).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ (سورة البقرة، ٣٤/٢. وانظر أيضا: سورة الأعراف، ١١/٧؛ وسورة الإسراء، ٦١/١٧؛ وسورة الكهف، ٥٠/١٨؛ وسورة طه، ١١٦/٢٠).

[3] ك ن: وعلموا.

فثبت عنده الحب، لأن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها. والعالم تَحقّق أن الله تعالى أَحسنَ إليه ابتداء وأحسن إليه إذ جعله قادرا على الإحسان إلى نفسه ليستحق منه جزاء. ثم وعده بالإحسان إليه إحسانا لا ينفد فضلا منه وعطاءً. فصح الحب وثبت القرب، ولزم الحمد وتم الأمر، واتسع الأمل ووجب بذلُ الجهد في العمل، وعلى الله المتّكَل.

سورة الزلزال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾

إذا زلزلت الأرض زلزالها، إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ.[1] **وأخرجت الأرض أثقالها**، المراد الأموات. ومنه الثَّقَلان تَثقل الأرضُ بهم وهم في بطنها، ومنه فَلَمَّآ أَثۡقَلَت،[2] أي بالحمل، ويَثقُلون أحياءً على ظَهْرها. فالموتى أثقال لها والأحياء أثقال عليها. وبيانه في قوله تعالى: وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ،[3] من الخلوّ كالحامل تضع. **وقال الإنسٰن**، اسم الجنس: **ما لها**.

﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾

/ **يومئذ تحدث أخبارها**، هذا على طريق التمثيل، كما تقول: هذه الأرض تحدّث [٥٠٩و]
بأنها كانت مسكونة. فهي في ذلك اليوم بنفس الإلقاء تحدِّث، **بأن ربك أوحىٰ لها**، والباء للتعدية، أي تحدث بكيت وكيت، وهو إظهار الزلزال وإخراج الأثقال. ولسان الحال أفصح من لسان المقال.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦﴾

يومئذ يصدر الناس، للحساب، **أشتاتا**، فِرَقا متفرقة، **ليروا أعمٰلهم**، المقصود من الرؤية تحقُّق نفي الظلم عن البارئ تعالى عند رؤيتهم الجزاءَ عقيبَ رؤيتهم الأعمالَ. فالله سبحانه يُريهم أعمالهم. فكما أن المرآة الصحيحة تُري صورة المرئي[4] بحاله عن ذرة، كذلك الجزاء من الحق للخلق. ومِن ههنا قيل: إن الله تعالى هو النور الصفاء، فَالْحَظْ هذا[5] ببصيرتك اليومَ إيمانا وستراه ببصرك في ذلك اليوم عِيانا.[6]

---

[1] سورة الحج، ١/٢٢.

[2] ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٩/٧).

[3] ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ (سورة الانشقاق، ٣/٨٤-٤).

[4] ن: المرائي.

[5] ش – هذا.

[6] ك – أن المرآة الصحيحة تري صورة المرئي بحاله عن ذرة كذلك الجزاء من الحق للخلق ومن ههنا قيل إن الله تعالى هو النور الصفاء فالحظ ببصيرتك اليوم إيمانا وستراه ببصرك في ذلك اليوم عيانا، صح هـ.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾

يلزم أن من رجحت سيئاته على[1] حسناته ذرةً دخل النار وبالعكس.[2] وروي عن صَعْصَعَة[3] عم الفرزدق[4] أنه سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورةَ فقال: «حسبي حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرَها».[5] وروي أن رجلا أتى ليُسلم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تُقرأ عليه هذه، فصاح الرجل وَا سَوْأَتَاهُ! فقال عليه السلام: «آمن الرجل». وجاء آخر، فلمّا سمعها قال: «حسبي حسبي» مكرّرا لها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوه فقد فَقُه الرجل».[6] وكان عليه السلام يقول: «التوبة تَجُبُّ ما قبلها، والحسنة تُذهب السيئة».[7] وقال لعائشة رضي الله عنها -وقد سأل السائل- فقالت: هي تمرة، فقال عليه السلام: «أعطِه إياها»، ثم[8] قال: «استتري من النار بتمرة».[9]

---

[1] ك ن: عن.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه سلم: «توضَع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات. فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة. ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار. قيل: فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف» (فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ٥٣٩/١٣).

[3] لم أعثر على ترجمته.

[4] أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، الشهير بالفرزدق، شاعر، من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. وأخباره كثيرة. توفي في بادية البصرة سنة ١١٠هـ/٧٢٨م وقد قارب المائة (الأعلام للزركلي، ٩٣/٨).

[5] المستدرك للنيسابوري، ٦١٣/٣.

[6] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. وانظر نحوه في كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، ص ٢٧. | ك - حسبي.

[7] لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه روي عن ابن شِمَاسَة أن عمرو بن العاص قال: لما ألقى الله عز وجل في قلبي الإسلام قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعني، فبسط يده إليّ فقلت: لا أبايعك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدم من ذنبي قال: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عمرو! أما علمت أن الهجرة تجبّ ما قبلها من الذنوب، يا عمرو! أما علمت أن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الذنوب» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٠٥/٤؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ١٢٣/٩).

[8] ن - ثم.

[9] عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: «يا عائشة استتري من النار ولو بشقّ تمرة فإنها تَسُدّ من الجائع مَسَدَّها من الشَّبعان» (مسند أحمد بن حنبل، ٧٩/٦؛ وبغية الرائد للهيثمي، ٢٧٦/٣).

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾

والعٰديٰت، الخيل، **ضبحا**، أي وحالها ذلك، وهو من الضُّباح وهو صوت الثعلب. وضبحُ الخيل صوتٌ يخرج عند شدة العَدْو مع النفس. **فالموريٰت**، أورى النارَ إذا أشعلها وانطفت، كنار أبي حُبَاحِب،[1] كان من بخلِه لا يوقد نارا لخبز ولا لغيره حتى ينامَ كل ذي عين، فإن استيقظ بها أحد أطفأها. وقوله: **قدحا**، أي ذلك الإيراء هو بالقدح بسَنابِكها[2] تنقدح النارُ لشدة ضرب السنابك للصخر.[3] **فالمغيرٰت صبحا**، إشارة إلى أن الفوارس ساروا إلى الجهاد ليلا وأغاروا على العدوّ صُبحا. وفي ذلك تعليم وتعظيم. فتعظيم الخيل تعظيم لرُكّابها، وتعظيم ركابها تعظيم لفعلهم، وتعظيم فعلهم تعظيم لأجرهم. **فأثرن**، الخيل **به**، بالصُّبح، **نقعا**، غبارا. وإنما قال: **به**، أي بالضبح، لأن الضبح في الأكثر لا يثور به غبارٌ لما ينزل على الأرض فيه من الطَّلّ والندى. فإذا، **أثرن به نقعا**، دل على شدة الركض، **فوسطن**، الخيلُ، **به**، بالفارس،[4] **جمعا**، جمعَ عدو. وهذا الكلام يُفهَم منه القَسَم بكل غَزوَة كانت وتكون في الإسلام. وليس المراد ركض الخيل لعداوة[5] بين العباد أو للكفر والعناد، لأن المؤمن أشد اجتهادا في الجهاد. والأولى أن يكون القسم به ههنا هو المراد. وقال: **به**، وأراد الفارس الواحد حل في وسط الجمع لقوة قلبه وثقتِه بوعد ربه. وأشار إلى أن الكل على قلب الواحد، بل كلُّ واحدٍ منهم هو ذلك الواحد. فلهذا قال: **فوسطن [به]**، ولم يقل: بهم. وليس جواب القسم: **إن الإنسٰن لربه لكنود**، بل جوابه: **إِنَّ رَبَّهُم**،[6]

---

[1] وكان أبو حباحب شيخا من مُضَر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يوقد نارا لخبز ولا لغيره حتى تنام العيون، فيوقد نُويرة تَقِد مرة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد. فشبهت العرب هذه النار بناره لأنه لا ينتفع بها (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٢/٤٣٣).

[2] الشُّنبُك طرف الحافر وجانباه من قدم، وجمعه سنابك (لسان العرب، «سنبك»).

[3] ن: بالصخر.

[4] ك ن: الفارس.

[5] ن: بعداوة.

[6] من الآية الأخيرة.

والثاني[1] معترض بينهما وإخبار ليترتب عليه جوابُ القسم. ولهذا جاءت اللام في جواب "إنّ"، وجاءت مكسورة للابتداء. والكنود الكافر بالنِّعَم وإن لم يكن كافرا بالله. [٥٠٩ظ] وقوله: لربه، أي لنعم ربه. وقال عليه السلام: / «أتدرون ما الكنود؟ هو الذي يأكل وحده، ويَمْتَع وحده ويمنع رِفْده ويضرب عبده».[2] وهذه صفات الكافر بنعم الله، لأن الطعام رزق الله. فلو اعترف بنعمة الله لأطعم كما أطعمه الله. وكذلك لو اعترف بما أنعم الله به عليه مما[3] هو فضلة عن حاجته لَمَا كان يمنع رِفْده عن المستحقين له. وكذلك لو اعترف بنعمة الله، إذ ملّكه عبدا وسخره له لَمَا ضربه بغير حق. وكل هذه الصفات صفات الكافر بالنعمة. فجاء بذلك مشروحا بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم لتتميز هذه الصفات وما ماثلها من صفات الكَنود. والأرضُ الكنود هي التي لا تُنبت شيئا، شبّه كافر النعمة بها، وسمّي باسمها.[4] فهو كالأرض التي لمّا أُودِعت الحَبُّ لم تُنبته بل أفسدته، فمَنْعُها للإنبات بمنزلة منعِه للرِّفد.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

وقوله: وإنه، أي الإنسان، علىٰ ذٰلك لشهيد، أي لمُقِرٌّ بأنه كنود لنعمة ربه عليه، وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا، ثم قال: إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ،[5] يريد ظلمه لنفسه بكفره لنِعَم ربه، وهذا هو معنى ما ههنا. وقوله: لشهيد، كقوله: بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ،[6] كما بيّنّاه، وكقوله: كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا.[7] وقوله: وإنه علىٰ ذٰلك لشهيد، يحتمل أن يكون عائدا على[8] الرب. فلمّا قال: لِرَبِّهِۦ،[9] عطف بقوله: وإنه، ويكون على صورة التواعد بدليل إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرٌ،[10] ولم يقل: إن الله. فقوله: لَّخَبِيرٌ، مثل قوله: لشهيد، لأن من كان شهيدا على العمل لا شك أنه خبير بالجزاء.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير بقوله: "والثاني" إلى القسم الذي يتشكل من الآيات ٦-١٠ من هذه السورة.

[2] المعجم الكبير للطبراني، ٢٢٢/٨؛ وكنزل العمال لعلاء الدين الهندي، ١٥/٢.

[3] ك ن: بما.

[4] ن: وباسمها.

[5] سورة إبراهيم، ٣٤/١٤.

[6] سورة القيامة، ١٤/٧٥.

[7] ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٤/١٧).

[8] ش ك: إلى.

[9] من الآية السابقة.

[10] الآية ١١ من هذه السورة.

ثم قال عن الإنسان: **وإنه لحب الخير لشديد**، وإنما رجع إلى ذكر الإنسان بوصفه[١] ليعطف عليه ما بعده. والمعنى أن الإنسان شديد الحب للدنيا ولو كان مكثِرا. والخير ههنا الرزق، كقوله: إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ.[٢] والأَولى بعد جواز ما قيل هو أن المراد بقوله: **وإنه لحب الخير لشديد**، أي لأجل محبته للخير لبخيل،[٣] والشديد هو البخيل ولكن في الغاية من البخل. وأما محبة الخير فلا تنتفي عن المؤمن. ويكون هذا التفسير مناسبا لقوله: لَكَنُودٌ،[٤] بما شرحه النبي صلى الله عليه وسلم.[٥] وعبّر بالشديد عن شديد البخل لأجل الوِزان، ومثله: وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا.[٦] ومثل هذه الآية يجوز أن يقال: في تفسيرها وجهان، ويجب مع ذلك أن يقال: الأولى منهما ليُعلم أن الآخرَ جائز لدلالة اللفظ عليه، فيكون أحدهما حسنا وهو ما جوّزناه، والآخر أحسن وهو ما حقّقناه.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

وحصل ما فى الصدور، من الكفر والإيمان، وسوء العقائد والنيات، والضمائر والطويات، أي أفلا يعلم أنه يحاسب على ذلك ويجازَى. وحَذف ذلك فاستغنى بقوله: **إن ربهم بهم يومئذ لخبير**، فيجازي كُلًّا بما يستحقه، لأنه لا يجازي على الفعل إلا من يعلمه.

---

١ ن: يوصيه.

٢ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة، ١٨٠/٢).

٣ ن – لبخيل.

٤ الآية ٦ من هذه السورة.

٥ قد مر آنفا.

٦ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٠٠/١٧).

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾

القارعة، ما القارعة، وما أدرٰك ما القارعة، تَقرَع الأسماع، وهي زجرة القيامة تسمعها الجُثَثُ وأصحابها بمنزلة واحدة وإن كانت رُفاتا، أو ترابا، أو غيرَ ذلك؛ وتقرع قلوبَ الكفار يوم بعثهم بما يجدونه من حالهم ويستشعرونه من مآلهم.

﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، الفراش هو الطير الذي يلقي نفسَه في لهب السراج. شبّه الكافر به إذا قيل له: كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا.[1] فهو يلقي نفسه بنفسه.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾

وتكون الجبال / كالعهن، الصوف الملوَّن، **المنفوش**.[2] المعنى يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفًا،[3] [٥١٠و]
كما ينسف العهنَ المنفوش عاصفُ الريح.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾

فأما من ثقلت موٰزينه، يدل على أن لكل عمل ميزانا يوزَن بها. ويحتمل أن يكون ذلك تفخيما، كما يقال: يُقبل إقدامَه، **فهو فى عيشة راضية**، ذات رضا كقولهم: نابل، أي ذو نَبل.[4]

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

وأما من خفت موٰزينه، فأمه، أم الرأس،[5] **هاوية**، من هَوَى يهوي، أي ساقطة، أي يُرمَى على أم رأسه في النار. وقوله: **وما أدرٰك ما هيه**، يحتمل أن يعود على القارعة

---

١ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٤/١٧).

٢ نفش القطن ونحوه: تفرق وانتشر بعد تلبد (المعجم الوسيط، «نفش»).

٣ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ (سورة طه، ١٠٥/٢٠).

٤ النبل: الفضل والنجابة (لسان العرب، «نبل»).

٥ أم الرأس: الجلدة التي تجمع الدماغ (المنجد لِلُويس المَعلُوف، «أمّ»).

وهو أولى الوجهين. ولهذا لمّا بعُد قوله: وما أدرٰك، كرره بعينه. ولم يأت في القرآن مثلُ هذه الاستعارة بعينها، أعني الأم للرأس، وتكون، القارعة، هي، نارٌ حامية، تَقرع بعذابها. ويحتمل أن يكون قوله: هاوية، يريد بها النار؛ ولهذا ذكرها منكّرة وذكر تفسيرها منكّرا أيضا بقوله: نار حامية. ويكون معنى تسميتها، هاوية، أي ذات هوى كما يقال: ليلة ماطرة. وقال عليه السلام: «ثلاثُ مواطن لا يَذكر المرء فيها إلا نفسَه: عند الموازين، وإذا عُرضت الصحف، وعند الحساب».[١]

[١] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، لكن أخرج أبو داود (السنة ٢٨) ما لفظه: عن عائشة «أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يبكيك؟" قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم"».

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

ألهٰكم التكاثر، وهو التباهي والتفاخر بكثرة الرزق والمناقب تجبرا وتكبّرا. وقوله: ألهٰكم، يخصص كل من هو بهذه المنزلة، ولهذا نهى عن مثل ذلك بقوله: لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ.[١] وقوله: حتىٰ زرتم المقابر، أي إلى أنْ آنَ أوان الموت وقرب زيارةُ[٢] القبور. كلا، ردٌّ لِما هم عليه من الباطل. وتكرارها وعيد بعد وعيد تعظيما له وتخويفا به. ولهذا قال: سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون. ويحتمل أن يكون أحد التهديدين بما هو في الدنيا، والثاني بعذاب الأخرى.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

وقوله:[٣] كلا لو تعلمون علم اليقين، والمعنى لو تعلمون عاقبة تكاثركم كعلمكم ما تتيقنونه من أموركم. وحذف ما تقديره: "لَمَا ألهاكم التكاثرُ"، لدلالة الكلام عليه. ولما كان من العلم ما يحصل به اليقين بالمعلوم نَسب العلم ههنا إلى اليقين. ثم تواعدهم بقوله مُقْسِما: لترون الجحيم، يوم القيامة، ثم لترونها عين اليقين، أي بعين اليقين منكم جزاء عدلا. ولهذا بعده: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم. وتلخيصه يا من لا يتيقن بالعلم جزاءَ تكاثره الآن لا بد لك أن تراه بعين الإيقان. وقوله: ثم لتسئلن، [ثم] ليست ههنا للتراخي بل كقوله: كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ،[٤] وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ.[٥] فاحفظها لتفهم ما يُشكل من مثلها في قوله: ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ،[٦]

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة المنافقون، ٩/٦٣).

٢ ك ن: زيادة.

٣ ك - ويحتمل أن يكون أحد التهديدين بما هو في الدنيا والثاني بعذاب الأخرى وقوله، صح هـ.

٤ ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود، ١/١١).

٥ ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ (سورة هود، ٣/١١).

٦ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (سورة البقرة، ٢٩/٢). وانظر أيضا: سورة فصلت، ١١/٤١.

ومثلها مما لم يُقصَد به التراخي. ولمّا قدم قوله: أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ،[١] ثم قال أخيرا: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم، أي فيماذا تتكاثرون وهو يَنفد وأنتم عنه مسئولون. والنعيم يستوعب كلَّ نعمة لأن التنعم إنما يكون بالنِّعَم. ونِعَم الله إذا ما استعملت في معاصيه كان الإنسان مسئولا عما قلّ وجلّ منها. ويدخل في ذلك جميع ما قيل.

[١] الآية ١ من هذه السورة.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

والعصر، يريد الدهر. وهو اسم الجنس، ذكره ليستوعب سائر الأعصار في كل آن من الليل والنهار. وإنما أقسم به لأن كل عصر ذو أناس. وكذلك قوله: **إن الإنسٰن**، يريد كلَّ إنسان من كل عصر في مدة عصره من حينِ بلغ حدَّ التكليف إلى آخر عمره، **لفى خسر**، لأنه لا ربح له إلا في عمره، وكلما تنفس نقص. **إلا الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وتواصوا بالحق**، يدخل فيه كل ما يُعتقد من علم، **وتواصوا بالصبر**، يدخل فيه كل ما يجب من عمل، فصبروا على العمل بالأوامر وعن العمل بالنواهي. والمراد أن كُلًّا يوصي كُلًّا بحسب الإمكان. وقيل: «كان الرجل / من أصحاب رسول الله صلى الله [٥١٠ظ] عليه وسلم إذا لقي أخاه لم يفارقه حتى يقرأ سورةَ والعصر».[1]

١ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر المعتبرة.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

ويل، بمعنى التقبيح، ووَيح بمعنى التحسر، لكل همزة لمزة، وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ،[1] وهو بوزن ضُحَكَة، وعُيَبَة، ونُكَحَة، وكُتَمَة لمن يَكتم. والهُمَزة ههنا يريد به مطلقَ الهَمْز أعني لنفسه وغيره. والمعنى هو همزة في جمع الحُطام. وكذلك اللمزة هو الذي يلوم نفسه وغيره مُعيبا عليه في تَوانيه عن جمع حُطام الدنيا. ولهذا بعده: الذى جمع مالا وعدده، جعله عُدّة[2] له لدفع المكاره دون ربه سبحانه. ولهذا بعده: يحسب أن ماله أخلده، في الدنيا بمعنى أنه لولا المال لمات. فجزاؤه على ذلك النارُ.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾

كلا لينبذن فى الحطمة، تَحْطِم فتَكسر مَن يُلقَى فيها، والنبذ الإلقاء. وما أدرىٰك ما الحطمة، نار الله الموقدةُ التى تطلع على الأفئدة، لأنها محل الكسب الذي تقع عليه المؤاخذة، وموضعُ العقائد والنيات والعزائم والطَّوِيَّات، فخصها بالذكر لذلك. ولأن وَجَعها أمسُّ من وجع الأبدان. وقال: تطلع، أي حين العمل حقَّ الجزاء؛ فهو[3] مُطَّلِع على ما أضمرته القلوب، وإنما القلوب لا تطلع عليه إلا في ذلك اليوم.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

إنها عليهم مؤصدة، أي من الآن وإن لم يعلموا ذلك إلا في القيامة؛ قيل: مُوقَدَة، وقيل: مُطبَّقة. وعن الضحاك: المؤصَد الحائط المُبْهَم الذي لا باب له، فى عمد ممددة. العمد جمع عمود، لأن العمد إذا كانت محماة ووُضعت على الإنسان كان أثرُها

---

[1] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ (سورة الحجرات، ٤٩/١١).

[2] ش: عقدة.

[3] أي الله تعالى.

في الكيّ أبلغَ من لهب النار. وقوله: ممددة، إشارة إلى ثقلها. فهي عليهم دائما ممدودة.[1] وهذا النوع من العذاب يختص بنوع من العصاة، وله اسم؛ وكذلك كل نوع له اسمٌ ينبئ عن أثره في المعذَّبين.

[1] ش ك: ممددة. وفي هامش ك: ممدودة.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

ألم يجعل كيدهم فى تضليل، عما قصدوا به من هدم الكعبة.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

وأرسل عليهم طيرا أبابيل، قيل: كانت طيورا بَحرِيةً سُودا. والأبِّيل مشدَّدَ الباء ومخففها الحزين. ومن شأن الحزين[1] أن يَلبس السواد. فيحتمل أنه أشار إلى ألوانها. وقيل: أبابيل، جماعاتٍ متفرقة زمرةً بعد زمرة.[2] والإبَالة هي الحُزمة الكبيرة. وفعيل وفعّال يُجمعان على أفاعيل. شبهت الطير لاجتماعها وكثرتها بالحزمة من الحطب.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

ترميهم بحجارة من سجيل، كقوله في قوم لوط: حِجَارَةً مِّن طِينٍ.[3] وقيل: السجيل طين مطبوخ.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

فجعلهم، أي بعد أن قُتلوا بالحجارة وبَليت أبدانهم، ونسفتها الرياحُ، **كعصف مأكول**، التِبْن[4] أُكِل حَبّه، وبقي منه ما تعصف به الريحُ. وقيل: كان بين عام الفيل ومبعثِ الرسول صلى الله عليه وسلم نيّفٌ وأربعون سنة، وبمكة يوم تلا هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم عددٌ كثير ممن شهد ذلك.

---

١ ك – ومن شأن الحزين، صح هـ.

٢ ك – بعد زمرة.

٣ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٣٢-٣٣).

٤ ش: التين.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④﴾

لإيلٰف قريش، يقال: أَلفتُ وآلَفت الموضعَ أُولفه إيلافا. وإن كسرت لام الماضي قلت: أؤالفه مؤالفة. وقيل في معناه: أهلكتُ أصحاب الفيل لِأُؤلِفَ قريشا.

وقال في ضياء القلوب: ابتدأ الله تعالى بلام خافضة لا خبرَ فيها، لأنه أراد أن يعجّب نبيّه من عظيم نعمته على قريش.[1] والعرب تكتفي بلام التعجب عن ذكرِ أعجبَ. وقوله: إۦلٰفهم، مجرور على البدل مما قبله؛ كقوله: لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ،[2] فالثانية صفة الأولى كُسرت بما[3] كُسرت به الأولى. تقول: أعطيتك النعمة لصيانة وجهك صيانةً عن كل الناس. وقوله: رِحلةَ الشتاء والصيف. قيل في معناه: كان لهم رحلتان صيفا وشتاءً يأتلفون عليهما. فيكون المعنى على ما قيل: / أهلكتُ أصحاب [٥١١و] الفيل لأجْل إيلاف قريش. ثـم بيّن بتكرير اللفظة وهي قوله: إۦلٰفهم، ما تقديره: على، رحلة الشتاء والصيف، أي كما كانوا عليه. وهو كما تقول: أهلكت عدوك لأُبْقِيَك على ما كنت عليه من التأليف بجماعتك على الرحلة شتاءً وصيفا. ويعود قوله: **فليعبدوا رب هٰذا البيت** بمعنى فاشكروني[4] على ذلك. وقوله: **الذى أطعمهم من جوع**، وذلك بتأليفهم على الرحلتين، **وءامنهم من خوف**، كانوا يخافونه من أصحاب الفيل.

[تفصيل في تفسير سورة قريش]

فهذا أشهر ما رأيتُه مما قيل في هذه السورة مع كثرة آراء المفسرين لها. ولم أفهم به الكلام منتظما، أعني كلام السورة. والأولى –والله أعلم– أن قوله: **لإيلٰف قريش**، كلام بمفرده لا يتعلق بأصحاب الفيل، لأن أصحاب الفيل[5] إنما أهلكهم الله لبغيهم في ابتغائهم

---

١ لم أعثر عليه.

٢ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (سورة العلق، ٩٦/١٥-١٦).

٣ ن: مما.

٤ ن: فاشكرني.

٥ ن – لأن أصحاب الفيل.

خرابَ البيت لا ليؤلّف قريشا. وقد كانوا[1] يعبدون الأصنام ولم يكونوا خيرا من أصحاب الفيل إلا بعد الإيمان. وأما إن[2] لفظة "إيلافِهم" مجرورة على البدل مما قبلها فصحيح ليُبيِّن بالثاني معنى ما قصد بالأول. وأما قوله: **رحلة الشتاء والصيف**، فليس تقدير الكلام إيلافَهم على رحلة الشتاء. بل المعنى جعلنا رحلة الشتاء والصيف إلى هذا البيت، وسنوضح كيف ذلك. وأما قولهم: **أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف**، فلا تعلقَ له أيضا بمن كان في زمن الفيل ولا بقوم مخصوصين من قريش، بل الأمر كذلك إلى يوم القيامة؛ كما سنبين مما ذكره بعض المفسرين وإن كان لم يرتبه في نظم الكلام ترتيبا يدخل بيّنا في الأفهام. وأما معنى قوله: **أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف**، فهو كما يقال من وسط الشدة: فأنقذهم الله من أشد الجوع وأبلغ الخوف، فأشبعهم من الجوع كما آمنهم من الخوف.

وأما "رحلة الشتاء والصيف" فالمراد ما يَرحل إليهم من الحجاج من أقطار الأرض في كل سنة تارة صيفا وتارة شتاء. فمنّ الله عليهم بذلك، لأن به حصل لهم التأليفُ الذي إنما يستحقونه إلى يوم القيامة بعد الإيمان الذي حصل، وبه، **أطعمهم من جوع**. وقوله: **وءامنهم من خوف**، يحتمل أنه ببركة هذا البيت الذي من دخله كان آمنا. فقد بان أنه ليس المراد ما كان من رحلة قريش، لأن ذلك يختص بأقوام من الكفار كانوا وبانوا.[3] وإنما المراد ما يبقى إلى يوم القيامة. وتكون المنة به على المؤمنين من قريش. والدليل على صحة ما قلناه قولُه تعالى: جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ،[4] الآية. فجعل ما تقدم ذكره من النعمة سببا لِما أمرهم به من العبادة. وهذا فائدة ذكره للبيت وهو قوله: **فليعبدوا رب هٰذا البيت**.

فصار معنى السورة بمقدَّرها المحذوف ما بدأ سبحانه به معجِّبا لرسوله مما يريد أن يخبره عنه بعد ما بدأ بذكره تعظيما له كما بدأ بذكر لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ.[5] ثم بيّن بعد ذكرها ما أراده من الابتداء بذكرها من التعظيم. فكذلك ههنا قال تعالى: **لِأجل إيلٰف قريش**. ثم كرر للبيان فقال ما تقديره: لأجل إيلافهم على العبادة والإيمان جعلنا رحلة الحُجّاج إلى هذا البيت شتاءً وصيفا. **فليعبدوا رب هٰذا البيت الذى أطعمهم**، ببركة هذا البيت،

---

[1] أي قريش.

[2] ك ن – أن.

[3] أي انقطعوا وماتوا.

[4] ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ (سورة المائدة، ٩٧/٥).

[5] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (سورة القدر، ١/٩٧).

من جوع وءامنهم، ببركته، **من خوف**. وهذا التفسير يطابق دعوة إبراهيم عليه السلام بقوله: فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ.[١] لأن دعوته للمؤمنين بالله من ذريته إلى يوم القيامة. فلمّا سأل من الله بقوله: فَٱجۡعَلۡ، وفي موضع آخر: وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ،[٢] قال الله تعالى: جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ.[٣]

[٥١١ظ] / ولا يعارض ما قلناه بأن يقال: كيف يجعل الله الحج إلى بيته الحرام من أجل إيلاف قريش؟ فليس معنى كلامنا هذا، بل المعنى لأجل إيلافنا لقريش فليعبدوا. ثم بين بما معناه لأجل إيلافهم برحلة الحجاج إليهم شتاءً وصيفا، وبيّن كيف وقع الإيلاف بقوله:[٤] **أطعمهم من جوع**. فلولا إطعامهم لَتشتَّتوا[٥] في البلاد ونَزَحوا[٦] من مكانهم. فألف الله بينهم برحلة الحجاج إليهم في سائر السنين شتاء تارة[٧] وصيفا تارة،[٨] **وأطعمهم من جوع وءامنهم من خوف**، كان يَحِلّ بهم قبل التأليف، لأن الائتلاف على الدين أزال الاختلاف الموجب للخوف. ومنه قوله تعالى: وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ.[٩]

فهذا ما وصل إليّ مما قيل في معنى هذه السورة، والله أعلم بكلامه. ويجب أن تفهم بعد ما ذكرتُه أن هذه السورة يحتمل بعضُ ألفاظها وجوها من أجْلها وقع الاشتباه، وقد حصرتها لمن أراد فهْمَ المعنى. وذلك هو[١٠] أن قوله: **لإيلٰف قريش**، يحتمل أن يكون معناه أننا نحن ألّفنا[١١] بينهم على الإيمان أو ألّفنا[١٢] بينهم من جهة الصلح الذي[١٣] يقتضي زوالَ العداوة وإن لم يكن ذلك بطريق الإيمان. ويحتمل أن يكون[١٤] المعنى مأخوذا من التأليف، بل[١٥] إنهم أَلِفوا وطنهم، أو إنهم[١٦] أَلِفوا الرحلة شتاءً وصيفا. وهذا أولى الوجوه.

---

١ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم، ٣٧/١٤).

٢ ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ (سورة البقرة، ١٢٩/٢).

٣ ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ (سورة المائدة، ٩٧/٥).

٤ ش: بقولهم. وفي هامش ش: بقوله.

٥ ش: لتشتوا.

٦ نزح: بعد (لسان العرب، «نزح»).

٧ ش – تارة.

٨ ش ك – تارة.

٩ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ (سورة الأنفال، ٦٢/٨-٦٣).

١٠ ن – هو.

١١ ن: اللفنا.

١٢ ش: وألفنا؛ ن: واللفنا.

١٣ ن + لا.

١٤ ش ك: أن لا يكون.

١٥ ن – بل.

١٦ ك ن – إنهم.

ثم كونهم ألفوا الرحلة يحتمل أنهم أَلِفوا رحلتهم إلى المكان الذي يرحلون إليه، أو ألفوا[1] رحلة الحجاج إليهم في كل عام. وهذا أولى الوجوه. ولمّا كان من يألف النعم يقلّ شكره عليها بل قد لا يشكر، وقد يبقى حكمه حكمَ الجاهل بها الغافلِ عنها عرّف الله قريشا بما معناه أنه لو لم يكن له عليهم من النعمة التي يستحق منهم بها العبادة سوى ما قد ألفوه برحلة الحجاج إليهم في كل عام صيفا وشتاءً للزمهم عبادته. ولمّا كانت هذه النعمة بطريق البيت بيّنها بقوله: فليعبدوا رب هٰذا البيت الذى أطعمكم من جوع تجدونه، وآمنكم من خوف تخافونه من الخلق المجتمعين عندكم من أقطار الأرض. فلو لم تَلزمكم عبادته إلا من أجل هذه النعمة المألوفة لكم فقط لكانت واجبةً عليكم لظهور ما قد بيّنه لكم مما ساقه من الخيرات بالرحلة إليكم. وتكون اللام في قوله: لإيلٰف قريش، والفاء في قوله: فليعبدوا، كاللام والفاء في قوله: لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ.[2]

وتُفهم[3] السورة على ظاهرها من غير زيادة ألفاظ. ويبقى قوله: إءلٰفهم، الذي أوجب الاشتباه موجبا للبيان لمن تأمل. فافقه هذا البيان عند قراءتك هذه السورةَ تجده أحسنَ مطابَقةً للفظ وأتم ما يقال من المعنى. وهذا مما يحقق عندك أن القرآن معجز، لأن هذه السورة مع كونها خمسةَ عشرَ لفظة قد قرأها ما شاء الله وفسّرها ما شاء الله[4] مِن مِئينٍ من السنين. والاختلاف في تأويلها إلى يومنا هذا باق. وها قد عادت بيّنةً بأدنى تأملٍ ظاهرةَ المعنى من غير حشو في لفظها ولا سماجة في معناها.[5]

---

١ ن: وألفوا.

٢ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٦٠-٦١).

٣ ن: ونفهم.

٤ ش - ما شاء الله.

٥ ن: في معناه.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾

أرءيت، الألف للتبيين والدلالة والمبالغة في الإذكار بالشيء،[1] **الذى يكذب بالدين**، الجزاءِ؛ الذي يصدّق بالجزاء لا يعمل شرا، والذي يكذّب يشهد عليه فعله. **فذٰلك الذى يدع اليتيم**، يدفعه عن حقه بأي صورة كان الدفع. وَصَفه بالدَّعّ تشبيها بمن يدفع باليد لقساوة القلب عليه إذا لَاذ به. وقد يُدفَع بالقلب فلا يُزأَف / به، وبالنية فلا يعبأ به. وهذا هو كقوله: فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. **ولا يحض**، يَحُثّ نفسه وغيرَه، **علىٰ**، بذل، **طعام المسكين**. ويُفهَم مِن هذا أمرٌ بما ضدُّه، وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ.[2] [٥١٢و]

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

ثم قال: **فويل للمصلين الذين هم عن**، الغرض من، **صلاتهم ساهون**، ليس المقصود ههنا الصلاة نفسَها لأن السهو ليس إليهم، لا فيها ولا عنها، وقد لزم أنهم من المصلين. ولكن المراد أنهم لو صلّوا وتدبروا القرآن، وعملوا بما يَلزمهم العمل به منه، وتحققوا الجزاء على أفعالهم[3] لَمَا دَعُّوا اليتيم ولَكانوا يحضّون على طعام المسكين، لأن القرآن كله مشحون بالأمر والنهي والجزاء. فمن كانت أفعاله تكذِّب ما يقرأه في صلاته من الجزاء على ما يبدو منه فحكمه حكم الساهي عما يقوله. **فويل**، له من الجزاء. ولهذا بيّن ما قلناه بقوله: **الذين هم يراءون**، فهم يصلّون ولكنْ صورةَ الصلاة لا الغرضَ بها. ففَصَلهم عن الساهين في الصلاة أو عن الصلاة إذا لم يكونوا كذلك. ثم أوضح ذلك بتعيينه لأفعالهم فقال: **ويمنعون الماعون**، ليحذّر كلّ مؤمن من هذه الأوصاف. وقيل: الماعون ما يُعين الناسَ على مصالحهم كالفأس والطَّاس والإبرة.

---

١ ن: للشيء.

٢ سورة الضحى، ٩٣/٩-١٠.

٣ ك: على أعمالهم.

فهؤلاء أفعالهم دلت على اعتقادهم فهم عن صلاتهم ساهون. وبضدهم من أخبر الله عنهم بقوله: وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا.[1] وأما الماعون في اللغة فهو فاعول من المَعْن وهو العطية. والتأويل على هذا أعم نفعا.

[1] سورة الإنسان، ٧٦/٨.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾

إنا أعطينٰك الكوثر، فَوْعَل من الكثرة، كالجوهر من الجَهْرَة. **فصل لربك**، شكرا له بالقول. **وانحر**، البُدْنَ كما أمرك[1] اتباعا لأبيك إبراهيم[2] شكرا بالفعل. ولا يريد صلاة العيد فقط، بل يُعلَم منه أن الصلاة قبل النحر في العيد.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾

إن شانئك هو الأبتر، أي لا أنت. والأبتر هو الذي لا عَقِبَ له. وكانوا يقولون عن النبي عليه السلام: هذا أبتر لا نسلَ له، وسينقطع أمرُه بانقطاع نسله، إذ ليس له من[3] يقوم مقامه بعده. فعرّفَه الله أنه أعطاه الكوثرَ من التُّباع الذين هم أولاد القلب لا أولاد الصُّلب. فإن ولد الصلب إذا لم يكن ولد القلب قيل له كما قيل لنوح: يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ.[4] فمن فَهِم ذلك علم أن الله تعالى أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم الكوثر مضافا إلى ما يتعلق به من فاطمةَ رضي الله عنها. وأما ما قيل من أن المراد بالكوثر نهر في الجنة، أو الكثرة من الخير الباقي فذلك جائز وصحيح، لأنه لا أكثرَ من خيره الباقي. وأما شانئه فهو أبتر من ذلك الخير بلا شك. وأما ما قيل من بقية التأويلات فإن ذلك محمول على اللفظ بدلالات بعيدة. وكل ما يجوّزه عقل ولا يخالفه نصٌّ فلا بأس به.

---

[1] ن: كما آمرك.

[2] يشير المؤلف رحمه الله إلى رؤيا إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده إسماعيل. انظر: سورة الصافات، ٣٨/١٠١-١٠٧.

[3] ن – من.

[4] ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ (سورة هود، ١١/٤٦).

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦﴾

قل يٰأيها الكٰفرون، نداء مطلق يعم كل كافر إلى يوم القيامة. ولا يعارَض باليهود، فإنه ما عبد الله مَن كفر برسله. والعبادة هي الطاعة، فغير المسلم غير عابدٍ لله بل لهواه. ومن عبد هواه لا يصح منه الإيمان بالله، فهو كافر. وذكر في أسباب النزول أن الكفار قالوا: يا محمد[1] اعبد ما نعبده سنة ونعبد ما تعبده سنةً.[2] فجاء الوحي بما معناه: **لا أعبد**، في المستقبل، **ما تعبدون**، في المستقبل؛ **ولا أنتم عٰبدون**، الآن، **ما أعبد**، في المستقبل؛ **ولا أنا عابد**، الآن، **ما عبدتم**، فيما مضى من الزمان؛ **ولا أنتم عٰبدون**، الآن، **ما أعبد**، في مستقبل الزمان. فلزم أن يقول بعده: **لكم دينكم ولى دين**. ومن تأمل هذا الكلام لم يجد فيه تكرارا بل وجده واجبا. وقد بسطْنا القولَ في بيانه بسطا كافيا. فمن أَشكل عليه في العبارة شيءٌ فَلْيَعُدْ به إلى الأصل، وهو ما قررناه / هىنا. [٥١٢ظ]

ومن أراد فهم حكمة هذه العبارة هىنا فليتأمل ما بسطناه في بيانها. فنقول: قوله: **لا أعبد**، أولا[3] أولى بالدلالة على الاستقبال؛[4] وقوله: **ولا أنا عابد**، أَولى بالدلالة على الحال.[5] فبدأ بالعبارة الأولى لينفي[6] أولا ما طلبه الكفارُ وما يتطرق إليه بعض الأذهان من أنه ربما يعبد في مستقبل الزمان. وبيّن بالعبارة الثانية نفي ما يحتمل وجوده الآن. فهذا معنى ما يتعلق به عليه السلام من قوله: **لا أعبد**، **ولا أنا عابد**. وأما قوله عنهم أولا: **ما تعبدون**، فهو أدل على المستبقل؛ وقوله عنهم ثانيا: **ما عبدتم**، دال على الماضي، فانتفى التكرار فيما يتعلق به عليه السلام. وظهر أن هذه العبارة على هذا الترتيب من أبلغ الفصاحة، لإيجابها بالنفي تنزية النبي عليه السلام عن عبادة معبوداتهم في المستقبل والحال،[7] والماضي[8] من الزمان.

---

١ ك ن: قالوا يا رسول الله.
٢ جامع البيان للطبري، ٢٤/٧٠٢، ٧٠٣.
٣ ن – أولا.
٤ ش: على الاستقبال.
٥ ش – وقوله ولا أنا عابد أولى بالدلالة على الحال.
٦ ش: ليبتلي.
٧ ك ن: أو الحال.
٨ ك ن: أو الماضي. وفي هامش ك: والحال والماضي.

وقد بقي علينا أن نبين الحكمة في تكرار الكلام عنهم وكونِه جاء بصورة واحدة، وهو قوله: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، خصوصا. وقد يَسْبِق إلى بعض الأذهان أن الأَولى أن يكون الكلام أولا عنهم محاذيا للكلام أولا عنه، أعني كما أنه قال أخيرا: **ولا أنا عابد، ولا أنتم عٰبدون**، كذلك كان يَحْسُن أولًا: **لا أعبد ما تعبدون**، ولا تعبدون ما أعبد. فلم يقل كذلك لأنه لم يرد الإخبار عنهم بأنهم لا يومنون في المستقبل بل الإيمان ممكن لهم. ولولا ذلك لَما خاطبهم. فلو قال عنهم كما قال عنه عليه السلام لاستلزَمَنا[1] عنهم في وصفهم بالكفر كما استلزَمَنا عنه في وصفه بالإيمان. لكنه قال عنه ما يدل على المستقبل والحال والماضي، وقال عنهم ما يدل على الحاضر والماضي فقط، فافهم ذلك.

وأما كونه كرر قوله عنهم أخيرا: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، وهو الذي أشكل في هذه السورة لا غيرُ. فتقديره ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عن هذا التقدير لئلا يُظن أنه عبد في الماضي غيرَ ما هو عابد في الحاضر والاستقبال. وليعلم[2] أن معبوده واحد كيف تصرفتْ به الحال، ودل على ما قدرناه بما قبله فاستغنى بذكر الماضي المنسوب إليهم، وهو قوله: **ما عبدتم**، عن أن يذكر الماضي المنسوب إليه الذي تقديره ما عبدتُ. وعدل عنه إلى قوله: **ما أعبد**. فلمّا تكرر اللفظ بعينه أشكل وصار كاللُّغز الذي إنما يدركه اللبيب الحَسَنُ الظنِّ بالمتكلم، فيقول: لم يكرِّرْ هذا إلا لحكمة، فيجد ما قلنا. وقد كررناه أيضا فيما يأتي ليتضح.

فإن أشكل عليك فبيانه أنه[3] لمّا كانت حالتهم واحدة في الحاضر والماضي جاءت العبارة عنهم بصورة واحدة تدل على حالة واحدة، ولكن في زمانين. ولهذا لم يتكرر هذا المكرَّر في موضع واحد، أعني متتابعا فيقول: ولا أنتم عابدون ولا أنتم عابدون،[4] بل جعل بين الأول والثاني كلاما يدل على الحاضر وهو قوله: **ولا أنا عابد**. فلم يبق مدلول عليه بالثاني إلا الزمن الماضي فبيّنه بقوله: **ما عبدتم**. فافهم متأنيا. وبدأ بما[5] يتعلق بالنبي عليه السلام للاهتمام به، فلزم أن يبقى ما يتعلق بهم أخيرا.

واعلم أن قوله أولا: **لا أعبد ما تعبدون**، هو نفي مقطوع به، أي إن هذا لا يكون مني أبدا بوجه، وهو ما قررنا أنه دال على الاستقبال. ثم أخبر في بقية السورة عنهم وعنه

---

١ ك: لا يستلزمنا. وفي هامش ك: لاستلزمنا.
٢ ش ك: ويعلم.
٣ ن: أنهم.
٤ ش ك – ولا أنتم عابدون.
٥ ن: وبدأ ما.

بصورة الإخبار في الحاضر والماضي لا بصورة الجزم. ولهذا غيّر العبارة في المواضع الثلاث فقال: أنتم وأنا وأنتم. وجعل الكلام عنهم بصورة واحدة في موضعين، وقرنه بزمانين من ماض وحاضر. فعادت هذه / الجملة يُفهَم منها عابدان ومعبودان، وزمانان [٥١٣و] ونفيان وإثباتان. فلهذا ختم بقوله: **لكم دينكم ولى دين**. وباب التوبة مفتوح، والتمكين حاصل،[١] والحجة لازمة. ففي الإعلام لهم بذلك فائدة. ولو لم يكن كذلك لَمَا أعلمهم بل كان أعلم نبيه عليه السلام كما جاء في جميع القرآن من طبع القلوب، كقوله: سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ، في أول البقرة[٢] وأول يسٓ[٣] يخاطب الغير عنهم ولا يخاطبهم. ويجب أن تعلم أن التقابل في اللفظ يعطي، **لا أعبد ما تعبدون**، ولا تعبدون ما أعبد. فعدل عنه لئلا ينتفي منهم إمكان الإيمان. وكذلك كان التقابل يعطي، **ولا أنا عابد ما عبدتم**، ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عنه للإشعار بأن ما عبدت في الماضي هو ما أنا عابده الآن، وهو ما أعبده في الاستقبال، ليتضح أن معبوده واحد كيف تصرفت به الحال. فقد تحققتْ أنه عدل عن التقابل الأول من أجلهم، وعن التقابل الثاني من أجله عليه السلام. ومن فَقِه أن الجملة التي يمكن أن تضاف إلى النبي عليه السلام وإلى الكافرين ثمانيةَ عشرَ صورة، لكل منهما تسعُ صورٍ؛ وأن الله تعالى ذكر من الجملة ثلاث صور، فأغنى ذكرها عن الباقي تَحقّق أن هذا الكلام معجز وأنه كلام الله تعالى. والتسع هي لا أعبد ما تعبدون، ولا ما أنتم عابدون، ولا ما عبدتم. وفي قوله: **ولا أنا عابد**، مثله؛ وفي ولا عبدت مثله. ومثل هذه التسع تُنتسب[٤] إليهم، فافهم.

وأمّا ما نسبه بعض جُهّال الكفرة إلى هذا الكلام من الركاكة لجهله وسوءِ فهمه واعتقادِه تكرارَ ما لا فائدة في تكراره، وكونِه لم يأت على صورة التقابل الممكن[٥] لفظا. فقد انحل بحمد الله تعالى، ثم نزيده بما نقول. اعلم أن الألفاظ خُدَّم للمعاني، فلا يجوز للبليغ أن يتقيد بالمناسبات اللفظية إلا إن اتفقت له بعد الأغراض المعنوية، كقول الشاعر:

ونُنكر إن شئنا على الناس قولَهم ... ولا ينكرون القولَ حين نقول.[٦]

١ ش: صالح.

٢ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٦/٢).

٣ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة يسٓ، ١٠/٣٦).

٤ ن: ينتسب.

٥ ن: الممكنة.

٦ انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢٧١/٢.

ولو راعى المقابلة اللفظية لقال:

وحين يقول الناس ننكر قولَهم ‏ ‏ ‏ ‏ ولا ينكرون القول حين نقول.

ولكنه استرسل ورمى بالكلام غير متعمِّل،[١] فاستخدم الألفاظ للمعاني ولم يشوِّش المعاني لمناسبة الألفاظ.

وأما قوله: "ما تعبدون" في جميع السورة بلفظ "ما"، لأنه بدأ بما للعموم الذي معناه: لا أعبد ما تعبدون من أصنام وأوثان وعيسى. فلم يقل: "مَن" لأنها تخصِّص من يعقل. فلمّا قال بعده: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، قابل الأول بالثاني، فحمل الثاني عليه ليتقابل ولا يتنافر. وجاز ذلك لكون لفظة "ما" أعمَّ. وأما كون اللفظ جاء بألين النكير مع كونه من أفحش القبيح إذ لا أصعبَ من قوله: **يٰأيها الكٰفرون**، فذلك من أبلغ ما يعطي المقصود، لأنه إذا كان المنهي عنه ظاهر القبح في العقول كفى فيه أدنى تنبيه، لأنه ثابت في العقول قبحُه ثبوتَ مَا لا يحتاج إلى زيادة من الغير. وهذا ضربٌ من البلاغة عجيب يفهمه كلُّ عاقل له أدنى فطنةٍ، ويعلم موقعه في الحكمة.

فهذا ما فتح الله به في فهم هذه السورة. وقد قال بعضهم في قوله: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، وهي الأخيرة: إن المراد ما معناه: ولا أنتم عابدون، ينفي عنهم أن يكونوا عبّادا. ثم قال: "ما" بمعنى أيِّ شيء أعبد. واستدل بقوله تعالى عنهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾.[٢] وهذا مما يُحمل على اللفظ وليس بشيء. وإذا فهمت ما قد بسطناه وتأملت ما أوّلًا / أصّلناه وجدته بيّنا إن شاء الله. [٥١٣ظ]

[تفصيل في تفسير سورة الكافرون]

وأوصيك بعد ذلك أن تفهم مما يتعلق بهذه السورة ثلاث صور لينحل لك بها ما عسى أن يُشكل عليك:

الصورة الأولى كون النفي جاء فيها عن النبي عليه السلام بكلمتين وهما **لا أعبد**، **ولا أنا عابد**، وعن الكفار بكلمة واحدة وهي، **ولا أنتم عٰبدون**. ثم كررها أخيرا. فلمّا رتّب اللفظ ترتيبا مخصوصا عنه وعنهم ودل على ثلاثة أزمنة للنبي عليه السلام وهي الاستقبال والماضي والحال، ودل على زمانين من جهتهم وهما الحال والماضي فقط،

---

١ أي غير متكلف.

٢ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٣-٧٤).

وقد كان يقع في الفهم أن النفي بكلمتين يعطي زمانين، وبكلمة واحدة يعطي زمانا واحدا ولو تكررت الكلمة مرارا. فكونه رتّب على صورة من الترتيب أنتج خمسة، وأعطى أحد الخصمين منها ثلاثةً. فهذا من أتم البلاغة وأبلغ الإعجاز لمن تأمل.

والصورة الثانية هي أن تعلم أن النفي عنه عليه السلام بأنه لا يعبد ما يعبدون[١] لا يلزم[٢] منه أنهم لا يعبدون ما يعبد. فلزم أن ينفي عنهم ما أراد نفْيَه عنهم من وصفه كما لزم أن ينفي عنه ما أراد نفْيَه عنه[٣] من وصفهم. فلهذا بان في الكلام صورة التكرار وليس بتكرار إذا بانت لك فائدته وصح وجوبُه كما قد بان الآن.

والصورة الثالثة هي أن تعلم أن للمعارِض أن يقول: قد قرَّرتَ في الأصل أن قوله: **لا أعبد ما تعبدون**، معناه لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل. وكيف لا يُعبد في المستقبل ما يَعبدون مع جواز إسلامهم كما ادعيت وأثبته لهم وفتحت باب إمكان[٤] وقوعه منهم، وجعلت ذلك من جملة الإعجاز يكون الكلام عنهم دل على ماض وحاضر دون مستقبل، فهذا تناقضٌ ظاهر من كلامك لكلامك؟ فالجواب أن هذا الحكم مبني على ما تقدم من قوله: **يٰأيها الكٰفرون**، فمن أسلم لم يكن الكلامُ عنه ولا يقال[٥] حينئذ: النبي عبد ما يعبد الكافر، بل الكافر عبد ما يعبد النبي فأسلم. فافقه هذا جيدا.[٦] فلهذا قلنا: إن قوله: **لا أعبد ما تعبدون**، قولٌ مبتوت مقطوع به لا يُمكن تغييره. وإن بقية الكلام عنه وعنهم جاء على صورة الإخبار بما بدأ، وهو بادٍ منه ومنهم.[٧] فاستوعب عنهما الماضي والحال بصورة واحدة من النفي. وبقي المستقبل على حاله من جهتهم يُمكن وقوعُ الإيمان منهم فيه إن شاءوا. ولولا ذلك لكان النبي عليه السلام محجوجا منهم[٨] بما معناه. إن ربك يقول لك: قل لهم: إنهم لا يمكن منهم الإيمان. فكيف تَطلبه منا وأنت تعلم صدقَه، وكيف يطلبه ربك منا ولا يُمكن وقوعه منا، وكيف يعاقبنا على تركه ولم يجعل لنا سبيلا إلى فعله بدليل ما قد قلتَه عنه؟ فبطل هذا كله ومثلُه بما قلناه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبعدَ جميع ما سمعته فاعلم أن في القرآن ما ظهر حكمه عند تلاوته، وفيه ما خفي فبينته السنة. وفيه ما ورد في السنة مجملا كما ورد في الكتاب، لكنه بيّنه

---

١ ش: ما تعبدون.
٢ ك ن: لا يلزمهم.
٣ ك: أن ينفي عنهم ما أراد نفيه عنهم.
٤ ك - إمكان، صح هـ.
٥ ش: فلا يقال.
٦ ن + جيدا.
٧ ش: منهم ومنه.
٨ ك ن - منهم.

فعل النبي عليه السلام والصحابة فتُلُقِّيَ احتذاء معلوما. وفيه ما هو كذلك وهو باقٍ لم يُفهم بل هو بمنزلة النُّطَف، ولم يظهر بيانه إلى حين، فإذا ظهر كان حكم ظهوره حكمَ تخطيط[1] الصُّوَر. فلا يقال: إن الخطاب به كان عديم الفائدة، لأنه أفاد تدريج حكمة التنزيل، وتحصيل بركة التلاوة، وتحقيقَ الإعجاز البالغ في لفظٍ / تَداولته الألسن، [٥١٤و] وتفقهت في فهمه العقولُ من مئين من السنين. ثم ظهر منه بعد ذلك ما لا سبيل إلى جحد وجوبه من المعنى بلفظ لا أدلَّ عليه منه. ومن فوائد ذلك أن يتحقق الإيمان بصدق الرسول من معجزات الكتاب بعد وفاة[2] الرسول، كما تحقق الإيمان بصدق الكتاب من معجزات الرسول في حياة الرسول عليه السلام. وهو كما نبين في معنى هذه السورة، وهو أن تعلم أن قوله فيها: **عبدتم**، يريد به الاستقبال. والواو في قوله: **ولا أنتم**، واو الحال. فبهذا ينكشف سرُّ السورة.

ثم افهم أن العبارة بلفظ الماضي إذا أريد به المستقبل يفيد[3] تجديد ما لم يكن. وإيضاح ذلك أنه أراد الإخبار عنه أولا بما معناه: لا أريد أن أعبد ما تعبدون. ثم نفى عنهم عبادة معبوده الذي يحتمل أن يكون من جملة معبوداتهم حين الإخبار فقال: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، بمعنى أَنْ لو كنتم عابدين ما أعبد لكنت أعبد ما أنتم له عابدون. ثم بعد الإخبار عرّفهم ثانيا جملة ببقية السورة ما يتعلق به خاصة. وجعل ذكر ما يتعلق بهم كالشرط فقال: **ولا أنا عابد ما عبدتم**، في المستقبل من معبوداتٍ أُخَرَ. ثم ذكر الشرط وهو قوله: **ولا أنتم عٰبدون ما أعبد**، بمعنى لستُ بعابد ما عبدتم ما لم تعبدوا ما أعبد. فيلزم عن ذلك فإن عبدتم ما أعبد كنت أنا عابدا ما أنتم له عابدون، وأنا متبوع لا تابع. فقوله: **ما عبدتم**، هو بمعنى ما عبدتم قبلي سواء كان فيما مضى أو فيما سيأتي، لأن هذه العبارة تُستعمل فيهما. والمراد لا أكون تابعا لكم في عبادة معبود مّا في حين مّا، فلا أنا عابد ما أنتم عابدون ولا ما عبدتم ولا ما تعبدون. وجعل هناك شرطا فقال: حين لا أنتم عابدون ما أعبد. فجعل الواو في [قوله:] **ولا أنتم**، الأخيرةِ موضع حينٍ. فدل بحرف واحد على ثلاثة[4] أحرف إيجازا فصار[5] إعجازا، إذ عجز عن فهم هذا التكرار ما شاء الله من النظّار في سالف الأعمار. وإذا كان الإيجاز والإعجاز بحرف

---

[1] ن: تحطيط.

[2] ش ك: وفات.

[3] أي لفظ الماضي.

[4] ك ن: على ثلاث.

[5] ن: إيجازا فيما هو.

فذلك من أبلغ وصف، إذ معنى هذه السورة كان خَبْأ في الأفهام كالنطفة في الأرحام. فمن تصور فقد تصورها، ومن أظهره فقد أظهرها معجزةً من معجزات القرآن بمثلها يزداد الإيمان. ويجوز أن يقال: إن الواو في الموضعين بمعنى حين. فكأنه[١] قال: لا أعبد ما تبعدون حين لا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد، مهما عبدتم حين لا أنتم عابدون ما أعبد. فافقه هذا وافهم به ما قبله، والسلام.

١ ن: كأنه.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾

إذا جاء نصر الله، بأيدي المؤمنين على الأعداء الذين وعدناك بالانتصار عليهم. **والفتح**، فتح مكة. **ورأيت**، بعد ذلك، **الناس يدخلون فى دين الله أفواجا**، بغير قتال.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

فسبح بحمد ربك، إذ صدقك وعده. والتسبيح بالحمد هو أن يقول: الحمد لله. **واستغفره**، لِما مر بك من ضيق الصدر لتأخُرِ النصر الذي لم يؤخَّر إلا لحكمة. وتلك الحكمة من جملتها أن تُظهر الدعوة وتنتشر، ويتحقق الحق فيدخل الناس في دين الله أفواجا بغير قتال بل طوعا لا كرها، فيتوب عليهم. **إنه كان توابا**.

سورة تبت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

تبت يدا أبي لهب وتب، خَسِرتْ يداه ما كسبت من دنياه. وخسر هو نفسه وأهلَه يوم القيامة، / لأنهما ليسا من كسبه، فلهذا قال: **تبت، وتب**. ومنه قوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾،[1] أي خسران. **ما أغنىٰ عنه**، من عذاب الله له[2] بكسبه، **ماله وما كسب**، من الحسنات بزعمه، لأن الكفر أحبط ذلك. **سيصلى نارا ذات لهب**. ثم ذكر حال امرأته في الآخرة بما هو في باب المثال في الدنيا مما لو لم يكن في الآخرة إلا ذلك بعينه لكان كافيا. وهو قوله: **وامرأته حمالة الحطب**، له في جهنم. شبَّه مساعدتها له في الدنيا على كفره بمن يَحْطُب على ظهره، فصارت تلك المساعدة في الدنيا نارا في الآخرة، فكما أن مادّةَ النار الحطب فكذلك أعمالها في الدنيا تزيد[3] بعلها في الأخرى بمادة اللهب. وهذا فائدة قوله: **أبي لهب**. [٥١٤ظ]

ثم قال: **سيصلىٰ نارا ذات لهب**. ثم قال: **وامرأته حمالةَ الحطب**، الذي يَمدّ ذلك اللهبَ. ولم يقل: حاملة الحطب بل، **حمالة الحطب**، أي دَأْبُها في الآخرة هذا. وقوله: **في جيدها**، عنقها، **حبل من مسد**، أي تحمل به الحطب، وهو دليل على الثقل الذي لا يستطيع الحاطب حملَه إلا على ظهره بحبلٍ يُضطَرَ أن يجعله على عنقه من قُدّام. وهذا كله على صورة التمثيل لحالها في الآخرة بما يماثله من حال غيرها في الدنيا. ويقال: مَسَدْتُ الحبل إذا فتلتُه؛ فأراد أن ما تحمله إمرأته في الآخرة يكون عظيما، كما يكون الحطب الكثير الذي لا يُحمَل[4] إلا بحبل مفتول قويّ، وإلا إن كان غير مفتول وقد حَمل به ذلك الكثير انقطع. فهذا مراد الآية دون سائر ما قيل بغير دليل.

---

١ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (سورة هود، ١٠١/١١).

٢ ك – له.

٣ ش ك: نزيد.

٤ ش: لا يتحمل.

وأما ما ذكره بعضُ الملاحدة وعارض به القرآنَ من أن الله أخبر عن أبي لهب أنه لا يؤمن، وطلب منه الإيمان فقد وجب عليه أن يؤمن بأنه لا يؤمن، وذلك لا يصح. فهذا القائل لم يفقه ما قال إذا لزم بغير لازم. وجوابه أن الله أخبر أبا لهب أنه إن[1] لم يؤمن دخل النار، وعليه أن يعتقد أنه إن لم يؤمن دخل النار، وهذا الإخبار عام لأبي لهب وبقية الكفار. ولمّا خصص الله أبا لهب بالإخبار عنه أنه لا يؤمن كان نفيُ الإيمان عنه نفيا عاما فهو لا يؤمن، ولا يؤمن أنه لا يؤمن. فنفيُ الكل -وهو ما أخبر الله عنه- نفيُ للجزء وهو ما زعم الخصم أنه مطلوب منه. فلو كان ممن يؤمن لم يخبر الله عنه أنه لا يؤمن. ولو انتفى أنه لا يؤمن انتفى أنه لا يؤمن بأنه لا يؤمن، ولكان يلزم أنه يؤمن وأنه[2] يؤمن بأنه يؤمن كما يلزم في عكسه. فافهم.

ثم نقول: إن الله تعالى أخبر عما علمه من أبي لهب، وهو أنه لا يؤمن مع قدرته على أن يؤمن، وطالبَه بما في قدرته هو لا بما في علمه سبحانه، إذ لو جاء بما في علم البارئ لا بما في قدرته هو لم يفده ذلك، لأن المطلوب منه بالأمر ليس ما في العلم بل ما في القدرة المخلوقة لأبي لهب. ولهذا كلّفه وعرّفه بقوله: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا،[3] أنه بنفس تكليفه له قد مكّنه مما كلّفه وآتاه قدرةً عليه. ولولا ذلك لَمَا أثابه عليه ولا فوّض أمره في الإيمان والكفر إليه. وإذ قد صح أنه تعالى لم يطلب منه ما في العلم بل ما في القدرة صح عنه أنه[4] إذا أتى بغير المطلوب فإنه المطلوب وهو غايته. فأخبر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بفوات غاية أبي لهب وطلبَ من أبي لهب ما في قدرة أبي لهب. فظن الظانُّ أنه تعالى أخبر أبا لهب بما في علمه، وأنه مع ذلك كلّفه خلافه، وليس كذلك بل أخبر نبيه بحال عدوه، / كقوله لنوح عليه السلام: أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ.[5] فهذا إعلام [515و]
للرسول لئلا ينتظر إيمان الغير، وإعلامٌ لمن آمن ليقطع رجاءَه من أقاربه الكفارِ ويقطع بأن لهم النارَ، ويزدادَ إيمانه بما يراه من صدق الإخبار ويَسقطَ عن النبي في حق هؤلاء المقطوع لهم بالنار ما كُلّفه الرسول من التذكير والإنذار. وعن هذا الفريق قال تعالى: سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ،[6] وإليه الإشارة بقوله: فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ،[7] فافهمه جيدا.

١ ن – إن.
٢ ش – أنه.
٣ سورة الطلاق، ٧/٦٥.
٤ ش – أنه.
٥ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة هود، ٣٦/١١).
٦ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٦/٢). وانظر أيضا: سورة يس، ١٠/٣٦.
٧ سورة الأعلى، ٩/٨٧.

واعلم أنه يقال: زيد لا يمكن أن يصوم، أي مع قدرته على الصوم؛ ويقال: زيد لا يمكنه أن يصوم، أي لعجزه، فافهم الفرق بين الإمكان والتمكين. فنقول: أبو لهب علم الله منه أنه لا يؤمن لسوء اختياره مع قدرته فهو لا يمكن أن يؤمن؛ وإنما أمره لأنه يمكنه أن يؤمن فلزمته الحجة لأجْل التمكين. ولا يكون مجبَرا لانتفاء الإمكان، لأن انتفاء الإمكان إنما وقع لاختياره لنفسه مع قدرته التي وجب وجودها له لكونه أُمر ونُهي. فافهم جيدا.

ثم يجب أن تعلم أن إيمان أبي لهب بأنه لا يؤمن بالقرآن أمر واقع منه، لأن أبا لهب يعتقد أن إيمانه بالقرآن كفرٌ، وأبو لهب جازم بأنه لا يكفر فهو مؤمن بأنه لا يؤمن بالقرآن أبدا. وهذه صفة كل مؤمن قائم بدينٍ سواء كان على حق أو باطل إذا لم يكن شاكًا. فليس المطلوب منه نفسَ الإيمان فقط بل الإيمان بالله، لأن الإيمان بالجِبْت والطاغوتِ موجود للكافر، كما أن المؤمن بالله كافر بالجبت. فلمّا لم يكن إيمان أبي لهب بأنه لا يؤمن نافعا له لم يكن مطلوبا منه فغلط الخصمُ، إذ استلزم من كون أبي لهب مطالَبا بالإيمان بالله أن يكون مطالبا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن وأن ذلك الإيمان ينفع أبا لهب.[1] ولا شك أن أبا لهب لو آمن بأنه لا يؤمن لكان هذا الإيمان منه اعترافا بالكفر، واعترافه بالكفر لا ينفعه. وإنما ينفعه الانتقالُ عما اعترف به. ومثال ذلك لو قال السيد لعبده: أريد أن تصدقني، وقد أخبرتك أنك لا تقصدّقني فصدِّقْني أنك لا تصدقني، فجاوبه العبد بأن قال: صدّقتُك في أنني لا أصدقك لكان هذا التصديق من العبد اعترافا منه بأنه مكذِّب للسيد وخارج عن إرادته الأُولى من العبد. وقد سميناه تصديقا لكنه ليس بنافع للعبد ولا مرادا أوّلا للسيد، ولكونه مرادا ثانيا للسيد، وقع الاشتباه. ومنه استلزم الخصم أن يكون أبو لهب مؤمنا غير مؤمن، فقال: كيف يصح؟ ولا شك أنه يصح كما قدمناه ههنا ولكنه غير نافع، لأن أبا لهب[2] لم يؤمن إلا بأنه لم يؤمن، فافهمه فقد أوضحناه. وهذا على تقدير أنه وقع من أبي لهب، لكنه لم يقع منه سوى أنه لم يؤمن أولا بالله ولم يؤمن ثانيا بما أخبره الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

١ ش: أبي لهب.

٢ ش: أبي لهب.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

قل هو الله، كما تقول: "هو هذا" تشير إلى درهم مثلا ليس معك غيره، وهو كقوله: هِىَ عَصَاىَ.[1] فهذا فائدة قوله: هو. فلهذا لم يقل: قل[2] الله أحد. ولم يقل ههنا: واحد، لأن الواحد أصل العدد، فله ثان إلا إذا تميز بصفة أخرى، كقوله: ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ.[3] ولو قلت: ما في الدار واحد لاحتمل أن يكون فيها اثنان؛ فإن قلت: ما في الدار أحد لزم أن ليس فيها ولا واحد.

قوله: الله الصمد، استعارة للتعريف، لأن الصمد هو الذي لا جوف له، فذكره ليصح التوصلُ إلى / المقصود من قوله بعده: لم يلد ولم يولد. ولهذا بعده: ولم يكن له كفوًا، نظيرا، أحدٌ، وهو اسم "كان". ولا شك أن الأزواج أكفاءُ أزواجهن. فإذا لم يكن له كفوا أحد كيف يكون له ولد! وهذا كقوله: أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ.[4] وأما قوله: ولم يولد، فهو إشارة إلى من ادعى أن الله هو المسيح مع اعترافه أنه وُلد. وفيه تعريف بأنه تعالى لم يتقدمه غيره ولم يكن عدما، لأن المعدوم لا يوجد نفسَه؛ ولا يقال: من جَعَله صمدا، بمعنى لا جوف له، فقد جعله نظيرا للأجسام. فقد صح أن الله تعالى ضرب الأمثال لنفسه وتنزه عن المِثْل، فهذا ظاهر الكلام. ويفهم من قوله: الله الصمد، أنه ليس وعاء العالم. ولا يناقضه [قوله:] قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا.[5] فإحاطته علما -وإن كانت ممثَّلةً لنا بإحاطتنا علما بمعلوماتنا- فهي منزهة عن المثل وإن دخلت في باب التمثيل للتفهيم. ولهذا بعده: لم يلد ولم يولد. وحقق الجميع بقوله: ولم يكن له كفوا أحد. فلو كان علمنا كعلمه لكُنّا له أكفاء في العلم، [٥١٥ظ]

---

١ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ (سورة طه، ٢٠/١٧-١٨).

٢ ش + هو.

٣ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ (سورة ص، ٣٨/٦٥). وانظر أيضا: سورة الزمر، ٣٩/٤؛ وسورة المؤمن، ٤٠/١٦.

٤ سورة الأنعام، ٦/١٠١.

٥ ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/١٢).

وكذلك في كل وصف، وقد انتفى[1] ذلك، فيجب أن يكون انتفاء مطلقا عاما بكل صورة واعتبارٍ ليكون هو العلي العظيمَ وحده. فيصحّ في أفهامنا أنه أحد.

وإيضاحه أن الأحد لا تركيب فيه ولا عددَ. فلو كان معدودا لتكثّر، ولو كان مركبا لَتحلّل.[2] وفي الواحد العددي عبرةٌ للمستبصر. وذلك أن الواحد إذا ذُكر لم يكن معه غيره، فلا وجودَ ولا ذِكْرَ إلا واحد. فإذا ذُكر[3] ثانيا لم يكن مع الواحد غيرُه بل هو مع غيره، فافقه. فإن اعترضتْ قلةُ الفهم فقل: إن الواحد لا عددَ فيه، وإنما العدد بعده، فلو انعدم العدد لم ينعدم الواحد. ولو فرضنا عدم الواحد لانعدم العدد.[4] فما كان وجوده بالتركيب أمكن تحليله فانعدم، وما لا تركيب فيه ولا وجودُه بغيره لم يمكن انعدامه. فالواحد مع العدد وليس العدد مع الواحد بل به، لأن الواحد شفع العدد. فأخرَجه عنه بصورة وأوتَرَه فأعاده إليه بصورة أخرى. ولمّا كَمُلت وِتْرِيّةُ التسعة لكونها ثلاثَ ثلاثاتٍ، ثم رُدّ عليها أصلها، أعني الواحدَ وحّدها فصارت عشرةً[5] واحدةً من مائة. وكذلك تجد الواحد يوحِّد الجملَ، كما إذا جعلت المائةَ ثلاثةً ثلاثةً بقي الواحد. فإذا أضفته إلى التسعة وتسعين وحَّد الجملةَ فصارت مائة واحدةً من ألفٍ. وكذلك الألف وما بعدها من عشرة آلافٍ[6] ومائةِ ألفٍ وألفِ ألفٍ. فلو حَلَلْتَ ما ركّبت لبقي الواحد الذي لا تركيب فيه. فقد بان أن العدد لا ينفكّ عن الواحد، ولا غِنَى له عنه، ولا قيام له إلا به لا في شفعه ولا في وتره، وهو في أوله[7] وآخره، وجزءه وكله، لا غُنْية له عنه. ومع هذا فالواحد غني عن العدد كله منفصلٌ عنه. ولا حاجة له بشيء منه، فالكل مفتقر إليه، وهو غنيّ عن الكل بأحديته، وبه كان ما سواه وليس هو بسواه. فهو في الكل ظاهر بالكل للكل، باطن عن الكل للكل[8] بأوليته، منفصلٌ عن الكل باستغنائه عن الكل، متصلٌ بالكل بفعله في الكل، منزهٌ عن الكل بأزليته السابقة للكل.

ولهذا إذا تأملت الواحد وجدته ماسكا للكل بالوحدانية، فيه قامت المعدودات وتألفت المتباينات، كبدن الإنسان الواحد وكالعضو الواحد من بدن الإنسان. فلو قُسِّم الإنسان أعضاءً لذهب الإنسانُ. ولو قسم العضو الواحد منه كاليد عظاما لذهبت اليد.

---

١ ن: قد انتفى.
٢ ك ن: فتحلل.
٣ ش: ذكرت.
٤ ش – لم ينعدم الواحد ولو فرضنا عدم الواحد لانعدم العدد.
٥ ن – فصارت عشرة.
٦ ن: الألف.
٧ ك – وهو في أوله، صح هـ.
٨ ن + إلا.

وكذلك العَظْم الواحد من اليد فلو قدِّر جَمْعه وإعادتُه إلى وحدته لعاد عظما واحدا. فإن جمعته بما فرّقتَه صار يدا واحدة. فإن جمعتها بما / فرقته عنها صار ذلك إنسانا [٥١٦و] واحدا، فلم يظهر وجوده ولم يستقم[١] أمرُه حتى عاد واحدا. وكذلك البحر لو فصِّل قطرة قطرةً، وكذلك السماء والعالَم. فبالأحدية القائمة بالأحد تماسك الكل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾،[٢] فمن[٣] جعل الواحد متحيزا في العدد فقد حصره في العدد، ومن جعله خارجا عن العدد فقد فصّله عن العدد. ولو انفصل عن العدد لم يكن العدد عددا، ولو اتصل به العدد لم يكن الأحد الأحدَ. فالأحد سبحانه متصل بكل شيء ولا شيء متصل به. فقُرْبه من الأشياء لا يلزم عنه قرب الأشياء منه. بل هو القريب وحده. بل الأقرب منهم إليه[٤] وبُعدهم عنه يختلف كاختلاف ما لطف وكثُف من الأجسام. فإن الماء لمّا ماع ولطُف عن كثافة الأرض علا عليها، والهواءُ ألطف فهو فوقه،[٥] والنار ألطف فهي فوقه، والسماء ألطف فهي فوقها. وكل ما لطف علا حتى يصلَ إلى الملائكة والروحانيين[٦] الذين يَخرِقون السماوات كما يخرق النور الزجاجةَ في طرفةٍ[٧] إلى الأرض فلا يتصور منهم بُعد. وإذا فهمت ذلك فانظر إلى قرب اللطيف العظيم مع بُعد ما سواه عنه. ولا تعتقدْ أن سَرَيان وحدته في الأشياء هي سريان أحديته، فأحديته منزهة عن سواه وإن كانت مَاسِكَة للكل كما قدمنا. وبهذه الوحدة نقول: إنه يدرك جريان الغذاء في عروق النملة وما فوق السماوات وتحت الأرضين إدراكا واحدا في زمن واحد، ماضيه ومستقبله حاضرٌ، ومع هذا القرب فبُعد العرش منه كبعد النملة عنه من جهة هويته. وقربُ كل شيء منه بمقدار انتسابه إلى صفاته.

واعلم أن كل صفة له سبحانه فيها كل صفة له سبحانه؛[٨] ففي العلم القدرةُ وفي القدرة العلمُ، وكذلك الكل في الكل. ولهذا إذا ذكرت له اسما لزم عنه بقية الأسماء، لأن في كلِّ اسم كلَّ اسم. والعقول لا تدرك[٩] من أسمائه مسماها، لأن العقول محاطة والأسماء محيطة ثابتة بأحديتها، لأن علم البارئ محيط بالشيء حالَ عدمه كإحاطته به حال وجوده لا يتغير. ولهذا باين [عن] علم المخلوق ولم يدخل في المعقول،

١ ش: لم يستقم.
٢ سورة فاطر، ٤١/٣٥.
٣ ن: لمن.
٤ ش: إليهم منهم؛ ن: منهم إليهم.
٥ ن – فهو فوقه، صح هـ.
٦ ن: والروحانين.
٧ ن: في طريقة.
٨ ك – سبحانه.
٩ ن: لا تدركه.

لأنه سبحانه يكلم الأشياء في وجود علمه فتجيبه بامتثال أمره في حال عدمها، والعلم غير المعلوم. ولو كان المعلوم موجودا في العلم لكونه معلوما لكان كائنا. ولو كان كائنا لم يقل له: "كن".

فإن قيل: نَقَلَه وسمى هذا النقل إبداعا وإيجادا وخلقا؟[1] فنقول: لا يخلو إما أن يكون المنقول قديما أو محدَثا. فإن كان محدثا سقط الخلاف. وإن كان قديما فالقديم لا يكون بغيره بل بذاته. والقديم بذاته وجودُه واجب ولا يحتاج إلى نقل ولا إلى ناقل. وقد قلتم: "نَقَلَه" فهو [إذن] محتاج فانتفى قدمه فثبت عدمُه. فإن قلتم: هو معه كالظل مع الصورة، فقد جعلتموه مساويا لفعله، وحصرتموه في متحيِّز من الظن، والتزمتم أنه علة لمعلول.[2] والمعلول لم يصدر عن العلة إلا لضرورة في العلة إلى المعلول لا تقدر على الانفراد بنفسها عنه. والعلة مساوية في الضرورة[3] من كل واحد منهما إلى الآخر. والبُطْل متطرِّق على هذه الدعوى عندكم بما لا مردّ له. فإن قلتم: هو كالنور عن الشمس. كان الجواب ما تقدم ونزيد عليه أن نور الشمس مكمِّل لها. فلو فرضنا عدمه لم تكن هي أو لزم عدمُها. بخلاف / ما لو فرضنا عدم العالم فإنه لا ينعدم البارئ [٥١٦ظ]
سبحانه وتعالى كما قدمنا أولا في التمثيل بالعدد. فهذا ومثله لازم من قوله: هو الله أحد. ومرادنا بهذا الكلام وجوب اتباع محمد عليه السلام.

وتلخيصه نظر الروح من ثُقَبٍ[4] خمس، فأدرك صنعةً فأراد أن يصنع مثلها فعجز فعلم أنه منها. فتحقق أن للكل صانعا تقدم. فلزم أن المحدَث لا يكون قديما لا في ذات ولا في صفة؛ فانتفى الشريك فوجب أن الخلق مباين للخالق، فقضى أن لا وجود لشيء معه، ولا مثل له فصح أنه أحد. ففهم أن قدرته محيطة بجميع المقدورات، وعلْمَه بجميع المعلومات، فباين بين الخالق والخلق فلزمته الطاعة، فالتزم الروحُ بالعلم والجسم بالعمل. فافهم واعمل. واعلم أن وضع اليدين عند التكبير في الصلاة تبرّكٌ بقولك: "الله أكبر" كما تفعل بيديك عند قراءة هذه السورة تبركا بها. وأما رفع اليدين فهو ترك الأشياء المكتسَبة باليدين ورفعُهما عن كل عمل. فالرفع تركٌ والوضع تبرّك.

---

[1] ك ن: أو خلقا.

[2] ن: المعلول.

[3] ك ن: إلى الضرورة.

[4] الثُّقْبة: ج: ثُقَب وثُقَب: الثُّقْب الصغير (المنجد لِلُوِيس المَعْلُوف، «ثقب»).

ولمّا كانت سورة الكافرين ردا على المشركين جاءت سورة الإخلاص ردا على من قال: عزير ابن الله والمسيح ابن الله.[١] ولزم من مفهومها الردُّ على كل ملحد من الفلاسفة والنصيرية[٢] والحلولية[٣] وأمثالهم ممن يَدّعي أن الله هو الكل. وقد بيّنّا فيما تقدم بطلانَ ذلك كله. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣٠).

٢ النصيرية: هذه النسبة لطائفة من غلاة الشيعة، يقال لهم النصيرية. وهم من أصحاب محمد بن نصير النميري. كانوا يزعمون أن عليا هو الله، يعني أن الله حلّ في علي. وهؤلاء شر الشيعة (الأنساب للسمعاني، ٥/٤٩٨-٤٩٩؛ ودائرة المعارف للأعلمي الحائري، «النصرية»).

٣ الحلولية: مذهب الحلول. مذهب يقول بأن الله حالّ في الكون أو في النفس البشرية (المورد لمنير البعلبكي، «الحلولية»).

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾

قل أعوذ برب الفلق، "الفَلْق" الفرق والشقّ لكل شيء. فلقه الله سبحانه فهو صاحب الفَلْق وحرّك للوِزان. ومنه قوله تعالى: فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ، فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ.[1] والله سبحانه يَفْلِق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون،[2] والأرحام عن المولود، والبَيْضة عن الفَرْخ، والقلوب عن المعارف. ولمّا قال: **من شر ما خلق**، وهو عام خصص من العام ما هو أشد في الضرر تنبيها على وجوب شدة الحذر مما ذكر. ثم بيّن ونبّه بتكرير الاستعاذة[3] وتخصيص شيء بعد شيء بالتسمية له لعظم شره، وحصر الأصولَ لتُعلَم بها الفروع. وفي هذه السورة المستعاذُ به اسم واحدٌ، والمستعاذ منه أربعة، أول ذلك ما دل على العموم، فبقي المستعاذ منه ثلاثةً. وأما في السورة التالية فإنه استعاذ بثلاثة أسماءٍ من شيء واحد تنبيها على عظم شره، لأن كل مصيبة ومعصية إنما تَحدث من بعد الوسوسة، فهي أول ما منه الشر، فجعلها آخِرَ ما ختم به الذكرَ، لأن آخر الكلام يبقى في الأفهام. فانظر ما أعظم هذا التحذير وما أتم هذا التحريرَ!

ولا يلزم أن تكون هذه الاستعاذة[4] ههنا مخصَّصة بشيء، أعني من شر السِّباع والحيّات، بل من شر ما خلق الله سبحانه. فإن الغذاء النافع الطيّب الحلالَ لو أكل منه الآكل فضلةً لأوقعه في شر. فالاستعاذة إنما هي من كل شر هو بالنسبة إلى المستعيذ شرٌّ وإن كان في نفسه خيرا. وهذا، أعني قوله: **من شر ما خلق**، يدل على أنه تعالى خلق أصحاب الشر أشرارا وإن كان فيهم الخيرُ من وجه آخر، كما قد يكون ذلك الشر خيرا بالنسبة إلى آخر. وهذا لا يبطل الحكمة، لأن الحكمة في الانتقام من العُصَاة

---

١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٥-٩٦).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يقصد بكلمة "عن" "السبب"، مثل: يَفْلِق الأرض لخروج النبات، ويفلق الجبال لأن تخرج المياه.

٣ ك ن: الاستعارة.

٤ ك ن: الاستعارة.

تقتضي خلْقَ أُولي الشر، ولا يصح إلا كذلك. ولهذا قيل: ذَلّ من ليس له سفيه يَعْضُده، وضل من ليس له حكيم يُرشده. فقد عاد الشر من الشرير خيرا لغيره وإن كان شرا لنفسه، لأنه -أعني الشر- إذا وقع على المؤمن لا يكون إلا تكفيرا أو ابتلاءً. ولهذا
[٥١٧و] / علمنا الله ما معناه: إذا اكتسبتم ما تستحقون به الشر الواقع عليكم من إنسان، أو حيّة أو غير ذلك فاستعيذوا بي وإني[١] أعيذكم وأَحرُزكم من شره الذي إنما تستحقونه بما قدمت أيديكم. وهذه أيضا فائدة الدعاء.

وقوله: **ومن شر غاسق**، هو ما يظهر في الغسق، أعني الظلمة. وهذه الظلمة لا تَفهم[٢] منها ظلمة الليل فقط وأن الغاسق هو الكوكب ذو الأثر، بل يجب أن تعلم أن الظلمة تنقسم إلى قسمين أوّلين، أحدهما ظلمة العدم، والآخر ظلمة الوجود. وظلمة[٣] الوجود تنقسم إلى قسمين. أحدهما ظلمة الليل، والغاسق ههنا كلّ طارق يُطرق فيه. والقسم الآخر ينقسم إلى أقسام كثيرة باعتبارات شَتَّى، كظلمة السرداب[٤] وما غاب عنه النور، ويدخل في ذلك كل حية في ظلمات الأرض وحيوانٍ مختَفٍ تحتها أو فوقها. وكذلك قُوَى العقاقير[٥] وغير ذلك، كالجنين في بطن أمه والنار في الزَّنْد. وينضاف إلى ذلك ما غاب عن الإنسان علمُه سواء كان ذلك عن غفلة، أو سهوٍ، أو اشتغالٍ حتى الصمتُ الذي يكون بعده نطق، فالنطق كان غاسقا ثم وقب، فكل هذه الظُّلَم كان فيها غاسقا ثم وقب. فانظر إلى محتملات ما يلزم من[٦] قوله: **غاسق**، أي ما لم يظهر. فإذا ظهر إلى الوجود ظاهرا، أو إلى وجود الإنسان، أو عن الإنسان فكل واحد من ذلك يحتمل أن يكون كلُّه شرا أو بعضُه. فجاء اللفظ مطلقا مُنَكَّرا ليحتمل كل صورة ربما وقعت في الوجود، أو جاز احتمالها في الذهن.

ولهذا قال بعضهم: المراد ما يتعلق بالإنسان مما هو من فعله وكسبه، وما يدخل من الدواعي إلى قلبه، سواء كان من نفسه لنفسه أو لغيره، أو من غيره له. ولمّا كانت تلك الدواعي غائبة عن القلب كان حكمها حكمَ الغاسق، وهو ما اختفى في غسق الدُّجى،

---

١ ك ن: فإني.

٢ ن: لا نفهم.

٣ ك - وظلمة.

٤ السرداب: بناء تحت الأرض للصيف (تاج العروس للزبيدي، «سردب»).

٥ قال الأزهري: العقاقير الأدوية التي يُسْتَشفى بها. قال أبو الهيثم: العقاقير كل نبت ينبت مما فيه شفاء. قال الجوهري: والعقاقير أصول الأدوية، والعُقّار عشبة ترتفع قدر نصف القامة (لسان العرب، «عقر»؛ وتاج العروس للزبيدي، «عقر»).

٦ ش ك: عن.

وغسقُ الليل ظلمتُه. فتلك الدواعي موجودة في قوة الإنسان غير ظاهرة له بالفعل بل هي بالقوة، فإذا دخلت القلبَ ظهرت. فأمر الله بالاستعاذة منها حين ما تدخل، لأن من ذلك الحين إما أن تنصرف[١] وإما أن تستولي. فهو وقت الاحتياج إلى الاستعاذة[٢] والاستعانة بالله ليَصرف شرها أو يصرفها إن كانت كلها شرا. فإنه تعالى خلقها في العبد كامنة ليبتليه بها حين دخولها إلى قلبه، وأمره بصرفها والاستعاذة به من شرها. فهي من جملة[٣] خصائص الإنسان ومقوِّمات ذاته من حيث هو إنسان. فحكمه حكم شجرة فيها ثمر طيب وخبيث. وهو قبل أوان ظهوره كامن، فهو غاسق. وهذه الشجرة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾،[٤] تم كلامه.

ولا شك أن هذا التأويل وغيره يدخل في عموم ما قدمنا بقوله: **ومن شر غاسق**. والمفهوم من كلام هذه السورة أن قوله تعالى: **من شر ما خلق**، دليل على ما قد خلقه في الماضي وكان، وقولَه: **ومن شر غاسق**، دليل على المستقبل وهو ما هو في[٥] ظلمة العدم. **إذا وقب**، إذا دخل إلى الوجود بمعنى إذا وُجد. فكأنه قال: من شر ما خلقه ومن شر ما لم يخلقه مما سيخلقه، ولهذا قال: **إذا**.

[**ومن شر النفّٰثٰت فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد**] وقرن السحر بالحسد إعلاما أن هذين أثران من آثار النفوس الشريرة ينبغي أن يُستعاذ بخالقهما منهما. وتكون الإشارة بالكلمتين الأوَّلتين إلى آثار / الوجود، وبالكلمتين الثانيتين إلى آثار النفوس، إذ [٥١٧ظ] ليس في الوجود إلا ما خلق أو ما سيخلق. فعلّمنا الاستعاذة من شره حين ما يخلقه. وذلك بقوله: **إذا**، فهو إشارة إلى مبدإ الحين الذي به يقع الوقوب أو النفث[٦] أو الحسد. وهذا يدل على أن الضرر يبتدئ من حين ما يحسد الحاسد، أعني مبدأَ حسده. ولهذا نبّه الله سبحانه على ذلك وأمر بالاستعاذة منه في ذلك الحين. ولهذا يجب الكتمان من كل مَن[٧] ربما حسد حتى مِن الأهل والولد. ويجب إخفاءُ كلّ شيء ربما يُحسَد المرء عليه.

وقوله: **ومن شر النفّٰثٰت فى العقد**، يريد الساحرات كلما عقدن عُقدة نفثْنَ نَفْثةً أو أكثر. وفضيلة النفث تليين العقدة لئلا تنحلّ،[٨] أو ليصعب انحلالها ويقوَى شدُّها.

---

١ ن: أن تنصر

٢ ك ن: إلى الاستعارة.

٣ ش – جملة.

٤ سورة إبراهيم، ٢٥/١٤.

٥ ن – في.

٦ ك ن: والنفث.

٧ ن – من.

٨ ك ن: لئلا ينحل.

وقيل: إنهن يفعلن الفعل[1] ويتوهمن الضُّرّ به قطعا جزما، فيحصل الأثر فيمن يستحقه بنفس جزمهن بما توهمنه، لأن النفوس تَكتسي بقوة التوجه إلى الشيء أو صدقِ[2] القصد الشديد له قوةً مؤثرة. ومع هذا فلا يصح أن يَحدث مع ذلك أثرٌ إلا على وجه الجزاء أو حكم[3] الابتلاء. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.[4]

وفي هذه السورة تعليم عظيم للإنسان. فمن ذلك تنبيه على الالتجاء إلى ربه ليعيذه مما استحقه من الشر بذنبه. وفيها إنباءٌ عن كرم الله على الإنسان، إذ يدفع عنه بالقول ما قد استحق أن يقع عليه بالفعل من شر الماضي والمستقبل مما في الوجود ومما في النفوس الشريرة. وفيها إخبار عن أن الاجتهاد نافع، وأن العبد مختار غير مجبَر، وأن له تمكنا من أن يدفع الشر عن نفسه بقوله، وأن الله أعلمه بما في قدرته لنفسه، وعلمه كيف يقول وأمره أن يقول. فإذا قال العبد فعل الرب. وإذا كان للإنسان تمكنٌ مِن أن[5] يدفع عن نفسه بقوله فكيف لا يدفع عنها بفعله. فافهم واعلم أنه لمّا كان شر الحسد عظيما ذكره الله بالفعل الذي وقع في أول بني آدم، وذكره بالقول في آخر الكلام الذي أنزله هدًى لسائر العالَم. ولم يبق بعده في القول إلا الوسواسُ الذي كان قبله بالفعل في أول الوجود، وهو قصة إبليس مع آدم، إذ وسوس إليهما ليبدي لهما،[6] فافهم. وقال الكرماني في تفسيره المسمى بالغريب العجيب يشرح المرادَ بالنفّاثات قال: الإشارة ههنا هي إلى ما عقد الفتى بقلبه من ترك المحرَّم.[7] فإذا تكلمن المِلاحَ انحلّ القعد بنفثهن. وهذا وإن لم يكن مقصود الآية ظاهرا فهو من لب المقصود لزوما، لأنه هو السحر الأقوى جذبا، والأسلَب للناظرين لُبّا. ومن هذا الباب قيل عن الجفون: إنها ساحرات، وإنها تَحُلّ عُقَد العزائم، كما قيل تمثيلا.

سَيّافةُ اللّحَظات يغدو طرفُها ... بالسحر في عقد النُّهى[8] نفّاثا.[9]

وقيل:

السالبات الفتى عزيمته بالسحـ ... ـر والنفاثات في عُقَده.[10]

---

١ ن – الفعل.
٢ ش: وصدق.
٣ ن: وحكم.
٤ سورة البقرة، ١٠٢/٢.
٥ ش ك – أن.
٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ (سورة الأعراف، ٢٠/٧).
٧ غرائب التفسير للكرماني، ١٤١٢/٢.
٨ جميع النسخ: الفتى.
٩ شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي، ١٦٨/١.
١٠ لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

ومثله:

وساحرةٍ أجفانها في قلوبنا ... بنَفْثَتِها[١] حلّت عقودُ العزائم،
وفي عقد هاروتَ وماروت نَفْثُها ... بسحر رقاةٍ[٢] يومَ بعثِ العوالم،
/فحقٌّ لنا أن نستعيذ من الهوى ... ومِن سحرِ أحداقٍ ونَفْثِ مَبَاسم.[٣] [٥١٨و]

أثبتُّ هذا ههنا تنبيها على عظم شر ما يَعرِض عنه ووجوبِ بذل الجهد والمبالغة في الاستعاذة منه. فليعلم بنو آدم من أيّ باب خرج منه[٤] إبليسُ إلى العالَم. فإن الجسم كالزَّنْد،[٥] وكمون النار فيه لا نفع لها ولا ضرر إلى أن ينقدح بالحركة الشررُ. فإن قارنها العقل أثار الظُّلَمَ، وأثار الحِكَمَ، وأبان عن الأضداد، وألان الجهاد، وأنال المراد. وإن قاربها الجهل أظهر الفساد، وأحرق الأجساد، وأهلك العباد. وبقي كذلك في المعاد وهو على حاله يزداد. فاستمع للمثل، واجتهد في العمل، واستعذ برب الكل من شر الحسد، ومن شر حاسد إذا حسد. وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر هذه الأشياء لأنه أعلم بما يجب على الإنسان أن يستعيذ بربه من شره. ونبّه على أن المستعيذ بصدق النية يعيذه الله فلا تضره هذه الأشياء. وجاء الكلام خطابا لسيد الأمة تنبيها لها أنه إذا كان هذا مع جلالة قدره قد أُمر بهذا الأمر فبالأولى غيرُه من الناس. «وكان صلى الله عليه وسلم يلقّنها الحسنَ والحسين رضي الله عنهما».[٦]

---

١ ن: بنفيها.
٢ ك ن: رقاه.
٣ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٤ ش ك :منهم.
٥ الزَّنْد: العود الأعلى الذي تُقْدَح به النار، والأسفل هو الزندة (المعجم الوسيط، «زند»).
٦ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر المعتبرة.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾

قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس من شر الوسواس. الوسوسة حديث النفس بما هو، كالصوت الخفي. وأصل الوسوسة كثرة الكلام، يقول الشيء وضدَّه ليقع الموسوَس في ضده، ولذلك يسمى المصاب بعقله إذا أكثر الهذر موسوسا. واعلم أن النفس لا تزال تتحدث بالشيء وضده، وليس عليك أن تجيب. بل كما يحدّثك إنسان في صلاتك قد حرُم عليك أن تجيبه،[1] وليس عليك أن تمنعه. فكذلك فادفع حديث النفس في الصلاة وغيرها. فالنفس إذا وقف بها صاحبها مع صفة عادت الصفة من خصائص تلك النفس. فإن كانت خيرا فتلك نفس ملكية، أو شرا فشيطانية. والشيطان عبارة ههنا عن الوسواس؛ وإنْ قلنا: إنَّ الوسواس فَعَله، فإنما[2] نسبناه إلى الشيطان ليعرف[3] بجهة. ولهذا عرّفه ههنا بقوله: **الخناس**، وهو الذي يستتر فلا يرى، وإنما يُرى أثرُه.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

وبيّنه بقوله: **الذى يوسوس فى صدور الناس**، أي سائرُ الناس[4] لهم هذه الحالة من أنفسهم لأنفسهم، ومن بعضهم لبعض، ومن جهة الجن كما بيّنّا في سورة الجن. فليس المستعاذ منه الجنَّ بل الوسواسَ الذي يكون في صدر كل أحد. ثم ذلك الوسواس قد يكون من جهة الجِنّة كما نبين، ومن جهة الناس. ويقال: خَنَس الوحش إذا اختفى بعد ظهوره. ومنه الْخُنَّسِ.[5] والمراد أنه إذا ذُكر الله خنس كأنه عُدِم. ولمّا عرّفنا أن هذا الوسواس هو في الصدور لجميع الناس أشار إلى أنه قد يكون من الجنة،

[1] ش – بل كما يحدثك إنسان في صلاتك قد حرم عليك أن تجيبه.

[2] جميع النسخ: وإنما.

[3] ش ك: ليتعرف.

[4] ن – وإنما يرى أثره وبينه بقوله الذي يوسوس في صدور الناس أي سائر الناس.

[5] ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ (سورة التكوير، ١٥/٨١).

وقد يكون من الناس. فكأنه قال: أعوذ مما يوسوس جِنًّا كان أو إنسا. ويدخل في قوله: من الجنة، ما هو مستجنّ فينا، ويلتحق بذلك المزاج وغيرُه من كل مستجنّ من سر وضمير لشر. وينضاف إلى ذلك ما هو في الخارج كالحية والحشيش وغيرهما مما هو مُسْتَخْفٍ عنا إما لغفلتنا عنه، أو لغيبته عنا. وقوله: والناس، أي ومن جهة الناس. ويدخل في ذلك العِشقُ وما يلقاه[1] بعضُ الناس في القلب من أفعال وأقوال توجب الوسوسة. فقوله: من الجنة، يُعلَم من قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ.[2] وقوله: والناس، يعلم من قوله تعالى: وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ.[3] ولمّا كان ما يحدث من شر الوسواس قد يكون من الجنة، أو من الناس، أو منهما معا، وقد يكون عائدُ ذلك الشرِ إنما هو من المستعيذ على نفسه، أو منه على غيره، أو من غيره عليه، / أو من غيره على غيره، أو منهما معا بصورة، أو بصورة متفقة أو مختلفة جاء لفظ القرآن مطلقا ليَعُمّ، ويحتمل سائر الصور، فافهمه. [٥١٨ظ]

وقد علمت أن الفكر يتقدم على كل قول وفعل من خير وشر. فمن هذه المنزلة يجب أن لا تربط خاطرا فتمضيَ منه إلا ما أمضته الشريعة. فهذا مبدأ كسب القلب الذي يؤاخذ الله عليه، أعني ربط أول خاطر، وهنا هو الإنسان، أعني به الرابط. فاعرف[4] منزله، فإنك لا تطيق أن تعرف حقيقته، ولا حاجة لك بمعرفتها بل بمعرفة كسبها. وقد عرفت بابه ولا سبيل إلى غلقه، إذ لولاه لم يتنزل الأمر ولم يحصل الأجر. وإنما السبيل إلى ربط أحدِ الخاطرين ميسّر لك ومفوَّضٍ إليك. وبعد ذلك يقع الإمداد من الله، كقوله: كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ.[5] وبهذا الربط الأول الذي عليه المعوَّل قيل: إن الإنسان يُمكنه أن يَلبِس ما شاء من سائر الصُّوَر المخلوقة؛ أعني يتّصف فيلبس بصفته وخُلقه صور معاني المَخلوقات، كالغضب من الأسد، والشهوة من الخنزير، والمحاكاة من القِرَد. وكذلك من كل موجود، لأن الإنسان فيه مثال الكل، وفيه أعلى من الكل. وإنما خُلق الكل من أجله، فخُلق لنفسه وخلق له غيره مما قل وجلّ، وخفي وظهر ليَرى إياه بنفسه وبسواه،[6] ويتصلَ إلى مولاه به وبنفسه وبكل ما عداه.

---

١ ش: وما يلقيه.

٢ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ (سورة الأعراف، ٧/٢٠).

٣ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (سورة ق، ٥٠/١٦).

٤ ن + به.

٥ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٢٠).

٦ ك ن: وسواه.

وأعني باتصاله بمولاه الاتصالَ إلى رضاه الذي ليس إلا ما يعود على إياه في دنياه وأخراه. فكلٌّ إما له أو عليه، والأمر في ذلك إليه.

ومما يُمكن أن يقال في ضرب المثال: إن الرابط مركز، والمُمِد أمامه والمضِلّ وراءَه، والباقي يمينه والفاني شماله. فمتى توجه إلى جهة فقد استدبر ضدها؛ فهو في كل طرفةِ عين وكل معية وأينٍ ذو بقاء في رُقيّ، أو شفاء في هُوِيّ. وبابَ الهدى والضلال، والعلو والاستفال بيّنّاه قبل المثال بأوضح المقال. وهو الذي عليه المعوَّل، أعني ربط الخاطر الأول. ففي سائر الأنفاس، **قل أعوذ برب الناس**. فمن ههنا ظهرت عجائب الإنسان في هذا العالم، وهنا منبت الشجرة ومَهبِط آدم. وتكرار السيئة يغير[١] طباع النفس وكذلك بالعكس. فأول ما تكون نفسا فتعود شيطانا. والفرق بينهما أن الشيطان إذا دعاك إلى محظور فخالفتَه ترك ذلك، ودعاك إلى محظور آخر، لأنه لا غرض له إلا أن يوقعك في زَلّة، وهو قوله: فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ.[٢] وأما النفس فهي تدعو إلى حظها ولا تنصرف عن ذلك منتقلة، بل تقف فيه ما شاء الله، ولا تَقْلَع إلا بمجاهدة قاسرة. ففي أول الأمر تكون الهواجس للنفس، فإن أُهملت صارت شيطانا. فاعرف الآن من الشيطان المأمور بالسجود للإنسان في كل طرفة عين، فقد فهمت كيف يكون إنسانا ويكون هو بعينه شيطانا. ومن جاهد نفسه ولم يتبرأ من حوله وقوته ملتجِئًا[٣] إلى الله تعالى لم تتمَّ مجاهدته وعن قريب سيقع. وإذا علم الله سبحانه صدْقَ التجاءِ عبده[٤] إليه والاستعانةِ به أعانه، لأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه بقوله: وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.[٥] تمت سورة الناس والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

١ ك: بغير.

٢ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٦).

٣ ن: ملجئا.

٤ ن: عنده.

٥ سورة العنكبوت، ٢٩/٦٩.

[وصية المؤلف رحمه الله إلى الناظر في تفسيره]

قال المؤلف وفّقه الله وأحسن إليه في الدنيا والآخرة: وبعدَ أن سهّل[1] الله بضروب نِعَمه نَجَازَ هذا الكتاب فإني أوصي الناظر فيه بالتقوى وأن يستشعر التقوى فيما يعتقده في القرآن وفيما عناه الله بآياته. وأسأله الاستغفار / والدعاء لي ولجميع المسلمين، وأن [٥١٩و] لا يَعْجَلَ بالجزم في تصديق ما يراه من كلامي إلا بعد تحقيق صحته ولا في تكذيبه إلا بعد ثبوت الدليل. فلقد بينت فيه وذكرت ما من أجْله سميتُ هذا الكتاب كشف الأسرار وهتك الأستار.

وأقول للناظر فيه: قد أثبتُّ لك كثيرا من الوصايا فيما يتعلق بك وفيما يتعلق بالتفسير، فلا تقفْ مع بعض ما أَوصيتك[2] دون بعض. فلم أجمع الوصايا بل ذكرت كلّا في موضعه اللائق به، ليكون مبيّنا للآية وإن كان نفعُه عائدا إليك[3] أو نافعا لك وإن كان مبينا للآية.[4] وكذلك ذكرت تفسير بعض الآيات مختصرا. وبسطت ما يتعلق بتلك الآية في أختها المماثِلة لها بَسْطا، لو ذكرته في الأولى ضاع المقصود بالأولى. والذي لم يتبين لي حقُّ البيان نبّهت عليه بقولي: "والله أعلم". ونبهت على اللطائف والدقائق والنُّكَت العجيبة بقولي: "فافهم"؛ وعلى ما أريد تعريفه فقط بقولي: "فافهم ذلك"؛ وعلى ما فيه تحذير بقولي: "قف وتأمل"؛ وعلى مواضع الحِكَم والنصائح والوصايا بقولي: "ويجب أن تعلم، فلا تُهمل ما قلتُه في مواضعه". ولقد نبهتك على أمور إن فَطَنت لها بوعي لا يكدّره هوًى رأيتَ بما قلتُه ما لم أُطِق العبارة عنه. وفتحت لك أبوابا من الأمثلة لتفهم بما قلتُه ما لم أقُله، لأن القرآن لا تنقضي عجائبُه.[5] وربما شَذّ عني بعض المعاني، أو لم يَشُذّ في بعضها، لكني أهملت بيانَه في ذلك الموضع

---

١ ن: أن أسهل.

٢ ك ن: ما أوصيته.

٣ ك ن: عليك.

٤ ك – وإن كان نفعه عائدا عليك أو نافعا لك وإن كان مبينا للآية، صح هـ.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم، عن علي رضي الله عنه: «ألا إنها ستكون فتنة.» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتينُ، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه...» (سنن الترمذي، فضائل القرآن ١٤).

إما لاعتقادي ظهورَه للفهم، وإما لكوني أرى تأخيره إلى آخر السورة، أو إلى سورة هي أليق بذكره فيها. فانظر في مثل تلك الآية ولا تقتصر على النظر في مثلها فقط بل في جميع أمثالها تجدْ إن شاء الله إما من كلامي في موضع، أو في مواضع.

وربما عبّرت عن بعض المعاني بعبارة ركيكة، أو ناقصة، أو معارِضة، أو مردودة فعَبّرْ أنت لنفسك ولمن تختار بما تراه إذا فهمتَ المعنى بكلامي أو بكلام الله. فإني كنت أُبادر الوقت فأكتب من غير توقف ومراعاة لِما عسى أن يشتبه من الألفاظ، ومن غير مُسْوَدَّة إلا في بعض المواضع. وهذا إنما كنت آتي به في الكلام على الحِكَم. وأما في الكلام على الأحكام فلم أترك من مجهودي شيئا، بل أثبتُّ من البيان بحسب الإمكان. وأما ما يتعلق بالحكمة الفلسفية مما لزمني أن أتكلم فيه، ففيه مواضعُ ليست على قواعدهم، لأني عدلت عنها عمدا، إذ لم يكن مقصودي بيانَ ما هم عليه إلا لأنقضه بالشريعة، فلم أعبر بعبارتهم إلا قليلا، وأوضحت لكل ما نقضتُه من كلامهم بكلام الله دليلا.

وأما التصوف فإني ذكرت فيه فصولا نافعة جدا. فإن أشكل عليك شيء منها فرُدَّه إلى عالمه. فكل قوم لهم لسانٌ. على أنني لم أذكر شيئا إلا وقد أوضحته إما في موضعه، أو في موضعٍ مثله. وضربت في بعض المواضع أمثالا وصرّحت بكلام لا يَحسُن في الأدب استعمالُه، لكني رأيت أنه لا يُجدي في باب التعريف غيرُه، فاستعملته كاستعمال الحرام في موطن الاضطرار غيرَ جاهل به ولا باغ ولا عادٍ.[1] وكذلك في الكلام على الصفات وما يتعلق بالبارئ تعالى. ومن نظر حقَّ النظرِ لم تَخْفَ عليه مقاصدي فيما جئت به من ذلك.

ولقد أبقيت لك في كثير من المواضع ما إذا فكرتَ فيه عرفتَه من نفسك إذا سلكت سبيلَ الاجتهاد في معرفته بما نبهتك به. ولا تظُنَّ أنني قلت كل ما يجب قولُه، إذ لا طاقة لي بذلك، ولكنني قلت ما استطعت من غير كتمان ولا ميل. وأنا أستغفر الله من سوء النظر، وأعوذ به من ركوب ما قد أرتكبته من الخطر. ولا أقول لأحد: قلّدني. فلست مقلِّدا فيما أمكنني أن لا أقلِّد فيه. وأنا بريء / من إثم مقلِّدي، فلا أراني لذلك [٥١٩ظ] أهلا. ومن كان ذا نظر فلينظر، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.[2]

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، ١٧٣/٢).

[2] سورة الكهف، ٢٩/١٨.

وإني أسأل الله أن يعينني على العمل بما علّمني ليكون ما وصل مِن علم هذا الكتاب إليّ حجة لي لا عليّ، فقد اتضحت المحجة وقامتِ الحجة. وأسأله المغفرة وحسن الخاتمة لي ولجميع المسلمين. والحمد لله رب العالمين. وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

هذه أبيات بحكم الوصية

متى أراني وقد ألقيت أثقالي ... وقد بلَغْتُ بكم سؤلي وآمالي،
وقد قطعت إلى الرضوان نحوَكم ... هولَ الصراط وحالي بعده حالي،
وقد عَبَرْتُ إلى دار الفراغ بكم ... وقد تجاوزتُ فيها كلَّ أشغالي،
وقد وقفتُ فوق وصف الواصفين له ... وفوق ظني وأقوالي وأفعالي،
ولا سواك يُري أن السِّوى حُجُبٌ ... في المنزلين وأمثالٌ لأمثالي،
وقد تعاليتَ عن كنه الحلول وعن ... معنى المثال بأفكار وأقوال،
وأنت في الكل تدعو الكل نحوك مِن ... كلّ بكل فأين المنزل الخالي،[1]
وفي كتابك ما يغني ولو علِموا ... لَشاهدوا دَانِيًا فيه هو العالي،[2]
وقد كشفتُ لهم سرّا رفعت به ... سِترا هتكتُ به أستارَ جهال،[3]
يا أيها العالم الريّان من عملٍ ... ومن يعنعن عنه حلَّ إشكالي،[4]
صُنْ ما ترى فدماءُ[5] البائحين به[6] ... تُبَاحُ فاكتُم لحفظ الروح والمال،
واختر لذلك من يُرضيك تجربةً ... واحذر يَغُرّك حبُّ القيل والقال،
فقد تجرّعتُ صبرا ثم أعجزني ... إصلاحُ أفهامِ أغمارٍ وأغفال،
وقد نطقت بما يكفي فكن فَطِنا ... والصمتُ من بعدُ أولى بي وأولى لي،
أستغفرُ الله مما قلته خطأ ... وما أَقول وما أُجريه في بالي،
والحمد لله حمدا دائما أبدا ... في كل آن وبَعدَ الآن والحال،
كذا الصلاة على المختار سيدنا ... محمد وعلى الأصحاب والآل.

* * *

[1] ن: الخال.
[2] ن: العال.
[3] ش: جهالي.
[4] ن: إشكال.
[5] ش ك: قدماء.
[6] باح الشيء: ظهر. وباح به: أظهره (لسان العرب، «بوح»).

قال المؤلف وفّقه الله: بدأتُ بجمع هذا الكتاب من سنة خمس وستين وستّمائةٍ بالشام المحروس. وكمّلت منه نسخة في تمام[1] سنة تسع وستين. جمعت فيها كل ما أشكل عليّ، وكلَّ ما أريد تحقيقه والبحثَ عنه. ثم نظرت فيه متأملا ومغيِّرا إلى آخر سنة[2] ثلاث وسبعين. ثم انتقلت إلى الديار المصرية فأصلحت منه ما رأيت إصلاحه، وزدت ونقصت وبينت ما بان لي من مشكلاته بعد البحث والمطالعة البالغة في نَيِّفٍ وخمسين كتابا من كتب التفسير، رأيت من ذلك بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة ستة وثلاثين كتابا. ومن ذلك التفسيرُ المعروف بالمحيط خمسة وسبعون مجلدا. لم أُبقِ مشكلا أشكل علي إلا كشفت عنه في كل كتاب من هذه الكتب. ووفّيت البحث فيه حقه بجُهد طاقتي. وذلك إلى سلخ سنة ست وسبعين. وكنت لا أنفكّ ليلا ونهارا إما مطالعا أو مفكِّرا على كل حالة وفي كل مكان بحيث لو أردتُ غير ذلك لم أقدر [عليه]. وهذا الحال في جملة المدة المذكورة. ثم عدت فيه سبع مرات في سبع سنين، كلَّ مرة يفتح الله على قلبي من فضله ما يشاء مضافا[3] / إلى ما أجده من كتب [٥٢٠و] التفسير، أو[4] أسمعه من علمائه. ثم لما رأيته قد قرب من الحالة التي ينبغي من أجلها أن أبيِّضه، ولكني لم أكن جازما بصحة كل ما جئت به فيه بل بعض ذلك يحتاج إلى نظر خِفتُ أن يَبْغَتَني الموتُ فأُسأَلَ عن تأخير تبييضه، فبيضته على حاله. ويكون لأولي النظر فيه حسنُ النظر معي أو من بعدي، فاستخرت الله تعالى. وكان الفراغ من تبييضه في جامع الحاكم بالقاهرة المحروسة في نصف رمضان المعظَّم سنة ست وثمانين وستمائة. أحسن الله الخاتمة لكاتبه وقارئه وسامعه وجميعِ المسلمين آمين. والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

١ ن: في عام.

٢ ش – سنة.

٣ ك – مضافا، صح هـ.

٤ ن: أم.

Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 766-1
İSAM Yayınları 227
Klasik Eserler Dizisi 37

KEŞFÜ'L-ESRÂR ve HETKÜ'L-ESTÂR
Yûsuf b. Hilâl es-Safedî

Cilt 4

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma
İlmî kontrol Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.
İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz, Orhan Ençakar
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
Tashih (Arapça) Orhan Ençakar, Okan Kadir Yılmaz
(Türkçe) İsa Kayaalp, İsmail Özbilgin
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, Hasan Hüseyin Can (Kapak),
Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Sema Doğan

Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayımlanmıştır.
Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
21.12.2018 tarihli ve 2018/18 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: İstanbul - Beyrut, Mart 2019 m. / 1440 h.
Üçüncü Basım: Ankara, Ağustos 2023 m. / 1445 h.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.)
978-625-7672-73-3 (4. Cilt)

Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostım OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr [كشف الأسرار وهتك الأستار] / Yûsuf b. Hilâl es-Safedî ; tahkik Bahattin Dartma. 3. bs. – İstanbul ; Ankara : İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) ; Türkiye Diyanet Vakfı, 2023.
Dördüncü Cilt, 658 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 766-1. İSAM Yayınları ; 227. Klasik Eserler Dizisi ; 37)
Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.) 978-625-7672-73-3 (4. Cilt)

İSAM
TÜRKİYE DİYANET VAKFI
İSLAM ARAŞTIRMALARI MERKEZİ
مركز البحوث الإسلامية

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
(ö. 696 h. /1296 m.)

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma

İlmî Kontrol
Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Dördüncü Cilt

TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi, Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamı ştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahraaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.,

---

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usulünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, I-II, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; 2022
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; 2022
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi: Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ - Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkıtî), 2020
Sığnâkî, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Ali Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhulislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. M.T. Boyalık, A. Aytep, Z. el-Kalış, M.İ. el-Nabulsî), I-IX, 2021
İslam İlim Geleneğinde Nevevî (ed. Nail Okuyucu), 2022
Necmeddin Yûsuf b. Ahmed el-Hâsî el-Hârizmî, *el-Fetâva's-sugrâ* (thk. Abdulhalik Uygur), I-II, 2022
Tenkitli Neşir Kılavuzu (Osmanlı Türkçesi Metinleri İçin) (haz. B. Açıl, S. Yazar, K. Turgut, Ö. Kavak), 2022
Hamza b. Turgut Aydınî, *el-Hevâdî fî şerhi'l-Mesâlik* (thk. Ali Bulut), 2022
Mustafa Ateş, *Bir Osmanlı Fakihi İbn Âbidîn*, 2022
İbrâhim b. Mustafa el-Halebî el-Medârî, *el-Lüm'a fi'l-hudûs ve'l-kıdem ve'l-kazâ ve'l-kader ve tahkîki't-teklîf* (thk. Münzir Şeyhhasan), 2022
Şemseddin İbn Tolun, *el-Gurefu'l-aliyye fî terâcimi müteahhirî'l-Hanefiyye* (thk. Ali es-Seyyid Abdüllatîf), I-III, 2023

Keşfü'l-esrâr
ve hetkü'l-estâr

ISBN 978-625-7672-73-3
9 786257 672733
ISBN 978-625-7672-69-6
9 786257 672696